المركز القومي للترجمة

سنكلير لويس

أرُو سميث

ترجمة: محمود عزت موسى

مراجعة: علي جمال الدين عزت

ميراث الترجمة

1332

المشروع القومي للترجمة

أُروسميث

المركز القومى للترجمة

إشراف: جابر عصفور

سلسلة ميراث الترجمة

المشرف على السلسلة: طلعت الشايب

- العدد: ١٣٣٢ / ٢
- أرُوسميث
- سنكلير لويس
- محمود عزت موسى
- على جمال الدين عزت
- ٢٠٠٩

هذه ترجمة كتاب:

Arrowsmith

by: Sinclair Lewis

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومى للترجمة.

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ – ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524-2735426 Fax: 27354554

أروسميث

تأليف: سنكلـــير لـــويس

ترجمة: محمـود عزت موســى

مراجعة: علي جمال الدين عزت

٢٠٠٩

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

لويس، سنكلير
أرُوسميث؛ تأليف: سنكلير لويس، ترجمة: محمـود عـزت موسى، مراجعة: على جمال الدين عزت، القاهرة: المركـز القومى للترجمة، ٢٠٠٩م.
٥٩٨ ص؛ ٢٤سم
١- القصص الأمريكية
أ- موسى، محمود عزت (مترجم)
ب- عزت، على جمال الدين (مراجع)
ج- العنوان ٨٣٢

رقم الإيداع: ١٠٣٠٨ /٢٠٠٩
الترقيم الدولى: 5- 254- 479- 977- 978
طبع بمطابع مصر للطيران

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

الفصل الأول

كانت سائقة عربة النقل، التى تمايل وسط غابات ومستنقعات أوهيو الموحشة، فتاة رثة الثياب فى الرابعة عشرة . . كانت أمها قد واروها الثرى بالقرب من مونجاهالا ، وكانت الفتاة ذاتها قد وضعت أكداساً من الحشائش الخضراء على المقبرة القائمة إلى جوار النهر ذى الاسم البديع . . . وكان والدها يرقد مرتجفاً من الحمى فى قاع صندوق عربة النقل ، ومن حوله أشقاؤها وشقيقاتها ، هؤلاء الصبية الأغرار ذوو الثياب المهلهلة ، وأوقفت الفتاة العربة عند المفترق فى ذلك الطريق المكسو بالحشائش .

وقال الرجل المريض فى نبرات مرتجفة :

« إيمى ، من الأفضل أن تعرجى بالعربة نحو سينسيناتى ، فإذا استطعنا أن نجد عمك أد ، فأحسب أنه سيأوينا عنده » .

فقالت : « ما من أحد سيقبلنا لديه ، لنمضى فى طريقنا على قدر الإمكان إلى الغرب . . . فهناك أشياء وطلائع جمة بودى أن أراها » .

ومضت فهيأت طعام العشاء ، ووضعت الأطفال فى فراشهم ، وجلست على مقربة من النار وحدها . .

تلك كانت الجدة الكبرى لمارتن أروسميث .

— ٢ —

جلس الغلام مارتن أروسميث على مقعد الكشف فى عيادة الدك فيكرسون . كان يضع ساقاً على ساق وهو يقرأ كتاب « علم التشريح لجراى » وكان هذا الغلام

من بلدة الك ميلز فى ولاية ويماك ، وهى عبارة عن قرية ريفية بسيطة مبانيها من الآجر الأحمر ، وتفوح من أرجائها رائحة التفاح . وفى عام ١٨٩٧ كان يسود الشك فى أن ذلك المقعد المتحرك الداكن الجلد قد استهل حياته مقعداً للحلاقة . أما الآن فيستخدمه « الدك فيكرسون » فى إجراء العمليات البسيطة، وأحياناً نادرة فى خلع الأسنان، كما يستخدمه فى إغفاءات النوم المتكررة المتوالية . وكان ثمة اعتقاد أيضاً أن صاحب هذا المقعد كان يدعى يوماً ما الدكتور فيكرسون ، ولكنه منذ بضع سنوات صار يدعى « الدك » فقط ، كما كان يتميز بأنه أكثر جموداً وأقل حركة من المقعد .

كان مارتن بن ج . ج . أروسميث الذى كان يدير « متجر نيويورك للملابس » . وصار مارتن وهو فى الرابعة عشرة من عمره المساعد غير الرسمى للدك عن طريق الصفاقة البحتة والتشبث المطلق . كما تم الاتفاق بينهما على ألا يتقاضى أجراً .

وبينما كان الدك يقوم بعيادة مرضاه فى أرجاء الريف كان الفتى يتولى شئونه . ولكن أية شئون كان يتولاها ؟ لم يكن فى مقدور أحد أن يجيب على ذلك .

كان مارتن نحيلاً ، غير فارع الطول . وكان شعره وعيناه الزائغتان سوداء اللون، أما بشرته فكانت ذات بياض غير عادى. وقد أكسبه هذا التناقض مظهر القدرة على التقلب العاطفى ، وكان حجم رأسه المربعة واتساع عرض منكبيه اتساعاً معقولا قد صاناه من أى مظهر من مظاهر التخنث أو ذلك الاستحياء الذى يتسم بالقلق والذى يسميه الفنانون من الشبان « حساسية » . وعندما كان يرفع رأسه منصتاً لحديث كان حاجبه الأيمن الذى يرتفع قليلا عن الأيسر يعلو ويرتعش رعشة تنم عن طاقته واستقلاله ، وتشف عن قدرته على المناجزة والنزال ، وكان غالباً ما يصوب نظرة تنم عن التساؤل الوقح مما كان يثير حنق مدرسيه والمشرف على « مدرسة الأحد ».

كان مارتن ، شأن معظم سكان « الك ميلز » ، قبل الهجرة السلافية الإيطالية ،

يمثل الطابع النقى للسلالة الأمريكية والأنجلوسكسونية . ويعنى ذلك أنه مزيج من الأجناس الألمانيـة والفرنسية والإسكتلندية والإيرلندية . وربما كان يسرى فى عروقه النزر اليسير من الدماء الأسبانية . زد على ذلك أنه ينتسب انتساباً كبيراً للسلالة الإنجليزية التى تعتبر فى ذاتها خليطاً من الأجنـاس البريطانية البدائية والـكلتية والفينيقية والألمانية والدنماركية والسويدية .

وليس من المؤكد أنه بالالتحاق بخدمة « الدك فيكرسون » كانت تحدوه الرغبة الخالصة فى أن يصير « نطاسياً بارعاً » . ومع ذلك كان يروع رفاقه بوضع الضمادات على الـكدمات وتشريح السنجاب وشرح الأسرار المذهلة لعلم وظائف الأعضاء. ولم يكن يخلو تماماً من الطموح بأن يستأثر بين أترابه بمثل هذا الإجلال الذى يستمتع به ابن الأسقف حين كان يدخن سيجاراً بأكمله دون أن يصاب بالدوار .

وأخذ مارتن بعـــــد ظهر ذلك اليوم يطالع فى إمعان الجزء الخاص بالجهاز الليمفاوى ، ويتمتم بالـكلمات الطويلة المدغمة تماماً ، فى همهمة جعلت الحجرة المغبرة أكثر تثاقلا وخمولا .

كانت هذه الحجرة تتوسط الحجرات الثلاث التى يشغلها «الدك فيكرسون» والمطلة على الشارع الرئيسى . وتقع هذه الغرفة فوق « متجر نيويورك للملابس » كما تقع حجرة الانتظار العطنة فى أحـد الجوانب ، وغرفة نوم « الدك » فى الجانب الآخر . أما « الدك » نفسه فكان أرمل ، مسناً لم يـكن ليأبه بما يسميه المآزق النسائية ، وكانت حجرة النوم بمكتبها المتداعى ، وسريرها الصغير ذى الأغطية العفنة لا يقوم أحد بتنظيفها سوى مارتن إبان نوبات نادرة من الاهتمام بالأمور الصعبة .

أما الغرفة الوسطى فكانت تستخدم فى نفس الوقت مكاناً لإدارة العمل ، وقاعة استشارة ، وغرفة للعمليات الجراحيـة ، وحجرة للجلوس ، وخلوة للمقامرة ،

ومستودعاً للبنادق وأجهزة صيد الأسماك . وفى مواجهة حائط الحجرة الداكن كانت توجد خزانة لمجموعة من الحيوانات المحنطة والطرائف الطبية الغريبة ، وإلى جوارها هيكل لإنسان له سن ذهبية وحيدة هزيلة كان مارتن يعتبره أفظع وأروع شيء فى الك ميلز .

وحين كان مارتن يود أن يثبت تفوقه على رفاقه المرتجفين كان يقودهم فى الظلام الدامس ويشعل عوداً من الثقاب الفوسفورى بأن يحكه فى فك الهيكل العظمى .

وعلى الجدار كان ثمة لوح مصقول ثبتت عليه سمكة محنطة من نوع البكريل. وإلى جانب الموقد الصدىء توجد مبصقة مرتكزة على قطعة بالية من القماش المشمع وعلى المنضدة المتهالكة وضعت كومة من فواتير الديون . وكان الدك يقسم دائما بأنه سوف « يحصل هذه الديون فوراً من أولئك الناس المنهوكى القوى ». ولكنه لم يكن يحصلها منهم على الإطلاق فى أية فرصة أو فى أى وقت، إذ كانوا على هذا الحال بالنسبة للطبيب المتخاذل فى البلدة الثرثارة منذ سنة أو سنتين ، عقد أو عقدين ، أو قرن أو قرنين .

وكان أكثر ركن فى الحجرة قذارة وتلوثاً مخصصاً لحوض غسيل من الحديد الزهر غالباً ما يستخدم فى غسل صحاف طعام الإفطار الملتصقة بها آثار البيض أكثر مما يستخدم لتعقيم الأدوات. وعلى حافة الحوض كانت توجد أنبوبة اختبار مكسورة ، وسنارة سمك محطمة ، وزجاجة حبوب مهملة خالية من اسم الدواء ، وكعب مرشوق بالمسامير ، وعقب سيجار مفروك ، ومبضع صدىء مغروز فى قطعة بطاطس .

كانت رثاثة الحجرة البالغة تعبيراً دقيقاً عن شخصية « الدك فيكرسون » إذ كانت أكثر فوضى من ركام صناديق الأحذية المرصوصة فى « متجر نيويورك للملابس » ، ولذا كانت مدعاة لتعجب مارتن أروسميث ومجالا لمغامراته .

— ٣ —

رفع الفتى رأسه، وعقد جبينه التساؤل، إذا كانت خطوات أقدام الدك فيكرسون الوئيده تصعد الدرج . لم يكن الدك ثملا ، ولذا فإن مارتن لن يساعده فى اوائه إلى فراشه .. ولكنها كانت علامة سيئة على ان الدك سيتجه أولا إلى الصالة ثم حجرة نومه. وأنصت الفتى بشدة . . . فسمع الدك يفتح الجزء الأسفل من المغسلة حيث كان يحتفظ بزجاجة من روم جاميكا(١). وبعد بقبقة طويلة خبأ الدك فيكرسون غير المنظور الزجاجة وأغلق الباب فى حزم بركلة من قدمه . ومع ذلك لا زالت الأمور على مايرام . كأس واحد فحسب . وإذا ما دخل حجرة الاستشارة على الفور فإنه سيكون فى مأمن . ولكنه كان لا يزال واقفاً فى حجرة النوم . . وتنهد مارتن عندما فتح باب المغسلة بسرعة مرة أخرى ، وهو يسمع صوت بقبقة الجرعة الثانية ثم الثالثة ، كانت خطى الدك أكثر حيوية عندما دلف إلى مكتبه . وكان عبارة عن كتلة رمادية آدمية ضخمة لها شارب كث أشيب أشهب ، كان ضخم الجثة يبدو كسحابة اتخذت للحظتها هيئة بشرية . وفى هجمة رشيقة لرجل يريد ان يتفادى مناقشة اثم أتاه ، أخذ الدك يزمجر ، بينما كان يتهادى صوب مقعد مكتبه .

« ماذا تفعل هنا أيها الزميل الصغير ؟ ماذا تفعل هنا ؟ اننى أعرف أن القط سوف يدخل إذا ما تركت الباب غير مغلق .. »

وازدرد ريقه بخفة ، وابتسم ليظهر انه كان فى حالة مزاح . وكان الناس قد عرفوا بأنهم يسيئون فهم روح الدك المرحة . وأخذ يتكلم أكثر جدية ، وأحياناً كان ينسى عن أى شىء يتحدث .

« تقرأ جراى العتيق ؟ حسن ذلك . مكتبة الطبيب تحوى كتباً ثلاثة فحسب: علم التشريح لجراى والكتاب المقدس وشكسبير . استذكر فربما صرت طبيباً عظيما ،

---

(١) مشروب روحى .

تقيم فى (زينيث) وتحصل على خمسة آلاف دولار فى السنة... كعضو مجلس الشيوخ الأمريكى سواء بسواء . ضع نصب عينيك هدفاً عالياً .. ولا يفلت منك شىء . أمعن فى تثقيف نفسك .. اذهب إلى الكلية قبل أن تذهب إلى مدرسة الطب .. أستذكر الكيمياء واللغة اللاتينية والمعرفة ، إننى طبيب مغمور ليس لى أهل ولا ولد .. لا أحد . سكير عجوز . أما أنت فطبيب المستقبل المختار، سوف تكسب خمسة آلاف دولار فى السنة . إن زوجة موراى قد أصيبت بالتهاب شغافى . وليس فى مقدورى أن أفعل شيئاً من أجلها إذ أنها تحتاج إلى شخص يساعدها ويأخذ بيدها . الطرقات ملعونة مشينة - هذه المجرى وراء الغابة الصغيرة بشعة .. التهاب شغافى و —

« واظب على الاستذكار والتثقيف .. ذلك أفضل ما ينبغى لك أن تحصله ... القواعد والأسس . معرفة الكيمياء .. علم الأحياء . وهذا ما لم أفعله أبداً . إن قرينة القس جونز تحسب أنها مصابة بقرحة فى المعدة وتريد أن تذهب إلى المدينة لإجراء عملية . قرحة ، ياللجحيم ، إنها والقس يأ كلان كثيراً . لماذا لا يصلحون تلك المجرى ؟ ولا تكن سكيرا مثلى ... وحصل علومك الأساسية » .

إن الصبى ، وإن كان مجرد غلام قروى حدث ، يلهو بحصب القطط واللعب المعتاد فقد لعب برأسه اقتناص كنوز المعرفة عندما كان الدك يحاول جاهداً أن ينقل تصوراته عن جلال التعليم، وشمول علم الأحياء والانتصارات المحققة للكيمياء .. كان الدك رجلا بدينا عجوزا ، قذرا ، غير صالح . وكانت لغته مشكوك فى نحوها وصرفها ، ومفرداته اللغوية بشعة مروعة ، وإشاراته إلى غريمه الطبيب الدكتور نيدهام شائنة ، مع أنه هيأ لمارتن صورة خيالية للكيماويات المتفجرة ذات الفرقعة الهائلة والرائحة الخبيثة كما أتاح له أن يرى الحيوانات الميكروسكوبية ، وهو أمر لم يتح لأى غلام فى الك ميلز .

كان صوت الدك قد أخذ يغلظ ، وكان غارقا فى مقعده ، وسنان متهدل العين ،

رخو الفم .. ولقد توسل مارتن إليه أن يأوى إلى فراشه ، ولـكن الدك لم يمتثل.

« لست فى حاجة إلى الإغفاء ، لا ... والآن انصت إلى ... إنك لا تقدر قيمة الأشياء ولـكنى .. وقد أصبحت عجوزا الآن ... أمنحك كل ما تعلمته . سوف أريك المجموعة .. المتحف الوحيد فى المقاطعة كلها .. رائد علمى » كان مارتن قد تطلع صاغراً مئات من المرات إلى النماذج الموضوعة فى خزانة الـكتب الداكنة المتشققة الطلاء : الخنافس والقطعة المـكعبة من الميكا والجنين ذو الرأسين وحصوة المرارة التى استخرجها من سيدة محترمة والتى لايفتأ الدك يردد اسمها لجميع الزوار فى شغف واهتمام .. وكان الدك واقفاً أمام الخزانة ، وهو يلوح بسبابته الضخمة المرتجفة .

«انظر إلى تلك الفراشة .إسمها العلمى « بورثسيا كرسوروبا » أن الدك نيد هام لا يستطيع أن يقول لك ذلك ، إنه لا يعرف ماذا تدعى الفراشات وهو لايأبه بتعليمك أو تمرينك . أتذكر الاسم الآن ؟ »

ثم التفت مارتن :

« هل أنت واع لمـا أقوله ؟ ومتابع القول ؟ هيه . . أوه الشيطان ، ما من أحد يعرف شيئاً عن متحف — لا أحد .. شخص واحد فى المقاطعة ولـكن — إننى عجوز فاشل — وأكد مارتن قائلا : « صدقنى إنها مهارة » التفت إلى ، التفت ، أترى هذا ؟ .. أترى ما فى الزجاجة ؟ إنها زائدة دودية .. وهى أول عملية من نوعها تجرى فى هذه المنطقة . أنا الذى أجريتها .. الدك العجوز فيـكرسون هو الذى قام بأول تجربة من نوعها فى هذا المـكان القصى .. أؤكد لك . كما أنه أول من أنشأ متحفاً. حقيقة أنه ليس متحفاً كبيراً ولـكنه بداية .. إننى لم أضيع أموالى هباء مثل الدك نيدهام ، ولـكننى بدأت بها تـكوين أول مجموعة .. أنا الذى بدأتها » . وتهاوى فى أحد المقاعد ، متأوها .

« إنك على حق ... يجب أن أنام ... لقـــد نام الجميع » ولـكن بينما

كان مارتن يساعده ليقف على قدميه ، انتفض متهافتاً على مكتبه وتطلع مرتابا خلفه قائلا :

« أريد أن أمنحك شيئاً — ابدأ مرانك وتذكر الرجل العجوز . أو سيذكر أحد الرجل العجوز ؟ » وأمسك بيده العدسة المكبرة الأثيرة لديه والتى طالما استخدمها لعدة سنوات فى دراسة النباتات . وأخذ يرقب مارتن وهو يدس العدسة فى جيبه ، فتنهد ، وحاول جاهداً أن يقول شيئا آخر ، ثم تحرك متثاقلا إلى فراشه فى صمت .

الفصل الثانى

تحد ولاية ويناك عيتشجان وأوهيو والينوى وانديانا ، وهى على شاكلتها نصفهـا شرقى ونصفها غربى متوسـط . وتتميـز بمسحة من نيو انجلاند فى بيوت قراها المبنية بالآجر وأخشاب شجر الجميز ، وصناعاتها المستقرة وتقاليدها التى تعود فى تاريخها إلى حرب الثورة . وقد قامت زينيث ، أكبر مدينة فى الولاية ، فى عام ١٧٩٢ .. ولـكن ويناك تعتبر من الغرب الأوسط بما تتميز به من حقول الحنطة والقمح ، وأجرانها وصوامعها الحمراء . وبالرغم من أن زينيث ضاربة فى القدم ، فإن كثيراً من بلدان الولاية لم تقم حتى عام ١٨٦٠ .

وتقع جامعة ويناك فى موهاليس على بعد خمسة عشرة ميلا من زينيث . ويوجد بها أثنى عشر ألف طالب . وإلى جانب هذه الجامعة العجيبة ، تقع أوكسفورد ، وهى مدرسة صغيرة لعلم اللاهوت ، وهارفارد ، وهى كلية عوذجية للشباب الراق . . وكان للجامعة ساحة للباسبول مغطاة بسقف زجاجى ، وتقاس مبانى الجامعة بالميل ، وهى تستخدم مئات من الدكاترة الشبان فى الفلسفة ليعطوا دروساً سريعة فى اللغة السنسكريتية والملاحة والمحاسبة التجارية وتركيب المناظر والهندسة الصحية والاشعار البروفنسية ، وقوائم التعريفة الجمركية ، وتصميم السيارات ، وتاريخ فوروتزه ، وأسلوب ماتيو أرنولد ، وتشخيص التضخم العضلى والشلل الـكيماوى ، والدعاية التجارية . ويعتبر مدير الجامعة من أحسن المديرين للمال ومن ألمع المتحدثين عقب حفـلات العشـاء فى الولايات المتحدة . وكانت ويناك أول معهد فى العـالم نسق توسيع برامجه التعليمية بواسطة الراديو . وليست هذه الجامعة من معاهد أبناء الذوات المتحذلقين المـكرسة للهو الفارغ . إنها ملك شعب الولاية وأن ما يريده أبنـاء هـذا الشعب — أو ما قيل لهم أنهم يبغونه — هو مصنع لتخريج رجال ونساء سوف يحيون حياة فاضلة ، يلعبون البريدج ، ويقودون السيارات الجميلة ، ينهضون بأعباء العمل ، ويشيرون

إلى الـكتب بين الحين والحين ، ولو أنه من غير المنتظر أن يـكون لديهم فسحة من الوقت لقراءتها . إنها أشبه بمصنع فورد للسيارات .. وإن كان إنتاجها ينقصه قليل من التجويد ، فإنها ذات مستوى بديع ، يمـكن تبادل أجزاء غيارها تماما . وفى كل ساعة تنمو جامعة وينماك من حيث العدد والنفوذ . ومع حلول عام ١٩٥٠ ربما يتوقع لها المرء أن تخلق حضارة عالية جديدة تماما ، حضارة أكبر ، وأنشط وأنق من ذى قبل .

— ٢ —

وفى عام ١٩٠٤ عندما كان مارتن أروسميث طالباً مبتدئا فى الآداب والعلوم يستعد للالتحاق بمدرسة الطب ، كانت جامعة وينماك تضم خمسة آلاف طالب ، إلا أنها كانت تشع حيوية ونشاطاً .

وكان مارتن فى الحادية والعشرين ولم يزل يبدو شاحباً ، على عـكس شعره الأسود الناعم ، لـكنه كان عداء مجلياً ومهاجماً ممتازاً فى كرة السلة ولاعبا عنيفاً فى الهوكى . وكانت بعض زميلاته يتهامسن بأنه « يبدو خياليا للغاية » ولـكن لما كان هذا قبل بدعة اختلاط الجنسين وعصـر الحفلات الرخيصة فإنهن كن يتحدثن بشأنه عن بعد فحسب . ولم يـكن يعلم أنه باستطاعته أن يـكون بطلا فى حلبة الحب ، إذ أنه مع كل عناده وبداوته كان حيياً ، ولم يـكن جاهـلا تماماً بضروب الغزل ، بيد أنه لم يشغل باله بهن . كان يزامل الرجال الذين كانوا يتباهون باكتمال رجولتهم بأن يدخنوا الغـلايين المهينة أو يرتدون الصدارى الصوفية القذرة .

صارت الجامعة دنياه .ولم تعد لالك ميلز عنده وجود. وكان الدك فيـكرسون قد مات ودفن ونسى أمره ، وكان والد مارتن ووالدته قد ماتا ، تاركين له قدراً من المال فيه الـكفاية لاستكمال دراسته الأدبية والطبية . كان مأربه دراسة الـكيمياء والطبيعة ومطمحه فى العام القادم دراسة علم الأحياء . وكان مثله الأعلى البروفسور

ادوارد ادوادز رئيس قسم الكيمياء ، والذى كان معروفا عند الجميع باسم «انكور» . كانت معرفة ادوارد بتاريخ الكيمياء واسعة الآفاق . وكان يستطيع أن يقرأ اللغة العربية . وقد غضب زملاءه الكيماويين باثبات أن العرب سبقوهم جميعاً فى مضمار بحوثهم . وبالنسبة للبروفسور ادوارد فإنه لم يقم شخصيا بإجراء أبحاث البتة . كان يجلس أمام نيران الوقد يداعب كلبه ويربت بلطف على لحيته .

فى هذا المساء كان « انكور » يقيم احدى حفلاته الصغيرة المألوفة فى بيته دون كلفة كان مسترخياً فى مقعده المتحرك المخملى الداكن مسامرا مارتن وستة من الكيماويين الشبان المتحمسين ، ومداعباً الدكتور نورمان برومفيت الأستاذ فى اللغة الإنجليزية . كانت الحجرة عامرة بالصفاء والجعه وبرومفيت .

ينبغى أن يكون بكل جامعة « رجل طائش » يثير القلاقل والمتاعب ويصدم رواد قاعات المحاضرات المكتظة . وحتى فى معهد جليل الشأن مثل جامعة وينباك كان يوجد رجل طائش واحد ، هو نورمان برومفيت . كان يسمح له أن يتحدث عن نفسه دون قيد كشخص فاسد يعتقد فى قصور العقل عن تفهم الوحى الإلهى ، وكشخص ملحد يسارى، مادام معروفاً للكافة أنه لا يزال نقياً ، مؤمناً بمسيحيته وجمهورى النزعة . وكان الدكتور برومفيت فى حالة طيبة هـذه الليلة .. وقد زعم أنه حينما يبدو على شخص مخايل العبقرية فإنه من الممكن إثبات أن به دماً يهوديا . وكسائر المناقشات المتعلقة بالديانة اليهودية فى جامعة وينباك أدى هذا إلى الإشادة باسم ماكس جوتليب استاذ البكتريولوجيا فى مدرسة الطب .

كان البروفسور جوتليب لغز الجامعة . وكان المعروف عنه انه ولد وتعلم فى ألمانيا وأن مؤلفه عن علم المناعة قد جعل له شهرة فى الشرق وفى أوروبا . وكان من النادر أن يبارح منزله الصغير الداكن القمىء إلا ليعود إلى معمله . وكان قليل من الطلبة من غير فصوله يستطيعون معرفته ، ولكن كل واحد كان قد سمع عن تباعده الغامض ، ولقد تواترت آلاف من الاقاويل والحكايات عنه .. وكان من المعتقد أنه كان ابناً لأمير ألمانى ، وأن له ثروة طائلة ، وأنه يعيش متباعداً كسائر الأساتذة

الآخرين ، لأنه كان يقوم بتجارب مفزعة باهظة التكاليف قد تكون ذات صلة بالتضحية البشرية . وقيل إنه يستطيع أن يخلق الحياة فى المعمل ، وفى مقدوره أن يتحدث إلى القردة التى يجرى عليها تجاربه ، وإنه طرد من ألمانيا لأنه عابد للشيطان ، وفوضوى ، وإنه يشرب سراً شمبانيا حقيقية كل ليلة فى العشاء .

كان من التقاليد المرعية أن أساتذة الكلية لا يناقشون أمور زملائهم مع الطلبة ، ولكن ماكس جوتليب لم يكن من الممكن اعتباره زميلا لأحد. كان شخصاً مبهما كهزيم ريح الشمال القارسة .

وقال برومفيت مجلجلا :

« فى اعتقادى أننى رجل حر التفكير تماما فيما يتعلق بقضايا العلم ، ولكن بالنسبة لرجل مثل جوتليب فإننى على استعداد للاعتقاد بأنه يعرف كل ما يتصل بالقوى المادية ، ولكن ما يروعنى هو أن مثل هذا الرجل يمكن أن يكون أعمى بالنسبة للروح الذى خلق سائر الكائنات ، فهو يقول إن المعارف باطلة ما لم تثبتها الأرقام الدامغة . وبناء على زعمه فإنه عندما يمكن لواحد منكم يادعاة العلم أن يتناول عبقرية بن جونسون ويقيسها بالمسطرة ، فإنى سأعترف بأننا معشر رجال العلم والأب ذوى العقيدة الراسخة السخيفة فى الجمال والولاء والأمانة ، والعالم المثالى المنشود ، بعيدون عن الصواب » .

ولم يكن مارتن أروسميث متأكداً تماماً بما قصد بذلك ، فلم يهتم اهتماماً بالغاً ، بيد أنه ارتاح عندما أنبعث من البروفسور أدواردز صوت غريب مشابه عبارة « يا للجحيم » وهو يداعب لحيته المصطبغة بلون الدخان ، ومن ثم أخذ أطراف الحديث من برومفيت . وكان من المألوف أن يشير أنكور فى أسلوب ناعم ينطوى على الخبث أن جوتليب كان متشائما يبدد الوقت فى تحطيم نظريات العلماء الآخرين بدلا من أن يأتى هو بنظريات جديدة ، ولكن فى هذه الليلة ، ورغبة منه فى إزدراء الكتاب أمثال برومفيت عمد إلى الإعلاء من جهود جوتليب المضنية التى منيت بالفشل فى مجال تركيب المصل المضاد للتسمم ... وسروره الجهنمى فى تفنيد أسانيده ، تماما كما يفعل مع بعض العلماء مثل أدليك وسير

المروث رايت • وتحدث عن مؤلف جوتليب العظيم عن « علم المناعة » الذى اطلع عليه غالبية علماء العالم ، والذى لم يفهمه إلا القلة منهم •

وانتهت الحفلة الصغيرة ، بما قدمته مسز ادواردز من فطائر البندق المشهورة ومضى مارتن على قدميه نحو منزله فى ستار ليل الربيع . ولقد أثارت المناقشة عن جوتليب فى نفسه اهتياجاً لا يدرى كنهه . فكر فى الانكباب على العمل فى المعمل فى الليل ، وحيدا ،مندمجا مستعليا عن ذلك النجاح الأكاديمى ، والطبقات الشعبية . وكان هو نفسه يعتقد انه لم يسبق له أن رأى الرجل ، ولكنه كان يعلم أن معمل جوتليب يقع فى مبنى القسم الطبى الرئيسى ، فيمم شطر الساحة التى يقع فيها القسم الطبى ، وكان الرجال القلائل الذين التقى بهم يسيرون مسرعين فى رهبة منتصف الليل . . ودخل فى حرم مبنى التشريح الذى كان كالحا رهيباً كثكنة عسكرية ، ساكناً كجثث الموتى المسجاةهناك فى حجرة الشرحة .وإلى الخلف كان يقع المبنى الضخم المخروطى للقسم الطبى الرئيسى وهو عبارة عن كتلة خشنةملوثة ، يعلوجدارها المعتم مصباحوحيد . أجفل مارتن ، إذ انطفأ النور فجأة، كما لو أن حارساً قلقاً كان يحاول أن يختبأ منه .

وعلى أحجار سلالم المبنى الطبى الرئيسى ، بعد دقيقتين ، بدأ تحت المصباح القوسى شخص طويل ، متقشف ، مستقل بذاته،منفرد . كانت وجنتاهالدا كنتان شاحبتين أقنى الأنف رفيعها . ولم يكن فى عجلة من أمره كسائر الذين يتأخرون عن منازلهم ليلا . كان فى غيبوبة عن العالم • وتطلع إلى مارتن ثم مضى بعيداً عنه ، مغمغما فى نفسه،مطأطىء الكتفين ، ويداه متشابكتان من خلفه واختفى فى الظلال وإن كان هو نفسه ظلا •

كان يرتدى معطفاً بالياً،شأن أستاذ فقير ، مع أن مارتن كان يتخيله متدثرا بعباءة مخملية سوداء ذات نجمة فضية مزهوة على صدره .

— ٣ —

فى أول يوم له فى مدرسة الطب كان مارتن أروسميث فى حالة رفيعة من التفوق. وكطالب طب كان ألمع من زملائه الآخرين لأن طلبة الطب يرون أنهم مهيئون لمعرفة الأسرار والأهوال والشرور المثيرة أما الطلبة فى الأقسام الأخرى، فيذهبون إلى حجراتهم، ليستظهروا فى كتبهم، إلا أنه بصفته خريجا أكاديميا له رصيده فى العلوم الأساسية، أحس بتفوقه عن زملائه فى الطب الذين كان أغلبهم لا يحملون سوى شهادة المدرسة الثانوية وربما أمضوا عاماً واحداً فى كلية لوثرن بين حقول الحنطة . ومع كل كبريائه، كان مارتن عصبياً . كان يفكر فى إجراء العمليات، وفى إتيانه بخطأ جسيم قاتل أثناء إجراء العملية . وفى حومة من الخوف الداهم سرح فكره فى حجرة التشريح ومبنى التشريح الحجرى الصلد .. ولقد سمع طلبة الطب القدامى يلغطون عما يحتويه من أهوال : جثث مدلاة فى خطاطيف — كصفوف من الفاكهة العطنة الصفراء — فى صهريج كريه من الماء فى بدروم مظلم، كما سمع عن هنرى الحارس الذى قيل أنه يجر الجثث من الماء المملح ليحقن الرصاص فى عروقها ويفتهر تلك الجثث الميتة وهو يقوم بتحنيطها على لوحة التحنيط الخرساء .

كانت مجالى الطبيعة تكسوها اخضرار يوم خريفى .. بيد أن مارتن لم يعرها التفاتا ومضى مسرعا إلى ردهة المقر الطبى الرئيسى الاردوازية اللون مرتقيا درجاته الواسعة الى مكتب ماكس جوتليب . ولم يتطلع إلى الطلبة المارين، حينما اصطدم بهم اعتذر إليهم مرتبكا . كانت ساعة نحس . كان ذاهبا للتخصص فى البكتريولوجيا . كان ذاهبا لاكتشاف جراثيم تفتن اللب ولسوف يدرك البروفسور جوتليب نبوغه ويميزه ويتخذه مساعداً ويتنبأ بمستقبله . وتوقف فى معمل جوتليب الخاص، وهو شقة صغيرة، أنيقة بها رفوف مليئة بأنابيب اختبار مقفلة بسدادات قطنية، مكان لا يحرك العواطف ولا يثير الافتتان فيما عدا المغسل ذو درجة الحرارة الثابتة بمقياسه الحرارى المخادع ومصابيحه الكهربائية . وانتظر

حتى انتهى طالب أخرق متلعثم، من حديثه لجوتليب ، الذى بدا مكفهرا ، منكباً ، عديم الحس أمام مكتبه فى ركن الحجرة ، ثم تقدم منه . وإن بدا فى تلك الليلة المعتمة فى شهر أبريل شخصا خياليا كأنه فارس يلتحف عباءته ، فإنه الآن يبدو شخصا عبوساً فى سن الكهولة . وعلى كثب منه ، كان مارتن يستطيع أن يرى التجعدات بجانب عينيه النفاذتين . وعاد جوتليب ثانية إلى مكتبه الذى كان مكتظا بمذكرات رثة ، وصحف بها عمليات حسابية، ورسم بيانى آية فى الإحكام ذى خطوط منحنية حمراء وخضراء تتدرج هبوطاً لتتلاشى عند الصفر . كانت الأرقام الحسابية دقيقة ، صغيرة ، حادة ، كذلك كانت يدا العالم النحيلتين ، بين صحف الأوراق التى على مكتبه ، دقيقة مرهفة . وتطلع إلى أعلى ، وتحدث بلهجة تشوبها اللكنة الألمانية . ولم يكن يخطئ فى نطق ألفاظه بقدر ما كان يشيع فيها صبغة دافئة غير مألوفة .

« حسناً ؟ — نعم ؟ »

« أوه يا بروفسور جوتليب ، اسمى أروسميث . إننى طالب طب فى السنة الأولى ، حاصل على ليسانس الآداب وإننى لأود من كل قلبى دراسة علم الجراثيم فى الخريف المقبل بدلا من العام القادم . لقد استوعبت كثيراً من الكيمياء » .

« كلا .. لم يحن الوقت بالنسبة لك » .

« أقول صادقا إننى أعلم بمقدرتى على النهوض بدراستها الآن » .

« هناك نوعان من الطلبة نبعث بهما الآلهة لى . نوع ينقض على كزكية بطاطس ، وأنا لا أحب البطاطس ، وكذلك يبدو أن البطاطس غير مولعة بى أبدا ، ولكننى آخذهم وأدرس لهم ليقتلوا المرضى . والنوع الآخر — وهم قلة جدا — يبدون لسبب لا يبدو لى واضحاً أنهم لا يحتاجون إلى عناء كبير ليصيروا علماء ، لكى يعملوا فى دراسة الحشرات ويرتكبوا بعض الأخطاء . هؤلاء

أتلقفهم وأستمسك بهم وأعلمهم على الفور أقصى المعارف العلمية التى تحتاج إلى التريث والتشكك ٠٠٠ أولئك الذين على شاكلة البطاطس ، لا أطلب شيئاً منهم ، أما من الحمق أمثالك الذين يحسبون أننى أستطيع أن أعلمهم شيئاً ، فإننى أطلب كل شيء ٠ كلا ٠٠٠ إنك لم تزل صغيراً جداً ٠٠ عد ثانية العام القادم ٠ »

« ولكننى أقول صادقاً إننى بالكيمياء التى حصلتها ٠٠ »

« هل درست الكيمياء الطبيعية ؟ »

« كلا ياسيدى ولكننى درست جيداً العضوية ٠ »

« الكيمياء العضـــوية ، كيمياء مشوشة ، كيمياء نتنة ، كيمياء مخازن العقاقير، الكيمياء الطبيعية قوة ، إنها الدقة والإحكام ، إنها الحياة ٠ أما الكيمياء العضوية فإنها حرفة غاسلى الأوعية ٠ كلا ٠٠ إنك صغير جداً ٠٠ عد ثانية فى العام القادم ٠ »

كان جوتليب قاطعاً فى حديثه ٠٠ ولوح لمارتن بأصابعه التى تشبه المخالب إلى الباب ، فخرج الفتى مهرولا دون أن يجسر على المجادلة ، متخبطا حسيرا فى سيره من فرط شقوته ٠ وفى ساحة المبنى التقى بمؤرخ الكيمياء المرح أنكور ادواردز وسأله متوسلا « قل لى أيها البروفسور ٠٠ أخبرنى هل هناك أية فائدة لطبيب فى الكيمياء العضوية ؟ »

« فائدة؟ لماذا ؟ إنها تجد فى طلب العقاقير التى تخفف الألم ، إنها تستخرج اللون الذى يطلى بيتك ٠٠ إنها تصبغ ثياب حبيبتك ٠٠ وربما فى هذه الأيام المتدهورة تلون شفتيها القرمزية ، من هو ذلك الشيطان الذى كان يتحدث باللغو عن كيميائى العضوية ؟ »

وقال مارتن متذمراً : « لا أحد ٠٠ إننى أتساءل فحسب » ٠ ودلف إلى مطعم الكلية حيث التهم بعض المرطبات وهو جريح النفس مثقل القلب ، بينما كان يحدث نفسه منزويا :

« أريد أن أستوعب البكتريولوجيا . أريد أن أصل إلى أغوار مادة المرض هذه . سأتعلم بعض الكيمياء الطبيعية . وسأرى جوتليب العجوز عليه اللعنة ، ويوماً ما سأكتشف جرثومة السرطان أو شيئاً آخر وعندئذ سيبدو غبياً أحمق فى مواجهتى .

أوه .. يا إلهى أرجو ألا يصيبنى الدوار أو المرض فى أول مرة أذهب فيها إلى حجرة التشريح .. أريد أن أدرس البكتريولوجيا — الآن »

واستعاد فى ذاكرته وجه جوتليب المتهكم ، وأحس بالمقت الآلى الذى يكنه الرجل ، وسرت فى نفسه الخشيه منه .. ثم تذكر التجعدات وبدا له أن ماكس جوتليب يمكن أن يكون مثار حب إذا نظر إليه على أنه ليس عبقرياً ، بل مجرد شخص مصاب بصداع ، شخص قد أنهكه التعب .

وحدث نفسه متحيراً : « إننى لأعجب ما إذا كان أنكور ادواردز يعرف قدر ما أحسب أنه يعرف .. ماهى الحقيقة ؟ » .

— ٤ —

كان مارتن عصبياً فى أول يوم له فى التشريح . لم يكن فى مقدوره أن ينظر إلى الوجوه الكالحة الجامدة لأولئك الرجال المتيبسين المسنين المسجاة جثثهم على موائد التشريح الخشبية . . بيد أنهم كانوا نكرات مجهولة . . أولئك العجائز المفقودين ، حتى أنه ، كسائر طلبة الطب أصبح يطلق على أصحاب تلك الجثث أسماء « بيللى » و «أيك» و «الكاهن » وكان ينظر إليهم كما ينظر إلى الحيوانات فى علم الأحياء . كانت حجرة التشريح ذاتها مبهمة : أرضيتها صلدة من الأسمنت ، جدرانها من الملاط الصلب بين نوافذ ذات زجاج مسلح بالأسلاك . كان مارتن يمج البخار الكريه المتصاعد من الفورمالدهيد (القار المطهر) لأنها وبعض الروائح الميتة الأخرى كانت تبدو كما لو أنها تحيق به خارج حجرة التشريح . ولكنه كان يدخن السجاير ليلساها . وفى مدى أسبوع كان يستكشف

شرايين الجسم بمرح الشباب ومجونه . كان رفيقه فى التشريح القس ارا هينكلى المعروف للفصل باسم مماثل وإن كان مختلفاً .

كان « ارا » معداً ليكون طبيباً فى بعثة من المبشرين ، كان رجلا فى التاسعة والعشرين متخرج من كلية بوتسبرج المسيحية ، ومدرسة الكتاب المقدس. وكان يلعب الكرة، وكان قوياً وضخماً كالثور ،وما من ثور كان يهدر أو يخور بصوت أعلى منه . كان مسيحياً ذكياً سعيداً ، متفائلا مرحا ، يبدد الخطيئة والشكوك بضحكته العريضة ، متدينا مغال مبتهجا ، وهو بصرامة تعاليم شيعتة يبشر بمبدأ فرقته الدينية القليلة الأتباع وهى جماعة « الأخاء المتطهر » التى ترى أن اتحاد كنيسة مبهرجة أو جميلة يعتبر رجساً وفساداً كرجس الميسر .

ووجد مارتن نفسه يفحص « بيلى » ـ وهى جثة رجل ضئيل ملطخ الجلد ، ذى لحية حمراء رهيبة صغيرة على وجه متحجر غليظ ـ وكان مارتن يفحصها كجهاز آلى فاتن ، معقد ، جميل ، ولكن مجرد جهاز ولقد زعزع ذلك من إيمانه الواهى بعظمة الإنسان وخلوده . ولا بد أنه احتفظ بهواجسه لنفسه ، متمعناً فيها بينما كان يقوم باستئصال الأعصاب من أعلى الذراع الممزق .ولكن « ارا هنكلى » لم يتركه وشأنه . كان ارا يعتقد أنه يمكنه أن يجتذب حتى طلبة الطب إلى الغبطة التى كانت معناها عند « ارا » أن ينشد ترانيم غير مألوفة طويلة بشمة فى مصلى « الأخاء المتطهر » .

وقال هادرا :

« مارت ·· ياولدى ، هل تدرك أن فى هذا الذى يمكن أن تسميه عملا شاقاً خسيسا نتعلم أشياء تمكننا من أن نبرىء الأجسام ونأسوا أرواح أقوام لا حصر لهم من الضالين التعساء ؟ »

« هيه » أرواح ، لم أعثر على واحدة منها بعد فى « بيلى « العجوز . حقا ، هل تؤمن بهذه الآراء البالية ؟»

فشدد ارا قبضته وتجهم وجهه ، ثم تجشأ ضاحكا ، ولطم مارتن فى ضيق على ظهره ، ثم ضج صائحا : يا أخى يجب أن تعدل عن أسلوبك هذا بأحسن منه لتحوز مرضاتى . . إنك تحسب أن رأسك محشو بتلك الأفكار المتشككة الحديثة البراقة . . وليس فى رأسك شىء منها . . كل ما عندك عسر هضم . . إن ما تحتاجه هو المران والإيمان . هيا إلى جمعية الشبان المسيحية ، وسأصحبك لنأخذ حماما وأصلى معك . لماذا أيها الفتى المسكين الهزيل الذى تعتقد بعدم كفاية العقل لفهم الوحى الإلهى ولديك فرصة سانحة الآن لترى صنع الخالق العظيم ، وكل ما تستطيع أن تظفر به هو الإحساس بأنك ذكى حاذق . . اصح لنفسك يا أروسميث الصغير . إنك لا تدرى كم أنت مضحك بالنسبة لزميل له عقيدة راسخة . . ومما أدخل البهجة على نفس مهرج الفصل كليف كلوسون الذى كان يعمل عند المائدة المجاورة أن ارا لكم مارتن فى ضلعه وضربه ضربة مؤلمة على رأسه ، ثم استأنف عمله فى رضى بينما كان مارتن يتراقص اهتياجا .

— ٥ —

فى الكلية كان مارتن منفرداً — لم يكن ينتسب إلى جمعية من الجمعيات . كان مزاحما ولكنه كان يستنكف عنجهية الأرستقراطيين من رجال المدن الكبيرة ، والآن وقد تفرق معظم زملاء الدراسة الأدبية إلى معاهد التأمين ، ومدارس القانون ، والبنوك ، صار وحيداً فأغرته الدعوة التى جاءته من « ديجامابى » الرابطة الطبية الرئيسية .

كان « ديجامابى » بيتا للطلبة معدا لقبول النزلاء من طلبة الطب ، يفيض ببهجة ، به طاولة للبلياردو وأسعاره منخفضة . وفى الليل كانت تنبعث منه أصوات غناء عنيفة ظريفة . وكانت معظم الأغانى تتصدرها أنشودة « عندما أموت لا تدفنى على الإطلاق » ومع هذا فإن أعضاء رابطة ديجاما أحرزوا ثلاث سنوات متوالية ميدالية التفوق فى الجراحة التجريبية . وفى هذا الخريف انتخب أعضاء الرابطة « ارا هنكلى »

إذا أنهم كانوا قد أحرزوا شهرة فى الخلاعة واجتناء الملذات — وقيل إن الفتيات كن يتسللن إليه فى أوقات متأخرة من الليل — ومامن زمرة كانت تشتمل على القس هنكلى إلا وكان يعتبرها العميد جماعة فاسدة ، وتلك كانت مزية للأعضاء الناخبين لـكى يستمروا فى الفساد فى دعة واطمئنان . ولقـد أفاد مارتن من قيمـة استقلال حجرته المنفردة . وفى الرابطة كانت مضـارب التنس وسراويل اللعب والآراء مشاعاً بين الجميع.. وعندما وجد «إرا» أن مارتن كان متردداً فى الانخراط فى عضويتها ، شدد عليه قائلا « أوه التحق بها . ان ديجاما فى حاجة إليك ..إنك منكب على المذاكرة — وإننى أقول ذلك من أجلك — وفـكر فى قيمة الفرصة التى تتاح لك للتأثير على الزملاء إلى النهاية . »

(وفى كل المناسبات كان « ارا» يشير إلى رفاق الدراسة « بالزملاء » وغالبا ما كان يستعمل التسمية فى الصلوات فى جمعية الشبان المسيحية)

« لا أريد التأثير على أحد . أريد أن أتعلم حرفه الطبيب لأحصل على ستة آلاف دولار فى السنة »

«ياولدى آه لو أنك عرفت كيف تبدو سخيفاً عندما تحاول أن تـكون ساخرا! عندما يـكبر بك السن مثلى فستدرك أن مجد الطبيب ينحصر فى أنك تستطيع أن تعلم الناس المثل العليا ، بينما تشفى وتسكن أجسامهم المعذبة »

« ولنفرض أنهم لايريدون وصفتى الفريدة فى المثل العليا؟ »

« مارت .. هل لى أن أكف .. وأن أصلى معك ؟»

« كلا !. اقلع عن هذا ! حقا !ياهنكلى .. من بين كافة المتدينين الذين التقيت بهم طيلة حياتى تتخذ أنت أخبث الفضائل سلاحا .. إنك تستطيع ان تجلد أى شخص فى الفصل ، وعندما يخطر ببالى كيف ستنهر أولئك الوثنيين التعساء حينما ستـكون أحد رجال الإرساليات وكيف ستجعل الأطفال يرتدون السراويل ، وتعقد قران المحبين

السعداء على أناس لا يحبونهم ، عندما يطوف ببالى هذا لا أتمالك أن أصرخ ! » إن البحث فى مبارحة عشه الذى ألفه ليكون فى رعاية القس هنكلى كان أمراً لا يطاق ولم ينتقل مارتن إلى ديجامابى إلا حينما ارتضى أنجوس ديور قبول الانضمام إليها .

كان ديور أحد أفراد قلائل من بين زملاء مارتن فى الدراسة الذين التحقوا معه بمدرسة الطب بجامعة وينابك . كان شابا صامتا صارم تقاطيع الوجه ، مجعد الشعر ، على قدر كبير من الوسامة . ولم يكن من دأبه أن يبدد ساعة من وقته أو طاقته هباء البتة .. وكان متفوقا فى عمله فى علم البيولوجى والكيمياء حتى إن جراحا من شيكاغو وعده بمركز فى عيادته . كان مارتن يقارن أنجوس ديور بسلاح الحلاقة فى صباح يوم من شهر يناير ، كان يكرهه ، ويشعر بالضيق فى حضرته ، ويحسده . وكان يعلم أنه بالنسبة لعلم البيولوجى كان ديور مشغولا جدا فى أداء الامتحانات لدرجة أنه لا ينعم الفكر فى تكوين نظرية عامة عن علم الأحياء . كان يعلم أن ديور كان كيماويا ماكراً يقوم بإجراء التجارب الدراسية المطلوبة بحذق ومهارة ، دون أن يغامر بإجراء تجارب مبتكرة قد تجره إلى عالم غامض من التساؤل والحيرة ربما تجلب له مجداً أو كارثة . كان متأكدا أن ديور كان يثقف ويصقل كفايته وجدارته ليستلفت انتباه الأساتذة. ومع أن هذا الشخص كان يقف بعيداً متجهاً عن جمهرة الطلبة الذين لا يستطيعون أن يؤدوا أو يتموا تجاربهم أو يفكروا جديا أو يفعلوا شيئا سوى أن يدخنوا غلايينهم ويشاهدوا تمارين كرة القدم فإن مارتن كان يحبه ويبغضه فى نفس الوقت ، ولذا تبعه فى دعة إلى ديجامابى .

كان مارتن وارا هنكلى وأنجوس ديور وكليف كلوسون ومهرج الفصل البدين « فاتى بفاف » قد احتفلوا بانضمامهم جميعا إلى ديجامابى . . ولقد كان أداءاً مثيراً ومؤلما ، إذ اشتمل على استنشاق « الحنتيت » ذى الرائحة الكريهة . . ولقد ضج مارتن من هذا العبث وتضجر ، ولكن فاتى بفاف كان هائجا يلهث ذعراً . كان فاتى — من بين جميع الطلبة الجدد — أكثرهم نفعا لديجامابى . كانت الطبيعة

قد سوته ليكون هدفا للسخرية، كان يبدو كقنينة ماء ساخن منتفخة ، كان معتوهاً عظيماً ، كان يصدق كل شيء ولا يعرف أى شيء ، ولا يستطيع أن يستظهر شيئاً ولا يستنكف أن يصفح — فى رضى بالغ — عن أولئك الذين كانوا يزجون ساعات فراغهم فى السخرية منه . كانوا يقنعونه أن لذقة الخردل مفيدة جداً لحالات البرد وفى حالة من الجزع والقلق يلتفون حوله ، ويلصقون عدداً ضخما من اللذقات على ظهره ، ثم ينزعونها عنه بعدئذ متفكهين . وكانوا يخفون أذن إحدى الجثث فى منديله الأنيق النظيف الجديد عندما يتوجه إلى حفلة عشاء يوم الأحد عند ابنة عمه فى زينيث . . وفى وسط العشاء كان يستخرج منديله متباهيا . وفى كل ليلة عندما كان فاتى يأوى إلى حجرة نومه ، كان عليه أن يزيل من فراشه مجموعة الأشياء التى دسها زملاؤه بين ملايات السرير — مثل الصابون والمنبهات والسمك . وكان الشخص المثالى الذى يمكن أن تبيع له الأشياء العديمة النفع . . ولقد باع له كليف كلوسون، صاحب الألاعيب كتاب «تاريخ الطب» بمبلغ أربعة دولارات، الذى كان قد اشتراه مستعملا بدولارين ، ولما كان فاتى لن يقرأه ، ولا يمكن التصور بالمرة أنه يستطيع أن يقرأه . فإن اقتناء الكتاب الأحمر السميك جعله يشعر أنه رجل علامة . . إلا أن أعظم مزايا فاتى وفائدته لديجاما هو اعتقاده فى علم الأرواح . كان يهيم فزعاً من الأشباح ، وكان دائماً يراهم يطلعون فى الليل من نوافذ حجرة التشريح . وكان زملاؤه يحرصون على أن يشهد عدداً كبيراً منهم يعرفون فى أرجاء قاعات الرابطة .

— ٦ —

كانت رابطة ديجاما بى تقع فى مقر شيد أيام البذخ عام ١٨٨٥ . كانت حجرة الجلوس توحى بوقوع عاصفة هوجاء حديثة المهد .. موائد مشروخة من السكاكين ، ومقاعد هزازة محطمة وابسطة ممزقة كلها مبعثرة فى أرجاء الحجرة ومغطاة بكتب بدون أغلفة واحذية الهوكى وأغطية الرأس وأعقاب السجاير . وفوق هذا، فقد كان فى كل حجرة نوم أربعة أشخاص وكانت السراير حديدية ذات طابقين كمقدمة السفينة.

وكان زملاء ديجاما يستعملون الجماجم المنشورة منافض للسجاير وعلى جدران حجرة النوم كانت لوحات التشريح المصورة معلقة حتى يمكن مذاكرتها أثناء ارتداء الملابس وكانت توجد بحجرة نوم مارتن هيكل عظمى بأكمله كان هو وزملاؤه فى الفصل قد اشتروه فى ثقة من أحد الباعة الذى وفد من دار الأدوات الجراحية بمدينة زينيث . كان بائعاً لطيفاً ودودا يقدم لهم السيجار ويحكى لهم القصص الشائعة ويشرح لهم أى مستقبل مشرق موعود ينتظرهم فى عالم الطب . ولقد اشتروا الهيكل العظمى شاكرين على نظام التقسيط . . وفيما بعد أصبح البائع أقل لطفاً .

كان مارتن يشارك فى حجرة النوم كليف كلوسون وفاتى بفاف وطالب طب متحمس فى السنة الثانية يدعى ارفنج وتز . . . إن ارفنج وتز يعتبر إنساناً عادياً تماما لدرجة أنه يصلح أن يكون نموذجا يثبت به العالم النفسانى الإنسان السوى. كان خاملا على الدوام، بليداً فى ابتسامته ويسر تصرفاته واتكاله . وإذا كان ثمة تعبير معين لم يستخدمه فذلك يعود إلى أنه لم يسمع عنه بعد . كان يؤمن بالخلق القويم — فيما عدا أمسيات أيام السبت . وكان يؤمن بالكنيسة الأسقفية، ولكنه لا يؤمن بالكنيسة العليا . كان يؤمن بالدستور ونظرية داروين والتدرب الرياضى المنظم فى الملعب . . كما كان يؤمن بعبقرية مدير الجامعة .

وكان من بين أولئك الزملاء الأثيرين عند مارتن ، زميله كليف كلوسون . كان كليف مهرج بيت الرابطة . . وضحكا كها الجلجل ، وكان يصدح بأغنيات لا معنى لها ، بل لقد كان يتمرن على نفخ البورى . . إلا أنه مع ذلك كان شخصاً رضياً ثابتاً . وبالنسبة لشعور مارتن بالبغضاء لإراهنكلى والخوف من انجوس ديور والإشفاق على فاتى بفاف والتفاهة نحو دعة أرفنج وتز ، فقد استماله صحب كليف كشىء يفيض حيوية وتجربة . وكان كليف شخصاً واقعيا ، مثل واقعية حقل أجرد أو كومة من السباخ تتصاعد منحها الأبخرة . . أجل ، كان كليف هو الشخص الذى يستطيع أن ينسامر معه — ولو أنه كان يحب أن يجلس قابعا ساعات طويلة يدخن مزمجراً مسترخيا — فإنه كان يمكن إغراؤه للقيام بجولة على الأقدام لمسافة خمسة أميال .

وكان هو كليف بعينه الذى لايبالى بشىء فى سبيل القاء القول الساخن وقت العشاء على إرا هنكلى وهو فى أوج وقاره . وفى حجرة التشريح كان إراقد استبد به المرح عندما قوبلت أحد آراء مارتن بالرفض فى كلية بوتسبرج المسيحية . بيد أنه كان فى مقر الرابطة مثالا للرزانة السقيمة المتزمتة فلم يكف عن محاولة وضع حد لرجسهم . وبعد ثلاث سنوات مع الزمرة العاثرة التى أقبلت من كل فج عميق لم يزل يؤمن إيمانا لايتزعزع أنه يستطيع أن يطهر الشباب ويعيدهم إلى الرشد سواء باستخدام التقريع أو ملاطفة معلمة مدرسة يوم الأحد أو حسن الكياسة والترويض .

وكان ارا مغرما كذلك بالإحصائيات الخاصة بالحياة النقية السعيدة .

كان زاخراً بالإحصائيات ، أما من أين يحصل عليها ، فليس ذلك بذى أهمية .. من واقع الأرقام فى الصحف وتقارير تعداد السكان ، أو عمود الشذرات بصحيفة « بشير المتطهرين » إذ أن جميع تلك المصادر تتساوى لديه فى قيمتها .. ولقد أعلن على مائدة العشاء قائلا : « يا كليف . إنه لمما يثير تساؤلى واستغرابى أن شخصاً فى مثل فطنتك لايكف عن تدخين ذلك الغليون القذر العتيق . . أو تدرى أن ٦٧٫٩٪ من جميع النساء اللواتى تجرى لهن عمليات جراحية ، يكون أزواجهن من مدخنى التبغ ؟ »

فاستفسر كليف قائلا : « ماذا يدخنون بحق الشيطان » ؟

وقال مارتن : « من أين جئت بهذه الأرقام ؟ »

فأجاب ارا فى تواضع :

« إنها مستخرجة من التقارير الطبية بفيلادلفيا عام ١٩٠٢ بالطبع . . إننى لا أفترض أن ذلك الأمر يختلف بالنسبة لزمرة خرقاء مثلكم أنكم ستتزوجون يوما ما فتاة بارعة الجمال ، ثم تدمرون حياتها بمخازيكم .. بالتأكيد ، امض فى

سبيلكم أيتها الزمرة المسترجلة . . إن واعظا فقيراً ضعيفا مثلى لا يجرؤ أن يأتى عملا فذا كتدخين غليون .

وتركهم يحدوه شعور المنتصر ، فقال مارتن متأوها « إن ارا يجعلنى أرغب فى أن أترك الطب وأصير سروجيا أمينا».

وقال فاتى بفاف متذمرا : « لا تتجنى على ارا هكذا فإنه فى قرارة نزوته خالص النية »« خالص النية ؟ يا للجحيم ، وهكذا أيضا حال الصرصور » .

وهكذا مضوا يثرثرون بينما كان أنجوس ديور يرقبهم متعاليا فى صمته ، مما أثار أعصاب مارتن ، فإنه فى خلال دراسته للمهنة التى تهفو إليها نفسه طيلة حياته ، لقى ألوان المضايقات والغباء كما لقى الحكمة البالغة سواء بسواء ، لم يبصر طريقا واحدا واضحا يؤدى إلى الحقيقة .. بل وجد ألف طريق إلى ألف حقيقة . . . قاصية مليئة بالشوك .

الفصل الثالث

كان جون الدنجتون روبرتشو استاذ علم وظائف الأعضاء ، أقرب ما يكون إلى الصمم . وكان المدرس الوحيد فى جامعة ويناك الذى لا يزال يحتفظ باللحية التقليدية الكثيرة الشكل • كان قد قدم من خليج باك ، وكان يتفاخر بموطنه ويسهب فى إطنابه لك •

ولقد أسس مع ثلاثة من البراهميين فى موها ليس فرقة • وفى كل المناسبات كان لا يفتأ أن يذكر « عندما كنت أدرس مع لودفيج فى ألمانيا .. « كان مستغرقا فى جده واعتداله بحيث لم يكن يأبه بعبث بضعة أفراد من الطلبة ، وكان كليف كلسون وغيره من الشباب الذين اصطلح على تسميتهم بعثيرى الشغب يتطلعون إلى محاضراته فى علم وظائف الأعضاء •

كان يلقى محاضراته فى إحدى المدرجات المقوسة القاعد والتى تمتد حول المحاضر لمسافة بعيدة حتى أنه يرى طرفيها دفعة واحدة ، وعندما كان الدكتور روبرتشو ماضيا فى القاء محاضراته عن الدوره الدموية ، كان يتطلع إلى يمين ليكتشف من ذا الذى يصدر عنه ذلك الصوت المثير للسخط الذى يشبه نفير السيارة . وعن بعد ، على اليسار ، كان كليف كلوسون ينهض واقفا مقلدا إياه ، وهو يلوح بيديه ، ويلمس لحيته الوهمية . وفى ذات مرة قام كليف كلوسون باحدى خوارقه ، عندما ألقى بقطعة من الطوب فى الحوض المجاور للمنصه بينما كان الدكتور روبرتشو منهمكا فى إحدى محاضراته السنوية الرئيسية عن تأثير أشرطة النحاس على حدة تقلص الركبة .

كان مارتن يطالع كل ما يمكن أن يحصل عليه من أبحاث ماكس جوتليب العلمية بكل ما اشتملت عليه من الرموز الحسابية العويصة ، ومنها ، توصل إلى الاقتناع بأن التجارب العلمية يجب أن تكون ذات صلة وثيقة ومرتبطة بقواعد الحياة والموت ، وبماهية العدوى الجرثومية ، وبردود الفعل الجثمانية من الوجهة

الكيماوية. وعندما كان روبرتشو يتغنى متباهيا بالتجارب العلمية الصغيرة الملونة والتجارب العادية والتجارب البتراء .. كان مارتن لا يهدأ له قرار . فى الكلية كان يحس أن علم العروض والإنشاء اللاتينى عبث لا طائل تحته ، وكان يتطلع إلى الأمام لدراسة الطب كهدف يشع نور المعرفة الحقة . والآن وهو يحس بالقلق المقبض بشأن تعسفه ، ألفى أنه يشعر بنفس الامتهان للحساب التقريبى لروبرتشو ولمعظم ما وضع عن علم التشريح .

كان أستاذ علم التشريح الدكتور أوليفر ستاوت فى ذاته نموذجا لعلم التشريح أو بالأصح خريطة إيضاحية للتشريح ، فهو كتلة ناحلة من الأعصاب والأوعية الدموية والعظام تشتمل على معارف دقيقة واسعة المدى ، يستطيع بصوته الأجش أن يردد مزيدا من الحقائق حول أصبع القدم الأيسر الصغير أكثر مما يخطر ببال أى شخص أن يعرفه عن إصبع القدم الأيسر وما من مناقشة كانت أشد احتداما على مائدة العشاء فى مقر ديجامابى أكثر من الساجلة المتصلة بمنزل الطبيب ، الطبيب السوى المهذب الذى يحقق رزقا حسنا ، ولا يقلق باله بشأن مطالعة الصحف فى الجمعيات الطبية أو ذكر المصطلحات المختصة بعلم التشريح . ولكن لا يهم ما كانوا يفكرون فيه . لقد كانوا جميعا سيان فى معرفة قوائم الأسماء التى تساعد المرء أن ينفذ متسللا إلى الامتحانات ويصير شخصا متعلما بتسعيرة فى السوق قدرها خمسة دولارات فى الساعة . لقد اخترع بعض الحكماء المجهولين قوافى مكنتهم من استذكار دروسهم .وعند العشاء ، كان اولئك الطلبة القراصنة من نزلاء ديجامابى ، وعددهم ثلاثون طالبا ، يجلسون إلى مائدة طويلة ملطخة يلتهمون الأسماك والفاصوليا والموز والكعك . وكان الطلبة المبتدئون يرددون وراء الطلبة القدامى هذه القافية الشعرية :

على باذخ عوالى الأوليمب العتيق
رأى الألمانى ضخم الأذن حشيشة الدنيار

وهكذا بإيجاد العلاقة بين الحرف الأول من كل اسم كان يمكنهم الالمام بأسماء أعصاب الجمجمة الاثنى عشر كالآتى :

على تشير الى عضو الشم ، باذخ تشير إلى باصرة وعوالى تشير الى العين الخ وبالنسبة لنزلاء ديجاما ، فقد كان هذا الشعر فى نظرهم هو أروع القوافى الشعرية وأمجدها ، لقد ظلوا يذكرونه بعد أن صاروا أطباء لمدة سنين، وفى الوقت ذاته نسوا تماماً الأسماء العلمية لتلك الأعصاب ذاتها .

— ٢ —

لم يكن ثمة شغب خلال محاضرات الدكتور ستاوت فى علم التشريح،ولكن دعابات كثيرة كانت تقع فى حجرته للتشريح . وكان ألطفها يقع أثناء تمارينهم فى تشريح الجثث ، وكان أشدها إثارة فى خلال السنة التحضيرية حادثة كليف كلوسون والبنكرياس .

كان كليف قد انتخب رئيساً للفصل للعام الدراسى ، لأنه كان حريصاً على ازجاء التحيات ، فلم يكن ليصادف أحدا من زملائه فى بهو المبنى الطبى الرئيسى دون أن يبتدره صائحاً « كيف حال زائدتك الدودية هذا الصباح ؟ » أو « أقدم لك أعظم التحية أيتها القملة العجوز » . وفى لباقة بالغة كان يترأس اجتماعات طلبة الفصل (اجتماعات ساخطة لرفض اقتراحات معينة بشأن استعمال ساحة التنس) ولكنه فى الحياة العادية الخاصة كان أقل احتشاما . وقد وقع الحادث المروع عندما وفد أعضاء هيئة مجلس الأوصياء للجامعة . وكان هؤلاء الأعضاء هم السلطة العليا للجامعة ،وكانوا من كبار رجال المال والصناعة وكان بالقياس اليهم يعتبر حتى مدير الجامعة فى المرتبة الأدنى . ولم يكن ثمة شىء يثير فى نفوسهم الروع أكثر من حجرة التشريح فى مدرسة الطب . وكان الوعاظ يتحدثون حديثا أخلاقياً عن تأثير الخمر على الفقراء . وفى خلال جولتهم التى كان يتقدمها الدكتور ستاوت وسكرتير الجامعة ، توقف على مقربة من طاولة التشريح الخاصة بكليف كلوسون أضخم أولئك الماليين جسما وأرقاهم علماً ، وقد أمسك قبعته العالية بيده وراء ظهره اجلالا ، وفى تلك القبعة ألقى كليف كلوسون البنكرياس .

ولما كان البنكرياس شيئاً نديا يثير التقزز داخل قبعة فان المالى عندما اكتشف

وجوده فى قبعته ، مالبث أن القى بقبعته ساخطاً قائلا بأن طلبة جامعة وينهاك قد فسدت أخلاقهم . وأخذ الدكتور ستاوت والسكرتير يطيبان خاطره ويهدئان من روعه وقاما بتنظيف القبعة مؤكدين له أن العقاب الصارم سوف يوقع على الشخص الذى وضع البنكرياس فى القبعة .

واستدعى الدكتور ستاوت كايف باعتباره رئيساً للطلبة المبتدئين . وكان كايف متألما ، فجمع طلبة الفصل ، وأبدى أسفه بأن طالباً فى جامعة وينهاك يمكنه أن يضع البنكرياس فى قبعة أحد رجال المال . وتوجه إلى الطلبة بالرجاء بأن على المجرم أن يكون لديه من الرجولة مايجعله ينهض من بين الصفوف ويعترف بجريرته .

ومن سوء الحظ ، أن القس اراهنكلى الذى كان جالساً بين مارتن وانجوس ديور كان قد رأى كايف وهو يلقى البنكرياس فى القبعة . . فما لبث أن زمجر قائلا :

« إن هـذا شىء معيب .. وإننى سأفضح أمر كلوسون حتى ولو كان أخى الشقيق » .

فاحتج مارتن قائلا : « اسكت .. أو تريد أن يفصل من الجامعة ؟ » .

« بل ينبغى أن يفصل ! »

واستدار انجوس ديور فى مقعده ، وتطلع إلى ارا وقال :

« تسمح أن تخرس ؟ »

وعندما هدأ ارا وسكن ، صار مارتن أكثر إعجابا بأنجوس ، وأشد مقتا له عن ذى قبل .

— ٣ —

عندما كانت نفس مارتن تضيق تبرما وهو يتساءل عن السبب الذى من أجله وفد إلى هنا ليستمع إلى البروفسور روبرتشو ، مرددا تلك القافية الشعرية ، وليدرس

حرفة الطب مثل فاتى بفاف أو ارفنج وترز عندئذ كان مارتن يجد منفرجاً لضيقه فيما يعتبره فسقا . وفى الواقع كانت تلك غزوات صغيرة لاتتعدى تخوم مدينة زينيث أو ابتسامات فتيات المصنع اللواتى يتنزهن فى الطرقات الخلفية المتواضعة .. ولكن بالنسبة لمارتن وإلى اعتداده وتعاليه ، كان مرحه يحكمه عقل نير ، فلا يلبث أن يرى فى هذا اللهو شيئا يثير الأسى .

كان أضمن رفاقه عاقبة فى لهوه ، هو كليف كلوسون ، ولا يهم مقدار البيرة الرديئة التى كان يجترعها .. فان كليف لم يكن يبدو ثملا بعد تناولها أكثر مما هو عليه فى حالته العادية . فلقد كان مارتن يؤخذ بخفة كليف كما يؤخذ كليف بتأملات مارتن .. وعندما يكونا جالسين فى الحجرة الخلفية حول مائدة تتألق عليها أقداح البيرة ، كان كليف يهز اصبعه ملوحا ويثرثر بقوله « إنك الشخص الوحيد الذى يتغلب على يامارتن .. فانت تعلم حق العلم فيما يختص بالاستثمار التجارى لمهنة الطب انى أضيق به ذرعا رغم مايقال عن أننى أنظر نظرة تجارية للمهنة ، كما يزعم ذلك ارا هنكلى ومن على شاكلته .

فأمن مارتن على قول صديقه الثمل قائلا « بالتأكيد انك كذلك .. وانك على غرارى . ياالهى .. فهل ادركت ذلك .. هذا الشاحب اللون إرفنج وترز أو هذا المكافح القاسى القلب أنجوس ديور ثم جوتيليب العجوز ! المثل الأعلى فى البحث ! لم يقنع أبدا بما يبدو حقا ! وإنه ليحيا وحيداً لا يأبه بأحد .. يعكف على عمله طوال الليل .. ويغوص إلى أعماق الأمور ! »

فأشار كليف كلوسون قائلا : « تماما .. وإن هذا لرأيى أيضا .. دعنا نحتسى قدحاً آخر من البيرة . لنشرب النخب ! »

كانت مدينة زينيث بحاناتها ، على مبعدة خمسة عشر ميلا من موهاليس وجامعة وينامك ، وعلى مسيرة نصف ساعة بالترولى الهادر الضخم الذى يسير بين المدن ، وكان طلبة الطب يتوجهون فى غزواتهم شطر مدينة زينيث . وان القول بأن أحدا منهم « ذهب فى الليلة الماضية إلى المدينة » ، كان يعتبر أمراً يثير الغمز واللمز .. بيد

أن مارتن ، مع أنجوس ديور ، اكتشفا زينيث جديدة .

وعند العشاء ، قال ديور باقتضاب :

« تعال معى إلى المدينة واستمع إلى حفلة موسيقية . »

ومع كل توهمه بالتفوق بين زملائه فى الفصل ، فان مارتن كان جاهلا جهلا مطبقاً بفنون الأدب والرسم والموسيقى ، وبدا له أن اهتمام أنجوس ديور بالإصغاء إلى الموسيقيين وبذل وقته فى الموسيقى أمرا مذهلا ، كما اكتشف أن ديور كان يتحمس تحمساً بالغاً لاثنين من الملحنين هما باخ وبتهوفن ، وهما على الأرجح من الألمان ، وأنه هو ذاته لم يفقه بعد كل طرائق الحياة .. وفى بعض المناسبات كانت غلواء ديور تخف فيهتف قائلا « أيها الإخوان لو لم أكن قد ولدت للمبضع لكنت موسيقيا يشار اليه بالبنان ! هذه الليلة سأقودكم رأساً إلى سماوات العلا ! »

القى مارتن نفسه فى حومة من الوجل والاضطراب وسط المقاعد الصغير والبوا كى الرحيبة المذهبة والسيدات المهذبات المترفعات وقد وضعن برامج السهرة فى حجورهن بينما الموسيقيون المحترفون يجربون آلاتهم الموسيقية فى مكانهم الوطىء محدثين ضجيجاً لا يبعث على السرور . وأخيراً أحس بروعة مبهمة هيأت له مناظر التلال والغابات الكثيفة ، ثم انتابه فجأة تحرر من ملاله وتهلل قائلا : «سوف أحرز كل شىء .. شهرة ماكس جوتليب .. اعنى مقدرته .. وكذلك الموسيقى العذبة والنساء الجميلات.. سوف أقوم بعظائم الأمور وأرى الدنيا .. ألن تكف هذه المقطوعة ؟»

— ٤ —

كان ذلك بعد الحفلة الموسيقية بأسبوع عندما تكشفت عيناه مادلين فوكس . كانت مادلين فتاة جميلة جذابة طموحة ، عنيدة عرفها مارتن فى الكلية .. وكانت قد آثرت البقاء فى الكلية ظاهريا لتحرز درجة أعلى فى اللغة الإنجليزية ، أما واقع الأمر فلكى تتجنب العودة إلى مسقط رأسها . وكانت تعتبر نفسها لاعبة تنس ممتازة ، وكانت تلعب التنس فى نشاط وسرعة باهرة كاسحة ، وإن افتقرت

إلى حسن التسديد . وكانت تعتقد فى ذات نفسها بأنها ملمة خبيرة بالأدب . أما المحظوظون الذين حازوا رضاها فى الأدب فهم هاردى وميردث وهاولز وثاكرى ، ولم يكن من بينهم من قرأت له منذ خمس سنوات . وكانت غالباً ما تلوم مارتن على استهانته بمكانة هاولز ، وعلى ارتدائه للقمصان المصنوعة من الفانيلا وعلى عدم حذقه فى تناول يدها عند نزولها من السيارة العامة فى أسلوب البطل الأسطورى. وفى خلال أيام الدراسة بالكلية كانا يذهبان للرقص معاً ، ولو أن مارتن كان راقصا عاطفياً أكثر منه راقصا مجيداً . وكان رفاقه يصعب عليهم أحيانا البت فى صلاحيته للرقص .

كان يحب رواء مادلين الفائق ،وحيويتها، وكان يشعر أنها بثقافتها المتجددة الحية أثيرة لديه.وفى خلال هذه السنة لم يرها إلا نادرا ، وإن كانت تطوف بخاطره فى وهن الليل ، ويتبدى لخاطره أن يتصل بها تليفونيا ولكنه كان يحجم .. بيد أنه منذ صار يقلب أموره على الوجهتين من ناحية الطب ، فقد تاقت نفسه إلى تعاطفها . وفى أصيل يوم أحد من أيام الربيع اصطحبها فى نزهة عند ضفاف نهر شالوزا .

وعند جرف النهر ، كانت المروج تمتد تكسو التلال الفافا ، وفى حقول الشعير كانت المراتع الخشنة وأشجار السنديان العتيقة وأشجار البتولا المتألقة ، هنالك كانت تقع مخاطرات الحدود . ومثل شباب الوديان وطأت أقدامهم مواقع الجرف ، وأخذا يحدثان بعضهما بعضاً بأنهما سوف يغزوان العالم . وقال شاكيا : « أولئك الأطباء الملعونين — »

فقالت مادلين « أوه ــ يامارتن .. أترى أن كلمـــة « ملعونين » « لفظة رقيقة ؟ » .

وكان من رأيه أنها لفظة رقيقة حقاً .. صالحة على الدوام لاستعمال العامل المكدود ، بيد أن ابتسامتها كانت شهية .

« حسناً .. إن هؤلاء الطغمة .. لا يحاولون تلقى العلم ؟ إنهم ببساطة يتعلمون

حرفة • إنهم يبغون أن يحصـــلوا المعارف التى تعاونهم على الربح •• إنهم لا يتحدثون بتاتاً حول كيفية حماية الأرواح وحول الحالات المرضية الخاسرة ، •• حتى لا تتبدد الدولارات ! ولـكن لا بأس لديهم أن يتناولوا تلك الحالات الفادحـة بالعلاج ، إذا كانت عملياتها تجرى فى جو من الإثارة يـكون بمثابة إعلان تجارى عنهم ؛ إننى لأتقزز منهم ! كم تحسبين عدد الذين يهتمون بالعمل الذى يقوم به أرليك فى المانيا — أو بما يفعله ماكس جوتليب هنا ! لقد أحرز جوتليب سبقا طبياً على نظرية رايت الخاصة بالأمصال » •

« هل أحرز ذلك حقاً ؟ »

« أجل •• لقد حدث ذلك بـكل تأكيد ، فهل تحرك أحد من الأطباء لذلك ؟ لم يحدث من ذلك شىء •• لقد قالوا « أوه بالتأكيد أن العلم ماض على سننه فى وجهاته المختلفة ، ليعاون الطبيب فى علاج مرضاه ، ثم بدأوا يتناقشون عما إذا كانوا يستطيعون الحصول على المزيد من المال إذا ماسكنوا فى مـــدينة كبيرة أو ظلوا فى بلدة صغيرة •• وما إذا كان من الأفضل للطبيب الشاب أن يـكون أميناً مع نفسه ويمـارس اللعبة ، أو ينضم للـكنيسة ويتظاهر بالورع والغيرة .. ينبغى عليك أن تسمعى أرف وترز ، إذ سيطرت عليه فـكرة واحدة : هل الشخص الذى يرجى له ذيوع الصيت فى مهنة الطب هو الذى يلم بعلم الأمراض ؟ أوه .. كلا إن الطبيب الناجح عنده هو الذى يحصل على مكان ممتاز كعيادة له بالقرب من ملتقى المـــواصلات والزحام ، والذى يستطيع أن يحصل على رقم تليفون سهل الحفظ حتى يكون من الميسور على المرضى تذكره •• شرفا .. لقد قال كذلك وأقسم أننى عندما أتخرج ، أعتقد أننى سأكون طبيبا فى سفينة . إنك تستطيعين أن ترى العالم بتلك الوسيلة ، وعلى الأقل فإنك ستتجنبين السباق على اجتذاب المرضي والتناحر علي اقتصائهم عن منافسك ! » :

« أجل ، إنه لمن المروع أن القوم لا يستمسكون بالمثل العليا فى أعمالهم ، وهكذا فإن معظم الطلبة المتقدمين الإنجليز يضعون كل همهم فى الحصول على المال بطريقة التدريس ، بدلا من الاستمتاع بأيام التلمذة على النحو الذى أفعله . »

لقد بلبل خاطر مارتن أن تبدو بأنها تعتقد بتفوقها مثله تماما . بيد أنه ازداد بلبلة عندما مضت تتمشدق بالقول :

« وفى الوقت ذاته يامارتن ، لابد للمرء أن يكون عملياً . . أو ليس كذلك ؟ انظر . . أى مزيد من المـال . . كلا . . بل أعنى أى مزيد من المركز الاجتماعى والسطوة يصيب الطبيب الناجح أكثر من عالم من أولئك العلماء المنعزل فى قوقعته والذى لا يدرى من أمر الدنيا شيئاً وما يجرى فيها . انظر إلى جراح مثل الدكتور لوازو وهو يستقل فى طريقه إلى المستشفى سيارته البديعة يقودها سائقها فى ثيابه الرسمية . . وكل مرضـاه ، ببساطة يعبدونه . . ومن ناحية أخرى تطلع إلى ماكس جوتليب الذى نتحدث عنه ، لقد أراه لى أحدهم يوما ، وكان فى رداء مهلهل غاية فى البلى والقدم ، أشعث ، أغبر .

فالتفت مارتن اليها محتدا معنفاً ، وكانا جالسين على سياج عتيق ملتو ، حيث كانت طلائع هوام الربيع تحوم وتئز من حولها وفى غمرة حماسه وتعصبه ، مالبثت أن فقدت اتزانها الفكرى وصاحت بملء فمها : « أجل .. إننى أدرك الآن .. إننى أرى تماماً »، ودون أن تبين ماذا رأت ، اردفت قائلة : «أوه .. أن بك تفكيراً نيراً .. واستقامة لاتبارى .» « حقاً .. اترينني كذلك ؟ »

« أوه حقاً انني أرى ذلك .. وإننى لعلى يقين بأنه سيكون لك مستقبل رائع .. وإننى غاية فى السرور لأنك لست تجارى النزعة والهدف كالآخرين ولا يهم ماذا يقولون ! » .

لقد لاحظ أن مادلين ليست مجرد امرأة نادرة المثال عالية الفهم فحسب بل هى أيضاً امرأة تشتهى ، ذات لون رائق ، وعينان تفيضان حناناً وقسمات تأخذ باللب .

وبينما كانا يسيران فى طريق عودتهما استشعر أنها الرفيق المناسب له حقاً .. وتحت تأثير تعاليمه وإرشاداته، سوف تميز بين المثل العليا المبهمة وبين صلابة العلم وتجرده . وتوقفا على الجرف، متطلعين إلى أسفل نحو وادى نهر شالوزا الموحل فى أيام الربيع وتاق اليها وهفت نفسه نحوها وأسف على بدوات التلمذة ، . صمم أن يكون شابا نقياً مجداً خالصاً وأن يكون فى الحق « رجلا جديراً بها ».

وقال مختنق العبارات، « اوه يامادلين انك آية فى البهاء والجمال » ، فرمقته على استحياء .

وأمسك بيدها وحاول أن يقبلها فى غمرة من التهور ، ولكنه لم يستطع إلا أن يقبل طرف شذقها فحسب ، بينما كانت تمانع قائلة : « لا تفعل ! » ولم يكونا يعترفان ، بينما كانا فى طريق عودتهما نحو موها ليس ، أن ثمة شيئا قد حدث ، بيد أن صوتها كانت تشوبه رقة ونعومة . ودون ضجر الآن استمعت إلى تشهيره بالبروفسور روبرتشو بأنه أشبه ما يكون بالحاكى ، وأنصت إلى ملاحظاتها عن ضحالة وابتذال الدكتور نورمان برومفت ، ذلك المدرس الانجليزى الطروب . ولما وصلا إلى بيت الطالبات ، تنهدت قائلة « كنت أود أن ـ أدعوك للدخول .. ولكن الساعة قد بلغت موعد العشاء و . . هل .. هل ستحدثنى يوماً تليفونياً ؟ فقال مارتن « أؤكد لك إننى سأفعل ، وذلك وفقاً لما جرى عليه التقليد بين المحبين من طلبة جامعة وينايك . ومضى مسرعاً إلى بيته موله القلب . وبينما كان متمدداً على سريره العلوى الضيق عند منتصف الليل ، تراءت له عيناها .. تارة تشع بالاستهانة وتارة باللوم . . والآن تفيضان دفئاً وثقة به . . فهتف قائلا : « إننى أحبها .. أحبها سأحدثها بالتليفون ، إننى لأتساءل ماذا لو حادثتها مبكراً فى الثامنة صباحاً ؟ » .

ولكنه فى الساعة الثامنة كان عاكفاً على دراسة الجهاز المدهون بحيث لم يفكر فى عيون النساء .. ورأى مادلين مرة واحدة ، وذلك فى لقاء عام بسقيفة بيت الطالبات ، وكان المكان غاصاً بالجنسين من الطلاب والمقاعد الحمراء ونبات الخطمية قبل أن يعكف على مذاكرته استعداداً للإمتحانات السنوية النهائية .

— ٥ —

فى أيام الامتحان ، تتجلى قيمة ديجاما بى كيبت للطلاب المجدين وراء المعرفة والحكمة . وقد تعاقبت أجيال من نزلاء ديجاما بى وجمعوا شتات أسئلة الامتحانات على مر السنين واحتفظوا بها فى كتاب خاص يشتمل على أهم ماصادفهم وما بدر منهم .. ولقد عمد النوابغ منهم إلى التهام ماجاء بهذا المجلد والتأشير بالقلم الأحمر على المسائل والمواضع الهامة التى أثيرت خلال العام الدراسى .. وكان الطلبة الجدد يلتفون على هيئة حلقة وهم قاعدون القرفصاء حول ارا هنكلى فى حجرة الجلوس ببيت الطلبة .. بينما كان يقرأ ويستطلع الأسئلة التى قد تجىء فى الامتحان .. أما هم فكانوا يعبثون بشعورهم ويفتلونها ، ويحكون أذقانهم ويعضون أصابعهم ، ويطرقون أصداغهم وهم يحاولون أن يجيبوا الإجابة الصحيحة قبل أن يقرأ أنجوس ديور عليهم تلك الإجابة من الكتاب المدرسى .

وفى حومة معاناتهم وجهدهم كانوا لا ينفكون عن التشاغل مع «فاتى بفاف» .

كان فاتى قد رسب فى امتحان نصف السنة فى علم التشريح ، وكان لا بد له من أن يجتاز اختبارا دقيقاً خاصاً قبل أن يتمكن من دخول الامتحان النهائى .. وكان لفاتى بين طلبة ديجاما اعزاز ومحبه .. كان فاتى رقيق الحاشية ، متطيراً ، يعتقد فى الخزعبلات ، وإلى جانب ذلك كان فاتى ضعيف العقل ، ومع ذلك فانهم كانوا يطوون له المحبة التى يشوبها الضيق والتى يمكن أن يضمرها المرء لسيارة نصف عمر ، أو لكلب عكر .. كانوا جميعا يعملون له ، كانوا يحاولون الأخذ بيده ودفعه إلى الامتحانات كما لو كانوا يدفعون به إلى باب مصيدة ، كانوا يتلهفون ، ويعكفون ويبذلون جهد طاقتهم فى الدروس وكان فاتى يلهث ويئن معهم .

وفى الليلة السابقة للامتحان الخاص به ، ظلوا وإياه حتى الساعة الثانية صباحاً فى حجرته ، واستعانوا لتذكيره وتنبيهه بكل الوسائل ، المناشف المبللة ، والقهوة الكثيفة السوداء ، والدعوات ، بل وألوان الامتهان . ومضوا يكررون ويعيدون عليه بيانات وبيانات وبيانات .. ثم يهزون قبضات أيديهم فى وجهه الحزين الأحمر المستدير

ويزعقون ، « عليك اللعنة هل يمكن أن تتذكر أن الصمام ذو الرأسين هو ذات الصمام التاجي وليس واحداً آخر . كانوا يجرون فى أرجاء الحجرة رافعين أيديهم وهم يولولون .. الا يتذكر شيئا.؟ ثم يلجأون إلى اصطناع الهدوء قائلين : « لافائدة من الثرثرة والضجيج يافاتى .. على رسلك . انصت إلى هذا وحاول أن تستذكره وروض نفسك عليه .. حاول أن تذكر شيئا واحدا .. على أية حال . »

ثم قادوه بعناية إلى فراشه . وكان رأسه مكتنزا وطافحا بالمسائل والحقائق التى شحنوه بها حتى أن مجرد أى هزة ذهنية طفيفة له ، تعتبر كفيلة بأن تريق بددا ما حشوا ذهنه به .

وعندما استيقظ فى الساعة السابعة صباحا ، بعينين محمرتين ، وشفتين مرتجفتين ، كان قد نسى كل شىء تعلمه .

وقال رئيس رابطة بيت الطلبة « لا جدوى من الأمر .. والأجدى أن يتزود فى الامتحان بمفاتيح للاجابة على الأسئلة ، وقد أعددت لذلك مذكرة شاملة عساه أن يجد فرصته فى الامتحان بالرجوع إليها .. إننى أرى ذلك .. لقد اعددت هذا المعجم له بالأمس وهو يكاد يغطى كافة الأسئلة التى سيصادفها فى أمتحانه» .

وحتى القس اراهنكلى الذى كان شاهدا لمتاعب منتصف الليلة السابقة ، مضى فى سبيله متجاهلا هذه الجريمة .. بيد أن فاتى نفسه هو الذى احتج على ذلك قائلا: « اسمعوا إننى لا أحب أن أغش .. إننى لا أحسب أن المرء الذى يستطيع أن ينجح فى الامتحان ينبغى أن يكون طبيبا يزاول هذه المهنة الشريفة .. ذلك ما قاله أبى لى » .

وصبوا فى أمعائه مزيدا من القهوة (وفقاً لنصيحة كايف كلوسون الذى لم يكن متأكدا تماما من تأثير ذلك ولكنه كان راغبا فى المعرفة) فقد ناولوه قرصا من بروميد البوتاسيوم . وزمجر رئيس ديجامابى وهو ممسك بفاتى فى شىء من الشدة وقال « اننى سأدس هذا المعجم فى جيبك ــ انتبه إلى ، فى جيب صدرك وراء منديلك » . فنشج فاتى بالبكاء قائلا :

«لن استعمله ، ولست أبالى إذا ما رسبت ».

« هذا حسن .. ولكن احتفظ به فى مكانه ، ربما أمكنك أن تتشرب منه بعض المعلومات عن طريق رئتيك لأن الله يعلم » .. وأمسك الرئيس بشعره بشدة .. وتعالى صوته ، وكان ينطوى على كل مأساة الليلة الماضية ، وعنائهم معه وخيبة أملهم .. ومضى مستطردا :

« لأن الله يعلم بأنك لا يمكنك أن تستوعب ما فيه برأسك ! »

ونفضوا الغبار عنه ، وأوقفوه فى المكان المناسب ثم قذفوا به خارج الباب ، فى طريقه إلى مبنى التشريح .. وراقبوا ذهابه .. بالون بساقين ، سجق محشو فى سراويل من القماش المخملى المضلع .

وقال كليف كلوسون مذهولا : « هل من الممكن أن يكون نزيها ؟ »

وقال الرئيس متفجعا : « حسنا إذا كان كذلك ، فالأحرى بنا أن نصمد ونبدأ فى حزم حقيبته ، فان مقر هـــذه الرابطة لن يكون بها تيس آخر على شاكلة فاتى » .

ورأوا فاتى يتوقف ، ويرفع منديله محزونا ويتمخط ، ثم يكتشف سلخة ورقة طويلة رفيعة . ورأوه يقطب جبينه وهو ينظر إليها ، ثم يفردها بين أصابعه ، وبدأ يقرأها ، ثم دسها ثانية فى جيبه ، ومضى إلى الأمام بخطوات أشـــد عزما . ولم يتمالكوا من فرط الابتهاج أن مضوا يرقصون بأيد متشابكة فى أرجاء حجرة جلوس بيت الطلبة مؤكدين لبعضهم بعضا قائلين : « إنه سيستعملها .. هذا على ما يرام ، وإما يجتاز الامتحان أو فليذهب إلى الجحيم ! »

واجتاز الإمتحان .

— ٦ —

كان بيت الطلبة « دبجامابى » يعانى من تقلبات مارتن أكثر مما يعانى من حماقة فانى وتحرشات كليف كلوسون ومشاحنات انجوس ديور ومضايقات القس اراهنكلى ٠ وفى خلال عناء المذاكرة استعداداً للامتحان كان مارتن يثير حنق الآخرين وبخاصة من ناحية جمع المصطلحات الطبية والمعقمات من أجود الأنواع : لا للاستعمال ولكن ليؤثر بها على عقول المرضى . وقد اقترح الجميع فى بيت الطلبة ديجامابى كلمة واحدة وهى « إذا لم تكن تفضل الطريقة التى نستذكر بها الطب سوف نبذل مافى وسعنا لأن نجتمع ونرسلك إلى الك ميلز حيث لا تجد منا نحن الطبقة الدنيا والتجاريين أية مضايقات. واعلم أننا لن نخبرك كيف يجب أن تعمل ومن أين أتيت بالفكرة التى تنسوقها لنا .؟ »

وقال أنجوس ديور معلقاً فى أسلوب رقيق ولكنه مشوب بالحنق : « إننا سنقر اننا ببساطة جماعة من التجاريين ، وإنك باحث عظيم ، إلا أن هناك أشياء كثيرة يجب أن تتجه إليها بعد أن تنتهى من دراستك للعلوم ، فماذا تعرف عن المعمار ؟ وما مدى المامك باللغة الفرنسية ؟ وكم من روايات ضخمة قرأت ؟ ومن هو رئيس وزراء النمسا — والمجر ؟ »

فقال مارتن مغضباً : « أنا لا أدعى بأنى أعرف شيئا — سوى أنى أعرف عن شخصيات مثل ماكس جوتليب ، فإنه يعرف المنهج السليم أما ماعداه من الأساتذة المهرجين فليسوا أكثر من أطباء سحرة ولعلك تظن أن جوتليب ليس متديناً ياهنكلى . ولم لا ، إن مجرد وجوده فى المعمل يعتبر أداء للصلاة ٠٠ ألا تدركون أيها الحمقى معنى وجود مثل هذا الإنسان هنا وهو يخرج للعالم بمفاهيم جديدة فى الحياة ؟ أفلا تدركون ؟ — »

وبعد فترة أخذ يتثاءب خلالها ، قال كليف كلوسون مفكراً :

« يصلى فى المعمل ! إنى أراهن بحياتى ، عندما كنت أدرس علم البكتريولجيا إذا كان جوتليب يرانى أصلى خلال الساعات التى تجرى فيها التجارب ! »

فصاح مارتن قائلا : « ياللعنة ، انصتوا ، إنكم أنتم أيها الزملاء : إنكم معشر الرفاق من الصنف الذى يجعل الطب مجرد عملية تشخيص يقوم على التخمين، وهاكم رجلا — »

وهكذا ظلوا فى مناقشات دامت ساعات يكدون فيها بحثا عن الحقيقة .

وبعد أن آوى الآخرون إلى مخادعهم وأمست الحجرة أكواماً مكدسة من الملابس الملقاة والشباب المجهدين يغطون فى نومهم فى أسرة من الحديد ، جلس مارتن إلى منضدة المذاكرة الطويلة المكسورة وقد استبد به القلق . وتسلل اليه انجوس ديور قائلا : « اصغ إلى أيها الابن الكبير لقد سئمنا جميعاً من ثرثرتك العالية • وإذا كنت تعتقد أن الطب عبث بالطريقة التى نستذكره بها ، وإذا كنت أمينا إلى هذه الدرجة فلم لاترحل من هنا ؟ »

ثم ترك مارتن يتألم وهو يقول « إنه على حق . إما أن أكف عن الكلام وإما أن أرحل • هل أعنى حقاً ما أقول ؟ ماذا أريد ؟ وماذا سأفعل ؟) .

— ٧ —

كان إقبال أنجوس ديور على الدرس وولعه به وتقديره للسلوك السليم ،يعكر صفوه غناء كايف المفزع وولعه بإلقاء مواد غريبة فى حساء الآخرين ، وقصوره عن تنظيف يديه . وكان ديور رغم ما بدا عليه من مثابرة خلال فترة المذاكرة لا يقل عصبية عن مارتن . وفى ذات مساء عند تناول العشاء كان كايف يحدث ضجيجاً شديداً فصاح ديور موبخاً :

— هل تتكرم فتوقف هذا الضجيج اللعين ؟

فرد عليه كايف بجزم : «سأعيث كيفما أشاء ، وأحدث ضجيجاً مثلما أشاء!» وبذلك نشبت المشاحنة بينهما .

وكان صوت كايف وضجيجه متزايداً إلى أبعد مدى حتى كاد يضيق ذرعا بصوته شخصياً . لقد كان يحدث ضجيجا فى حجرة الجلوس وفى الحمام وكان أحياناً يتمادى فيرقد في الفراش مستيقظاً ويتظاهر بأنه يغط فى نوم عميق محدثاً

شخيراً عالياً . ورغم أن ديور كان شخصاً هادئاً عاكفاً على كتبه إلا أنه لم يكن حييا فهب فى وجه كليف فى حزم وقوة محدثاً الرعب فى نفس كليف الذى ذهب سراً إلى مارتن ليشكو له ما فعله به ديور قائلا : « إنه يعاملنى كأننى حشرة صغيرة أمام عينيه ، لابد أن يترك أحدنا بيت الطلبة ويرحل ، هـذا أمر مؤكد ، ولـكن لن أكون أنا الذى يرحل! »

وكان كليف ثائراً بسبب ذلك ، بيد أنه كان هو الذى رحل قائلا إن ديجامابى « كانت زكاما من الألعاب الخاملة .. حتى أنك لا تجد فيها حتى لعبة البوكر » ولـكنه كان فى الواقع هاربا من نظرات أنجوس ديور القاسية ، وقد استقال معه مارتن من بيت الطلبة وصمما أن يقيما معاً فى حجرة فى الخريف القادم .

كان كليف مصدر إزعاج لمارتن كما كان شأنه مع ديور ، فانه لم يكن متحفظا ، فاذا لم يـكن فى جعبته قصصاً سخيفة يرويها فانه كان يسأل « كم دفعت ثمنا لهذا الحذاء — » أو « هل تصاحب هذه الفتاة مادلين فوكس — ماذا تحاول أن تفعل؟ »

ولـكن مارتن كان قد تغير عن شباب ديجـامابى المتحضر اللطيف المجاهد الذين استطلع فى وجوههم علامات المقهات والموتورات المغلقة الأنيقه وعـلامات المـكاتب الزجاجية ، فآثر العزلة الموحشة ، إذ أنه فى العام المقبل سوف يعمل مع ماكس جوتليب ولن يرتاح إلى المضايقات

ولقد أمضى هذا الصيف مع جماعة تركيب أجهزة التليفونات فى مونتانا .

كانت مهمته مع فرقة الأسلاك هى تولى عملية الخطوط فـكان يتسلق الأعمدة مثبتاً الحراب الحديديه المثبته فى قدميه فى الأعمده الخشبية الناعمة حاملا الأسلاك ثم يقوم بتوصيلها بالزجاج العازل ثم يهبط ليتسلق عمودا آخر وهـكذا .

كان أفراد الفرقة يعملون خمسة أميال فى اليوم ، وفى المساء يعودون فى عربات

خشبية صغيرة مهشمة .. كانوا يأوون فى الليل ببساطة ـ فيخلعون أحذيتهم ويلتفون فى بطانيات . وكان مارتن يرتدى زى العمال « أوفرول » وقميصاً من الفانلا فيبدو وكأنه عامل زراعى .

ولما كان يمضى سحابة يومه متسلقاً فإنه كان يبدو لاهثاً وقد ارتسم التعب على عينيه . وذات يوم وقعت له معجزة ..

(كان فى أعلى العمود ، وفجأة ، ودون سبب واضح ، تفتحت عيناه ورأى أمامه ؛ كما لو كان قد استيقظ لتوه ، ورأى أن الفيا فى الخضرة واسعة الآماد وأن الشمس قد احتدمت حرارتها فوق المروج وهى تنضج القمح ، كما اشتدت فوق ظهور الخيل وعلى وجه رفاقه المرحة الحمراء ، كما رأى بلابل المروج مبتهجة والطيور السوداء تحوم حول البرك ، ومع الشمس الساطعة كانت الحياة كلها ساطعة . فقال وهو يحدق بعينيه :

« ماذا لو كان أنجوس ديور وارفنج وترز صناعا مهرة ؟ وها أنا هنا ! »

كان أفراد فرقة الأسلاك يتمتعون بصحة وافرة وبساطة تماثل ريح الغرب ، فقد خلت نفوسهم من روح المباهاة ، وبالرغم من أنهم كانوا يتداولون الأجهزة الكهربائية فإنهم لم يكونوا يحفظون كالأطباء بعض المصطلحات العلمية التى يستعرضون مفرداتها أمام الفلاحين ويتظاهرون بأنهم علماء ، فهم يضحكون ببساطة ورضى بما هم فيه ، وكان مارتن هو الآخر يستبعد من مخيلته ، وهو يعيش بينهم ، أنه من سلالة سامية ، فكان يضمر لهم حباً لم يكن يكنه لأى إنسان فى الجامعة ، باستثناء ماكس جوتليب . وكان يحمل فى حقيبته كتاباً واحداً ، هو كتاب جوتليب عن التعقيم . وكان غالباً ما يقرأ نصف صفحة من صفحاته قبل أن يعكف على إحدى المعادلات الكيميائية . وكان أحياناً فى أيام الآحاد والأيام المطرة يحاول قراءته ، وغالباً ما كانت نفسه تتوق إلى العمل . وكان من

حين لآخر يفكر فى مادلين فوكس ، وكان مستيقناً بأنه قد صار وحيدا تهفو نفسه إليها . وتتابعت الأسابيع ، بلا اهتمام ، الواحد تلو الآخر . وعندما كان يستيقظ وهو فى إحدى حظائر الخيل يستنشق رائحة الدريس الحلوه ورائحة الخيل بينما كانت البلابل تسبح متجهة إلى قلب أعشاشها فى المدينة .. لم يكن يفكر إلا فى عمل اليوم وهو يتطلع نحو الغرب حيث تغرب الشمس .

ثم ركب القطار وقد نسى فرقة الأسلاك واخذ يفكر فقط فى مادلين فوكس وكليف كلوسون وانجوس ديور وماكس جوتليب .

الفصل الرابع

كان البروفسور ماكس جوتليب على وشك اغتيال خنزير من خنازير «غينيا» بجراثيم مرض الجمرة، وكان طلبة البكتريولوجي فى عصبية ظاهرة.

كانوا قد درسوا نماذج من الجراثيم وتداولوا أنواعها، وكانوا بكل اعتزاز قد نموا على شرائح البطاطس بعض أجناسها الحمراء التى لاضرر منها والآن قد وصلوا إلى الجراثيم المجلبة للأمراض وتطعيم الحيوانات الحية بأمراض سريعة. وهذان الخنزيران بعينهما المحببة وهما يرتجفان فى قدر ذى بطارية سوف يكونان فى مدى يومين قد تصلبا وفارقا الحياة.

كان مارتن يتسم باضطراب لايخلو من القلق فكان يضحك عندما يتذكر، فى ازدراء العالم، كم كان زوار المعمل بلهاء وهم يعتقدون أن ميكروبات تسفك الدماء سوف تقفز عليهم من أماكن بعيدة خفية، من المقاعد، ومن الهواء ذاته، بيد أنه كان يعلم أنه فى أنابيب الاختبار المحشوة بالقطن بين أحواض الأدوات والأوعية على طاولة التجارب توجد ملايين من جراثيم مرض الجمرة المميتة.

كانت حجرة الدراسة يبدو عليها الوقار، ولم تكن محكمة تماماً. وبالأسلوب الفنى والسرعة الأكيدة التى تضفى الوقار على أقل حركة من يد الدكتور جوتليب، امسك الدكتور بالشعر الذى فوق بطن خنزير غينيا الذى امسك به مساعده، ثم غطى البطن بطبقة من الصابون بوساطة فرشاة يد، ثم حلق الشعر ودهن البطن باليود.

وكان ماكس جوتليب يذكر دائما فى شغف تلاميذه الأول بعد عودته توا من عمله مع كوك وباستير، وعندما كانت لا تزال عالقة بذاكرته كثير من تجاربه واختباراته معهما وتلك المناقشات المثيرة المحتدمة. يالها من أيام جميلة بالغة

الروعة! ولقد كان طلبته الأوائل في أمريكا، بكلية كوين سيتي، يعتريهم الذهول من أثر الاكتشافات الرائعة في علم البكتريولجيا ... وكان أولئك الطلبة يلتفون حوله في إجلال وشغف للاستزادة من المعرفة .. والآن أصبح الطلبة كلهم كجماعة من الغوغاء، فتطلع إليهم — فاتى بفاف في الصف الأمامي وقد علت الدهشة وجهه، وباقي رفاقه وقد اشتملتهم الرجفة والارتياح .. بيد أن الذكاء كان باديا على وجه مارتن أروسميث وانجوس ديور فقط . وعاد بذاكرته إلى إحدى الأمسيات في ميونخ عند الغسق الواهن، واستعاد منظر الجسر وفتاة تنتظر .. وأنغام الموسيقى . ثم غمس يده في محلول البيكلوريد، ثم هزها هزة سريعة وأصابعه مدلاة إلى أسفل كإصبع عازف البيانو فوق المفاتيح .. ثم تناول حقنة تحت الجلد من حمام الأدوات ورفع أنبوبة الاختبار وارتفع صوته بألفاظ ألمانية، ثم قال: « هذه المزرعة، أيها السادة، من باسيلات الجمرة[1]، نشأت في أربع وعشرين ساعة. وتلاحظون، وأنا واثق أنكم لاحظتم من قبل، أنه في قاع الكوب كان يوجد قطن حتى يحمي الزجاج من الكسر، فأنا لا أنصح بكسر أنابيب جراثيم الجمرة ووضع أيدينا بعدئذ في مزرعة البكتريا، إذ من المحتمل أن تصابوا ببثور الجمرة . » فأخذت الرجفة تسري في أوصال الطلبة واقشعرت أبدانهم، ثم انتزع جوتليب الصمام القطني بأصابعه الرقيقة في حيطة ونظافة ودقة حتى أن طلبة الطب الذين اشتكوا قائلين « إن علم البكتريا حطاما باليا وأن تجارب البول والدم هي كل ما في العمل من مواد يجب أن نعرفها » منحوه في تلك اللحظة إجلالا وتقديراً كذلك الذي يمنحه المرء للاعب الورق المحترف الذي أتى بالعجائب، أو لذلك الجراح البارع الذي يستأصل الزائدة الدودية في سبع دقائق . ثم حرك فوهة الأنبوبة في مصباح بنزن الحارق مهمهما : « كلما انتزعت الصمام من الأنبوبة اشتعلت فوهة الأنبوبة، فاتخذوا تلك كقاعدة، إنها ضرورة فنية والفن أيها السادة هو بداية كافة العلوم، وهو أيضاً أقل شيء يجب معرفته في العلوم . »

---

(١) نوع من الجراثيم يسبب مرض الجمرة .

كان الطلبة قد استنفد صبرهم ، لماذا لم يواصل تلك اللحظات المخيفة المسلية لتطعيم الخنزير ؟

(قال ماكس جوتليب وهو ينظر إلى الخنزير الغينى الآخر الأسير فى محبسه : «برىء شقى ، لماذا أقتلك لأعلم هؤلاء الحمق ؟ إنه من الأفضل أن أجرى التجارب على هذا الشاب البدين . »)

ثم غمس الحقنة فى الأنبوبة وسحب كباس الحقنة بحذق بأصبعه السبابة وأخذ يحاضر الطلبة :

« خذ نصف سنتيمتر مكعب من مزرعة البكتريا . . وهناك نوعان من الأطباء — النوع الأول أولئك الذين تعنى كلمة س . س عندهم سنتيمتر مكعب والنوع الثانى أولئك الذين تعنى الكلمة بالنسبة لهم مسهلا مركبا ، والنوع الثانى أكثر نجاحاً . »

(ولكن لا يستطيع الإنسان أن ينقل الحديث ، الثغثغة فى الكلام ، والتهكم الرقيق الذى يشيع فيه ، وقد تحول الكلام البطىء الرقيق التهكمى وهمس حرفى السين والدال إلى صوت التاء بطريقة جافة ومتحدية) .

وأمسك المساعد بالخنزير الغينى جيداً ، وقرص جوتليب جلد البطن ثم ثقبه بوخزة سريعة بوساطة إبرة تحت الجلد فاهتز اهتزازة طفيفة ثم أحدث أنينا فسرت القشعريرة بين الطلبة وكانت أصابع جوتليب الحكيمة تعلم متى تصل إلى الحاجز البريتونى فأخذ يغوص بالمحقن وقال بهدوء « هذا الحيوان المسكين سوف يموت حالا على وجه التأكيد » . وأخذ الطلبة يتطلعون إلى بعضهم بعضاً فى قلق : « إن بعضكم سوف يعتقد أن ذلك لا يهم وإن بعضكم الآخر سوف يعتقد كما يعتقد برنارد شو أنى جلاد بل وأكثر وحشية لأنى أفعل ذلك ببرود ، وبعضكم سوف لا يفكر على الإطلاق . إن هذا الاختلاف فى الفلسفات هو الذى يجعل الحياة شيائقة جميلة . »

وبينما كان المساعد يركب اسطوانة من الصفيح فى أذن الخنزير ويعيده إلى جرته سجل جوتليب فى مذكرة ،وزن الخنزير وموعد الحقن وعمر مزرعة البكتريا . ثم دون هذه الملاحظات على السبورة برموزه الدقيقة ، وهـــو يتحدث بصوت خفيض « إن أهم شيء فى الحياة ، أيها السادة ، ليست الحياة نفسها ولـكن تأمل الحياة ... كما وأن أهم شيء فى التجربة ليس إجراء التجربة وإنما تدوين الملاحظات تدوينا دقيقا كميا — ولقد علمت أن كثيراً من الناس المهرة يستشعرون بأن فى استطاعتهم أن يحتفظوا بالملاحظات فى أذهانهم بيد أننى غالباً ما شاهدت بـكل سرور أن هؤلاء القوم ليست لديهم أذهان يحتفظون فيها بملاحظاتهم .. وهذا لا بأس به ، إذ لن يرى العـالم نتائج جهودهم ولن يـكونوا ثقـلا على العلم . . والآن سوف أقوم بحقن الخنزير الثانى وسوف ينصرف الطلاب . وقبل البدء فى محاضرة المعمل القادمة يسرنى لو طالعتم كتاب باتير « ماريوس الأبيقورى » فتستمدون منه الهدوء الذى هو سر الحذق فى العمل . »

— ٢ —

بينما كان الطلبة يتدافعون فى البهو قال انجوس ديور لأحد زملائه فى بيت الطلبة ديجامابى « إن جوتليب خبير معمل محنك ، وهـــو مبرأ من الأوهام والخيالات وعرض الدنيا فهو يلازم ذلك المـكان بدلا من الخروج إلى العالم ليتمتع بالـكفاح . ومما لاشك فيه أنه خفيف الحركة وذو براعة فنية رائعة ، وقد يـكون جراحاً حاذقا من الطراز الأول . وكان من الممكن أن يربح خمسين ألف دولار سنويا ، إلا أنه بوضعه الحالى ـــ على ما أعتقد ـــ لا يحصل على أكثر من أربعة آلاف .

وكان أراهنكلى يسير وحده وقد استبد به القلق ، وكان شخصا رقيق الحاشية إلى أقصى ما تـكون الشفقة ، هذا القس ضخم الجسم .

وكان يتقبل دائماً أى شىء بتقدير مهما كان متناقضاً مع غيره ــ هذا هو ما أفضى به له أساتذته ــ بيد أن قتل الحيوانات هو الشىء الذى كان يكرهه . ودون أية علاقة واضحة فى ذهنه تداعت إلى مخيلته أنه فى يوم الأحد السابق ، وفى إحدى الكنائس القائمة بأحد الأحياء الفقيرة وحين كان يقوم بأداء الوعظ خلال فترة دراسته فى كلية الطب ، مضى يثنى على تضحية الشهداء ، وأنهم كانوا يغنون عن دماء الشاه والنافورة المليئة بالدماء والتى تتدفق من شرايين عمانويل ، ولكنه نسى تلك الشفاعة وعاد إلى بيت الطلبة ديجامابى تخيم عليه سحابة من الشفقة والأسى .

وبينما كان كليف كلوسون يسير مع فاتى بفاف صاح قائلاً : « .. لاشك أن الخنزير اهتز عنـــدما وخزه جوتليب بالإبرة !.» وتوسل إليه فاتى قائلاً : « لا تذكر ذلك من فضلك ! » بيد أن مارتن أروسميث ألفى نفسه يؤدى العملية ذاتها ،وعندما تذكر أصابع جوتليب التى لا تخطىء تقلصت يداه مقلدة إياه .

— ٣ —

أخذت الخنازير الغينية تتحدر وتتخدر . وفى مـــدى يومين ألقيت على الأرض وأخذت تحتضر وتعانى النزع وتتقلص ثم ماتت وقد التف الطلبة حول تلك الجثث وقد استبد بهم ترقب مثير. وكان على نضد الدرس صينية خشبية طالما ثبتت عليها الجثث منذ سنين . وكانت الخنازير الغينية فى أوانى من الزجاج متصلبة ، وقد تجعد شعرها.. وتذكر الطلبة كيف كانت حية يوما ما ، وقام المساعد بطرح إحداها بوساطة خطاف ، ثم مسح جوتليب البطن بقطعة من القطن المبلل بمطهر اليازول ثم تدرج من البطن إلى العنق . ثم قام بكى القلب بمادة كاوية ساخنة فاقشعر الطلبة عندما سمعوا صوت اللحم يحترق ، ثم سحب الدم الأسود كما يفعل القسيس ذو الأسرار الشيطانية الخبيثة ، ثم أعد المساعد من الرئة والطحال

والكبد عينات على شرائح من الزجاج الملون و ناولها للطلبة ليقوموا بفحصها ، فكان الطلبة الذين تدربوا على النظر فى المجهر دون أن يطرفوا أحد العينين يشعرون بالفخر لحذقهم ومهارتهم . وتحدثوا جميعاً عن جمال التعرف على الباسلات عندما حركوا المفاتيح النحاسية نحو الاتجاه الصحيح وظهرت الخلايا من غموضها إلى وضوح تام على الشرائح تحت أعينهم . ولكنهم كانوا يشعرون بقلق لأن جوتليب ظل معهم طيلة النهار يدور من ورائهم دون أن يقول شيئاً ، يلاحظهم ويلاحظ عملية التخلص من بقايا الخنازير الغينية .. ثم سرت إشاعة مفزعة بين المقاعد عن طالب مات فى المعمل بسبب عدوى الجمرة .

— ٤ —

كان مارتن فى هذه الأيام تغمره بهجة فياضة ؛ نشوة مباراة سريعة فى الهوكى ، وهدوء المروج ورواثها ، وافتتانه بأنغام الموسيقى . . وإحساساً بالابتكار . كان يستيقظ مبكراً ويفكر فى نهاره راضيا ، ثم يسرع إلى عمله لا يلوى على شىء .

وكانت الحركة الدائبة فى المعمل البكتريولوجى تبعث الطرب إلى نفسه .. فالطلبة قد شمروا عن سواعدهم ينقون جيلاتين التغذية ، وأصابعهم مصمغة من أوراق الجيلاتين الثنية ، إذ يقومون ببعض التجارب على استنبات الجراثيم .

وصوت شعلة بنزن تحت أفران الهواء الساخن ، والبخار يتصاعد من معقمات آرنولد ، ثم لا تلبث أن تتكون سحابة على النوافذ .. كل ذلك كان بالنسبة لمارتن مبعث نشاط وحيوية ؛ كما كانت من بين الأشياء التى تضفى السرور على نفسه فى الحياة ، صفوف أنابيب الاختبار المليئة بالمصل المائى والمغلقة بصمامات من القطن وصف زجاجات الاختبار الطويلة وهى تتصل على نحو غريب بأوعية أو زجاجات كبيرة مليئة بدهان قرمزى .

وبدأ مارتن كأنما يقوم بمحاكاة جوتليب فى صباه ـ يعمل بنفسه فى المعمل

ليلا .. وكانت الحجرة الطويلة معتمة للغاية لولا وجود المصباح الزجاجي خلف مجهره . وكان المخروط الضوئى يلقى لمعانا على أنابيب النحاس البراقة وعلى شعره الأسود بينما هو عاكف منحنى فوق منظار العين .

وكان مضطرباً ومعتزاً بنفسه إلى حد ما إذ لون الجراثيم تماماً ، وليس من السهل أن تقوم بهذه العملية البالغة الدقة دون أن تتعدى على الشكل الأصلى .

وفى الظلام تناهت أصوات خطى ، خطوات ماكس جوتليب الذى أقبل وأراح يده على كتف مارتن ورفع مارتن رأسه فى هدوء ودفع المجهر نحوه .

وقد انحنى جوتليب وفى فمه لفافة تبغ يتصاعد منها الدخان الذى يسيل الدمع من عين أى إنسان ، ومضى ينظر إلى التحضير • ضبط ضوء الغاز ربع بوصه ثم قال متأملا : « رائع ! إنك لحاذق . أوه إن بعض الخاصة يجدون فناً فى العلم، وإن الكثرة منكم أيها الأمريكيون لديهم الوفير من الأفكار ولكن ينقصهم الصبر على مداومة العمل المجهد ، وإننى لأرى لتوى حذقك ـ ولقد راقبتك فى المعمل قبل ذلك ـ ربما قبل أن تباشر تجربة العذاميات الخاصة بمرض النوم . إنها مسلية للغاية ، كما إنها سريعة بالغة التأثر عند تداولها . إنه مرض لطيف جداً وفى بعض القرى فى أفريقيا يصاب ٥٠ ٪ من الأهالى ، وإنه على أى حال مميت . أجل إننى أحسب أنك قد تجرى التجارب على حشرات البق . »

كان ذلك بالنسبة لمارتن بمثابة دخول فرقته العسكرية إلى حومة الوغى .

وقال جوتليب : إننى سوف أتناول شطيرة فى حجرتى عند منتصف الليل فإذا ماحدث أن تأخرت فإنه ليسرنى قدومك لتتناول لقمة معى . »

وعبر مارتن البهو المؤدى إلى معمل جوتليب المقدس متهيباً عند منتصف الليل، وكان على البنك قهوة وشطائر غريبة صغيرة وفائقة الجودة فى طعمها بالنسبة لما يتناوله مارتن فى حجرته •

وظل جوتليب يتكلم حتى أحس كايف أنه يتوارى من الوجـود واستشعر أنجوس ديور أنه انتهارى تعيس ، كان يستعيد ذكرياته فى معامل لندن ووجبات العشاء فى الأمسيات الجليدية فى ستوكهولم ، وتلك النزهات الخلوية عند غروب الشمس وراء قبة سان بيترو ، والأخطار المتناهية ،والأقذار المنتشرة فى مرسيليا مما يجعلها مكاناً صالحاً للأوبئة .. لقد نسى جوتليب نفسه ومضى يتحدث عن شخصه وعن أسرته كما لو كان مارتن أحد معاصريه .

ومضى يتحدث عن ابن خاله الذى كان يشغل وظيفة كولونيل فى أورجواى وابن خالته الحاخام الذى نكل به فى موسكو ، وقرينته التى كانت تعانى من مرض ربما يكون السرطان ، وعن أبنائه الثلاثة ومن بينهم ميريام ، أصغر بناته ، وهى موسيقية بارعة . أما الفتى فكان يناهز الرابعة عشرة من عمره مبعثاً للمتاعب ومصدراً للاضطراب ، إذ لم يكن يستذكر دروسه ، أما هو نفسه فقد أخذ يعمل عدة سنوات فى إعداد بعض تجاربه العلمية ، بيد أنه وصل الآن إلى طريق مسدود ، ولم يكن فى مدينة موهاليس أحد يعنيه الأمر فيشجعه ، إلا أنه أتيح له الوقت المناسب ليحلل بعض النظريات ، ولقد أضفى ذلك على نفسه البهجة وأشاع فيها السرور .

وقال جوتليب ... كلا إننى لم أفعل شيئاً سوى أننى كنت عنيداً مع أولئك المتباكين الأدعياء . بيد أن ثمة أحلام تراودنى عن اكتشافات حقيقية سيزاح عنها الستار يوماً من الأيام ، .. كلا لم أوفق خمس مرات فى خمسة أعوام أن يكون لى طلبة على مستوى الحذق والمهارة . وربما يكون لونا من التخيل والافتراض أن أرى أنكم تحوزون الصلاحية ، وإذا استطعت أن أعاونكم .. فلا مانع لدى .. ولست أعتقد أنك ستصير طبيباً ماهراً فإن الأطباء المهرة منعمون ـ وغالباً مايكونون فنانين ـ إلا أن حرفتهم ليست لنا نحن معشر المعتزلة الذين يعملون فى المعامل . وحينما حصلت على درجة الماجستير فى هايدلبرج عام ١٨٧٥ لم أعد أستسيغ عمليات تضميد السيقان والتطلع إلى ألسنة المرضى .

وقد كنت احد أتباع هيلمهولتز ـ أى شاب ضحوك غريب كان ! وقدحاولت ن أجرى أبحاثاً فى علم الصوت ـ بيد أننى كنت سىء الطالع ،ولم يكن ثمة أحد يعتقد فى مقدرتى على الإطلاق ، إلا أننى أدركت أنه فى غمرة الدموع ليس هناك شىء أجدى من الطريقة الكمية .

ولقد كنت كيميائياً ـ ولم يكن يفوقنى أحد فى تحضير الروائح الكريهة ـ وهكذا أستطعت أن أكتشف شيئاً أو شيئين فى علم الأحياء ومتاعبه ، وكان ذلك خيراً بالنسبة لى . وإذا ما كنت أشعر أحياناً بالوحشة فإنه كان لزاما على أن أهجر ألمانيا لأننى رفضت غناء أغنية بذاتها ، ولأنى حاولت قتل قائد من الفرسان ـ وكان شخصاً عظيم الجثة. وكان لابد أن أخنقه . أنكم ترون أنى أتباهى بذلك ولكننى كنت فتى يفيض حيوية منذ ثلاثين سنه أوه ! هكذا !

إن هناك شيئاً واحداً مقلقاً بالنسبة لعلماء البكتريولوجى المتفلسفين : لماذا يجب القضاء على هذه الجراثيم الوديعة المحدثة للأمراض ؟

فهل نحن متأكدون تماما عندما نلاحظ أولئك الطلبة الذين يترددون على جمعيات الشباب المسيحية وينشدون الأناشيد ويرتدون القبعات التى رسمت عليها الرموز — إنه من الجدير حمايتهم من باسلات التيفوس اللطيف واسترخائه المحبوب ؟ وأنتم تعلمون أنى قد طلبت ذات مرة من العميد سيلفا أنه قد يكون من الأفضل أن يطلق سراح جراثيم الأمراض فى العالم ،وبذلك نحل جميع المشاكل الاقتصادية ، ولكنه لم يعر التفاتا الوسيلة التى اقترحتها . حسنا إنه أكبر منى سناً، ولقد سمعت أنه يقيم ولائم للقساوسة والقضاة وهم يرتدون جميعا أجمل الثياب ، إنه يعلم أكثر مما يعلم اليهودى الألمانى الذى يهيم بالأب نيتشه والأب شوبنهور (ولكن عليه اللعنة فقد كان غائب العقل !) والأب كوخ والأب باستير والأخ

جاك لويب والأخ أرنيوس . . إن ما أقوله ضرب من الحماقة دعنى أعود لأرى شرائحك وأسعد الله مساءك .

وحينما ترك جوتليب فى منزله الصغير الكئيب كان وجهه يشيع فيه الهدوء كما لو كان عشاء منتصف الليل والحديث المتشعب المشتت لم يحدث قط وهرع مارتن إلى منزله وهو ثمل تماما .

الفصل الخامس

إن كانت البكتريولوجيا أصبحت الآن جماع حياة مارتن فقد كان من المقرر في الجامعة أن يدرس أيضاً الباثولوجي وعلم الصحة والتشريح الجراحي وموضوعات أخرى كثيرة كفيلة بأن تستغرق وقت أي عبقري .

وكان مارتن يقطن مع كليف كلوسون في حجرة كبيرة كسيت حوائطها بأوراق رسمت عليها الزهور وبها أكوام من الملابس القذرة والأسرة الحديدية ، وكانوا يعدون طعام إفطارهما بأنفسهما ويتناولان غذاءهما من اللحم المفروم في إحدى المطاعم المتنقلة أو في مطعم « قطر الندى » . وكان كليف عنيدا أحيانا ومصدرا للمضايقة ، فكان يكره أن تكون النوافذ مفتوحة كما كان يتحدث عن الجوارب القذرة ، وكان يغني أغنية « البعض يموت من مرض البول السكرى » أثناء عكوف مارتن على المذاكرة كما لم يكن في مقدوره أن يتحدث عن شيء بصفة مباشرة . كان لابد أن يكون مرحا إذا كان يقول على سبيل الملاحظة « أفي مفهومك أنه يجب الآن أن نعيد الشباب للعجائز ؟» أو « ماراًيك في التهام كمية من السعرات الحرارية ؟ » ، بيد أنه كان بالنسبة لمارتن شخصا محببا بما طبع عليه من بهجة وألمعية وشجاعة متوارية . كان كليف بوجه عام أجل شأناً مما لو أخذنا في التقدير شخصيته جزءا جزءا .

وفي غمرة السرور بالعمل في المعمل كان مارتن يفكر أحيانا في زملائه في ديجامابي ، فكان من حين لآخر يعترض أن أراهنكلي يصلح أن يكون شرطيا ريفيا ، وأرفنج وترز سباكا ، وأن انجوس ديور كان يحاول أن يحقق لنفسه النجاح بأية وسيلة ، وأن فاتى الأبله الانتهازى مجرما ، بيد أنه في أغلب الأحيان كان يتجاهلهم ، وكف عن أن يكون مبعث شر — وعندما أحرز انتصاراته

الأولى فى البكتريولوجيا وا كتشف أنه لا زال يجهل الكثير أمسى متواضعا إلى أقصى حدود التواضع وعلى نحو عجيب .

وإذا لم يكن مبعث ضيق لزملائه فى الدراسة فإنه كان أقل مضايقة فى حجرات الدرس . ولقد تعلم من جوتليب فن استعمال لفظة « التحكم » بالنسبة للفرد أو الحيوان أو المواد الكيماوية التى لم تعالج أثناء التجربة — وباعتبارها أداة للمقارنة فإنه لم تكن هناك وسيلة أكثر إثارة من تلك ، فعندما كان أحد الأطباء يتفاخر بنجاحه فى استعمال هذا الدواء أو تلك الخزانة الكهربائية ، كان جوتليب لايلبث أن يقول زاعقا « أين كان تحكمك ؟ كم من حالة عرضت عليك تحت ظروف واقعية وكم من حالة من هذه الحالات لم تتحقق لها العلاج ؟ »

ولقد بدأ مارتن الآن يهتف بتلك الكلمة — تحكم ، تحكم ، تحكم أين تحكمك ؟ أين تحكمك ؟ — حتى صار معظم زملائه وبعض أساتذته يرغبون فى مؤاخذته .

كان قد أصابه الملل من مادة العلاج الطبى على الأخص .

وكان أستاذ مادة العلاج الطبى ، الدكتور لويد دافيدسون ، من الممكن أن يكون صاحب حانوت ذائع الصيت ، وكان مشهورا جدا ومنه تعلم أطباء المستقبل أهم الأشياء ، تعلموا منه الدواء الناجع المناسب للمريض خاصة عندما تعجز عن معرفة مايعانيه ذلك المريض . وكان طلبته يصغون إليه فى حماس ويستذكرون الوصفات المائة والخمسين المقدسة المحببة (وكان يفاخر أن ذلك كان يزيد بمقدار خمسين وصفة عن تلك التى دعا إليها من سبقه) .

ولكن مارتن كان ثوريا عصبيا فجاهد مستفسرا علانية قائلا : « يادكتور دافيدسون ، كيف عرفوا أن نوعا معينا من الأسماك مفيد بالنسبة لبعض الالتهابات الجلدية ؟ أليس هذا هو الحال مع السمك المتحجر المتعفن الذى كانوا يصفونه فى العصور القديمة ؟ »

فانبرى الدكتور مجيبا عليه : « كيف عرفوا ؟ ولماذا ياصديقى الصغير الحاذق ، ذلك لأن آلافا من الأطباء استعملوه لمدة سنين واكتشفوا أن المرضى يتحسن حالهم باستعمال هذا الدواء ، وهكذا عرفوه ! »

وقال مارتن : « ولكن ، أيها الدكتور ، ألم يكن هناك من وسيلة أخرى سوى ذلك لتحسين حال المرضى ؟ أليس من المحتمل أن يكون ذلك بعامل الصدفة البحتة ؟

وهل أجروا التجارب على طائفة من المرضى معا ، مع التحكم ؟ »

« قد لا يكون من المحتمل — وحتى يستطيع بعض العباقرة من أمثالك ياأروسميث أن يجمعوا سويا عددا من المرضى يبلغ المائة يعانون جميعا من نفس حالة الالتهابات الجلدية ليس من المحتمل أن تجرى مثل تلك التجربة ! وفى الوقت ذاته فإنى أيها السادة واثق من أنكم أنتم الذين تنقصكم كفايات مستر أوروسميث العلمية العريقة والقدرة على استعمال المصطلحات الفنية المتداولة مثل « تحكم » وسوف تستمرون تقريبا بناء على توجيهاتى فى استعمال عبارة نوع معين من السمك ! »

ولكن مارتن مضى فى إصراره قائلا « من فضلك ، يادكتور داڤيدسون مافائدة حفظ هذه الوصفات جميعا عن ظهر قلب بوسيلة أو بأخرى ؟

إننا سوف ننسى معظمها ، وفضلا عن ذلك فإننا نستطيع دائما أن نطلع عليها فى الكتاب » .

وعندئذ زم داڤيدسون شفتيه إلى بعضها بعضا وقال :

« ياأروسميث إن رجلا فى مثل سنك يجعلنى أكره أن أرد عليك بمثل ماأرد على طفل فى سن الثالثة . ولكنه يبدوا أن ذلك لا مفر منه — ولذلك فإنك سوف تدرس خاصيات العقاقير ومكونات الوصفات لأنى أخبرك بذلك ! ولو أننى لم أتردد فى أن أضيع وقت زملائك الطلبة لحاولت إقناعك بأن كلامى

يمكن قبوله ليس تحت ضغط نفوذى المتواضع ولكن لأنه نتاج الحكماء ـ قوم أكثر منك حكمة وأكبر منك سنا ، ياصديقى ـ لعدة عصور ، وبالنسبة إلى أننى لا أود الإغراق فى الخيال والبلاغة والألفاظ الرنانة فإننى أقول ببساطة إنك سوف تقبل وسوف تذاكر وسوف تتذكر لأنى أخبرك بذلك . »

وفكر مارتن فى خفض منهجه فى الدراسة والتخصص فى علم البكتريولوجيا، وحاول أن يضع ثقته فى كليف إلا أن كليف كان قد تقذصبره من إزعاج مارتن له ، ومن ثم لجأ مرة اخرى إلى مادلين فوكس ذات الحيوية الفياضة والنشاط .

— ٢ —

لقيته مادلين لتوها عطوفة وفى رقة بالغة .وتساءلت لماذا لا يتم دراسته فى الطب . فلنرى إذن ماذا إذا يريد أن يفعل .

وقاما ببضع رحلات خلوية على الأقدام ومضيا فى التزحلق على الجليد محلقين فى السماء ، ومضيا لمشاهدة بعض الروايات التى تحييها جماعة التمثيل فى الجامعة .

كانت والدة مادلين الأرملة قدعادت لتقيم مع ابنتها واستأجرا شقة فى الطابق العلوى لأحد المنازل التى بدأت تحل محل المنازل الخشبية القديمة التى كانت منتشرة فى مدينة موهاليس . كانت الشقة مليئة بكتب الأدب وبعض التحف ؛ فكان بها تمثال برونزى للإله بوذا من شيكاغو ونصوص من كتابات شكسبير وأعمال أناتول فرانس مترجمة ، وصورة لكاتدرائية كولون ، ومنضدة شاى من الخيزران بها غلاية لا يستطيع أحد فى الجامعة أن يدرك كيفية استعمالها ، وألبوم لطوابع بريد تذكارية . وكانت والدة مادلين أرملة من أصل هولندى من حى مين ستريت ، رائعة القوام ذات شعر أبيض، ولكنها كانت تتردد على الكنيسة ، كما كان زعجها فى مدينة موهاليس حديث الطلبة . وكانت تتوق إلى المدينة التى تعتبر مسقط رأسها . وإلى رفقاء الكنيسة ، واجتماعات نادي السيدات .

كانوا يدرسون هذا العام التعليم . ولم تكن تود أن تفقد جميع المعلومات عن نظم الجامعة . ومع استقرار مادلين ، بوجود أسرتها ومربيتها ، بدأت تحيي حفلات الساعة الثامنة مساء تدور فيها القهوة وكعك الشيكولاتة وسلطة الفراخ والألعاب اللفظية ، وقد دعت مارتن إلى هذه الحفلات ـ بيد أنه كان حريصاً على أن يعضي أمسياته الجميلة في البحث والدروس.وكان أهم ما أغراه في تلك الحفلات، حفلتها الكبرى بمناسبة السنة الجديدة التي تقيمها في شهر يناير . وقد نشروا عنها إعلاناً — صمم في لوحة الصور الإعلانية — ومضوا يرقصون على موسيقى الحاكى ولم يتناولوا عشاء شبيها بعشاء المعمل ، إذ أن الموائد الصغيرة كانت مفعمة بأطايب الطعام إلى حد كبير .

لم يكن مارتن قد اعتاد على مثل هذه الرشاقة والأناقة ، وبالرغم من أنه وفد إلى الحفل متجهماً ، ساخطاً ، إلا أن العشاء أغراه . وإلى جانب روعة ملابس الفتيات أحس أن أداءه للرقص كان مستهجنا . واعتمل الحسد في صدره نحو أولئك الذين يتفوقون عليه في أداء بعض الرقصات الجديدة واسمها رقصة بوستون، وكان مارتن أروسميث يتطلع إلى كل مظهر من مظاهر القوة والرشاقة عندما كان شعوره بها يستغرق كل كيانه وإنه وإن كان طامعاً إلى حد ما في الاستحواذ فإنه كان متعطشاً إلى كل نوع من أنواع المهارات .

ولقد تاه منه تأمله وتعجبه المتردد في الآخرين في خضم إعجابه بمادلين ،فلقد سبق له أن رآها خارج منزلها في ثياب الخروج ، بيد أنه الآن يراها في منزلها فتاة رشيقة القوام ترتدى ثيابا حريرية صفراء — وقد بدت له معجزة من معجزات الخفة والرشاقة ، وهي ترحب بضيوفها بروح من البهجة . وكانت في حاجة إلى شيء من اللباقة لأن الدكتور نورمان برومفت كان موجوداً،وكانت إحدى أمسيات الدكتور برومفت الذى كان فيها واقعيا وشقيا . وقد تظاهر بأنه يقبل والدة مادلين،مما لم ترتح له السيدة المسكينة ، ثم مضى يغني أغنية زنجية من بين كلماتها كلمة الجحيم،وقد ذكر للسيدات الحريجات أن من المرجح أن مغامرات جورج ساند العاطفية يمكن تبريرها

إلى حد ما بتأثيرها على النابغين من الرجال . وعندما بدا أن الحاضرات قد صدمن من حديثه هذا . قفز قليلا من مكانه وقد لمعت نظارته ..

وقد تولت مادلين أمره ، وقالت بصوت مرتفع « إنك يا دكتور برومفت قد بلغت شأواً رفيعاً من العلم وما إلى ذلك وغيره ، وأحياناً فى حجرات الدراسة بالإنجليزية كنت أخشى منك غاية الخشية، وأحياناً أخرى لم تكن تبدو إلا كغلام غر ، ولن أتيح لك فرصة مغازلة الفتيات ، فلتساعدنى فى إحضار الشراب ..وهذا ما تستطيع أن تؤديه . »

كان مارتن يحب مادلين حتى العبادة ، وكان يكره برومفت لأنه كان يختفى معها فى حجرة صغيرة كالمطبخ فى الشقة . مادلين ، لقد كانت الإنسانة الوحيدة التى تفهمه هنا حيث كان كل إنسان يحاول أن يتخطفها ، كما كان دكتور برومفت يواجهها بألوان من الغزل الصارخ . كانت بالنسبة له شيئاً ثمينا ، شىء لابد من أن يفوز به ويستحوز عليه .

وبينما تظاهر بأنه يساعدها فى إعداد الموائد انفرد بها لحظة وقال « يا إلهى إنك آية فى الجمال » .. « أنا لسعيدة إذ أشعر أنك تعتبرنى جميلة . » لقد كانت فى نضارة الزهرة التى يقدسها العالم كله وقد منحته رضاها ، فقال لها :

« هل أستطيع أن أقوم بزيارتك مساء غد ؟ . »

« حسنا أنا — ربما . »

— ٣ —

لا يمكن القول فى ترجمة سيرة شاب لم يكن فى عداد الأبطال والذى كان يعتبر نفسه باحثاً عن الحقيقة ،ومع ذلك كان يتعثر ويصاب بنكسات فى الحياة ، ويوحل

نفسه فى أرض سبخة أن اتجاهات مارتن بالنسبة لمادلين كانت «شريفة» . فإنه لم يكن دون جوان ولكنه كان طالب طب فقير ، كان عليه أن ينتظر أعواماً حتى يستطيع أن يقيم أود نفسه . ومما لا شك فيه أنه لم يفكر فى الزواج ، فإنه كان يريد — مثل معظم الشباب الفقير المتحمس فى مثل هذه الحالة الحصول على أقصى ما يستطيع أن يحصل عليه .

كان كلما يهرع نحو مسكنها يتوقع حدوث مغامرة . كان يتصورها تذوب لوعة ، وكان يحس بيدها تنزلق فوق خديه ولكنه حذر نفسه قائلا « لا تكن أحمق الآن ؟ قد لا يحدث شىء على الإطلاق ، فلا تشغل بالك ثم تفاجأ بخيبة الأمل ، فمن المحتمل أن تعاتبك على خطأ وقع منك أثناء الحفلة ، وربما تكون نائمة ، وتود لو أنك لم تحضر ! » ولكنه لم يكن ليؤمن بذلك لحظة واحدة .

ودق الجرس ورآها تفتح الباب وتبعها إلى البهو وهو متلهف إلى أن يأخذ يدها، ثم دخل إلى حجرة الجلوس المتألقة حيث ألفى والدتها صامدة كالهرم ، وعيناها تتطلعان فى جمود وبرود كما لو كانتا شتاء بلا شمس . . وكان من المفروض أن تتنحى الأم وتتركه لها ، بيد أن الأم لم تفعل .

كان الوقت اللائم فى مدينة موهاليس ليغادر الشبان المدعوون الحفل الذى دعوا إليه هو الساعة العاشرة ، ولكن الذى حدث أنه من الساعة الثامنة حتى الساعة الحادية عشرة وربع ظل مارتن مشتبكا فى مناقشات مع السيدة فوكس ، وكان يحادثها بلهجتين ، لهجة غير مسموعة للناس ، ولهجة مشوبة بالاحتجاج الصامت الغاضب ، بينما كانت مادلين ، وهى حاضرة معها ، جالسة وقد بدت رائعة الجمال . وبمثل اللهجة الساكنة كانت تجيبه السيدة فوكس حتى اكفهر جو الحجرة واستفاض بعدائها بينما كان يبدو كما لو أنهما يتناولان الحديث عن الطقس والجامعة وخدمات الترولى فى مدينة زينيث .

وقال متثاقلا : « أجل ، لا شك أننى أحسب أنه فى يوم من الأيام سوف يكون هناك سيارة كل عشرين دقيقة » .

(« عليها اللعنة لم لا تذهب إلى فراشها ! إنها تشتغل بالتريكو »

« عليها اللعنة ! إنها تأخذ لفة أخرى من العبوف . »)

وقالت السيدة فوكس :

« آه نعم أنا واثقة من أنه سوف يكون للترولى خدمات أفضل فى المستقبل »

(« أيها الفتى أنا لا أعرف عنك كثيراً ولكن أنا لا أعتقد أنك الإنسان الذى تناسب مادلين » « وعلى أية حال لقدحان موعد عودتك إلى منزلك »)

« أوه أجل بالتأكيد .. أنت تتوقعين .. خدمات أفضل . »

(« إننى أدرك أنى مكثت معكم كثيراً وأنا أدرك أنك تعرفين ذلك ، إلا أن ذلك لا يهمنى ولا أعبأ به ! »)

كان يبدو أن من المستحيل أن تحتمل السيدة فوكس فرط إصراره وعناده . لقد استخدم صيغ التفكير وقوة الإرادة والداهنة . وعندما نهض ، منهزما ، كانت ماتزال فى موضعها ، فى غاية الهدوء . وقالا وداعا فى لهجة يشوبها شىء من الفتور . واصطحبته مادلين إلى الباب ، وظل معها بمفرده ، لحظة بهيجة .. « كنت أود كثيراً ــ كنت أود أن أتحادث معك »

فأجابت متمتمة « إنى أدرك ذلك ولكنى آسفة ، أرجو أن يتاح ذلك فى وقت آخر ! . » ثم قبلها قبلة حلوة عاصفة .

— ٤ —

واندمجت مادلين فى حفلات اللهو والتزحلق والانزلاق بمركبة الجليد والندوات الأدبية مع ضيفة الشرف ، وهى إحدى الصحفيات التى كانت تحرر الصفحة

الاجتماعية بمجلة « زينيث ادفوكات تايمز » . انغمست مادلين فى لهو متعب عجيب وكان مارتن يتبعهـا مطيعاً . وقد بدا أنها قد سئمت التعرف على كثير من الرجال والحفلات الأدبية المسائية .

وجر مارتن معه كايف كلوسون وهو مهتاج النفس وزمجر كايف :« إن هذه لهى أبشع جنة للعصافير عشت فيها »، بيد أن مارتن كان يرعى كنزه — وقد سمع كايف مادلين وهى تنادى مارتن باسمه المفضل لديها وهو « مارتكينز » وكان لذلك أثر بالغ . وكان كايف هو الآخر يناديه قائلا « مارتكينز » وأفضى إلى الآخـرين بأن يدعوه « مارتكينز ، » فأخذ فاتى وارفنج يدعوانه بنفس الاسم . وعندما كان مارتن يذهب لينام كان كايف ينعق كالغراب قائلا « ياه» من المحتمل أن تتزوجها ! إنها ضربة معلم ، إنها تستطيع أن تحصل على شاب فى الماجستير فى تسعين خطوة. إنك ستحصل على إنسانة صغيرة جميلة فى وقت ممارستك للعلوم .. إنها إحدى بلابل الأدب . إنها تعرف كل شىء عن الأدب ماعدا ــ على الأرجح ــ كيف تستطيع أن تقرأ . . إنها ليست قبيحة المنظر جداً. إنها سوف تكون بدينة كأمها . »

وقال مارتن كل ما كان يلزم قوله ، ثم استطرد أخيرا « إنها الفتاة الوحيدة من بين خريجى المدرسة التى اكتملت فيها الحيوية . أما الأخـريات فهن يجلسن ويثرثرن ، ثم إنها تقيم أعظم الحفلات ـــ »

« حفلات قبلات ؟ »

« خذ حذرك الآن .. فإن هذا ليؤلمنى . هذا أول شىء تعرفونه !

«لستم أنتم وأنا من النبلاء،ولكن مادلين فوكس .. إنها مثل انجوس ديور .. وعلى أية حال أنا أعرف مانحن فى حاجة إليه . إنه الوسيقى والأدب ، دون ريب .. الملابس الأنيقة أيضاً ــ وليس فى ارتداء الثياب الجميلة ما يضر ــ »

« هذا ما كنت أقوله لك الآن ، إنها سوف تحولك إلى حال الأمير ألبرت ، وهى قديرة على أن تحولك شخصاً آخر ، مثلها كمثل الأرملة الغنية ذات التجارب ، فكيف تقع فى أيدى مثل هذا الأخطبوط النسائى ــ أين تحكمك ؟ »

ولقد حركت معارضة كليف كلوسون صديقه مارتن ألا يفكر فى مادلين فى اهتمام مخز وحرص بالغ فحسب .. بل صار يهيم بها على نحو مؤثر يستغرقه حتى أنه أخذ يتوق إلى الزواج منها .

— ٥ —

إن قليلا من النساء يستطعن لمدة طويلة أن يتوقفن عن محاولة تطوير رجالهن، والتطوير معناه تغيير شخص عما هو فيه — مهما كان ذلك الشخص — إلى شىء آخر. وإن الفتيات من أمثال مادلين فوكس هن نساء فنانات لا يستطعن التوقف عن التحسين لفترة تزيد عن يوم ، إذ عندما أبدى مارتن تأثره وإعجابه برشاقة مادلين وسجاياها بدأت تهتم بملابسه وأرديته وياقاته الناعمة وقبعته الرمادية القديمة — وكلماته وذوقه فى النثر والقصة فى حماسة متدفقة متجددة . وكانت تقول له بطريقتها المشوبة بالفكاهة والتى كانت تضايقه : « لماذا ، طبعاً يعرف كل إنسان أن أمرسون كان أعظم مفكر . » وكان ذلك يثيره إذا قورن بأناة جوتليب وصبره المظلم .

فقال لها فى نبرة غاضبة « دعينى وشأنى ! إنك أرق شىء خلقه الله حينما تقتصرين على الأشياء التى تعرفينها ، ولكن عندما تقفزين بأفكارك إلى السياسة والكيماويات فإنك تبعثين الضيق إلى نفسى . . وإنى لأعتقد انك على حق فيما يتعلق باللغة العامية . ولسوف أقطع كل علاقة بألفاظى العامية ، بيد أننى لن أرتدى ياقة منشاة ! لن أفعل ذلك على الإطلاق!»

ولولا أماسى الخريف التى أمضاها فوق سطح منزلها لما تقدم إلى خطبتها . لقد كانت تستعمل سطح شقتها كحديقة ، إذ رتبته ووضعت صندوقاً من الجيرانيوم ومقعداً من الحديد الزهر مثل تلك التى تشاهد فى بعض الجبانات ، كما علقت به مصباحين من الطراز اليابانى .

وكانت تتحدث باحتقار عن سكان الشقق الأخرى بالمنزل الذين كانوا فى

نظرهـا « تافهين رجعيين حتى أنهم لم يحضروا إلى مثل هــــذا المـكان الخيالى البديع . » .

كانت مادلين تشبه حديقتها بسطح قصر مراكشي أو تلك الحدائق الأسبانية والحدائق اليابانية التى كانت تعد « لرفاهية الحـكام » ، الا أنه فى نظر مارتن كان يبدو كأى سطح بسيط . وفى ذات يوم كان على وشك أن يتشاجر عندما ذهب فى إحدى أمسيات شهر أبريل ليزور مادلين فأخبرته والدتها فى برود انها فوق السطح .

فقال وهو يصعد السلم المستدير « عليها اللعنة ، تلك المصابيح اليابانية . »

كانت مادلين تجلس على المقعد الحديدى الجنائزى وذقنها بين راحتيها ، وحيته فى هذه المرة فى غير اكتراث قائلة « مرحباً ». كانت باردة فى مقابلتها له حتى لقد أحس بأنه مذنب لسخريته. وفجأة رأى الافتعال فى تظاهرها بأن هذه الأوراق الممتدة وهذه الممرات الضيقة هى الحديقة الرائعة . وبينما كان جالسا إلى جوارها أشعل غليونه « إنها لحديقة ظريفة، استوحاها تفـكيرك النير» .

« إنها ليست كذلك . . بل هى شىء بسيط أجرب »

ثم تلفتت نحوه وصاحت : « أواه يامارت إنى متضايقة من نفسى هذه الليلة . أنا أحاول أن أجعل الناس يفـكرون أننى إنسانة ، ولـكننى لست شيئا . إننى قطة » .

« ماهذا ياعزيزتى ؟ » .

«أواه إنها أشياء كثيرة. إن الدكتور بزومفت قد صدقنى القول إذ قال بحق إننى إذا لم أجد فى عملى فسوف أطرد من مدرسة الخريجين . أنا لست أفعل شيئا مما قاله . وإذا لم أحصل على درجة الدكتوراه فإننى سوف لا أستطيع الحصول على وظيفة حسنة ، ومن الأوفق أن أحصل على وظيفة إذ أنه لايبدو هناك من سيتزوج مادلين المسكينة . »

فقال وذراعه تلتف حولها : « أنا أعرف تماما من هو . . . » .

« كلا فأنا لست بصائدة رجال،فإننى نزيهة القصد. إننى لست على ما يرام الليلة، إننى لأخبر الناس كم أنا ماهرة ، ولا أعتقد أنهم يصدقوننى. من المحتمل أنهم عندما يخرجون يضحكون منى » .

« إنهم لا يفعلون ذلك ! وإذا كانوا يفعلون ذلك — فأنا أود أن أرى أحدا حاول الضحك — »

« إنه لشىء رائع وبديع منك.. بيدأننى لا أستحقه مادلين الشاعرة ! بكلماتها المهذبة ! إننى شىء لا يستحق الذكر . . بل إننى ليصدق على كل مايقوله ويظنه صديقك كايف فى شخصى ، وإن على أن أعود إلى موطنى مع أمى ، ولست أستطيع أن أتحمل ذلك ياعزيزى . لا أستطيع أن أتحمل ذلك ! لن أعود إلى تلك المدينة ! لا شىء يجدى فيها ، ولا أطيق العيش بين ظهرانيها وأهلها العجائز يرددون نفس الكلام والنكات . . لا لا أريد ذلك قط ! »

وكانت رأسها بين راحة يده بينما مضت تبكى بكاء مريرا ، وأخذ يربت على شعرها برفق، لا فى جشع ورغبة وهو يهمس قائلا :

«ياحبيبتى إننى لأشعر الآن وكأننى تجاسرت فأحببتك. ولسوف تتزوجيننى و — أمامك الآن عامان ! حتى أنتهى من دراستى فى الطب وعامان آخران فى المستشفى ، وبعد ذلك سوف نتزوج — ورغم الرعد والبرق فإننى بمعاونتك سوف أتسلق إلى القمة أو أصبح جراحا عظيما ! ويتحقق لنا كل شىء » .

فردت عليه قائلة :

« يا أعز ما لدى التزم الحكمة ، فأنا لا أود أن أبعدك عن عملك العلمى — »

فأجابها :

« أوه حسنا ، حسنا ، أنا أود أن أجرى بعض الأبحاث . ولكننى لست أسير المعمل فحسب ، فى معركة الحياة ـ شق طريقك ولسوف أنافس الرجال فى معركة الحياة الحقة ، وإذا لم أستطع أن أفعل ذلك إلى جانب أدائى لبعض الأعمال العلمية فلن أكون رجلا له شأن. عندما أكون بصحبة جوتليب فإننى بلا شك أريدالإفادة من ذلك ،ولكن ماذا بعدئذ . أوه يامادلين ! »

ثم ضاع المنطق كله فى غمرة دنوه منها .

— ٦ —

صار يخشى الالتقاء بالسيدة فوكس إذ كان متأكدا من أنها سوف تقول له:

« أيها الشاب كيف تتوقع أن أوافق فتاتى مادى وأنت تستخدم لغة نابية . » بيد أنها تناولت يده وانتحبت قائلة : « إننى أعنى أن تكون أنت وفتاتى سعداء . إنها لفتاة طيبة عزيزة ولوأنها خفيفة أحيانا ، وإننى لأعرف عنك أنك لطيف وطيب القلب وجاد فى عملك وسوف أدعو أن تكونا سعيدين ـ أوه سوف أدعو بأقصى ما أستطيع من أجل هنائكما ! »

أما أنتم أيها الشباب فلا تفكرون فى الدعاء ، ولكن لو علمت إلى أى حد عاونتى الدعاء ـ أواه سوف أتوسل وأدعو من أجل سعادتكما المنشودة الهائلة ! »

وتملكها البكاء ، ثم قبلت مارتن فى جبهته قبلة حارة لطيفة — قبلة امرأة عجوز . وما لبث أن أخذ مارتن يبكى معها تأثرا .

وعند الرحيل قالت مادلين فى همس :

« يافتاى ، إنى لا أهتم كثيرا شخصيا ، بيد أن والدتى تود لو أننا توجهنا معها إلى الكنيسة. ألا تظن أن هذا من الممكن ولو مرة واحدة ؟ »

لشد ما كانت دهشة العالم.ودهشة كليف كلوسون إذ رأوا منظر مارتن فى

ملابسه الأنيقة اللامعة وياقته الكتانية ورباط عنقه الرائع، وهو بصحبة السيدة فوكس والملاك الثرثار مادلين ذاهبين إلى الكنيسة الميثودية فى مدينة موهاليس لينصتوا إلى الدكتور القس ميرون شواب وهو يتحدث فى موضوع «سبيل الخير».

ولقد مروا فى طريقهم بالقس أراهنكلى ، بينما أخذ ارا يلقى نظرة تقديس إلى افتتان مارتن .

— ٧ —

رغم كل تقدير مارتن لوجهات نظر ماكس جوتليب المتشائمة عن المواهب البشرية فقد آمن بأن هناك شيئاً كالتقدم ، وأن الأحداث تعنى شيئا ، وأن الناس تستطيع أن تتعلم شيئا ، وأن مادلين لو اعترفت بأنها فتاة عادية تخطىء أحيانا فإنها بذلك تكون قد لاقت خلاصها . وقد اخذته الدهشة عندما بدت تنحو به نحو التطور والتحسين أكثر من ذى قبل . لقد كانت تشكو من سلوكه الجافى وما كانت تسميه بطموحه المتباطىء : « أو تعتقد أنها براعة متناهية أن تحس بأنك متفوق ؟ إنه ليدور فى ذهنى أحيانا أن ذلك ليس سوى مجرد خمول . إنك لتهيم بأحلام اليقظة داخل المعامل. لماذا تريد أن توفر على نفسك مئونة تذكرة المواد الطبية وغير ذلك؟ إن الآخرين جميعا عليهم أن يقوموا بنفس العمل .

كلا لن أقبلك . إننى أود أن تكبر وتستمع إلى صوت المنطق . »

وفى غمرة عناقها متشوقا إلى شفتيها وإلى بسمة صفح ، ظل حتى نهاية الفصل الدراسى مضطربا مبلبل الخاطر .

وقبيل الامتحان بأسبوع ، عندما كان يحاول أن يمضى أربعا وعشرين ساعة فى معمل البكتريولوجى وأربعا وعشرين ساعة فى مطارحتها الحب وأربعا وعشرين ساعة فى الامتحان المميت ، وعد كليف بأنه سوف يمضى عطلة الصيف معه جرسونا فى أحد الفنادق الكندية . وفى المساء قابل مادلين وسار معها بين شجيرات الفراولة فى حقول محطة التجارب الزراعية،

وقالت له شاكية : « أنت تعرف ماذا أعتقد فى صديقك كليف المفزع. إننى لأومن بأنك لاتهتم بسماع رأيى فيه . »

فأجاب مارتن ولم يكن رده مريحا :

« لقد سمعت رأيك من قبل ياحبيبتى . »

فقالت : « حسنا أستطيع أن أخبرك الآن . إنك لم تعرف رأيى عن كونك ستصير جرسونا . ولعمرى لا أستطيع أن أدرك لماذا لا تحصل على وظيفة لائقة فى خلال العطلة الصيفية ، وظيفة إنسان مهذب بدلا من غسل الأطباق القذرة . لماذا لا تعمل فى الصحافة حيث ترتدى ثياباً نظيفة وتقابل شخصيات عظيمة ؟ » . .

فقال : « لا شك إننى أستطيع أن أشتغل بالتحرير فى الصحافة ، ولكن نظرا لأنك قلت ذلك فإننى لن أعمل إطلاقاً فى هذه العطلة الصيفية . إنها حماقة أن أفعل ذلك ، إننى سوف أتوجه إلى نيوپورت حيث ألعب الجولف وأرتدى ثياب السهرة كل مساء . »

« ما قصدت ايلامك بأية وسيلة ، فإنى لأقدر وأحترم العمل الشريف فإنه كذلك على حد تعبير برنز . ولكن خدمة الموائد يامارت ! لماذا تفخر هكذا بأن تصير جرسونا ! كف لحظة عن ذكائك، وانصت إلى الليل واستنشق عبير أزهار الكرز . . أم ترى أن عالماً عظيماً مثلك، يرى فى نفسه أنه أرفع شأناً من عامة الناس ، يحسب أنه أسمى من أن يستنشق عبير أزهار الكرز ! »

« حسناً ، باستثناء الأمر الواقع بأن أزهار الكرز قد اختفت منذ أسابيع فإنك قد أصبت كبد الحقيقة . »

« أوه . . لقد اختفت حقاً . . وربما تكون قد ذبلت ، ولكن هل تتكرم فتخبرنى ماهى تلك الكتلة البيضاء الشاحبة الموجودة هناك ؟ » « إنها تبدو لى قميص أجير من الأجراء . »

فقالت : « يامارتن أروسميث إذا كنت تعتقد لحظة أننى سوف أتزوج شخصاً فظاً ، بدائياً ، أنانيا يعيش مع الميكروبات .. »

وإذا كنت .. تعتقدين أنى سأتزوج سيدة تظل توبخني وتوبخنى طوال اليوم .. »

لقد أساءا إلى بعضهما بعضاً وألفيا فى ذلك متعة ، ثم انفصلا إلى الأبد ، وكانا قد انفصلا إلى الأبد مرتين ، وكانت المرة الثانية غاية فى الجفوة بالقرب من جمعية من جمعيات الأخوة حيث كان الطلبة ينشدون أغانى صيفية حزينة على أنغام البانجو.(١)

أمضى مارتن عشرة أيام — دون أن يراها مرة أخرى مع كليف كلوسون فى الغابات الشمالية، وفى غمار تأثره على افتقادها وتهافته شوقا إلى غصنها الرطيب الناعم وإلى رغبتها فى الاستماع إليه استبدت به الرغبة بعض الشيء فى أن يكون فى طليعة الفصل فى البكتريولوجيا ، وأن يعينه ماكس جوتليب طالباً مساعدا له فى العام القادم.

(١) آله موسيقية ذات أربعة أوتار تشبه الطبل .

الفصل السادس

كان الجرسونات فى استراحة « نوكوميس » القائمة بين أشجار الصنوبر فى اونتاريو جميعاً من بين طلبة الجامعة . لم يكن من المفروض أن يظهروا فى حفلات الرقص فى الاستراحة — كانوا يظهرون فقط لاختطاف اجمل الفتيات من خطابهن الكبار فى فانلاتهم البيضاء . كان عليهم أن يعملوا سبع ساعات يوميا فقط، وكانوا يمضون باقى أوقاتهم فى الصيد والسباحة . وأخيراً عاد مارتن إلى موهاليس هادىء النفس — وقد ازداد حبه كثيراً نحو مادلين .

أخذا يتبادلان الرسائل بين بعضهما بعضاً فى رقة واعتذار مرة كل أسبوعين ثم يومياً فى عاطفة مشبوبة . وفى خلال الصيف عادت إلى المدينة التى ولدت فيها بالقرب من حدود أوهيو فى ويناك ، وهى مدينة أكبر من « الك ميلز » بلدة مارتن ، بيد أنها أشد حرارة ويندر فيها وجود المصانع الصغيرة . ولقد أفرغت مادلين همومها فى رسالة طويلة منها استغرقت صفحة كاملة وهى تقول :

« من المحتمل ألا يرى بعضنا الآخر مرة أخرى ، بيد أننى أريدك أن تعلم كم أعتز بالأحاديث التى جرت بيننا عن العلم والمثل والتعليم — الخ ومما لا شك فيه أننى أقدر ذلك كله عندما أستمع إلى الحمقى هنا وهم يثرثرون عن سياراتهم وعن أجور خدمهم وما إلى ذلك. إنك وهبتنى الكثير ، ولكننى منحتك بعض الشىء ، أليس كذلك ؟ لا يمكن أن أكون مخطئة دائماً ، أليس كذلك ؟ »

وقد رد عليها برسالة يندب فيها حظه قائلاً :

« يا فتاتى الصغيرة العزيزة

لا تستطيعى أن تكونى دائماً مخطئة أيتها الطفلة المسكينة ! أيتها الطفلة المسكينة ! » .

وما كاد يحين منتصف الصيف حتى كانا قد عادا إلى سيرتهما الأولى وتوثقت الصلات بينهما .

وبالرغم من أنه كان يزعجه قليلا ذلك الصراف ، وهو شاب ضحاك ، يعمل مدرسا بمدرسة ويسكونسن إلا أنه كان يتوق كثيرا إلى مادلين حتى إنه كان يمضى الليل ساهداً مفكراً فى ترك وظيفته والهروب إليها لمغازلتها فكان يظل بعض الوقت مستيقظاً .

كان القطار الذى يعود فيه مارتن بطيئاً على نحو مؤلم . ولقد هبط فى موهاليس وهو يتلهف شوقا إلى رؤياها . وبعد عشرين دقيقة كانا يتعانقان فى حرارة بحجرة جلوسها الهادئة ، ولاشك أنه بعد مضى عشرين دقيقة كانت تهزأ من كليف كلوسون ومن العميد ومن جميع المدرسين، ولكن نظراً إلى حدة اضطرابه استسلمت إلى دموعها .

— ٢ —

كانت سنواته الدراسية الأولى أشبه بدوامة ، فكان يحضر محاضرات عن تشخيص الأعراض المرضية والجراحة وعلم الأعصاب ودراسة أمراض النساء فى الصباح ، هــذا إلى جانب المشاهدات فى المستشفى بعد الظهر ، والإشراف على التحضيرات وتعقيم الأوانى الخزفية لأستاذه جوتليب، وتدريب الطلبة الجدد على استعمال المجهر والمرشح وأدوات التشريح، وقراءة صفحة من وقت لآخر عن العلوم الألمانية أو الفرنسية ، ومداومة مشاهدة مادلين . ولإجراء كل هذا أخذ يعمل بسرعة هستيرية . وفى خضم هــذا كله بدأ أول أبحاثه الابتكارية ـ أول ملاحه وأول ارتياده لغياهب المجهول . وقد استطاع أن يعقم الأرانب من التيفود معتقداً أنه إذا خلط المصل المأخوذ من هذه الحيوانات المحصنة بجراثيم التيفود فإن الجراثيم سوف تموت . ومن سوء الحظ أنه لاحظ أن الجراثيم تتكاثر فانزعج وتأكد أن عمله الفنى جانبه التوفيق، وأخذ يجرى تجربته مرة وأخرى وهو يعمل حتى منتصف

الليـل ويستيقظ فى الفجر ليتأمل ملاحظاته (ورغم أن خطاباته إلى مادلين كانت بخط ردىء متناقض فإن ملاحظاته فى المعمل كانت دقيقة) .

ولما تأكد أن الطبيعة تصر على عمل شىء لا يجب عمله ذهب منكساً رأسه إلى جوتليب وهو يقول محتجاً :

« إن هذه الجراثيم كان من المفروض أن تموت فى هذا المصل المطهر، ولكنها لم تمت فلابد أن هناك خطأ فى النظريات . »

فقال له جوتليب وهو يحرك الأوراق على مكتبه : « أيها الشاب هل تعترض على العلوم ؟ هل تجد فى نفسك الكفاية لمهاجمة مبادىء المناعة . »

«آسف يا سيدى لا أستطيع أن أعترض على المبادىء ، وها هو سبيلى الذى سلكته ، وأقسم أننى راجعت المادة أكثر من مرة فكنت أحصـــل على نفس النتيجة كما يمكنك أن ترى . إننى عرفت فقط ماراقبته بنفسى » .

فقال جوتليب : « إنى لأهبك بركاتى وتهنئتى يابنى . تلك هى الطريقة !

شاهد ما ـ تشاهد ، وإذا كان ما تشاهده يتعارض مع وجهات النظر العلمية السليمة اللطيفة . فاستبعدها !

أنا مسرور جدا يامارتن .. ولكن اكتشف أولا السببية والمبادىء التى أسست عليها »

وكان جوتليب يناديه عادة أروسميث أو « انت ! أو « أوه » وعنـدما يكون فى قمة غضبه كان يناديه أو ينادى أى طالب آخر بكلمة « يا دكتور » . أما فى اللحظات الحاسمة التى يقدره فيها فكان يدعوه باسم « مارتن » . وسار الفتى على بركة الله محاولا أن يكتشف (ولكنه لم يفلح إطلاقاً) السببية التى جعلت كل شىء هكذا .

— ٣ —

بعث جوتليب بمارتن إلى مدينة زينيث لمستشفى زينيث العام الكبرى للحصول على عينة من نخاع أحد المرضى المتطوعين .

وقد أخبره كاتب الاستقبال المتشائم — والذى لم يكن يعنيه سوى الحصول على اسم ومهنة وعنوان وديانة المريض ، ولم يكن ليهتم من ذا الذى مات أو من الذى بصق على المفرش الأبيض والأزرق الجميل مادام قد سجل العنوان تسجيلا وافيا — أخبره فى كبرياء أن يصعد إلى الجناح « د » : وأخذ مارتن يمر فى دهليز طويل مجتازا حجرات لا حصر لها تقبع فيها سيدات شاحبات الوجوه جالسات على أسرتهن . وتجول فى أنحاء المستشفى وهو يحاول أن يضفى على نفسه شيئاً من الأهمية راجياً أن يحسبه المرضى أحد الأطباء ، بيد أنه لم يفلح إلا فى أن يشعر بالارتباك على نحو غير عادى .

وفى غضون ذلك .. التقى بعدد من الممرضات ، فكان يومىء إليهن إيماءة بسيطة على طريقة (أو ما كان يعتقد أنه طريقة) الجراح الحاذق الصغير الذى على وشك إجراء عملية . كان كل ما يشغل باله أن يبدو كأنه جراح ماهر صغير حتى أنه فقد نفسه وشعوره تماما واختلط الأمر عليه وألفى نفسه فى جناح ملىء بحجرات خاصة . وقد وجد أنه قد تأخر ولم يعد هناك وقت لأن يثبت وجوده . وعلى عادة الرجال كافة كان يبغض أن يعترف بالجهل فيسأل عن الاتجاه الصحيح ، ولكنه وقف على كره منه على باب حجرة نوم حيث كانت فتاة ممرضة تحت الاختبار تقوم بتنظيف الأرضية وحكها .

كانت ممرضة حديثة ، صغيرة السن نحيلة يكسوها رداء خشن أزرق ومريلة ناصعة البياض ولفة عقصتها حول رأسها — كان زياً رسمياً قذرا يشبه دلو الماء الذى تنظف منه . وقد تطلعت إليه بقحة واضحة .

فقال لها : « يامرضة أريد أن أعرف مكان الجناح د . »

فقالت متراخية « هل تريد ؟ » .

« أريد ذلك إذا كان من الممكن أن أقاطعك فى عملك — » .

فقالت : « أوه لا يضر هذا بشىء . إن المشرفة على المرضات اللعينة قد كلفتنى بالمسح ، بينما ليس من المفروض علينا إطلاقاً أن نقوم بمسح الأرضية ، وذلك لأنها ضبطتنى أدخن سيجارة . إنها عجوز مفزعة فإذا رأت طفلاً مثلك يتجول هنا فسوف تجرك من أذنك . »

« ياسيدتى الصغيرة العزيزة ، قد يعينك أن تعرفى ...»

« أوه ! إن قولك يا سيدتى العزيزة الصغيرة تبدو لى مثل نغمة أستاذنا العجوز فى المنزل .»

كانت تفكهتها الوقحة وطريقة معاملتها إياه — كما لو كانا إثنين من الأطفال يخرجان لسانهما لبعضهما البعض فى محطة السكة الحديد — عنيفة مؤلمة إلى حد الجنون بالنسبة لذلك الشاب الفياض بالحماسة ، والمساعد الصغير للبروفيسير جوتليب .

فقال فى غضب « أنا الدكتور أروسميث . ولقد علمت أنه حتى المرضة تحت الاختبار تتعلم أن من أول واجبات المرضة أن تقف عندما تخاطب الأطباء ! أريد أن أعرف جناح د لآخذ منه عينة من النخاع — وقد يهمك أن تعرفى — أنه ميكروب خطير جدا . وإذا تكرمت ووجهتنى إلى .. »

« أوه لقد تنبهت من جديد . لا يبدو أنى قد تدربت على هذا النظام الحربى .. وهو كذلك.. سوف أقف..» ووقفت . وكانت جميع حركاتها خفيفة جداً مثل حركة القطة، وقالت له « عد إلى الخلف واتجه إلى اليمين ثم إلى اليسار . إننى آسفة .. لقد كنت يقظة ولكنك إذا شاهدت أحداً من الأطباء الحمقى المسنين الذين ينبغى على المرضة أن تخضع لهم — شرفاً ، يادكتور — إذا كنت طبيباً — .. »

فقال فى غضب بالغ : « لست أرى إننى فى حاجة لاقناعك ! » وبينما كان يسير ظل طوال مسيره إلى جناح د مغيظاً ثائراً لسخريتها المقنعة ، إذ كان من بين العلماء المشهورين . وكان مما استثاره وأحنقه أن يتحمل وقاحة ممرضة تحت الاختبار ـ ممرضة سوقية للغاية .. امرأة رفيعة نحيلة يبدو أنها من الغرب ، وقد كرر توبيخه لها « لست أرى أنى فى حاجة أن أقنعك ! » كان فخوراً بنفسه لأنه كان عالى الهمة ، وقد تصور نفسه وهو يقص على مادلين ماحدث قائلا « كل ماقلته لها بالضبط ، يا سيدتى الصغيرة المزيرة لست أعرف أنك الشخص الذى أفضى إليه بمهمتى هنا ، فلما قلت لها ذلك اضمحلت » بيد أن صورتها لم تضمحل فى مخيلته عندما وجد الطبيب النائب الذى كان من المقرر أن يساعده وأخذ السائل النخاعى . كانت أمامه مثيرة رابطة الجأش . كان عليه أن يراها مرة أخرى ويقنعها ـ وقال العالم المتواضع الصغير « إن الأمر يستدعى رجلا أفضل منها ، رجلا أفضل ممن رأيت على الإطلاق حتى أخرج وقد أهينت كرامتى .! »

وسارع إلى حجرتها وأخذا يحملقان إلى بعضهما بعضاً قبل أن يخطر بباله أنه لم يعد الكلمات المؤثرة الفعالة التى كان سيقولها .. فتركت عملها الذى كانت تقوم به فى تنظيف الأرضية وهبت واقفة . كانت قد رفعت غطاء رأسها وبدا شعرها ذهبيا فى لون عسل النحل ، وكانت عيناها زرقاوان ووجهها عليه سيماء الطفولة وطابعها . ولم يكن فى مظهرها أى مسحة من صفات الخدم أو العبيد . وقد استطاع أن يتصورها وهى تجرى فى سفوح التلال براقة وسط أكوام القش .

فقالت غاضبة « أوه .. إننى لم أقصد أن أكون وقحة إذ أن عملية مسح الأرضية هى التى عكرت صفوى ، ولقد رأيتك غاية فى اللطف ، وإننى لآسفة لأننى جرحت مشاعرك ، ولكنك كنت تبدو صغير السن بالنسبة لكونك طبيبا . »

« لا أنا لست طبيباً . أنا طالب طب ، ولـكننى كنت أستعرض . »

« وكذلك كنت أنا » .

لقد استشعر معها بزمالة وصداقة كاملة ، وعلاقة خالية من حواجز الحيرة فى صراعه مع مادلين . ولقد علم أن تلك الفتاة من أبناء جلدته ، وإنها وإن كانت غجرية أو غير محافظة أو هزلية فإنها كانت أيضاً شجاعة أبية النفس . كانت تسخر كثيراً من الخداع، كانت قادرة على الوفاء بصورة عريضة وطبيعية جداً بحيث لا تبدو معها روح البطولة .

وكانت تعتقد أن صوته فياض بالحيوية بالرغم من أن كلماته فقط :

« أعتقد أن هذا التدريب على التمريض قاس للغاية . » « ليس بتلك الدرجة المفزعة ، ولـكنه عمل رومانسى مثل عمل فتاة أجيرة ، وهـــذا ما نسميهن به فى دا كوتا . »

« وهل أنت من دا كوتا »

« أنا من أكبر مدينة صناعية ـــ يبلغ عدد سكانها ٣٦٢ مواطن ـــ فى مقاطعة شمال دا كوتا بأكلها ، وهى هويتسلفانيا . وهل أنت بكلية الطب بالجامعة ؟ »

إن أية ممرضة كانت تمر بهما فى هذه اللحظة كان يخطر ببالها أن الفتى والفتاة منهمكان فى أعمال المستشفى ،إذ كان مارتن يقف إلى جوار الباب بينما تقف هى إلى جانب دلو التنظيف ، وقد أعادت غطاء رأسها فغطى شعرها الوضاء .

« نعم أنا طالب طب حديث فى موهاليس ولـكن ـ لست أدرى،فأنا لست طبيباً عاماً ،ولـكنى أوثر البقاء فى العمـــــل . وأعتقد أننى سوف أصبح عالما بكتريولوجيا . وإننى لا أميل إلى العمل فى المستشفيات إلى جوار الأسرة . »

إنه ليسعدنى أنك لا تميل إلى جانب الأسرة ، فهنا ينبغى أن تسمع عن بعض الأطباء ومغامراتهم مع مرضاهم ، وعن الطريقة التى يصرخون بها على الممرضات.

بيد أن المعامل تبدو الحياة فيها أقرب إلى الواقع، وإنى لا أعتقد أنك تستطيع أن تخدع جرثومة ما اسمها ؟ ـ البكتريوم ؟ »

« كلا . إنها لكذلك ـ ماذا يدعونك ؟

« أنا ؟ أوه إنه اسم سخيف ـ لورا توزر . »

« وما الذى يعيب اسم لورا ؟ إنه لاسم جميل »

أصوات طيور مغردة وصوت براعم الربيع وهى تتساقط فى الهواء الساكن، وعواء الكلاب النيام فى منتصف الليل . . ومن ذا الذى يستطيع أن يسكتها ويجعلها مبتذلة ؟

كان حديث مارتن مع لورا فى تلك النصف ساعة المشحونة بالعاطفة المتأججة طبيعيا وتقليديا وفياضا بحماس الشباب ، جميلا فى مغزاه ، فى تلك اللحظات التى ألفى كل منهما فى الآخر جزءا مكملا لنفسه كان مفقودا ثم اكتشفاه فى غمرة من الفرح المثير . وأخذا يتبادلان أطراف الحديث كبطل و بطلة لإحدى الأساطير مثل عمال محلات الحلوى أو كمثل أمير وأميرة . كانت كلماتهما ساذجة بسيطة ليست بذات أهمية، ولكن عند سماعها واحدة واحدة واستيعابها كمجموعة تبدو الحكمة فيها وتتجلى الأهمية التى تنطوى عليها كالتيار أو الرياح المدوية .

قال مارتن للورا إنه معجب بما كس جوتليب، وإنه قد مر بشمال داكوتا بالقطار، وإنه كان لاعبا ممتازا للهوكى ، وقالت لورا لمارتن إنها تؤثر المسرحيات الفودفيل إيثارا كبيرا وإن والدها أندرو جاكسون توزر ولد فى الشرق (وكانت تقصد بالشرق ولاية الينوى) ، وأنها لم تهتم اهتماما خاصا بالتمريض ، وأنها ليست لها أطماع شخصية خاصة بل جاءت هنا خصيصا من أجل المغامرة ومن ثم أشارت — فى رقة يشوبها الأسى بأنها ليست على وفاق كامل مع الممرضات المشرفات وإن كانت تحاول جاهدة دائما أن تكون لطيفة معهم . بيد أنها بطريقة

أو بأخرى كانت تجبر على التمرد الذى كان يأخذ شكل الثرثرة والهروب فى منتصف الليل ، ولم تكن قصتها تكشف عن شيء بطولى ، إلا أنه استطاع أن يدرك من طريقتها الهادئة التى تضفى عليها رباطة الجأش فى سرد تلك القصة أنها تتسم بالجرأة المشجعة .

وقاطعها بلهفة حماسية « متى ستغادرين المستشفى لتناول الطعام ؟ هذا المساء ؟

فقالت :

« لماذا ! »

« من فضلك ! »

« وهو كذلك . »

« متى أستطيع أن أزورك ؟ »

« هل ترى أنه من الضرورى — حسنا فى السابعة . »

كان مارتن طوال طريق عودته إلى موهاليس لا يستقر على حال بين الغضب الشديد والبهجة المتزايدة .

وقد قال لنفسه إنه أحمق إذ يقوم بهذه الرحلة إلى زينيث مرتين يوميا ، وتذكر أنه على ارتباط مع فتاة تدعى مادلين فوكس ،وأخذت تزعجه فكرة عدم الوفاء ، ولكنه أكد لنفسه أن لورا لم تكن أكثر من شبه ممرضة أمية كخادمة المطهى وسليطة كبائع الصحف واعتزم فى نفسه عدة مرات أن يحدثها فى التليفون ليحل نفسه من ارتباطه بها .

وفى الساعة السابعة إلا ربعا كان فى المستشفى .

كان لابد أن ينتظر (نحو عشرين دقيقة)فى حجرة الاستقبال التى تشبه حجرة الحانوتى ، لقد كان متألما . ماذا يفعل فى هذا المكان ؟ ربما تكون غبية بصورة مؤلمة طوال وقت الغذاء بأكمله . وهل سيتعرف عليها فى الزى غير الرسمى ؟

ثم قفز إذ لمحها مقبلة عند الباب ، وكانت قد خلعت زيها الرسمى الأزرق القذر، كانت نحيلة كما لو كانت طفلة ، ولطيفة فى ردائها ذى الخطوط الطويلة المستقيمة وذى الياقة الطويلة .

وكان طبيعيا أن يأخذ يدها تحت ذراعه عندما خرجا من المستشفى، وهى تسير إلى جواره فى خطوات صغيرة متراقصة، وتبدو أكثر خجلا عما كانت أثناء أداء عملها ، ولـكنها كانت تنظر إليه فى ثقة .

وسألها : « هل أنت سعيدة لقدومى ؟ »

ففكرت قليلا، إذ أن لها طريقة خاصة ،فتتظاهر بالتفكير الجاد عندما توجه إليها أسئلة واضحة (ولـكنها جدية كجدية الأطفال وليست شبيهة بصرامة تأملات رجل السياسة أو مدير الشركة) واعترفت قائلة :

« نعم أنا سعيـدة ، وإن كنت قد خشيت أن تذهب فى سبيلك متأثراً لأننى كنت صريحة ، ولقد وددت أن أعتذر ــ كما أحببت فيك فرط اهتمامك الشديد بدراستك فى البكتيريا ، وأعتقد أننى متلهفة أيضاً إلى حد ما . إن الأطباء المقيمين هنـا فى المستشفى يقدمون فى مجموعات كبيرة ، بيد أنهم ثقلاء الظل ، متفاخرون بساعاتهم وكبريائهم المستحدث.أوه إن معظمهم يبدون جادين.أجل إننى لسعيدة لقدومك . هل أنا بلهاء إذ أعترف بذلك ؟ »

وأحس بشىء من الانفعال ، فقال وهو يضغط يدها بين ذراعيه« إنك لعزيزة لدى إذ تعترفين .. »

« لا يتبادر إلى ذهنك ، أننى أدع كل طالب طب أو طبيب أن يصاحبنى أليس كذلك ؟ »

« لورا .. كذلك أرجو ألا يتبادر إلى ذهنك أننى أصـاحب أى فتاة جميلة أقابلها .

إننى أحببت وأحسست إلى حد ما أنه يمكننا أن نكون أصدقاء . ألا يمكن ذلك ؟ ألا يمكن ذلك ؟ »

« لست أدرى ، سوف نرى »

« وأين سنتناول الغداء ؟ »

« فى الجراند هوتيل »

« لا لن نتناول الغداء هناك فإنه باهظ التكاليف . إلا إذا كنت غنيا جداً ؟ »

« لا أنا لست غنيا ، بل معى من المال ما يكفى لإتمام دراستى فى الطب ولكنى أريد . . »

« هيا بنا نذهب إلى (بيجو) فإنه مكان لطيف كما أنه ليس غاليا . »

فتذكر كم أشارت مادلين فوكس بالذهاب إلى (فندق جراند) وهو أعظم فنادق زينيث أبهة وفخامة . وكانت تلك آخر لحظة تذكر فيها مادلين فى ذلك المساء ، فقد انهمك مع لورا إذ ألفى شيئاً جديداً وانطلاقاً وصراحـــة عجيبة فى فتاة أندرو جاكسون توزر . كانت فيها أنوثة ، ولكن متحفظة ، ولم تكن من أولئك اللواتى ينهجن التجديد ، وقليلا ما كانت تصدم المرء . لم تكن مبتذلة ومع ذلك لم تكن باردة . كانت فى الحقيقة أول فتاة يتحدث إليها حديثاً سهلا ، واعياً ، وكان ثمة ريب فى أن لورا نفسها كانت أمامها فرصة لتقول شيئاً ، إذ أخذ يصب كل نقمته على طريقة جوتليب . وكان جوتليب فى نظر مادلين رجلا عجوزاً شريراً يسخر من قداسة الزواج ومن زنابق رأس السنة ، أما حكمها على كليف فكان ينحصر فى أنه ممل ، ولكن لورا اشتعلت حماسة عندما دق مارتن المائدة بيده مستشهداً بعموده قائلا : « إنه حتى الوقت الحاضر نجد حتى فى أعمال ايهلرك نفسه أن معظم الأبحاث تعتبر مسألة محاولة وخطأ ، وهذه هى طريقة التجربة التى تتنافى مع الطريقة العلمية .. يعمل الإنسان بموجبها على وضع قانون عام يحكم مجموعة من الظواهر حتى يستطيع أن يتنبأ بما سيحدث . »

قال ذلك بوقار وهو يحملق بنظره إليها عبر المنضدة، يكاد يتفرس فيها ٠ وأصر قائلا « هل ترين أين يترك كل هذه الأعمال التفصيلية كما يترك أولئك الباحثون الجهلة وهم يعملون فى جلبة فوق أكوام السباخ كما يفعل تماماً مع الأطباء الجشمين فهل تفقهت شخصيته ؟ »

« أجل أعتقد ذلك ٠ وعلى أية حال أنا أدرك حماسك بالنسبة له ، بيد أننى أرجومنك ألا تسىء معاملتى هكذا .»

« هل كنت أسىء المعاملة ؟ إننى لم أكن لأقصد ذلك ، كل ما فى الأمر أننى عندما أفكر فى أولئك الأساتذة الملعونين وهم لا يعرفون حتى ماينهضون به من أعمال وأبحاث ٠٠٠ » وانطلق مارتن من جديد ، ولو أن لورا لم تكن تفهم تماماً علاقة تركيب هذه المسائل العلمية ، فإنها مع ذلك كانت تستمع فى سرور بالغ وارتياح إلى فيض تحمسه دون أن يخالطها شىء من نصائح مادلين فوكس وتصويباتها الرقيقة . وكان لا بد لها أن تنذره بأنها سوف تكون فى المستشفى فى تمام الساعة العاشرة ... فقال :

« لقد تحدثت طويلا يا إلهى ! أرجو ألا أكون قد ضايقتك ؟ »

« إننى أحب حديثك . »

«لقد تحدثت طويلا عن المسائل العلمية، والفنية وأحسب أننى كنت مزعجاً .. إننى جافى الذوق ! »

« أود أن أنال ثقتك .. إننى لست جادة ولست من ذوى العقول الراجحة ، بيد أننى أود أن يعتقد فى أصدقائى من الرجال أننى ذكية بما فيه الكفاية بحيث أستطيع أن أنصت لما يدور حقاً فى خواطرهم و ٠٠٠٠ طاب مساؤك ! »

تناولا الطعام سويا مرتين خلال أسبوعين ، مرتين فحسب ، وفى خلال هذه الفترة لم يرِ مارتن خطيبته مادلين بالرغم من أنها اتصلت به تليفونيا ،

ولقد استطاع أن يعرف كل شيء عن بيئة لورا .. إذ أخبرته عن عمتها العجوز التي تلازم الفراش في زينيث ، وكانت هي السبب في أن تقطع هذا الشوط الطويل لتحضر التدريب في المستشفى من قرية هويتسلفانيا شمال داكوتا حيث يوجد شارع بين الأكواخ يقيم فيه زراع القمح في نهايته . أما والدها فهو أندرو جاكسون توزر ، وكان يعرف أحياناً بجاكاس توزر ، وهو صاحب معمل للجبن والزبدة ومزارع ، ولذلك فهو أهم شخص في المدينة؛ كما أنه متدين ورع يحرص على حضور اجتماع الصلاة مساء يوم الأربعاء ،وإنه ليقلب الدنيا ويقعدها دائماً على كل درهم يعطيه للورا أو أمها . أما أخاها السنجابي الأسنان الذي يلبس عوينات ذات سلسلة ذهبية ، فهو الصراف ؛ وكذلك عرف عن كل من في معمل الجبن والزبدة الذي يمتلكه والدها.

وكان شقيقها يتناول عشاءه المكون من سلطة الدجاج والقهوة عادة مع « أصدقاء الكنيسة » والمزارعين الألمان من أتباع لوثر ،منشدا الأهازيج التيوتنية القديمة والأغاني الهولندية والبوهيمية والقطبية . وكان يرى دائما أن لورا « طفلة عجيبة » وهي تقوم دائماً ودون معارضة بأعمال المنزل ، بيد أنها لا تنسى أنها يوما ما ستظفر بشاب تشاهد معه ألوان الحياة جميعاً مهما كلفها هذا من مخاطرة ومال .

وكان ختام المطاف في جهدها المتردد في مكاشفته بتاريخ حياتها في طفولتها أن بكى قائلا : « ياحبيبتي ليس ثمة مايدعو أن تحدثيني بعد ذلك عن نفسك ، فقد عرفتك،ولن أدعك بمفردك مهما كانت الظروف ، فإنك سوف تقترنين بي ـ » نطقا بتلك الكلمات ويداهما متشابكتان وعيونها تشعان صدقا ، وتلك كانت أول كلماتها في ذلك المطعم :

« أريد أن أدعوك (ساندى) ولم ذلك ؟

لا أدري لماذا ولكن (ساندى) معناهـــا أنك لي اوه .. ياعزيزي إني أحبك ! »

وعاد مارتن إلى منزله وقد ارتبط بفتاتين في وقت واحد .

— ٤ —

وعد أن يرى مادلين فى صباح اليوم التالى .

ومهما كان سلوكه مهذباً إلا أنه كان لابد أن يشعر بأنه ككلب وضيع ، وقد أكد لنفسه أنه يحس بأنه مثل الكلب الوضيع ،بيد أنه لم يصرح بذلك ، وأخذ يفكر فى مادلين وفى اهتماماتها العاطفية : بمجلدات الشعر التى كانت تتحسسها بأطراف أناملها مستهامة بها ، مضى يفكر فى رباط العنق التى ابتاعته له ، وإعجابها بشعره عندما كان يمشطه على نسق أبطال صور الغلاف فى المجلات ، واستشعر بالأسى أنه اقترف وزرا فى حق الوفاء ، ولكن قلقه تكسر على صخرة صحبته وتوافقه مع لورا فإن رفقتها قدحررت روحه .

وحتى عندما يفاضل مادلين عنها بأن يدعى بأن لورا مجرد فتاة عادية تمضغ اللبان سراً ، ولا تهتم أمام الناس بتنميق أظافرها ، فإن هذه البساطة منها كانت تنال منه التقدير والإعزاز لأنها قريبة إلى بساطته . وكانت منبسطة فى طموحها وتهذيبها ، وكانت هذه الصفة قاعدة أساسية لبهجتها كما كانت كذلك بالنسبة لحب استطلاعه العلمى المثير .

كان فى المعمل شارد الذهن فى ذلك اليوم التالى التعس فلقد سأله جوتليب مرتين عما إذا كان قد أعد الكمية الجديدة لمزرعة الجراثيم،وكان من عادة جوتليب أن يكون قاسياً عنيفاً متجبرا مع خاصته عن سائر الطلبة العاديين . . فقال مزمجراً : « إنك محلق فى عالم الأحلام . ياإلهى ! هل سأنفق حياتى مع بلهاء ٠٠ لا يمكن أن أكون بمفردى دائماً يامارتن ٠ ٠ هل ستخيب رجائى ؟ إنك منذ يومين أو ثلاثة لم تعد متحمساً للعمل ٠ »

وخرج مارتن وهو يتمتم « إننى أحب ذلك الرجل » وفى غمرة ارتباكه استطاع أن يتخيل مادلين وتظاهرها ومضايقاتها وأنانيتها وجهلها الأصيل ، ومضى

يستغرق فى عمله حتى الإرهاق لـكى يقصى مادلين عن فـكره وراء ظهره كنوع من الزجر النفسى • ولما توجه إليها فى المساء كان على استعداد ليثور منفجراً عند أول بادرة من الشكوى حتى ينساها نهائيا ويفسخ ارتباطـه بها ويحيا من جديد حياة بسيطة • بيد أنها لم تبد أية شكوى .

فقد هرعت إليه وهى تقول « عزيزى • • إنك متعب ، إن التعب يبدو فى عينيك ، فهل كنت تعمل عملا مرهقاً شاقا ؟ إننى كنت حـزينة لعدم حضورك طوال هذا الأسبوع • • ياحبيبى لا يجب أن تقتل نفسك • فـكر فى الأعـوام القادمة التى ستنجز فيها أعمــالا مجيدة رائعة • لا تتحدث ،أريدك أن تستريح ؛ فوالدتى قد ذهبت إلى السينما • اجلس هنا فسوف أجعلك مستريحاً بهذه الوسائد. اسند ظهرك،واستغرق فى النوم إذا شئت، وسأقرأ لك صفحات من كتاب (القدر الذهبى) ولسوف يروقك • »

لقد كان مصمماً على أنه لن يستسيغه ، إذ أنه من الأرجح أنه كان مسلوب الشعور بالفـكاهة ، ويشك فى أنه سوف يتقبلها بيد أن تبدلها قد أثاره . وبالرغم من أن صوت مادلين كان مجلجلا ، خاصة بعد سماع صوت لورا بنعومته المتراخية فإنه أحس بالخجل من نواياه التى تستهدف إيلامها . فقد رأى أنها هى الطفلة بتظاهرها أما لورا الشجاعة المعتمدة على نفسها ، فهى السيدة الناضجة، سيدة الحياة الحقة ، واختفت كلمات التوبيخ والتأنيب التى كان قد أعدها ليواجهها بها .

وفجأة كانت إلى جواره تقول له متوسلة « لقد كنت وحيدة بدونك طوال الأسبوع ! »

وبذلك كان خادعا لـكلا الفتاتين، فإن لورا هى التى قد أثارته بصورة مدهشة وإنها لورا بذاتها التى كان يداعبها الآن ، ولـكن مادلين هى التى كانت متعطشة إلى رؤياه ، وعندما همست قائلة « إنى لسعيدة أن أراك سعيداً هنا » لم يـكن فى استطاعته أن يقول شيئا . كان يريد أن يتحدث عن لورا ! أن يهتف باسم لورا

وأن يطرب بها . إنها امرأته وأخذ يخرج بعض عبارات التملق القوية بيد أنها كانت غير عاطفية ، فقد ذكران مادلين سيدة صغيرة أنيقة وعالمة إنجليزية عظيمة. وعندما شهقت من خيبة الأمل نظراً لفتوره انسحب فى الساعة العاشرة ، وكان قد أفلح أخيرا فى أن يشعر أنه قام بدور الكلب الوضيع .

ومضى مسرعا إلى كليف كلوسون . لم يذكر لكليف شيئا عن لورا . وكان يسوءه احتمال سخرية كليف . فأخذ يفكر كيف يتسلل فى هدوء إلى حجرتهم . وكان كليف يرقد على ظهره ، وقدماه فوق منضدة المذاكرة ، وهو يطالع قصة شارلوك هولمز التى كانت تأخذ مكانها فوق مجلد طبى ضخم كان يعتبر نفسه أنه يقرأ فيه .

« كليف ! أريد شرابا . إننى منهوك القوى . دعنا نتسلل إلى حانة بارنى ، ونحاول إذا أمكن أن نرتشف شرابا . »

« كأنك تتكلم بعدة ألسنة »

« أوه ! كنى ظرفا ، فإننى لست معتدل المزاج . »

« أوه إن الفتى كان يمضى وقتا من الزمن مع معشوقته مادلين ! هل كانت فى صدام مع مارتيكنز ؟ حسنا سوف أهدأ . . هيا بنا نتناول شرابا . »

وفى الطريق روى ثلاث قصص عن البروفسور روبرتشو ، وكانت كلها قصص فاحشة ، معظمها غير حقيقية ، وذلك لكى يدخل المرح والسرور على نفس مارتن . كانت حانة بارنى ، حانوتا تتعدد السلع فيه خاصة وأن موهاليس لم يكن يوجد بها محل تتعدد فيه السلع التى يمكن للمرء أن يختار منها ما يحلو له .. وتبادلا كليف وبارنى ـ ذو اليدين الكثيفتى الشعر ـ التحية بطريقة تقديرية راقية.

وقال كليف مخاطبا بارنى : « عليك بركات المساء وتحياته . . هل يمكن أن تعد لى ولصديقى البروفسور الدكتور أروسميث زجاجة من الشراب ؟ »

فأجابه بارنى « ياللفكاهة التى تتخلل تعبيراتك . . أحسب أننى أود الانتفاع بها يوما أيها الطبيب المرتقب . . هاك ماتريد . »

كانت الحجرة الأمامية لحانة بارنى ذات رسومات تعبيرية بها ألوان مختلفة من الأشياء وأكوام من السجاير وقطع الشكولاتة وأوراق اللعب وألعاب ورقية أخرى قرمزية اللون مبعثرة فى غير نظام .

أما الحجرة الخلفية فكانت أكثر بساطة حيث توجد أكياس من الحلوى وزجاجات من الماء الغازى اللذيذ الطعم وصندوق ثلج كبير ومائدتان صغيرتان حولهما مقاعد مهشمة. وصب بارنى من زجاجة كتب عليها «چنجر أيل» كأسين من الويسكى القوى المركز .

وأخذ مارتن وكليف الكأسين إلى مائدة فى ركن الحجرة . . وكان تأثيرهما سريعا فما لبث أن انقلب حزن مارتن المضطرب إلى تفاؤل .

وقال لكليف إنه سيؤلف كتابا يعرض فيه المثالية، بيد أن ما يعنيه هو أنه سوف يتخذ خطوة بارعة فيما يتعلق بارتباطه المزدوج . وقد استقر به الرأى على أن يدعو كلا من لورا ومادلين لتناول الغداء سويا ويدلى لهما بالحقيقة ويرى أيتهما تحبه أكثر . . ثم صاح متناولا كأسا آخر من الويسكى وقال لكليف أنه شخص لطيف، أما بارنى فهو يحسن إلى الجميع، ثم اندفع نحو التليفون الذى كان موضوعا فى (كابينة) بعيدا عن سمع الحاضرين.ومن مستشفى زينيث العام رد عليه المشرف على الممرضات وهو رجل فظ متشكك قائلا :« ليس هذا بالوقت المناسب لاستدعاء ممرضة تحت الاختبار . الساعة الآن الحادية عشرة والنصف ! وعلى أية حال من أنت ؟ »

وتحفظ مارتن وأحجم عن أن يقول : « أنا سوف أخبرك الآن من أنا ! » الذي كان رد فعله الطبيعي ، وقال إنه يتحدث عن عمة لورا طريحة الفراش ،

وأن حالة السيدة العجوز سيئة جدا وإذا كان مشرف الليل مستعدا لأن يتحمل مسئولية مقتل امرأة لاذنب لها . .

وعندما قدمت لورا إلى التليفون قال بسرعة واتزان وهو يشعر كما لو كان قد انتقل من الإحساس بالقلق بين حشد من الأغراب إلى الشعور بالاطمئنان والأمان فى وجودها :

«لورا؟ أنا ساندى. قابليني غدا فى ردهة فندق (جراند) فى الساعة الحادية عشرة والنصف . ضرورى وهام ! حاولى الحضور بأية طريقة — إن عمتك مريضة . »

« وهو كذلك ياعزيزى — طاب مساؤك » وكان ذلك كل مافاهت به .

وظل دقائق طويلة حتى جاءه الرد من مسكن مادلين إذ سمع أخيراً صوت مسز فوكس ناعساً مرتعداً وهى تقول :

« نعم ، نعم ؟ »

« أنا مارتن »

« من ؟ من ؟ ماذا ؟ أنت تريد شقة فوكس ؟ »

« أجل ، أجل . أنا مارتن أروسميث الذى يتحدث »

«أوه ، أوه يا عزيزى! لقد أيقظنى التليفون من نوم عميق ولم أكن لأدرك ما تقول . كنت خائفة جداً . كنت أظن أنها برقية أو شىء ما . ظننت أن شيئاً حدث لشقيق مادى ماذا يا عزيزى ؟

أوه أتمنى ألا يكون قد حدث شىء! »

وطغت عليه ثقة المرأة العجوز فيه وحبها الجم فأفاق من شعوره الذى أوحى به إليه الوسكى بأنه شاب حاذق ، وفى نغمة حزينة، وقد أثقلته جميع متاعب الحياة، تنهد قائلا :

« لا . . لم يحدث شيء ولـكن نسيت أن أخبر مادلين شيئاً ـ فإنني متأسف غاية فى الأسف إذ استدعيها فى وقت متأخر ـ فهل يمكن أن تحادثني لحظة .. »

ثم جاءت مادلين لتتحدث «لماذا يا عزيزى مارتن ! ماذا حـــدث ؟ أتمنى ألا يكون شيء قد حدث ، لماذا ياعزيزى ، إنك قد رحلت من هنا توا .. »

« انصتى إلى يا عزيزتى لقد نسيت أن أقول لك أن لى صديقاً . . صديقاً عظيما فى زينيث . وأود أن يتاح أن تتلاقيا سوياً »

« من هو ؟ »

« سوف ترين غـداً أصغ إلى . أريدك أن تحضرى ـ تعالى وقابلينى عند الغذاء سوف .. سوف أقدم لـكم جميعاً وجبة طعام فى فندق جراند . . »

« بديع ! »

« لذا أريدك أن تقابليني فى الساعة الحادية عشرة وأربعين دقيقة عند ميدان الـكلية فهل يتسنى ذلك ؟ »

فقالت بغموض: « أوه أود ذلك ولـكن ـ لدى موعد الحادية عشرة ولا أود أن أخلفه،فقد وعدت ماى هارمون أن أذهب لنتسوق ـ فإنها تبحث عن نوع من الأحذية تستطيع أن تلبسه مع ردائها الـكريب دى شين القرنفلى ، وقد فـكرنا فى أن نذهب ونتناول الغداء فى فندق(يكوليج كارافانسيراى) ـ ولقد عزمت على أن أذهب إلى السينما معها أو مع أى شخص آخر فلقد قالت والدتى أن فيـــلم « ألاسكا » الجديد رائع ، فقد شهدته ،وأرى أن أذهب لأشاهده قبل أن ينتهى عرضه ، والله أعلم فربما أعود إلى المنزل لأذاكر ولا أمضى إلى أى مكان آخر على الإطلاق ـ »

« الآن ! اصغ ! إن الأمر هام فهل لا تثقين فى ؟ هل ستحضرين أم لا ؟»

« لماذا ! بالطبع . أننى أثق فيك ياعزيزى . وهو كذلك . سوف أحاول أن أكون هناك فى الحادية عشرة وأربعين دقيقة »

« أجـــــل »

« عند ميدان الـكلية ؟ أم عند مكتبة بلوثمان ؟

« عند ميدان الـكلية »

كانت عبارتها « إننى أثق فيك » وقولها « سوف أحاول » ترن فى أذنه عند خروجه من الـكابينة الخانقة فى طريق عودته إلى كليف .

وسأله كليف متعجباً : ما الذى أحزنك ؟ هل هربت منك زوجتك ، أم فاز العمالقة فى الجولة التاسعة ؟

«يابارنى أن صديقناهذا الشارد يبدو هذا المساء مثل الموتى ، فأحضرله كأساً آخر من الفراولة بسرعة . مارأيك يادكتور ، إنى أرى أن نستدعى لك طبيباً . »

أما مارتن فإن كل ما أجاب به هو قوله« اخرس »، وكان ذلك دون اقتناع ، فقبل أن يتحدث فى التليفون كانت البهجة تغمره ، وكان قـد امتدح كليف فى إحدى لعب التسلية كما كان يداعب بارنى .

ولـكن الآن ، وبينما كان كليف العطوف يمارس نشاطه ، كان مارتن يجلس متأملا فيما عدا عندما كان يزجر (مع عودة رضاه النفسى) قائلا :

« إذا علمت بمتاعبي ــ فهى أكثر مما يتحملها إنسان ــ فإنك سوف تذهل!»

فانزعج كليف قائلا : « انظر هنا أيها الصديق العتيق.إذا كنت مكبلا بديون فإننى سوف أحصل على المبلغ بطريقة أو بأخرى . وإذا كان ــ هل لتماديك مع مادلين ؟ »

« إنك تضايقنى ، فإن تفكيرك يتجه اتجاها خبيثاً ، فإننى لست أهلا للمس يد مادلين ولا أنظر إليها إلا نظرة احترام . »

« تباً لما تفعل ! ولكن لا يهم ما دمت تقول ذلك. وإننى لأتمنى أن يكون فى مقدورى أن أفعل شيئاً من أجلك. أوه.. تناول كأساً آخر. بارنى! أحضر له كأساً ! »

وما لبث مارتن أن صار من فرط الشراب فى حالة عدم اكتراث مبهم .

أما كليف فقد صحبه بإلحاح إلى المنزل بعدما رغب فى الشجار مع ثلاثة من زملائه الكبار ، واستيقظ فى الصباح ، وكانت رأسه تعانى تصدعاً شديداً وإدراكاً بأنه سوف يواجه لورا ومادلين عند الغذاء .

— ٥ —

كانت رحلته فى زينيث مع مادلين — التى استغرقت نصف ساعة — مكشوفة للعيان ، صعبة الاحتمال كسحب عاصفة . لم يكن عليه أن يجتاز كل دقيقة من هذه الدقائق الثلاثين فحسب . بل كانت الثلاثين دقيقة كلها بكآبتها حاضرة دفعة واحدة .

وبينما كان يمارس ملاحظاته الواعية التى سيبديها بعد دقيقتين من الآن ، كان ما يزال يسمع الكلمات المرتبكة التى قالها فى الدقيقتين السابقتين . وحاول بكل جهده أن يبعد نظرها « عن الصديق العظيم » الذى سيقابلانه ، ومضى يصف فى إشراقة بلهاء الليلة التى أمضاها فى حانة بارنى، بيد أنه بالرغم من محاولاته لم يفلح أن يكون فكها . وعندما أخذت مادلين تلقى بعظاتها عن مساوىء الخمور ومصاحبة ذوى الأخلاق الفاسدة ، بدأ يستريح ولكنه لم يأخذ جانبها ويتفق معها .

ومضت تقول له :

« من ذلك الإنسان الذى سنلتقى به؟ ما هو الشىء الذى تخفيه بغموض؟ أوه يامارتكينز هل هى نكتة ؟ هلا سنقابل أحداً ؟ أم تريد فحسب أن تبتعد معى

عن والدتى فترة من الوقت نمرح فيها سوياً فى فندق جراند ؟ ياله من مزاح .. كثيراً ما كنت أتمنى أن أتناول الغذاء فى فندق جراند ، وإنى لأعتقد إنه شىء مزخرف بشع ، بيد أنه لا يزال مثيراً فهل عسانى أتمناها ياعزيزى ؟ »

« كلا إن هناك إنسانا . . آه إننا سوف نقابل إنساناً فعلا ! »

« لماذا إذن لا تقول لى من هو ؟ شرفاً يا مارتن إنك تجعلنى فارغة الصبر ».

« حسنا سأقول لك إنه ليس هو إنما هى »

« يا إلهى ! »

« إنه — كما تعرفين إن عملى يقتضينى أن أتوجه إلى المستشفيات ، وقد قدمت لى إحدى الممرضات فى مستشفى زينيت العام خدمات كثيرة . » ثم أخذ يلهث وقد أحس بألم فى عينيه إذ أن ألم الغـــذاء المنتظر صار شيئاً لا مفر منه .

ثم تعجب من إصرأره على محاولة مقاومة عقابه . « خاصة وأن هناك ممرضة آية فى الجمال . ولقد تعلمت كثيراً عن رعاية المرضى ، وإنها سوف تذلل لى صعوبات طبية . وإنه ليبدو عليها منظر فتاة لطيفة -- الآنسة توزر — هو اسمها — وأحسب أن اسمها الأول هو « لى » أو شىء من هذا القبيل ، وأن والدها هو أحد أعيان شمال داكوتا . إنه غنى إلى أقصى درجة — صاحب مصرف كبير — وأعتقد أنها آثرت أن تكون ممرضة فحسب لتشارك بنشاطها فى الحياة . » لقد اقتبس لهجة مادلين ذات الأثر الشاعرى . » أعتقد أن كلا منكما تود أن تعرف إحداهما الأخرى . وأنت تتذكرين أنك كنت تقولين إن قليلا من الفتيات فى موهاليس يعشقون المثل العليا . »

فقالت مادلين :

« أجل » وكانت مادلين شاخصة ببصرها إلى شىء بعيد . ومهما كان

هذا الشيء . فإنها لم تكن تحبه واستطردت « سوف يسعدني جداً بالطبع أن أراها ، إن أي صديقة من صديقاتك — أوه يامارت أتمنى ألا تغازل إحداهن.. وأتمنى ألا تعقد أواصر صداقة قوية مع كل أولئك المرضات . . إنني بالطبع لا أعرف شيئاً عنها ، بيد أنني كنت دائماً ينتهي إلى سمعي أن بعض أولئك المرضات يعتبرن من صيادي رجال بصفة مستمرة . »

« حسنا لأتكلم بصراحة الآن . إن لورا ليست ممن تصطاد الرجال . »

« كلا أنا متأكدة ولكن — أوه يامارتكينز . لا تكن ساذجاً وتجعل أولئك المرضات يجدن فيك لأنفسهن تسلية . إني أقصد ذلك لصالحك . إنهن يعتززن بهذه الميزة . مسكينة يامادلين ، لن يسمح لها بالتجوال حول حجرات الرجال حتى تتعلم أشياء .. وأنت تعتقد أنك ملم بكوامن النفس إلى حد كبير يامارت . ولكن شرفاً إن أية امرأة أنيقة تستطيع أن تلفك حول إصبعها .

« حسناً أعتقد انني أستطيع أن أصون نفسي . »

« أوه أقصد ـ أنا لا أقصد ـ ولكن أتمنى أن توزر هذه ـ أنا متأكدة أنني سأحبها إذا كنت أنت تحبها ولكن ـ أنا حبيبتك الحقيقية ألست أنا معشوقتك الصادقة دائماً ! »

أما هي ، هي المتزنة ، فقد تجاهلت المارة وهي تمسك بيده . وكانت وجلة جداً حتى أن غضبه من انطباعاتها عن لورا انقلب إلى لون من الابتئاس ، بينما كان إبهامها ، مصادفة يحتك بظهر يده . وحاول أن يبدو لطيفاً وهو يبدي احتجاجه « أكيد ـ أكيد . شرفاً يامادلين . انظري إلى ذلك الأحمق العجوز يحملق فينا عبر البناء . »

ومهما كان عدم الوفاء الذي أقدم عليه فإنه قد عوقب تماما قبل أن يصل إلى فندق جراند .

كان فندق جراند في عام ١٩٠٧ أعظم الفنادق في زينيث . وكان البحارة الرحالة يشبهونه بفندق باركرهاوس وفندق بالمرهاوس وفندق ويست ، وقد

صار الآن فندقاً عادياً إذ أمست أرضيته قذرة واستحالت لمعة جدرانه ، وكذلك تقادمت مقاعده ونحل الجلد الذى يكسوها بيد أنه كان فى عصره أعظم وأبهى الفنادق ما بين شيكاغو وبتسبرج ، فهو أقرب مايكون شبهاً بقصر شرقى . وتقوم عند مدخله قباب مـن القرميد المراكشى ، بينما ترتفع ردهته المصنوعة من المرمر الأبيض والأسود . أما شرفاته فهى ذات سياج من الحديد المطلى تقوم فى طوابقه السبعة الخضراء والقرمزية واللؤلؤية .

ولقد ألفيا لورا فى الانتظار فى ردهة الفندق جالسة عند إحدى المقاعد المقامة حول أحد الأعمدة ، فما لبثت أن تطلعت محملقة فى وجه مادلين فى هدوء وترقب ، ولاحظ مارتن لتوه أن لورا تبدو مغبرة على نحو غير عادى — على حد تعبيره. ولم يعبأ كيف كان شعرها العسلى مكوما تحت قبعتها السوداء . وأخذ ينظر متأسيا إلى ذلك التناقض بين بلوزتها وقد فقدت زرارها الثالث وجونلتها المنقوشة وسترتها البنية المهلهلة وبين ثياب مادلين الملساء الزرقاء اللون . ولكن الشعور بالاستياء لم يكن تجاه لورا . ومضى ينعم النظر فيهما سويا (ليس بكبرياء كما يفعل الشباب المتعجرف ولكن بلهفة) وقد أحس بالحنق والضيق من مادلين أكثر من ذى قبل إذ كان ارتداؤها لثياب أجمل من لورا مبعثا لضيقه وتبرمه... وأحس بأن حبه يهفو إلى لورا ليحميها ويحوطها ويدافع عنها .

وظل طيلة الوقت يقول :

«أعتقد أنكما أيتها الفتاتان يجب أن تعرف كل منكما الأخرى - فهلا تتعارفين يا آنسة فوكس على الآنسة توزر — احتفال صغير — إن الكلب السعيد يكون له ملكتان من سبأ . ويقول لنفسه « أوه يا للجحيم ! »

ولما لم تقل إحداهما شيئا للأخرى وأسرع بهما إلى حجرة الطعام الشهيرة بفندق جراند . كانت الحجرة غاصة بثريات مذهبة ومقاعد حمراء وأوان فضية، وخدامها من الزنوج كبار السن يرتدون صدرات ذهبية وخضراء. وعلى الجدران رسمت مناظر لبومباى والبندقية وبحيرة كومو وفرساى .

وقالت لورا « إنها لحجرة باذخة! »

وكانت مادلين تبدو أنها تريد أن تقول الشيء ذاته ولكن بكلمات أطول، بيد أنها تأملت من جديد فى رسوم الجدران وقالت « حسناً إنها كبيرة جداً »

أما مارتن فكان يطلب الطعام فى كرب بالغ ، وكان قد خصص أربعة دولارات لهذه الوجبة بما فيها الهبة ، وكان مستوى نوع الطعام وجودته تدعو إلى أن ينفق كل سنت من هذه الدولارات الأربع. وبينما كان يتساءل ماذا يكون طعم النوع المسمى « بيوريه سانت چيرمان » ، والخادم يرقب من خلف كتفه إذا بمادلين تقول بصوت رقيق مهذب ومروع معاً:

« يا آنسة توزر إن السيد أروسميث قال لى أنك ممرضة . »

« أجل شيء من هذا القبيل »

« فهل تجدين أن تلك مهنة حسنة ؟ »

« حسناً ـ أجل ... أجل ، أعتقد أنها حسنة »

« أحسب أنه شيء جميل أن تخفف الآلام وبالطبع إن عملى ـ فإننى سأحصل على درجة الدكتوراه فى اللغة الإنجليزية ـ وجعلت كلماتها رنانة كما لو كانت ستمنح لقب ايرل ـ إننى جافة ومنعزلة قليلا ، وإننى ألم إلماماً تاماً بتطوير اللغة وما إلى ذلك وغيره . وأعتقد أنك بتدريبك العملى ستجدين ذلك حماقة إلى حد ما . . »

« أجل إنها يجب أن تكون ـ كلا لا بد أنها حسنة . »

« هل أنت قادمة من زينيث يا آنسة ـ توزر »

« كلا أنا قادمة من ـ مدينة صغيرة ـ إنها مدينة تجاوزا .. شمال داكوتا . »

« أوه شمال داكوتا ! »

« أجل . . فى طريق الغرب . »

« أوه ـ أجل .. هل ستمكثين فى الشرق بعض الوقت ؟ » إنها على وجه التحديد العبارة التى قالها ذات مرة باستياء شديد ابن عم مادلين الذى يقيم فى نيويورك .

« حسناً أنا كلا ـ أجل أعتقد أنى سأظل هنا بعض الوقت »

« هل أنت ـ آه هل تجدين انك تؤثرين هذا المكان هنا ؟ »

« أوه أجل إنه لمكان بديع جداً .. هذه المدن الكبرى ـ توجد بها الكثير مما يستحق المشاهدة . »

« كبيرة ؟ حسناً أعتقد أن ذلك كله يعتمد على وجهة النظر .. أليس كذلك؟ إنى أعتبر نيويورك دائماً كبيرة ولكن بالطبع ـ أو تعتبرين عكس ماقى شمال داكوتا حسناً ومسلياً ؟ »

« حسناً ـ طبعاً إنها تختلف . »

« أخبريني ماذا تشبه شمال داكوتا ؟ لقد كنت دائماً أتعجب من هذه المدن الغربية . » تلك كانت المرة الثانية لمادلين التى تنتحل كلمات ابن عمها . « ماهو الانطباع العام الذى يتركه فى نفسك ؟ »

« أعتقد أنى لا أدرى ماذا تقصدين تماماً . »

« أقصد ماهو الانطباع العام ؟ الـ ـ الأثر »

« حسناً إن بها الكثير من القمح . »

« ولكن أقصد ـ أعتقد أنكم جميعاً تمتازون بالشجاعة والنشاط والحيوية إذا ماقورنتم بنا نحن أبناء الأقاليم الشرقية . »

« لست ـ حسناً ، أجل ، ربما »

« هل التقيت بالكثير من الناس فى زينيث » .

فقالت لورا فى لثغة

« ليس كثيراً جداً . »

« هل التقيت بالدكتور بيركول الذى يعمل فى المستشفى الذى تعملين بها ؟

إنه رجل لطيف جداً وليس جراحاً ماهراً فحسب بل هو موهوب جداً وهو يغنى أغانى رائعة وينحدر من أسرة عريقة »

فقالت لورا بلثغتها « لم أقابله بعد » .

« أوه ، يجب أن تعرفيه . إنه يلعب التنس ببراعة وهو يحضر دائماً حفلات أصحاب الملايين فى رويال بريدج وهو غاية فى الأناقة» .

ولأول مرة قاطع مارتن الحديث بقوله :

« أنيق ؟ هو ؟ إنه ليس إنساناً . ليس به ذرة من العقل على الاطلاق . »

« ياطفلى العزيز إننى لا أقصد أنيقا بهذا المعنى » . وجلس بمفـرده بلا معين بينما التفتت من جديد إلى لورا وأخذت تمطرها بالأسئلة ، بلباقة أكثر من ذى قبل، عما إذ كانت تعرف ابن ذلك المحامى المشهور وذلك النائب ذائع الصيت أو تعرف ذلك المحل الكبير الخاص بصنع القبعات أو ذلك النادى .. وأخذت تتكلم بانطلاق عما هو معروف عن زعماء المجتمع فى زينيث وتلك الشخصيات التى كانت تظهر فى صفحة أخبار المجتمع بجريدة الأفوكاتو تايمز: عائلات كوكس وڤان أنتريم ودوزورث، وقد استبدت الدهشة بمارتن من انطلاقها على سجيتها . وتذكر أنها حضرت ذات مرة حفلة راقصة من حفلات البر فى زينيث ولكنه لم يعرف أنها كانت أليفة مع علية القوم إلى هذه الدرجة.

ومما لا شك فيه أن لورا لم يسبق لها أن سمعت عن هـــذه الشخصيات العظيمة، وأنها لم تحضر الحفلات والمحاضرات والندوات التى أمضت فيها مادلين أمسياتها المتألقة .

وهزت مادلين كتفها قليلا ، ثم قالت « حسنا — طبعا إنه فى وجود الأطباء والعظاء وكل من تقابلينه فى المستشفى أحسب أنك تجدين المحاضرات سهلة للغاية — » . وما لبثت أن تجاهلت لورا ونظرت إلى مارتن فى انعطاف وقالت :

« أو تستعد لإجراء عمليات أخرى عن هذا الشيء الخاص بالأرانب ؟ »

وبدا متجهما . وكان من الممكن أن يصارحهما القول إذا انتهى منه فى سرعة ، فقال :

«يامادلين إننى أحضر تكما سويا لأنى لست أدرى ما إذا كنتما قد تصادقتما أم لا ، بيد أننى أتمنى ذلك لأنى قد — لست أوجد مبررات لنفسى ، إذ لا محالة من ذلك ، إننى مرتبط بكما أنتما الاثنتين ، وأريد أن أعرف — . . »

فهبت مادلين ، ولم تكن من قبل قد بدت بمثل هذا التعجرف والرقة معا .. وتطلعت إليهما .. ومضت دون أن تفوه بكلمة ، ثم عادت ولمست كتف لورا وقبلتها بهدوء وهى تقول :

« ياعزيزتى إننى متأسية من أجلك . . إن أمامك عمل شاق ! أيتها الغريرة المسكينة ! »

ومضت فى سبيلها منتصبة الهامة .

وأحنى مارتن ظهره ، ولم يستطع أن يتطلع إلى لورا ، وأحس بيدها فوق يده فتطلع نحوها ليجدها تبتسم ابتسامة بسيطة عليها مسحة خفيفة من السخرية وهى تقول :

« ياساندى أحذرك بأننى لن أتخلى عنك ، وإننى افترض أنك سيء مثلما قالت ذلك عنك وإننى أفترض أننى حمقاء — وإننى سليطة ولكنك ملكى وإننى أحذرك أنه لا فائدة من ارتباطك بأية إنسانة أخرى ، فإننى سوف أفقأ عينيها ! والآن لا يأخذك الغرور بنفسك ! اننى أحسب أنك أنانى جداً ، ولكن لا يهمنى كل ذلك فأنت ملك لى » .

ومضى يقول متخبطاً أشياء جميلة غير مترابطة ثم قالت متأملة :

« أحسب أننى أقرب إليك منها ... ربما تحبنى أكثر لأنك تستطيع أن تستبدنى — ولأننى أنساق وراءك، أما هى فلم تفعل ذلك أبدا. وإننى لأدرك أيضاً أن عملك أكثر أهمية بالنسبة لك منى وربما أهم منك أنت نفسك ، بيد أننى حمقاء وعادية ولكنها ليست كذلك . وأنا ببساطة معجبة بك إلى أقصى درجة مدهشة (والله أعلم لماذا ولكننى أحبك) بينما هى لديها الإحساس الكفيل بأن يجعلك تعجب بها وتنساق وراءها » .

« كلا! أقسم لك أنه ليس لأننى أوثر أن أستبد بك يالورا — أقسم أنه ليس لهذا السبب — لا أرى إنه كذلك ياأحب الناس، لاتحسبين أنها أكثر منك جمالا. إنها لبقة ولكن — أواه فلنكف عن الحديث ! لقد وجدتك ! لقد بدأت حياتى ! »

الفصل السابع

كان الفارق بين علاقة مارتن بمادلين وعلاقته بلورا هو الفارق بين المبارزة المثيرة والصداقة الصافية ، فمنذ أول أمسية لهما اعتمد مارتن ولورا على وفاء وحب بعضهما للآخر .

ولقد سويت أشياء معينة فى وجـــوده إلى الأبد ، ومع ذلك فإن إعجابه الشديد بها كان ساكـنا هادئا . وكان دائما يخرج باكتشافات جديدة عن ملاحظاته فى الحياة كانت تحفظها فى رأسها الصغيرة بينما تنفث حلقات من الدخان بسيجارتها وهى تبتسم فى هدوء . كان دائماً يهفو اشتياقاً إلى لورا الفتاة ، إذ كانت تحرك مشاعره وتستجيب له بعاطفة صريحة مرحة ، بيد أنه كان يتحدث أيضاً إلى لورا الأخرى الخالية من الأحاسيس الجنسية أكثر استغراقاً وتعمقا مما كان يتحدث إلى جوتليب او إلى نفسه القلقة ، بينما كانت هى بإيماءة بسيطة أو كلمة عارضة تشجعه وتشيع الثقة فى نفسه وطموحه المتوثب المتطور .

— ٢ —

كـانت أسرة رابطة ديجامابى تقيم حفلا راقصاً. وكـان من المفهوم بين طلبة الطب الهامسين الذين تضمهم جامعة وينباك أن الجامعة أصبحت عالية بحيث أصبح من المتوقع أن يرتدوا الملابس التى تعتبر رمزا للهيبة والمعروفة باسم «ملابس السهرة» . وفى المناسبات الفريدة والمثيرة كان مارتن يرتدى ملابس يستأجرها من بعض المحلات المخصصة لتأجير الملابس ، بيد أنه الآن كان عليه أن يمتلك مثل هذه الملابس، إذ أنه بصدد تقديم لورا إلى المجتمع باعتبارها عروسه وفتاته المفضلة.. وكشأن أى شخصين كبيرين مندمجين كليهما فى الآخر ، وهما يرتادان شوارع جديدة ، هيابين فى العاصمة ، دون أن يرحب أحد بهما ، كـان مارتن

ولورا يمران بواجهات حوانيت بنسون وهانلى وكـوخ الباذخة الروعة ، إذ تعتبر أرق المحلات التجارية فى زينيث. ولقد أخذت بعروضات المـاهوجنى والصحاف الزجاجية وقبعات الأوبرا والقفازات المتألقة وسراويل ركوب الجياد البديعة ، وعندما قام مارتن بقياس حلة العشاء ، وحظيت برضائها ، كـان رباط عنقه الداكن الطويل ، وياقته الطرية تبدو ساذجة إلى حد ما تحت صديرى المساء المنخفض، وعندما توجه كـاتب المحل لإحضار الياقات ، مالبثت أن صاحت قائلة :

« يا ساندى.. إنك لتبدو لى غاية فى البهاء والروعة ، إننى لا أكاد أبدو شيئاً فى ثيابى ، بينما تبدو أنت غاية فى الأناقة وليس ثمة مقارنة بيننا .. »

وكـاد يقبلها .

وعاد كـاتب المحل وقال متغنيا : « أحسب ياسيدتى أن زوجك سوف يبدو لطيفاً حقاً فى هذا الياقة المجنحة . »

وبينما كان الـكاتب يحضر رباط العنق قبلها مارتن وتنهدت قائلة :

« أوه .. إنك أحد أولئك الذين يصعدون قدما .. وإننى لم يـكن ليخطر ببالى أننى سأصل إلى مستوى رجل فى ثياب رسمية وياقة آية فى الروعة .. حسنا .. إنى تابعتك ! »

— ٣ —

كان مبنى الجامعة قد زينت بعض أجزائه بمناسبة الحفلة الراقصة فى ديجامابى. وكانت الجدران تبرق وتلمع بعد أن ازدانت بالأوراق الشفافة والجماجم المصنوعة من الملاط، ونماذج خشبية للمشارط يبلغ طولها عشرة أقدام.

فى خلال السنوات الست التى أمضاها مارتن فى موهاليس لم يحضر أكثر من عشر حفلات للرقص بالرغم من أن لذة العناق المهذب كانت اللذة الرئيسية فى

التعليم الجامعى المختلط . وعندما وصل إلى حفلة الرقص ومعه لورا وقد بدت عليها الشجاعة التى يشوبها التهيب ، مرتدية فستاناً أزرق من الكريب دى شين قد فصل على نسق غير مألوف لم يكن يهتم بأنه يسير بخطى متئدة بالرغم من أنه كان شديد الرغبة فى أن يتزاحم الرجال من حولها ويبادلون لورا الحديث ويعجبون بها ، ومع ذلك كان يزهو وهو يقدمها خشية أن يبدو وكأنه يدعو أصدقاءه ليرقصوا معها . ووقفا وحدهما قانطين تحت الشرفة يواجهان الأرضية الفسيحة بينما كان يمرق من ورائهم سيل الراقصين فى جمال وروعة ورغبة . وقد أكدت لورا ومارتن لكل منهما الآخر أنه بالنسبة للطلبة فإن سترة العشاء والصديرى الأسود هما أنسب رداء ، كما هو واضح فى بنسون وهانيلى وكوك شارت ، بيد أنه أحس بألم ممض وابتأس عندما وقع نظره على صديرى أبيض رائع . . وعندما اقترب انجوس ديور الجراح الشهير الصغير مترفعاً مثل كلب الصيد وهو يلبس قفازا أبيض (ناصع البياض وأكثر الأشياء بياضاً على سطح الأرض) أحس مارتن عندئذ بنفسه أنه فتى قليل الحيلة والحركة .

وقال مارتن فى لهجة كأنما يتحدى بها كافة الذين على شاكلة انجوس ديور: « هيا بنا لنرقص » . . .

وكان يرغب بشدة أن يعود إلى المنزل ، فإنه لم يستمتع بالرقص ، بالرغم من أنها كانت تتحرك فى خفة وهو يرقص رقصاً لا بأس به .

ولم يستمتع حتى باحتضانها بين ذراعيه فإنه لم يكن يصدق أنها بين ذراعيه. وبينما كانا يرقصان أبصر ديور وقد التحق بصحبة الفتيات الجميلات بينما النساء المميزات بالجمال قد التففن حول الدكتور العظيم سيلفا عميد مدرسة الطب . وبدا انجوس أنه يحس بألفة بالغة فمضى يراقص أجمل الفتيات متزلقا ، متطوحا بحذق ولباقة . . وحاول مارتن أن يبغضه باعتباره رجلا أحمق ، بيد أنه تذكر أن انجوس قد اختير بالأمس عضوا فى جمعية سيجما أكس .

وزحف مارتن ولورا إلى نفس المكان الذى وقفا فيه من قبل تحت الشرفة ، وكان ذلك المكان عرينهم ، وهو الحصن الوحيد لهم ، وبينما حاول أن يكون غير متقزز ، متحدثاً عن ملابسه الجديدة ، مضى يلعن الرجال الذين يمرون به وهم يتضاحكون مع الفتيات متجاهلين لورا .

وقال: « لم يفد بعد كثير من المدعوين. وسوف يحضر الجميع حالا ، وعندئذ سوف ترقصين كثيراً معهم » .

« أوه لا يهمنى ذلك » .

(« يا إلهى ألا يحضر أحد ويطلب الفتاة المسكينة » ؟)

واحتدم به الغيظ لعدم شعبيته بين الراقصين الرجال من زملائه بمدرسة الطب. وود لو أن كليف كاوسون كان موجودا ، إذ كان كليف يحب أى لون من الحفلات ، بيد أنه لم يستطع الحصول على ملابس جيدة . وفجأة شملته الفرحة إذ رأى أقرب زملائه مودة ، فقد وقع بصره على ارڤنج ووترز ، ذلك الإنسان المثالى فى العمل ، متبخترا نحوهما. بيد أنه مر بهما مكتفيا بمجرد إيماءة فحسب .

وأخذ مارتن ينحنى ثلاث مرات ، ولكنه يأس. والآن لقد تبدد وضاع كبرياؤه كله . . آه لو استشعرت لورا بالسعادة . .

« لن أهتم إطلاقاً اذا ما وقفت مع أكبر ثرثار فى الجامعة كلها وهجرتنى طول المساء ، أى شىء يسعد لحظاتها ! اذا كنت أستطيع أن ألاطف ديور وأغريه ـ لا .. ذلك شىء لا أستطيع أن أقدم عليه : أن أتحبب إلى ذلك الشخص الوضيع المتعالى — إننى سوف ! »

ومن بعيد كان فاتى بفاف يخطو مقبلا فقال له مارتن متلطفا متوددا « مرحباً بفاتى العجوز . إنك تبدو كالغزال هذا المساء ؟ أقدم لك صديقتى الآنسة توزر » .

وقد أظهرت عينا فاتى المحملقتين إعجابا بوجنتى لورا وشعرها الكهرمانى

وشهق قائلا : « إنى سعيد جدا — هل نبدأ الرقص — لى الشرف ؟ » ولقد قال عبارته هذه بأسلوب الاطراء والتملق حتى أن مارتن لم يتحرج أن يقبله . لم يكن يخطر له ببال أنه سيظل واقفاً وحده طوال مدة الرقص ، وقد اتكأ على عمود متطلعاً بإعجاب . وأحس بأنه قد خلا تماماً من الأنانية . وعلى مقربة منه كانت تجلس عدة فتيات خارج حلبة الرقص فى انتظار من يطلبهن للرقص ، ولكن ذلك لم يخطر على باله أيضاً .

وشاهد فاتى يقدم لورا إلى اثنين من الزملاء فى بيت الطلبة ديجامابى ، فطلب أحدهما أن يرقص معها بعد ذلك ثم توالت عليها الدعوات أكثر مما كانت تتمنى وتقدر على تلبيتها .

وهدأت ثائرة مارتن ، وبدا له أن لورا تتعلق محتضنة بمن يرقص معها ، وأنها تتبع خطاهم فى شغف . وبعد أن رقصت للمرة الخامسة ثار قائلا : « طبعاً ! إنها تمتع نفسها ! ليس لديها وقت لتشاهد أننى أقف هنا — أجل بحق الرعد ، انظر إلى وشاحها ! حقا ! إن هذا يروقها . . فى الواقع أننى ينبغى أن أتذوق الرقص قليلا ، وبالطريقة التى تدور بها وتلف مع هذا الأحمق برندل مورجان — الـ — الـ — اللعين . أوه أيتها المرأة الصغيرة إننى وإياك يكون لنا حديثمعاً ! وهؤلاء الطلاب يودون أن يختطفونها منى — الوحيدة التى أحببتها فى حياتى ، والسبب هو أنهم يرقصون أفضل منى ويسفون ويوغلون فى حماقتهم ، وتلك الأوركسترا اللعينة ، وهذه الموسيقى اللاهبة تدور وهى غارقة فى تحياتهم الرخيصة اللعينة . أنت وأنا سوف يكون لنا تفاهم بديع! ».

وعندما عادت إليه يحيط بها طلاب الطب الثلاثة المتقافزين قال لها متمتماً! « أوه لا يهمك أمرى ! »

« هل تؤثر تلك الرقصة ؟ طبعاً ستحصل عليها ! »

واستدارت نحوه مواجهة إياه ولم يكن لديها إحساس مادلين بالتمثيل أمام

الواقفين ، وضغطت على أعصابها ، وهى تنتظر طويلا بينما كان يقف محملقا فأخذت تلقى بعض العبارات من هنا وهناك ، عن مساحة قاعة الرقص وأولئك الزملاء المتأنقين الذين رقصت معهم . وعلى أنغام الموسيقى مـــد إليها ذراعيه . فقالت : « كلا . . بل أريد أن أتحدث إليك » .

واصطحبته إلى أحد الأركان وقذفت إليه بتلك الكلمات « يا ساندى . تلك آخر مرة أحتمل فيها شعورك بالغيرة ، أوه إننى أعرف ! أنظر هنا ! إذا كنا سنرتبط إرتباطا وثيقا ببعضنا بعضاً — ونحن مرتبطان فعلا ! — فإنى سوف أرقص مع من أشاء بقدر ما أشاء من الرجال ، وسوف أكون معهم حمقاء كيفما أشاء ، وسوف أذهب إلى الولائم وغيرها من الأشياء على هواى ، ليس لدى ما أقول ، إننى أحب الرقص وسوف أفعل ما أشاء . وإذا كنت تدرك حقا ، فإنك تستطيع أن تدرك أننى لا أهتم بأى إنسان إطلاقاً سواك ، فأنا لك . لك ! مطلقاً . . لن أهتم بالحماقات التى تقدم عليها — ومن المحتمل أن تكون تلك الحماقات عديدة . وعلى هذا فإذا صرت غيورا على مرة أخرى فإنك تكون شخصاً خبيثاً . فلتتخلص من ذلك . أو لست مستحييا من نفسك ! »

« إننى لم أكن غيورا — أجل بل لقد كنت أوه .. لا أستطيع لذلك دفعا ! إننى أحبك حبا جما وأود أن أكون حبيبا وحيدا لطيفا . لن أكون الحبيب الوحيد إذا لم أكن أحس بالغيرة عليك ! »

« وهو كذلك ولكن لتكن غيرتك مقنعة والآن سوف ننهى الرقص »

كان مارتن عبدا لها .

— ٤ —

كان من المعهود فى جامعة وينماك أن استمرار الرقص إلى ما بعد نصف الليل يعتبر عملا منافيا للأخلاق .

فكان الضيوف فى مثل هذا الموعد يجتمعون فى كافيتريا امبريال ، وكان من المعهود أن تغلق فى الساعة الثامنة ولكنها ذلك المساء استمرت حتى الساعة الواحدة ، وقد ساد فيها روح المرح الشهوانى فكان فاتى يهتز وطالب مضحك آخر ادعى أنه جرسون ووضع المنشفة فوق ذراعه ، بينما عمدت فتاة (ولكنها لم تكن مستساغة) إلى أن تدخن سيجارة .

وعند الباب كان كليف كلوسون ينتظر مارتن ولورا ، وكان مرتديا بدلته الرمادية المألوفة وقميصا من الفانلة الزرقاء.

كان كليف يدعى أنه الحجة يرجع إليه فى الحكم على مارتن . ولم يكن قد قابل لورا . وكان مارتن قد اعترف بارتباطه المزدوج ، وأوضح مارتن أن لورا هى الفتاة الصغيرة الوحيدة التى لا يتسرب إليها أى شك . وهى رشيقة للغاية كأحسن ماتكون فتاة على وجه الأرض .

ولما كان ن قد استنفد جميع صفات الأطراء من قبل وكذلك صبر كليف حول موضوع علاقته بمادلين ، فإن كليف لم يستطع أن يستمع واستعد لأن يكره لورا باعتبارها فتنة أخلاقية أخرى .

ولقد صار يرمقها الآن بنظرة مستعدية . وأخذ ينعق ويندد بمارتن من خلف ظهرها . وهو يقول « فتاة جميلة الطلعة، سوف أقول ذلك لها — ماذا يعيبها ؟ »

وعندما أحضروا الشطائر والقهوة والكعك من المائدة الطويلة أخذ كليف يقول :

« حسنا. إنه لعظيم من زوجين مثلكما فى ثياب رسمية منتفخة أن تساعدانى» ومضى يغمزهما ببعض الكلمات . .

وكانت لديها قدرة عظيمة على قبول الناس على ماهم عليه . وبينما كان كليف ينتظر ويرمقها شذراً، كانت هى تتفحص فى هدوء شطيرة من الدجاج مبدية رضاءها.

« يالك من غلام طيب ! كنت أظن أنك ستنتهز هذه الفرصة فإذا كنت غير مهذب فلا داعي لأن تتباهى بموضوع عثور مارتن على شخصي ! »

لقد انقلب كليف إلى رفيق مرح ، هادىء على غير عادته . . . عامل زراعى سابق ، صاحب توكيل سابق للمكتب ، وميكانيكى سابق وليس لديه إلا القليل من المال، ومع ذلك فلديه رغبة جامحة فى أن يكون مشهوراً ، حتى أنه كان يخفى فقره فى كبريائه . كان صلفاً حتى أمسى مزعجاً للأعصاب . والآن عندما بدأت لورا تكشف عن تظاهره ، أحبها بسرعة كما أحبها مارتن ومضوا يتهامسون فى مرح .

وكان مارتن يكن شعوراً بالإحسان نحو البشرية. بما فيهم أنجوس ديور الذى كان يجلس إلى المنضدة فى أقصى الحجرة مع العميد سيلفا ونسائه المتأنقات . ودون تفكير هب مارتن وأسرع إلى طرف الحجرة وأمسك بيد أنجوس وصاح قائلا :

«أهنئك ياأنجوس ، أيها الرجل العجوز، لحصولك على عضوية سيجما أكسى، ذلك شىء لا بأس به ».

ولاحظ أنجوس ديور اليد الممتدة كما لو كانت آلة شاهدها من قبل ولكنه لم يتذكر كيفية استعمالها تماماً ، فأمسك بها وهزها على سبيل التجربة ولم يدر ظهره، فقد كان بالغ الوقاحة أكثر من رجل فظ، وبدا عليه لون من الصبر .

فقال مارتن وهو يشعر ببرود ورجفة : « حسناً ، أتمنى لك حظاً سعيداً »

« ذلك شعور طيب من جانبك . شكراً »

وعاد مارتن ليحكى للورا وكليف الحدث ، وكأنها مأساة عالية . وقد وافقا على أن انجوس ديور جدير بأن يضرب بالرصاص . وفى غمرة ذلك مر ديور وهو يسير خلف صحبة دين سيلفا ، وأومأ إلى مارتن الذى تطلع خلفه محملقا وقد شعر بأنه نبيل وناضج .

وعند الرحيل أمسك كليف بيد لورا وقال :

« أيتها العزيزة إنني أفكر كثيرا فى مارت — وفى وقت ما كنت أخشى أن يرتبط ذلك الغلام الكبير بـ .. بجماعة تحوله إلى إنسان ضحل ، وإنني نفسى إنسان ضحل ، إذ لا أعرف فى الطب أكثر مما يعرف البروفسور رو برتشو ، ولكن هذا الزميل لديه بقية من ضمير ، وأنا سعيد جداً إذ أراه يسير مع فتاة من أصل طيب و ـ أوه انصتى إلى ، وإننى لأحس بالارتباك حتى أخمص قـــدمى ! ولكن كل ما أقصد أنى أعنى ألا تلقى بالا إلى العم كليف وهو يقول أنه يستطيع أن يصوغ الكثير من أمثالك ! »

كانت الساعة قد شارفت الرابعة تقريباً عندما عاد مارتن بعد أن أوصل لورا إلى بيتها ، ومن ثم اضطجع فى فراشه ، ولم يستطع أن ينام ، اذ أن ابتعاد أنجوس ديور عنه أذاقه العذاب كأنه إهانة إلى نفسه ، وكأنه بطريقة ماإساءة موجهة الى لورا ، بيد أن غضبه الصبيانى مالبث أن صار قلقاً مزعجا : هل ديور بكل حداثة نعمته وسخافة عقله يفوق مارتن بشىء ؟ أو لم يستخف كليف بالحياة بفكاهته الحيوانية وحديثه الريفى وتشككه فى الأخلاق الطيبة الخير ؟

أو لم يعرف ديور كيف يتحكم فى عقله الصغير ؟ أو ليس هناك فن للسلوك يشبه فن إجراء التجارب . . . أم ترى كل ذلك التساؤل يعتبر خيانة واستسلاما لمقياس ديور المفتعل ؟

كان قد أنهكه التعب حتى أنه كان يحس تحت أجفانه المغمضة لفحات من نار ، وكان عقله الذى عصف به الدوار يطير خلف كل كلمة لفظها أو سمعها تلك الليلة حتى شعر بأن جسمه المتألم يحيط به صياح محموم .

— ٥ —

وفى اليوم التالى بينما كان يجوس خلال أجنحة القسم الطبى ، التقى على غير

انتظار بأنجوس ، ولقد أحس بالحيرة التى تصيب نفسية المرء نحو الشخص الذى يكون قد اقترض مالا ويرجح أنه لن يرده .. وفى حركة آلية قال عفوا « هاللو » بيد أنه فاه بها فى صوت كالنقيق متجهما ، ثم سار على غير هدى .

فناداه أنجوس وقد اشتمله الروع :

أوه مارت .. أو تذكر حديثا معى الليلة الماضية . لقد حز فى نفسى عند خروجك أن تبدو غضوبا ، ولقد تساءلت عما إذا كان قد تبادر إلى نفسك أننى صلف،وإننى لآسف إذا كنت قدظننت ذلك ، والواقع أننى كنت أشعر بصداع مرير ، أنظر . إن لدى أربع تذاكر لمسرحية « كما تهواه » فى زينيث مساء الجمعة القادم . إنها فرقة تمثيلية أصيلة ، من نيويورك فهل تود أن تراها ؟ ولقد لمحت أنك فى حفلة الرقص كنت مع فتاة بهية الطلعة ، ولنفرض أنها قد تحب أن تصحبنا ، هى وإحدى صويحباتها ؟ »

« لماذا . . لا سأتصل بها تليفونياً . . إنه لبديع منك أن تدعونا »

وعند مغرب الشمس ، قبلت لورا الدعوة ولقد وعدت أن تحضر معها ممرضة تحت التمرين اسمها نيللى بيرز حتى أن مارتن أخذ يفكر :

« هل أصيب حقاً بصداع فى الليلة الماضية ؟ هل ياترى أعطاه إحدى التذاكر فعلا؟ ولماذا لم يطلب من أبنة سيلفا أن تحضر معنا؟ أو يحسب أن لورا فتاة عابثة.. التقطتها ؟

« من المؤكد أنه لم يتشاجر مع أى إنسان وهو يريد أن يحتفظ بعرى الصداقة بيننا جميعاً ولذلك فاننا سوف نرسل إليه مرضى فى يوم من الأيام عندما يلمع اسمنا، أنه وهو لعظيم وفريد

«لماذا أجنو هكذا فى تواضع ؟

« لن أهتم إذا كانت لورا ستستمتع بذلك ـ فإننى شخصياً لن أهتم ـ ولو

إنه بالطبع شيء لا بأس به أن يتاح لنا رؤية نساء جميلات فى ثياب أنيقة ، وأن أرتدى ثيابا جميلة كأى إنسان ، أوه لست أدرى . »

— ٦ —

إن ظهور مسرحية فى مدينة زينيث البسيطة القائمة فى وسط الغرب كان يعتبر حدثا « تلك المسرحية ذات الفرقة الأصيلة من نيويورك » .

ولقد كان مسرح دودزورث مسرحا نخما بوجود الطبقة العالية المنتمية إلى البيوتات الكبيرة فى رويال بريدج . وقد أعجبت لورا ونيللى بيرز بتلك السلالات النبيلة من خريجى يال وهارفرد وبرنستاون وأسر المحامين ورجال البنوك وأصحاب مصانع السيارات وورثة الإقطاعيات .

واحتل الصفوف الأولى هواة لعبة الجولف .. وهى لعبة مألوفة فى نيويورك — وإلى جوارهم نساؤهم صاحبات الأصوات الرنانة المتأنقات — ولقد عرفت الآنسة بيرز أبناء أسرة دودزورث من بين الحاضرين . وكانت أسماؤهم غالبا ماتتردد على الألسنة فى شئون المدينة الهامة . وقفزت لورا ومارتن إعجابا بالبطل عندما رفض تولى الحكم .

وقد انشغل مارتن لأن البطلة كانت أجمل من لورا ، وصرح أنجوس ديور (الذى كان يدعي أنه يعرف كل شيء عن المسرحيات فى حين أنه لم يشهد أكثر من ست مسرحيات طيلة حياته) إن الذى صور « معسكر جاك فاندوزن فى أديرونداك ، ومنظر الغروب واليوم التالى » كان مبدعا للغاية حقا.

كان مارتن فى حالة من الكرم الحاتمى ، مزمعا أن يدعوهم إلى طعام العشاء ، ولم يكونوا أكثر من ثلاثة ، بيد أن الآنسة بيرز أوضحت أنه من المفروض أن يكونا فى المستشفى فى الساعة الحادية عشرة والربع ، الا أن لورا قالت فى تراخ : « أوه ، إننى لا أهتم بذلك وسوف أتسلل من النافذة . ومادمت موجودة فى الصباح فإن المشرف «القطالعجوز» لن يستطيع أن يثبت أنك حضرت متأخرة.»

وهزت الآنسة بيرز رأسها لهذه الكذبة والخبث وهرعت إلى سيارة ترولى، بينما مضت لورا مع أنجوس ومارتن متبخترين إلى مقهى «أيبينستن آلت نورمبرج» لتناول البيرة وشطائر الجبن السويسرى المحلاة بمنظر شعار الشراب الألمانى .

كان أنجوس يدرس شخصية لورا ، فمضى ينظر إليها وإلى مارتن ملاحظا نظرات هيامهما ، وكان إقدام شاب ناهض على مصادقة فتاة لا تحقق له تقدما اجتماعيا وكان وجود شىء كعاطفة فتى وفتاة بين مارتن ولورا أمرا لا يمكن لأنجوس تصوره بسهولة ،وقر فى رأيه أنها سلسة إلى حد معقول، وصوب نحو مارتن نظرة خبيثة، وآل على نفسه أن يعمل على اجتذابها لغايته الشخصية .

وقال لها متكرما : « عسى أن تكونى قد استمتعت بالمسرحية .»

« أوه . . أجل . »

« ياإلهى إننى أحسدكما أنتما الاثنان إننى أدرك بالطبع لماذا تقع الفتيات لمارتن هنا ، لعينيه الساحرتين ، ولكن شخصا تافها مثلى ، على أن أمضى كادحا فى عملى دون أن يتعطف على شخص واحد بمودة . . أوه . إنى أستحق ذلك لأنى أشعر بالاستحياء من النساء . »

ودون أى تحد من جانب لورا قالت :

«إن من يقول ذلك لا يعنى أنه يستحيى من النساء ولكنه يحتقرهن .»

« يحتقرهن ؟ لماذا أيتها الصغيرة . شرفا أريد أن أصير دون چوان ولكن لست أدرى كيف فهلا تعطينى درسا؟» وصار صوت أنجوس الخشن هاجما مستكنا.

وقد ركز اهتمامه على لورا كما يركزه على تشريح خنزير غينيا ، وكانت تبتسم لمارتن من آن لآخر لتقول : « إياك والغيرة أيها الأبله فإننى لست معجبة على الاطلاق بهذا المرائى ، بيد أنها كانت متأثرة بتأكيدات أنجوس الناعمة وباحتفائه بعيونها وذكائها وتحفظها .

وتلهب مارتن من الغيرة ، وقال دون روية إنهم يجب أن يرحلوا — وكان لا بد فى الواقع أن تعود لورا — فإن سيارات الترولى يندر سيرها بعد منتصف الليل . ومضوا إلى المستشفى خلال الشوارع الواسعة الحافلة بالحركة ، وظل أنجوس ولورا يتحادثان بينما كان مارتن يسير خلفهما متكاسلاً صامتاً متجهما مزهوا بعبوسه . وعندما دلفوا عابرين بعض الأزقة ، مالبثوا أن توصلوا إلى مستشفى زينيث العام، وهو مبنى طويل من خمس طوابق ذو نوافذ مكشوفة تبين من ثناياها أغباش من الضوء الخافت. ولم يكن هناك أحد ،وكان الطابق الأول على ارتفاع خمسة أقدام فقط من الأرض فرفعوا لورا إلى حافة نافذة أحد الممرات ، وكانت نصف مفتوحـــة ، وتسللت إلى داخل المبنى وقالت هامسة : « طاب مساؤكم ، وشكراً . »

وأحس مارتن بفراغ وسخط ، وكان الليل تكتنفه كآبة مفرطة. وفجأة سطع الضوء من نافذة فوق رأسيهما ، وسمع صراخ امرأة تحول إلى أنين ، فأحس بمأساة الفراق — مأساة فراق كيانها ولو لحظة واحدة فى هذه الحياة القصيرة الأمد .

وقال « سوف أذهب إليها لأطمئن على وصولها فى سلام . »

ولمست حافة النافذة الباردة يديه،ولكنه قفز ودفع ركبتيه وهرول من خلال النافذة، فلمح أمامه فى الردهة ، التى غطيت أرضيتها بالفلين والتى يضيئها مصباح واحد كهربائى صغير ، لورا وهى تسير على أطراف قدميها نحو مجموعة من السلالم فجرى خلفها على أطراف قدميه وعندما أمسكها بذراعه صرخت ..

فقال :

« لقد ينبغى علينا أن نقول طاب مساؤك بطريقة أفضل من تلك ! »

« صه ! إنهم ببساطة سوف يقتلوننى إذا قبضوا عليك هنا . هل تريد أن تجعلنى أقتل رميا بالرصاص ؟ »

« هل يضايقك ذلك مادام فى سبيلى ؟ »

« أجل . . لا — حسنا — ولـكنهم ربما يطردونك من مدرسة الطب ياعزيزى إذا — » وكانت يده تحس بالرجفة تسرى فى أوصالها من فرط القلق . وألقت نظرة على طول الممر ، وقد خلق تخيله المتعجل أطيافا خفية وعيونا تتطلع من النافذ، ثم تنهدت وقالت بحزم : « لا نستطيع أن نتحدث هنا، سوف تتسلل إلى حجرتى — فإن زميلتى فى الحجرة فى أجازة لمدة أسبوع . قف هناك فى الظلام ، إذا لم أجد أحدا فى الطابق العلوى فسأعود إليك . »

وتبعها إلى الدور العلوى إلى باب أبيض ، ودلف إلى داخل الحجرة متقطع الأنفاس . وإذ اغلق باب الحجزة ، مسه التأثر بهذا الملجأ الذى يحتويه ، والفراش البسيط،والصور المعلقة بالحجرة التى أحضرتها من المنزل، مفرش السرير الـكتانى الناعم المجعد . وأمسك بها فصدته وهى تدفعه بيدها فى صدره ، وقالت منتحبة :

« هل أصبحت غيوراً من جديد ! كيف تفقد الثقة بى هـكذا ؟ مع هـذا الأحمق ! الذى لا تحبه النساء ؟ إنهن لن يجدن معه فرصة ! إنه يحب نفسه اكثر من اللازم ثم تصبح أنت غيوراً منه ! »

« لم أكن غيوراً ــ أجل . كنت ولـكن لا أستطيع ! أن أجلس هناك وأصعر وجهى مثل الضبع وهو بيننا ، فى الوقت الذى أريد فيه أن أتحـدث إليك أو أن أقبلك ! وهو كذلك ! من المحتمل أن أكون دائماً غيوراً ، وأنت التى ينبغى عليك أن تثقى بى وإننى لست مستهتراً ولن يحدث ذلك أبداً أوه .. فلتثقى فى ــ »

كانت القبلة العميقة والتى لم تقابل بمقاومة أروع ما تـكون انتقاماً لتلك الساعة القاحلة مع أنجوس ، ونسيا أنه من المحتمل أن يندفع نحـوهما مشرف الممرضات مرتاعا ، ونسيا كذلك أن أنجوس يقف منتظراً ، وكان تفكير مارتن الوحيد هو :

« أوه على أنجوس اللعنة فليعد إلى منزله ! »

وكانت عيناه مغمضتين وقد تبددت وحشته .

وقال مبتهجاً . « عمت مساء ياحبيبتى — ياحبيبة العمر »

وضحك مارتن فى سكون الرهبة الرهيب عندما لاح لتصوره كيف عاد أنجوس إلى منزله متضايقاً، بيد أنه شاهد من النافذة أن انجوس ارتمى على درجات السلم نائماً ، وعندما هبط إلى الأرض أبدى صفيرا من فمه ، ثم انقطع عن الصفير إذ لاحظ رجلا ضخم الجثة يندفع من الظلام ويبدو فى زى بواب وهو يصيح قائلا :

« لقد قبضت عليك . ارجع إلى المستشفى وسوف نعرف لماذا جئت هنا ! »

واقترب الصديقان إلى جوار بعضهما بعضاً ، وكان مارتن قويا بيد أنه كاد يختنق فى قبضة الحارس وكانت تفوح فى الجو رائحة منبعثة من ثياب شخص لم يستحم ، وركل مارتن قصبة رجله ولكم فى خده الأحمر ، وحاول أن يلوى ذراعه ثم أفلت وبدأ يلوذ بالفرار ثم توقف . وكان النضال المتناقض مع عذوبة لورا الرائعة قد ألهبه وأهاجه ، وواجه الحارس مضطرما . وصدر صوت استياء رفيع من انجوس الذى كان قد استفاق من غفوته ، وظهر إلى جوار صديقه :

« أوه أقدم ! هيا بنا نخرج من هذا المأزق ، لماذا تلوث يدك مع مثل هذه الرمة ؟

فصاح الحارس قائلا « أواه هل أنا رمة . . هل أنا ؟ سوف أريك ! »

وأمسك بانجوس من ياقته ولطمه . وبدا لمارتن تحت مصابيح الشارع الهاجع كما لو أن رجلا قد أصابه الجنون ، لم يكن أنجوس ديور البارد الطباع الذى كان يحملق فى الحارس ، بل كانت هيئة رجل قاتل . وكانت عيناه مروعتين كعينى قاتل يحمل رسالة الموت إلى غريمه . وصدرت عنه شهقة وقال « لقد تجرأ أن يلمسنى . »

وكانت بيده مطواة مدببة وهجم على الحارس محاولا بكل ما أوتى من جهد أن يقطع رقبة الحارس .

وبينما كان مارتن يحول دون اشتبا كهما سمع وقع عصا رجل الشرطة على الرصيف، كان مارتن نحيلا — بيد أنه كان شديدا صلب العود كسلك التليفون، ولكن الحارس بحرص بجانب أذنه اليسرى، ثم أمسك بذراع انجوس وجره بعيداً، وانطلقا إلى زقاق، عابرين إحدى الأفنية ووصلا إلى شارع عمومى، بينما كان الترولى ينطلق ويستدير حول الناصية، فجريا إلى جانبه وتعلقا بالسلالم وبذلك صارا فى أمان.

ووقف أنجوس على الرصيف الخلفى ينتحب ويقول:

« يا إلهى كنت أود أن أقتله ! لقد وضع يده القذرة على ! مارتن ! أمسكنى هنا فى العربة. كنت أحسب أننى سأتغلب على ذلك، لقد حاولت ذات مرة وأنا صغير أن أقتل شخصاً —

يا إلهي كنت أود أن أقطع رقبة ذلك الخنزير القذر ! »

ولما وصل الترولى إلى وسط المدينة .. قال مارتن ملاطفا: « يوجد طعام طوال الليل فى «أوبرلن أفينيو» حيث تستطيع أن تحصل على بعض الخمر البيضاء، هيا بنا فإنها سوف تعدل مزاجك . »

كان أنجوس مرتجفاً ومتعثرا — وقاد مارتن صديقه أنجوس المحافظ على الرسميات إلى حجرة الطعام حيث تناولا من بين زجاجات الخمر ويسكى صرف فى فناجين قهوة يشبه خزفهما الجرانيت، واتكأ أنجوس برأسه على ذراعه، وأخذ ينتحب غير عابىء بمن ينظر إليه محملقاً حتى ثمل إلى درجة النسيان، وعجل مارتن به إلى المنزل. كان ذلك المساء بالنسبة لمارتن، بعد أن صار فى حجرته وكليف راقد يغط فى نوم عميق، ليلة لا يمكن تصديقها، بل أكثر من ذلك مدعاة لعدم التصديق هو أنجوس ديور .

« حسنا سوف يصير صديقي الآن، ودائما. رائع ! »

وفى الصباح لمح مارتن صاحبه أنجوس فى بهو مبنى التشريح فاندفع نحوه وقال أنجوس موبخا : « لقد كنت ثملا للغاية على نحو مفزع الليلة الماضية يا أروسميث ، وإذا لم تـكن تستطيع تناول الخمر بطريقة أفضل من ذلك فمن الأجدر أن تبتعد عنها تماما » .

وسار رابط الجاش متفتح العينين .

الفصل الثامن

ظل مارتن فى عمله — يساعد ماكس جوتليب ويعلم طلبة شعبة البكتريولجيا ، ويحضر المحاضرات والبيانات فى المستشفى — لمدة ستة عشر ساعة كل يوم بلا هوادة . وكان يختلس أمسيات عرضية للبحث الابتكارى أو للتأمل فى المطبوعات الفرنسية أو الألمانية عن البكتيريا ، وكان يذهب مزهوا من حين لآخر إلى مسكن جوتليب حيث كان يوجد على الجدران المغطاة بورق بنى مرسوم عليه شكل أمطار ، كانت توجد رسومات للرسام بلاك ، وصوره زيتية لوجه كوخ ممهورة بإمضاء أحد الرسامين ، بيد أن باقى الصور كانت عادية .

وكان قبل أن تأخذه سنة من النوم على طاولة المذاكرة يقرأ بعض الصفحات عن أمراض الأعصاب والطب الباطنى والأعراض الجسمية .

ويظل يستذكر أمراض النساء وأمراض العيون حتى ينهك ذهنه ، كما يشاهد طوال فترة ما بعد الظهر التجارب فى المستشفى بين الطلبة المتعثرين الذين أرسلهم إلى هذا المكان أساتذتهم المكدودون . وكذلك كان مارتن يشاهد عمليات تشريح الكلاب التى كان يجرى بين الطلبة التنافس الشديد عليها والتى كان أنجوس ديور متفوقاً فيها تفوقاً عظيماً .

وكان مارتن معجباً بأستاذ الطب الباطنى الدكتور ت . ج . ه سيلفا والذى كان معروفاً باسم الأب سيلفا .

وكان فى الوقت ذاته عميداً لكلية الطب . كان رجلا صغير الحجم ، ربع القامة ذا شارب هلالى الشكل : وكان المثل الأعلى لسيلفا هو السير ويليام أوسلر ، وقد كان يؤمن بالشفاء الباطنى ، ويدين بمبدأ التشخيص الطبى الدقيق . لقد كان نسخة من الدكتور ڤيكرسون من الك ميلز ، بيد أنه كان أكثر فطنة

وهدوءا وأشد إيماناً . وكان احترام مارتن للعميد سيلفا يعادل كراهيته للدكتور روسكوك جيك أستاذ أمراض الأذن والحنجرة .

كان روسكوك جيك أشبه ببائع متجول . وكان من الأجدر به أن يشتغل فى إدارة مخزن للبترول . وباعتباره استاذاً لهذه المادة فإنه كان يعتقد أن اللوز قد خلقت فى الجهاز الآدمى بقصد تزويد الأخصائيين بالمحركات المقفلة. وكان يحس أن الطبيب الذى يترك اللوز فى أى مريض فإنه بحماقة وغباء يغض النظر عن صحته وراحته فى المستقبل — صحة الطبيب وراحته مستقبلا . وكان إحساسه الحاد فيما يتعلق بالزوائد الأنفية أنها لا تصيب أى مريض بضرر إذا ما استأصل جزءاً منها، وإذا ما أثبت الكشف أن أنف المريض فى حالة جيدة وكذلك حلقه ، فيما عدا لو كان يدخن كثيراً ، فإنه، على أى حال ، تكون الراحة الإجبارية مفيدة بعد إجراء العملية بالنسبة للمريض . وكان جيك يستنكر ذلك اللغو الخاص بترك الطبيعة وشأنها، وإن الرجل المتوسط الحال يقدر العناية ! إنه فى الواقع لا يفكر كثيراً فى الإخصائيين ما لم تجر له العمليات من وقت لآخر، مجرد عمليات بسيطة وغير مؤلمة. وكان لجيك خطاب كلاسيكى سنوى يحلق فيه بعيداً فوق عالم الأذن والحنجرة.وكان يحدد ثمن جميع الأدوية ، ويشرح لبعض الأطباء الشاكرين صنيعه ، مثل ارفنج وترز ، كيفية الحصول على أتعاب مناسبة فيقول :

« إن المعرفة أعظم شيء فى عالم الطب، ولكنها تفقد قيمتها مالم تستطع أن تبيعها.ولكى يتحقق لك ذلك فإنه يجب أن تفرض شخصيتك على أولئك الذين يملكون الدولارات. وسواء أكان المريض صديقا حديثا أو قديما فإنه لابد دائما أن تستعمل طريقة البيع فى معاملته ، فتشرح له ولأسرته المصابة فيه والمتلهفة عليه ، العمل الشاق المضنى والتفكير الجاد الذى سوف تبذله فى مثل حالته . وبذلك تجعله يشعر أن الصنيع الذى تقدمه له والذى تنوى تقديمه له ، أعظم بكثير من الأتعاب التى تنوى الحصول عليها منه ، وبذلك فإنه عندما تصله فاتورة الحساب التي تقدمها له ، فإنه لن يخطيء الفهم أو يرفض . »

— ٢ —

لم يكن قد لاحت بعد سعة أفق مارتن الهادئة الرصينة ، ومما لا شك فيه أنه كان شابا دؤوبا ، كما كان حاد الصوت . لم يكن يشعر بعلو المكانة حينما كان يقيس نفسه بالنسبة للعالم كله ، إذا أدرك حقا أن جانبا كبيرا من العالم يوجد بالإضافة إليه .

وكان صديقه كليف خشن الطبع، كما كانت حبيبته لورا ساذجة أيضا ، مهما كانت أبية النفس وكان يبذل جهدا كبيرا فى أعمال عادية وفى إبداء الدهشة والاستغراب من ألوان الحماقة — بيد أنه وإن كان لم يكن قد بلغ بعد مراحل النضج فإنه مع ذلك كان قريبا من الأرض متواضعا يعاف التظاهر ، وكان يستخدم يده ويبحث عن الحقائق القوية فى رغبة عارمة من حب للاستطلاع لاتخمد جذوته .

وفى بعض أوقات نادرة ، كان يحلو له أن يشهد كوميديا الحياة متراخيا لمدة ساعات طوال من فرط الإرهاق . . تلك كانت حالته قبيل أجازة عيد الميلاد .

عندما كان روسوك جيك يصعد سلم المجد. كان قد أعلن فى صحيفة «وينباك ديلى نيوز » أن الدكتور جيك استدعى من كرسى أستاذ علم الأذن والحنجرة ليكون نائب رئيس شركة النيو أيديا للأدوات الطبية والأثاث بمدينة جيرسى . وفى الاحتفال الذى أقيم بهذه المناسبة ألقى خطابا ختاميا إلى جميع أعضاء مدرسة الطب عن « فن وعلم تأثيث مكتب الطبيب . »

كان شخصا نزيها للغاية ، وكان يضع على عينيه نظارة ، فائق الحماسة ، متوددا للناس كافة .

ومضى يوجه الحديث إلى تلاميذه وهو ينتحب :

«أيها السادة،إن المتاعب التى يعانى منها طائفة كبيرة من الأطباء،حتى أولئك

الرواد العظام المكافحين ، الذين خلال الوحل والعواصف ولفحات برد الشتاء وحرارة شهر أغسطس مضوا يجلبون الفرحة والراحـــة الأكيدة من الأوجاع والآلام المضنية إلى أشد النفوس ابتئاسا فى العالم ، حتى هؤلاء الرواد القدامى كثيرا ما يتسمرون فى أماكنهم ولا يتزحزحون عنها قط والآن وأنا أترك هذا الميدان الذى مارست العمل فى حلبته فترة طويلة من الزمان ، قرير العين ، أود أن أدعو كل رجل منكم أن يقرأ قبل أن يبدأ ممارسة الطب لامؤلفات روسنيو وهاويل وجراى فحسب ولـكن أيضا كل مامن شأنه أن يجعلكم مواطنين صالحين ، أعنى رجال أعمال ، مثل ذلك الكتيب القيم فى علم النفس الحديث : « كيف تجعل بيب بائعا » تأليف جروفنر . بيبى . أيها السادة ، لا تنسوا — وهذه هى رسالتى الأخيرة إليكم — أن الإنسان الذى يستحق تقديرا ليس هو مجرد الإنسان الذى يقابل الأمور بابتسامة ، ولـكنه أيضا الإنسان الذى تدرب على الفلسفة ، أعنى الفلسفة العملية ، إذ أنه بدلا من أحلام اليقظة وتبديد كل وقته فى التحدث عن « الأخلاقيات »، رغم أنها عظيمة، «والإحسان» وهى فضيلة رائعة ، رغم هذا فإنه لا يجب أن يتناسى أو يغفل أنه من سوء الحظ أن العالم يحكم على الإنسان بقدر ما معه من عملة صعبة وما يستطيع أن يتكسبه .

وخريجو جامعة هارد نوكس يحكمون على الطبيب كما يحكمون على رجل الأعمال ، لا بمجرد مثله العليا ، ولـكن بقوة الحصان التى يستخدمها فى تنفيذها ، والتى تجعل الناس يدفعون ! ومن وجهة النظر العلمية لا تغفلوا حقيقة أن تأثير المكافأة الحقيقية التى تفرضونها على المريض ذات أهمية قصوى فى هذه الأيام، أيام علم النفس الحديث ، إذ أن الدواء الذى تصفه له أو العمليات التى يفوضك أن تجريها له ، هى التى تذيع صيتك . وفى اللحظات التى يبدأ يرى الآخرون يقدرون مهارتكم ويكافئونكم عليها ، فى هـذه اللحظات سوف يستشعرون بقدرتكم ، وبذلك تسيرون قدما فى طريق النجاح .

« وليس ثمة وسيلة لاستهواء المريض أكثر أهمية من وجود مكتب مهيب، ما إن يدخل حتى تبدأ تبيع له فكرة أنه سوف يشفي تماما من وعكته. ولا يهمني في

هذا الصدد ما إذا كان الطبيب قد درس فى ألمانيا أو ميونيخ أو بالتيمور أو روشستر . ولا يهمنى أن يكون ملما إلماما تاما بجميع العلوم ، وما إذا كان يشخص فى الحال وبدقة عظيمة الأمراض المستعصية ، وما إذا كان يزاول الفن الجراحى على طريقة مايو أو كريل أو بلاك أو أوشستر ، فإذا كان لديه مكتب عتيق قذر وبه مقاعد مهشمة ، وعدد من المجلات القديمة فإن المريض لن يثق فى الطبيب بل إنه سوف يقاوم العلاج — وسوف يتعذر على الطبيب التقدم والحصول على الأتعاب الكافية .

«وللتعمق إلى ما تحت السطح فى هذا الصدد» إلى الفلسفة الجوهرية ، وجمال أثاث المكتب فإن هناك مدرستين متطاحنتين ، هما مدرسة الأثاث ومدرسة التطهير إذا أمكن لى أن أطلق عليهما هذين الاسمين ، وأن أميز بينهما . ولكل منهما محاسنهما ، فمدرسة الأثاث تقول إن المقاعد الضخمة ليجلس عليها المرضى عند الانتظار واللوحات الزيتية الجميلة ، والمكتبة الزاخرة بأحسن آداب العالم فى مجلدات ثمينة مع الفازات الزجاجية . . كل ذلك يحدث تأثيراً وانطباعاً بالثراء لا تحدثه إلا القدرة الفذة والمعرفة الوفيرة . أما مدرسة التطهير فإنها من ناحية أخرى ترى أن كل ما يريده المريض هو مظهر الصحة التامة ، وهذا الأثر يمكن إحداثه بواسطة تأثيث حجره الاستقبال وكذلك تزويد المكتب الداخلى بمقاعد ومناضد بيضاء وصورة يابانية واحدة على الحائط الرمادى .

ولكن أيها السادة، يبدو لى واضحاً، وإن كان لم يسبق أن أثيرت هــــذه الفكرة من قبل ، أن حجرة الاستقبال المثالية هى مزيج من هذين المدرستين ، وأن الزهريات والصور الجميلة بالنسبة للطبيب العملى جزء هام من عمله ، له أهمية أدوات العمل مثل المعقمات أو البومانوميتر. ولكن ينبغى أن يكون كل شىء بقدر الإمكان ذا لون صحى ناصع البياض . . وانظروا إلى طريقة تكوين الألوان أو دع زوجتك الوفية تفكر لك إذا كانت سيدة ذات أذواق فنية ! تعرف كيف تضع وسائد موشاة . مذهبة وحمراء فوق المقعد اللولبى المطلى بالميناء البيضاء ! كما

تـكون مكسوة بغطاء مطلى بالميناء البيضاء ويكتفى بحافة زخرفية على شكل زهرة جميلة وعدد من المجلات الحديثة النظيفة ذات غـــلاف فنى موضوعة على مناضد بيضاء .

أيها السادة هناك فـكرة البيع المبتـكرة ، وهى التى أريد أن أتركها معـكم ، وها هو الإنجيل الذى أتمنى أن أنشره فى المجال الجديد لجهودى فى شركة نيو ايديا بمدينة جيرسى ، وسأكون سعيدا فى أى وقت أن أرى وأصافح أى فرد منـكم أو أصافحـكم جميعاً .

— ٣ —

وفى خضم امتحانه فى رأس السنة ، كان مارتن فى حاجة ملحة إلى لورا إذ كانت قد استدعيت إلى منزل أسرتها فى دا كوتا ، وربما كان من المحتمل أن يطول بقاؤها هنالك بضعة أشهر ، وذلك لأن والدتها لم تـكن فى حالة جيدة ، وكان لا بد له ، أو اعتقد أنه لا بد له ، أن يراها يوميا . ولم يكن لينام أربع ساعات كل ليلة.وعند الامتحان شق طريقه إليها فى سيارة الريف واندفع نحوها مضطربا وكان وجهه يتجهم حين يتذكر المرضى الذين قابلتهم فى المستشفى ، محتقرا نفسه لبداوته ، ولأنه أمسى قلقا من جديد . وحتى يتاح له أن يلقاها كان لا بد أن ينتظر ساعات فى الردهة أو يسير جيئة وذهاباً على الجليد خارج المبنى حتى يراها تطل من النافذة .. ولما كانا معاً كانا غاية فى الاندماج ، فـكانت لها عبقرية فى العاطفة الصريحة إذ كانت تعاكسه وتراوده بالأمل، بيد أنها كانت رقيقة وغير هيابة. كان قد مل الوحدة حينما رآها عند « محطة اليونيون » .

كان امتحانه لا بأس به ما عدا امتحان البـكتريولوجى والطب الباطنى فلم تـكن إجابته فيها جيدة ، وعاد بعد فراغه إلى المعمل لتمضية فترة الأجازة .

كان يبدى من العاطفة أكثر مما كان يحرز من انتصارات فى أبحاثه الابتكارية البسيطة . وكان جوتليب صبورا فقال : « إنه نظام جميل ، ذلك اللون من التعليم،

وكل ما نزود الطلبة به لا يستطيع أن يتعلمه « كوخ » ، فلا تقلق فيما يتعلق بالأبحاث ، فسوف نجريها فيما بعد » . ولكنه كان يتوقع أن يأتى مارتن بمعجزة أو معجزتين فى الأجازة كلها التى تستغرق أسبوعين . ولم يكن لدى مارتن قدرة يفكر بها . كان يلعب فى المعمل ، وأمضى وقته ينظف أنابيب الاختبار .

ولما أعاد استنبات البكتيريا من أرانبه كانت ملاحظاته ومشاهداته غير مكتملة . وفى الحال استبد الحنق بجوتليب فقال « ما هذا العبث ؟ هل تدعى أن هذه مشاهدات وتجارب ؟ هل كلما اثنيت على إنسان توقف عن العمل ؟ هل تعتقد فى نفسك أنك تيوبولد سميث أو نوقى حتى تجلس وتتأمل ؟ إن لديك كفاية زميلك بناف ! »

وفى تلك المرة اجترأ مارتن وأخذ يتمتم فيما بينه وبين نفسه ، وكان جوتليب قد أخذ يضرب الأرض بقدمه ، وكأنه دوق جليل الشأن وهو يقول « أيتها الفيران لا بد أن استجم قليلا . إن معظم الزملاء قد مضوا إلى منازلهم ليمضوا الأجازة فى رقص ودعة وفى صحبة الأباء وغير ذلك كله من أشياء .

« لو أن لورا كانت معى هنا لذهبنا إلى المسرح هذا المساء » .

وفى غضب عارم أمسك بقبعته (شىء يشوبه الشك لا يطمأن إليه) ومضى يبحث عن كليف كلوسون الذى كان يمضى الأجازة غارقاً فى لعبة البوكر فى حانة بارنى ، فعقد العزم على الذهاب إلى المدينة ليغرق فى الشراب ، وقام بتنفيذ ما اعتزم عليه بنجاح حتى أنه أخذ يكررها كلما تذكر متاعب العمل المقبل الممل وكلما أدرك أن جوتليب ولورا هما فقط اللذان يربطانه بهذا المكان هنا . . وفى أواخر شهر يناير ، بعد انتهاء الأجازة ، تبين له أن الويسكى قد خفف عنه آلام العمل ووحشة العزلة ـ ثم خدعه وتركه أكثر قلقا وأشد عزلة . وأحس فجأة أنه عجوز — وكان إذ ذاك فى الرابعة والعشرين من عمره . وعاد بذاكرته إلى نفسه وهو ما زال تلميذا لم تبدأ بعد حياته العملية . وكان يجد فى كليف سلواه ؛ وكان كليف معجباً بلورا ويتمنى أن يسمع مارتن وهو يتحدث له عنها .

ولكن كايف ومارتن جاءا ، لسوء الحظ ، للاشتراك فى « الاحتفال بذكرى المؤسس » .

— ٤ —

كان اليوم الثلاثين من شهر يناير هو عيد ميلاد الدكتور واربرتون ستونيدج مؤسس القسم الطبى فى وينماك . وكان يحتفل بهذا اليوم من كل عام بإقامة مأدبة تسودها روح الأخوة وتلقى فيها الكلمات المستفيضة ، وينقصها إلى حد كبير وجود الخمر . وكان جميع أعضاء الكلية يحتفظون بأدق ملاحظاتهم لذلك الحدث ويتوقعون حضور جميع الطلبة إلى هذا الحفل .

أقيم الاحتفال هذا العام فى قاعة كبرى بجمعية الشبان المسيحية ، وهو مكان فسيح يغطى جدرانه ورق أحمر وتنتشر فيه الصور الزيتية التى تمثل الخريجين ذوى اللحى الذين ذهبوا فى بعثات تبشيرية وصناديق صنوبرية طويلة صنعت على هيئة جذوع شجر البلوط . ومن بين الضيوف المشهورين كان ــ الدكتور رونسيفليد طبيب الجراحة بجامعة شيكاغو وأخصائى مرض السكر من أوماها ، وطبيب باطنى من بيتسبرج ــ وقد وقفوا والتف حولهم أعضاء الكلية ، وحاولوا إظهار المرح والاحتفال ــ بيد أنهم كانوا مرهقين وأعصابهم ثائرة بعد دراسة دامت أربعة شهور ، فكانت عيونهم مضناة غائرة . وكانوا جميعاً يرتدون زى العمل ، وكانوا يبدو عليهم المظهر العلمى والاهتمام ، وكانوا يستعملون كلمات مثل فيسلبيار تريكنزيا وهيبيتوكولا نيجايو بستوى . وكانوا يسألون الضيوف : « هل كنتم توا فى روشيستر ؟ ماهو آه ماذا يفعل شارلى وويل فى التجبير ؟ » ثم استبد بهم الجوع وكانت الساعة قد صارت السابعة والنصف ومن لم يعتد على تناول طعامه فى السابعة كان يتناوله فى السادسة والنصف .

وفى خضم تلك البهجة المتزايدة دخل شخص تبدو عليه ملامح الهيبة ، بلحيته السوداء الرائعة وقميصه الفخم ذو الصدر المنثنى وحاجبيه العريضين وعينيه

المتفتحتين بآيات النبوغ أو الجنون . وقد سأل بصوت رائع تشوبه لهجة ألمانية لطيفة عن الدكتور سيلفا ، ثم مضى متهاديا إليه وسط مجلس العميد ، كما لو كان بارجة ضخمة تشق سبيلها وسط قوارب صيد السمك .

وقال مارتن متعجباً « ياللعجب من هذا ؟ »

فرد عليه كليف قائلا «هيا بنا نتسلل إلى الجوانب ونعرف من هو ذلك » . وتداخلا وسط الجموع المحتشدة حول العميد سيلفا وقد قدم ذلك الشخص بأنه الدكتور بينونى كار، أستاذ مادة الصيدلة .

وأصغى الأساتذة المساعدون بإعجاب إلى الدكتور كار وكيف نجح بسرعة فى العمل مع شميد برج فى ألمانيا فى عزل الدهيدر وكسبيثا ميتلنديامين ، وفى إمكانيات العلاج الكيميائى ، والعلاج الفورى لمرض النوم ، وعن عصر الشفاء العلمى قائلا : « بالرغم من أننى أمريكى فأنا أتمتع بميزة التخاطب باللغة الألمانية منذ كنت طفلا ، ولذلك فإنه ربما أستطيع أن أحسن فهم أعمال صديقى العزيز ايهرليك ،وقد شهدته يتسلم وساما من فخامة القيصر . ولقد كان العزيز ايهرليك مثل الطفل ! »

فى ذلك الحين كان هناك (ولكنه تعثر فى عام ١٩١٤ و ١٩١٥) قسم للدراسات الألمانية فى الكلية . ولقد أحنوا رؤوسهم أمام هذا الفيض من المعرفة والعلم . ونسى أنجوس ديور أنه أنجوس ديور وأصغى مارتن بانتباه متحفز ، فقد كان فى بينونى كار جميع خصائص جوتليب . كان به جميع احتقاره للمدرسين الآليين،ويبدو عليه سمة الإحساس الكبرى بالعالم الكبير الذى كان يظهر موهاليس أنها منطقة ريفية صغيرة ، إلا أنه كان خلوا من لمسات جوتليب العصبية .

وكان مارتن يتمنى وجود جوتليب متسائلا عما إذا كان العملاقان سيتصادمان. واتخذ دكتور كار مجلسه عند المنصة بالقرب من العميد . وقد دهش مارتن وهو يرى أستاذ علم تركيب العقاقير الشهير ــ بعد أن قام بفحص الدجاجة تماما وأساء استعمال السلاطة التى تكون الجزء الأكبر من الطعام ــ يصب شيئاً فى كوب الماء

من قارورة فضية ضخمة وأخذ يصب هذا الشيء من وقت لآخر ثم اتكأ من بين شخصين وضرب على كتف العميد الغاضب ثم أخذ يناقض جيرانه وغنى بعد ذلك فقرة من قصيدة « إنى راحل إلى ميسوريا الموحشة . »

لاحظ الطلبة عن قرب بعض الظواهر الغريبة عليه عند تناول الطعام وكانت تلك الظواهر من عادات الدكتور كار .

وبعد مضى ساعة من الاحتفالات الرائعة عندما قام العميد سيلفا ليعلن عن المتحدثين ، تحرك كار على قدميه متثاقلا وصاح قائلاً : « لا داعى للخطابة . إن البلهاء فقط هم الذين يلقون الخطب أما الحكماء فهم يغنون ، هوبى ! أوه تيرولى ، أوه تيرولى ، أو تيرولى سيدة ! أيها الأساتذة إنكم تهذرون ! .

وأخذ العميد سيلفا يتوسل إليه ثم اصطحبه إلى خارج الحجرة بمعاونة اثنين من الأساتذة وأحد لاعبى كرة القدم . وفى سكون الرعب المبهج أسر كايف إلى مارتن قائلاً :

« هذا ما كنت أخشاه ! وإن اللعين الأبله قد وعد بألا يفرط فى الشراب ! »

« ماذا ؟ »

« كان ينبغى أن أعلم إنه سوف يثور ، وأرجو ألا ينزل بى العميد أشد العقاب ! » وأفصح قائلا أن الدكتور بينونى كار قد ولد فى بينوكاركوسكى ، وتخرج فى مدرسه الطب التى يحصل الإنسان فيها على الشهادة بعد تمضية عامين بها ، وقد اطلع كثيراً ، إلا أنه لم يسافر إلى أوربا قط . وكان محاضراً فى محافل الطب ، وأخصائى طب الأقدام ، ووسيطا روحانيا ، وأستاذ الأمراض الباطنية ، ورئيس مصحات علاج النساء العصبيات . وقد التقى به كايف فى زينيث عندما كان كلاهما ثملا من الشراب . وكان كايف هو الذى أخبر العميد سيلفا بأن أستاذ علم

العقاقير هذا قد عاد لتوه من أوروبا ، وأنه سيظل فى زينيث بضعة أيام وربما قبل الدعوة لحضور الحفلة .

فشكر العميد كليف بحرارة .

وانتهت الوليمة فى وقت مبكر ، ولم تلق محاضرة الدكتور رونسفيلد الاهتمام الجدى الذى تستأهله ، وكانت تتناول تعقيم الآلات الوترية .

وجلس كليف قلقاً ، متفقاً فى الرأى على ما أورده مارتن من ملاحظات .

وفى اليوم التالى ، اتخذ عشرته مع بعض النساء حينما تنازل بأن يجرب حظه فأوثق علاقته مع الفتاة التى تعمل سكرتيرة للعميد ، ليستطلع قضاءه .

وكان هناك اجتماع لمجلس الكلية ، وفى هذا الاجتماع أثير موضوع بينونى كار وانتهاكه للحرمات ، وأدين كليف على ذلك لتخطيه الحدود المرعية . وقال العميد فى هذا الصدد كل ما يمكن أن يتخيله كليف .. بيد أن العميد لم يستدعه ويدينه على الفور ، بل ظل ردحا من الوقت يتعذب على جمر الانتظار . . ثم نفذ عليه الحكم علناً .

وقال كليف لمارتن :

إلى اللقاء يادرجة الماجستير العتيقة ! أيتها الفيران ، إننى لم أفكر كثيراً فى أعمال الطبيب وأعتقد أنى سوف أكون بائعاً بالجملة ، ثم مضى متهادياً وتوجه إلى العميد قائلاً :

« أوه يا سيدى العميد سليفا لقد جئت فجأة لأقول إننى أستقيل من مدرسة الطب إذ أن أمامى وظيفة فى شيكاغو وأنا على أى حال لا أفكر كثيراً فى فى الكيفية التى تدير بها مدرسة الطب ، إنها مبنية على الاستذكار غيباً فى معظم الأحوال ، وعلى أقل القليل من الروح العلمية السليمة .

أتمنى لك حظاً سعيداً يادكتور .. وإلى اللقاء . »

فقال العميد سيلفا متلعثما : « جـ جـ جـ »

ورحل كايف إلى زينيث، وترك مارتن وحيدا ..وهجر الحجرة المزدوجة التى تقع فى واجهة المنزل المفروش، إلى قاعة خلفية، وفى تلك المغارة جلس فى عزلته الموحشة، وكان يطل على فناء حيث كان يوجد إعلان رث لطعام لحم الخنزير بالفاصوليا خفاقا على سارية، . . وكانت عينا لورا تتبدى .. ويكاد يتسمع إلى سخرية كايف الهادئة .. وكان الصمت مغرقاً بحيث لا يستطيع احتماله.

الفصل التاسع

فى ذات مساء من أمسيات شهر فبراير اجتذب مارتن صوت بوق أحدى السيارات إلى نافذة المعمل حيث نظر من خلالها إلى سيارة مطلية بلون أبيض ، وفى مقدمتها أضواء ساطعة . وقد أدرك ببطء أن السائق ، وهو شاب صغير مرتديا سترة بنية اللون وقبعة صغيرة وكوفية كبيرة ، كان كليف كلوسون. وكان كليف يومىء برأسه.. فنزل مارتن مسرعاً وصاح كليف :

« أوه يافتى ! مارأيك فى هذه السيارة ؟ هل اتشخص هذه البدلة ؟ إنها من القماش الاسكتلندى ــ شرفا أن العم كليف قد التقط وظيفة مقابل خمسة وعشرين دولارا فى الأسبوع بما فى ذلك العمولة وهى وظيفة بيع السيارات.. ايها الفتى لقد فقدت نفسى فى مدرسة الطب القديمة إننى أستطيع أن أبيع أى شىء لأى إنسان، وفى مدى عام واحد ، وسوف أكتسب ثمانين دولارا فى الأسبوع . انزل ياأخى الكبير وسوف أصطحبك إلى فندق جراند وأغرقك فى أعظم أنواع الطعام التى لم تتذوقها أبداً فى حياتك .

إن الثمانية والثلاثين ميلا التى يقطعها كليف بسيارته فى زينيث فى نحو الساعة، فى عام ١٩٠٨ ، كانت تعتبر سرعة لا يكاد يتقبلها إنسان ... ولقد اكتشف مارتن فى صديقه شخصاً آخر إذ كان كعادته فوضويا، إلا أنه كان أكثر ثقة بنفسه وهو يدخل فى مشاريع تدر عليه مبالغ كبيرة من النقود فورا .. وان شعره الذى كان فى يوم ما جعدا ، يبدو دهنيا فى مقدمته وناتئا من الخلف ، قد أضحى اليوم ناعم اللمس ، وصار وجهه محمراً قرمزيا كوجه الملائكة .. واستوقف عند فندق جراند الرائع ، وقبل أن يغادر العربة استبدل قفازه الأصفر الضخم الذى يرتديه عند قيادة السيارة بزوج من القفاز الرقيق البنى به زخارف سوداء .. ومالبث أن خلعه وهو يسير متهاديا مستعرضا نفسه فى بهو الفندق . وكان ينادى الفتاة القائمة على

حفظ الملابس فى مدخل الفندق « ياحلوة » . وعند مدخل حجرة الطعام ، مضى يخاطب رئيس الخدم قائلا « كيف حال الفتى ؟ كيف حاله هذا المساء.أريد أن أعرفك بالدكتور أروسميث .. فى أى وقت يأتى إلى هنا أريد منك أن تحييه أطيب تحية ، أيها الفتى . . قـدم له مايشاء ، وإذا لم يدفـــع لك شيئا . . فإنى سوف أتحمل المصاريف ..

والآن أريد أن تعد مائدة صغيرة بديعة لاثنين .

هيا أعد لنا أطيب ألوان الطعام .. »

فقال رئيس الخدم متقطع الأنفاس :

« أجل .. ياسيدى .. من هنا الطريق إلى المائدة المطلوبة ياسيد كلوسون . »

وهمس كليف إلى مارتن : « لقد غيرت حاله هـكذا فى مدى أسبوعين ! أنظر إلى وأنا أدخن ! »

وبينما كان كليف يصدر أوامره، كان شخصا يقف إلى جوار مائدتهما . كان يشبه مسافرا متلهفا للعودة إلى مسكنه فى الضواحى مساء كل يوم سبت. وكان يبدو أنه سيصبح أصلعا بعد وقت قليل ، كما سيصبح ممتلىء الجسم ، وكانت نظارته فى وسط وجهه المستدير الناعم قد أضفت عليه سمة البراءة ، وأخذ يحملق فيما حوله كما لو كان يود أن يجد إنسانا يتناول معه الطعام . . نهض كليف ووثب على نوعه وصاح قائلا :

«آه، بسكى، أيها الفتى الـكبير.. هل تود أن تتناول الطعام مع أى إنسان— تعالى وانضم إلى رابطة الشباب الرياضى . »

فقال الرجل :« وهو كذلك . إن ذلك يسعدنى. أن زوجتى ليست فى المدينة . »

« صافح الدكتور أروسميث مارتن ، أعرفك بجورج . ف . بابيت ، ملك مقاطعة زينيث،وأن مستر بابيت قد احتفل بعيد ميلاده الرابع والثلاثين وتوج هذه المناسبة بشراء سيارة من صديقك المخلص ويود أن يـكون مخلصا دائما . »

كانت المسألة ، من ناحية كليف وبابيت على الأقل تستحق التقدير وتبادل

التحية والثناء . وعندما اشترك مارتن معهما فى تناول الكوكتيل ، استرعى انتباهه أن كليف كان رجلا مضيافا سخيا ، كما كان السيد جورج بابيت رفيقا رقيق الحاشية . وأفصح كليف أنه يبدو واضحا أن سابق مرانه فى الشئون الطبية لها علاقة بأنه يليق أن يكون مديرا لمصنع السيارات . وقد وافقه السيد بابيت على ذلك قائلا :

« إنكم أيها الزملاء أصغر منى سنا بثمانى أو عشر سنوات ، ولم تمارسوا الحياة كما مارستها ، إن السيادة الكبرى هى فى المثاليات والخدمات والحياة العامة .»

والآن بينى وبينكم، إن شعبيتى لا ترجع إلى ممتلكاتى بل إلى الخطابة، والحقيقة أننى اعتزمت يوما أن أدرس القانون لأدخل فى مجال السياسة ، فما بيننا وبين أنفسنا فقط ولا أود أن يخرج عن ذلك إلى سوانا ، كنت أكون بعض العلاقات الطيبة أخيرا — فكنت أجتمع ببعض الدبلوماسيين الجمهوريين النشطين ، وبالطبع يجب أن يبدأ الإنسان متواضعا ، ولكن أقول لكم إننى كنت أتوقع أن أصبح معاون بلدية فى الخريف المقبل، وتكون تلك خطوة لأن أصبح عمدة ثم حاكم ولاية. وإذا ماوجدت المهنة تناسبنى فليس هناك سبب يمنعنى من أن أصبح، فى مدى عشر أو اثنتى عشرة سنة، وليكن فى عام ١٩١٨ أو ١٩٢٠ ، لى الشرف بتمثيل مقاطعة وينماك الكبرى فى واشنطن . » وفى حضرة كليف الذى يعتبر نفسه نابليون وجورج . ف بابيت الذى يعتبر نفسه جلادستون أدرك مارتن افتقاره إلى القوة والمهارة فى العمل، حتى أنه عندما عاد إلى موهاليس اشتمله القلق، ولم يكن يفكر كثيراً فى فقره ، بيد أنه الآن حينما لمس ثراء كليف تراءت فى عينيه ملابسه المهلهلة وحجرته المتواضعة مبعثا للخجل .

— ٢ —

وصل إلى مارتن خطاب طويل من لورا تلمح فيه بأنها قد لا تستطيع أن تعود إلى زينيث ، مما جعله يستشعر بعزلة أكثر . ولم يعد يقبل على أداء

شيء . . وفي هذه الحالة الفاترة كان يتسكع في المعمل أثناء ساعات إيضاح المبادىء الأولية للبكتريا عندما أرسله جوتليب إلى الطابق السفلي ليحضر ستة من ذكور الأرانب للتطعيم ، وكان جوتليب يعمل ١٨ ساعة في اليوم في إجراء تجارب جديدة وكان ثائرا مهتاجا يصدر أوامره كالسباب ، ولما عاد مارتن حاملا ومعه ست من أناث الأرانب بدلا من الذكور صاح جوتليب في وجهه قائلا: «إنك أغبى مخلوق شاهده هذا المعمل ! »

وأخذ طلبة السنة الثانية الذين لم يكونوا يدركون توبيخات مارتن يقهقهون كالحيوانات الصغيرة ويثيرون حنقة وغضبه فقال : « حسنا . إنني لم أدرك ماقلته وهذه أول مرة أخطىء فيها ، وإنني لا أوافق على مخاطبتك أياى بهذا الأسلوب فأجاب جوتليب : « إنك ستقبل أى شيء أقوله أيها المخبول ! »

« تستطيع أن تأخذ قبعتك وترحل فقال : « هل تقصد أنني لا أصلح مساعدا ؟ »

«يسعدني أن يكون لديك شيء من الذكاء حتى تدرك ذلك بغض النظر عما أقوله . »

وسار مارتن بعيدا فتطلع جوتليب فجأة مذهولا وخطا خطوة نحو مارتن الذي أدار ظهره ، ولكن طلبة الفصل، هؤلاء الحيوانات القهقهة، وقفوا مبتهجين يودون مزيداً .. وهز جوتليب كتفيه، وصوب نحوهم نظرة ملأت نفوسهم رعباً، ثم أرسل بعضهم لإحضار الأرانب واستمر في عمله في هدوء عجيب . وفي حانة بارني ، كان مارتن يشرب بغزارة كؤوس الويسكي الأولى التي جعلته يسير هائماً على وجهه طوال الليل ، بمفرده . وكان في كل جرعة يعترف بأن أمامه فرصة كبرى لأن يصير سكيراً ويتظاهر مع كل جرعة أنه لا يعبأ بشيء ، ولو كانت لورا على مقربة منه بدلا من وجودها بهويتسلفانيا التي تبعد عنه ألفا ومائتي ميل لهرع هاربا إليها ليلتمس عندها الخلاص . وفي صباح اليوم الثاني كان مارتن لا يزال متأثراً بالشراب ، وقد تناول قدراً آخر من الشراب ليجعله يستطيع أن يحيا في ذلك الصباح ، عندما تلقى مذكرة من العميد سلفا يأمره بأن يحضر إلى المكتب على الفور ووجه إليه العميد الخطاب قائلا :

« يا أروسميث — لقد ناقش مجلس الكلية أخيراً وضعك ، ووضح أنك غير لائق على الإطلاق فيما عدا مادة أو مادتين . وكانت درجاتك على ما يرام ، وكان يرجى فيك خيراً أكثر من ذلك ، فضلا عن أنك كنت غارقاً فى الشراب أخيراً ، وقد شوهدت فى أماكن سيئة السمعة . وقد كونت صداقة مع إنساناً آل على نفسه أن يسىء إلى ـ كما يسىء إلى مؤسس القسم، وإلى ضيوفنا، والجامعة. وقد اشتكى كثيرون من أعضاء الكلية من موقفك المزرى ، إذ أنك تسخر من دراساتنا علنا فى حجرات الدراسة ! ولكن الدكتور جوتليب كان يدافع عنك دائماً بحرارة ، وأكد أن لديك مثابرة على البحث العلمى . وقد صرح أخيراً فى الليلة الماضية أنك عاملته معاملة سيئة .. والآن أيها الفتى إنك ما لم تتوقف فورا وتفتح صفحة جديدة فى حياتك فسوف أوقفك عن العمل بقية العام. وإذا لم يكن ذلك مجديا فسوف أطالب بفصلك وأعتقد أن ذلك سيكون أنسب شىء لإذلالك — فإنه يبدو أنه قد أصبح لك كبرياء الشيطان أيها الفتى ! واعتقد أنه من الأفضل أن تقابل دكتور جوتليب وتبدأ فى إصلاح الوضع بالاعتذار — »

كان الويسكى هو الذى يتكلم .. وليس مارتن :

« لعننى الله إذا قبلت ذلك ! فليذهب إلى الشيطان . لقد وهبته حياتى بيد أنه يوشى بى — » .

« إن ذلك ليس من العدل على الإطلاق بالنسبة للدكتور جوتليب . . لم يفعل إلا — »

«لم يفعل إلا أن خذلنى. سوف أراه فى جهنم قبل أن أعتذر له بعد أن عملت معه بهذه الطريقة .أما بالنسبة لكليف كلوسون الذى كنت تشير إليه بأنه الإنسان الذى عاهد نفسه بأن يسىء إلى أى إنسان.. فإنه كان يمزح. وقد اعتقدت أن مزاحة حقيقة . . إننى مسرور لأنه فعل ذلك ! »

ثم انتظر مارتن تلك الكلمات التى سوف تنهى حياته العلمية .

وأخذ الرجل الضئيل الحجم . . الرجل الصغير . . يحملق ويتمتم ويتكلم برقة ويقول :

« يا أروث سميث . أستطيع الآن أن أفصلك فوراً طبعا . . ولكننى أعتقد أن فيك خيراً كثيراً ، وإننى لا أود أن أتركك تذهب .. إنه من الطبيعى أنك موقوف عن العمل على الأقل حتى تعود إلى وعيك وتعتذر لى ولجوتليب . »

كان يتكلم بلهجة الأب حتى إنه جعل مارتن يشعر بالندم ، ثم اختتم حديثه قائلاً :

« أما بشأن كلوسون ومزاحه بالنسبة لذلك الإنسان يينوكى كار .. ولماذا لم أعبأ بهذا الإنسان فأحسب لأننى كنت منهمكا . إن مزاحه الذى تقول عنه إما أنه عبث أبله أوسفيه وأعتقد أنه لن يمكنك أن تعود إلينا حتى تستطيع أن تدرك تلك الحقيقة . » فقال مارتن : « وهو كذلك » . ثم ترك الحجرة وخرج .. لقد كان آسفاً على نفسه . إن المأساة الحقيقية التى شعر بها هو أنه على الرغم من أن جوتليب خدعه وأنهى حياته العملية وإمكان تفوقه فى مجالات العلوم وإمكان زواجه من لورا فإنه مازال يعبد الرجل . ولم يودع مارتن أحداً فى موهاليس سوى سيدة المنزل التى كان يقطن عندها ، وحزم أمتعته . وكان متاعا بسيطا — وجمع كتبه ومذكراته وبدلة مهلهلة وبياضاته البالية وثوبه الوحيد الذى يفتخر به كرداء للمناسبات . جمع كل ذلك فى حقيبته الجلدية ، وتذكر بدموع السكارى ساعة شراء سترة المناسبات .. كانت نقود مارتن تصله من مقاطعة أبيه الصغيرة ، وتأتيه على شكل شيكات شهرية على بنك الك ميلز ، ولم يعد معه الآن سوى ست دولارات . وترك حقيبته فى زينيث عند محطة الترولى الإقليمية .

ومضى يبحث عن كليف الذى وجده يمارس مهارته فى سيارة نقل موتى جميلة رمادية لؤلؤية اللون كان يهتم بها أحد الحانوتية ذوى اللحية الطويلة ، ومضى ينتظر جالسا منحنيا على مؤخرة سيارة ليموزين . وكان مستاء ولكنه كان مشتت

الفكر حتى أنه لم يستطع أن يستاء كثيراً من تفرس الباعة الآخرين وفتاة الاختزال . .

واندفع كايف نحوه صائحا مرحبا : « كيف حالك يافتى .. هيا بنا نتعاطى قليلاً من الشراب . »

« أستطيع أن أتعاطى واحداً . »

أدرك مارتن أن كايف يحملق فيه . وعند دخولهما بار فندق جراند الزاخر بصوره الزيتية لفتيات جميلات شاردات الذهن وعرايا وقطع من الرخام السميك على طول البار الماهوجنى قال :

« حسناً — لقد نلت مرادى أنا الآخر . . إن العميد سيلفا فصلنى دون أية مبررات عامة ، وسوف أتجول قليلاً ثم أجد لنفسى وظيفة ما « يا إلهى !.. ولكننى متعب وثائر .. خبرنى ألا يمكنك أن تقرضنى قليلا من النقود ! »

« قليلا .. بل كل ما معى .. كم تريد ؟ »

« أعتقد أننى فى حاجة إلى مائة دولار قد أعيدها إليك يوما ما .. » « ياإلهى ! ليس معى هذا المبلغ كله ولكن ربما أستطيع أن أستدينه من المكتب ، فاجلس هنا وانتظر حتى أعود إليك . »

لم يشرح كايف كيف استطاع أن يحصل على المائة دولار ، بيد أنه عاد بها فى مدى ربع ساعة وذهبا سويا لتناول الطعام وأفرط مارتن فى تعاطى الويسكى .. واصطحبه كايف إلى منزله الذى يعيش فيه — الذى لم يكن أقل دلالة ... عن رخاء كايف من ملابسه .. وقد ألح عليه ليستحم بماء بارد ثم أرقده فى الفراش .

وفى صباح اليوم التالى عرض عليه أن يجد له عملا ولكن مارتن رفض ، وغادر زينيث مستقلا القطار المتجه ناحية الشمال عند الظهيرة .

توجد دائماً فى أمريكا طائفة من المنبوذين من بين الشباب الذين يتجولون من ولاية إلى

أخرى ومن عصابة إلى عصابة تحت حماية روح المغامرة مرتدين قمصانا من الساتان الأسود ويحملون بعض اللفافات. وهم ليسوا دائماً جوالين فلهم بلدان يعودون إليها حيث يعملون فى هدوء فى المصنع أو فى منطقة نفوذ العصابة لمدة عام ـ أو أسبوع - ولا يلبثون حتى يختفوا من جديد . . ويتجمعون فى عربات التدخين ليلا فى سكون ، أو يجلسون على المقاعد والدكك فى المحطات القذرة؛ وبالرغم من أنهم يعرفون جميع أرجاء المنطقة فإنهم لا يعرفون شيئاً لأنهم فى مئات المدن يرون فقط مكاتب تشغيل العمال ووجبات الليل والخنازير العمياء والمساكن القذرة .

واختفى مارتن فى عالم التجوال والمغامرة، عاكفاً على الشراب لا يريم، غير واع تماما إلى أين يسير ، وماذا يريد أن يفعله ويتراءى له بين الحين والآخر طيف لورا أو كليف ويدى جوتليب الرقيقة .. وتتبدى له الطيوف على استحياء وخجل .

وارتحل من زينيث إلى مدينة اسبرطه ، ومنها إلى أوهيو ، ثم إلى ميتشجان متخذا طريقه غربا إلى الينوى . كان عقله غير متزن تماماً .. لم يكن ليتذكر تماماً بعد ذلك الأماكن التى تردد عليها، ولكن من الواضح أنه فى ذات مرة كان يعمل كاتباً فى مصنع الصودا فى أحد مخازن العقاقير ، وكان فى يوم مامنذ أسبوع غاسل أطباق فى أحد المطاعم الرخيصة ذات الرائحة الكريهة ، وكان يتجول فى قطارات البضاعة فوق الأمتعة .. وأمسى الآن نحيلا حاد المزاج قلقاً .. وبعد انقضاء فترة من الوقت بدأ يظهر فى خلده الشارد شعور بالوعى ، واتجه بالغريزة نحو الغرب .. نحو المروج الخضراء عند الغسق حيث كانت لورا تترقب عودته . وامتنع عن الشراب لمدة يوم أو يومين .. استيقظ وأحس بأنه لم يعد ذلك الأفاق الذى يدعى (التحيل) بل أحس بأنه مارتن أروسميث: وأخذ يتأمل بذهن واع قائلا : « لم لا أعود ؟ ربما ذلك لم يكن سيئاً بالنسبة لى ، فقد كنت أعمل بجد إذ كنت موفقاً ـ عجباً ماذا حدث لأرانبى . . هل سيتركون لى فرصة لأن أجرى الأبحاث من جديد ؟ »

ولكن كان من المستحيل أن يعود إلى الجامعة قبل أن يرى لورا ، وكانت

حاجته إليها ملحة حتى أنه لم يعد يشعر بلذة فى الحياة دونها . واستطـاع بحيلة أو بأخرى ، أن يوفر جـزءاً كبيراً من المائة دولار التى أخذهـا من كليف إذ عاش حياة متواضعة للغاية على اليخنة والخبز ـ بما كان يـكسبه . وفجأة فى يوم ما وفى مدينة ما فى ويسكنسون سار نحو المحطـة واشترى تذكرة إلى هويتسلفانيا شمـال داكوتا ، وبعث ببرقية إلى لورا يقول فيها « سوف أصـــل يوم الأربعاء الساعة الثانية وثلاثا وأربعين دقيقة » .

— ٣ —

عبر مدرّن نهر المسيسبي الواسع فى طريقه إلى مينوسوتا ، واستبدل القطار فى سانت بول ، وشق طريقه وسط مساحات من الجليد يخترقها سور من السلك . وشعر بأنه أصبح طليقاً من بطاح وينباك وأهويو المحدودة ، واستجم من اضطراب الأعصاب بسبب المذاكرة والعكوف حتى منتصف الليل وتذكر أيامه التى أمضاها فى مد الأسلاك فى مونتانا .

وقد استعاد ذلك الهدوء النفسى الطليق . وكان غروب الشمس يبدو قرمزى اللون .. وفى الليل عندما نزل من عربة القطار المختنقة وسار على رصيف سوك سينتر مضى يستنشق النسيم البارد وينظر إلى نجوم الشتاء المنفردة . وكانت أشعة الأضواء الآتية من الشمال تنتشر فى السماء وتضفى عليها الروعة والرهبة . وعاد إلى العـربة وفى نفسه شجاعة وعزيمة قوية وأخذ ينظر هنا وهناك، ثم استغرق فى النوم متمددا فوق المقعد مع بعض رفاقه المتشردين.

وتناول قهوة صرفة ، وأكل قدرا كبيرا من الـكعك فى مطعم المحطة . وهكذا أخذ يبدل القطارات فى مدن كثيرة مجهولة حتى وصل أخيرا إلى الملاذ والمأوى؛ إلى مخزن الغلال، وحظائر الماشية وخزانات البترول وصندوق المحطة الأحمر التى تـكون مشارف هويتسلفانيا .

وأمام المحطة كانت تقف لورا مرتدية سترة كبيرة مصنوعة من الجلد . ولقد

بدا عليه الجنون تقريباً عندما حملق فيها بين عربات القطار مرتعدا كريشة فى مهب الريح ، فرفعت إليه ذراعيها وجرى نحوها وقد أسقط حقيبته العتيقة على الرصيف واستغرقا فى تبادل القبلات وقد نسوا الفلاحين من حولهم الذين أخذتهم الدهشة .

وبعـــد ذلك بأعوام وتحت حرارة الظهيرة تذكر طراوة خديها اللتين رطبتهما النسمات .

ومضى القطار مغادرا المحطة الصغيرة بعد أن كان بمثابة جدار على الرصيف يحميها ، والآن وقد تسلطت الأضواء عليهما فكشفت عنهما عادا إلى وعيهما .

فقالت مرتبكة : « ما — ما الذى حدث — ما من خطابات . لقد انتابنى الشك وملأنى الفزع » .

« لقد جئت . لقد أوقفنى العميد عن العمل . . خلاف مع الأستاذ . هل تعبئين ؟ »

« طبعاً لا . . إذا كنت تريد . . »

« لقد جئت لأتزوجك » .

فضحكت قائلة :

« لا أرى كيف يتم ذلك يا أعز حبيب ولكن — وهو كذلك — سيثير هذا الموضوع عراكا لطيفاً مع أبى » . واستطردت :

إنه دائماً يدهش ويتأثر إذا ما حدث شىء لم يكن قد أعد نفسه له . إنه لشىء ممتع أن نكون سوياً فى السراء والضراء ، لأنه ليس من المفروض أنك تعرف أنه يتوقع أن يرسم كل شىء لكل إنسان و — أوه ياساندى — لقد كنت وحيدة بدونك وليست والدتى فى الواقع مريضة حقاً ، بيد أنهم يصرون على إبقائى معهم، وأعتقد أنه من المحتمل أن يكون إنسان قد لمح لوالدى بأن الناس يقولون إنه سوف يضار إذا ما مضت ابنته العزيزة الصغيرة بعيدا عنه لتتعـــلم التمريض ، إلا أنه

لم يأخذ الأمر مأخذ الاهتمام — إن أندروجا كسون توزر يستغرق تقريبا عاما حتى يفكر فى أى شىء . أوه يا ساندى ! . . لقد جئتنى أخيراً . . »

وبعد الحوار والحديث الذى دار عند القطار بدت القرية خالية تماما — لقد كان من الممكن أن يدور حول حدود قرية هويتسلفانيا فى مدى عشر دقائق — وكان من المحتمل أن تستطيع لورا أن تنرق بين مبنى وآخر — كان يبدو أنها تفرق بين المخزن العام والمخزن الرئيسى لنوربلوم ومخزن فريزر ولامب — ولكن كانت المنازل فى نظر مارتن ذات الطابقين الممتدة على طول الشارع الرئيسى من طراز واحـــد لا تكاد تميز ، ثم قالت لورا عندما استدارا إلى الناصية عند مخزن المؤن :

ها هو منزلنا ، فى نهاية الصف الثانى » . وفى نوبة من الارتباك والحيرة أراد مارتن أن يتوقف ، وقـــد تخيل العاصفة المقبلة : فإن السيد توزر سوف يتنكر له كإنسان فاشل يريد أن يحطم مستقبل لورا بينما تستغرق السيد توزر فى البكاء .

فتمتم مارتن قائلا خبرينى — خبرينى — خبرينى هل أخبرتيهم عنى ؟ »

« نعم بعض الشىء.. قلت إنك كنت أروع إنسان فى مدرسة الطب وأنه من المحتمل أن نتزوج عندما تنتهى من دراستك ، وأنهم أرادوا أن يعرفوا سبب مجيئك ولماذا أبرقت منْ وسكنسن ، وما لون رباط العنق الذى كنت ترتديه عندما أرسلت البرقية . ولم أستطع أن أفهمهم لأنى لم أعرف ، وأخذوا يبحثون أشياء كثيرة . إنهم يناقشون المسائل عند تناول العشاء — أوه — ياساندى . . هل من طبعك أن تسب الناس وتسىء إليهم عند تناول الطعام » .

كان مارتن فى رعب وفزع ، فإن والديها اللذين كانا من قبل أشخاصاً يتلهى بهم فى قصة ، أصبحا الآن أشخاصاً حقيقيين على مرأى من منزلهم الداكن . وقد كان منزلهم هذا به نافذة زجاجية ملونة الحواشى فتحت حديثاً فى الحائط دلالة على الرفاهية . وكان الجراج حديثاً ويبدو عليه مظهر الجاه .

وخطا وراء لورا وهو يتوقع نشوب العاصفة ، ففتحت السيدة توزر الباب وحملقت فيه امرأة نحيلة عجوز يبدو على وجهها الغضب وقد انحنت كما لو كانت لا ترحب به كثيرا وتشك فى أمره ولا تعرف عنه شيئاً .

وقالت شاخصة : « هل ترشدين السيد أروسميث إلى حجرته يا أورى أم أريها أنا له . . ؟ »

كان المنزل من الطراز الذى يوجد به فوتوغراف كبير وينعدم فيه وجود الكتب وإذا وجدت به بعض الصور فإن ذلك يكون فوق المأمول، ولم يتذكر مارتن بعد ذلك ما إذا كانت هناك أية صور . وكان السرير فى حجرته ضخما يغطيه غطاء مزركش وغطاء آخر منقوش بالزهور وبه رسومات شتى .

استغرق وقتا فى حل متاعه الذى لم يكن يحتاج إلى حل ، وتردد فى النزول إذ لم يكن أحد فى الردهة التى كانت تنتشر فيها رائحة حرارة الفرن .

ثم ظهرت مسز توزر من مكان خفى وهى تبدو قلقة من ناحية ومحاولة التفكير فى كلمة احترام تقولها له فقالت :

« هل استمتعت برحلة مريحة فى القطار ؟ »

« أوه ! نعم لقد كانت مريحة — حسنا كان القطار مزدحما للغاية . »

« أوه ! كان القطار مزدحما ؟ »

« نعم كان هناك كثير من المسافرين . »

« كان هناك كثيرون ؟ أعتقد — نعم إننى أحيانا أتعجب أين يذهب كل هؤلاء الناس الذين تراهم يذهبون إلى أماكن فى جميع الأوقات . . هل أنت — هل كان الجو رطبا جدا فى المدن — فى مينا بوليس وسانت بول . »

« نعم لقد كان الجو باردا للغاية . »

« أوه ! باردا . »

كانت السيدة توزر هادئة ومهذبة إلى أقصى حد ، وأحس كما لو أنه لص فى ثوب ضيف واستبد به تساؤل عميق عن المكان الذى فيه لورا الآن . . وجاءت لورا فى هدوء ومعها القهوة وأخذت تتكلم بارتياح وبساطة عن رطوبة الشتاء. وفى غمرة الانسجام ، دخل السيد أندروجا كسون توزر فاشتملهم الوقار من جديد .. وكان السيد توزر نحيلا لاتكاد تميزه عن زوجته . ومضى يسترق النظر مثلها، وظل ساكنا محنقا . . كان يدهشه كل شىء فى العالم ليس له علاقة بحصوله ومصنع الألبان ومصرفه الصغير وكنيسة الأخوة المتحدة وليس من العجيب أن يصبح ثريا لأنه لا يقبل أى شىء غير طبيعى ولا يعتبره أندروجا كسون توزر شيئاً ملائما وقد أبدى رغبة فى أن يعرف فيما إذا كان مارتن يحتسى الخمر، وإلى أى حد نصيب نجاحا، وكيف أمكنه أن يأتى إلى هنا طوال هذا الطريق من وينيماك (لقد ولدت أسرة توزر فى ألينوى،ولكنهم ظلوا فى داكوتا منذ الطفولة، وكانوا يعتقدون أن ويسكنس هى أقصى الأفق الشرقى) كانوا بدائيين مهذبين حتى أن مارتن استطاع أن يتجنب كل الموضوعات التى لا يراها مناسبة . وقد أوحى إليهم بفكرة أنه طبيب ناشىء صغير سيصبح فى يوم ما قادرا على تكوين ثروة ضخمة يستطيع بها أن يهيىء حياة كريمة لا بنتهم لورا .

ولكنهما كاد يتكىء بظهره على مقعده حتى ظهر أمامه شقيق لورا. إن برت توزر، البرت و . توزر أمين الخزينة ونائب رئيس بنك مقاطعة هويتسلفانيا ، والمدير المالى ونائب رئيس معمل ألبان ستار ، ونائب رئيس شركة تخزين المحاصيل ، لم يكن على الإطلاق يتأثر بالشكوك التى تداعب والديه .

فقد كان « بيرتى »، رجل أعمال حديث حاذق،وله سلسلة ذهبية فوق نظارته تمتد إلى ماوراء أذنه اليسرى . كان يعتقد فى التباهى فى المدن والجولات السياحية المنظمة بالسيارات ، كان كشافا ولاعب بسبول. وكان كل مايؤلمه أن هويتسلفانيا قرية صغيرة ليس فيها ناد لجمعية الشبان المسيحية يقضى فيه وقته إلى جوار خطيبته مس آدا كويست كريمة أحد أصحاب المخازن الكبرى، لها أنف حاد مثل

أصحاب المخازن الكبرى ، لما أنف حاد مثل صوتها أو الشكوك التى كانت تواجه مارتن . وتساءل بيرت « هل هذا أروسميث ؟ . . هاه — حسناً أعتقد أنك سعيد هنا فى أرض الله ! »

« نعم لا بأس — »

« إن المؤلم فى المقاطعات الشرقية أنه ليس فيها المجال للتطور . . وأعتقد أنك ترى هنا موسم حصاد حقيقى فى دا كوتا ! أنظر هنا . . كيف كانت نتيجتك فى المدرسة هذا العام ؟ »

« لماذا لـ »

« أعرف كل شىء عن نظام الدراسة . . لقد درست فى كلية الأعمال فى جراند فوركس فكيف جئت هنا الآن ؟ »

« أخذت أجازة لمدة قصيرة »

« تقول لورا أنك سوف تتزوجها »

« نحن . . »

« هل لديك أى مبلغ سوى مصروفاتك المدرسية »

« ليس عندى »

« هذا ما كنت أعتقده ! فكيف إذن تتوقع أن تهيىء حياة لزوجة ؟ »

« أعتقد أننى فى يوم ما سوف أمارس مهنة الطب »

« يوماً ما ! ما الفائدة إذن فى كلامك عن الارتباط بالزواج الآن حتى تستطيع أن تهيىء حياة لزوجة ؟ »

فهبت الآنسة آدا كويست محبوبة بيرت مقاطعة الحديث قائلة :

« هذا بالضبط ما قلته يا أورى ! »

كان يبدو أنها تتحدث بطرف أنفها المدبب أكثر مما تتحدث بفمها .

« إذا كان بيرت وأنا نستطيع أن ننتظر فأعتقد أن غيرنا يستطيع أيضاً »

فقالت مسز توزر فى صوت خفيض « لا تكن قاسياً هكذا مع السيد اروسميث يابيرتى . أنا واثقة أنه يريد أن يفعل الشىء المعقول . »

« لم أكن قاسياً على أى إنسان ، فإننى عاقل لو أنك أنت ووالدى تناقشان الأمور بدلا من الضجيج والعجيج لم أكن لأتدخل . وأنا لا أؤمن بالتدخل فى شئون الآخرين ، ولا أؤمن بتدخل أى شخص فى شئونى فإن شعارى عش ودع الآخرين يعيشون ، وفكر فى أمورك فحسب . هذا ما قلته لالك إنجلبلاد بالأمس عندما كنت عند الحلاق وهو يحاول أن يتفكه عن امتلاكنا لكثير من الرهونات العقارية ، بيد أنه سوف يقع على اللوم إذا كنت أسمح لشاب لا أعرف عنه شيئاً أن يحوم حول أختى حتى أكتشف شيئاً عن مستقبله . فقالت لورا باشمئزاز « برتى إنك تتعدى الحدود فى كلامك . »

فصاح قائلا :

« نعم وأنت أيضاً يا أورى ، لولاى لتزوجت من سام بتشك منذ عامين مضيا ! »

ومضى بيرت متماديا فى حديثه مستفيضاً فى أمثاله وتوضيحاته أنها كانت سطحية التفكير أما بالنسبة للتمريض . . التمريض !

أما لورا فقالت إن بيرت هو دائما كما هو . وحاولت أن تشرح لمارتن مسألة سام بتشك (حتى الآن لم توضح على الإطلاق) .

وقالت آدا كويست أن لورا لا يهمها أن تنزل الفجيعة بقلبى والديها وتحطم حياة بيرت .

وقال مارتن : « أنظر هنا أنا . . » ولم يزد فى حديثه عن ذلك .

وقال السيد والسيدة توزر إنهم جميعاً يجب أن يلتزموا الهدوء ، وبالطبع لم يقصد بيرت مايقوله ولكنه فى الحقيقة كان على حق . فكان لابد أن يكونوا متعقلين ، إذ كيف يمكن للسيد أروسميث أن يهيء حياة كريمة لزوجته .

واستمر المؤتمر حتى الساعة التاسعة والنصف . وكان ذلك الوقت ، كما أشار السيد توزر ، الموعد الذى يتوجه كل إنسان فيه إلى فراشه . وباستثناء الخمس دقائق التى دارت فيها المناقشة حول ما إذا كانت الآنسة آدا كيست ستنتظر حتى العشاء والنقاش الذى دار حول مدى ملوحة هذا النوع الأخير من قديد لحم البقر ، فإن المناقشة كانت تدور بإخلاص حول الاستفسار عما إذا كان مارتن ولورا مرتبطين بالزواج . وقد كان واضحاً جدا أن جميع المعنيين باستثناء مارتن ولورا قرروا ألا يتم ذلك . واصطحب بيرت مارتن إلى الطابق العلوى من المنزل ، إذ رأى ألا يدع الفرصة للحبيبين لقبلة المساء ، ومالبث السيد توزر أن نادى من الصالون فى الساعة العاشرة وسبع دقائق ؛ ثم قال « أو ستظلان تتناولان أطراف الحديث طوال هذا الليل المبارك يابيرت ؟ » وكان بيرت قد استرخى وجلس فوق سرير مارتن وهو ينظر باحتقار إلى متاعه المهلهل ويسأله عن تفاصيل أصله وديانته ومذهبه السياسى وموقفه من هذه الأهوال المعروفة بالقمار والرقص . وعند تناول الأفطار أعرب الجميع عن أملهم بأن يظل مارتن معهم ليلة أخرى فى منزلهم — فإن هناك متسع له .

وقال بيرت أن مارتن سوف ينزل معه إلى المدينة حيث يشاهد الصوف ومعمل الألبان ومزارع القمح . . ولكن فى تمام الساعة العاشرة كان مارتن ولورا فى القطار المتجه نحو الشرق ووصلا إلى ليوبوليس ، وهى مدينة يبلغ تعداد سكانها أربعة آلاف نسمة وبها أبنية مكونة من ثلاث طوابق : وفى مساء هذا اليوم كانا قد تزوجا بمعرفة القسيس الألمانى اللوثرى[1] وكان مكتب القسيس عبارة عن

(١) نسبة إلى مارتن لوثر المصلح الدينى المعروف (المترجم) .

فضاء يحيط بوقد علاه الصدأ . أما شهود الزواج وهما زوجة القسيس وألمانى عجوز ، فكانا يجلسان فوق صندوق خشبى وقد بدا عليهما النعاس . . وحتى أتيح لهما أن يستقلا القطار المتجه إلى هويت سلفانيا بعد الظهر لم يكن لورا ومارتن قد تحررا من الخوف الذى كان يطاردهما طيلة اليوم . . بينما هما جالسان فى القطار إلى جوار بعضهما متلاصقين وقد خليا من الشعور الغريب الذى يداعب العشاق أحياناً بعد الزفاف وتنهدا قائلين .

« ماذا سنفعل . . ماذا سنفعل ؟ »

وقد قابلهم عند محطة هويت سلفانيا جميع أفراد الأسرة ثائرين .

ساورت بيرت الشكوك بأنهما قد هربا ، فقضى يبحث عنهما بالاتصال التليفونى الطويل فى أرجاء ستة بلاد . وقد اتصل أخيراً بكاتب الإقليم قبل حصولهما على عقد الزواج ولم يهدىء من ثورة بيرت ماقاله الكاتب من أنه إذا كانت لورا ومارتن فى سن الزواج فإنه يستحيل أن يفعل شيئاً ضدهما ، وأنه لا يعبأ بشخصية المتحدث وقد وصل بيرت إلى المحطة وهو مصمم على أن يعيد الرشد إلى مارتن ، كما يتمتع هو بالرشاد وأن يصحح الأمور على الفور .

كانت أمسية رهيبة فى منزل أسرة توزر .

وقال السيد توزر بإطناب وإن مارتن قد تحمل بعض المسئوليات .

وبكت السيدة توزر قائلة : إنها كانت تأمل ألا تكون أورى قد اضطرت إلى الزواج .

وقال بيرت إذا كان الحال كذلك فإنه سوف يقتل مارتن .

وقالت آدا كويست إن فى مقدور لورا أن تدرك الآن نتيجة مباهاتها وتفاخرها بالتوجه إلى مدينة زينيث .

وقال السيد توزر إن هناك شيئا واحدا معقولا على أية حال : أن أورى تستطيع

الآن أن تدرك بنفسها أنهم لن يتركوها لتعود إلى مدرسة التمريض وتدخل فى مشاكل أكثر من ذلك .

وأخذ مارتن من وقت لآخر يبدى ملاحظات تعبر عن أنه شاب عظيم وعالم بكتريولوجى رائع وفى إمكانه أن يرعى زوجته ، ولكن أحدا لم يكن ليستمع إلى حديثه هذا سوى لورا . . وبينما كان والد بيرت يتحدث قائلا (والآن لا تقسو على الفتى هكذا) قال بيرت : « إنه إذا كان مارتن يعتقد لمدة لحظة واحدة أنه سوف يحصل على سنت واحد من أسرة توزر لأنه قد أقحم نفسه عليهم دون أن يدعوه أحد فإنه . أى بيرت يريد أن يعرف الحقيقة وإن كل ما يريده هو أن يعرف بالتأكيد » .

وكانت لورا تشاهدهم وهى تدير رأسها الصغير من شخص إلى آخر ، وضغطت على يد مارتن مرة واحدة وفى شدة هياج العاصفة عندما بدأ مارتن يحمانى سحبت من جيب خفى صندوق سجاير من نوع ردىء جداً وأشعلت واحدة . ولم يكن أحداً من أسرة توزر قد اكتشف أنها تدخن . ومهما يكن من ارتيابهم فى سلوكها الجنسى وفى عدم وفائها لمبادىء الأخوة المتحدة ، وفى سلوكها العام فإنهم لم يراودهم الشك فى أنها ترتكب إثما كالتدخين فشنوا حملة عليها .

وأخذ مارتن يكبت أنفاسه . وفى أثناء هذه العاصفة الهوجاء صمم السيد توزر بطريقة ما أنه فى الوقت المناسب يستطيع أن يأخذ زمام الأمر من يد بيرت الذى كان يعتبره منفيداً ، وإن كان غير ناضج فكرياً إلى حد ما وغير قادر على إدراك القيمة الحقة للدولار (وكان السيد توزر يقدر الدولار بدولار وتسعون ، أما بيرت التقدمى فإنه يقدره بالكاد بدولار وخمسون) .

كان عليهم أن يتوقفوا عن حملتهم فإنه لم يكن لديهم دليل واضح على أن مارتن لا يصلح أن يكون زوجاً لأورى وسوف يرون أن مارتن سيعود لمهنة الطب فورا ويصير شاباً ممتازاً ويجتاز مراحله بأقصى سرعة ممكنة ، ويبدأ فى كسب النقود . وستظل أورى فى المنزل تتصرف فى أمورها ، وأنه من المؤكد أنها سوف

لا تعود من جديد لتسلك سلوك امرأة شاذة وتدخن السجاير . وفى الوقت ذاته فإنها ومارتن لن يكون بينهما علاقة (وقد بدأ الاضطراب على وجه السيدة توزر وبدأت آدا كويست المتوثبة تحاول أن تحمر خجلا) وسوف يتبادلان الرسائل مرة كل أسبوع ولكنه سيكون هذا هو كل ما فى الأمر ، وأنهما لن يستطيعا بأى حال من الأحوال أن يقوما بدورهما كمتزوجين حتى يحصل على شهادته وينال الإذن وسأل مارتن « هل هذا حسن ؟ » .

وليس ثمة شك فى أن مارتن كان يجب أن يتحداهم ويأخذعروسه فى ذراعه وينطلقا فى الليل ، ولكن لم يكن باق على التخرج ، كما يبدو له ، سوى لحظة ثم يبدأ حياته العملية . والآن قد نال لورا إلى الأبد ومن أجلها فإنه يجب أن يكون منطقياً ، وعليه أن يعود إلى العمل . أو يعود إلى مثل جوتليب العملية ؟ والعامل ؟ يا للعفن !

فقال مارتن « وهو كذلك » . ولم يكن يخطر بباله أن صيامهما عن الحب بدأ هذا المساء ، ولم يخطر بباله ذلك حتى تلك اللحظة التى أمسك فيها بيد لورا مبتسما وقد صمم على أن يكون حكيما عاقلاً ، إذ سمع مستر توزر يقول « يا أورى إذهبي إلى فراشك الآن — فى حجرتك الخاصة ! » .

كانت هذه ليلة زفافه وكان يتقلب وحده بعيداً عنها بعشرة ياردات وفجأة سمع الباب يفتح وتملكه السرور لحضورها وانتظر ، ولكنها لم تأت . وأخذ ينظر إلى الخارج مصمماً على أن يجد حجرتها . وفجأة إزداد مقته نحو شقيقها ، وكان بيرت يطوف فى الصالة فى نوبة حراسة . ولو أن بيرت كان أكثر مهابة لقتله مارتن . ولكنه لم يستطع أن يواجه ذلك الداعى . وعاد إلى فراشه مصمماً أن يصب عليهم اللعنة جميعاً فى الصباح ويخرج من المنزل ومعه لورا ، ولكنه فى الساعة الثالثة أدرك أنه وهى من المحتمل أن يموتا جوعاً ، وأنه سوف يلطخ بالعار ، وأنه ليس من الأكيد على الإطلاق أنه لن يصبح سكيراً .

« فتاتى العزيزة . . . إننى لن أفسد عليك حياتك . يا إلهى إنى أحبها ! سأعود والوسيلة هى أن أعود إلى العمل . هل أستطيع أن أتحمل كل ذلك ؟ » .

هذه كانت ليلة زفافه والفجر العقيم .

بعد ذلك بثلاثة أيام كان يسير نحو مكتب الدكتور سيلفا عميد مدرسة الطب فى وينيماك .

الفصل العاشر

رفعت سكرتيرة العميد سيلفا عينيها فى ابتهاج ومضت تنصت بشغف ، ولكن مارتن قال فى دعة : « هل يمكن من فضلك أن أقابل السيد العميد ؟ » .

وانتظر بهدوء على أحد المقاعد المصنوعة من خشب البلوط والمرصوصة صفاً تحت تقويم صيدلية داوسن هنزيكر .

وعندما دخل مارتن بوقار من الباب الزجاجى إلى مكتب العميد وجد الدكتور سيلفا متألقاً . وبدا الرجل الضئيل الحجم فى جلسته ضخماً ، وكانت رأسه كالقبة وشاربه كث مستدير وقال « مرحباً ! » .

فقال مارتن معتذرا « أريد أن أعود إذا أذنت سيادتكم لى ، وأننى أعتذر صراحة لكم وسوف أذهب إلى الدكتور جوتليب وأعتذر إليه ، بالرغم من أننى لا أستطيع أن أهجر كليف كلوسون » .

فنهض الدكتور سيلفا من مقعده منتفشاً ، وتمالك مارتن نفسه متسائلا : ألم يلق ترحيباً ؟ ألا يجد له مكاناً آخر ؟ أنه لا يستطيع أن يناجز ويقاتل فقد نفذت شجاعته وأنهكه التعب بعد هذه الرحلة المضنية بعد أن تمالك نفسه أمام آل توزر لقد صار منهوك القوى للغاية ! ومضى يتطلع بحزن وأسى إلى العميد .

وقال له العميد الضئيل الحجم « لا تعبأ يافتى فكل شىء بخير وإننا لمسرورون بعودتك . عليك الآن أن تعتذر وأريد منك أن تفعل ما أخبرك به فإننا نحمد الله لعودتك لأننا نثق فيك . وقد ظننت أننا قد فقدناك أيها الإنسان الشارد ! »

كان مارتن ينتحب ، عاجزاً عن أن يتمالك نفسه ، فمضى الدكتور سيلفا يهدىء من روعه قائلا : « دعنا الآن نقلب الأمور على وجوهها ونبحث عن مصدر القلق ماذا أفعل لك . أعلم يا مارتن أن الشىء الذى أريده جاهداً فى هذه الحياة هو أن

أعمل على تزويد العالم بأكبر قدر ممكن من الأطباء المهرة والحكماء العظماء . من الذى بدأ فى إثارتك ؟ وأين كنت ؟ » .

وعندما وصل مارتن إلى مسألة لورا وزواجه قال سيلفا « إننى مسرور ، إذ يبدو أنها فتاة رائعة ، حسناً أننا يجب أن نحاول أن نرسلك إلى مستشفى زينيث العام لمدة سنة من الآن ونجعلك قادراً على تهيئة حياة مواتية لها » .

وتذكر مارتن كم كان جوتليب يهتم بأمر الزواج هذا وسار على النهج الذى رسمه له سيلفا ، واستغرق فى الدراسة بجنون وتبدد من ذهنه الإيمان بجنون عبقرية ماكس جوتليب .

— ٢ —

بعثت لورا إليه خطاباً تنبئه فيه إنها فصلت من مدرسة التمريض لتجاوزها نسبة الغياب ، ولزواجها ، وإنها تشك فى أن يكون والدها هو الذى أبلغ إدارة المستشفى ، ثم تبين بعد ذلك أنها قد بعثت سراً فى طلب كتاب اختزال وأنها تستعمل الآلة الكاتبة الموجودة فى البنك مدعية أنها تساعد بيرت أملا منها فى أن تلحق بمارتن فى الخريف القادم فتتعاون معه بالعمل كوظفة اختزال .

وفى ذات مرة عرض مارتن أن يترك دراسة الطب ويلتحق بأى عمل يجده ، بيد أنها رفضت .

وبالرغم من أنه فى سبيل لورا ، وابتغاء لمرضاة العميد سيلفا صار حازما محرما على نفسه الويسكى منكباً على الدراسة فإنه كان دائماً يحس بفراغ وحنين إليها . وكان دائماً يهرع إلى منزله باحثاً عن خطاب يصله منها . وفجأة خطرت على ذهنه فكرة فإنه بعد أن ذاق طعم الخجل لم يعد يهمه الخجل هذه المرة فاعتزم أن يتجه فوراً فى أجازة عيد رأس السنة .

ولسوف يجبر أسرة تورز على أن تتحمل نفقات معيشتها أثناء دراستها

الاختزال فى زينيث ، إذ يود أن تكون إلى جانبه خلال السنة الأخيرة . وقام بسداد مبلغ المائة دولار التى كان اقترضها من كليف من الشيك الشهرى الذى يأتيه من الك ميلز وأخذ يحسب مصروفاته الحالية بالبنس . وظل لمدة شهراً أو أكثر لايتناول أكثر من وجبتين فى اليوم الواحد كانت إحداها تتكون من خبز وزبد وقهوة وكان يغسل لنفسه ملابسه فى حوض الحمام ولم يكن يدخن إلا لظروف اضطرارية طارئة .

كانت عودته إلى هويتسلفانيا مثل رحلته الأولى إليها، إلا أنه هذه المرة لم يكن يكثر فى الحديث مع الشاردين من أمثاله ، وظل طوال الرحلة قلقاً فى مقعد العربة يذاكر فى كتب ضخمة عن أمراض النساء والطب الباطنى . وكتب بعض التعليمات للورا وقابلها عند أطراف هويتسلفانيا وأخذ يتبادلان الحديث لحظة وقد طبع على وجنتها قبلة حارة .

وانتشرت الأنباء بسرعة فى هويتسلفانيا ، إذ كان القوم هناك يولون شئون الآخرين اهتماماً خاصاً .

وظلت عيون المواطنين الذين لا يعرف مارتن عنهم شيئاً تلاحقه أينما ذهب منذ وصوله

وعندما وصل مارتن ولورا إلى قصر اسرة توزر وجدا هناك والد لورا وأخاها. وصاح فيهم اندروجا كوسون قائلا إنه قد لا يكون مارتن مجنوناً أن يهرب من المدرسة مرة ، ولكنه عندما يهرب للمرة الثانية ويعود فانه حتما مجنون تماماً »

وفى تلك الأثناء كان مارتن ولورا يبتسمان سراً .

وقال بيرت وكان يطالع إحدى القصص « بحق الله ياسيدى إن هذا أمر لا يطاق إننى أكره الإجحاف ولكن عندما تأتى للمرة الثانية لتضايق أختى فكل ما استطيع أن أقوله أن ذلك أمر يستحق الكثير من اللوم .

وأخذ مارتن ينظر متأملا من النافذة فشاهد ثلاثة يسيرون فى الشارع

الوحل ، وكانوا جميعاً ينظرون إلى منزل توزر باهتمام بالغ ثم تحــــدث قائلا فى رباطة جأش :

« ياسيد توزر لقد كنت أعمل بجد ، وكان كل شىء يسير على ما يرام بيد أننى قررت ألا أعيش وحدى دون زوجتى ولذلك جئت لآخذها معى وأنه من الناحية الشرعية لا تستطيعون أن تمنعونى وأننى لأعترف لكم بلا جدال أننى لا أستطيع أن أعولها إذا ما مضيت فى دراستى فى الجامعة ، ولكنها سوف تدرس الاختزال وسوف تعول نفسها لبضعة شهور وفى الوقت ذاته أتوقع أن تتكرموا فترسلوا لها قدراً من النقود .

وقال توزر « هذا شىء كثير » واستطرد بيرت قائلا «هذا الإنسان لا يكتفى بأن يحطم الفتاة بل ويأتى ليطلب أيضاً أن نعولها لحسابه » .

فقال مارتن « وهو كذلك ، ليكن كما تريدون . وفى المدى الطويل سوف يكون من صالحى وصالحها وصالحكم إذا ما انتهيت من دراستى فى الطب وتوليت عملى ، ولكن إذا لم تعولوها فسوف أترك المدرسة وأبحث عن عمل ... أوه وهو كذلك ! سوف أعولها . . ولكن لن تروها بعد اليوم إذا ما أصررتم على رأيكم الخاطىء . . وأنا وهى سوف نرحل من هنا فى قطار المساء إلى الشاطىء وبذلك تكون النهاية » ولأول مرة طوال فترة نقاشه مع أسرة توزر كان يأتى بمفاجآت درامية فى أحاديثه ، ثم خبط بقبضة يده أمام أنف بيرت قائلا» و اذا — حاولتم أن تمنعونا فليعينكم الله ! لسوف تضحك عليكم هذه المدينة ! . . . ما رأيك يالورا هل أنت على استعداد لكى تأتى معى إلى الأبد ؟ » .

فقالت « أجل » .

وأخذوا يجادلون فى الأمر فترة طويلة . وكان توزر وبيرت فى موقف الدفاع ، فقالا أنهما لا يسمحان لأى إنسان أن يفترى عليهما .

كان مارتن مغامراً أيضاً ، وكيف عرفت لورا أنه لم يكن يدبر الأمر على أنه سيعيش على النقود التى سوف يرسلونها لها ؟ وأخيراً استسلموا إذ قرروا أن مارتن ، هذا الشاب الناضج حديثا ، وأن لورا تلك الفتاة الجريئة ، كان كل منهما على استعداد لأن يضحى بكل شىء فى سبيل الآخر.

وظل السيد توزر يتوجع ويئن طويلا ، وأخيراً وعد بان يرسل لهما سبعين دولاراً شهرياً حتى يعدا نفسيهما للعمل .

وأدرك مارتن من خلال نافذة القطار فى محطة هويتسلفانيا أن والدها بعيونه القلقة وشفتيه المشدوهتين كان يحب ابنته ؟ وهو فى أشد الحزن لفراقها .

أستأجر حجرة للورا فى الطرف الشرقى لزينيث أقرب إلى موها ليس والجامعة مما كانت المستشفى ببضعة أميال . كانت حجرة مربعة بيضاء وزرقاء بها مقاعد جلدية مرتفعة . كانت تلك الحجرة تطل على أرض بور تمتد حتى خط السكة الحديدية وكانت صاحبة المسكن امرأة مليئة الجسم ذات عينين حالمتين . وكانت هذه السيدة تشك أنهما متزوجان ، كانت امرأة طيبة .

وصلت حقيبة لورا ووضعت كتب الاختزال فوق منضدتها الصغيرة وقد وضعت نعالها القرمزية تحت السرير الأبيض الحديدى ووقف مارتن معها بجوار النافذة وهو يكاد يجن من فرحته بامتلاكها ، وفجأة أحس بالضعف الشديد والإرهاق المتزايد وأحس أن الرباط الذى يضم الخلايا إلى بعضها بعضاً بدأ يذوب ويتفكك وأنه ينهار ، بيد أنه وقد شد عضلات ركبتيه وأدار رأسه إلى الخلف وقضم بشفتيه بين أسنانه ، تمالك نفسه وصاح « منزلنا الأول » .

كان وجوده معها فى هدوء دون أن يزعجه أحد هو النشوة بعينها .

التمعت الحجرة العادية بضوء عجيب ، وكانت الأعشاب الضخمة والحشائش الطويلة فى الأراضى البور تترقرق لمعاناً تحت شمس إبريل وكانت العصافير تغرد . وقالت لورا بصوت رخيم وشفاه جائعة « أجل » .

— ٤ —

انتظمت لورا بجامعة زينيث بمدرسة إدارة الأعمال والعلوم المالية ، ويدل الإسم على أنها مدرسة من نوع غير ممتاز للاختزال وحفظ السجلات ، وهى مدرسة يختارهـا أبناء أصحاب الحانات والسياسيين من زينيث الذين لا يستطيعون الالتحاق بجامعات المقاطعة . وكانت تسير يوميا وسط الطلبة كإنسانة صغيرة تحمل كتبها متأهبة للدرس ، وتعلمت الاختزال فى نحو ستة أشهر فالتحقت بالعمل فى مكتب التأمين .

وإلى أن تخرج مارتن كانا لا يزالان يسكنان نفس هذه الحجرة ، إذ كان بيتاً عزيزاً عليهما ، ولم يكن هناك شىء أليف إليهما كتلك الطيور العابرة . وكان مارتن يعود من موهاليس مرتين على الأقل كل أسبوع حيث يدرس هناك ، وكانت لورا بارعة فى أن تهىء له جوا للمذاكرة حتى لا يكاد يلحظها وهى معه ، بينما هو منهمك فى المذاكرة على نحو لم يعهده أيام وجوده مع كليف ، وكان يغمره دائماً شعور رقيق ، ودفء وعطف فى وجودها معه ، وأحيانا عند منتصف الليل إذ يكون قد بدأ يستشعر بالجوع كان طبقاً من الشطائر يظهر بطريقة سحرية ، وفى هدوء إلى جوار ذراعه . ولم يكن هو الآخر بأقل عطفاً منها إذ لم يكن يملق على ذلك .

لقد جعلته يحس بالأمان وقد أغلقت دونه العالم الذى كان يزعجه .

وأثناء نزهاتهم ، وعندما كانا يتناولان طعام العشاء فى الربع ساعة الجميلة الفريدة التى كانا يجلسان خلالها على حافة الفراش تجللهما الراحة ، وعندما كانا يدخنان فى انطلاق قبل الإفطار كان يشرح لها عمله . وعندما انتهت دراستها ، كانت تحاول أن تقرأ من كتبه ما لم يكن يستعمله . وبالرغم من أنها لا تعرف شيئاً ولم تدرس كثيراً عن التفصيلات الدقيقة فى الطب فإنها كانت تفهم — أكثر مما كان يفهم أنجوس ديور — فلسفته وأسس عمله . وأنه وإن كان قد أقلع عن تقديس جوتليب والحنين إلى العمل كما لو كان يحن إلى ارتياد المعبد ، وأنه وإن

كان قد قر عزمه على أن يكون عمليا وطبيباً جامعاً للنقود ، فإنه مع ذلك كان ما زال لديه شي من روح جوتليب .

كان يريد أن يصل إلى ما وراء التفاصيل وقائمة المصطلحات الفنية الرنانة ، إلى علل الأشياء والقواعد العامة التي قد تقلل من فوضى الظواهر المتنافرة والمتناقضة وتدرجها ضمن أسس علم الكيمياء .

وفي مساء يوم السبت توجها في اهتمام ووقار إلى دار الصور المتحركة فشاهدا فيلمان من أفلام رعاة البقر لبيلي أندرسون والفتاه التي اشتهرت فيما بعد باسم ماري بيكفورد . أخذا يناقشان أثناء عودتهما عدم وجود الحبكة في القصة غير آبهين بمن حولهما من الناس في الشوارع .

ولكنهما عندما كان يتوجهان معاً إلى الريف (ومعهما أربعة شطائر وزجاجة من الجعة في حقيبته) كان يداعبها فوق التلال وأسفل الوادي . وكان يفقدان رزانتهما في غمرة الطفولة المرحة . . اعتزم عند وصوله إلى الحجرة في المساء أن يلحق بالسيارة المتجهة إلى موهاليس ليكون قريبا من عمله عندما يستيقظ في الصباح . كان دائما يصمم على ذلك وكانت دائما معجبة بعقيدته ولكنه لم يكن ليلحق السيارة إطلاقا .

وقد اعتاد سائق السيارة المتجهة إلى الأقاليم في السادسة صباحاً أن يشاهد كل يوم شاباً شاحب اللون سريع الحركة يجلس منحنيا في المقعد الخلفي يلتهم مجلدات حمراء وهو يتثاءب في غير وعي . ولكنه لم يكن يبدو على هذا الشاب إعياء العمال الذين ينهضون عند الفجر من فراشهم يسعون إلى يوم مجهد عقيم من العمل . وكان يبدو حازما بشكل عجيب وراضياً بصورة عجيبة .

أصبحت الأمور جميعاً هينة . ذلك لأنه من ناحية قد تخلص من طغيان جوتليب ومن البحث الدائب عن المسببات التي كانت . كلما تتعمق من طبقة إلى أخرى تبدو أعمق وأعمق من المبادىء الأساسية ومن الإجهاد الذي لا يطاق يوماً

بعد يوم — مهما بلغ مقدار معلوماته . أحس بالأمان لهروبه من دائرة جوتليب المقلقة الباردة إلى رحاب عالم العميد سيلفا وكان يرى من وقت إلى آخر جوتليب فى الساحة فيتبادلان التحية بانحناءة مضطربة ، ويمران مسرعين .

— ٥ —

لم يكن هناك فاصل بين سنى دراسته الدنيا والعليا وذلك بسبب الوقت الذى إفتقده ، فكان لابد أن يمكث فى موهاليس طيلة الصيف .. كان العام والنصف منذ زواجه حتى تخرج دوامة عجيبة لا تتخللها فصول أو تواريخ .

وعندما (انتهى من فوضويته ودخل إلى معترك الحياة) كما يقولون ، كان قد نال إعجاب الدكتور سيلفا وجميع الطلبة الممتازين خاصة أنجوس ديور والقس أراهنكلى .

وكان مارتن يعلن دائما أنه لا يهمه ثناءهم ولا اطراء عامة الأطباء ، ولكنه اليوم وقد تحققت له أمنيته أصبح يقدره . وعلى قدر ما كان يشتد فى سخريته ، كان دائما ممتنا عندما يعامله أنجوس معاملة الأمراء . كان أنجوس يمضى الصيف كطبيب غير مقيم فى مستشفى زينيث العام وكانت له شهرة الجراح الناشىء الناجح . وخلال هذا الصيف الحار أخذ مارتن ولورا يعملان فى جد ، وعندما كانا يجلسان فى حجرتهما مكبين على كتبهما وأمامهما كأس من البيرة القوية لم تكن ثيابهما أو لغتهما تبدو فيها الأناقة التى يتوقعها الإنسان من زوجين رومانتيكيين مكرسين جهديهما للعلم والمحاولات الجبارة . ولم يكونا متواضعين تماما إذ اعتادت لورا أن تستخدم بطريقة عرضية بعض الكلمات ذات المقاطع الواحدة التى توجد فى لغة الإنجلوسا كسون القديمة ، مما لا يروق أنجوس أو بيرت توزر . وفى أمسياتهم التى كانا يمضيانها خارج المنزل على نحو اقتصادى إلى مكان يشبه جزيرة « كونى » بجوار بحيرة تتصاعد منها الروائح الكريهة . . كانا يتناولان السجق فى سرور بالغ ، ثم يركبان قطار المناظر ، مما يكلفهما فوق طاقتهما .

وكان فاتح شهيتهما الرئيسى هو كليف كلوسون ، ولم يكن كليف ليهدأ له ساكن أو يكون بمفرده إطلاقا إلا إذا كان نائما . وربما كان نجاحه فى بيع السيارات مصدره الأساسى حبه للمناقشات الرائعة الكثيرة التى هى من مهام هذه المهنة ، وكم كان شعوره بالود والصداقة مع مارتن ولورا ، وكان ذلك مرده إلى خوفه من أن يكون وحيداً ، ولكنه مما لاشك فيه أنه كان يسليهما ويسرى عنهما ، ولم يبد أنه امتعض أو حنق من عدم الرغبة الأكيدة التى كان يبديها مارتن أحياناً فى تحيته إياه ، وكان يغدو إلى المنزل مدويا بسيارته ، وكان النفير متقطع الصوت دائما فيصيح عليهما من عند النافذة قائلا : « هيا بنا نخرج ! أسرعا — هيا بنا نتنزه بالسيارة ونتنفس الهواء العليل البارد ثم إننى سوف أبتاع لكما طعاما . » ولم يكن كليف يدرك إطلاقا أن مارتن لا بد أن يعمل . كان هناك إعتذار بسيط لوحشية مارتن العرضية عندما كان يظهر استياءه ولكنه الآن وقد تحققت له آماله بوجود لورا أصبح أنانيا تماما لا يهتم باحتياجات الآخرين . والآن ، وقد أصبح فى غمرة النشاط والرضى برفقته صار اليوم متبرما بتلك الفكاهات الثقيلة المتدفقة التى لا تتغير والتى يطلقها كليف ، أما لورا فكانت تظهر احترامها . كانت قد سمعت مرات ومرات الفكاهات السبع التى كانت تنطوى عليها فكاهة وفلسفة كليف فى أثواب مختلفة ، ولكنها كانت مع ذلك تجلس ساعات وساعات فى ارتياح تتطلع بينما يحكى كليف كيف كان ماهراً فى عمليات البيع . وكانت تذكر مارتن بحزم أنه لن يكون له صديق أكثر كرماً وإخلاصا من كليف .

ولكن كليف توجه إلى نيويورك ليعمل فى وكالة سيارات جديدة ، وأصبح مارتن ولورا أكثر إعتماداً ، فى سعادة ورضى ، على بعضهما بعضاً أكثر من ذى قبل . وزال قلقهما الأخير بمعاملة السيد توزر الطيبة إذ كانت جميع خطاباته تعبر عن العطف والود بالرغم من أنه كان يزعجهما بالنصائح الأبوية التى كان يغدقها عليهما فى كل خطاب يبعث به اليهما .

— ٦ —

لم تكن أنواع النشاط المضنية فى سنة الامتياز — علم الأعصاب وطب الأطفال والتدريب على التوليد ، ومشاهدة الحالات فى المستشفى ، وحضور العمليات ، وتضميد الجروح والتدريب على عدم الإرتباك عندما يناديه المرضى بكلمة « دكتور » بأمور ذات أهمية قصوى بمثل ما كانت المناقشات حول « ماذا ستفعل بعد التخرج ؟ » هل من الضرورى أن تكون طبيبا غير مقيم لأكثر من عام ؟ هل سنظل أطباء عموميين طوال حياتنا أم سنعمل على أن نصبح متخصصين ؟ وأى التخصصات أفضل وتدر دخلا أوفر ؟ هل سنقيم فى الريف أم فى المدن ؟ وما الرأى فى الذهاب نحو الغرب ؟ وماذا عن الهيئة الطبية العسكرية ، وارتداء الأحذية ذات الرقاب ، والنساء الجميلات والترحال ؟

كانت هذه المناقشات تدور فى ممر القسم الطبي بالمستشفى وفى حجرات تناول الطعام . وعندما عاد مارتن إلى لورا كان يستعرض هذه المناقشات جميعها بحرفيتها وعلى وجه التفصيل ، وكان فى كل مساء تقريباً يصدر قراراً يسحبه فى الصباح من جديد . وفى ذات مرة عندما كان الدكتور لوزو أستاذ الجراحة يجرى عملية أمام جماعة من الأطباء كانت تضم مشاهير الأطباء الزائرين — كان الشبح الأبيض الصغير ، شبح المريض تحت أعينهم يتأرجح بين الحياة والموت . وعلى نحو درامى أشبه بممثل عظيم يؤدى دوره ويستعيد المثول أمام الجماهير المعجبة الهاتفة ، عاد مارتن مصمماً على أن يصبح جراحا .

واتفق فى الرأى مع أنجوس ديور الذى كان قد فاز بميدالية لوزو فى الجراحة التجريبية أن الطبيب الجراح يعتبر أسدا ونسرا وجنديا مبرزاً بين الأطباء .

كان أنجوس أحد الناس الذين يدركون دون تمهل ماذا سيفعل ، فبعد الانتهاء من دراسته التحق بالقيادة الطبية المشهورة فى شيكاغو برئاسة الدكتور رونسيفيليد

الجراح الباطنى الشهير. وقال باختصار إنه سوف يكوّن ثروة تبلغ ٢٠ ألف جنيه في العام فى مدى خمس سنوات إذا عمل جراحا .

وشرح مارتن كل هذا للورا — الجراحة، والدراما ، والأعصاب الجريئة ، والمساعدين المعجبين وإنقاذ الحياة ، واستخدام العلوم فى ابتكار طرق جديدة ، وتكوين الأموال — على ألا يكون تجاريا طبعا ، بل يعمل على تهيئة الراحة للورا وذهابهما إلى أوروبا معاً ، وإلى لندن ومقاهى فينا . وكانت لورا أثناء خطابته هذه معاونة له ، فوافقت بلا تردد . وفى المساء الثانى عندما أراد أن يثبت أن الطب كله عبث . . وأن الطبيب الجراح ما هو إلا نجار ماهر . . . . وافقته على ذلك أيضاً بارتياح أكثر من ذى قبل .

وكان أراهنكلى قد حدد مستقبله ، بعد أنجوس ديور ، إذ اختار مجال الطب فى البعثات التبشيرية . أما فاتى بفاف فكان أول من اكتشف ماذا سيكون عليه المستقبل . كان قد اعتزم أن يكون طبيب ولادة ، أو كما يسمونه طلبة الطب فنيا « بخاطف الأطفال » إذ كان لفاتى روح العطف على النساء فى تأوهاتهن المؤلمة كان يعطف عليهن بحق ، وتكاد الدموع تذرف من عينيه . . كان رائعاً فى جلوسه بهدوء يتناول الشاى منتظراً وفى أثناء أول حالة ولادة ، عندما كان الطالب الذى يعمل معه أوشك أن تثور أعصابه وهما متبلبلا الخاطر إلى جوار الفراش فى عزلة فى حجرة المستشفى . . كان فاتى مرتعبا يتمنى أكثر مما كان يتمنى فى حياته الماضية أن يريح تلك المرأة المجهولة ذات الوجه الشاحب التى تتقلص بين أيديهم ، كان يتمنى أن ينقل الألم الذى تكابده إلى نفسه . وبينما كان الآخرون يدفعون غالباً بالصدفة وأحياناً عن طريق أقاربهم إلى فئاتهم المختلفة ، كان مارتن يقف متشككا ، وكان معجباً بإصرار الدكتور العميد سيلفا على قيام الأطباء فوراً بخدمة البشرية . ولكنه لم ينس الساعات الرطبة المتقشفة التى كان يمضيها فى المعمل . وفى نهاية سنة الامتياز يصبح ضروريا أن يقرر الإنسان مصيره . وقد تأثر بالخطاب الذى ألقاه العميد سيلفا يلوم فيه كثرة التخصصات ، ومصوراً لهم

طبيب القرية اللطيف العجوز وقديسها ووالد الجميع الذى ينعم براحة البال تحت السماء الشاسعة والهدوء النفسى . وأهم من ذلك كله جاء خطاب هام من مستر توزر يطلب فيه من مارتن أن يقيم فى هويتسلفانيا .

كان من الواضح أن توزر يحب ابنته ويقدر مارتن بعض الشىء و كان يود أن يكونا إلى جواره ، فقال أن هويتسلفانيا « موطن عظيم وأهلها من المزارعين الذين هم من أصل دنماركى ، واسكندنافى ، وألمانى ، وبوهيمى يسددون فواتيرهم فى يسر ، و كان أقرب طبيب هو هسلينك فى جرونجن التى تبعد تسعة أميال ونصف وأمام هسلينك فرص أكثر مما يريد وأنهما إذا حضرا فسوف يساعد مارتن فى شراء معداته ، فضلا عن أنه سوف يرسل إليه من وقت لآخر شيئا أثناء فترة تدريبه لمدة عامين فى المستشفى وكان رأس مال مارتن قد تبددفعلا . . و كان هو وانجوس ديور قد عينا فى مستشفى زينيث العام حيث يتلقيان تدريباً رائعاً ولكن مستشفى زينيث العام لم تكن تعطى أطباءها غير المقيمين بها ، خلال العام الأول سوى الطعام والمأوى . وخشى ألا يعين بها إذا أثار عرض توزر . وظل طوال الليل هو ولورا يفكران فى حماس عن حرية الغرب وعن القلوب الرقيقة والأيدى الرحيمة للرواد والبطولات، وجدوى أطباء الريف. وعند ذلك انتهيا إلى قرار .

سوف يقيمان فى هويتسيلفانيا . وأنه وإن كان يتوق بعض الشىء إلى البحث وحب الاستطلاع المقدس الذى يتسم به جوتليب — حسنا ، فإنه سوف يكون طبيباً ريفياً مثل روبرت كوخ .

لن ينخفض مستواه فسوف يكون له معمل صغير خاص وأخيراً وصل إلى نهاية العام وتخرج وهو يبدو مضطرباً فى زيه الجامعى الرسمى. وكان أنجوس ترتيبه الأول ومارتن ترتيبه السابع بين زملائه وقام بوداعه فى أسى وحزن عميق . . وعثر على حجرة للورا أكثر قرباً من المستشفى وظهر اسمه : مارتن ل. أروسميث بكالوريوس طب ، طبيب بمستشفى زينيث العام .

الفصل الحادى عشر

اشتعلت النيران فى مصنع بوردمان بوكس واجتاحت جنوب زينيث موجة من الفزع إذ اندلعت ألسنة النيران فى السماء وسط السحب المنخفضة ، وانتشرت رائحة الخشب المحترق ودوى رنين أجراس عربات الإطفاء . . وأصبحت المنازل الخشبية التى تبعد بضعة أميال شرق المصنع تهددها النيران . . واندفعت النساء وقد التففن بالشيلان ، والرجال فى سراويلهم التى ارتدوها فوق ثياب نومهم تاركين فراشهم مسرعين فى الشوارع التى لفحها هواء الليل القارس .

أخذ رجال الإطفاء فى هدوئهم الذى تمرسوا عليه ، وقد ارتدوا خوذاتهم ، يديرون آلات الإطفاء بينما انتشر رجال الشرطة أمام جموع الناس يواجهون ضغطهم ومضوا يلوحون بعصيهم وهم يصيحون قائلين : « ابتعدوا أيها الناس ! » وكان خط النار يثير الرهبة و لم يسمح بالاقتراب منه إلا لصاحب المصنع ومراسلى الصحف وتصدى جاويش الشرطة لأحد عمال المصنع الذى كاد يجن جنونه وهو يصيح : « إن معداتى هناك داخل المصنع » .

فأجابه الجاويش الذى يسير مختالا :«هذا لايهم ! إن أحداً لايستطيع أن يدخل إلى هنا » .

بيد أن واحداً فقط هو الذى سمح له بالدخول ، فقد سمعت دقات جرس عربة الإسعاف مسرعة ومتواصلة عنيفة مزعجة ، واخترقت الصفوف سيارة رمادية ضخمة. وفى المقعد الخلفى الصغير كان يجلس الدكتور مارتن اروسمث تبدو عليه مظاهر العظمة .

وقد أثار مظهره إعجاب الجماهير المحتشدة وهرع رجال الشرطة يستقبلونه .

وصاح قائلا « أين رجل الإطفاء المصاب ؟ »

فصاح الجاويش قائلا وهو يجرى بجوار سيارة الإسعاف: « هناك فى تلك الحظيرة »

وقال مارتن للسائق « تقدم ولا تهتم بالدخان . »

واصطحبه قائد المطافىء إلى كومة من نشارة الخشب حيث كان يتمدد شاب فاقد الوعى وقد شحب وجهه .

وقال قائد المطافى متوسلا : « لقد استنشق كمية من الدخان . ياله من فتى رفيع الخلال . هل حياته مهددة ؟ »

وركع مارتن إلى جوار الرجل وجس نبضه وأنصت إلى تنفسه ثم فتح بسرعة حقيبة سوداء وأعطاه حقنة استركنين تحت الجلد ، ورفع زجاجة من النشادر تحت أنفه ثم قال « انه سيفيق فوراً . أحضروا عربة الإسعاف بسرعة ! »

وقفز الجايش والخفير التدرب حديثاً سويا وقالا « سمعاً يادكتور » .

ثم جاء إلى مارتن المحرر الرئيسى لصحيفة الأدفوكيت تايمز ، وهو شاب فى التاسعة والعشرين من عمره ، بيد أنه كان يبدو أكبر إنسان وأكثر الناس سخرية فى العالم إذ أخذ أحاديث صحفية من أعضاء مجلس الشيوخ ، عدا مغامراته الصحفية العديدة . وكانت تعلو عيناه تجاعيد بديعة ، وهو يدخن دائماً سجاير بول دي‌رهام . وكانت له آراؤه فى أمانة الرجال وفضائل النساء ، إذ يعتبرها جميعاً منحطة ومع ذلك فإن سلوكه مع مارتن أو بمعنى آخر مع الطبيب كان سلوكا مهذباً وقال .

« هل سيشفى يادكتور ؟ »

« من المؤكد ، أعتقد ذلك ، انه اختناق ، والقلب مازال ينبض » .

قال مارتن كلماته وهو على درجة السيارة الخلفية ، بينما كانت تسير مهتزة تترجرج فى فناء المصنع مخترقة عباب الدخان ومتجهة نحو الجماهير المحتشدة .

كان يهيمن على المدينة ويملك زمام أمورها هو والسائق فكانا يتجاهلان أشارات المرور وقواعده ويحتقران الناس العائدين من المسارح ودور السينما الذين

يسدون الشوارع أمام السيارة الرمادية المندفعة . . ثم يفسحون الطريق . وكان ضابط المرور فى منطقة شيكاسو وتوينتيث قد سمعهما مقبلين مندفعين بالسيارة مسرعين كقطار منتصف الليل السريع محدثين أصواتاً مدوية من ناقوس العربة . . وكان الناس يهرعون إلى أرصفة الشوارع هاربين من الخيول الثائرة والسيارات التى تفسح الطريق حيث تندفع سيارة الإسعاف برنينها العالى وبها الطبيب جالساً يهتز بارتياح فى مقعده الخطير .

وفى المستشفى قال موظف الاستقبال « هناك حالة إطلاق رصاص فى التعريشة يادكتور » .

فقال مارتن ببرود « حسنا انتظر حتى أحتسى شرابا » .

وفى طريقه إلى حجرته وقع نظره على باب معمل المستشفى مفتوحا بينكه المفككك وصفوف القوارير وزجاجات الاختبار فى صفوف خلت من الحيوية .

فقال : هاه ! هذا الشىء ! ضياع العمر سدى حول المعامل . هذه حياة حقيقية أكيدة » . وقد ابتهجت نفسه ولم يكلفها عناء تخيل شبح ماكس جوتليب وهو يقف هناك ضامرا منهكا صبوراً .

— ٢ —

كان يعيش النواب الستة فى مستشفى زينيث العام بما فيهم مارتن وأنجوس ديور فى حجرة مظلمة طويلة بها ستة أسرة وستة مكاتب بها صور وأربطة عنق وجوارب تحتاج إلى رفى . وكانوا يمضون ساعات جالسين على أسرتهم يتناقشون فى شئون الجراحة والطب الباطنى ، ويفكرون فى وجباتهم التى يعدونها لليالى التى يمضونها خارج المستشفى ، ويشرحون لمارتن باعتباره الوحيد بينهم من المتزوجين أوجه الفضائل فى الممرضات العديدات اللواتى وقعن فى هواهن .

اكتشف مارتن أن الحياة اليومية فى المستشفى صارت كئيبة . وبالرغم من

أنه استطاع أن يغير فى طريقة سير النائب بخطواته السريعة فى الردهة والسماعة بارزة من جيبه فإنه لم يستطع أن يغير من كيفية معيشته على الفراش ، وكان يؤلمه المرضى الذين يتقلصون مما يقاسونه ، ولكنه حينما كان يضمد الجراح ثلاث مرات كان فى ذلك الكفاية وأراد أن يخرج إلى تجارب جديدة . وكانت مهمته فى سيارة الإسعاف خارج المستشفى تبعث فى نفسه الشعور بالفخر .

إن الطبيب ! الطبيب وحده فقط هو الذى يستطيع أن يضمن الأمن فى الأوساط الشعبية . وكانت حقيبته السوداء بمثابة جواز مرور له ، فكان رجال الشرطة يحيونه والعاهرات ينحنون أزاءه دون مكر أو التواء وأصحاب الصالونات يحيونه بقولهم « مساء الخير يا دكتور » وكان الناس المكلفين بحفظ النظام يفسحون له الطريق .

وأخذ مارتن يشعر بسلطانه وقوته لأول مرة فى حياته ومضى ينتقل فى سلسلة متصلة من المغامرات .

فقد أنقذ مدير أحد البنوك من الغرق وساعد أسرة فى إخفاء عار . ورفض متبرما قبول رشوة ، وعندما تذكر بعدئذ كيف تناول الطعام مع لورا ندم على رفضه الرشوة .

واقتحم حجرات أحد الفنادق وأنقذ بعض نزلائه من الموت انتحاراً بالغاز وشرب الروم مع أحد أعضاء الكونجرس الذى كان ينادى بتحريم الخمور ، وعالج رجل شرطة هاجمه بعض المضربين كما عالج أحد المضربين الذين هاجمهم رجال البوليس . وساهم فى عملية إنقاذ من اضطراب معوى فى الساعة الثالثة صباحا . وكانت حجرة العمليات ذات الجدران القيشانى البيضاء والزجاج اللامع الحاجب لضوء السماء — كانت تبدو مخططة بالجليد المتوهج وكانت الأنوار الساطعة تلقى أضواءها على صناديق المعدات الزجاجية والمباضع القاسية الصغيرة ، وكان الطبيب فى ردائه الأبيض وعمامته البيضاء وقفازه ذى اللون البرتقالى الشاحب المصنوع من المطاط يجرى قطعاً سريعاً فى اللحم الأصفر المربع الذى تحوطه المناشف ، وهو يتعمق فى طبقة من الدهن .

ومضى مارتن ينظر بدون تأثر إلى السم وهو يندفع من القطع مهدداً . وبعد ذلك بشهر أثناء فيضان نهر كالوزا كان مارتن يعمل لمدة ستة وسبعون ساعة ولا ينام سوى نصف ساعة إما فى سيارة الأسعاف أو على منضدة مركز الشرطة . ولقد انتقل بالقارب إلى ما كان طليقا ثانيا من مسكن وأنقذ طفلا فى الطابق العلوى وأخذ يضمد أذرع ورؤوس طابور من الرجال ، ولكن الحدث الذى أعطاه الشهرة والمجد كان التهور فى السباحة وسط الفيضان لإنقاذ خمسة أطفال واجفين ، مرتعدين فى إحدى الكنائس . وقد نوه الصحفيون بأعماله البطولية بعناوين ضخمة فى صحفهم .

وعندما عاد إلى لورا ليقبلها وينام إثنى عشرة ساعة تمدد راقداً وهو يفكر فى الأبحاث .

وقال الدكتور أروسميث يخاطب مارتن فى شىء من الازدراء والسخرية : « بودى لو أرى جوتليب ذلك المزعج العجوز غير العملى يسبح ضد هذا التيار ».

بيد أنه فى النوبات الليلية بمفرده كان عليه أن يواجه النفس التى كان يخشى أن يكشف عنها ، كانت نفسه تحن إلى المعمل ، وإلى الإثارة التى تسببها الاكتشافات والبحث عما وراء الظاهر وما خلف الحاضر ، البحث عن أسس وقوانين جوهرية (مهما استخدم العالم فى وصفها من ألفاظ السباب بالعامية) فإنه يعظمها أمام الشفاء العاجل ، كما يعظم المتدين بمجد الطبيعة ومجد الآلهه العالى ويسمو بها فوق فضائل الحياة وملذاتها اليومية . وبهذا الحزن كان يسوده شعور بالتخلف عن الأمور ويسبق الآخرين الذين هم على علم أكيد بالفن ودراية واسعة بظواهر الكيمياء الحيوية ، ولهم القدرة على تفسير القوانين التى تعرض لها السابقون من الرواد وأشاروا إليها .

وفى العام التالى من فترة الامتياز ، عندما كانت ، آثار الحرائق والفيضانات والقتل قد صارت روتينا واضحاً كالكتب والمذاكرة ، وعندما شاهد الطرق العجيبة المختلفة التى يحاول بها البشر أن يصيبوا أنفسهم ويقتل أحدهم الآخر ، وعندما

صارت الرغبة فى الحياة الاسعتراضية فى سبيلها إلى الزوال ، حاول الدكتور مارتن أن يشبع أو ربما يقتل رغبته العلمية الشديدة بالتطوع للبحث فى معمل المستشفى لتحليل كرات الدم فى حالات الأنيميا الخطيرة .

وفى غمرة العمليات بدأ يتصور حياة المعمل .

وقال للورا « إنه من الأفضل أن أكف عن ذلك إذا كنت سأقيم فى هويتسلفانيا وأعمل هناك وأكسب عيشى فيها — وأن من المؤكد سوف أفعل ذلك .

غالباً ما كان العميد سيلفا يحضر للمستشفى للاستشارات ، وفى ذات مساء كان يمر بالردهة وكانت لورا قد عادت من المكتب الذى تعمل فيه موظفة اختزال لتقابل مارتن على العشاء . وقام مارتن بتقديم كل منهما للاخر ، فأمسك العميد سيلفا بيد لورا وقال « هل أنال الشرف يا أولادى بدعوتكم لتناول العشاء معى ؟ لقد هجرتنى زوجتى وأنا وحدى الآن وعدواً للبشر . »

وسار بينهما سعيداً فى خطوات متزنة، ولم يكن مارتن وهو طالب ومدرس، ولكنهما الآن طبيبان معاً ، إذ أن العميد سيلفا كان من الأساتذة الذين لا يريدون أن يتعالوا على أحد - اصطحبهم إلى محل للشواء وقدم لهما أوزا مشويا وأقداحا من الجعة .

ومضى يركز اهتمامه على لورا ولكنه كان يحدثها عن مارتن .

« ان زوجك حكيم فنان وليس كعامة الأطباء ورجال المعامل الآخرين الباحثين عن التفاهات . »

وقال مارتن بإصرار : « ولكن جوتليب ليس كعامة الأطباء الباحثين عن التفاهات . »

« كلا ، ولكن فيما يتصل به — أنه كاختلاف الآلهة بالنسبة لشخص عن

آخر ، فآلهة جوتليب ساخرة ، محطمة كالجلادين فى ملابس سوداء ، ويسميهم العامة ديدرو وفولتير وايلسر : عظماء صناع معجزات ، ومع ذاك فانهم أناس لديهم مواهب فكهة يقضون بها على نظريات الآخرين أكثر مما يتبكرون بها نظرياتهم . ولكن آلهتى الآن هم الرجال الذين يأخذون اكتشافات آلهة جوتليب ويحولونها إلى خدمة البشرية — ويعيدونها إلى الحياة !

« إن الجميع يدينيون بالفضل لأولئك الذين اخترعوا الطلاء ، والقماش ، ولكن هناك فضل أكبر ، للفنان الرسام رفائيل وهولبينز اللذين استخدما هذين الاكتشافين حق استخدامه بما قدماه من الروائع الفنية . وكذلك الحال بالنسبة للانك وأوسلر ، وياهم من رجال ! انه لشىء بديع رائع . . كل تلك الأبحاث العلمية الخالية من الشوائب .

البحث عن الحقيقة دون الالتفات أو التقيد بالروح التجارية والمساومة ، باحثين فى الأعماق ، متجاهلين النتائج والفوائد المادية . ولكن هل تدرك أنك إذا تماديت فى هذه الفكرة فإن الإنسان يسمح لنفسه ألا يفعل شيئاً سوى أن يعد أحجار طريق ورهاوس . . أجل وأن يبيح لنفسه أن يقوم بتعذيب الناس لمجرد أن يرى كيف يصرخون . . ثم يسخر بعد ذلك من رجل يحقق الخير لملايين البشر ويسعدهم !

« كلا . . كلا ! يامسز أروسميث ان هذا الفتى مارتن إنسان عاطفى وليس من الكاذبين . انه يجب أن يكون إنسانا عاطفياً من أجل البشرية . لقد أختار أعلى وظيفة فى العالم ، ولكنه شيطان تجريبي فاشل ، فيجب أن تحرصى عليه ياعزيزتى ولا تجعلى العالم يفقد عاطفته . »

وبعد ذلك اصطحبهما العميد سليفا الى كوميديا موسيقية وجلس بينهما وهو يربت علي كتف مارتن ويربت علي ذراع لورا وقد غمرته البهجة عندماوقع الممثل

الكوميدى فى دلو مملوء بالطلاء الأبيض وعند منتصف الليل انطلق لسانا مارتن ولورا بترديد محبتهما له . وبدت لهما مغامرتهما بالتوجه إلى هويتسلفانيا عملا مجيداً فى سبيل إنقاذ وتخفيف الآلام .

وقبل انتهاء فترة الامتياز ببضعة أيام وهجرة مارتن ولورا إلى شمال داكوتا التقيا فى الشارع بماكس جوتليب .

ولم يكن مارتن قد رآه منذ أكثر من عام ، ولم تكن لورا قد رأته فى حياتها وكان يبدو عليه القلق والمرض . وبينما كان مارتن متألماً لحاله محاولا أن يمر به ويومىء إليه بانحناء التحية توقف جوتليب وقال بروح طيبة « كيف أحوالك جميعاً يامارتن ؟ » ولكن عينيه كانتا تقول :

« لماذا لم تأت إلى على الإطلاق ؟ »

وتمتم الفتى بشىء ما ، ولم يقل شيئاً . . . وعندما سار جوتليب منحنياً وهو يتحرك كأنما يكابد ألما ، هفت نفس مارتن أن يجرى خلفه .

وكانت لورا تسأل « هل هذا هو البروفسور جوتليب الذى تتحدث عنه ؟ »

« أجل ... خبرنى ! ماهو الانطباع الذى تركه فى نفسك »

« لا أدرى .. ياساندى انه أعظم إنسان قابلته فى حياتى ، ولست أدرى كيف عرفت ، ولكنه إنسان عظيم . إن الدكتور سيلفا عطوف ، ولكن هذا رجل عظيم ! اننى أتمنى أن نراه مرة أخرى . إن هذا هو أول إنسان وقعت عليه عيناى لا أمانع فى أن أهجرك من أجله إذا كان يريدنى ،

انه ! ـ أوه ـ انه مثل السيف لا ، إنه فكر متحرك ـ اوه ياساندى ـ انه رائع أريد أن أبكى ، أود لو أمسح له حذاءه ! »

« ياالهى ! انه نفس الشيء الذى أريده ! » .

ولـكنه فى خضم مغادرة زينيث واضطراب السفر إلى هويتسلفانيا والتأهب للتجربة الجديدة والفخر والاعتزاز بأن يـكون طبيباً حراً نسى مارتن البروفسور جوتليب . وفى مروج داكوتا البهيجة فى أوائل شهـر يونيو حيث تنتشر بلابل الحقول الخضراء على كل أعمدة الأسوار بدأ مارتن عمله .

الفصل الثانى عشر

كان جوتليب فى اللحظة التى التقى فيها بمارتن فى الطريق قد تحطم .

كان ماكس ألمانياً ولد فى ساكسونى عام ١٨٥٠ وبالرغم من أنه حصل على أجازة الطب ، من هيدلبرج فإنه لم يكن يرغب فى أن يزاول مهنة الطب ، إذ كان من أتباع هلمهولتز ، وقد أقنعته الأبحاث الحديثة فى الطب بالحاجة إلى الطريقة الكمية فى العلوم الطبية ، ودفعته اكتشافات كوخ إلى علم الأحياء . كان دائما حاذقا دقيقا ، مدونا للصفوف من الأرقام ، مدركا دائماً لوجود أنواع لا يمكن تحديدها ، مهاجما نافعاً لكل ما يعتبره تباطؤ أو كذب أو تهريج ، غير عطوف على البلاهة التى تصدر عن حسن نية . كان يجرى أبحاثه فى معامل كوخ وباستير وحذا حذو منهج بيرسون فى البيومترية . وكان يشرب البيرة ويكتب مذكراته العلمية ، ويقوم برحلات إلى إيطاليا وإنجلترا واسكندناوه . وبطريقة عرضية ، فى مدى يومين ، تزوج (كما لو كان يشترى معطفاً أو يستأجر مديرة لشئون المنزل) من ابنة تاجر وثنى ، وهى فتاة صبورة صامتة .

ثم بدأ سلسلة من الأبحاث الهامة للغاية ، غير الرنانة الأسماء ، المضنية ، والتى لا يقدرها إنسان على الإطلاق . وفى عام ١٨٨١ كان يؤكد نتائج باستير فى تطعيم الدجاج ضد الكوليرا . وعلى سبيل التسلية كان يحاول فصل خميرة الهضم عن الخميرة البيرة . وبعد ذلك بأعوام قليلة أخذ يعيش على ما ورثه من أبيه وكان مصرفيا صغيراً . ومضى يكد فى تحليل إحدى النظريات المتصلة بالمرض ، ويبحث جهاز تخفيف التسمم الميكروبى وحقق ذلك له شيئاً من الشهرة ، وربما كان مبالغاً فى حرصه وكان يكره أكثر ما يكره أولئك الذين يندفعون فى النشر بدون سابق إعداد .

وبالرغم من أنه لم يكن له تدخل كبير فى شئون السياسة باعتبارها نشاطاً

ضخم الرنين . قليلة الجدوى العلمية ، إلا أنه كان ألمانياً وطنياً صميما بحيث يكره اليونكرز[1] . وعندما كان لا يزال شابا دخل فى عراك مرة أو مرتان مع بعض الضباط المشاكسين وأمضى ذات مرة أسبوعا فى السجن إذ ثارت ثورته للتفرقة الدينية . وعندما كان لا يزال فى الأربعين من عمره رحل كسير القلب إلى أمريكا حيث تخلو من روح تأييد الحرب — إلى معمل هوجلاند فى بروكلين ثم إلى جامعة كورن سيتى حيث عمل بها أستاذاً لعلم البكتريولوجى . وهناك أجرى أبحاثه الأولى عن التسمم وردود الفعل المضادة له ، وأذاع أن الأجسامَ المضادة ؛ باستثناء المضادة للتسمم ، ليس لها علاقة بحالة مناعة الحيوان . ولما كان هو نفسه يواجه استياء شديداً فى عالم العلوم الصغير المحموم فقد تناول بهدوء وحيوية كبرى نظريات يارسن ومارمورك . الخاصة بالأمصال . وقد كانت أمنيته الكبرى فى الحاضر والمستقبل الملىء بالأبحاث المضنية هو الإنتاج الصناعى للأمصال المضادة للتسمم . وفى ذات مرة استعد لنشر أبحاثه ، ولكنه اكتشف خطأ ما فأوقف مذكراته ولم ينشرها . وكان يمضى الوقت دائما وحيداً . ولم يكن أحد من كورن سيتى يعتبره أكثر من يهودى غير مأمون ، يمسك الميكروبات من ذيولها الصغيرة ويحملق فيها . وفى عام ١٨٩٩ انتدبته جامعة ويناك ليعمل بها كأستاذ للبكتريولوجى فى مدرسة الطب وظل بها قرابة إثنى عشر عاما . ولم يكن يتحدث عن نتائج من ذلك النوع الذى يسمى (عمليا) كما لم يتوقف عن البحث . وكان دائماً يثير بعض زملائه الذين كانوا يحترمونه فى الظاهر ويستاءون لنفوذه التهكمى ، ولكنهم كانوا يسعدون عندما يدعونه كناقد متشائم هدام ، عالم ينقصه الوقار والحزم ، مفكر وضيع متعاظم ، يهودى مسالم ملحد فوضوى . وقد قالوا عنه بحق أنه يكرس كل جهده للعلم المحض والفن من أجل الفن إذ كان يفضل أن يموت الإنسان باستخدام المواد الطبية الصحيحة أفضل من أن يشفى بالعلاج الخاطىء .

---

(١) اسم يطلق فى ألمانيا على الشبان من الطبقة الأرستقراطية وطبقة الإقطاعيين بصفتهم ممثلين للحزب الرجعى فى السياسة الحديثة . (المراجع)

ولما كان قد شيد كعبة للبشرية فإنه أراد أن يطرد منها كل ما هو مجرد بشر وكانت مجموعة أوراقه ومذكراته فى مملكة العلوم ، التى كان ينشر فيها المهرة الحقيقيون خمس مرات فى العام ، لم تكن تزيد على خمسة وعشرين صفحة خلال ثلاثين عاماً ، وقد صححت جميعها فى دقة وإتقان ، وروجعت بمعرفة أكبر النقاد المتشككين .

لقد راقه فى موهاليس إمكانيات العمل الواسعة والمساعدين الممتازين والأعداد التى لا حصر لها من القوارير ووفرة الخنازير الغينية ، والوفير من القردة ، ولكن الملل قد تسرب إلى نفسه بمواصلة التدريس ، وداخله الحزن لعدم توفر الأصدقاء المتفاهمين . وكان يظل طوال الوقت يبحث عن إنسان يتحدث إليه بدون حرص أو شك . كان يبدو بشراً عندما يفكر فى زهو الأطباء المتباهين رغم جهلهم ، والمخترعين الذين لم يكونوا سوى عمال أضفيت عليهم العظمة ، وكان يضايقه افتقاره إلى الشهرة فى أمريكا ، بل وفى موهاليس نفسها ، ولكنه كان يرى أن الشكوى ليست من صفات النبلاء . لم يكن قد تناول الطعام مرة مع « دوقة » ولم يكن قد تلقى جائزة أو تقابل مع العظماء أو أنتج شيئاً يستطيع العامة من الناس تقديره وفهمه ، كما أنه لم يكن قد خبر شيئاً منذ حبه وهو طالب فى المدرسة ، ذلك الذى قد يعتبره الناس الطيبون رومانتيكيا — كان فى الواقع عالماً أصيلا .

كان من أعظم المحسنين للبشرية . لن يكن هناك فى أى عصر أى مجهود يضع نهاية للاوبئة الفتاكة أو العدوى المنتشرة إلا ويكون قد تأثر بأبحاث جوتليب ، لأنه لم يكن الإنسان الذى اقتبس وصنف بدقة البكتريا فحسب بل بحث أيضاً عن كيماوياتها وقوانين وجودها والقضاء عليها والأسس الرئيسية التى لا زالت مغلقة الأسرار رغم تعاقب جيل من علماء البكتريولوجى الجادين .

ومع ذلك فإن أولئك الذين سموه (متشائماً) كانوا محقين ، إذ أن هذا الإنسان الذى سيصبح السبب فى تخفيض معدل العدوى بالأمراض إلى درجة الصفر تقريباً غالباً ما كان يتسرب الشك إلى نفسه فى إمكان تخفيض معدل العدوى على الإطلاق .

وقد فكر (وكان ذلك بعد مناقشة دولية وافقه فيها البعض واستنكرها الكثيرون) أن حوالى ستة أجيال تكاد تخلو من الأوبئة سوف تنجب سلالة تنخفض فيها نسبة الحصانة الطبيعية . وعندما يعم وباء ذريع يرتفع فجأة من درجة الصفر تقريباً ليشمل العالم كله فقد يقضى عليه تماماً ، حتى أن الإجراءات التى تتبع لإنقاذ الحياة التى وهب لها عبقريته قد تسبب فى النهاية دماراً مطبقاً للحياة البشرية بأكملها .

وفكر أنه إذا استطاع العلم والصحة العامة أن يقضيا على الأمراض الرئوية وغيرها من الأمراض الفتاكة فإنه من المؤكد أن العالم سيزدحم ازدحاماً شديداً بالسكان وسيصبح هذا العالم بجزرة تتراكم فيها لحوم البشر ، وأن الجمال والراحة والحكمة ستختفى جميعاً بين الزاحفين بقوة المجاعة بحثاً عن البقاء ومع ذلك فإن هذه التأملات جميعاً لم توقفه عن العمل فإذا كان عالم المستقبل سيصبح مزدحماً فإنه يمكن أن يعنى بأمر نفسه بواسطة تحديد النسل أو أى وسيلة أخرى وقد يكون ذلك مجدياً على حد تفكيره ومع ذلك فإن هذا الوميض الصغير من الأمل لم يكن مقنعاً بشكوكه الأخيرة لأنه كان يشك فى تقدم المواهب والعواطف وكان يشك أولاً وقبل كل شىء فى تفوق البشرية المقدسة على الكلاب المرحة والقطط الوسيمة والخيول البرية الفاسدة الملحدة وبينما أدعياء الطب وصانعوا الأدوية وبائعوا اللبان وكبار القساوسة يعيشون فى قصور ضخمة حيث الخدم ويخرجون فى سيارات ليموزين كان ماكس جوتليب يعيش فى كوخ مهدم وينتقل إلى معمله على دراجة مهشمة .

وكان جوتليب نفسه نادراً ما يعترض . . وكان منطقياً إلى حدما — عادة عندما كان يطلب الحرية وثمار العبودية الشعبية . وفى ذات مرة قال لمارتن « لماذا يجب أن يدفع العالم ثمناً لأداء ما أريد وما لا يريدون ؟ » .

لم يكن فى منزله سوى مقعد مريح واحد ، وكان على مكتبه خطابات طويلة وجدية وعاجلة جاءته من العظماء فى فرنسا وألمانيا والدانمرك ، ومن العلماء

الذين تقدرهم بريطانيا ومنحتهم ألقاباً سامية كتلك التى تمنحها لمقطرى المشروبات الروحية وصانعى السجاير وأصحاب الصحف المكشوفة ولكن الفقر منعه من أن يمضى أجازته الصيفية تحت شجر الجوز على شواطىء نهر الراين أو السين الهادىء بجوار مائدة ينتشر فوقها الخبز والجبن والخمر والكريز . هذه الطيبات البسيطة العتيقة المقدسة فى العالم كله .

— ٢ —

كانت زوجة جوتليب سيدة بدينة بطيئة الحركة هادئة وعندما أصبحت فى الستين من عمرها لم تكن قد تعلمت التخاطب باللغة الإنجليزية بسهولة وكانت لغتها الألمانية من نوع اللغة التى يتحدث بها بورجوازيو المدينة الصغيرة الذين يدفعون ديونهم ويستمتعون بالطعام فتحمر وجوههم ولولا أنه كان يشق فيها لنساها فى غمرة التفكير الطويل ، ولم يكن بالنسبة لها قاسياً أو ضجراً ، وقد كان يعتمد عليها فى تدبير شئون المنزل وتدفئة منامته العتيقة ولم تكن حالتها الصحية جيدة فقد كانت تعانى من سوء الهضم والغثيان ولكنها كانت تؤدى عملها ، وكانت دائماً تسمع قرقعة خفها فى أرجاء المنزل .

وكان لهما ثلاثة أطفال ولدوا جميعاً بعد أن جاوز جوتليب الثامنة والثلاثين من عمره وهم : مريم وهى أصغر الأطفال، ذات حيوية وتعرف قليلا على البيانو ، ولها غريزة يبتهوفن وتكره الموسيقى الذائعة الشائعة فى أمريكا أما أختها الكبرى فلم تكن لها مميزات خاصة . ولهما ابن يدعى روبرت — روبرت كوخ جوتليب وهو فتى مزعج وقد أرسلوه إلى المدرسة بالقرب من زينيث حيث يلتقى بأبناء أصحاب المصانع، وكان يميل إلى السيارات المسرعة والملابس العجيبة بينما لم تكن له ميول على الإطلاق نحو التحصيل . وفى المنزل كان يقول إن أباه (رجل بخيل) وعندما كان جوتليب يحاول أن يوضح له أنه رجل فقير كان يجيبه قائلا : إن فقره راجع إلى أنه ينفق نقوده خلسة على أبحاثه — وأنه لا يحق له أن يفعل ذلك ويخجل أبناءه — فلتمده الجامعة اللعينة بالمادة ! .

— ٣ —

كان القلة من طلبة جوتليب يعتبرونه ويعتبرون تعليمه لا شيء أكثر من عائق يجب تخطيه بأقصى سرعة ممكنة ، ومن هؤلاء القلائل كان مارتن أروسميث وبالرغم من أنه كان يظهر لمارتن أخطاءه بجفوة ويتجاهل بكبرياء تكريسه للعلم فإن جوتليب كان على معرفة بمارتن بقدر ما كان مارتن على معرفة به ، وكان يرسم خططاً واسعة المدى ، وإذا كان مارتن يرغب فى المساعدة (فإن جوتليب كان فى مقدوره أن يكون إنساناً متواضعاً بقدر ما هو أنانى ومنهمك فى المنافسات العلمية) فإنه كان يود أن يجعل حياة الفتى ملكا له . وفى خلال لحظات البحث الابتكارى لمارتن كان جوتليب يبتهج لرغبته فى هجر النظريات التقليدية — الملائمة — للحصانة ، وللاهتمام الجدى الذى كان يسجل به نتائجه . ولما صار مارتن لأسباب مجهولة مهملا وأصبح مدمناً للشراب بصورة واضحة اضطربت أموره الشخصية على نحو مروع ، وكان افتقار جوتليب المؤسف للأصدقاء واحترامه المتأجج للعمل الممتاز هو الذى دفعه إلى أن يزجر فى وجه مارتن ، ولم يكن لديه فكرة عن الاعتذار الذى طلبه سيلفا ، وإلا لثارت ثائرته .

لقد انتظر عودة مارتن وأوقع اللوم على نفسه قائلا : « أيها الأبله لقد كانت هناك روح طيبة ويجب أن تعلم أن الإنسان يستخدم ملعقة من البلاتين ليقلب بها لفحم » .

وبقدر ما كان يستطيع (بينما كان مارتن يندفع ويتجول فى القطارات بين مدن عجيبة) نفض من ذهنه تعيين مساعد جديد — ثم تحولت حيويته إلى غضب شديد ، واعتبر مارتن مارقاً ، فأقصاه عن ذهنه .

— ٤ —

أن من المحتمل أن يكون ماكس جوتليب عبقرياً ومن المؤكد أنه عبقرى مجنون كأى عبقرى آخر إذ فعل خـــلال فترة الامتياز التى أمضاها مارتن

فى مستشفى زينيث العام شيئاً بعيداً عن العقل وأكثر من أى خرافة كان يهزأ منها .

أراد أن يصبح منقذاً أو مصلحاً ! فإنه وهو الساخر الفوضوى حاول أن يؤسس معهداً كان يهدف به أن يصبح عاهلا ينظم جمعية لمنع الأطفال الصغار من تكلم الكلمات البذيئة .

ولقد أدرك أنه لكى تكون فى العالم مدرسة طبية يجب أن تكون علمية بحتة تتحكم فيها علوم الأحياء والكيمياء وتجاهل الجراحة وأدرك أكثر من ذلك أن مثل هذا المشروع قد تديره جامعة وينماك ، وحاول أن يتخذ فيه خطوات عملية ولقد كان عمليا للغاية ومقبولا فى ظاهره !

« أننى أعترف بأننا لانستطيع أن نخرج أطباء لعلاج الأمراض الباطنية فى الريف ، وأن الأطباء العاديين مثار إعجاب ، وضروريين للغاية — وذلك احتمال ولكن يوجد فعلا الكثيرون منهم . ومن الناحية العملية يتلقى الإنسان عشرين عاماً من الدراسة الطبية الدقيقة الواعية حتى يمكن أن يشفى أمراض البول السكرى والسل والسرطان وكل أدواء النقرس .. كل تلك التى يقف أمامها أدعياء الطب ويهزون رؤوسهم ويسمونها « روماتزم » هكذا ! »

ولم يكن يرغب فى إدارة مثل هذه المدرسة أو أى شىء من هذا القبيل ، فقد كانت له مشاغل كثيرة . ولكنه فى اجتماع أكاديمية العلوم الأمريكية ألتقى بالدكتور انتويسل عالم وظائف الأعضاء وهو شاب صغير من « هارفارد » يصلح لأن يكون عميداً ممتازاً . وأعجب به انتويسل واستطلع رغبته فى استدعائه إلى هارفارد .. وكان انتويسل متحمساً عندما شرح له جوتليب فكرة المدرسة الجديدة وقال « لا أحب شيئاً أكثر من أن تتاح لى فرصة فى مثل هذا المكان » وسعد بذلك ،وعاد جوتليب إلى موهاليس سعيداً بالنصر .وصار أكثر اطمئنانا إذ (بالرغم من أنه رفه بهاتى تهكم) عرض عليه فى ذلك الحين منصب عميد الطب فى جامعة

« وست تشيبوا » . وقد كان ساذجا فى تفكيره أو مخبولا عندما كتب الدكتور سيلفا يطلب إليه باحترام بأن يتنازل عن منصبه وأن — يسلم مدرسته — عمله — حياته — إلى مدرس مجهول فى هارفارد . وكان العميد سيلفا رجلاً مبجلاً ومن تلاميذ أوسلير الأفذاذ . ولكن هذا الخطاب اللامعقول قضى على صبره فأجاب بأنه وإن كان يرى أهمية الأبحاث الرئيسية فإن مدرسة الطب ملك لأهل المقاطعة وأن مهمتها تزويدهم بالعناية الفورية العملية .

وأما عن نفسه فقد أشار أنه إذا كان يعتقد أن المدرسة ستستفيد من استقالته فإنه لايمانع فى أن يغادرها فوراً بيدأنه يريد اقتراحا أشمل وأعمق من مجرد خطاب من أحد مرءوسيه !

فرد عليه جوتليب رداً بذيئاً دون تبصر فوجه اللعنة إلى أهالى مقاطعة وينماك قائلا هل هم فى حالتهم الحاضرة يستحقون أية عناية ؟ وبدون وجه حق عرض أمر سليفا على الوطنى الخطيب العظيم الدكتور «هوراس جريلى تروسكت» مدير الجامعة . وقال الرئيس تروسكت « فى الواقع أنه لايستطيع أن يبت فى مشروعات خيالية مهما بلغت من عبقرية » فعلق جوتليب على ذلك قائلا « انك مشغول جداً للبت فى أى شىء سوى بيع شهادات فخرية لأصحاب الملايين لإنشاء ملاعب رياضية » .

وفى اليوم الثانى استدعى لاجتماع خاص لمجلس الجامعة . وقد كان جوتليب باعتباره رئيس القسم الطبي للبكتريولوجى عضواً بهذه الهيئة الحاكمة . وعندما دخل قاعة المجلس الطويلة بسقفها اللامع وستائرها الفخمة الثقيلة ولوحاتها الزيتية للرواد من العلماء أتجه نحو مقعده الذى اعتاد أن يجلس فيه وهو لا يدرك مدار همس أعضاء المجلس بينما هو سارح بفكره فى تأمل الأشياء .

وقال الرئيس تروسكت « يابروفسور جوتليب ألا تتفضل بأن تجلس هناك فى الطرف الآخر من المنضدة؟ »

وعند ذلك أدرك جوتليب الأزمة ورأى أنه من بين الأعضاء السبعة لمجلس الحكام أربعة منهم ممن يعيشون فى زينيث أو بالقرب منها قد حضروا الاجتماع . ورأى أن رئيس القسم الأكاديمى لم يكن يجلس إلى جوار تروسكت بل كان بدلا منه العميد سيلفا . ورأى أنه بالرغم من أنهم كانوا يتبادلون الحديث ببساطة كانوا ينظرون إليه أثناء انشغالهم بالحديث وقد أعلن الرئيس تروسكت قائلا :

« حضرات السادة . . إن هذا الاجتماع المشترك لمجلس الجامعة ومجلس الحكام عقد للنظر فى الاتهامات الموجهة إلى البروفسور ماكس جوتليب التى قدمها عميده وأنا » .

وبدا جوتليب وكأنه هرم فجأة :

« هذه الاتهامات هى عدم الوفاء نحو عميده ورئيسه وحكامه ومقاطعة وينهاك — عدم احترامه للبروتوكول الطبى والدراسى المعترف به ، الأنانية اللامعقولة والإلحاد وعدم القدرة الأكيدة على التعاون مع زملائه وأدراك الأمور العملية حتى أننا نجد من الخطورة أن تترك له إدارة المعامل الرئيسية والفصول التى عهدنا بها إليه . أيها السادة سوف أبرهن لكم على كل من هذه النقاط من رسائل البروفوسور جوتليب إلى العميد سيلفا . »

وبرهن بالفعل على صحه هذه النقاط .

وقال رئيس مجلس الحكام « ياسيد جوتليب ، لعله من الأفضل وتبسيطاً للأمور أن تتقدم لنا باستقالتك حتى نفترق بروح طيبة بدلا من التعرض إلى الوسائل غير الطيبة » .

« علىّ اللعنة إذا تقدمت باستقالتى » قال جوتليب تلك العبارة وقد وقف على قدميه واشتد غضبه واستدرك قائلا : « لأنكم جميعاً ليست

لديكم عقول الدارسين الواعين الكاملة فإنكم تتلاعبون بألفاظى الدقيقة التى تعبر عن مثالية ثورية سليمة التى هى ليست بالنسبه لى شخصياً ذات فائدة أو ميزة مهما كانت ، ثم تحولونها إلى رغبة فى اقتناص السلطة — هذا هو حكم البلهاء على الأشراف .. ! »

وقد كان إصبعـــه السبابة أشبه بالسهم المسدد إلى روح الرئيس تروسكت:

« لا ! سوف لا أستقيل ويمكن أن تطردونى . » وقال الرئيس وقد أصبح أكثر غضباً ، وهو رجل ضخم قوى سريع الغضب :

« إننا نخشى الآن أن نضطر لأن نطلب منك أن تغادر الحجرة حتى ندلى بأصواتنا » وركب جوتليب دراجته متجهاً نحو العمل فأبلغته سكرتيرة مكتب الرئيس بإشارة تليفونية أن المجلس وافق على إقالته .

وقد تألمت نفسه قائلا « يفصلوننى ! . . إنهم لا يستطيعون . . إننى الفخر الرئيسى إننى الفخر الوحيد لمدرسة هؤلاء البدالين » وعندما أدرك أنهم فصلوه كان خجولا من أنه أعطاهم الفرصة لطرده ، ولكن الشىء المسىء الحقيقى هو أنه بجهوده ليصبح سياسياً قد أعاق العمل المقدس فطلب السلم والعمل فوراً .

إنهم سيدركون كم كانوا بلهاء عندما يسمعون أن جامعة هارڤارد قد استدعته . إنه كان تواقاً إلى النظم الأفضل فى كمبردج وبوسطن ـ فلماذا ظل طويلا فى موهاليس الناقصة الدراية ؟ وما لبث أن كتب إلى الدكتور انتويسل رسالة يشير فيها أنه على استعداد لتلقى عرضا للعمل وأخذ يتوقع برقية وانتظر أسبوعا ثم جاءه خطاب مطول من انتويسل يقول له فيه إنه كان مندفعاً فى حديثه عن كلية هارڤارد ، وأن انتويسل يقدم له تحيات الكلية وأنها تأمل يوماً ما بأن تتشرف بحضوره .

وبينما كان الحال كذلك كتب جوتليب إلى جامعة وستشيبوا يقول إنه أولا وقبل كل شىء على استعداد لأن يفكر فى أمر عمادة كلية الطب . . وقد جاءه رد يفيد بأن المكان غير شاغر وأنهم لم يستسيغوا لهجة خطابه السابق ولا يهتمون بالتحدث فى الموضوع أكثر من ذلك .

ولما كان جوتليب قد بلغ الواحدة والستين من عمره ، ولم يكن قد ادخر سوى بضع مئات من الدولارات — وشأنه شأن أى إنسان يترك عمله كان لابد أن يجد لنفسه وظيفة أو يموت جوعاً ، ولم يعد بعد عبقرياً بل أمسى فارغ الصبر مجرد مدرس رث متعطل يتخبط فى الهوان .

وأخذ يتجول فى أنحاء منزله الصغير يقلب أوراقه وينظر إلى زوجته ويتأمل صوره القديمة ، ويحملق فى الفضاء وكان قد بقى له شهر واحد فى التدريس — فقد حددوا موعد استقالته عندما كتبوا له يبلغونه الأمر ، ولكنه كان محطم النفس حتى أنه لم يعد يذهب إلى العمل وشعر أنه لم يعد هناك حاجة إليه وأنه لم يعد آمناً فى حياته . وتحولت ثقته القديمة بنفسه إلى عطف عليها ومضى ينتظر معاونة تأتيه بالبريد ومن المؤكد أن هناك إنسانا سوف يقدم إليه معونة ، إنسان كان يعرف ما كان عليه ذلك الرجل وماذا يعنى . كانت تأتيه خطابات ودية كثيرة عن الأبحاث ولكن أولئك الذين كانوا يراسلونه لم يكونوا ينصتون إلى الثرثرة الخاصة بما يجرى داخل الكلية ولم يكونوا يعرفون شيئاً عن حاجته .

ولم يستطع بعد فقدان الفرصة فى هارفارد وما ناله من توبيخ بشأن وست تشيبوا أن يقترب من الجامعات أو المعاهد العلمية وأبت نفسه أن يكتب خطابات يطلب فيها العون والإحسان من أولئك الذين كانوا يحترمونه . لا إنه سيكون رجلا عملياً ، فكتب طلباً إلى متعهد للمدرسين فى شيكاغو ، فتلقى رداً يعد فيه بالبحث ويستفسر ما إذا كان يود أن يشغل منصب مدرس الطبيعة والكيمياء فى إحدى المدارس الثانوية بالضواحى وقبل أن يفيق من غضبه الشديد ويصير قادراً على أن يجيب — انقلبت شئون منزله بما أصاب زوجته فجأة — لقد ساءت حالتها لمدة شهور ، وطلب إليها أن تعرض نفسها على أحد الأطباء ولكنها رفضت وظلت طول الوقت فريسة الخوف من أنها تعانى سرطاناً فى المعدة وعندما بدأت تتقيأ دماً أخذت تصرخ طالبة منه العون ولكن جوتليب الذى كان يعمل فى كلية الطب قد نسى كل ما يعرفه عن الأمراض وعندما يصبح مريضاً هو أو أسرته يستدعى أطباء

شأنه شأن أى إنسان عادى يرى أن المرض لعنة جاءته من شيطان مجهول وبساطة لا معقولة رأى أنه نظراً لأن خلافه مع سيلفا لم يكن أمراً شخصياً فإنه يمكن أن يستدعيه وفى تلك المرة لبى سيلفا دعوته وحضر وقد امتلأ رحمة وشفقة وقال لنفسه « إنه عندما يصاب بشىء لا يهرع إلى أرنيس أو جاك ليوب ولكن إليه » .

وأعاد الرجل الصغير الحجم ، إلى المنزل الصغير المتواضع ، أسباب الطمأنينة وتطلع جوتليب إليه محملقاً فى ثقة .

كانت السيدة جوتليب تعانى من الألم فأعطاها سيلفا حقنة مورفين ، وفى أسى علم أن جوتليب لم يكن ليعرف حتى مقدار الجرعه . . وفحصها — وكانت يده المكتنزة تتمتع بنفس الحساسية ، إن لم تكن الدقة التامة التى تتمتع به أصابع جوتليب الضامرة ، وأخذ يلقى بنظراته على حجرة النوم التى لا يدخلها الهواء والستائر الخضراء المعتمة والصليب ملقى على المكتب القديم وقد تسرب القلق إلى نفسه لما رآه أخيراً فى الحجرة وتذكر حجرة البدال الألمانى الذى كان قد رآه منذ شهر أثناء عيادته إياه .

وكان يتحدث إلى جوتليب ليس على أنه زميل أو عدو بل على أنه مريض يحتاج إلى الترفيه والمرح .

« لا تعتقد أن هناك ورم لأنه كما تعلم يادكتور ، يمكن أن تعرف ذلك بواسطة الاختلاف فى شكل الحافة السفلى من الضلوع — وبواسطة سطح البطن عند التنفس العميق » .

« أوه . . أجل »

« لا اعتقد أن هناك ما يجعلك قلقاً وبستحسن أن تنقلها بسرعه إلى مستشفى الجامعة وسوف نعطيها وجبات اختباريه ونفحصها بأشعه إكس » .

ونقلت وهم يحملونها فى ثقل وفتور فوق درجات سلم الكوخ ومعها جوتليب ولم يكن يمكن معرفة ما إذا كان يحبها أم إذا كان قادراً على الحب العادى الأليف

أم لا . وأن التجائه إلى العميد سيلفا قد حطم رأيه فى حكمته الذاتية ، وأن الإهانة الأخيرة كانت أقوى وأعمق من التعهد الذى قدم له عرضاً بتعليم الكيمياء للأطفال ، وبينما كان يجلس إلى جوارها على السرير كان وجهه عابساً شاحباً والتجاعيد العميقة البادية عليه ربما كانت تنم عن الأسى والحزن وربما كانت تدل على الفزع والخوف ولم يعرف أيضاً كيف كان خلال السنوات الآمنه ينظر إلى صليب زوجته الذى لحه سيلفا على مكتبه وهو صليب مزخرف من الجبس على صندوق مزين بالصدف. وقد شخص سيلفا المرض بأنه من احتمال وجود قرحه معوية وضعها تحت العلاج مع تزويدها بوجبات خفيفة متفاوتة وتحسنت حالتها ولكنها ظلت فى المستشفى أسابيع وأخذ جوتليب يتساءل هل هؤلاء الأطباء يخدعوننا ؟ هـــل هو حقيقة سرطان يحاولون بوسائلهم الغامضة إخفاءه عنى أنا الذى لا أعرف شيئاً ؟

والآن وقد افتقد وجودها الصامت الذى طالما اعتمد عليه ليلة بعد ليلة كان يصب جام غضبه على ابنتيه ، وفرغ صبره من ضوضائهما أثناء عزفهما على البيانو وعدم قدرتهما على توجيه الخادمة . جلس وحده عندما مضى أبناءه إلى مخادعهم فى ضوء المصباح الخافت بلا حراك ودون أن يقرأ . وجلس مشدوهاً إذ كانت نفسه العالية مثل اللص الشريف الذى وقع فى أيدى العبيد العصاة . وقد ناء بعبثه الثقيل وأخذت عينه الفخورة يتألق فيها اليأس وقد وقع من يده مقبض السيف وتزاحم الذباب من حول سيفه الدامى . . كانت تلك هى اللحظة التى قابله فيها مارتن ولورا فى الشارع فى زينيث . ولم يدر رأسه إلى الخلف عندما مروا به ، بيد أنه ظل طوال النهار من بعد الظهيرة يفكر فيهما ، ويقول :

« هذه الفتاة ربما تكون هى التى سلبت منى مارتن ...من العلم !لا ! إنه كان على حق — ان الإنسان يرى الآن ماذا حدث للبلهاء من أمثالى ! »

وفى اليوم التالى رحل مارتن ولورا إلى هوبتسلفانيا وهما يهزجان بالغناء ، وتوجه جوتليب إلى شيكاغو ليقابل متعهد المدرسين — كانت الوكالة يديرها رجل كان يشرف فى يوم ما على مدارس الإقليم ولم يكن يهتم كثيراً بطلب جوتليب .

وفقد جوتليب التحكم فى أعصابه فقال له : « هل أنت تسعى لأن تجد وظائف لمدرسين أم أنك أرسلت خطاباً - وربما لتسلية نفسك ؟ هل تعرف شيئاً عنى ؟ هل تعرف من أنا ؟ »

رقال المتعهد : « أوه — اننا نعرفك فعلا ولم أكن أعرف عنك شيئاً عندما كتبت لك ولكن يبدو أن لك ماض حسن كرجل معمل بالرغم من أننى لا أرى أنك قد أنتجت شيئاً يستحق التقدير وذا نفع للطب ، ونأمل أن نتيح لك فرصة لم تتحقق لك ولا لأى أحد من قبلك. آن جون ادتوث رجل الأعمال قد قرر إنشاء جامعة يهيىء فيها تعليماً وتهذيباً وتربية تبز كل ما عرف من قبل فى مجال التعليم ، مزودة بأكبر ساحة للألعاب الرياضية فى العالم . . وكذلك للعبة الباسبول وأحسب أننا سوف نستفيد منك فى قسم البكتريولوجى أو الفسيولوجى وأحسب أن فى قدرتك أن تعلم ذلك إذا وطدت عزمك . . ولقد أجرينا بعض التحريات . من بعض أصدقائنا فى بينماك وعلمنا أنك لا تصلح لمنصب ذى مسئولية حقة والسبب أنهم قد فصلوك لعدم الكفاءة بالإجماع ولكن وقد تلقنت درساً — هل تعتقد أنك ستصبح كفأ لأن تدرس الصحة العملية فى جامعة أرتوث ؟ » وثارت ثائرة جوتليب حتى أنه نسى التخاطب بالانجليزية وصب كل لعناته بالألمانية فى صوت أجش جاف وكان المنظر مضحكا أمام أمين المكتبة والفتيات المختزلات وهم يضحكون وعندما خرج ماكس جوتليب من ذلك المكان مضى يسير ببطء دون أن يعرف لنفسه اتجاها وفى عينيه دموع رقراقة .

الفصل الثالث عشر

لم يصب أحد لعناته على عالم الطب بمثل ما فعل جوتليب لاحتكار بعض شركات الأدوية تجارة العقاقير خاصة شركة داوسون هنزيكر وشركاه فى بتسبرج. وشركة هنزيكر من الشركات القديمة التى لاتتعامل إلا مع الأطباء المشهورين، أو الذين عمليا يعتبرون من المشهورين؛ فهى تنتج العقاقير المضادة للدفتريا وأمراض التيتانوس وكذلك أنقى المستحضرات فى زجاجات رمادية عليها بيانات رسمية للغاية. وقد أكد جوتليب أنها تنتج مواد تطعيم مشكوك فيها ومع ذلك فإنه بعد عودته من شيكاغو كتب إلى داوسون هنزيكر خطاباً يذكر فيه أنه لم يعد يميل إلى التدريس، وأنه يرحب بالعمل معهم نصف الوقت إذا أتيح له استعمال معملهم باقى اليوم لإجراء أبحاث هامة.

وبعد أن أرسل خطابه ظل يتأمل، ولم يكن منطقيا على الإطلاق وأخذ يقول لنفسه : التعليم ! أكبر ساحة للرياضة فى العالم ! غير قادر على تحمل المسئولية ... أنه لم يعد لى طاقة على التدريس. ولكن هنزيكر سوف يسخر منى لقد قلت الحقيقة عنه وأفشيت سره ويجب أن — يا إلهى العزيز — ماذا أفعل ؟

وفى غمرة هذه الأزمة عندما كانت بناته ينظرن إليه من الباب ومض بريق الأمل. فلقد دق جرس التليفون فلم يرد عليه، وفى المرة الثالثة رفع السماعة وقال « أجل، أجل من أنت ؟ »

وقال صوت رنان « هل أنت الأستاذ جوتليب ؟ »

« انه أنا الدكتور جوتليب. »

« حسنا أحسب أنك المطلوب ... التليفون يطلبك من بتسبرج. »

ثم سمع صوت يقول « البروفسير جوتليب ... ان داوسن هنزيكر هو الذى

يتكلم إنه يتكلم من بيتسبرج يا زميلى العزيز ، أنه ليسرنا أن تلتحق بهيئة موظفينا . »

« أنـــا — ولـكن — »

« اعتقد أنك أنتقدت مصانع الأدوية — أوه . إننا نقرأ الصحف إنه انتقاد معقول — ولـكن إننا نشعر أنه إذا جئتنا وفهمت روح الشركة أحسن فسوف تـكون متحمساً ، وأعنى بالمناسبة ألا أكون قد أزعجتك . »

هكذا على بعد مئات الأميال من حجرة الجلوس المذهبة الأنيقة تحدث هنزيكر إلى ماكس جوتليب وهو جالس على مقعده المزركش المريح . وأخذ جوتليب تنازعه نفسه وقال « كلا ، العفو »

« حسناً — أنه يسرنى أن نعطيك خمسة آلاف دولار سنوياً كبداية . ولا نهتم بإجراءات نصف الوقت فسوف نزودك بكل الإمكانيات والفنيين والمواد التى تلزمك وما عليك إلا أن تستمر وتتجاهل وجودنا وكل ما نرجوه هو أنه إذا اكتشفت أى مصل يفيد العالم فيكون لنا حق صناعته وإذا خسرنا فيه لا نهتم .. أننا إذا كنا نريد أن نربح فليكن ذلك بأمانة وشرف إذ أن هدفنا الرئيسى هو خدمة البشرية . وبالطبع إذا كان المصل يدر فائدة فسوف نعطيك نسبة من الأرباح بقدر وفير . والآن نبدأ فى التفاصيل العملية — »

— ٢ —

أن جوتليب وهو من الذين يكرهون الطقوس الدينية له عادات شبه دينية .

فغالباً ما كان يركع بجوار فراشه ويترك العنان لتفكيره ، وكان ذلك يشبه الصلاة إلى حد كبير ، بالرغم من أنه لم يكن هناك تضرع رسمى أو إدراك الـكائن الأعظم — سوى جوتليب . وفى هذا المساء بينما هو راكع وكانت أساريره تنفرج فى وجهه المستغرق ، مضى يفكر قائلا :« لقد كنت أحمق عندما كنت أهجو

التجار ، هذا البائع ، أقدامه ثابتة فى الأرض ، ولشد ثقة أسوأ الباعة بأنفسهم أكثر من الأساتذة المهذبين الخائفين ! طعام لذيذ وحرية ، ولا ممارسة تعليم البلهاء ، بيد أنه لم يوقع عقداً مع داوسن هنزيكر .

أخذت شركة داوسون هنزيكر تنشر صفحة إعلانية كاملة فى المجلات الطبية مستفيضة منسقة تعلن فيها أن البروفسور ماكس جوتليب الذى قد يعتبر أعظم علماء الأمصال فى العالم قد التحق بالشركة .

وفى إحدى العيادات الطبية فى شيكاغو صرح دكتور روتسيفيلد بقوله « هذا هو مصير كبار الأساتذة ، معذرة إذ كنت قاسياً فى تعبيرى »

وفى معامل ايرليس وركس علق بورديث وسير دافيد بروس على ذلك فى أسى بالغ : كيف يذهب ماكس العجوز إلى باعة الحبوب الملاعين ؟ لماذا لم يحضر إلينا ؟ أوه حسناً إنه إذا لم يكن يريد أن ... واحسرتاه لقد قضى عليه . « وفى قرية هويتسلفانيا فى شمال داكوتا أخذ الدكتور الصغير يعترض أمام زوجته ويقول « دونا عن العالم كله ! لا أستطيع أن أصدق ذلك ، يقع ماكس جوتليب بين أيدى هؤلاء اللصوص . »

وقالت لورا «إننى لا أهتم إذا كان قد ذهب للعمل فإن لديه مبرراً معقولا لذلك ، لقد أخبرتك بأننى على استعداد لأن أهجرك لـ . . . . . »

وقال مارتن متأثراً : « أوه . . حسناً . أعط واعفو . لقد تعلمت كثيرا على يد جوتليب وأنا شاكر لـ . . . . . الله ، أرجو ألا يكون ضل السبيل . »

ووصل ماكس جوتليب مع زوجته المريضة وأولاده الثلاثة إلى محطة بيتسبرج يحملون حقيبة قديمة وحزمة مهاجر وحقيبة ملابس كبيرة . ومن القطار ألقى نظرة على سفح الجبل الشامخ ، ثم على النهر الرائع فى لونه الدخانى ، وكان قلبه شديد التأثر ، هنا توجد مشاريع رائعة ، وليست أرض وبناك المنبسطة وعقولها

الضحلة ، وفى مدخل المحطة كانت كل عربات الأجرة القذرة تبدو أمامه متألقة لامعة ؛ وتقدم إلى الأمام كالفاتح .

— ٣ —

فى مبنى داوسون هنزيكر ، وجد جوتليب المعامل التى لم يكن يحلم بها ، وبدلا من أن يكون معه طالب مساعد كان معه خبيراً . كان قد درس علوم البكتريولوجى فضلا عن ثلاثة من الفنيين كان أحدهم قد تدرب فى ألمانيا ، وقوبل بترحاب فى مكتب هنزيكر الخاص الذى كان يعتبر كما لو كان كنيسة صغيرة . كان هنزيكر أصلع الرأس ويبدو فى هيئته أنه رجل أعمال ؛ ويلبس نظارة ، وله نظرات عاطفية ، ووقف على قدميه أمام مكتبه اليعقوبى الطراز ، وناول جوتليب سيجار هافانا قائلا : « أنهم كانوا ينتظرونه بفارغ الصبر » .

ووجد جوتليب فى حجرة طعام هيئة الموظفين الضخمة عشرات من الكيماويين والبيولوجيين الشبان الأكفاء الذين قابلوه بترحاب واحترام ، وطاب شعوره نحوهم . وأنهم وإن كانوا يتحدثون كثيراً عن النقود وكم سيدر عليهم هذا النوع الجديد من الصبغة لرواج بيعها ، وكم ستزداد مرتباتهم بسرعة تبعاً لذلك — فإنهم لم يكن لديهم ذلك الزهو الذى يتظاهر به الطلبة . وما لبث أن تجاوبت ضحكاته معهم وتردد صداها فى خضم هذه المحاورة العاصفة .

تحسنت أحوال زوجته ، ووجدت ابنته مريم مدرساً ممتازاً للبيانو ، والتحق ابنه روبرت بكلية فى نفس ذلك الخريف . وصار لديهم منزلا فسيحاً وإن كان قديماً . وكان الارتياح من ضجيج الطلبة فى الفصل والحياة الروتينية السنوية مصدر بهجة . ولم يبدع جوتليب فى حياته مثلما أبدع فى ذلك الحين ، ولم يكن يشغل انتباهه خارج المعمل شيء إلا القليل من المسارح وصالات الموسيقى . وبعد مرور ستة أشهر أدرك أن الخبراء الفنيين الشبان يستاءون مما كان يعتبره هجوما على مذهبهم التجارى وملوا من حماسه العلمى الرياضى ، واعتبره البعض مصدر

ملل ، ناعتين إياه فى سخط باليهودية ، وتألم لذلك إذ أنه كان يود أن يكون مرحاً مع رفاقه . وبدأ يتوجه بالأسئلة ، ويكشف مبنى هنزيكر ، لأنه لم يكن قد رأى منه شيئاً سوى المعمل والممر وصالة الطعام ومكتب هنزيكر . وبالرغم من أن جوتليب كان شارد الذهن غير عملى فإنه أصبح شارلوك هولمز ممتازاً ، إذا صح أن أى إنسان يصبح شارلوك هولمز يرغب فى أن يكون مخبراً سرياً ، وكان تفكيره يتعمق دائماً بحثاً عن الوقائع ، وقد اكتشف الآن أن شركة داوسون هنزيكر كانت وفق ما أكده عنها من قبل ، فقد كانوا يصنعون عقاقير مضادة ممتازة ولكنهم كانو يصنعون أيضاً « علاج للسرطان » من الاركيديا ويمتاز بكل قيمة الوحل . ويبيعون لشركات التجميل ملايين من زجاجات كريم البشرة على زعم أنه يحيل المندى الكندى إلى ملاك أبيض مثل اللؤلؤ ، وهذا الكنز يكلف ست سنتات فى صناعة الزجاجة وتباع بدولار ، ولم تكن اسم مصانع داوسون هنزيكر تظهر على ذلك الكريم مع أنها صانعته وموزعته .

وفى ذلك الحين نجح جوتليب فى أروع أعماله بعد عشرين عاماً من البحث إذ اكتشف أجساما مضادة فى أنابيب الاختبار . ومعنى ذلك أنه سوف يصبح من الممكن التطعيم ضد بعض الأمراض دون الحـــاجة إلى صنع المصل بحقن الحيوانات .

وكانت تلك ثورة — ثورة فى عالم المناعة والتعقيم .... لو كان على حق .

وقد أذاع ذلك فى أثناء الوليمة التى أقامها هنزيكر احتفاءاً بالرئيس العام الجديد كانت وليمة كبرى ، بها أعظم أنواع الخمور ، وهى أفخر خمر ألمانية شربها جوتليب ومضى يدير الزجاجة الخضراء باعتزاز ، وقد أفاق من غفوته وأمسى مرحا ، وحياه الجميع بالتصفيق والتقدير وظل لمدة ساعه فى الحفل « العالم العظيم » وكان هنزيكر أكثرهم جميعاً ثناء وتحية له . وكان جوتليب يتساءل عما إذا كان أحدالم يخدع هذا الرجل الطيب الأصلع بإقحامه فى مؤامرة أو دسيسة مع صناع أدوات التجميل .

وفى اليوم التالى استدعاه هنزيكر إلى مكتبه . وقد أجرى هنزيكر استدعاءه بطريقة لطيفة للغاية فى الواقع (ما لم تكن مجرد اختزال) إذ أرسل له سكرتيرة أنيقة قدمت له تحيات الدكتور هنزيكر وأشارت بلطف أنه إذا كانت الفرصة متاحه وأنه إن لم يكن إزعاجا للدكتور جوتليب.أثنـــاء أداء تجاربه فإن السيد هنزيكر يتشرف بمقابلته فى مكتبه الساعة الثالثة والربع .

وعندما دخل جوتليب أشار هنزيكر للسكرتيرة بالخروج وسحب مقعداً أسبانيا طويلا وقال :

« أننى أمضى نصف الليل مستيقظا أفكر فى اكتشافك يادكتور جوتليب ، ولقد كنت أتحدث مع المدير الفنى ومدير البيع ، وأننا نشعر أنه قد حان الوقت ليلمع نجمنا . وأننا سوف نسجل طريقتك فى تركيب الأجسام المضادة ونشرها فوراً فى السوق بكميات كبيرة مع حملة أعلانية ضخمة وسنبدأ بالعمل المضاد للدفتريا.

وبهذه المناسبة أفيدكم بأنه عند استلام الشيك الخاص بكم ستجد أن راتبك قد ارتفع إلى سبعة آلاف دولار فى العام . كان هنزيـكر أكثر حديثا بينما كان جوتليب فى صمت مطبق ، « وأود أن أقول يا زميلى العزيز أنه إذا تحقق الطلب الذى أتوقعه فإنك ستتلقى نسبة من الأرباح كبيرة للغاية » .

وأتـكأ هنزيكر بطريقة من يقول « من أين لك هذا المجد يا فتى ؟ »

فقال جوتليب بعصبية « إننى لا أوافق على تسجيل العمليات الفكرية يجب أن تعرض على جميع المعامل ، وأنا أعارض بشدة انتاجا سابقاً لأوانه أو حتى لإعلان عنه . وأعتقد أننى على حق ولـكن لا بد من أن أراجع طريقتى الفنية . ربما أدخل عليها تحسينات — أو أتأكد من صحتها . وعندئذ أعتقد أنه لن يكون هناك اعتراض على الإنتاج للسوق على أن يكون بكميات بسيطة مع منافسة شريفة للآخرين وبدون تسجيل كما لو كانت شخشيخة تباع فى أيام عيد الميلاد»

« زميلى العزيز أنا أشفق كثيراً ، ولا أود شيئا من ناحيتى أكثر من أن أمضى سياتى كلها فى إنتاج اكتشاف علمى واحد لا يكلف ثمناً ، دون مراعاة

الأرباح ، ولكن علينا واجب نحو حملة أسهم شركة هنزيكر وهو أن نحقق لهم أرباحا ... فهل تعلم أنهم ومعظمهم أرامل فقراء وأيتام — يستثمرون كل ما لهم في أسهمنا وأننا يجب أن نوفي بوعدنا ؟ أنني ليس لي دخل في الأمر ، لست سوى خادمهم المتواضع . ومن ناحية أخرى أعتقد أننا عاملناك على نحو طيب نوعا ما يا دكتور جوتليب وأعطيناك مطلق الحرية ونعتزم أن نستمر في حسن معاملتك ولماذا أيها الرجل ، أنك سوف تصبح غنياً ، سوف تصير واحداً منا ، أني أود ألا أطلب منك شيئاً سوى ما يتعلق بهذا الأمور . إنه واجبي ولا بد أن أصر عليه وأنني أتوقع في أقرب فرصة ممكنه أن نبدأ في التصنيع ... »

كان جوتليب قد بلغ الثانية والستون من عمره وكانت الهزيمة التي حاقت به في وينماك قدنالت من شجاعته ، وليس لديه أي عقد مع هنزيكر ، اعترض قليلا ولكنه عندما عاد إلى معمله بدا له أنه من المستحيل أن يتحمل تقليدا رخيصا وغير كاف لعقاقيره المضاده ، وبدأ في تلك الساعة خطة دنيئة كانت لا تتصورها نفسه الأولى الأبية ، مضى يقول كلاما يحتمل معنيين ، يؤجل الإعلان والإنتاج حتى « يستوضح بعض النقط » وأسبوعا بعد أسبوع صار هنزيكر أكثر تهديداً ، وفي الوقت ذاته استعد للكارثة ، فنقل أسرته إلى منزل أصغر وحرم نفسه من كل ملذات الحياة حتى التدخين .

وكان من بين وسائله التي اتبعها للاقتصاد في النفقات تخفيض مصروفات ابنه . وكان روبرت حسن الهندام أنيقا عاصف المزاج متعجرفا في الوقت الذي لم يكن يبدو أن هنالك حاجه إلى التعاظم ، مولع بالفتيات الجميلات شاهقات البياض رغم أنه كان يعاملهن بكبرياء . ولما كان والده يتنصل ويسخر من أصله اليهودي فإن ابنه كان يوحي إلى زملاءه في المدرسة أنه من أصل ألماني شريف . وكان يلقى ترحابا أو شيئا من الترحاب في لعبة البوكر أو في جلسات النادي . وكان لا بد أن يحصل من والده على قدر أكبر من المصروفات . وفقد جوتليب عشرين دولار كانت في مكتبه . وأنه ، وهو الذي كان يسخر من الشرف التقليدي أصابه اليوم ما كان يسخر منه ، إبناله صفات النبلاء القدامى . وكانت تلك وصمة أخرى زادت من

مرارة حزنه المتواصلة التي جاءت من خداعه لهنزيكر وواجه إبنه روبرت قائلا «هل أخذت نقوداً من مكتبي يا بنى ؟ »

فتمتم الفتى قائلا: «أجل ، أخذت .. كنت أريد مزيداً ! كنت في حاجة إلى بعض الملابس والطعام . إنها غلطتك فإنني أركب القطار مع زملائي الذين يمتلكون قدرا كبيراً من النقود . إنهم أغنياء فهل تتوقع بعد ذلك أن أرتدى ملابس متسول !»

« تسرق .... » .

« هراء ! أية سرقة ، أنكم دائماً تسخرون من الوعاظ الذين يتحدثون عن الإثم والحق والأمانة وكل هذه الكلمات التي تستعملونها لا تحمل أى معنى له قيمة و ـــ إنني لا يهمني .. أن إبن داوسون هنزيكر أخبرني أن والده قال أنه من الممكن أن تصبح مليونيراً ، ثم تجعلنا نعيش فى مثل هذه الحالة المريرة ووالدتى مريضة ـــ ولقول لك أنه عندما كنا فى موها ليس اعتادت والدتى أن تعطينى دولارين كل أسبوع تقريبا وأنني مللت ذلك . وإذا كنت ستجعلنى أعيش فى هذه الملابس المهلهلة فسوف أتوقف عن الدراسة . »

وثارت ثائرة جوتليب ، بيد أن قواه كانت قد خارت ، وظل طوال الأسبوعين التاليين لا يعرف ماذا سيفعل ابنه بل لم يكن ليعرف ماذا هو نفسه سيفعل .

ثم ، حتى بعد عودته من المقبرة لم يدركوا أنها قد ولت ، لقد فارقت زوجته الحياة . وفى الأسبوع التالى هربت ابنته الكبرى مع فتى صعلوك يعيش على القمار، وجلس جوتليب وحده وظل من وقت لآخر يقرأ « سفر أيوب » .

وأخذ يهمس قائلا : « حقاً لقد ابتلانى الرب أنا وأهل بيتى » . وعندما جاء روبرت يعلن أنه سوف يستقيم فى سلوكه ، لم يعر الوالد العجوز اهتماماً لهذا . ولكنه عندما كرر خرافات آبائه ... لم يخطر ببـــاله أن يصدقها أو أن ينخلع قلبه فرقا وخوفا أمام الجبة السخط أو يرتاح نفساً بأن يأذن لهنزيكر بأن يدنس اكتشافه . وهب لساعته ومضى صامتاً إلى معمله وكانت تجاربه تجرى فى عناية كالمعتاد ، ولم

ير مساعدوه أى تغير سوى أنه لم يعد يتناول الطعام فى الصالة . كان يسير مسافة إلى مطعم متواضع يستطيع أن يوفر بتناول الغذاء فيه ثلاثين سنتا فى اليوم .

— ٤ —

وانبعثت مريم من غاشية الضباب الذى حجب عنه الناس من حوله .

كانت فتاة فى الثامنة عشر من عمرها وهى أصغر أبنائه ، خالية تماماً من صفات الجمال باستثناء فمها الرقيق . كانت دائماً تتباهى بوالدها وتدرك أسرار علومه الخفية ولكنها كانت تعانى رعباً عندما كان يمشى متثاقلا ويتكلم نادراً . وتوقفت عن دروس البيانو واستغنت عن الخادمة ودرست شئون الطهى،وأخذت تعد له الفت الدسم الذى يؤثره ، وكانت تأسف لأنها لم تدرس اللغة الألمانية أبداً ، إذ أنه كان من وقت لآخر يلفظ اللغة التى ألفها فى طفولته . ومضى يتطلع إليها وقال أخيراً « معى الآن إنسان ... فهل تتحملين الفقر إذا ما تركت عملى هذا وصرت مدرساً للكيمياء فى مدرسة ثانوية » .

« أجل بالطبع ، ربما أستطيع أن أعزف البيانو فى أحد المسارح » .

ولم يكن يستطيع أن يقدم على ذلك بدون وثوقه منها ، ولكن عندما كان هنزيكر يجوب المعمل للمرة الثانية قال له « الآن أنظر اننا قد ناقشنا الأمر كثيراً وأننا سوف نعرض إنتاجك فى السوق ، » فأجاب جوتليب « كلا — إذا انتظرت حتى أفعل كل ما أستطيع — ربما فى مدى عام أو ثلاثة — سوف تأتيك الفرصة ولكن لن يكون ذلك قبل أن أتأكد . كلا » .

وخرج هنزيكر غاضباً واستعد جوتليب للنطق بالحكم عليه .

ثم جاءه بطاقة من الدكتور ا . دى ويث تبز مدير معهد ماك جورك للأحياء فى نيويورك .

كان جوتليب يعرف تبز ، ولم يكن قدزار ماك جورك ، بيد أنه كان يعتبر المعهد من حيث المنزلة فيما عدا روكفيلر وما كورميك،أعظم وأروع منظمة للبحث العلمى فى البلاد، وإنه إذا كان قد يتصور معملا مقدساً يمضى فيه العلماء ساعات الخلود سعداء

بإجراء أبحاث ممتعة وغير عملية تماماً فإنه كان لابد قد تصوره شبيهاً بماك جورك، وانسلت إلى نفسه السعادة عندما رأى بأن مديره قد استدعاه.

كان دكتور أ. دي‌ويت يكسوه الشعر بغزارة في كل أجزاء جسمه الظاهر عدا راحة يده، وصدغه بيد أنها مع ذلك لم تكن شعيرات هزيلة ولكنها شعيرات العظمة.. وكانت تبدو في عينيه علامات الجد والحزم، وفي خطواته الثقة والنشاط وفي صوته الوقار، وقال:

« يا دكتور جوتليب أنه لمن دواعي السرور في نفسي أن أسمع عن أبحاثك في أكاديمية العلوم ولكنه كان من سوء حظي أنني لم أحظ بلقياك. »

وحاول جوتليب ألا يبدو مرتبكا.

ونظر تبز إلى المساعدين كما لو كان مدبر مكيدة في مسرحية سياسية وأشار قائلا « ألا يمكن أن نتحدث قليلا — »

وقاده جوتليب إلى مكتبه وهو يطل على ممرات جانبية تعمها الضوضاء حيث القضبان المنحنية وعربات البضاعة وقال تبز « لقد علمنا بمصادفة عجيبة إنك على وشك التوصل إلى اختراع عظيم، وكنا جميعاً نعجب، عندما تركت العمل الأكاديمي، وإقرارك بالدخول في المجال التجاري، وكنا نأمل أن تفكر في أن تأتي إلينا »

« هل كنتم سترحبون بي؟ »

« طبيعي، ولما كنت في حاجة بالمرة للحضور إلى هنا. » « مما نسمع الآن أنك لا تهتم بالجانب التجاري، وهذا يجعلنا نسأل ما إذا كنت ستفكر في الالتحاق بنا هنا في ماك جورك، ولذلك فقد لحقت بالقطار وجئت إلى هنا، وإنه ليسعدنا أن تكون أحد أعضاء المعهد رئيساً لقسم البكتريولوجي والمناعة، فإنني والدكتور ماك جورك لا نرغب في شيء سوى سمو وتقدم العلم. وبالطبع سيكون لك مطلق الحرية في إجراء الأبحاث التي تفضل إجراءها، وإننا سنعمل على تزويدك بالمساعدين

والمعدات على أعظم مستوى فى العالم . أما بالنسبة للمرتب ـ فأرجو أن تسمح لى بأن أكون رجلا عملياً وربما صريحاً إلى حد ما ـ لا أعتقد أننا نستطيع أن نعطيك الراتب الكبير الذى يقدر هنزيكر على دفعه لك ولكننا نستطيع أن ندفع ما يقرب من عشرة آلاف دولار فى العام ـ » .

وقال جوتليب :

« أوه يا إلهى ، لا تتكلم عن النقود ـ سوف أكون معكم فى نيويورك بعد أسبوع واحد اعتباراً من اليوم . ليس معى عقد هنا ! »

الفصل الرابع عشر

ظلا طيلة فترة ما بعد الظهيرة يشقان طريقهما وسط المروج المتعرجة ولم يكن في سبيلهما عوائق أو مستنقعات أو جبال أو مدن تكثر فيها المصانع. وكان النسيم من حولهما يشيع فيه الدفء .

وصاح مارتن قائلا للورا « أشعر أنني قد نسيت زينيث تماماً ». ولم يعد هناك ما يربطني بها ، وأن داكوتا أصبحت بلدى الحقيقية . الحصن . المجال. أمريكا .

وسار مارتن وسط المروج بينما كان يرقب دجاج البرارى وهى تشق طريقها وسط حقول القمح ، وشعر بالتحرر من نفاذ الصبر الذى لازمه منذ رحيله من هو يتسلفانيا .

ومضت السيدة توزر وهى تبتسم ابتسامة حلوة فى ظاهرها تقول « إذا كنتما ستتنزهان فلا تنسيا أن تناول العشاء سيكون فى السادسه تماما .

وفى الشارع الرئيسى أخذ يلوح لهما السيد توزر وهو يقول « عودا فى السادسة فإن العشاء سيكون فى السادسة تماماً » .

وخرج بيرت توزر من المصرف مسرعا كناظر المدرسة الريفية ومضى يقول « أقول لكما لا تنسيا أن تعودا فى السادسة لتناول العشاء وإلا سيصاب الرجل العجوز بنوبة . وأنه ينتظركما على العشاء فى السادسة تماما . وعندما يقول السادسة تماما فهو يقصد السادسة السادسة وليست السادسة وخمس دقائق »

وقالت لورا « إن ذلك لشيء مضحك ، إذ أنني عندما كنت فى هويتسلفانيا فى الثانية والعشرين من عمرى أتذكر ثلاث مرات مختلفة عندما تأخر ميعاد العشاء حتى السادسة وسبع دقائق فدعنا من ذلك ياساندى . . . وإننى لأتساءل هل كنا حكماء حتى نعيش مع الأسرة ونوفر نقوداً ؟ »

وقبل أن يتخطيا حدود هو يتسلفانيا الضيقة نوعا ما مرا بأداكويست ،

السيدة بيرت توزر مستقبلا ، وسمعا صوتها يحمله إليهما الهواء العليل وهى تقول « من الأفضل أن تعودا فى السادسة » .

وقال مارتن متجاسراً للورا « سوف نعود عندما تود أن نعود » وكان يبدو على وجهيهما الفزع المتزايد من جراء هذه الأصوات المزعجة ، إذ كانت الأوامر تتبعهما أينما كانا « عودا فى السادسة تماماً » . وأسرعا حتى يصلا فى الساعة السادسة إلا إحدى عشرة دقيقة وعاد السيد توزر من مصنع الألبان متأخراً ثلاثين دقيقة عن المعتاد وقال .

« إننى سعيد لمرآكما بيننا ، أسرعا الآن وأدخلوا الخيول فى الحظائر إن العشاء فى السادسة تماماً .

وكان مارتن يشعر بالألفه عندما استدعى إلى منضدة العشاء وقال :

« لقد قمنا بنزهة كبيرة لقد بدأت أحب هذا المكان . . . حسناً لقد تجولنا هنا بدون عمل لمدة يوم ونصف ، والآن يجب أن أبدأ العمل وأول شىء هو أن أجد مكاناً لمكتبى ، فما هى الأماكن الخالية هنا أيها الأب توزر ؟ »

فقالت مسز توزر : عندى فكرة لطيفة جداً يامارتن لم لا نقيم لك مكتباً فى المخزن ؟ فإنه سيكون قريباً جداً من المنزل حتى تستطيع أن تتناول الطعام فى المنزل فى الوقت المناسب ، وتستطيع أن تراقب المنزل إذا خرجت الخادمة وذهبت أنا مع أورى فى زيارة أو إلى محلات التطريز » .

« فى المخزن » .

« أجل ، فى حجرة السروج القديمة ، إنها من ناحية مغطاة السقف تقريباً ، ونستطيع تجميلها بإلصاق بعض الأوراق الجميلة وبعض اللوحات » .

« أيتها الأم توزر ، ما هذه الأفكار الشيطانية ماذا تحسبين أننى أعمل ؟ أنا لست أجيراً أعمل فى حظيرة أو طفل أبحث عن مكان أضع فيه بيض الطيور إننى كنت أفكر فى أن أفتتح عيادة طبيب » .

وأخذ بيرت يسهل الأمور فقال: « ولكنك لست طبيباً بالمعنى الصحيح بعد. إنك ما زلت فى بداية الطريق » .

« « يا للجحيم ! إنى طبيب عظيم معذرة للسب يا والدتى توزر ولكن — لقد أمضيت الليالى فى المستشفى وحياة مئات من البشر فى يدى ! وأننى أنوى » .

فقال بيرت « أنظر هنا يا مارتن، مادمنا ننفق النقود فلا نريد أن نكون أشحاء ولكن أولا وقبل كل شىء الدولار هو الدولار — وإننا إذا كنا سنعد الأثاث فيجب أن نقرر الطريقة المثلى للاتفاق » .

وبدا السيد توزر غارقاً فى التفكير ، وقال فى يأس « هذا صحيح فليس هناك داع للمغامرة . . إن الفلاحين يطلبون قدراً من النقود يعادل قيمة محاصيل القمح واللبن ثم ينفضون إلى عملهم ولا يدفعون الفوائد المقررة على قروضهم وأقسم لك أن الأمر لم يعد يستحق استثمار الأموال فى الرهون والقروض إذ لم تعد لها قيمة . فإذا كنت منطقياً فإنك تستطيع أن توقع الكشف على شخص مصاب بالتهاب فى الحلق أو تشخيص ألماً فى الأذن فى حجرة صغيرة بسيطة ولطيفة بنفس الطريقة كما لو كنت فى مكان فخم . وسوف تعمل الوالدة على إعداد ركن مريح لك فى المخزن » .

فتدخلت لورا وقالت: « أنظر يا والدى نريد أن نقترض منك ألف دولار فى التو لنستخدمها كما يتراءى لنا » .

فكان لهذا رد فعل قوى . « وسوف ندفع لك ٦ ٪ — لا سوف ندفع لك ٥ ٪ وذلك مبلغ كاف » .

فقال بيرت وهو يرتجف : « إن القروض يدفع عليها ستة ، سبعة وثمانية فى المائة » .

« خمسة تكفى، ويكون لنا حرية التصرف المطلقة فى كيفية استخدام القرض نقيم به عيادة أو أى شىء آخر » .

وقال السيد توزر «.هذه طريقة غير مهذبة »وقاطعه بيرت وقال : « يا أورى إنكى مجنونة اعتقد أننا سوف نقرضكم مبلغاً ولكن سوف تعودى من وقت لآخر وأنتى نادمة وسوف تندمان لعدم الأخذ بنصيحتنا » .

فهبت لورا وقالت : « أما أن تفعلوا ما نقول وتعطونا ما نطلب بالضبط وإلا فسوف نستقل أول قطار ونعود أنا ومارتن إلى زيليث وأننى لأعنى ما أقول ، فأمامه الابواب مفتوحة والفرص متاحة هناك ، والمرتبات مرتفعة وبذلك لن نحتاج إلى الاعتماد على أحد ... . وتشعبت وكثرت المناقشات حول هذا الموضوع . وكانت كلها من نوع واحد . فهبت لورا مرة متجهة نحو السلم لتجمع ملابسها وترحل ومرة أخرى وقف مارتن ولورا يلوحان بالمناشف ويدقان بأيديهما .

وفازت لورا .

واستقرا بعد طول عناء ، وسأل السيد توزر قائلا : « هل أحضرت حقيبتك من المحطة ؟ »

فقال بيرت محنقاً : « لا داعى لتركها هناك — ودفع خمسة وعشرين سنتاً مقابل إيداع » .

فقال مارتن « أحضرتها هذا الصباح »

وقالت السيدة توزر « لقد أحضرها مارتن هذا الصباح مع الحمال »

« فقال السيد توزر متألماً : « هل أحضرها لك أحد . . لما لم تحضرها بنفسك ؟ »

« قال مارتن : كلا ، لقد جعلت العمال يحضرها لى »

قال بيرت « حسناً يا إلهى ! كان من الممكن أن تحضرها بنفسك على عربة يد وتوفر ربع دولار » .

فقالت لورا « ولكن الطبيب يجب أن يحافظ على كرامته » .

« كرامة ياللحماقة ! أنه أكرم أن تجر عربة بعجلة واحدة من أن تظل طوال الوقت تدخن السجاير » .

وقال السيد توزر « دعنا من ذلك — وأين وضعتها ؟ »

قال مارتن « هناك فى حجرتنا » أين تعتقد أن تضعها عندما نفض محتوياتها، فالطابق العلوى غاص ومزدحم للغاية » .

وقالت السيدة توزر للسيد توزر « أوه أعتقد أن مارتن يمكن أن يحضرها هنا » .

« ولماذا لايضعها فى المخزن ؟ »

« أوه إنها حقيبة جديدة ولطيفة » .

فقال بيرت . « وما وجه القبح فى المخزن؟ إنه مناسب وجاف ، وإنه ليبدو عبثاً أن نترك هذا الفراغ الكبير فى المخزن بعد أن قرر ألا يجعل عيادته هناك .»

فقالت لورا « يابرت ، أننى أعرف ماذا سنفعل بيد أن المخزن يشغل بالك . انتقل المصرف القـــديم الخاص بك هناك ومارتن سوف يأخذ مبنى المصرف ويجعله عيادة له . »

« هذا يختلف تماماً — »

واعترض السيدتوزر وقال : « لاداعى للتباهى ، وأن تحاولا أن تبدوا عظماء انت وزوجك . هل سمعت مرة أننى ووالدتك نعبث ونتباهى هكذا مثلكما ؟ متى ستفكر يا مارتن فى إن تفرغ حقيبتك ؟ » إن السيد توزر كان من الممكن أن يفكر فى أمر المخازن والحقائب ولكن ذهنه لم يكن يعى مثل هذين الأمرين المعقدين معاً فى وقت واحد .

« لا أستطيع أن أفرغها هذا المساء وإذا كان ذلك يهم — »

« حسناً أنا لا أرى لها أهمية خاصة ولكن عندما تبدأ فى عمل شىء — »

« ماذا يهم ما إذا كان — »

« إذا كان سيبحث عن عيادة بدلا من الانتقال مباشرة إلى المخزن فينبغى ألا يستغرق فترة طويلة حتى يفرغ حقيبته — »

« أوه يا إلهى ، سوف أفرغها هذا المساء — »

« وأعتقد أننا يمكننا أن ننقلها إلى الطابق العلوى »

« لازالت مليئة — »

« سوف نذهب لنلقى نظرة عليها بعد تناول العشاء — »

« حسناً عندما أخبرتكم أننى سوف أحضر الحقيبة هنا — »

ربما كان من المحتمل أن مارتن لا يود أن يصرخ ولكنه دون وعى ألفى نفسه يصرخ .

— ٢ —

استغرق البحث عن عيادة مدة أسبوعين من المحاولات والنقاش ثلاث مرات يوميا (ولم يكن موضوع العيادة هو الشيء الوحيد الذى تناقشه أسرة توزر بل أنهم أخذو يتدخلون فى جميع شئون مارتن ، فشرعوا يتدخلون فى طعامه ، ونزهاته وخطاباته وأحذيته التى تحتاج إلى تصليح وما إذا كان أرسلها إلى الإسكافى وكم تكلفت ، كما كان حديثهم يشمل اللاهوت والشئون السياسية ، والعلاقات الزوجية للاسكافى) .

كان السيد توزر منذ البداية يعرف المكان المناسب للعيادة ، إذ كان يعرف أن أسرة نوربلوم تسكن فى الطابق العلوى فوق متجرهم وأنهم يفكرون فى الإنتقال من هذا المسكن . وفى الواقع لم يكن هناك شيء يحدث أو من المحتمل أن يحدث فى هويسلفانيا لا يعرف توزر عنه شيئاً فإنه كان يعرف كل شيء ويفسره ، كانت السيدة نور بلوم قد ملت من المنزل ، وكانت تريد أن تنتقل إلى منزل السيدة بيسون لتقيم فى الحجرة الأمامية بالجهة اليمنى من صالة السلم وهى إلى يمين الردهة العليا ، وهى غرفة ذات جدران مطلية بالجص ، وبها موقد لطيف اشترته مسز بيسون من أوتوكراج مقابل سبعة دولارات وخمسة وثلاثين سنتا — لا ، بل سبعة

دولارات وربع ، وقد زاروا أسرة نور بلومز وأشار السيد توزر « بأنه من المناسب جداً للدكتور أن يقيم فوق المتجر إذا كانت أسرة نوربلوم تفكر فى الإنتقال — »

وأخذ أفراد أسرة نور بلومز يحملقون إلى بعضهم بعضاً بنظرات طويله عميقه حريصة وقالوا « لسنا تدرى » لاشك أنه أجمل موقع فى المدينة — » وقال السيد نور بلومز أنه بالرغم من الاحتمالات فإنهم إذا فكروا فى الانتقال فسوف يطلبون خمسة وعشرون دولاراً فى الشهر مقابل إيجار الشقة بدون أثاث .

وعاد السيد توزر من « المؤتمر الدولى » مبتهجا كما لو كان هو الوزير توزر أو اللورد توزر فى واشنطون أو لندن وقال : « حسناً . . حسناً . . لقد جعلناه يرتبط معنا ، إنه يطلب ٢٥ دولاراً وهذا معناه أنه عندما يحين الوقت سوف تقدم له ١٨ دولار وقد ينتهى الأمر إلى قبول ٢١ دولار ، ٧٥ سنتا . فاذا ظللنا على الاتصال به وأعطيناه الوقت ليقابل السيدة بيسون ويتفق معها فسوف نستطيع أن ننتهى من الأمر كما نشتهى . »

وقال مارتن : « أوه . . إذا لم تكن أسرة نور بلوز تستطيع أن تقرر فى الأمر شيئاً فعلينا إذن أن نحاول البحث عن مكان آخر ، فهناك حجرتان شاغرتان خلف عيادة إيجل . »

وقال السيد توزر : « ما هـذا الذى تقوله ؟ نجد فى البحث مرة أخرى بعد ما اتفقنا مع أسرة نور بلومز ، وهم يعتقدون أننا جادون فيما نقول ، وبذلك نجعلهم أعداء لنا مدى الحياة ؟ هل هذه طريقة سليمة لأن تبدأ بها حياتك العملية ؟ . وإننى لا أرى أن نوقع اللوم على أسرة نور بلومز إذا احتدموا غيظاً عندما تعاملهم بقلة اكتراث هكذا . . أنك هنا لست فى زينيث حتى تستطيع أن تتجول قليلا وتتوقع وجود ما تريده فى دقيقتين ! »

وخلال الأسبوعين التاليين ، بينما كانت أسرة نور بلومز تعتصر ذهنها فى تقرير ما اعتزمت عليه منذ زمن طويل . . كان مارتن لا يزال منتظراً ، غير قادر على بدء العمل ، وحتى قبل أن يفتتح عيادة مرخص بها ومعتمدة كان معظم أهل القرية

لا يعتبرون مارتن طبيباً كفؤاً بل مجرد نسيب أسرة توزر وخلال هذين الأسبوعين أستدعى مرة للكشف على الآنسة اجنسن أنجلبلاد التى كانت تعانى من الصداع وهى عمة إليك أنجلبلاد الحلاق وربة بيت — كان مبتهجا حتى لقد قال له برت توزر : « أوه . . هكذا استدعتك — هه ، أنها دائما تبحث عن طبيب . لاتعانى من شىء سوى أن لديها قليلا من الهضم — لقد جاءها آخر مرة شخص يبيع الحبوب ودواء التدليك من فورد ، وفى المرة السابقة جاءها أحد الذين يداوون بالإيمان وعندما ازداد ألمها ذهبت إلى طبيب العظام فى ليوبوليس — بالرغم من أنها لاتعانى شيئاً من مرض العظام — انهم يعالجون كثيراً من الناس لاتستطيع أنت أن تعرف ماذا يؤلمهم — ألا تعتقد كذلك ؟ »

وأشار مارتن قائلا أنه لا يعتقد ذلك فقال برت بطريقته المرحة « أوه . . أنك تعتقد » ثم قال برت وهو يحاول أن يكون مرحا : « إنكم جميعا على حد سواء خاصة بعد تخرجكم مباشرة من المدرسة وتعتقدون أنكم تعرفون كل شىء وأنكم لا ترون فائدة فى الوصفات البلدية والأحزمة الكهربائية أو أى شىء من هذا القبيل لأن ذلك يحرمكم من قدر كبير من الدولارات . والآن أنظر إلى الدكتور مارتن اروسميث الذى ألهب يوما غضب انجوس ديور وارفنج وترز بتهكمه عن المستويات الطبية وهو يدافع أمام بيرت توزر عن معلومات جميع الأطباء وكرمهم ويعلن أنه لم يكن هناك دواء وصفه طبيب (على الأقل أى خريج من خريجى ويناك) عبثاً ، أو أنه أجرى عمليات لم يكن هناك داع إليها .

والآن لقد عرف كثيراً عن برت ، إذ كان مارتن يجلس فى المصرف وهو يأمل أن يستدعيه أحد لإجراء كشف ، وأصابعه تتأهب للعمل وتضميد الجروح . وقد كانت آدا كويست تحضر من وقت لآخر ، وكان برت ينفرد بها فى حديث شائق .

« ينبغى عليك أن تحرصى على ما تفكرين فيه عندما يكون الدكتور هنا يا آدا : لقد كان يخبرنى عن دروس علم الأعصاب وكل المواد التى يحشو بها ذهنه فما رأيك فيها يامارتن ، لقد أصبحت أهتم بذلك » .

وقالت آدا « هه أنه يستطيع أن يخدع بعض العامة من الناس ولكنه لايستطيع أن يخدعنى . أن أى إنسان يستطيع أن يتعلم أى شىء من الكتب ، أما فيما يتعلق بالتدريب عليها — فأقول لك يامارتن إذا كان لديك عشر ما لدى الدكتور منتر العجوز الذى يقطن فى ليوبوليس ، فإنك سوف تعيش أكثر مما أتوقع . وأوضحا كلاهما أنه إذا كان مارتن يرى أن تدريبه فى زينث قد جعله يمثل هذه الفطنة والذكاء بحيث يحتقرنا نحن الفلاحين المساكين فان الصواب قد جانبه . وكور برت ما جادت به قريحته وجانبا من تهكم آدا عند تناول العشاء . وقال السيد توزر « لا يجب أن تهاجموا الفتى بقسوة هكذا . . ومع ذلك فإن حديثكم هذا الصباح كان لطيفاً ، وأنا لا أعتقد أن مارتن يعتقد فى نفسه أنه متغطرس . »

وقد اصطحبته لورا جانباً بعد تناول العشاء وقالت له « ياعزيزى — هل تقبل ذلك ؟ لابد أى يكون لنا منزل خاص بنا بأسرع ما يمكن أو نرحل ؟ »

« إنى أكون معتوها لو تحملت ذلك » .

« هه يا عزيزى كن حريصاً عندما تعتدى على بيرت ، وإلا قضوا عليك . »

وسار نحو الردهة الأمامية ، واعتزم أن يبحث عن الحجرتين اللتين تقعان خلف عيادة إيجل . ودون تردد ، ولكى يأمن شر بيرت لم ينتظر أسبوعا أخر ، ولم ينتظر حتى تقرر أسرة نور بلومز الرحيل بالرغم من أنهم كانوا بالنسبةلهمصدر خوف ، وأشبه بشبح أبدى تستطيع عداوته أن تحطمه ، اند كانت هناك أشياء كثيرة تحوم فى جو هويتسلفانيا الذى صار المكان الوحيد المفروض أمامه . وأدرك فى أغباش الظلمة الحزينة أن ثمة رجل يخطو على الأفريز الخشبى أمام المنزل ، متردداً ينظر إليه . وكان رجلا يدعى وايز ، رومى يهودى ، وكان معروفاً فى البلدة باسم « وايز القطب » وكان يتجر فى محله الكائن بالقرب من طريق السكة الحديد ، فى الأدوات الفضية ولوازم السيارات ، ويبيع ويشترى المزارع والخيول والبنادق . وقال مناديا مارتن : « أهـذا أنت أيها الطبيب » . فأجاب مارتن « أجل » ، وابتهج مارتن إذ حسبه مريضاً «أود أن تسير معى فى هذا الطريق — هناك شيئان

أريد أن أحدثك عنهما ، أو هيا بنا إلى مكان نتناول بعض السيجار الجديد الذى أحضرته . » وقد أكد كلمة (سيجار) . كانت شمال داكوتا مثل موهاليس ، من الناحية النظرية ، من البلاد التى لاتتناول الخمر .

وسر مارتن لذلك ، فقد مضى عليه وقت طويل لم يذق فيه الخمر ، وكان منكباً على عمله . كان منزل وايز يتكون من طابق واحد . وكان حسن البناء غير بعيد عن الشارع الرئيسى ، ويفصل بينه وبين حقول القمح خط السكة الحديد كما كانت تحوطه أشجار الصنوبر التى تفوح منها رائحة ذكية — وغمز وايز بعينيه وكان رجلا غامضاً ، قميئاً ، غير جدير بالثقة . ثم تمتم قائلا : « هل تستطيع أن تحتمل قليلا من الويسكى المعتق ؟ »

وأغلق وايز النافذة وأخرج من درج مكتبه زجاجة أخذ يصب منها وضرب الإثنان . ثم قال وايز فجأة : « أنظر هنا يادكتور ، أنت لست على شاكلة هؤلاء السرقة . وأنت تعرف أن الإنسان أحياناً يلتبس عليه الأمر فى أعمال لا ينوى القيام بها . . حسناً ولنختصر فى الأمر . . أعتقد أننى أبعث كثيراً على الخامات المعدنية وسوف لا تحقق ربحاً ، وسوف أنتقل من هنا — عليها اللعنة — كنت أعنى أن أمكث هنا عامين آخرين ولكن . . . حسناً لقد علمت أنك تبحث عن عيادة وهذا المكان سيكون مثالياً . . مثالياً . . . هناك حجرتان فى الخلف وبالإضافة إلى هذه الحجرة . وسوف أؤجرها لك بكل ما فيها من أثاث مقابل خمسة عشر دولار فى الشهر على أن تدفع لى عاماً مقدماً وصهرك يعلم عن أملاكى كل شىء » .

حاول مارتن أن يكون عملياً . . ألم يكن طبيباً مبتدئاً يود أن يستثمر نقوداً ويصبح من أعظم سكان هويتسلفانيا عاد إلى منزله وتحت مصباح الردهة بأشعته اللامعة فوق الزجاج القرمزى أخذت أسرة توزر تنصت بدقة وكان بيرت ينحنى إلى الأمام فاغراً فاه — وقال بيرت « أنك ستكون آمناً لو تستأجرها لمدة عام ولكن ليس ذلك هو الموضوع الأساسى » .

وزمجر السيد توزر قائلا : « ليس هذا فعلا من المؤكد ، هل نمادى أسرة نور بلومن الآن وقد أصبحوا على وشك أن يقرروا أن يتركوا ذلك المكان ، هل تهزأ بى بعد كل ما تحملته من متاعب فى سبيلك ؟ »

وأخذوا يناقشون الأمر مراراً وتكراراً حتى قاربت الساعة العاشرة ، ولكن مارتن كان حازماً فى رأيه وفى اليوم التالى استأجر منزل وليز شاك . ولأول مرة فى حياته صار له منزلا خاصاً به وبلورا . وفى غمرة زهوه بالامتلاك كان ذلك البيت فى نظره أفخم مبنى على سطح الأرض وكان كل حجر ومقبض باب فى هذا المنزل شىء فريد وجميل فى نظره . وعند غروب الشمس ، وكان الأفق الملتهب يمتد فسيحاً أمامه وهو متمدد يتأمل فى نشوة وفجأة وجد لورا جانبه وذراعيها حول عنقه — فأخذ يغنى مستشرفاً آماله المقبلة . .

« أتدرى ماذا وجدت فى المطبخ هنا ؟ برية خشب عتيقة بديعة ، يعلوها الصدأ قليلا . . وبوسعى أن أحضر صندوقاً وأعمل منه رفاً لأنابيب الاختبار بنفسى ».

الفصل الخامس عشر

وبدون الملاحظات الشاذة على (تجار الطب) التى طالما كانت تضايق جميع من فى بيت الطلبة « ديجامابى » أخذ مارتن يدرس فهرست شركة نيو أيديا للأدوات الحديثة والأثاث فى جيرسى سيتى . كان مجلداً فخما له غطاء أخضر ناعم رسمت عليه باللونين الأحمر والأسود صورة المدير العام وهو رجل بدين شاحب اللون يحب جميع الأطباء الصغار . ومن المؤكد أنه أمضى لياليه وأيامه فى العمل الجاد من أجل تقدم العلوم ، كما رسمت عليه صورة نائب الرئيس ، وهو أستاذ سابق لمارتن يعرف باسم دكتور روسكر جيك يضع على عينيه نظارة جميلة ويبدو من مظهره الخارجى الأناقة والتمدن . وكتب على الغلاف أيضاً فى مكان صغير مدهش قدراً من الشعر المنثور والوعد الملهم ونصه كالآتى :

« أيها الطبيب ، لا تتكاسل بعدم إقامة المشاريع — ليس هناك منطق يقر أن تعوزك الحاجة إلى المعدات التى تؤثر فى نفس المريض وتيسر العمل ، وتجلب الشرف والثراء — إن جميع المعدات الممتازة التى تميز قوة المهنة والعاديين فى متناول يدك فوراً عن طريق شركة نيو أيديا ، ولن تكلفك سوى شيئاً قليلا من الأرباح المتزايدة التى تحققها لك معدات نيو أيديا » .

وفى الحافة العليا كتبت بحروف بارزة العبارة الآتية «أن الذى يصل إلى مرتبة الأطباء — الحكماء الأبطال دون جشع يحق له أن يفخر فخر الجندى أو المكتشف أو رجل الحكم . أيها السادة نحييكم ونتشرف بأن نقدم لكم أحدث كتالوج أخرجته شركات المعدات الطبية » .

وعلى الرغم من أن ظهر الغلاف لم يكن يبدو رائعاً بالألوان الحمراء والخضراء كالغلاف السطحى ، فإنه كان مثيراً أيضاً وكان عليه رسومات توضيحية للمعدات الآلية الطبية والخزانة الكهربائية مع التعليق التالى :

أيها الطبيب هل تحول مريضك إلى إخصائيين فى استئصال لوزة الحلق أو العلاج ؟ إذا كنت تفعل ذلك فإنك تفقد فرصاً للظهور كطبيب له اعتباره فى مجال التقدم الطبي فى المنطقة التى تعيش فيها وتفقد دخلا كبيراً ، فهل تريد أن تصبح طبيباً ممتازاً ؟ هناك الطريق مفتوحاً أمامك .

إن أجهزة بند لدروف لا تمتاز بأنها مفيدة فحسب بل إنها أيضاً رائعة فى منظرها وتضفى البهجة على كل عيادة . إننا نضمن لك بتركيب جهاز بند لدروف (أنظر التفاصيل صفحة ٣٤ ، ٩٧) وتستطيع أن تزيد دخلك من ألف إلى عشرة آلاف دولار ، فضلا عن أنك سوف تريح مريضك أكثر باستخدام أعظم مانع للآلام .

عندما تدوى الصيحة الكبرى قائلة ، أيها الطبيب ، لقد حان الوقت لتأخذ مكافأتك ، فهل يرضيك ما هو أدنى .

— ٢ —

أهمل مارتن الشعر العاطفى لأن رأيه فى الشعر كرأيه فى الخزائن الكهربائية ، بيد أنه طلب فوراً حامل صلب ومعقم وقوارير وأنابيب اختبار وجهاز مطلى بالمينا البيضاء له روافع جميلة ومفاتيح يمكن بواسطتها تحويله من مقعد للكشف إلى منضدة عمليات ، وبينما كان مارتن يتأمل صور الأجهزة كانت لورا تبدى إعجابها « بحجرة الإستقبال المكونة من سبع قطع مصنوعة من شجر البلوط قائلة سوف تضفى البهجة على عيادتك وتجعلها فى مصاف أعظم الإخصائيين فى نيويورك . »

فقال مارتن : « دعيهم يجلسون على مقاعد عادية » .

وألفت السيدة توزر أن المقاعد القديمة الموجودة بالطابق العلوى وافية بالغرض ولا بأس بها ، وتصلح كحجرة للاستقبال ، وأن دولاب خزانة الكتب القديمة إذا ما قامت لورا بتزيينه بورق قرمزى صار قطعة بديعة للمعدات الطبية . وحتى يصل

مقعد الكشف كان مارتن يستخدم أريكة وايز ، وانهمكت لورا فى تغطيتها بقطعة من الشمع الأبيض وكان يوجد خلف الحجرة الأمامية لمبنى العيادة الصغيرة حجرتان صغيرتان كانت إحداهما تستخدم كمطبخ والأخرى حجرة للنوم سابقا ، فجعل مارتن إحداها حجرة استشارات والأخرى كمعمل . وقد أعد مارتن رفوفاً للمعدات الزجاجية وحول موقد كيروسين قديم إلى فرن هواء لتعقيم المعدات الزجاجية . وقال :

« لكن أصغى يالورا ، إننى لن أعبث بإجراء أبحاث علمية فقد اكتفيت منها ومللتها . »

وابتسمت لورا ببراءة . وبينما كان فى عمله ، كانت هى تجلس وسط الأعشاب الطويلة الغزيرة خارج العيادة — تستنشق نسيم المروج ويداها إلى جانبها . وكانت تدلف كل ربع ساعة إلى العيادة لتبدى إعجابها .

وعند تناول العشاء عاد مستر توزر ومعه لفة ، وفتحتها الأسرة ، وأخذوا يتحدثون . وبعد العشاء أسرع مارتن ولورا ومعهما الكنز الجديد إلى العيادة وثبتاها فى مكان واضح . وكانت عبارة عن لوحة زجاجية كتب عليها بحروف مذهبه « م . أروسميث بكالوريوس فى الطب » . ومضيا يتطلعان إليها وأذرعهما ملتفة حول عنقيهما وقالا بوقار « هاك — يا للروعة ! » .

وجلسا فى الحجرة الخلفية يمرحان بحرية بعيدا عن أسرة توزر . وعلى طول السكة الحديد أخذ قطار البضاعة يسير بصوت مرح . وكان الوقاد يلوح إليهما من القطار وبعد أن يمر القطار يعم الصمت ، ولا يسمع سوى نقيق الضفادع وصوت الصراصير وقال مارتن « لم أشعر بمثل هذه السعادة قط فى حياتى . »

كان مارتن قد أحضر معه من زينيث حقيبة الآلات الجراحية ، وبينما كان يضع فيها المعدات أخذ يعجب بمشرطه الحاد الرفيع اللامع والإبر الرقيقة المقوسة وكلابة الأسنان . وكان العميد سيلفا قد نبه على طلبته قائلا :

« لا تنسوا أن الطبيب الريفي لا ينبغي ألا يكون طبيباً فحسب ، بل يجب أن يكون أيضاً طبيب أسنان وقسيسا وقاضيا شرعيا وحدادا وسائقا ومهندس طرق ... وإذا لم تكن تلم بهذه الحرف فلا تبتعد عن طريق الترولي أو تخرج من صالونك . » كان نيلز كراج النجار هو أول مريض يستقبله مارتن في عيادته الجديدة . وهو المريض الثاني الذي وقع مارتن عليه الكشف في هويتسلفانيا . وكان يعوى من تقرح في الأسنان . وكان ذلك قبل أن تعلق اللوحة الزجاجية بأسبوع وقال مارتن مبتهجاً للورا « لقد بدأنا فعلا وسوف تشاهدينهم يندفعون إلينا الآن » .

ولم يندفعوا . وظل مارتن عشرة أيام يلحم موقد تسخين الهواء بالقصدير ، أو يجلس على مكتبه يقرأ ويحاول أن يبدو منشغلا . وتحولت سعادته الأولى إلى غيظ وضيق ، وكاد يصرخ من الكساد وعدم النشاط .

وذات مرة قبيل المساء ، بينما كان يتأهب للعودة كاسف البال إلى المنزل دخل العيادة فلاح سويدى وهو يقول « يادكتور دخلت إصبعي الإبهام سنارة سمك . إنه الآن متورم كله . » وكان أروسميث يرى أن طالب الامتياز في مستشفى زينيث العام يعالج مائة مريض في اليوم الواحد . ولم تكن عملية تضميد الجروح عملية ذات أهمية على الاطلاق ، ولكنها بالنسبة للدكتور أروسميث في هويتسلفانيا كانت عملية ذات أهمية كبرى . وكان الفلاح رجلا مشهورا ولطيفا ، وهز مارتن يده بقوة وقال له « والآن إذا حدث أي شيء اتصل بي تلفونيا — لاشيء سوى أن تتصل بي تلفونيا .

وتوالت عليه أفواج المرضى بشكل كبير يبشر بتحقيق الامل الذى كان هو ولورا يتوقان إليه ويراودهما . . . . الشيء الذى كانا يهمسان فى جنح الليل بشأنه ألا وهو شراء سيارة لاستخدامها فى حالات الاستدعاء فى الريف ورأيا السيارة فى شركة فريزر . كانت سيارة ماركة فورد استعملت لمدة خمسة أعوام وفراشها الداخلى ممزق ومحركها فى حالة سيئة ولوالبها صنعها حداد لم يكن قد صنع لوالب من قبل ، وكان الصوت الذى يسمع فى هويتسلفانيا بعد صوت الآلات بمصنع الألبان هو صوت باب سيارة فريزر وهو يغلقه ، إذ كان يصفعه بشدة ويعيد غلقه ثلاث مرات قبل أن يصل إلى منزله ، ولكنها كانت فى نظر مارتن ولورا ، بعد أن اشتريا لها ثلاثة إطارات وتغييرا؛ أعظم سيارة على وجه البسيطة اذ صارت ملكا لهما يذهبان ويغدوان بها عندما وأينما يريدان .

عندما كان مارتن يمضى أجازته الصيفية فى فندق كندى تعلم قيادة السيارة ستيشن واجون ، بيد أنها كانت أول محاولة للورا . وكان بيرت يعطيها كثيراً من التعليمات حتى أنها رفضت أن تقود سيارة الأسرة ماركة « أوفرلاند » وعندما جلست لأول مرة أمام عجلة القيادة وحركت مفتاح البنزين بأصبعها الصغير وأحست أن فى يدها كل هذه القوة التى تمكنها من أن تجرى بأقصى سرعة تريد (فى حدود ضيقة) وأنها فاقت القوى البشرية وشعرت أنها تستطيع أن تطير كالأوز البرى — عندئذ وفى الرمال الممتدة أهلكت محرك السيارة وصار مارتن السائق الشيطان فى القرية فإنك لكى تركب معه السيارة يجب أن تمسك قبعتك وتغلق عينيك وتنتظر الموت . وكان من الملاحظ أنه يسرع فى النواصى ليجعل ذلك أشد إثارة ، وكان عندما يرى أى شيء يسير على الطريق سواء كان ذلك سيارة أخرى أو جرو أصفر يثور جنونه . ولم يكن ليهدأ حتى يلحق به ويسبقه وقد أعجب سكان القرية بالطبيب الذى صار سائقا ممتازاً ،وكانوا يتوقعون باهتمام بالغ أن يسمعوا أنه قتل ومن المحتمل أن نصف العدد البالغ إثنى عشر مريضا الذين وفدوا إلى عيادته قد جاءوا إليه بسبب الفزع من قيادته للسيارة . .

والباقين لم يكونوا فى حالة مرضية خطيرة بل كان أقرب إليهم من الدكتور هيسلنك فى جرونيجنى .

— ٤ —

لقد كون مارتن أول أعداء له من بين أوائل المعجبين به ، فعندما كان يقابل أفراد أسرة نور بلومز فى الشارع (ومن السهل فى هويتسلفانيا أن تقابل كل الناس كل يوم) كانوا ينظرون إليه محملقين ، ثم صار أيضاً عدواً لبت يسكا . كان بت يدير ما يسمى على حد تعبيره « بمخزن أدوية » وهو مخصص لبيع السكرات والصودا والأدوية المركبة والصحف وآلات الغسيل ومستلزمات فورد . ولولا أن بت كان أيضاً وكيلا للبريد فى البلدة لمات جوعا ، وكان يدعى بأنه مرخص له بمزاولة مهنة الصيدلة . وكان لفرط جهله بمهنته يتخبط فى تركيب الأدوية ، حتى اندفع مارتن إلى مخزنه صاخبا وصارحه مهاجماً .

فقال له بت : « انكم أيها الأطباء الصغار تزعجوننى إننى أركب الأدوية وأحضرها منذ أن كنت فى المهد . . . وأن الأطباء كبار السن الذين أقاموا هنا درجوا على إرسال كل شىء إلى وأن طريقتى فى أداء الأمور تروقنى ، ولن تجعلنى أنت أو غيرك أغير من مألوف طريقتى شيئاً . »

وبعد ذلك اضطر مارتن إلى شراء الأدوية اللازمة من سيتى بول ويكدسها فى معمله الصغير ويحضر البرشام الذى يلزمه والمراهم التى يحتاج إليها وهو ينظر متحيراً فى لهفة إلى أنابيب الاختبار التى لم يستعملها كثيراً والتراب المتراكم على مجهره ، بينما انضم بت يسكا إلى أسرة نور بلومز فى التهامس عليه قائلين للناس « هذا الطبيب الجديد الصغير ليس منه أية فائدة هنا والأفضل أن تستمروا فى الذهاب إلى طبيبكم المعروف هيسلنك . »

— ٥ —

وفى ذات أسبوع وهو يعانى من الكساد والكسل سمع جرس التليفون يدق

فى الساعة الثالثـــة صباحا فى منزل توزر فاندفع نحوه كما لو كان ينتظر رسالة تأتيه من حبيبته وسمع صوتاً يقول : « أريد أن أتحدث إلى الدكتور »

« هه — هه — هذا هو الدكتور الذى يتحدث »

إننى هنرى نوفاك أقيم على مبعدة أربعة أميال فى الشمال الشرقى على طريق ليوبوليس ولى ابنة صغيرة تعانى من التهاب مفزع فى الحلق وأظن أنها مريضة بذبحة الحلق وأظن حالتها سيئة للغاية و — فهل يمكن أن تأتينا فوراً ؟ »

« انتظر — سوف أكون عندكم فوراً »

أربعة أميال — أنها مسافة يستطيع أنْ يقطعها فى ثمانى دقائق ، وارتدى مارتن ملابسه بسرعة وربط رباط عنقه الهلهل كيفما كان بينما كانت لورا مستيقظة لأول استدعاء تليفونى له فى الليل ، واندفع بعنف بسيارته الفورد ومضى يجرى بها محدثا صوتاً مجلجلا مارا بالمحطة ومخترقا حقول القمح . وعندما قطع ستة أميال كما أوضح مؤشر المسافات أخذ يبطىء فى السير وينظر عند مدخل كل قرية ليسأل عن صاحب الاسم . وأدرك أنه قد ضل طريقه وسار وسط طريق مزرعة ، ثم وقف تحت شجرة الصفصاف وقد وقعت الأضواء الأمامية للسيارة على صفائح لبن وعجلات ماكينة حصاد مهشمة وأحبال غليظة وأعمدة صيد أسماك واندفع من الجرن كلب متوحش ينبح بشدة ويقفز فوق السيارة ، وظهرت رأس شعثاء الشعر من نافذة طابق أرضى وصاح رجل اسكندنافى قائلا « ماذا تريد ؟ »

« أنا الدكتور — أين منزل هنرى نوفاك ؟ »

« أوه ، الدكتور ، دكتور هسلينك ؟ »

« لا — دكتور أروسميث »

« آه . دكتور أروسميث من هويتسلفانيا ؟ حسناً لقد قربت من منزله أرجع ميلا واحداً ثم اتجه إلى اليمين إلى جوار مبنى المدرسة ، وستجده على بعد أربعين

متراً من الطريق — وهو منزل به صومعة غلال من الأسمنت . هل هناك أحد مريض فى منزل هنرى ؟ »

« أجل ـ أجل ـ إنها ابنته مصابة بذبحة فى الزور ... شكراً ـ » .

« التزم اليمين فلن تضل الطريق . » ومن المحتمل أنه ما من إنسان قد سمع عبارة « لن تضل الطريق » إلا وقد ضله .

واندفع مارتن بسيارته وسط الوحل وجرى على الطريق واتجه نحو تلك الناحية المجاورة لمبنى المدرسة بدلا من هذه الناحية ، وجرى نصف ميل فى طريق مستنقعى وسط المراعى ، ثم وقف عند منزل ريفى ، وخلال الصمت العجيب الذى يعم المكان كان يسمع صوت الأبقار وهى تأكل ، وأجفل حصان أبيض فى الظلام ، ورفع رأسه متعجباً ... وكان لا بد لمارتن أن يوقظ من فى المنزل بصوت نفيره المزعج ، وظهر فلاح وقد استشاط غضباً وقال : « من هناك كأننى سمعت عياراً ناريا . » ثم أعاد مارتن إلى طريق القرية .

كانت قد مضت أربعون دقيقة منذ أن دق جرس التليفون حتى وصل مارتن إلى طريق متعرج غير ممهد ، ورأى على مدخل باب منزل أمام مصباح السيارة رجلا محدوب الظهر ، صاح قائلا ؟ « الطبيب ؟ هذا هو منزل نوفاك » .

وجد مارتن الطفلة فى حجرة نوم جديدة مطلية حوائطها بالجبس ودهنت بلون صنوبرى باهت ، وليس بها سوى سرير من الحديد ، وكرسى مستقيم ، ومصباح يد بلا مظلة على رف قديم وقد كسر حدة لمعان الشقة ، وهى امتداد حديث للمنزل الريفى . وكانت هناك امرأة عريضة المنكبين تركع إلى جوار الفراش ، وعندما رفعت وجهها الأرجوانى المبلل قال لها نوفاك : « لاتبكى الآن ؛ لقد حضر الطبيب . » وقال لمارتن : « إن الطفلة فى حالة سيئة جداً وقد عملنا كل ما فى وسعنا لها . وفى الليلة الماضية وفى هذه الليلة أخذنا نبخر حلقها ونقلناها هنا إلى حجرة نومنا الخاصة . »

كانت مارى طفلة فى السابعة أو الثامنة ، ووجد مارتن أن شفتيها وأطراف أصابعها زرقاء ، بيد أنه لم يكن فى وجهها احمرار . وعندما تحاول أن تتنفس كانت تتلوى وتختنق على نحو فظيع ، وعندما كانت تسعل ينثال لعابها ملونًا ببقع رمادية . وانزعج مارتن عندما أخـــذ الترمومتر الطبى ونظر إليه نظرة فنية عجيبة .

وقد قرر مارتن أنها حالة ذبحة فى الحنجرة أو دفتيريا ، ومن المحتمل أن تكون دفتيريا . ولم يكن لديه متسع من الوقت عندئذ لإجراء تحليل بكتريولوجى ، إذ لم تكن معه معدات التحليل الآن ، وخيل إليه كما لو أن النطاسى سيلفا يملأ الحجرة ، ويطرد جوتليب القاسى الصارم . وانحنى مارتن على الفراش غير المنسق ، وهو غائب الذهن ؛ محاولا أن يجس النبض من جديد مرارا وتكراراً ، وأحس بعجزه لعدم وجود معدات مستشفى زينيث العام ، وممرضاتها ونصائح أنجوس ديور الأكيدة ، وشعر باحترام مفاجىء للطبيب الريفى المنفرد .

وكان لا بد أن يقرر قراراً حاسماً قد يكون خطيراً ... إنه سوف يستخدم دواء مضادا للدفتيريا ولكن من المؤكد أنه لا يستطيع أن يحضره من بت يسكا فى هويتسلفانيا ، أو يذهب إلى ليوبوليس ؟ .

فقال لنوفاك :« أسرع واستدع لى بلاسنر صيدلى ليوبوليس على التليفون» وبكل هدوء ممكن تصور بلاسنر وهو يحضر إليه بسيارته فى الليل باحترام ومعه المصل المضاد بناء على طلب الدكتور . وبينما كان نوفاك يتحدث فى التليفون فى حجرة الطعام كان مارتن ينتظر — وظل ينتظر — وهو يحملق فى الطفلة . وكانت السيدة نوفاك تنتظر وهى تتوقع أنه سيأتى بالمعجزة . وأخذت الطفلة تشهق شهيقاً فظيعاً ، وقد أنعسته الأضواء المنعكسة على الحائط والسقف، وتأخر إحضار المصل والعقاقير المضادة . صار الوقت ثمينا ... فهل يبدأ فى إجراء عملية فيسلك القصبة الهوائية حتى تستطيع الطفلة أن تتنفس ؟ ووقف قلقاً ثم عرق فى

النعاس وأيقظ نفسه ... كان لا بد أن يفعل شيئاً . وكانت الأم جاثية إلى جوار ابنتها وهى تتطلع إليه فاغرة فمها ، وقد بدأت تفقد الثقة فيه . فقال مارتن مغتاظاً: « إحضرى ملابس ساخنة — منشفة — ولفيها حول رقبة الفتاة . عسى أن يوفقه الله إلى إجراء المكالمة . » وبينما كانت السيدة نوفاك تخطو فى خفها السميك وهى تحضر القماش الساخن ظهر نوفاك وهو يقول «ليس هناك أحد نائم فى مخزن الأدوية وتليفون منزل بلاسنر مشغول » .

« إسمعى . أخشى أن يكون ذلك المرض خطيراً ، ولا بد أن أحضر الدواء المضاد . سأذهب بالسيارة إلى ليوبوليس وأحضره . وعليك أن تجعل هذه اللفافة الساخنة كما هى و — وعسى أن تكون هنا بخاخة ، كما يجب أن تكون الحجرة رطبة . هل لديك موقد كحول ؟ أغلى بعض الماء هنا ولا تستخدمى الدواء وسوف أعود فوراً . »

وقطع مارتن المسافة إلى ليوبوليس ، وهى أربعة وعشرون ميلا ، فى سبعة وثلاثين دقيقة . ولم يبطىء حتى عند مفارق الطرق . لم يكن يعبأ بالمنحنيات ولا بجذوع الأشجار الملقاة فى الطريق إذ كان يخشى دائماً أن يحدث تورماً . وكانت السرعة وعدم حرصه قد جعلت نفسه مزهوة . كان عظيما أن يكون وحده فى الهواء الطليق الرطب بعد أن تألم من القلق البادى على السيدة نوفاك وهى تتطلع إليه . وظل طيلة الوقت يتصور صفحة أوسلر عن الدفتيريا . أخذ يتصور نفس صور الكلمات والتى نصها « فى الحالات الحادة تكون الجرعة ٨٫٠٠٠ — « لا ، آه — أجل — ١٠٫٠٠٠ إلى ١٥٫٠٠٠ وحدة ».

وعادت الثقة إلى نفسه وأخذ يحمد آلهة العلم على العقاقير المضادة. وعلى بنزين السيارة . كانت الحالة كما قرر ، سباقاً مع الموت . وقال مبتهجاً « سوف أفعلها — سوف أشفى وأنقذ حياة المسكينة الصغيرة » .

واقترب من مزلقان ، واتجه نحوه غير عابىء بالقطارات التى قد تمر . وتنبه

إلى صوت صفارة شديدة ورأى ضوءاً يلتمع على القضبان ويقترب ويزداد بسرعة ومر به على بعد عشرة أقدام من عجلات سيارته الأمامية قطار الأكسبريس فى سرعة البركان الثائر . كان الوقاد يتون الآلة . وبالرغم من وميض الفجر البازغ كان الضوء المشع من موقد الاحتراق متوهجاً على الجانب السفلى . وفى الحال اختفى شبح القطار وجلس مارتن يرتجف . وأخذت يداه ترتعدان فوق عجلة القيادة وقدماه ترتجفان فوق فرملة السيارة . ترتشمان فى رقصة سانت فيتوس » .

وقال : « هذا شيء مفزع مفاجيء » . ومضى يفكر فى لورا التى تركها وحدها مع أسرة توزر ، بيد أن منظر ابنة نوفاك وهى تتقلص مع كل زفير مؤلم غطى على هذه الأمور ، ثم زمجر قائلا : «يا للجحيم لقد أهلكت السيارة» واندفع بالعربة إلى داخل ليوبوليس .

كانت بلدة ليوبوليس التى يبلغ سكانها أربعة آلاف نسمة هى العاصمة، ولكن فى سكون الفجر العميق كانت مثل جبانة صغيرة ، فكان الشارع الرئيسى رمليا مسطحا والمحلات الصغيرة كأكواخ مهجورة ، وألفى مكاناً واحداً يدب بالحركة وهو مكتب فندق داكوتا حيث كان الموظف الليلى يلعب القمار مع سائق أتوبيس وشرطى المدينة وأخذتهم الدهشة من دخوله المدينة بطريقة هستيرية .

« أنا الدكتور أروسميث من هويتسلفانيا ، وهناك فتاة تموت من نوبة دفتريا فأين منزل بلاستر ؟ تعال معى فى السيارة وأرشدنى إلى المنزل » .

كان جندى الشرطة رجلا عجوزاً طويلا نحيفاً ، وكانت سترته مفتوحة وتحتها قميص بدون ياقة وبنطلون مهلهل ، وفى عينيه حزم . وقاد مارتن إلى منزل الصيدلى ، وطرق الباب ، ثم وقف ووجهه مرفوعاً فى رطوبة الضوء الباكر ، وأخذ يصيح « أه . . هاى . . تعال » .

وصاح « أد بلاسنر » من نافذة الطابق العلوى. وبالنسبة إليه لم يكن الموت أو الأطباء الجازعون شيئاً حديثاً عليه، وبينما كان يرتدى ثيابه، سمع صوته وهو يتحدث

إلى زوجته الناعسة عن آلام ومتاعب الصيادلة ورغبته فى الانتقال إلى لوس أنجلوس حيث يقتنى العقارات . . وألقى عنده العقار المضاد للدفتريا ، وبعد مضى ست عشرة دقيقة على نجاة مارتن من الموت بوساطـــة القطار ، كان يسرع نحو منزل « هنرى نوفاك » .

— ٦ —

كانت الفتاة ما زالت على قيد الحياة وهو يدخل مندفعاً إلى المنزل . وكان يتصور طوال الطريق أن الفتاة تموت وقال : « الحمد لله ! » وطلب بصوت غاضب ماء ساخناً . ولم يعد بعد الطبيب المرتبك ، بل الدكتور الفدائى الحكيم الذى فاز فى سباق الموت وهو يقرأ فى عينى السيدة نوفاك الريفية وطاعة هنرى العصبية قوته وسلطانه . وبسرعة ورقة أعطى حقنة مضادة فى الشريان ووقف متوقعاً حدوث شيء . فى بادىء الأمر لم يحدث تغيير على تنفس الطفلة ، وبينما كانت الطفلة تتعثر فى التنفس حدثت بقبقة وتقلص أسود فى وجه الطفلة ، ثم سكت ، ونظر مارتن وهو لا يكاد يصدق . وببطء بدأ نوفاك وزوجته يحملقان ، ويداهما ترتجفان فوق شفاهما . لقد أدركا أن الطفلة فارقت الحياة .

كانت حالات الوفاة فى المستشفى أمرا طبيعيا ولا يهتم بها مارتن ، فلقد قال لانجوس أنه سمع الممرضات يقلن لبعضهن بعضاً بمرح : « حسناً ... لقد توفى سبعة وخمسون . » أما الآن فقد كان غاضباً يحدوه العزم على أن يفعل المستحيل . . لم يكن من المعقول أنها فارقت الحياة . . لا بد أن يفعل شيئاً — وظل طوال الوقت يزمجر ويقول : « كان لا بد أن أجرى العملية — كان لا بد من ذلك . . » وكان مصراً على هذه الفكرة حتى أنه لمدة لم يكن ليعى السيدة نوفاك وهى تقول « ماتت ؟ فارقت الحياة ؟ » وأومأ برأسه وهو يخشى أن ينظر إلى المرأة .

« قتلتها . . بهذه الإبرة ! وحتى لم تخبرنا حتى نستدعى لها القسيس ! » .

وخرج وتركها تندب وتنوح ، وترك الرجل فى حزنه وعاد إلى منزله متلجع

القلب . وقال فيما بينه وبين نفسه « لن أعود إلى ممارسة مهنة الطب مرة أخرى » وقال للورا « لقد فرغ صبرى ، فلست كفئا — لن أستطيع أن أواجه الناس عندما يسمعون عن ذلك — لقد فشلت — سأذهب لأبحث عن وظيفة فى معمل في شركة داوسون هنزيكر أو أى مكان آخر .

كان حماسها يحمل التحية والتقدير وهى تحتج قائلة : « إنك أكبر إنسان مخدوع فى هذه الحياة ، هل تعتقد أنك الطبيب الوحيد الذى توفى مريضه ؟ إننى أعرف أنك فعلت كل شيء تستطيع عمله » .

ولكنه فى اليوم التالى أخذ يسير وهو يحس بقسوة ومرارة زادت حدتها عندما قال السيد توزر عند تناول العشاء « إن هنرى نوفاك وزوجته كانا فى المدينة اليوم ، وقالا إنه كان من المفروض أن تنقذ حياة طفلتهما فلماذا لم تركز اهتمامك وتحاول أن تشفيها بطريقة أو بأخرى ؟ كان يجب أن تحاول ، فإن ذلك شيء مشين لأن أسرة نوفاك لها نفوذ كبير على جميع الفلاحين » .

وبعد مضى ليلة عندما أصبح مارتن متعباً لدرجة أنه لم يستطع النوم . توجه فجأة بسيارته إلى ليوبوليس . كان قد سمع من أسرة توزر ثناء دينياً مستطاباً على الدكتور آدم ونتر فى ليوبوليس ، وهو رجل يقرب من السبعين ، ومن رواد الأطباء فى مقاطعة كرايفسينى . وكان مارتن يبحث عن هذا الحكيم .. وبينما كان يقود سيارته أخذ يهزأ من سباقه الميلو درامى مع الموت ووصل منهك القوى يكسوه التراب إلى الشارع الرئيسى حيث توجد عيادة الدكتور ونتر فوق أحد محلات البقالة فى مبنى أحمر رائع به طنف ذات طراز مصرى . وكانت عتمة المدخل الواسع مهدئة للأعصاب بعد حرارة الحقول ووهجها . كان لا بد أن ينتظر مارتن حتى يستقبل الدكتور ونتر ثلاثة مرضى تبدو عليهم سمات المهابة قبل أن يدخل حجرة الاستشارات . . . وكان الدكتور ونتر رجلا أشيب ذا صوت عطوف رقيقا . كان مقعد الكشف ذا رونق لا يضاهى بذلك الذى كان يستخدمه الدك فيكرسون فى إلك ميلز ، وكانت تجرى عملية التعقيم فى قارورة غسيل ، إلا أنه فى أحد الأركان

كانت توجد حجرة علاج كهربائى بها من الأقطاب الكهربائية والمساند أكثر مما رآه مارتن طيلة حياته .

وقد حكى مارتن قصة أسرة نوفاك وصاح ونتر قائلا ، « لماذا أيها الطبيب . . لقد فعلت كل شىء تستطيع أن تفعله وأكثر . . كل ما فى الأمر أنه مرة أخرى فى الحالات الخطيرة يستحسن أن تستدعى طبيباً أكبر للاستشارة — لا لأنك فى حاجة إلى نصائحه بل لأن ذلك يؤثر على الأسرة ، ويوزع المسئولية . ويمنع أفرادها من الانتقاد . إننى ، آه — غالباً ما كنت أتشرف بأن يستدعينى بعض من زملائى الصغار ، انتظر ، فسوف أتصل بمحرر الجازيت وأعطيه فكرة عن الحالة » .

وعندما انتهى دكتور ونتر من الحادثة التليفونية هز يده بنشاط ، وأشار إلى الحجرة الكهربائية قائلا : « ألم تحضر بعد شيئاً من هذا النوع ؟ يجب يا بنى أن يكون لك شىء مثل هذا . . ألا تعرف أنى أستعملها غالباً ، باستثناء المرضى الذين ليس لديهم مرض ولكن سوف يدهشك أن تعرف كم يؤثر ذلك فى عقول العامة — حسناً يا دكتور — مرحباً بك فى مقاطعة كريسين . هل أنت متزوج؟ ألا يمكن أن يتفضل أنت وزوجتك بتناول الغذاء معنا فى ظهيرة يوم الأحد ؟ إن السيدة ونتر يسعدها أن تقابلكما ، وإننى رهن خدمتكم فى حالة الاستشارات — إننى اتقاضى أتعابا أكثر قليلا من أتعابى المعتادة،وأننى لأرى أنه شىء لا بأس به أن تناقش الحالة مع إنسان أكبر منك » .

وبينما كان مارتن عائداً إلى منزله كان ممتلئاً بالغرور والتباهى السخيف . « إنى سوف أصر عليها مهما كانت الأحوال وفى أسوأ الظروف — لن أكون رديئاً مثل هذا العجوز الذى يود أن يتقاسم أتعاب الكشف » . وبعد أسبوعين نشرت صحيفة هويتسلفانيا ايجل — وهى صحيفة تقع فى أربع صفحات — نبأ جاء فيه « إن إحدى الصحف الموقرة المعاصرة ، جريدة « ليوبوليس جازيت » أوردت مايلى فى الأسبوع الماضى عن أحد أبناء قريتنا الذى نرحب به فى مجتمعنا حديثاً :

« إن الدكتور أروسميث من هويتسلفانيا تلقى التهنئة من طبيبنا الكبير الرائد الدكتور آدم ونتر ، ومن أبناء مهنة الطب على طول وادى نهر بونى . ليس هناك مهنة لا يمكن لأفرادها أن يقدروا فضائل بعضهم البعض مثل مهنة الطب .

ولقد أبدى من الشجاعة والغيرة ما يمتدح عليه ، بالإضافة إلى حذقه العلمى . .

لقد استدعى مارتن لعلاج ابنة هنرى نوفاك الفلاح المشهور بالقرب من (يلفت) ووجد الطبيب أن الطفلة الصغيرة على وشك الموت من مرض الدفتريا فبذل محاولات جبارة لإنقاذها وذهب بنفسه لإحضار العقار المضاد من بلاسنر الصيدلى المشهور لدينا والذى تتوافر عنده دائما جميع مايلزم من عقاقير — قطع مارتن المسافة ذهابا وإيابا بسيارته والتى تبلغ ثمانية وأربعين ميلا فى تسع وسبعين دقيقة . ولحسن الحظ كان جندينا المتيقظ دائماً (جو كولى) فى الحراسة ، وساعد الدكتور أروسميث فى الوصول إلى منزل بلاسنر وهب ذلك الإنسان المهذب من فراشه واسرع ليزود الطبيب بما يلزمه من عقاقير ، ولكن لسوء الحظ كانت حالة الطفلة قد ساءت للغاية حتى أنه تعذر إنقاذها . انه بمثل هذه الأحداث والتفكير السريع والمعرفة تصبح مهنة الطب من أهم نعم الله علينا » .

وبعد ذلك نشرت أن الآنسة « أجنس انجلبلاد » قد عادت للمرة الثانية لمناقشة أمراضها التى لاوجود لها إلا فى تصورها ، وبعد ذلك بيومين ظهر هنرى نوفاك وقابل مارتن وأخذ يقول له فى زهو « حسناً يادكتور — لقد فعلنا جميعا كل مانستطيع أن نفعله للطفلة المسكينة ولكننى أعتقد أننى تأخرت كثيراً فى استدعائك ، وإن زوجتى تعانى الآن كثيراً منذ وفاة طفلتها . وقد طالعت أنا وهى مانشر فى صحيفة ايجل عن الحادث وعرضناها على القسيس . وأود يادكتور أن تكشف على قدمى فإنى أعانى نوعا من الروماتزم فى المفاصل . »

الفصل السادس عشر

بعد أن مارس مارتن مهنة الطب فى هويتسلفانيا لمدة عام كان ما يزال طبيبا ريفيا مغموراً ، بيد أن ذلك لم يفت فى عضده وفى الصيف ذهب هوولورا فى سيارتهما إلى نهر بونى للنزهة والاستحمام . وكان الشاطىء يعج بالضجة وغير ملائم . وفى الخريف كان يذهب لصيد الطيور مع برت توزر الذى أصبح محتملا بعض الشىء ، وعندما كان الشتاء يحيل القرية إلى صحراء من الجليد خالية من أشعة الشمس ، كانوا يمرحون فى مركبات الجليد وألعاب الورق والاجتماعات فى الكنائس .

وعندما كان المرضى يتدفقون إلى مارتن للكشف عليهم كانت حاجتهم وطاعتهم بسبب المرض يضفى عليهم سمات الرقة ، بيد أنه فى مرة أو مرتين كان يفقد مزاجه ويثور فى وجه الريفيين السذج الذين يطنبون فى الحديث من أنه أصغر سناً مما ينبغى أن يكون . وفى ذات مرة أو مرتين ، شرب كثيراً من الويسكى فى حفلات القمار فى الحجرة الخلفية بالمتجر التعاونى ، بيد أنه كان قد عرف بأنه طبيب يعتمد عليه ، وأنه حاذق ونزيه ، ولكنه كان أقل شهرة من إليك انجلبلاد الحلاق وأقل نجاحا من نيلز كراج التجار وأهون شأناً لدى جيرانه من عامل الجراج .

ثم وقع حادث وارتكب خطأ جعل مارتن ذائع الصيت على مسافة يبلغ مداها ما يقرب من إثنى عشر ميلا .

فقد توجه ذات مرة للصيد فى الربيع وعندما مر بأحد المنازل الريفية ، شاهد امرأة تجرى وتصرخ قائلة بأن طفلها قد بلع كستبانا ويكاد يموت ، وكان مع مارتن فى صندوق معدات الجراحة مبضع كبير فأخرجه وشحذه على مسن المزارع الحجرى ، ثم عقمه فى غلاية الشاى ، وبدأ يجرى عملية فى حنجرة الطفل وبذلك أنقذ حياته .

وأخذت جميع الصحف فى وادى نهر بونى تنشر فقرات عن هذا الحادث ، ولم

بعض وقت طويل على ذلك ، حتى وكان قد عالج الآنسة اجنس إنجلبلاد وشفاها من مرض طال أمده .

كانت تشعر ببرودة في يديها وبطء في الدورة الدموية ، وقد استدعى في منتصف الليل ، وكان مستغرقا في النوم بعد أن قطع مسافة قريتين في طريق موحل . وقد أعطاها تحت تأثير النعاس جرعة زائدة عن الحد من الأستركنين صدمتها وأثارتها لدرجة أنها قررت أنها أصبحت في حالة جيدة ، وكان التغير الذي طرأ عليها واضحاً وملحوظا حتى أن حالتها صارت أكثر إثارة للاهتمام من حالتها المرضية ، وكان الجميع لا يبدون اهتماما كبيراً بالأعراض التي كانت بادية عليها ، وأخذت تتجول وتمتدح مارتن أينما ذهبت . ومضى العالم كله يقول « علمنا أن الدكتور أروسميث هو الإنسان الوحيد الذي شفيت أجنس على يديه » .

وصار مارتن ذائع الصيت مشهوراً ، وانتقلت لورا معه إلى منزل صغير خاص بهما تاركين منزل توزر . وبهذا المنزل حجرة طعام بها موقد مطلي بالنيكل ، ومشمع جميل رائع جديد للأرضية وبوفيه من خشب البلوط الذهبي . واشترى جهاز أشعة رونتجن ، وعين مديرا لبنك توزر ، وتزاحمت عليه الأعمال حتى أنه لم يعد يتوق إلى أبحاثه العلمية التي لم يعد لها أثر .

وقالت لورا وهي تتنهد : « انه لشيء موحش أن يتزوج الإنسان . كنت أتوقع أنني سوف أتبعك في الطريق ولكن لم أكن أتوقع إطلاقا أن أمسي من دعائم المجتمع حسناً — إنني غاية في الخمول حتى أتطلع إلى زوج جديد ، بيد أنني اريد أن احذرك من أنك عندما ستصبح مشرفا على مدرسة يوم الأحد فلا تنتظر مني أن أعزف لك على الأرغن وأبتسم لفكاهاتك الحادة التي تقولها عن ويلي الذي لا يحفظ كتابه المقدس . »

— ٢ —

وهكذا أخذ مارتن يرقى حتى أصبح مهيب الجانب . وفي خريف عام ١٩١٢ عندما كان السيد دبس والسيد روزفلت والسيد ويلسون والسيد تافت يقومون بحملات دعائية انتخابية للرئاسة كان مارتن قد أمضى في هويتسلفانيا عاما ونصفا . وكان برت توزر قد صار من بين المساعدين البارزين في حملات الدعاية الإنتخابية ،

وكان قد عاد من اجتماع الولاية الذى عقد لحراس الغابات الجدد فى أمريكا . وفى خاطره كانت تجول أفكار شتى، فلقد أرسلت مدن كثيرة وفوداً للدعاية الانتخابية إلى الاجتماع كما بعثت بلدة جيروتنجن ركبا من خمس سيارات على كل سيارة بيرق مستطيل رائع « جروتنجن تؤيد البيض وقذارة الزنوج » .

وعاد برت وهو يصيح قائلا لابد أن يعلق على كل سيارة فى المدينة بيرق باسم هوتيتسلفانيا ، واشترى ثلاثين بيرقا . وكانت تبـاع فى المصرف بسعر الواحد ٧٥ سنتا . وكان برت يقول لـكل من يحضر إلى المصرف ، هذا هو سعر التـكلفة ، وهو سعر كان على بعد ، أحد عشر سنتا من الحقيقة . وهرع مسرعاً إلى مارتن وهو يقول له « : يجب أن تـكون أول إنسان يرفع بيرقا على سيارته . »

فقال مارتن معترضاً : « أنا لا أحب أن أرى سخافات كهذه ترفرف فوق سيارتى . وما الغرض من ذلك على أية حال ؟ »

« ما الغرض ؟ لتعلن عن مدينتك طبعاً . »

« ما الذى تريد أن تعلن عنه فيها ؟ هل تعتقد أنك ستجعل الغرباء يعتقدون أن هويتسلفانيا عاصمة مثل نيويورك أو چيم تاون عندما تعلق خرقة متربة على سيارة قديمة ؟ »

« ليس لديك أية وطنية ، أقول لك يا مارتن إذا لم تعلق بيرقا فإننى سوف أتـكفل بأن أجعل كل إنسان فى المدينة يلحظ ذلك ! »

وبينما كانت جميع السيارات القديمة فى القرية تعلن للعالم أو على الأقل لمدى عدة أميال من العالم أن هويتسلفانيا أعظم مدينة فى المنطقة ، كانت سيارة مارتن الفورد تسير بدون أية بيارق أو أعلام — وعندما كان أعداؤه من أسرة توربلوم يقولون « إننا نود أن نرى إنسانا له روح شعبية ويقدر المـكان الذى يرتزق منه » كان سكان القرية يهزون رؤوسهم ويبصقون . وبدأوا يشكون فى شهرة مارتن الذى اعتبروه صانع المعجزات .

— ٣ —

كان لمارتن أصدقاء أعزاء كالحلاق ، ورئيس تحرير صحيفة ايجل ، وصاحب الجراج — وكان يتحدث إليهم بارتياح عن الصيد والمحاصيل ، وكان يلعب معهم الورق . ومن المحتمل أن صداقته معهم كانت ودية للغاية . وكان هناك اتجاه فى مقاطعة كرينسين أنه يصح لموظف صغير أن يتناول مشروبا من آن لآخر على أن يكون ذلك سراً ، وأن يكفر عن ذلك بزيارة قسيس القرية المجاورة . ولكن علاقة مارتن بالقسيس لم تكن قوية ، وبذلك لم تختف عادة شرب الخمر ولعب الورق التى كان مارتن يواظب عليهما .

وإذا مل مارتن من حديث قساوسة كنيسة الأخوة المتحدة عن العقائد ومساوىء السينما والتبرعات الفادحة لرعاة الكنيسة فإنه لم يكن يمل لأنه كان شابامتعاليا حساسا ، ولكن لأنه كان يجد لذة فى أحاديث صاحب الجراج الملحة عن ذكرياته السابقة فى لعبة البوكر . وفى جميع أنحاء المقاطعة كانوا يحتفون بلاعبى البوكر ، وهم أشخاص ريفيون فى مظهرهم تبدو عليهم سمات البلاهة ، وكانوا يجلسون مرتدين قمصانا ذات أكمام طويلة يمضغون الطباق كما كانوا قليلى الكلام . وكانوا يسعدون بنهب البحارة المسافرين . وعندما تكون هناك — « دورة رياضية كبيرة » كان أبطال المقاطعة ينزلون فى سكون ويبدأون اللعب — وكان يفد لهذا الغرض الترزى من ليوبوليس والحانوتى من فاندر هيدز جروف والإسكافى من سانت ليوك والرجل الضخم الجسم الأحمر ا. جه من ميلودى ، وهو شخص لا تعرف له مهنة .

وفى ذات مرة (تلك المرة التى ظل الناس يرددون وقائعها بافتخار فى كل مكان) استمر اللعب لمدة اثنتين وسبعين ساعة متصلة فى مكتب جراج هويتسلفانيا ، وكان اسطبلا عموميا انتشرت فيه الحبال والسياط الطويلة ، وكانت رائحة الخيول تختلط برائحة بخار البنزين . كان اللاعبون يفدون ويذهبون ، وكانوا أحياناً ينامون على الأرض لمدة ساعة أو ساعتين بيد أنهم لم يكونوا فى عددهم يقلون عن أربعة

فى اللعبة ، وكانت رائحة السجاير الرخيصة والسيجار القوى تعم المكان حول المنضدة كالروح الشريرة — وكانت الأرض تنتشر فيها أعقاب السجاير والكبريت وورق اللعب القديم وزجاجات الويسكى . ومن بين اللاعبين كان مارتن وإليك انجلبلاد الحلاق وسائق القطار . وخلع الجميع ملابسهم واكتفوا بالفنلات ،وظلوا يلعبون دون أن يتحركوا من أماكنهم ساعة بعـــــد ساعة ينزلون بأوراقهم وعيونهم مبهورة ومتفتحة .

وعندما علم برت توزر بذلك ، خشى على شهرة هويتسلفانيا وسمعتها الطيبة ومضى يتحدث مع كل إنسان يلقاه عن وسائل مارتن الشريرة وعن احتماله وصبره. وبذلك حدث أنه عندما كان مارتن فى أوج نجاحه والثقة فيه كطبيب ، دارت الهمسات على طول وادى نهر بونى تذيع أنه رجل مقامر وأنه سكير وأنه لم يذهب إطلاقا إلى الكنيسة ، ولا يطيع أية تعاليم من تعاليم السماء وأبدى كل الناس الطيبين أسفهم« من المسىء أن نرى رجلا شاباً نابها كهذا ينحرف » .

وبقدر ما كان مارتن قويا صار فارغ الصبر وأخذ يؤول تأويلا سيئا التحيات الملقاة إليه بحسن نية « يجب أن تترك لنا شيئاً من الشراب يادكتور ، أو أعتقد أنك مشغول للغاية فى لعبة البوكر حتى أنك لا تستطيع أن تحضر بالسيارة إلى المنزل لتكشف على المريضة» ولقد كان مارتن تعوزه اللباقة عندما سمع نوربلوم يقول لوكيل البوسته « إن شخصا يسمى نفسه طبيبا لأنه كان سعيد الحظ ووفق فى علاج أجنس انجلبلاد الحمقاء لم يكن من الواجب أن يعكف على الشراب ويلطخ شرفه — »

وتوقف مارتن وقال « يانوربلوم ، هل أنت تتحدث عنى ؟ »

استدار صاحب المحل قليلا وقال« إن أمامى أموراً أهم من أن أتحدث عنك»

وعندما استمر مارتن فى سيره سمع ضحكا،فقال لنفسه إن هؤلاء الريفيين كانوا كرماء وإن تظاهرهم كان من ناحية ، اهتماماً عاطفيا ، وهذا أمر لابد منه فى قرية أهم حدث فيها على مدار السنة هو الرحلة التى تقوم بها مدرسة الأحد للأخوة

المتحدة فى الرابع من شهر يوليو . بيد أنه لم يستطع أن يزيل قلقه بسبب تعليقاتهم التى لانهاية لها والتى تثير حنقه ، وكان يحس أن أقل كلمة يفوه بها فى حجرة الكشف سوف تذاع بأعلى الأصوات وتنتقل من أذن إلى أخرى على طول الطرق الريفية .

وكان راضياً بالتحدث عن الصيد مع الحلاق ولم يكن متواضعاً إلا لأنه لم يجد أحداً يتحدث معه عن عمله سوى لوراً . كان أنجوس ديور باردا ولكن أنجوس كان على دراية بكل تغيير يحدث فى فن الجراحة ، وقد صار محاضراً ماهراً . ورأى مارتن أنه إذا لم يكد ويكافح فإنه سوف يجمد فى قيم أخلاقية ضيقة سيئة تحت ضغط القرية ولكنه سوف يلتزم روتينا واحداً لا يتعدى التشخيص وتضميد الجروح .

وربما كان يجد فى الدكتور هسلنيك فى جرونتجن حافزا ومنشطا .

لم ير الدكتور هسلنيك سوى مرة واحدة ، بيد أنه كان أينما ذهب يسمع عنه أنه أعظم طبيب فى الوادى، وبناء على ذلك الدافع توجه مارتن بسيارته ليزوره .

كان الدكتور هسلنيك رجلا فى الأربعين من عمره أحمر الوجه طويلا ، عريض المنكبين وتعرفه فور ما تراه. كان إنساناً حريصاً ولا يخشى شيئا بالرغم من أنه يعوزه التصور والخيال كثيراً . واستقبل مارتن استقبالا عاديا وقال له :

« حسنا ماذا تريد ؟ إننى رجل مشغول » .

فقال دكتور مارتن « يادكتور ، هل تجد صعوبة فى متابعة التطورات المستحدثه فى مجال الطب ؟ » « كلا — أقرأ النشرة الطبية » .

« حسناً ، هل لا — لا أريد أن اكون عاطفيا فى هذا الشأن ولكن هل ترى أنه بدون الاتصال بالأطباء الكبار يحدث للانسان كساد فكرى — ينقصه شىء من التشجيع والإلهام ؟ » .

« أنا لا أرى . فإنى أجد تشجيعاً كبيراً فى مساعدة المرضى »

وفيما بينه وبين نفسه ، كان مارتن يحتج معترضاً قائلا :

«وهو كذلك ... إذا لم تكن تريد أن تنشد الصداقة فاذهب إلى الشيطان .» ولكنه حاول مرة أخرى قائلا « إننى أعرف ذلك ولكن للتمتع بالأمر ولمجرد المتعة فى زيادة المعلومات الطبية كيف يمكن أن تحافظ على مستواك بدون أن يكون أمامك شىء سوى العمل الروتينى بين جماعة من الريفيين ؟ » .

« يا أروسميث إنى قد أحكم حكما غير عادل ، ولكنكم أنتم أيها الأطباء الصغار الذين تتعالون على الفلاحين الذين يؤدون أعمالهم أحسن منكم تعتقدون أنكم إذا كنتم فى المدينة حيث المكتبات والاجتماعات الطبية وغير ذلك من الأمور تستطيعون أن تطوروا أنفسكم . . حسناً انى لا أرى أن هناك ما يمنعكم من أداء عملكم فى المنزل ، إنكم تعتبرون أنفسكم أكثر تعلما من هؤلاء الريفيين ولكنى أسمعك تقول أشياء كثيرة ، كم تقرأ فى منزلك ؟ إننى شخصيا راض جدا ، فإن زبائنى يدفعون أجوراً ممتازة ، ويعجبون بعملى ، وقد شرفونى بانتخابى لعضويه مجلس ادارة المدرسة وانا أعتقد أن الكثيرين من أولئك الفلاحين يفكرون بجديه اكثر من الرعاع الذين أقابلهم فى المدينة . حسنا ، وأنا لا أرى هناك داع يجعلك تتعالى أو حتى تشعر أنك وحيد » .

وقال مارتن « ياللجحيم ، إننى لا أتعالى » .

وبينما كان فى طريقه عائداً إلى منزله أخذ مارتن يزداد غضبا من تباهى هسلتيك بأنه لا يشعر بالتعاظم ، بيد أنه كان يتعثر فى تفكير مقلق حقاً بأنه نصف متعلم ، إنه فعلا خريج جامعة ولكنه لا يعرف شيئا فى الاقتصاد والتاريخ والموسيقى والرسم . . وفى المناسبات العابرة السريعة من أجل الامتحانات كان يطالع اشعاراً لروبرت سرفيس . . . اما النثر الذى كان يقرأه إلى جانب النشرات الطبية فكان قاصرا على ما يطالعه عن أخبار لعبة الباسبول والجرائم فى صحف

مينوبوليس وبعض القصص التى تدور عن « الغرب البرى » فى المجلات .

وكان يستعيد «المحادثة الواعية » التى كان يعتقد وهو فى صحراء هو يتسلفانيا أنه أدارها فى موهاليس ، وتذكر أن كليف كلوسون كان يعتبر أنه يتباهى إذ يستخدم بعض الجمل التى ليست عامية كتلك التى توجد فى أحاديث سائقى عربات النقل ، وأن أحاديثه تختلف كثيراً عن أحاديث كليف إذ أنها كانت أقل جنوحا إلى الخيال وأقل ابتداعا . ولم يكن يستطيع أن يتذكر شيئا سوى فلسفة ماكس جوتليب وتحرشه أحيانا بأنجوس ديور ، وعشر تعسف مادلين فوكس ، ونصائح العميد سيلفا تى كانت تفوق مستوى نصائح إلك أنجلبلاد صاحب صالون الحلاقه .

عاد إلى منزله وفى نفسه مقت شديد نحو هسلنيك ، بيد أنه فى الوقت ذاته لم يكن بأى حال من الأحوال راض عن نفسه . . وجاء إلى لورا ، وبناء على موافقتها الجريئة أعلن أنهما لابد ان يتثقفا حتى ولو كلفهما ذلك حياتهما وسار فى هذا المضمار بمثل ما يسير فى دراسة البكتريولوجى فكان يطالع التاريخ الأوربى على لورا بصوت مرتفع ، وكانت تبدو منتبهة ومهتمة أو على الأقل متسامحه ، وكان يتعجب من الجمل الواردة فى كتاب « الإناء الذهبى » الذى نسيه مدرس سىء الحظ فى منزل أسرة توزر ، واستعار مجلداً لكونراد من محرر القرية ، وبعد ذلك ، بينما كان يجوب بسيارته وسط حقول القرية وعلى عيناه بمجاليها المتعددة الرائعة ، كان يعى كلماته التى يقولها ، ولا يمكن الزعم بأنه صار بسرعة لسنا فصيحا ، ومع ذلك فإنه من المحتمل خلال تلك الأمسيات التى كان يستغرق فى الاطلاع مع لورا قد تقدم خطوة أو خطوتين نحو الافتتان الحزين بعالم ماكس جوتليب — كان افتتانا أحيانا وحزينا دائما ولكن شعوره بأنه تلميذ من جديد لم يكن يجعله يحس بالرضا كما يشعر الدكتور هسلنيك .

— ٤ —

عاد جوستاف سوندليوس إلى أمريكا . وكان مارتن قد قرأ فى مدرسة الطب عن سوندليوس جندى العلوم . كان له دراسات مستفيضة ومعقولة ، بيد

أنه كان رجلا ثريا غريب الأطوار . ولم يكن يكدح فى العمل ، كما أنه لم تكن له عيادة أو بيتاً أو قرينة . وكان يجوب العالم يحارب الأوبئة وينشىء المعاهد ويلقى أحاديثاً غير مناسبة ، ويجرب ألواناً جديدة من الشراب . كان من أرومه سويدية ألمانى التثقيف والتعليم . وكان يجمع بين كل شىء ، وكانت نواديه تقع فى لندن وباريس وواشنجتن ونيويورك . ولقد ذكر مانسون فى كتابه عن الأمراض الاستوائية ، الوسائل الرائعة التى استخدمها سوندليوس فى قتل الفيران باستخدام غاز حامض الهيدروجين . كما نوهت صحيفة « إسكتنس » بطريقته الشنيعة فى لعبة الباكاراه .

كان جوستاف سوندليوس يهتف فى جميع الأرجاء منادياً بضرورة القضاء على جميع الأمراض ، فكان يقول أن السل الرئوى والسرطان والتيفود والطاعون والانفلونزا تعتبر جيشاً غازياً ، ولا بد للعالم أن يجند لمحاربته — والقضاء عليه . وأن سلطات الصحة العامة لا بد أن تعمم المقاومة . كان يلقى خطاباته فى جميع أرجاء أمريكا ، وكانت تأكيداته تنشرها الصحافة .

كان مارتن يهرب من كل صحيفة تنشر مقالات عن العلوم أو الصحة ، ولكنه تأثر بروح سوندليوس القوية ، وفجأة اهتدى من جديد ، وكان هذا التحول شيئاً هاماً فى حياته .

فقال لنفسه أنه مهماً عالج المرضى فإنه أساساً رجل أعمال منافس للدكتور ونتر فى ليوبوليس ودكتور هسلينك فى جرونتجن وأعتقد بالرغم من أنهما قد يكونان أمناء ، فإن الأمانة والعلاج كانا هدفا ثانوياً بالنسبة للحصول على الأموال ، وأن التخلص من جميع الأمراض وتكوين مجتمع صحيح سليم سوف يكون أكبر كارثة عليهم فى الحياة ؛ وإنهم جميعاً بذلك يجب أن يستبدلوا بموظفى الصحة العامة .

وشأن جميع اللاأدريين[1] التحمسين كان مارتن متديناً ، ومنذ إنقضاء عبادته لأستاذه جوتليب مضى مأخوذاً بلا وعى يفتش عن عاطفة مشبوبة أخرى . ولقد ألفاها الآن فى حرب جوستاف سوندليوس التى شنها على الأمراض وأصبح فى الحال مصـــدر ضيق لمرضاه بمثل ما كان لزمـلائه فى بيت الطلبة ديجامابى .

وأبلغ الفـــلاحين فى دلفت أنه ليس لهم الحق فى أن تنتشر بينهم أمراض السل .

ولقد أهاج ذلك الفلاحين وأثار ثائرتهم إذ أنه لم يـكن لهم حق ، بصفتهم مواطنين أمريـكيين . أكثر ممارسة من حقهم فى المرض. ومضوا يقولون حانقين «ماذا يعتقد فى نفسه ؟ إننا نستدعيه للعلاج وليس للرئاسة ، لماذا يقول هذا الأبله اللعين بأنه يجب أن نحرق منازلنا —وأننا نرتـكب جرائم إذا أصبنا بالمرض— إننا لا نقبل أن يخاطبنا أحد هكذا . »

وصار كل شىء واضحاً جلياً أمام مارتن ـــ واضحاً جداً . يجب أن توفر الأمة أحسن الأطباء الموظفين الذين لهم مطلق السلطة فى الحال ، وكان ذلك كل ما هنـا لك . ولـكن كيف يصبح هؤلاء الموظفين منفذين كاملين وكيف يقنـع الشعب بطاعتهم ؟ ألم يكن هناك اقتراح فى هذا الشأن سوى الإيمان والثقة ، وعند تناول الطعام قال وهو ساخط « يوم لعين آخر لـكتابة التذاكر الطبية لأمراض المعدة ... لا يجب أن يحدث ذلك . ليتنى أستطيع أن أقتحم ميدان الحرب الكبيرة على الأمراض مع رجال على شاكلة سوندليوس ... فلقد مللت ! »

وقالت لورا « أجل يا حبيبى إننى أعدك بأننى سأصبح طيبة . إننى لن أخاف من ألم فى المعدة أو مرض رئوى أو أى شىء فأرجو ألا تعظنى »

---

(١) اللا أدرى هو الشخص الذى يعتقد فى استحالة معرفة شىء عن وجود الاله أو أى شىء آخر فيما عدا الظواهر الحسية . « المراجع » .

وحتى فى حالة حنقه كان لطيفاً إذ أن لورا كانت على وشك أن تنجب طفلا .

— ٥ —

كان موعد مولد الطفل بعد خمسة أشهر ، ووعد مارتن بأنه سيحقق لابنه كل ما افتقده هو فى حياته . قال ذات مساء وهو جالس فى فصل الربيع مع زوجته فى شرفة المنزل . « إننى سوف أجعله يتعلم تعليما حقيقيا . سوف يتعلم كل هذه الآداب والفنون وكافة الوداد ، إننا لم نحقق كثيراً لأنفسنا — إننا الآن نحن الاثنين فى مفترق الطريق بالنسبة للجزء الباقى من حياتنا — ولكننا سبقنا طفلنا وسوف يسبقنا فى العمر . »

كان مارتن شديد القلق بالرغم من كل زهوه . وقد ألفى زوجته فى الصباح مريضة ، وحتى الظهيرة أخذت تتجول فى المنزل بصعوبة وهى مرهقة شعثاء الشعر غائرة الوجه ، واستقدم خادمة لتعاونها وتغسل الصحاف وتنظف المنزل ، وظل يقرأ لها طيلة المساء بيد أنه لم يقرأ لها هذه المرة تاريخاً أو مختارات هنرى جيمس بل قصة « السيدة ويجز » وهى قصة كان يؤثرها كل منهما ، وجلس على الأرض إلى جوار الفراش العتيق الذى كانت ترقد فيه منهكة القوى وأمسك بيدها وأنشأ يقول :

« يا حبيبتى إننا — كلا ليست حبيبتى ، حسنا ماذا أقول غير حبيبتى ؟ على أية حال فى يوم ما سوف نوفر قدراً كافيا من النقود لنمضى شهرين فى إيطاليا والأماكن المتشابهة حيث الشوارع الضيقة والقلاع الصغيرة . إن بعضها مضى عليها مائتا عام وأكثر ، وسوف نصحب الطفل ... حتى ولو كان طفلة .... وسوف يتعلم التخاطب بالفرنسية وكل شىء كما لو كان من أهل تلك البلاد ، وسيكون ذلك موضع فخرنا ، سوف نصبح حينذاك زوجين مفترسين من الطيور المرمة . إن كلا منالم يتح له أن يصيب فى تعليمه كثيراً من الأخلاقيات

وعندما سنبلغ السبعين من العمر سنجلس على عتبات الدار وندخن الغليون ونسخر عند مرور القوم المحترمين بنا ، وسوف نقص على بعضنا بعضاً قصصاً خليعة عنهم تجعلهم يودون أن يطلقوا علينا الرصاص ، وسوف يرتدى ولدنا قبعة عظيمة ، ويكون له سائق . ولن يجسر على أن يتعرف علينا ! »

والآن بعد أن تدرب على مرح الطبيب الزائف ، صاح عندما رآها منهكة وشاحبة اللون ، مستاءة من آلام الصباح « هذا لطيف أيتها الفتاة الكبيرة إنك لن تنجب طفلا بديعاً إلا إذا ما عانيت المرض ... كل إنسان هكذا ... »

كان راقداً ويتحدث فى عصبية ، وكلما طاف بذهنه انها قد تموت كان يموت هو معها ، فإنه بدونها لن يستطيع أن يفعل شيئاً ولا أن يجد مكاناً يذهب إليه ؛ فما قيمة الحياة كلها ما لم يطلعها هو عليها . إنها إذا فارقت الحياة ...

أخذ يتهن الحياة ويتهمها لطريقتها فى خداع البشر ، بأشعة القمر المبهرة والصورة المشرقة البيضاء ثم الوصول إلى العزله وإنجاب الأطفال ثم جعل الولادة عسيرة وصعبة ، فادحة الخسائر قدرما تشاء ، كان قبل ذلك عصبياً فى معاملة المرضى الذين يستدعونه فى الريف ، ولكنه الآن يعطف على آلامهم أكثر مما كان فى حياته من قبل ، لأن عينيه تفتحتا على لوعة الألم المرير ، ولكنه يجب ألا ينأى بعيداً إذ أن لورا كانت فى حاجة إليه . تحول مرضها فى الصباح إلى قىء مؤذ ؛ وفجأة عندما كانت منهكة للغاية من فرط الألم ، بعث إلى دكتور هسلينك ، وبعد ظهيرة ذلك اليوم الرهيب حين كانت مروج الربيع ناضرة النمو فى الخارج خلف نوافذ حجرة الولادة استخلصوا منها الطفل ميتاً .

ولو كان من الممكن لأدرك الآن نجاح هسلينك ولاحظ ذلك الحزم والوداعة وذلك الأسى والعزم ، هذه الصفات التى تجعل الناس يأمنون على حياتهم بين يديه . لم يكن هسلينك الآن فاتراً أو معنفا بيد أنه كان أخا أكبر ، وأكثر حكمة ورأفة . لم ير مارتن شيئاً لأنه لم يكن فى تلك اللحظة طبيباً بل كان فتى مفزوعاً ، ولم يكن ذا فائدة لهسلينك أكثر من أغبى ممرض .

ولما تأكد من أن لورا سوف تشفى جلس مارتن إلى جوار الفراش يداعبها قائلا :

يجب أن نقرر أنه يستحيل أن ننجب طفلا الآن ، وأننى لا أريد ذلك أيضاً ـ أوه إننى لست فى حالة جيدة وإننى معتل المزاج ، بيد أننى أريد أن أكون أنا كل شىء لك . »

فهمست بصوت لا يكاد يسمع :

« كان سيصبح طفلا لطيفاً ، أواه إننى أدرك أننى رأيته كثيراً أعرف أنه كان سيصبح مثلك إلى حد كبير عندما كنت أنت طفلا . « وحاولت أن تضحك » ربما كنت أريده إذ كنت أستطيع أن أشرف على تربيته ، إننى لم يكن لى إطلاقاً فى حياتى إنسان أشرف عليه وأصير له رئيسة أدبر له أمره ، ولذلك فإنه إذا لم يكن لى طفل حقيقى فإننى سوف أقومك وأجعلك أعظم إنسان ينظر إليه الناس جميعاً بفخر مثل رفيقك سونديليوس ـ يا عزيزى إننى قلقة جداً لما تعانيه من متاعب ـ »

فقبلها مارتن وظلا ساعات جالسين دون أن يتحدثا ، يدركان بعضاً إدراكاً أبديا فى ضوء الغسق فوق المروج .

الفصل التاسع عشر

كان كوجلين طبيب ليوبوليس ذا شارب أحمر ومرح شديد وسيارة ما كسويل وبالرغم من أنها لم يمض عليها أكثر من ثلاثة أعوام فى شهر مايو الحالى وفى حاجة إلى طلاء فإنه كان يعتبرها أسرع وأروع سيارة فى دا كوتا — وعاد إلى منزله فى أروع حالات مرحه حاملا أصغر أطفاله الثلاثة وقال لزوجته :

« تسى ، عندى فكرة جهنمية »

« أجل ، وأنك تلهث بشدة أيضاً، وأود أن تترك تجربة المشروبات الروحية فى محلات الخمور » .

« إسمعى أيتها الفتاة الأمينة ! »

« سوف لا أسمع » ثم قبلته بشدة « لا أريد شيئاً عن الذهاب بالسيارة إلى لوس أنجلوس هذا الصيف إنها بعيدة جداً مع وجود هؤلاء الأطفال الذين يصرخون ويولولون » .

« هذا حق — ولكن أقصد . . . هيا بنا نعد حقائبنا ونرحل لنقضى أسبوعاً نجول فيه حول المقاطعة وليكن ذلك غداً أو بعد غد ، فليس هناك مايعنينى الآن سوى حالة ولادة ، وسوف أوكلها إلى الدكتور ونتر . »

« وهو كذلك . . . نستطيع أن نجرب الزجاجات الحرارية الجديدة »

وفى الساعة الرابعة صباحا بدأ دكتور كوجلين وزوجته وأطفاله الرحلة . كانت السيارة فى بادىء الأمر على مايرام حتى أنها كانت ممتعة ولكنه بعد ثلاثة أيام عندما اقترب من الطريق المسطح الذى لا تخلو فيه بوصة من إحدى المنحنيات أخذت تقفز فراسخ وسط القمح الأخضر النابت ، وكان الطبيب يلبس حلته الكاكى ونظارته البيضاوية وقبعته الكتانية البيضاء . . . بينما ترتدى زوجته بلوزة من الفانلة الخضراء وقبعة من الدانتلا وباقى ركاب السيارة يلبسون ثيابا مختلفة،

وعن قرب تشاهد قارورة ماء قاشية من الطراز المصرى . وقد تراكم الوحل على عجلات السيارة ومقدمتها ، وترى الطفلان الكبيران يطلان خارج النافذة بشكل خطر ويخرجان ألسنتهما إليك ، وكانت كافولة الطفل الصغير تتدلى مستقيمة فوق حبل صغير يمتد داخل السيارة ، وتوجد نسخه ممزقة من القصص وسبعة من العصي ، وسنارة الصيد ، وخيمة ملفوفة . . . وأهم مايلفت النظر ، بيرقان كبيران كتب عليهما « ليوبوليس ت . د » و « معذرة من الغبار » وقامت أسرة كوجلين بمغامرات عظيمة فقد غاصت منهم السيارة مرة فى الوحل ومما جعلهم يصيحون معجبين أن الدكتور أخرج السيارة بإقامة كوبرى دفاع تحت العجلات ومرة أخرى توقفت الحرارة وبينما هم ينتظرون عامل الجراج الذى استدعى بالتليفون شاهدوا مزرعة ألبان بها ماكينة حليب كهربائية ، وطوال الطريق أخذوا يشاهدون أشياء كثيرة واكتشفوا عجائب العالم العظيم فشاهدوا المسرح السينمائى فى راونداب الذى يوجه به بيانو للأوركسترا وكنجه . كما شاهدوا ثعلب المزرعة الأسود فى ميلودى وبرج تقسيم المياه الذى يقال عنه أنه أعلى الأبراج فى شمال داكوتا . وقام الدكتور كوجلين بزيارة لتزجية فراغ النهار على حد تعبيره لجميع الأطباء وكان له فى سانت ليوك صديق عزيز هو الدكتور ترمب وكانا يتقابلان نحو مرتين على الأقل فى الاجتماع السنوى الذى يعقد فى الرابطة الطبية لوادى نهر بونى . . . . وعندما قص على ترمب المتاعب التى لاقوها فى الفنادق بدت مظاهر القلق على ترمب وتألم ضميره وتنهد وقال : إذا كانت الزوجة توافق على ذلك فإننى أدعوكم بأن تمضوا الليلة معنا . »

قال كوجلين : « أوه لانريد أن نفرض أنفسنا عليكم . . هل ترى أنه ليس هناك متاعب فى ذلك ؟ »

بعدما هدأت السيدة ترمب من رغبتها فى أن تأخذ زوجها جانباً وتبدى ملاحظات هامة وغيرمسموعة وبعدما علم أكبرأبناء ترمب أن « ليس من الواجب على فتى مهذب أن يطرد ضيوفة الصغار الذين وفدوا من بعيد جداً » أصبحوا جميعاً فى منتهى السعادة .

وأخذت السيدة كوجلين والسيدة ترمب تشكوان من تكاليف سعر صابون الغسيل والزبد وصعوبة الحصول على الخوخ بينما كان الرجال جالسين على حافة الشرفة واضعين رجلا على رجل وهم يلوحون بسيجارهم — واستغرقوا فى الأحاديث الخاصة بمهنة الطب .

« خبرنى يادكتور . . ما رأيك فى القروض »

(كان كوجلين هو الذى يتحدث أو ربما كان ترمب)

« حسناً . . أنها رائعــــة فالألمان يدفعون أجوراً ممتازة ، ولا يمكن أن يسددوا الفائدة فوراً ، ولكن عندما يجمعون المحصول يأتون إليك ويقولون (كم أدين لك يا دكتور ؟) .

« نعم . . . إن الألمان يدفعون مبالغ عظيمة »

« لا شك . . وليس هناك بين الألمان كثرة من ذوى الذمم الفاسدة » .

« أجل هذه حقيقة ، قل ، خبرنى يا دكتور ماذا تفعل فى حالات مرض اليرقان ؟ » .

«حسناً — أقول لك يا دكتور إذا كانت حالة ملحة فأنا دائماً أعطى كلوريد أمونيوم » .

«هل تفعل ذلك ؟ إنى كنت أعطى كلوريد أمونيوم ، ولكن فى اليوم التالى كنت أرى نشرة فى الصحيفه الطبية يقول فيها أحدهم أنها ليست لها أية فائدة ».

« هل هذه حقيقة — حسناً . . حسناً . . أنى لم أر ذلك — هيه حسناً ، قل لى يا دكتور — هل تجد أن لك طريقة مجدية مع الربو ؟ » .

« حسناً ، الآن يا دكتور ، بينى وبينك سوف أقول لك شيئاً يضحكك — إنى أرى أن رئتى الثعالب مجدية جداً لمرض الربو والمرض الرئوى أيضاً — وقد قلت ذلك لأحد الإخصائيين فى الرئة ذات مرة وأخذ يضحك لذلك — وقال

«إن ذلك ليس طريقة عملية » وقلت له يا للجحيم إنها طريقة لا أعرف ما إذا كانت آخر تطورات العلوم أم لا — ولكنني قد وصلت إلى نتائج ، وهذا هو الذى أبحث عنه — النتائج . . . وأنني لأنبئك بأنه قد يحدث لشخص عادى يزدحم اسمه بالدرجات العلمية أن يصل إلى كنه أشياء غامضة ولكنه لايستطيع تفسيرها أو أيضاحها ، وأقسم لك أنى أعتقد أن معظم العلماء المزعومين يستطيعون أن يتعلموا كثيراًمن الأمور من أطباء الريف البسطاء ،ودعنى أؤكد لك ذلك! ».

« نعم هذه حقيقة فأنا شخصياً أفضل أن أستقر هنا فى الريف وأقوم ببعض جولات الصيد واعيش حياة سهلة أفضل من أن أكون من أعظم فئات الأخصائيين فى المدن . وفى ذات مرة فكرت فى أن أكون خبيراً فى أشعة أكس وأن أكون فى نيويورك حيث يستطيع الإنسان أن يتدرب على منهج كامل فى ستة أسابيع — وربما يكون الاستيطان فى بوت او سايكس فولز ، ولكننى إذا حققت حتى أرباحا تبلغ ثمانى أو عشرة آلاف دولار سنويا فإنها لاتعنى أكثر من ثلاثة آلاف هنا أو نحو ذلك ـ ويجب أن يفكر الإنسان فى واجبه نحو مرضاه الكبار » .

« هذا حقيقة . . . . ولكن قل لى يا دكتور ، مارأيك فى ماك مينتورن الذى يسكن هناك فى أقصى الطريق ؟ » .

« حسناً . . أنى لا أود أن أتحدث عن زميل طبيب إلا أننى أعتقد أنه حسن النية ؛ ولكن بينى وبينك إنه ليس دقيقاً للغاية ومعظم عمله تخمينى ـ ولكن أنا وأنت نطبق العلم على الحالة بدلا من انتهاز الفرص والاعتماد فقط على التجربة وبذا يكون الإنسان غير دقيق ، ولكن ماك مينتورن لايعرف كثيرا — وقيل لى أن زوجته امرأة مخيفة — إنها تستخدم الألفاظ البذيئة التى لا تجد مثلها فى المقاطعات الأربع وهذه طريقتها فى اصطياد عمل لماك — أعتقد أن هذه طريقتهم فى الحصول على عمل ؟ »

« هل دكتور ونتر العجوز لا يزال يمارس عمله ؟ »

« أجـل . . بطريقة ما . . إنك تعرف كيف هو الآن ، إنه طبعاً متخلف عن العصر الحاضر عشرين عاماً ، ولـكنه ماهر فى الاحتفاظ برضاه — فإنه يبقى امرأة بلهاء مشـلا فى السرير ستة أسابيع أكثر من المدة التى تحتاجها . ويقوم بالزيارة مرتين فى اليوم ويداعبها — هذا شىء ليست له ضرورة على الإطلاق » .

« أعتقد أن أكبر منافس لك الدكتور سيلزر ؟ » .

« ألا تعتقد ذلك يا دكتور . . إنه ما زال مبتدئاً فى المهنة وأن العيب الوحيد فيه هو أنه مندفع جـداً ودائما لا يهدأ فمه — ويجب أن يسمع نفسه يتحدث . أواه ، ولـكن قل لى ، بهذه المناسبة ، هل التقيت بذلك الزميل الجديد — إنه يقطن هنا منذ حوالى عامين الآن — فى هويتسلفانيا إنه أروسميث ؟ » .

« لا ، ولـكن قيل عنه إنه إنسان شاب رائع جدا » .

« نعم يقال عنه إنه إنسان ذكى — لديه معلومات طيبة — وأنا أسمع أن زوجته امرأة فطنة صغيرة لطيفة » .

« اسمـــع ، إنه يقال عنه أنه إنسان مبالغ جداً — وسـكير كبير غارق فى الشراب » .

« نعم يقال عنه ذلك — إنه عار فى جبين شاب ناشىء لطيف نشيط ـــ أنا شخصياً أحب قليلا من الشراب من وقت لآخر ولـكن الرجـل السكير ! ماذا يا ترى يحدث لو استدعى لحالة وهو ثمل ! وقد أخبرنى زميل هناك أن أروسميث رجل عظيم فى الدرس والمعرفة ولـكنه متحرر الفـكر ولا يذهب إطـــلاقا إلى الـكنيسة » .

« هل هذه حقيقة — هيـه ، إنه خطأ كبير فى ألا يعنز طبيب نفسه ببعض العقائد الدينية بغض النظر عما إذا كان يعتقد فيها أم لا ، وأقول لك إن القسيس أو الواعظ يستطيع أن يرسل لك عدداً ضخماً من الزبائن » .

« هل تعتقد أنه يستطيع فعلا — حسناً ، إن هذا الزميل قال أن أروسميث يجادل الوعاظ ، وقد قال لأحد القسس إنه من القداسة أن يقرأ كل إنسان عن

الطبيب الوقائى الكبير ماكس جوتليب وجاكس ليوب — وأنت تعلم أن الزميل — حسناً لا أتذكر تماماً ماذا كان الموضوع ، ولكنه ادعى أنه يستطيع أن يخلق اسماكا حية من بعض الكيماويات » .

« حقاً ، إنه ذلك ، هـذا هو الغرور الذى ينتاب بعض الزملاء فى المعمل ما لم يقوموا بإجراء تدريب عملى يحفظ لهم اتزانهم — حسناً إذا كان أروسميث من هذا النوع من الزملاء فلا عجب إذاً ألا يثق فيه الناس » .

« إنه كذلك — هيه . حسناً ، أنه من المؤلم جدا أن يغرق أروسميث فى الشراب ويهمل أسرته ومرضاه .. إننى أرى نهايته تقترب — يا للعار ! حسناً ـ إنى أعجب فى أى وقت من المساء نحن الآن ؟ » .

— ٢ —

وجاء برت توزر يصيح قائلا : « يا مارتن ما الذى فعلته للدكتور كوجلين طبيب ليوبوليس . لقد أخبرنى زميل أنه كان يجوب البلاد ويقول إنك سكير وما إلى ذلك ؟ » .

« هل حدث ذلك ؟ إن الناس هنا يراقبون بعضهم بعضاً ـ أليس كذلك ؟ » .

« إنهم يتحدثون فى حياتك ، ولذلك فأنا أقول لك إنه من الأفضل أن تقلع عن لعب البوكر والخمر فأنت ترى أننى لا أتعاطى أية مسكرات . أليس كذلك ؟ »

ولاحظ مارتن عن قرب وأكثر من ذى قبل أن جميع المقاطعة تنتقده — لم يكن ممن يستهويه الثناء ، ولم يكن متعاظماً حتى يشعر أنه فى غير مكانه المناسب ، ولكنه رغم ذلك أخـــذ يقاوم بحزم ، فقد رأى نفسه خارج نطاق هويتسلفانيا ، ويجوب لمدة أعوام فى أنحاء الريف يمارس نشاطه . وفى خضم إعجابه فجأة ودون سابق إعداد نسى تطلعه إلى سونديلوس والحرب الصحية وفخره بالمعمل وارتمى فجأة فى مشكلة أبحاثه .

— ٣ —

لقد أنتشر مرض بين المواشى فى مقاطعة كراسيبين واستدعى الأطباء البيطريون

وقد استخدم فى الحقن المصل الذى تنتجه شركة داوسون هنزيكر ، ولكن المرض تفشى وسمع مارتن الفلاحين يولولون وقد لاحظ أن الحيوانات المحقونة لم يحدث لها أى تورم أو ارتفاع فى درجة الحرارة ، وأثاره شك فى أن مصل هنزيكر لم يكن به المواد العضوية الحية اللازمة ، وظل يحاول فى سلسلة من الافتراضات، وقد حصل على قدر من المصل وأخذ يختبره فى معمله الصغير ، وكان لا بد أن يستخدم وسائله فى تنمية المزارع الميكروبية اللاهوائية ، ولكنه كان قد تدرب على يد جوتليب الذى يقول « إن أى إنسان لا يستطيع أن يصل إلى نتائج أبحاثه بنفسه يستحسن أن يشترى نتائجه مع معداته الدقيقة » . واستطاع مارتن أن يعد من وعاء فاكهة كبيرة وأنبوبة ملحومة بالقصدير جهازه المطلوب ، وعندما تأكد تماماً أن المصل لا يحتوى على كائنات عضوية مضادة للمرض ابتهج جداً أكثر مما كان يبتهج لو أنه اكتشف أن السيد داوسون هنزيكر ينتج مصلا حقيقياً . وبدون اعتذار وقليل من التشجيع عزل الكائنات الحية المضادة عن المواشى المريضة وأعد مصلا مخففاً من ابتكاره استغرق وقتا طويلا ، ولكنه لم يهمل مرضاه وإن كان لم يستطع أن يظهر فى المحلات وفى ملاعب البوكر . وكان هو ولورا يتناولان الطعام من الشطائر كل مساء ويسرعان بعد ذلك إلى المعمل ليسخن المزارع فى حمام الماء المرتجل ، وقد وضع فى إناء يرشح فوق موقد الكحول . وكان مارتن الذى فرغ صبره من هسلينك قد أمسى طويل البال وذا صبر لا ينفذ يلاحظ نتائجه ، وهو يصفر ويتمتم . ومرت الساعات من السابعة إلى منتصف الليل وكأنها لحظة ولورا تقطب جبينها بشجاعة وطرف لسانها فى ركن فمها وهى تراقب درجة الحرارة كالكلب الأمين .

وبعد محاولات ثلاث فشل خلالها مرتين فشلا ذريعاً حصل على مصل أرضاه وحقن قطيعاً من الماشية وتوقف المرض وهو الأمر الذى كان يعتبره مارتن النهاية والمكافأة . حول مذكراته ومادة المصل إلى الأطباء البيطريين فى المقاطعة . وبالنسبة للآخرين لم تكن تلك هى النهاية فقد استنكر الأطباء البيطريون فى

القاطعة تدخله لينقذ أو ليقتل الماشية . وأشار الأطباء قائلين : « هذا نوع العمل الثعلبي الذى يحطم احترام المهنة وأقول لكم أن أروسميث لا يعرف شيئاً فى الطب وهو إنسان يبحث عن الشهرة ، وهذا هو كل غرضه ولتنتبهوا لكلماتى فإنه بدلا من أن يلتزم العمل الشريف المنسق سوف تسمعون عنه أنه يفتتح مصحة للدجل فى هذه الأيام . وقال مارتن معلقاً على ذلك للورا :

« الكرامة — يا للجحيم ! إذا كان لى أن أسلك سبيلى بنفسى فسأجرى أبحاثاً — أوه ليس ذلك العمل البعيد عن الواقع مثل أبحاث جوتليب ولكن العمل الحقيقى العملى — ومن ثم أجد إنسانا مثل سوندليوس ليأخـــذ نتائجى ويعرضها على الناس ، وسوف أجعلهم هم ومواشيهم وقططهم أصحاء سواء رغبوا أو لم يرغبوا — هذا ما سأفعله .

وبينما هو على هذا الحالة ، اطلع فى صحيفة مينا بوليس بين منتصف عمود الاجتماعيات هذه التنوية لأحد الملقين اللاذعين :

« أن جوستاف سوند ليوس العالم المشهور وصاحب الفضل فى منع مرض الكوليرا سوف يلقى خطاباً عن أبطال الصحة فى الجامعة مساء يوم الجمعة القادم » وعاد مارتن إلى المنزل وهو يقول :

« لورا ، إن سوندليوس سوف يلقى محاضرة فى مينا بوليس وإننى سأذهب ، تعالى معى فسوف نسمعه ونجد ما يسرنا »

« كلا .. اذهب أنت وحدك — من الأفضل أن تبتعد عن المدينة وعن الأسرة وعنى أنا أيضاً لفترة ، وسوف أذهب معك فى الخريف . والحق أننى عندما لا أكون معك ستتاح لك الفرصة لأن تتحدث كثيراً مع سوندليوس »

« إنها فرصة ثمينة وسوف يكون كبار الأطباء فى المدينة والهيئات الصحية هناك يلتفون من حوله ، ولكننى سأذهب » .

— ٤ —

كانت الحقول حارة وسنابل القمح تحدث صوتاً من النسيم العليل وكان الطريق مليئا

بالحصى، وقد اهتاج مارتن من بطء السير، وأخذ يتأمل ويدخن ويفكر وقال: « إننى سأنسى الطب وكل شىء وسأذهب إلى بائع التبغ وأتحدث إلى إنسان، وأقول له أننى بائع أحذية ». وحدث لسوء الطالع أن رفيقه كان فعلا بائع أحذية محبا للاستطلاع ويود أن يعرف ما هى الشركة التى يعمل بها مارتن. وعاد إلى العربة وهو يحس بجرح كرامته. وعندما وصل إلى مينابوليس بعد العصر أسرع إلى الجامعة وأخذ يبحث عن تذكرة لمحاضرة سوندليوس قبل أن يبحث عن فندق، بل وقبل أن يتناول زجاجة من البيرة التى كان يهفو إليها ويتخيلها وهو على بعد مائة ميل. كانت فى ذهنه فكرة بأن يمضى المساء الأول فى حرية ولهو، وأنه سيجد فى مكان ما جماعة من الناس يمضى الليل معهم ضاحكا ويتحدث ويتناول الشراب — ويشرب كثيراً طبعاً، ثم يسرع إلى بحيرة مينتونكا ليسبح فيها فى ضوء القمر — وقد بدأ بحثه عن الرفاق بتناول الكوكتيل فى بار الفندق والطعام فى مطعم هينبين افنيو، ولم يعره أحد اهتماماً ولم يبد أن واحداً رغب فى صحبته، وأحس بأنه وحيد بدون لورا وتحولت كل وداعته وكل شوقه وكل حبه تدريجيا إلى نعاس.

وكلما كان يتقلب فى سريره فى الفندق كان يندب حظه ويقول:

« من المحتمل أيضاً أن تكون محاضرة سوندليوس غير مهمة وربما يكون ببساطه روسكو جيك آخر »

— ٥ —

وفى حرارة الليل كان بعض الطلبة يتجولون عند باب قاعة المحاضرات ويمعنون النظر فى سوندليوس المتواضع ثم يخرجون — كان مارتن على وشك أن يخرج معهم ولكنه دخل القاعة متجهما. كانت الصالة ثلثها من الطلبة والمدرسين وبعض الرجال الذين يبدو أنهم أطباء وجلس فى الخلف يروح بقبعته المصنوعة من القش ويشعر بغضاضة نحو الرجل ذى اللحية الجانبية والذى كان يشاركه فى الصف الذى يجلس فيه، يبدى عدم موافقته على ما يقوله جوستاف سوندليوس

بينما هو فى حد ذاته ليس له أى رأى مهما كان — ثم عمت الحجرة حيوية ، ففى المشى الذى يشق القاعة أحدث رجل صوتا كالرعد وابتسم . كان ذا جبهة عريضة وشعر مجعد. وجلس مارتن يقوى من عزم نفسه، وهو يحاول أن يتحمل حتى الإزعاج الذى يحدثه لهذلك الرجل ذوا اللحية الجانبية ، بينما بدا سوندليوس فى صوت موسيقى ولهجة سويدية يقول : « أن مهنة الطب لها هدف واحد ، ألا وهو القضاء على حرفة الطب أما بالنسبة لرجل الشارع فإنه يثق ويتأكد من شىء واحد ، أن تُسع أو عشر ما يعرفه عن الصحة ليس كما يجب ، والعشر الآخر لا يجدى بشىء . وكما يوضح بيتلر فى كتابه « ايرهون » — ولقد سرق اللعين تلك الفكرة منى — وهى ترجع إلى ربما ثلاثين عاماً قبل أن أحصل عليها ، والجريمة الوحيدة التى يجب أن نشنق الناس من أجلها هى إصابتهم بالسل . »

« أوه » صرخ بذلك المستمعون الجـــادون ، وهم فى ريبة مما إذا كان هذا الـكلام جديرا بالاعتبار ، أو الاستياء أو الحنق أو التثقيف .

وكان سوندليوس مزعج النبرات ولـكنه يعرف التأثير وتحضير الأرواح وقد رأى مارتن معه أبطال الحمى الصفراء وهم ريد وأجرامونت وكارول ولازير . وطوف معه فى إحدى الموانى المـكسيكية التى كان الطاعون يقبع فيها ، وتقتحمه المجاعة تحت أشعة الشمس المحرقة ، وسلك معه دروباً جبلية إلى إحدى المدن القائمة على تل حيث كان يتفشى فيها مرض التيفوس ، وذهب معه فى شهر أغسطس حيث كان الأطفال الذين لفحتهم لوافح الهجير قد أمسوا هيا كل عظمية ، يحارب ضد المرض المتفشى فى ظل سلاح القانون المذهب العاطل .

وقال مارتن : « هذا ما أود أن أقوم به فعلا لا أن أظل أرسم فى الأجسام ولـكى أصنع عالـماً جديداً . سوف أتبع خطاه أينما ذهب حتى ولو فى النار — وأتبع الطريقة التى يسلـكها فى مهاجمة من ينتقدون نتائج الصحة العامة . ليتنى أستطيع مقابلته والتحدث معه ولو دقيقتين » .

وظل ينتظر بعد المحاضرة ، وأحـاط عشرات من الناس بسوندليوس على

المنصة ، وكان بعضهم يصافحه والبعض الآخر يستفسر . وقال أحد الأطباء وهو فى حالة من القلق « ولـكن ماهى خطورة العيادات الحرة وغير ذلك من الأشياء التى تدفع إلى الاشتراكية ؟ » .

وانتظر مارتن فى الخلف حتى انفض الناس من حول سوندليوس . وعندما كان الساعى يغلق النوافذ بحزم وقوة نظر سوندليوس من حـوله وتأكد مارتن أن الرجل العظيم قد صار وحده فاتجه إليه وصافحه وقال :

« سيدى إننى أود إذا لم تـكن سيادتك على موعد فى مكان آخر أن تحضر معى ونتناول — .

وقد أكمل سوندليوس قائلا :

« نتنـاول شرابا ؟ حسنا أعتقد من الممكن . ما رأيك فى نـكتة الـكلب والبراغيث ؟ هل تعتقد أنها كانت لطيفة ؟ » .

« أوه . . حقاً بارعة » .

إن المحارب الذى كان يتحدث عن إطعـــــام خمسة آلاف من التتار وعن الحصول على شهادة من جامعـــــة الصين ورفض قبول وسام من ملك البلقان العظيم تطلع فى وداد إلى زمرته المـكونة من حوارى واجد وتساءل : « هل كان على ما يرام — حقاً ؟ هل أعجبتهم المحاضرة ؟ الجو حار جداً هذا المساء . وكنت ألقى محـاضرات تسع مرات فى الأسبوع — فى دى موان وفـــورت دودج ولا كروس الجـين وجوليت (ولـكنه نطقها زولييه) و — نسيت هل كانت المحاضرة حسنة ؟ هل أعجبتهم ؟ » .

« رائعة — لقد كانوا مستمتعين بها .. حقا إننى لم أستمتع بشىء فى حياتى بمثل ما استمتعت بتلك المحاضرة » .

فصاح المتنبى سوندليوس : « هيا بنا ، سأشترى شرابا كطبيب إننى كرجل أبشر بالصحة أحارب الـكحول ، وإن تعاطيها بـكميات مفرطة مضر كتعاطى القهوة والأيس كريم صودا ، ولـكن بصفتى إنساناً مغرماً بالحديث فإننى

أرى أن تعاطى كأسا من الويسكى سوف يكون منعشاً . . . أيوجد هنا مكان رطيب . . مع بيرة بيلسنر . . هنا فى دترويت كلا . . أين أنا هذه الليلة ؟ فى مينابوليس ؟ » .

« إنى أعلم أنه توجد هنا حديقة بيرة بديعة ويمكن أن نصل إلى هناك بالترولى » .

ونظر إليه سوندليوس محملقا وقال : « لا ، إن هنا سيارة أجرة فى انتظارى » .

وأعجب مارتن بهذه الرفاهية وحاول وهو فى السيارة أن يفكر فى الشىء المناسب الذى يقوله لأحد المشاهير . « خبرنى يا دكتور ، هل توجد فى أوربا مجالس صحة للمدينة ؟ » وقد تجاهل سوندليوس هذا وقال : « هل ترى تلك الفتاة التى تسير هناك ؟ كم جميلة أردافها . . هل هناك بيرة ممتازة فى حديقة البيرة ؟ هل هناك كونياك ممتاز ؟ هل تعرف كونياك كورفوازيه عام ١٨٦٥ ؟ أوف . . . الوعظ والإرشاد .. . أقسم أننى سوف أكف عنهما . تصور أننى أرتدى ملابس سهرة فى ليلة كهذه ! إنك تعلم أننى أعنى كل ما أقوله فى محاضراتى ، ولكن دعنا الآن ننسى أننا جادون ، وهيا نتناول الشراب . دعنا نغنى وننشد ، دعنا الآن نختطف الفتيات من حراسهن ، دعنا الآن نناقش محاسن وملذات المباهج التى هى الشىء الوحيد الذى أحبه » .

وفى حديقة البيرة أخذ سوندليوس العظيم يتحدث عن نادى كوزمس وأبحاث هال عن وفيات الأطفال ، والمزج الملائم بين شراب البندكتين وشراب التفاح ، وطريقة بيارتيز ولورد هالدان ودوان بكلى فى فحص الألبان ، وجورج جيسينج .

وأخذ مارتن يبحث عن رابطة توثق بينه وبين سوندليوس كما يفعل الإنسان مع المشاهير ومن يقابلهم الإنسان فى الخارج ، وكان من الممكن أن يقول « أعتقد أننى قابلت إنساناً يعرفك » أو « لقد سعدت بقراءة جميع مقالاتك » ولكنه استطاع أن يجد الفرصة بقوله « هل التقيت بالأستاذين الكبيرين فى مدرسة

الطب التي كنت أدرس فيها — وبياك — العميد سيلفا وماكس جوتليب ؟ .

« سليفا ؟ لا أتذكر ذلك الاسم ولكن جوتليب ـ هل أنت تعرفه ؟ أوه ».

ولوح سوندليوس بذراعه : « إنه أعظم أستاذ ، إنه عميد العلم وقد سعدت بلقياه والتخاطب معه فى معهد ماك جورك ، إنه لم يكن يجلس هنا مثلى يصرخ ويصيح .. إنه يجعلنى مثل مهرج المسرح ، فكان يأخذ جميع عباراتى عن الأمراض الوبائية ويثبت لى أننى غبي ! « هوو . هوو . هوو ! » ثم استشرق سوندليوس واستطرد مستنكراً ارتفاع الرسوم الجمركية .. ولكل موضوع منعشاته ، إذ كان سوندليوس سكيراً عجيبا يمزج البيرة بيلسنر والويسكى والقهوة السوداء وسائل آخر أكد الجرسون أنه مسكر وشديد التأثر . وقال « إننى يجب أن ألزم الفراش عند منتصف الليل ، بيد أنه لإثم عظيم أن يقطع الانسان حبل حديث شائق ، وأنت تحاول أن تغرينى قليلا ، وإننى إنسان سهل الإغراء ، ولكن لا بد أن أنام خمس ساعات . . كاملة ، لأنى سوف أحاضر مساء غد . والآن وقد تجاوزت الخمسين لا تكفينى ثلاث ساعات كالمعتاد ، ومع ذلك فإننى أرى أشياء كثيرة أريد أن أتحدث عنها » .

والآن أمسى أكثر انطلاقا وفصاحة عن ذى قبل ، ثم استاء وغضب ، إذ أن رجلا صارماً فى مظهره كان جالساً عند المائدة المجاورة ، كان ينصت ثم أخذ يضحك ، وترك الحديث عن مصل هافكينز للكوليرا وبدا عليه الاهتياج : « إذا حلق إلى هذا الشخص أكثر من ذلك فسوف أذهب إليه وأقتله — إننى رجل مسالم ولست صغيراً ، ولكننى لا أحب المحملقين وسوف أذهب إليه وأصفى معه ذلك الأمر » .

وبينما كان الخادم يقدم مندفعاً توجه سوندليوس إلى الرجل وهدده بالضرب ثم توقف وصافح بعضهما بعضاً أكثر من مرة ثم عاد به إلى مارتن . « إن هذا الرجل ريفى من مواطنى ، ولد فى جوتنبرج وهو نجار . إجلس يا نيلسون وتناول شراباً » .

« كان النجار رجلا اشتراكيا سويديا ، محباً للظهور ، وهو مجادل مفترس ومغرم بشرب الخمر . وكان يستاء من سوندليوس لأنه أرستقراطى ، ويستاء من مارتن لعدم درايته بالاقتصاد . وكان يستاء من الجرسون بسبب الخمر — وأجابه سوندليوس ومارتن والجرسون بشدة ، وأصبحت الحادثة عجيبة ، وبعد قليل انتقل الثلاثة من حـــديقة البيرة وتزاحموا داخل السيارة الأجرة التى كانت تهتز من جدلهم . ولم يعرف مارتن على الإطلاق أين ذهبوا وربما كان يحلم بالقصة كلها ، فتارة كنت تراهم فى مدخل منزل فى شارع طويل ، من المحتمل أنه كان طريق الجامعة ، وتارة تجدهم فى حانة فى الطريق الجنوبى الذى تقع الأشجار على جانبيه فى طريق واشنطون الجنوبى حيث كان ثلاثة من عابرى السبيل ينامون عند نهاية البار ، وتارة أخرى فى منزل النجار حيث كان يعد لهم رجل غامض القهوة . ومهما يــكن من أمر الأماكن التى ذهبوا إليها فإنه من المحتمل أنهم كانوا فى الوقت ذاته فى موسكو وكوراكاو ومورويلومبا ، فقد أخذ النجار ينشأ دولا شيوعية بينما كان سوندليوس يعلن أنه لايهمه أن يعمل فى ظل الاشتراكية أم فى ظل إمبراطور مادام يستطيع أن يجعل الناس بخير ويقضى على مرض السل ويمحو السرطان بأسرع ما يمكن .

وافترقوا فى الساعة الرابعة والدموع تسيل من أعينهم يؤكدون بأن يلتقوا مرة أخرى ، فى مينوسوتا أو استوكهلم أو فى ريو أو فى البحار الشمالية . واتجه مارتن إلى هويتسلفانيا ليضع نهاية لــكل ذلك العبث الذى يسبب المرض للناس .

وقد ذبح الإله سوندليوس العظيم العميد سيلفا ، كما فعل سيلفا مع جوتليب ، وكما ذبح جوتليب مع انــكور ادواردز الــكيميائى اللعوب ، وكما ذبح ادواردز الدك فيــكرسون ، وكما ذبح فيكرسون ابن القسيس الذى كان لديه أرجوحة حقيقية فى شونته .

* * *

الفصل الثامن عشر

كان الدكتور وستيجن طبيب فاندرهيد زجروف يعمل مشرفاً على الصحة بمقاطعة كرينسن فى وقت فراغه ، ولكنه لم يكن يتقاضى عن ذلك مرتباً مجزياً ولم يكن يجد لذة فى شغل هذا المنصب . ولما تقدم مارتن طالباً أن يشغل هذا المنصب بنصف الأجر المقرر له ، قبل وستيجن تعطفاً مؤكداً أن ذلك سوف يكون له أثره على عمله الخاص .

وكان لذلك أثره فعلا ، فقد كاد يحطم حياته الخاصة ، ولم يكن هناك تعيين رسمى . ووقع مارتن باسم ستيجن (وهو يتهجاه بطرق مختلفة اعتماداً على كيفية نطقه) على المستندات واعتمد مجلس المقاطعة سلطات مارتن المحددة ، ولكن كل ذلك بطريقة غير قانونية .

كان حماس مارتن لمنصبه الجديد كمراقب صحة يندر فيه العلم وتقل فيه البطولة ولكن يكثر فيه المضايقات لأبناء بلدته ، فقد كان يقتحم أفنية المنازل ، واعترض على قيام السيدة بيسون بتدخين براميل الرماد ، كما اعترض على السيد نور بلوم لقيامه بتكديس السماد فى الشوارع وعلى مجلس إدارة المدرسة لعدم تهوية المدرسة ونقص التعليمات والإرشادات الخاصة بتنظيف الأسنان . وكان السكان قبل ذلك يثورون على مارتن ويحنقون عليه لعدم اتباعه تعاليم الدين وانحلاله الخلقى وعدم توافر الروح الوطنية فى نفسه ، ولكن عندما بدأ يحثهم ويزعجهم لارتياحهم إلى القذارة انفجروا فيه .

وكان مارتن متحمساً ، ولكنه إذا كانت تتوافر له براءة الحمامة ، فإنه كانت تعوزه حكمة الثعبان ، فلم يستطع أن يقنعهم بمهمته ، وقلما حاول إقناعهم ، كانت سلطته كبديل وستجين مفروضة على الورق ، ولكنها ضعيفه عملياً ، وكانت لاقيمة لها أمام العنف الذى أثاره — وقد تحول من التفتيش على القمامة إلى دراما العدوى ، كان مجتمع ويلفت قد أصيب بوباء التيفود الذى كان يضعف أثره ثم

يظهر من جديد . وقد اعتقد الريفيون أنه قد وفد إليهم من قبيلة تستوطن على مبعدة ستة أميال عند الخليج ، ورأوا أن معاقبة هؤلاء المذنبين والمسببين للوباء وسيلة عملية للوقاية وإجازة مفيدة من زراعة القمح . ولما أصر مارتن على أن الخليج نفسه وسيلة لتطهير الوباء على بعد ستة أميال وأن القبائل المستوطنة من المحتمل ألا تكون هى السبب اعترض عليه القوم وأنكروا ذلك . وقد علق على ذلك كاييس تاجر القمح فى ويلفت قائلاً : « أنه إنسان بديع إن كل ما عليه هو أن يتجول ويقول يجب اتخاذ الاحتياطات للوقاية الصحية ونحن نأتى ونوضح له أن هنا كلاب الجحيم ولابد من القضاء عليهم ، وهم قبيلة بوهنكز — فإذا كل ما يفعله هو أن ينفث شيئاً من اللغو الباطل عن التأثيرات الميكروبية أو عن هذا الشىء القبيح أيا كان اسمه . »

وأخذ مارتن يجوب المقاطعة يمارس نشاطه ويؤدى واجبه على نطاق ضيق ، فكان يأخذ فى بحث واستقصاء كل حالة تيفود حديثة على مبعدة خمسة أميال من دلفت وكان يبحث فى مصانع الألبان ومحلات البقالة وقد أكتشف أن معظم هذه الحالات ظهرت عقب زيارة إحدى الخياطات المتجولات وهى عذراء فاضلة ولكن حالتها الصحية كانت متدهورة وكانت أصيبت بمرض التيفود منذ أربع سنوات وأعلن مارتن :

« أنها حاملة مزمنة لميكروبات المرض ولابد من توقيع الكشف عليها » .

وعثر عليها فى منزل أحد الريفيين الوعاظ وكانت تقوم بحياكة الملابس .

رفضت باستياء متواضع أن يوقع عليها الكشف ، وعندما تركها وذهب مضت تبكى بصوت مرتفع للاهانة التى وجهت إليها بينما وقف الواعظ على باب المنزل يصب عليه اللعنة . وعاد مارتن ومعه ضابط شرطة المدينة وألقى القبض على الخياطة وحجزت فى جناح الحجر فى ملجأ فقراء المقاطعة وبالكشف عليها تبين أنها تحمل بلايين من ميكروبات التيفود — لم تكن الفتاة الرقيقة المسكينة مرتاحة لوجودها فى هذا العنبر المطلى بالجير . كانت خجولة من نفسها ومرتعبة .

وكانت دائماً محبوبة وموضع تقدير إذ أنها فتاة عذراء لطيفة مسكينة ذات عينين لامعتين تقدم الهدايا للأطفال وتساعد الريفيات المرهقات بالعمل فى طهى الطعام، كما كانت تغنى للأطفال بصوتها الفرد الجميل، وكان مارتن قد صبت عليه اللعنات للقبض عليها، كما كان الناس ينادون بالإفراج عنها ويقولون « لولا أنها فقيرة لما تجاسر أن يقترب منها ».

واهتاج مارتن حنقاً ومضى يزور الخياطة المسكينة فى ملجأ الفقراء، وحاول أن يقنعها بأنه ليس هناك مكان لها أفضل من ذلك، وكان يقدم لها المجلات والهدايا والحلوى، بيد أنه كان حازماً فلم يسمح بالإفراج عنها لأنه قد تسببت على الأقل فى مائة حالة من حالات التيفود نتج عنها تسع حالات وفاة.

أخذ القوم يسخرون منه الآن فكيف تسببت فى حالات التيفود وهى فى حالة جيدة منذ أربع سنوات؟ واستدعت لجنة القاطعة ومجلس الصحة فى القاطعة الدكتور هسلينك من القاطعة المجاورة فوافق على ما وصل إليه مارتن فى بحثه. وفى كل اجتماعات المجلس كانت هناك معركة ولم يكن يعرف ما إذا كان مارتن سيحطم أم سيتوج.

وأنقذته لورا كما أنقذت الخياطة عندما قالت « لماذا لا نرسلها إلى مستشفى كبيرة حيث تعالج أو يحتفظون بها هناك إذا تعذر علاجها؟ »
وأدخلت الخياطة مصحة ونسى أمرها من الجميع بقية أيام حياتها . . . وقال أعداء مارتن الجدد :

« إنه ذكى وجاد فى عمله » وزاره هسلينك ليقول له : « إنك أحسنت التصرف الآن يا أروسميث وإننى لسعيد أن أراك تستقيم فى عملك. »

كان مارتن معجباً بنفسه قليلا، سرعان ما جد وراء وباء جديد، فقد كان من حسن حظه أن تأتيه حالة جدرى، وكثيراً من الحالات المتشابهة التى أثارت شكوكه. وبعض هذه الحالات توجد عبر حدود مقاطعة مينكن أى فى دائرة اختصاص هسلينك، وسخر منه هسلينك قائلاً « أنه من المحتمل أن تكون

هذه الحالات جدرى الدجاج فيما عدا الحالة الوحيدة التى وجدتها ، وقلما تجد حالة مرض جدرى فى غضون الصيف » وظل مارتن غاضباً يجوب أرجاء المقاطعتين وهو يعلن عن الوباء ويدعو كل إنسان إلى التطعيم ضد الجدرى ، وهو يقول هادرا « سوف يستمر جحيم هنا خــلال عشرة أو خمسة عشر يوماً » ولـكن قسيس الـكنيسة المتحدة الذى كان يعمل فى بعض الـكنائس فى هويتسلفانيا وفى قريتين أخريين كان يعارض فـكرة التطعيم وينادى بعدم الأخذ بها . وقد مال سكان القرى إلى جانبه بينما أخذ مارتن يزورهم فى منازلهم ويرجوهم ويعرض عليهم العلاج مجاناً . ولما كان مارتن لم يعلمهم حبهم له وإتباعه كزعيم ، فإنهم لم يثقو به ومضوا يحاجونه ويناقشونه كثيرا . وفى يسر وسهولة كانوا يستهزئون به وهو ما زال على عتبة دارهم قائلين إنه فى حالة سكر . وبالرغم من أنه لم يـكن يتعاطى سوى قهوة الريف فإنهم كانوا يوحون إلى بعضهم بعضاً أنه يسكر كل ليلة حتى أن قسيس كنيسة الإخوة المتحدة كاد يعرض به من فوق المنبر .

ومرت عشرة أيام مفزعة وأصبحت خمسة عشر ولم يثبت أن هناك سوى جدرى الدجاج — واستاء هسلينك وزمجر سكان القرية وصار مارتن أضحوكة المنطقه ومصدر سخريتهم به .

وكانت لورا تهدىء من روعه قائلة : « سوف ينتهى كل شىء » ولـكنه لم ينته — فعندما حل فصل الخريف أصبحت ملحمة هزلية يؤثرها الريفيون فى سائر أنحاء العالم .

وقالوا فى تهكم إنه أعلن أن كل من لديه خنازير سوف تموت من مرض الجدرى ، وأنه كان ثملا لمدة أسبوع ، وأنه يشخص كل شىء على أنه جدرى من مرض الحصاة الصفراوية إلى سوء الهضم ..... وكانوا يحيونه ساخرين متهكمين قائلين له « يا دكتور .. إنى أعانى من دمل صغير فى الذقن فما هو ذلك — جدرى ؟

وكان ضحك الناس أكثر من تودتهم على مارتن . وإذا كان هــذا التهكم يشق على الطغاة فإنه بنفس المذاق يقتفى أثر الرهبان والحـكماء ويفسد كنوزهم .

وعندما انتشر وباء الدفتيريا فجأة انتشاراً حقيقياً ، كان مارتن يرشدهم وهو غير واثق من نفسه وتذكر نصف سكان البلدة فشله فى إنقاذ ابنة نوفاك وصاح النصف الآخر قائلا :

« أواه أعطنا راحة . . إن الوباء دائما فى عقلك ! » وبالرغم من أن عدداً كبيراً من الأطفال قد لاقوا حتفهم فإن ذلك لم يجعلهم يكفون عن ملحمتهم الهزلية .

ثم عاد مارتن إلى لورا فى المنزل وقال لها بهدوء ! « لقد فرغ صبرى فلا بد أن أرحل ولا أستطيع أن أفعل شيئا هنا أكثر من ذلك ، فإن الأمر يتطلب أعواما حتى يثقون بى مرة أخرى . إنهم مهذارون ملاعين ! سأذهب لأبحث عن وظيفة حقيقية — فى الصحة العامة »

« إننى سعيدة، فإن مستواك أرقى من إدراكهم هنا .سوف نجد مكانا كبيراً حيث يمكن أن يقدروا عملك . ».

« كلا ، هذا ليس حقا . لقد تعلمت شيئا صغيراً . لقد فشلت هنا وعاديت كثيراً من الناس ولا أعرف كيف أتصرف معهم ، وكان يمكن أن نتحمل ذلك ، ولكن الحياة قصيرة وأعتقد أننى عامل ماهر فى سبل معينة . كان يقض مضجعى كثيراً أن أسمى جباناً وأن أهرب تاركا — ماذا ؟ نافضاً يدى من الكفاح ولكن لم يعد يهمنى الآن . قسما بالله إنى أعرف ما أستطيع أن أفعل — لقد رآها جوتليب — وأننى أريد أن أعمل . وسوف نذهب سويا أليس كذلك

« طبعا ! »

— ٢ —

كان قد قرأ فى صحيفة الجمعية الأمريكية الطبية أن جوستاف سوند ليوس يعد سلسلة من المحاضرات فى جامعة هارفارد ، وقد كتب يسأله عما إذا كان يعرف وظيفة فى الصحة العامة — فرد سوند ليوس عليه رداً سريعاً غير منسق يقول فيه إنه تذكر بسرور أجازتهم فى مينا بوليس وأنه لم يتفق مع أنتويسل فى هارفارد

عن طبيعة الميتاثروبين ، وأنه يوجد مطعم إيطالى ممتاز فى بوستن ، وأنه سوف يسأل أصدقاءه موظفى الصحة عن وظيفة .

وبعد ذلك بيومين كتب خطابا يفيد فيه أن الدكتور الوس بيكربو مدير الصحة العامة فى مدينة نوتيلوس بأيوا كان يبحث عن وكيل له، ومن المحتمل أنه سوف يكون على استعداد لإرسال التفاصيل . ومضى مارتن ولورا يحسبان ويقدران فيقولا :

« تسعة وستون ألف مواطن فى نوتيلوس مقابل ثلثمائةوستة وستون هنا — لا ، انتظره . إنهم ثلثمائة وسبعة وستون الآن بعا فى ذلك مولود بت يسكا الذى استدعى الخنزير الدكتور هسليتك من أجله . الناس الناس الذين يستطيعون الحديث، المسارح ، ربما الكونشرتات ، لورا ، إننا سنكون كطفلين هربا من المدرسة .

وأرسل برقية يطلب فيها التفاصيل إلى وكيل المحطة الذى كان يعمل أيضاً عامل تلغراف ، وكان نص النشرة المطبوعة التى أرسلت له تقول :

«أن الدكتور بيكربو طلب مساعداً ليعمل مراقباً طبياً طول الوقت مع بيكربو نفسه إذ أن أطباء المدارس أطباء خصوصيين يعملون بعض الوقت . ويلزم أن يكون المساعد إخصائياً فى الأمراض الوافدة والبكتريولوجيا ، ومديراً لمكتب الكتابيين والممرضات ومفتشى محلات الألبان والمصحات وسوف يكون المرتب ألفين وخمسمائة دولار سنوياً — وكان ذلك مقابل خمسمائة أو ستمائة دولار يتقاضاها مارتن فى هويستسلفانيا .

وكان مطلوباً منه أن يقدم التوصيات اللازمة . وكتب مارتن إلى سوندليوس وإلى العميد سيلفا وإلى ماكس جوتليب الذى يعمل حالياً فى ماك جورك بنيويورك

. وأبلغه الدكتور بيكربو قائلا : لقد تلقيت بسرور خطابات من العميد سليفا والدكتور سوندليوس عنكم ولكن الخطاب الذى بعث به جوتليب جدير بالإشارة إذ يقول فيه أن كفاياتك ومواهبك فى المعمل نادرة وأنه ليسرنى للغاية أن أقدم لكم الوظيفة فنرجو التكرم بالإبراق إلينا . »

وحتى ذلك الحين لم يكن مارتن يدرك تماماً أنه يغادر هويتسلفانيا ـ فهناك متاعب ومضايقات برت توزر وتجسس بت يسكا وأسرة نوربلومز ، وحتمية الدوران كما كان يدور كثيراً فى أوقات متفاوتة ، جنوباً من طريق ليوبوليس والسير فى الطريق المتعب المنبسط ـ وتفوق الدكتور هسلينك وحقد الدكتور كوجلين ـ هذه الجولات التى لم تترك لحظة لعمله المترب ـ سوف يترك كل هذا من أجل الانتصارات بالروعة مدينة نوتيلوس العظيمة .

« لورا ، إننا سنرحل ، سنرحل حقاً ! »

— ٣ —

وقال برت توزر :

« إنكم تدركون أن هناك جماعات ستقول عنك إنك خائن غادر ، فإنه بعد كل الذى قدمناه لك ، حتى وإن كنت قد رددته ألفاً فإنك ستجعل طبيباً آخر يفد إلى هنا ويحل محلك ويستلب كل هذا النفوذ من الأسرة » .

وقالت آدا كويست :

« أعتقد أنه إذا لم تكن مشهورا وسط الناس هنا فى هذه المنطقة فإنك سوف تستمتع بوقت طيب فى مدينة كبيرة مثل نوتيلوس ، حسناً فإننى وبرت سنتزوج العام القادم ، وأعتقد أنكما إذا فشلتما فسوف نستطيع أن نرعاكما فى منزلنا عندما تعودان . وهل تعتقدان أننا نستطيع أن نحصل على منزلكما بنفس الإيجار الذى تدفعانه . . أوه لماذا يا برت لا نأخذ عيادة مارتن بدلاً من المنزل ، إنها سوف توفر كثيراً من النقود ، حسناً ، لقد قلت لك يا أورى منذ أن كنا سوياً فى المدرسة إنك لا تستطيعين تحمل حياة كريمة ومنظمة . »

وقال السيد توزر :

« إننى لا أستطيع ببساطة أن أفهم ذلك ، مع أن كل شىء يسير على ما يرام ، لماذا ... فى يوم ما سوف تربح ثلاثة أو أربعة آلاف دولار فى العام إذا واظبت على عملك . ألم نحاول أن نعاملك برقة ! إننى لا أريد أن ترحل ابنتى بعيداً عنى

وتتركني وحدى ، فإننى الآن نتقدم بى الأعوام . وبن برت لم يعد مأموناً معى ومع والدته ولكن أنت وأورى دائماً تشفقان وتستمعان إلينا فهل تستطيع أن ترتب أمورك بحيث تستقر معنا . »

وقال بت يسكا :

« يا دكتور . . إنك تستطيع . . لقد ذهلت عندما علمت أنك سترحل ؟ فإننى وأنت كنا نتشاحن فى الشئون الخاصة بالأدوية ، ولكم راودنى التفكير أن أجعلك معى شريكاً ، وأنوط بك أن تتولى تركيب الأدوية بما يلائمك ، وكان فى مقدورنا بعدئذ أن نحصل على توكيل سيارات « بويك » وننهض معاً بتدبير أعمال تبشر بالخير ، إنه ليؤسفنى حقاً أن ترحل وتتركنا .... حسناً فلتعد إلينا يوماً ما ، وسوف نقوم بصيد البط ونضحك كثيراً على تلك الحملة التى أثرتها فيما كنت تسميه الجدرى ، لن أنسى ذلك إطلاقاً ، كنت أقول ذلك بالأمس للمرأة العجوز عندما كانت تعانى من ألم فى الأذن ، « ألست تعانين من الجدرى أليس كذلك » .

وقال دكتور هسلينك : —

« ما هذا الذى أسمعه يا دكتور ؟ هل سترحل ؟ لماذا ، إننى وأنت كنا قد بدأنا فى النهوض بمهنة الطب فى هذه المنطقة المجهولة إلى المستوى الذى يجب أن تكون عليه ولذلك فإنى جئتك هذا المساء — هه ؟ هل أزعجناك ؟ أجل ولكن ذلك ليس معناه أننا لا نريدك . . . فى مكان صغير مثل هذا أو مثل جروتيجن يجب أن نحمس فيه الجيران حتى تظل مشغولا ، لماذا يا دكتور إننى شاهدتك تتطور من إنسان مغمور إلى طبيب مشهور ، والآن ترحل — إنك لا تدرك ماذا أشعر . »

وقال هنرى نوفاك :

« لماذا سترحل يا دكتور وتتركنا ؟ وإننى سيكون لى طفل عما قريب ولقد ذكرت لزوجتى أمس .. إنه لشىء حسن أن يكون لدينا طبيب يوصلنا إلى الحقيقة بدلا من ذلك الإنسان الجاهل الذى اعتدنا عليه ، الدكتور ونتر . »

وقال تاجر القمح فى ديلفت :

« ما هذا الذى أسمعه يا دكتور ، هل سترحل ؟ لقد قال لى ذلك شخص ما فقلت له « لا تكن أبلها أكثر مما شاء الله لك أن تكون » وأقول لك إننى قلقت لذلك ، وقد جئت و — يا دكتور ، أننى أتألم كثيراً وأعتقد أننى كنت ضدك فى وباء التيفود عندما كنت تقول أن الخياطة تنقل العـــدوى ، وإذ ذاك أوضحت لى الطريق السليم . يا دكتور إذا كنت تريد أن تكون عضواً فى مجلس الشيوخ بالمقاطعة وإذا كنت ستستقر هنا ، فإن لى بعض النفوذ هنا . صدقنى فسوف أبذل ما فى وسعى من أجلك . »

وقال ألك انجلبلاد :

« إنك فتى سعيد الحظ ! » .

كانت القرية جميعها عند القطارفى وداعه وهو يغادرها إلى نوتيلوس — وبعد أن قطع مارتن فى وقدة الخريف مائة ميل ، استشعر بالخوف من أجل فراق جيرته وهو يقول :

« إننى أحس مثلما أكون راحلا وعائداً ، ألم نعتد أن نمرح ونتفكه بلعبة الخمسمائة مع فريزر . . إننى أكره أن أفكر فى نوع الدكتور الذى قد يأتى من بعدى . أقسم أنه إذا حل وباء هناك أو إذا أهمل وستجين الشئون الصحية مرة أخرى فسوف أعود وأطردها من العمل ، ويصبح شيئاً ظريفاً أن أصير عضواً عن المقاطعة بطريقة ما .

ولكن عندما أرخى الليل سدوله ولم يعد يوجد أمامهما فى ذلك العالم المندفع سوى مصابيح النار فى العربة الطويلة من فوقهم ، تبدت لهما عن بعد مدينة نوتيلوس العظيمة شرفاً عظيماً .. لتكون المدينة النموذجية المشمة .. وفكر فى سوندليوس بل وحتى فى ما كس جوتليب ..

الفصل التاسع عشر

فى وسط سهل أيووا ذى التربة الداكنة الذى لا ترويه إلا ترعة صغيرة قليلة الغور تقع مدينة نوتيلوس بحرارتها اللافحة وضجيجها وبريقها ، ولمسافة مئات من الأميال تنبت الذرة الطويلة فى دغل ترتفع أشجاره فى صفوف غير منتظمة ، كما أن الغريب الذى تطأ أقدامه الطرقات التى تحيط بها عيدان الذرة، والذى يتساقط العرق من جبينه يضل الطريق وتنهار أعصابه عندما يحس بكثافة ما ينمو حوله من نباتات .

ونوتيلوس بالنسبة لزينيث كزينيث بالنسبة لشيكاغو .

إنها أصغر من زينيث ولكنها ليست أقل حركة وضجيجاً ، إذ يقطنها سبعون ألف نسمة ، وبها فندق واحد يعد كبيراً لو قارناه بفنادق زينيث الإثنى عشر ، بيد أنه فندق ملىء بالحركة وعلى مستوى رفيع ، وعصرى بقدر ما استطاع أن يجعله صاحبه ، والفارق الوحيد الجوهرى بين نوتيلوس وزينيث هو أن الشوارع تبدو فى كلا الحالين متشابهة لكنها فى نوتيلوس لا تبدو كذلك مسافة أميال عديدة .

أما صعوبة تحديد طابعها المميز فتكمن فى حقيقة أن أحداً لم يحدد ما إذا كانت قرية كبيرة جداً أم مدينة جد صغيرة ، فهناك مسارح وحفلات فاخرة ومع هذا فى أمسيات شهر أغسطس يجلس جميع السكان باستثناء قلة تعد بالعشرات من نواب المقاطعة وهم يرتدون قمصانهم فى الشرفات الأمامية لمنازلهم ، وفى الجانب الآخر من مبنى الحكومة المكون من عشرة أدوار ، حيث تقوم فتاة عاشت مدة خمسة أشهر فى مقاهى مونتبارناس بإصدار مجلة صغيرة بعنوان « النثر الجديد » ، يوجد قصر شيد على الطراز القديم مزود بأشجار الأسفندان ، وبصف من سيارات فورد وعربات النقل التى تنقل المزارعين وهم بملابس العمل إلى المدينة .

وتمتاز أيووا بأخصب تربة وأقل نسبة من الأمية وأكبر نسبة من المواطنين

البيض الذين ولدوا فيها . ومن ملاك السيارات ، كما أن مدنها أكثر مدن جميع الولايات تمسكا بالأخلاق والتطلع إلى المستقبل ، أن نوتيلوس أكثر مدن أيووا إبرازاً للسمات المميزة لتلك الولاية ومن بين كل ثلاثة أشخاص يربو عمرهم عن الستين يقضى واحد فصل الشتاء فى كاليفورنيا ، كما أن من بينهم بطل صانعى الجرار على شكل حدوة الحصان فى باسادنيا ، والمرأة التى تقدم الديكة الرومية التى استمتعت بها الآنسة مارى بكفورد — أميرة السينما — فى حفل العشاء الذى أقامته بمناسبة عيد الميلاد فى عام ١٩١٢ .

وتتميز نوتيلوس بالمنازل الكبيرة ، والحدائق الفسيحة ، وبعدد مذهل من الجراجات ، وقباب الكنائس الشاهقة ، وبالحقول الغنية بنباتاتها الممتدة حتى طرف المدينة ، وبالمصانع المتناثرة وخطوط المواصلات التى لا حصر لها والأكواخ غير المنسقة التى أقيمت للعمال فى وسط حقول الذرة ، وتصنع نوتيلوس مطاحن الصلب الهوائية والمعدات الزراعية من بينها ديزى — مانيور — سبردر المشهورة ومنتجات الذرة مثل «ميزميليز» وهو طعام الإفطار المشهور ، هذا وهى تصنع الآجر وتبيع البقالة بالجملة إلى جانب كونها مقرا لرئاسة شركة تأمين كورنبيلت التعاونية .

ومن أصغر منشآتها — ولكن أقدمها — كلية موجفورد المسيحية التى تضم مائتين وسبعة عشر طالباً وستة عشر محاضراً من بينهم أحد عشر قسيساً ينتمون لكنيسة المسيح ، أما الدكتور توم بيسيكى المشهور فهو مدرب لكرة القدم ومدير للصحة وأستاذ للصحة المدرسية والكيمياء والطبيعة واللغتين الفرنسية والألمانية ، أما أقسام الاختزال والعزف على البيانو فقد تمدت حدود نوتيلوس ، وحدث أن أقامت كلية موجفورد — حتى وإن كان ذلك منذ سنوات مضت — مباراة لكرة القدم مع فريق كلية جرينل وفازت عليه بإحد عشر هدفاً لخمسة أهداف ، ولم تحط من قدرها قط تلك المشاحنات التى وقعت حول تعليم علم الأحياء الخاص بنظرية التطور ، فهى لم تفكر على الإطلاق فى تدريس علم الأحياء .

— ٢ —

وترك مارتن لورا فى « سيمز هاوس » ـ وهو فندق على طراز قديم يعد ثانى أفضل فنـــدق فى نوتيلوس ـ ليقدم تقريراً إلى الدكتور بيـكربو مدير إدارة الصحة العامة .

وكانت الإدارة فى زقاق فى طابق أرضى يقع خلف قاعـة احتفالات المدينة التى بنيت من حجر رمادى اللون ، وعندما دخل حجرة الاستقبال القذرة استقبله بترحيب شديد كاتب الاختزال والمرضتان الزائرتان ، وفى وسط عبارات التملق سألوا مارتن : هل استمتعت برحلة طيبة يا دكتور ؟ إن الدكتور بيكربو لم يـكن يتوقـع حضورك إلا غداً ؟ هل جاءت السيدة أروسميث معك يا دكتور ؟ » وحينئذ أقبل الدكتور بيكربو يطلق عبارات الترحيب المدوية .

وكان الدكتور آلموس بيكربو قد بلغ الثامنة والأربعين من عمره وهو أحـد خريجى كلية موجفورد ومدرسة واسوالطبية ، وكان يبدو قريب الشبه من الرئيس روزفلت بالوجه المستدير والشارب الـكثيف إلى جانب محاولة تقليد روزفلت ، ولم يـكن الرجـل الذى يتحدث حديثاً عاديا فهو إما يتحدث حديثاً غير مفهوم أو يلقى خطباً .

وحيا مارتن بنفس التحية التى كانت تتبع فى الـكلية وأراه أقسام الإدارة وقاده إلى مكتب المدير الخاص وقدم له سيجارة وحطم سد الصمت الرهيب وقال :

« إننى مغتبط يا دكتود أن يعمل معى رجـل بمثل ميولك العلمية ، وهذا لا يعنى أنى أعتبر نفسى مجرداً منها فقد أصبح ـ فى الحقيقة ـ من عادتى أن أخصص وقتاً للبحث العلمى الذى بدون قدر منه لا يستطيع أكثر المتحمسين للأساليب الصحية أن يحقق نجاحا كبيرا » .

وبدا هذا الحديث كأنه بداية لمحاضرة طويلة فاستقر مارتن فى مقعده وشك فى قيمة السيجارة التى بين أنامله لـكنه اكتشف بأنها تجعله يبدو أكثر اهتماما .

« لـكنى أعترف بأن اهتمامى بالبحث العـلمى مجرد هواية وغالباً ما راودنى

الأمل فى أن تهبنى القوى السماوية — دون رغبـــة منى فى أية شهرة أو عظمة شخصية — العبقرية التى تمكننى من أن أصبح على الفور روزفلت ولونجفيلو الحركة عالمية متطورة كبرى فى ميدان الصحة العامة — هل سيجارتك من تبغ بارد جداً يا دكتور ؟ — أو ربما من الأفضل أن تقول كيبلنج الصحة العامة بدلا من لونجفيلو لأنه على الرغم من الفقرات الجميلة والجو الأخلاق الرائع الذى خلقه حكيم كامبريدج فإن شعره يفتقر إلى موسيقى وسحر شعر كيبلنج .

« وافترض أنك تتفق معى أو أنك ستفعل ذلك عندما تتاح لك الفرصة لترى ما سيكون لعملنا من تأثير على المدينة وما سنحققه من نجاح فى إقناع الناس ، إذ أن ما يفتقر إليه العالم هو زعيم شجاع مشهور عبقرى حقا — لنقل بيلى صنداى الحركة — رجل يعرف كيف يستغل الناحية العاطفية بطريقة ملائمة يوقظ بهـا الناس من سباتها ، وأحيانا تزعم الصحف — ولا يسعنى إلا أن أقول بأنها تتملقنى أحياناً عندما تقارننى ببيلى صنداى ، أعظم وعاظ ومبشرى المسيحية — بأننى عاطفى أكثر مما ينبغى ، آه ! ليتهم يستطيعون فهم الحقيقة . فالمشكلة هى أننى لا أستطيع أن أكون عاطفيا بالقدر الكافى ! ومع هذا أحاول وأحاول ... أنظر . هنا إعلان رسمته ابنتى أوركيد ، أما الشعر فهو من نظمى المتواضع ، واسمح لى أن أخبرك بأنه يقتبس فى كل مكان :

لن تتمتع بالصحة

بالتسلل الخفى

فلندع كل داعية للصحة

يصيح كالديك القوى .

ثم هناك إعـلان آخر . . . . وهـذا شىء أقل شأنا ، أنه لا يرمى إلى إقناع الناس بمبادىء غامضة عامة لكنك تدهش لما سيتركه من تأثير على ربات البيوت المهملات اللاتى لا يقصدن — بالطبع — إهمال صحة أطفالهن الصغار وكل ما يحتجنه هو التوجيه والتشجيع . وعندما يرون هذا الإعلان سوف يفكرون فى الأمر .

أغلى زجاجات اللبن أو بالإهمال
تحصل على تذكرة للدار الأخرى .

وبتفكيرى المحدود أستمتع كثيراً ببعض هذه الأمور التى أكاد ألا أستغرق فى كتابتها أكثر من خمس دقائق ، وعندما تجد لديك متسعاً من الوقت ألق نظرة على هذه المجموعة من القصاصات لترى ـ يا دكتور ـ ما تستطيع أن تفعله إذا انضمت إلى الحركة مستخدماً الأسلوب العلمى الحديث ، فهذه القصاصة خاصة بالاجتماع الذى ألقيت فيه خطابا فى « دان موان » .... وأستطيع القول بأن جميع من كان فى تلك القاعة التى امتلأت عن آخرها — هبوا واقفين عندما أثبت بالاحصائيات أن السكر هو سبب ٩٣ ٪ من حالات الجنون ثم هذه ... حسناً ، ليست لها أية علاقة مباشرة بالصحة غير أنها تكشف عن فرصة الاتصال بجميع الحركات التى تخدم المصلحة العامة التى قد تتاح لك هنا » .

وأمسك بقصاصة من صحيفة رسمت فيها صورة كاريكاتيرية تصوره برأسه الكبير ذى الشارب فوق جسده النحيل وكتبت عليها العبارة التالية :

دكتور بيكربو يحمل لواء الدعوة فى
مقاطعـــة إيفانجيلين ، ويقود
مظاهرة تدعو للذهاب إلى الكنيسة هنا

وتصفح بيكربو القصاصة وهو يقول : « لقد كان الاجتماع رائعاً ، واستطعنا أن ـ نزيد من عدد الذين يحضرون الكنيسة بنسبة ١٧ ٪ ، أخبرنى يا دكتور ألم تذهب إلى وينباك وتعمل كطبيب مقيم فى مستشفى زينيث ؟ حسناً ! إذن فقد تعجبك هذه القصاصة ، إنها من صحيفة « زينيث أدفوكات تايمز » بقلم شوم فرنيك الذى يعد ـ وأعتقد أنك تتفق معى — فى مصاف أيدى جيست ووالت ماسون وهما ـ دون شك ـ أعظم وأشهر جميع شعرائنا ، كما تبين أنك تستطيع الاعتماد دائماً على الذوق الأدبى للشعب الأمريكى ، العزيز المسن شوم ! كان ذلك عندما

كنت فى زينيث لألقى خطابا فى المؤتمر الوطنى لمدارس الأحد الطائفية ـ وحدث أن كنت من أتباع هذه الطائفة ـ عن المبادىء الأخلاقية فى العناية بالصحة ! » .

وهكذا نظم شوم هذه القصيدة عنى :

زينيث ترحب بغبطة بالغـــة

بالصـــديق آلوس بيـكربو

الطبيب الشاعر القوى المناضل

الذى يناصر الصحة صامداً كصخرة جبل طارق

فهو مسلح بالحقائق والروح المرحـــة

العجوز الباسل وابن النابغة ... العجوز المحظوظ ! ..

وأحس الدكتور بيكربو ـ الذى لا يستطيع إخفاء مشاعره ـ بالخجل لمـدة وجيزة « ربما هذا نوع من عدم اللباقة أن أطلع الآخرين على هذه الأمور . وعندما أقرأ قصيدة تتسم بمثل هذه الأصالة والسحر ، أو عندما أرى تحفة أدبية كهـذه أدرك بأنى لست شاعراً البتة بغض النظر عما تقدمه قصائدى من خـدمة لقضية الصحة ، ربما يلقن إنتاجى الفكرى المحافظة على الصحة ويساهم بدوره الصغير فى إنقاذ آلاف الأنفس العزيزة ، لـكنه ليس أدبا كالذى ينتجه شوم فرينك ، كلا أظن أنى لست سوى عالم بسيط فى مكتب » .

ومع هذا سوف ترى كيف أن أحد هـــذه الجهود التى أقوم بها تغريهم بابتسامة رقيقة وعبارة مؤثرة فأقنع المهملين بالكف عن البصق على جانبى الطريق ، وبالخروج إلى الخلاء الفسيح الذى أوجده لهم الله ليملأوا رئاتهم بالأوكسجين مما يؤدى إلى تمتعهم بصحة قوية تساعد على أن ينبت الشعر فى صدورهم ، وفى الحقيقة قد ترغب فى أن تلقى نظرة على أول عدد من مجلة صغيرة شبه ـ سنوية قد بدأت فى إصدارها وأنا على يقين من أن عدداً من محررى الصحف سوف يقتبسون منها ، ومن ثم يواصلون العمل الخير الذى اضطلع به ويدعمون النشرة التى أصدرها فى الوقت ذاته » .

وسلم إلى مارتن نبذة بعنوان « مقتطفات بيكربو »

وأوصت هذه المقتطفات التى كتبت بالشعر والأمثال السائرة بالصحة الجيدة والطرق والأعمال الناجحة وبالمستوى الرفيع من الأخلاق ودعم الدكتور بيكربو توصياته بإحصائيات مؤثرة كتلك التى استخدمها مرة القس أراهنيكاى فى ديجامابى وأطلع مارتن على إحصائية كشفت له على أنه من بين جميع الأزواج فى الأسر التى تعرضت لحالات الطلاق فى أونتاريو وتنيسى وجنوب ويومنج فى عام ١٩١٢ كان ٥٣ ٪ من الأزواج يحتسون مالا يقل عن كأس من الويسكى يوميا .

وقبل أن ينفذ هذا التحذير إلى أعماق نفسه انتزع بيكربو القصاصات من يده بحركة صبيانية وهو يقول : « آه ما أنت براغب فى أن تقرأ المزيد من تفاهات ، ويمكنك الاطلاع عليها فى وقت آخر فى المستقبل ، ولكن هذه المجموعة الثانية من قصاصاتى قد تستمتع بها كمجرد دليل لما يستطيع أن يفعله زميل . »

ولما أخذ يتأمل فى عناوين قصاصات الجرائد التى لصقت فى الكشكول أدرك مارتن أن الدكتور بيكربو أكثر شهرة مما كان يعتقد ، فقد صور على أنه مؤسس أول ناد للتجديف فى أيووا ورئيس إحدى مدارس الأحد الطائفية تسمى مدرسة يوناثان أدواردز فى نوتيلوس ، ورئيس نادى موكاسين سكى وهايكنج ، ونادى ويست سيدبا للكرة ، ونادى بول موسى ، وروزفلت لعام ١٩١٢ ، ومنظم للرحلات المشتركة لنوادى دودمن وموسى وايلكى وماسونز وأودفيلوز ونيرتفرين وفرسان كولومبس وبنادى بيرت وجمعية الشبان المسيحية ، كما أنه فاز بجوائز حفظ أكبر عدد من العبارات المقدسة ولإتقان أفضل الرقصات الأيرلندية فى حفلة مسائية أقامتها جماعة الكتاب المقدس فى نادى يوناثان أدواردز للبالغين .

وقرأ عنه مارتن كمحاضر فى نادى القرن العشرين بنوتيلوس عن « رحلة طبيب أمريكى فى أوروبا القديمة » وفى رابطة الومنى بكلية موجفورد عن « الحاجة إلى مدرب لكرة القدم بكلية موجفورد القديمة » وكان اسم هذا الرجل وأعماله يتردد حتى فى خارج نوتيلوس .

وتحدث فى الاجتماع الأسبوعى الذى تعقده غرفة توليدو التجارية عن موضوع بعنوان « كلما زادت الصحة ... زادت مخالصات البنوك . » كما أنه ألقى على المجلس الوطنى لإدارة الترولى الذى اجتمع فى ويشيتا محاضرة عن « الأمثلة الصحية للعاملين فى الترولى » كما استمع سبعة آلاف وستمائة ميكانيكى فى عربات ديترويت إلى ملاحظاته حول « الصحة أولاً والأمن ثانياً والامتناع التام عن المسكرات » وفى مؤتمر كبير عقد فى ووترلو ساعد فى تنظيم أول فرقة فى أيووا لمقاومة المسكرات وتسمى « رجال الساعة لمقاومة الخمر » .

أما المقالات والإفتتاحية التى نشرت عنه فى الصحف والمجلات ، وفى إحدى النشرات الدورية التى تعلن عن السلع المصنوعة من المطاط فكانت مصحوبة بصور له ولزوجته النشيطة وبناته الثمانية المرحات تصورهن وهن يرتدين الملابس الشتوية الكندية وسط الثلج وجبال الجليد ، أو الأزياء الرياضية البسيطة وهم يلعبون التنس فى الفناء الخلفى ، أو الحلل الغربية التى لا يعرفها أى جنس أثناء قيامهم بتحمير لحم الخنزير خلف أشجار الصنوبر شمال منسيوتا .

وأحس مارتن برغبة ملحة فى الابتعاد عن هذا المكان ليسترد قواه .

وعاد إلى فندق سيمز وهو يدرك بأن حقيقة أن بيكربو يدعو للاصلاح تعد سببا كافياً لأن يتجاهلها أى رجل متحضر .

وعندما بلغ مارتن فى تفكيره هذا الحد جمع قواه ولعن نفسه لما اعتبره خطيئة الاستعلاء القديمة على الأشخاص السويين المهذبين ... والفشل وعدم الولاء الذى أحس بهما وهو فى مدرسة الطب وفى مزاولة أعماله الخاصة فى الإدارة الصحية التى كان يستخدم فيها العنف والآن هل تعاودنى المشاعر القديمة ؟

وقال . « إن هذا المجهود المشجع الذى يقوم به بيكربو هو عين الشىء الذى يجب أن نستخدمه فى توصيل مكتشفات ماكس جوتليب العلمية إلى الغالبية الساحقة من الشعب ، فماذا يعنى من كثرة ثرثرة بيكربو أمام مؤتمرات رؤساء

مدارس الأحد وغيرهم من الحمقى طالما يدعى وشأنى فى القيام بعملى فى المعمل وبمراقبة معامل الألبان ؟

وامتلأ حماساً وعاد وهو منشرح الصدر واثق النفس إلى الفندق ، إلى غرفة النوم الجميلة المرتفعة السقف حيث كانت لورا تجلس على مقعد هزاز بجوار النافذة فقالت : حسناً ؟

« كل شيء على ما يرام ... لقد استقبلنى استقبالا حسناً ، وهم يدعوننا لتناول طعام العشاء مساء غد . »

« كيف يبدو ؟ »

« آه ! انه متفائل بشكل مروع .... إنه يبالغ فى الأمور .... إنه . . . . . . آه ، أترين يالورا انني سوف أكون مشاكساً وجريئاً وفاشلا، وفاسدا غير محبوب؟ »

ودس رأسه فى حجرها وتعلق بحبها إذ كانت الحقيقة الوحيدة فى عالم من الأشباح الثرثارة .

— ٣ —

وعندما رفرفت أوراق أشجار الأسفندان أسفل نافذتهما يداعبهما النسيم الذى أخذ يهب مع بداية السحر ، وعندما عاد سكان نوتيلوس فى سياراتهم القديمة إلى بيوتهم لتناول طعام العشاء استطاعت لورا أن تقنعه بأن شهرة بيكربو لن تتدخل فى عمله وأنهما على أية حال لن يمكثا فى نوتيلوس إلى الأبد وأنه عديم الصبر ، وأنها تحبه كثيراً ، ثم نزلا لتناول طعام العشاء ... عشاء أيووا الذى أعد على النمط القديم ، وهو عبارة عن الذرة المحشوة والمقلية وأطباق صغيرة عديدة تعتبر شهية خاصة بعد تبادل عبارات الغرام ، وهو لا يعلم أنها من إعداد لورا ، وذهب الإثنان إلى السينما وتشابكت أيديهما فى سعادة ورضى .

وفى اليوم التالى كان الدكتور بيكربو أكثر انشغالا وأقل انشراحا وزود مارتن بمفكرة عن تفاصيل عمله .

وتصور مارتن نفسه بعيداً عن تضميد الأصابع المبتورة ودمامل الأذن يقضى أياماً مدهشة فى العمل ، ولا يظهر إلا للدخول فى معركة مع أصحاب المصانع الذين يتحدون وسائل تحسين الصحة ، وما لبث أن اكتشف أنه من المتعذر تحديد عمله إلا بأنه سوف يقوم بالقدر اليسير من كل ما يخطر ببال بيكربو أو الصحافة أو أى مواطن شارد الذهن من سكان نوتيلوس .

فكان عليه أن يهدئ من روع الناخبين الذين يتسمون بطلاقة اللسان والذين جاءوا للشكوى من كل شىء ابتداء من رائحة دخان المصانع إلى حفلات البيرة التى يقيمها الجيران فى منتصف الليل ، كما كان عليه أن يملى الرسائل على كاتبة الاختزال التى لم تكن فتاة عاملة بل فتاة جميلة تعمل ، وأن يرسل المقالات إلى الصحف لنشرها ، وأن يشترى مشابك الورق ، والورق والشمع لتنظيف الأرضية بأرخص أسعار ممكنة ، كما كان من واجبه ، إذا اقتضت الضرورة أن يساعد الطبيبين اللذين يعملان نصف الوقت فى عيادة المدينة ، وأن يوجه الممرضات ومفتشى الشئون الصحية ويلوم شركة نقل النفاية ويلقى القبض — أو يزجر على الأقل — كل من يبصق على الأرض ، هذا ويقفز فى سيارات فورد ليثبت اللصقات فوق جدران المنازل التى يوجد بها أمراض معدية ويراقب بعين ثاقبة الأوبئة التى تنتقل من فلاديفوستوك إلى باتاجونيا ويحول (بأساليب غير محددة تحديداً واضحاً) دون انتقالها حتى لا تقضى على خاصة القوم وتوقف النشاط التجارى فى نوتيلوس .

أما العمل فى المعمل فقد كان محدوداً مثل تحليل اللبن وصناعة الأمصال ، وعمل المزرعات لحالات الدفتريا المشكوك فى أمرها .

وقالت لورا وهما يرتديان ملابسهما استعداداً لتناول طعام العشاء فى منزل بيكربو : « لقد فهمت ، إن عملك سوف يستغرق أكثر من ٢٨ ساعة يومياً . أما ما تبقى من وقتك فلك أن تقضيه فى البحث إذا لم يقاطعك أحد . »

— ٤ —

كان منزل الدكتور والسيدة ألموس بيكربو من الطراز القديم أقيم فوق

ربوة عالية فى الجانب الغربى ، كان منزلا من الخشب ذى أبراج ، وبه أراجيح ونافذة نوم وأشجار متشابكة ودوحة قذرة وشجرة يكسوها الندى ، وهيكل عربة قديم به صف من مسامير الصلب على طول النافذة الرئيسية ، وعلى الباب الأمامى وجدت عبارة « إنك فى حاجة إلى الراحة » .

وجاء مارتن ولورا إلى معمعه أمتزجت فيها التحيات مع البنات ، فلقداندفعت الفتيات الثمانيه — من أوركيد الجميلة التى ناهزت التاسعة عشر من عمرها إلى التوأمتين اللتين تبلغان من العمر عامهما الخامس — فى موجة من حب الاستطلاع المتسم بروح الود وحاولن الحديث فى آن واحد .

أما مضيفتهما فكانت سيدة بدينة توحى بالثقة التى يشوبها شىء من القلق وكان إيمانها بأن كل شىء على ما يرام فى صراع دائم ، مع علمها بأن أشياء كثيرة جداً تبدو خاطئة تماماً ، وأقبلت لورا ، بينما صافح بيكربو مارتن ، وكانت لبيكربو طريقة شاذة فى الضغط بإبهامة على ظهر يدك ، وهى طريقة غير عادية فى التعبير عن الحفاوة ، وفيما تحدثه من ألم .

وما لبث أن أسكت الجميع حتى بناته بخطاب عن عش الزوجية قال فيه :

« إنكما هنا تجد ان مثالا على الصحة فى المنزل ، فتأمل يا أروسميث هؤلاء الفتيات المشوقات القوام ، إنهن لم يمرضن يوماً واحداً فى حياتهن ، وإن كانت الأم تعانى من الصداع فرجع هذا إلى الإهمال فى تناول طعامها فى فجر حياتها ، حتى وإن كان أبوها شماس عجوز — وياله أيضاً من رجل نبيل تولى شئون المدرسة القديمة إذا كان لمثل هذه المدرسة وجود ، كما كان صديقاً لناثانيال موجفورد الذى ندين له أكثر من أى إنسان آخر لا بفضل تأسيس كلية موجفورد فحسب بل أيضاً بتحقيق السعادة وإقامة المصانع التى حققت لنا ما نعيش فيه من رخاء — فمع أن هذا هو أبوها إلا أنه لم تكن لديه أية معرفة بتنظيم الغذاء أو تحسين الصحة ، وكنت أعتقد دائماً . . .

وقدمت لهما الفتيات : أوركيد وفربينا ، وديزى ، وجونكويل ، هيبسكا ونارسيسا والتوأمتين أربوتا وجلاديولا .

ونهدت السيدة بيكربو وقالت : « أظن أنه تقليد مألوف للغاية أن أدعوهن لآلىء ، فأنا أمقت هذه العبارات التقليدية التى يستخدمها كل شخص ، أليس الأمر كذلك بالنسبة لكما ؟ ولكن هذه هى حقيقتهن فى نظر أمهن ، وهذا مارغبه الدكتور وأنا أحياناً . . . وبالطبع عندما بدأنا نطلق عليهن أسماء الزهور التى ندعوهن بها كان علينا أن نلتزم بها . لكن لو كنا بدأنا بالجواهر فتصور الأسماء الجميلة التى كان يمكن أن نستخدمها مثل : العقيق والجوهرة والجزع والزمرد والطوباز وعين الشمس والأزميرالدا والزبرجد . آه ، حسبنا ! لقد هنأنا الكثيرون على أسمائهن الحالية . أتدريان أن الفتيات بدأن يشتهرن . . فصورهن تنشر فى صحف كثيرة ، ولدينا فريق نساء بيكربو للبيسبول قاصر علينا ، والدكتور هو الوحيد الذى اضطر أن يلعب مع الفريق لأنى بدأت أصبح بدينة إلى حد ما .

وكانت التفرقة بين البنات متعذرة بدون معرفة أعمارهن إذ كن جميعاً رشيقات وشقراوات وجميلات ومشغوفات كما كن يعشقن الموسيقى ، ولم يكن يتسمن بالطهر فحسب بل أيضاً بالذكاء ، وكن ينتمين إلى مدرسة الأحد الطائفية وأعضاء إما فى جمعية الشبان المسيحية أو المرشدات ، كما كن مغرمات بالرحلات ويقتبسن باستثناء التوأمين اللتين كانتا فى الخامسة من العمر — بدون خطأ ، أحدث الإحصائيات التى تبرهن على أضرار الكحول .

وقال الدكتور بيكربو : « إننا نعتقد — فى الحقيقة — بأنهن ذرية غاية فى الروعة »

فارتعد مارتن وقال : « ما من شك فى ذلك . »

« لكن أهم من كل هذا هو مساعدتهن إياى فى تطبيق نظرية العقل السليم فى الجسم السليم ، فالسيدة بيكربو وأنا قمنا بتدريبهن على الغناء معاً فى البيت وفى الخارج ونحن نسميهن فريق « الثمانى الصحى . »

« حقاً ؟ » قالت لورا عندما بدا واضحاً أن مارتن لم يعد قادراً على الحديث .

« أجل وقبل أن أنتهى من هذه المهمة يراودنى الأمل فى نشر كلمة « صحى »

من أقصى هذه الأمة إلى أقصاها ، وسوف تشهدون جماعات من الشابات السعيدات يطفن بأرجائها لينشرن رسالتهن الملائكية فى كل ركن مظلم ، الجماعات الصحية! إن هذه الجماعات الجميلة النقية العقل المتحمسة والماهرة فى كرة السلة سوف يوقظن الخامل والعنيد ، كما يحمسن الكسول والعنيد ، ويجعلن من يعيشون حياة قذرة ويتحدثون كلاما قبيحا يشعرون بالحاجة إلى التأديب ! لقد نظمت شعراً ليكون شعاراً للجماعات الصحية ، هل يروق لكم سماعة ؟

أن الشابات الساحرات يعدن بابتسامة
السكارى والباصقين والقامرين عن شعورهم
لقد أوضح آباؤنا ومعلمونا سر الحياة
ومن ثم سوف نعلن الحرب كذلك على ذوى العقول الشريرة .
ولسوف نخجلهم ونبعدهم عن العادات السيئة ، أؤكد لك ذلك !
يجدر بك أن تترقب الأمور يا سيد لوفر ، فأنا من الجماعة الصحية !

ولكن الهدف الأول طبعاً — وكنت أول من نادى به — هو أن يضم مجلس الوزراء بواشنطن وزيراً للصحة وتحسين النسل »

وفى نهاية هذا الخطاب اقتيد إلى عشاء فاخر ، وكان يقول بإخلاص

«هراء هراء أيها الرجل ، إنك بالطبع فى حاجة إلى كمية أخرى من الطعام .... هذه قاعة الضيافة ! » وقدم بيكربو لمارتن ولورا بطة محمرة وبطاطا وفطائر باللحم المفروم فأكلا حتى أتخما وجلسا دون حراك ، أما بيكربو فلم يبد عليه أى أثر ، وأثناء التهامه للطعام استمر فى الحديث حتى بدت غرفة الطعام بخزانتها المصنوعة من خشب الجوز ، وصور المسيح لهوفمان ، وصور رعاة البقر لرمنجتن ، وقد اختفت تاركة بيكربو على منصته بجوار جرة من الماء المثلج .

ولم يكن دائماً مجرد رجل خيالى ، «أقول لك يا دكتور أروسميت إننا رجال محظوظون ، إذ نستطيع أن نكسب قوتنا من وراء بذل كل الجهد فى خدمة سكان مدينة كهذه وجعلهم أصحاء ممتلئى حيوية ، إننى أستطيع أن أكسب ثمانية أوعشرة

آلاف سنويا من مزاولة مهنة الطب ، كما قيل لى ، إننى أحقق ربحاً أكبر من هذا عن طريق فن الإعلان ، ومع هذا فإنى مغتبط — كما أن بناتى الأعزاء مغتبطات معى بالحصول على مرتب قدره أربعة آلاف ، تصور أنه كان من الممكن أن تقوم بعمل لاتباع فيه سوى الأمانة والاعتدال والأخوة بين الناس ! »

وأدرك مارتن أن بيكربو يعنى ما يقول ، ومنعه حياء إدراك الحقيقة من أن يقفز ويمسك بلورا ويستقل أول قطار بضاعة ليقله من نوتيلوس .

وبعد العشاء أرادت الفتيات الصغيرات أن يعبرن عن حبهن الجماعى للورا واضطر مارتن إلى أن يضع التوأمتين على ركبته ويقص عليهن قصة ، وكانت الفتاتان ثقيلتين ، لكنهما ليستا أثقل من مهمة اختراع عقدة للقصة ، وقبل أن تذهبا لتناما غنى الثمانى الصحى بأكمله الأنشودة الصحية المشهورة (من تأليف الدكتور الموس بيكربو) التى سيسمعها مارتن فى مناسبات عامة هامة فى نوتيلوس ، وكان لحنها على نفس لحن أنشودة معركة الجمهورية ، ولكن كان لهذا اللحن تأثيره الخاص بفضل ما اتسم به صوت التوأمتين من نشاط وعلو نغم غير معهودة :

آه ، هل تبحث عن السعادة أم الثروة الحرام ؟
أنت مدين للراية القديمة العظيمة بتثقيف نفسك
وتدريب العقل والمحافظة على نظافة الشوارع و العناية الدائمة
لصحتك

ثم يرددن جميعا

العقل السليم فى الجسم السليم
العقل السليم فى الجسم السليم
العقل السليم فى الجسم السليم

شعار للفرد والجميع .

وقبل أن يأويا إلى الفراش رددت التوأمتان ، كما فعلا منذ برهة فى الاحتفال الطائفى — إحدى أناشيد أبيهما القصيرة :

ماذا يقــــول طائرى الصغير

على العتبــــة فى الفجر؟

« ما أجمل الصحة فى نوتيلوس

الصحة لبابا وماما ولجميعنا

ما أجملها ، ما أجملها ، ما أجملها !»

وقالت السيدة بيكربو هيا إلى الفراش ياأطفالى الأعزاء !

« ألا تعتقدين يامسز أروسميث أنهن ولدن ليكن ممثلات ؟ إنهن لا يرهبن الظهور أمام أى جمهور ، كما أن الأسلوب الذى يتبعنه فى إلقاء أنفسهن فى هــذا المضمار . . . ربما ليس مسرح برودواى . . ولكن مسارح نيويورك الأكثر روعة سوف تحبهن ، ويحتمل أن تكون العناية قد بعثت بهن إلينا لإنعاش الدراما — هيا ياأعزائى » .

وأثناء تغيبهما قدم الآخرون برنامجاً موسيقياً مقتضباً فعزفت ڤيرينا — الابنة الثانية — شاميناد (إننا جميعاً بالطبع نعشق الموسيقى ونعمل على نشرها بين الجيران ولكن ربما تعد ڤيرلى العبقرية الموسيقية الحقيقية فى الأسرة .) ولكن الظاهرة غير المتوقعة هى نفخ أوركيد المنفرد على النفير .

ولم يجرؤ مارتن على أن ينظر إلى لورا ، وهذا لا يعنى أنه أرفع شأناً من العزف المنفرد بالنفير ، فى الك ميلز وهويتسلفانيا وفى أجزاء كبيرة من زينيث كان يقوم بالعزف المنفرد على النفير أكثر النساء عفافاً وفضيلة ، ولكنه شعر بأنه كان فى إحدى مستشفيات الأمراض العقلية لعشرات من السنين .

وقال متأثراً « إننى لم أذق الخمر فى حياتى ، وكم أود أن أثمل ثم أفيق » .

وأخذ يضع الخطط الجنونية غير العملية للفرار — ثم جلست السيدة بيكربو تعزف على العود بعد أن عادت من غرفة التوأمتين اللتين ظلتا يستمعان .

وفى عالم الأحلام شبحت تلك المرأة البدينة وهى تعزف ، وفجأة قفزت إلى

مخيلة مارتن صورتها وهى فتاة مرحة طيبة كالحمامة أعجبت بطالب الطب الشاب الممتلىء نشاطاً وقوة آلموس بيكربو ، ولابد أنها كانت فتاة واقعية تنتمى لأواخر العقد الثامن وأوائل العقد التاسع الذى اتسم عصرها بالسذاجة والغناء عندما كان الشبان أطهاراً يلعبون الكروكيت ويرددون أغنية « نهر سوانى » الفتاة التى كانت تجلس فى الدهليز يسحر لبها جمال السوسن وتمنى نفسها بأنه عندما يتم زواجها من آلموس يكون لهما ـــ وقد مطلى بالنيكل وابن يصبح مبشراً أو مليونيراً .

ولأول مرة فى تلك الليلة حاول مارتن أن يبعث الحيوية فى أغنيته « لقد تمتع بذلك كثيراً » وأحس بالنصر وشفى إلى حد ما من ضعفه .

ولكن لهو الليلة لم يكن قد بدأ سوى فى هذه اللحظة .

لقد دارت بينهم لعبة الألفاظ التى كان مارتن يمقتها ولورا لا تجيدها إطلاقاً كما لعبوا التمثيليات الهزلية التى برع فيها بيكربو ، وكان منظره وهو ملق على الأرض ملتفاً بمعطف زوجته الفرو كعجل البحر الطافى فوق الجليد لا يبارى ، ثم جاء دور مارتن وأوركيد وهيبيسكا (وهى فى الثانية عشرة من عمرها) ليقدموا دوراً هزلياً ، وهنا تعقدت الأمور .

وكانت أوركيد كلها مشاعر عاطفية ساذجة وابتسامات ومداعبات وحركات رشيقة كشقيقاتها الصغيرات بينما كانت فى التاسعة عشرة من عمرها وليست طفلة على الإطلاق وما من شك فى أنها نقية السريرة معجبة بالروايات الأخلاقية النظيفة كما ذكر بيكربو مراراً ، ومع هذا كانت تميل إلى الشبان حتى وإن كانوا متزوجين .

وفكرت فى أن تستخدم كلمة البائس وهو يقوم بدور شحاذ يسأل صدقه مع وجود كيس ملىء بالذرة ، وعندما أسرعا إلى الطابق العلوى لارتداء ملابسهما تأبطت ذراع مارتن وهى تقفز فرحة إلى جواره وتمتمت قائلة : « كم أنا سعيدة يادكتور لأن أبى اختارك لتساعده ، شخص مثلك صغير السن حسن المنظر ،

أليس بشعاً أن أقول هذا ؟ لكن أعنى أنك تبدو قوياً وكل شىء ، بينما كان المساعد الآخر — لاتقل لأبى ما أقوله لك — رجلاً عجوزاً متقلب الأطوار ! »

وكان يحس بالعيون العسلية والشفاه العذراء الرقيقة ، وعندما ارتدت أوركيد رداء فضفاضا مناسباً لدور الشحاذ أحس أيضاً بالصدر الناهد وابتسمت له كما لو كانت تعرفة منذ وقت طويل وقالت بإخلاص :

« سوف نريهم ، فانا أرى أنك ممثل أنيق ! »

وعندما اندفعا إلى الطابق السفلى أمسك بذراعها ، إذ لم تمسك هى بذراعه وضغط عليه بخفة فأحس بالخطر وتركه على الفور .

وكان منذ زواجه قد ذاب فى لورا كعاشق ورفيق ومساعد حتى أن أشد مغامراته انحرافاً التى قام بها حتى هذه الساعة هى أنه رمى فتاة جميلة فى إحدى القطارات بنظرة ولكن مرح أوركيد وحيويتها جعله يشعر بالاضطراب ، فأراد أن يتخلص منها ولكنه تمنى ألا يبتعد عنها كلية ، ولأول مرة منذ سنوات عديدة أحس بخوف من أعين لورا .

وبعد ذلك أدت البنات حركات أكروباتية ، وبشكل واضح تألقت أوركيد التى لم تكن ترتدى المشد والتى أحبت الرقص وأشادت ببراعة مارتن فى لعبة « اتبع القائد . »

وأوت البنات باستثناء أوركيد إلى الفراش ، أما الجزء الباقى من الحفل فقد قضى فيما أسماه بيكربو « بالمحادثة العلمية الهادئة القصيرة إلى جوار المدفئة » التى تضمنت ملاحظاته على الطرق المعبدة وتحسين الصحة فى الريف والمثل فى السياسة وأساليب تنظيم أرشيف الرسائل فى إدارات الصحة . وخلال هذه الساعة الهادئة — وربما كانت ساعة ونصف الساعة — لاحظ مارتن أن أوركيد تتأمل فى شعره وفكه ويديه ، وكانت تراوده فكرة المتعة البريئة بإمساك يدها الصغيرة الرقيقة ، واستبعدها ، ثم راودته مرة أخرى .

ولاحظ أن لورا تراقبهما فتألم كثيراً ولم يحصل على أدنى فائدة من ملاحظات

بيكريو عن قيمة المطهرات ، وعندما تكهن بيكربو بأنه فى غضون خمسة عشر عاماً سوف يكون فى نوتيلوس قسم للصحة ثلاثة أضعاف القسم الحالى مزود بأطباء يعملون كل الوقت فى العيادة والمدرسة ، وأنه يحتمل أن يتولى إدارته مارتن (أما بيكربو نفسه فيكون قد بدأ يزاول نشاطا ممتعاً غير واضح فى ميدان أرحب) عندما تكهن بذلك لم يرد عليه مارتن إلا بعبارة : « أجل سوف يكون ذلك شيئا جميلا » فى الوقت الذى كان يقول فيه لنفسه « لعنة الله على تلك الفتاة ، ليتها لا تتحرك هكذا أمامى » .

وفى الساعة الثامنة والنصف تصور هروبه كأروع شيء في الحياة ، وفى الثانية عشرة استأذن فى تردد عصبي.

وسارا إلى الفندق ، وبعد أن ابتعد عن أوركيد وأخذ يسير فى النسيم البارد نسى الفتاة وراوده التفكير فى مشكلة عمله فى نوتيلوس .

« يا إلهى إننى لا أدرى ما إذا كنت أستطيع القيام بهذه المهمة أم لا ، فالعمل تحت رئاسة هذا الثرثار بأحاديثه الحمقاء عن السكارى ... » .

فاحتجت لورا قائلة : « لم يكونوا بهذه الدرجة من السوء » .

« سوء ؟ ماذا دهاك ، ربما يعد أسوأ شاعر وجد على قيد الحياة ، وفى اعتقادى أن ما يعرفه عن علم الأوبئة يقل دون شك عما يعرفه أى إنسان درس علم الأوبئة بمفرده ، ولكن عندما يبلغ الأمر إلى هدا — ماذا كان يدعوها كليف كلوسن ؟... على فكرة ، ماذا جرى لكليف يا ترى ، إننى لم أتلق منه أية رسالة منذ عامين — عندما يبلغ الأمر إلى روح الألفة المسيحية التدفقة هذه . . . آه دعنا نبحث عن خنزير أعمى ونجلس حوله مع لصوص الليل الظرفاء » .

وقالت فى إصرار « لقد كنت أعتقد أن قصائده ضرب من الظرف » .

« ظرف ! يالها من كلمة ! » .

« ليست أسوأ من الكلمات البذيئة التى نستخدمها دائماً ، ولكن عواء النفير الذى تقوم به تلك الابنة الكبرى الفظيعة .. آخ ! » .

« لكنها أجادت العزف ! » .

« إن النفير يا مارتن هو الآلة التي يعزف عليها أخي ، وأنت تتعالى على شعر الدكتور ومن كلمة « ظرف » التي تفوهت بها ! إنك لم تزد على كونك إنساناً بدائيا مثلي وربما أكثر بدائية ! » .

« لماذا تبدين هكذا يا لورا . لم أر قط أنك تحتدين هكذا بلا سبب من قبل ! .

ألا يمكنك فهم مدى خطورة أن رجلا مثل بيكربو يجعل من مهمة الصحة العامة مجرد مهزلة بجهله وأساليبه المضحكة ، إنه لو قال إن الهواء العليل شيء جميل لدفعني ومعي كل شخص عاقل إلى إغلاق النوافذ بدلا من فتحها ، كما أن استخدامه لكلمة « علوم » في أشعاره التافهة تدنيس للمقدسات » .

« حسناً ! إذا أردت أن تعرف الحقيقة يامارتن أروسميث فهي أني لن أسمح بالمداعبات الفاضحة مع تلك الفتاة التي تدعى أوركيد ؟ لقد كدت أن تحتضنها وأنتما نازلان من الطابق العلوى ثم ظللت تشخص إليها طيلة الوقت ؟ إنني لا أعبأ أن تكون رجلا بذيء اللسان ، حاد المزاج ، بل حتى لو صرت ثملا بطريقة معقولة ، ولكن بعد أن تناولنا طعام العشاء عندما أبصرتني ومعك تلك المرأة الماكرة .

« لا عليكن أيتها الفتيات ، فكل ما أذكره هو أنني مرتبط بكليكما ، إنك ملكي ولن أسمح بوجود معتدين على أملاكي ... إنني من أهل الكهف ويجدر بك أن تعرف ذلك ، أما فيما يتعلق بتلك الفتاة أوركيد بابتسامتها البلهاء ، وإمساكها بذراعك ، وقدمها الضخمة السخيفة . . أوركيد ! إنها ليست أوركيد بالمرة ! إنها زرار أعزب ؟ » .

«لكني ـ في الحقيقة ـ لا أتذكر حتى شخصيتها بين الثمانية » .

« إذن فقد كنت تغازلهن جميعاً ، هذا هو السبب ، لعنة الله عليها ! حسنا ، إنني لا أنوى المضي في الجدل حول هذه المسألة فكل ما أردته هو تحذيرك » .

وفى الفندق ، بعد أن كف عن محاولة إيجاد وسيلة مقتضبة مقنعة للوعد بأنه لن يعود إلى مغـازلة أوركيد قال متلعثما : « إذا لم يضايقك هـذا فإنه لا أريد أن أصعد إلى الطابق العلوى بل سأسير قليلاً ، إذ لابد أن أبحث مهمة هـــذه الإدارة الصحية » .

وجلس فى مـكتب سيمز هاوس ، الذى كان شاغراً بعد منتصف الليل تفوح منه رائحة الخمر :

« هذا الأحمق بيكربو ، ليتنى أخبرته بصراحة أننا نـكاد ألا نعرف شيئا عن علم مرض الالتهاب الرئوى مثلا .

ومع كل ، فإن أوركيد فتاة عزيزة ، إنها أشبه بزهرة الأوركيد .. كلا إنها أكثر صحة لأتشجع وأدخل فى مغامرة ، إنها حلوة ، لقد قمت بدورى فى التمثيل كما لو كنت فى سنها ولست طبيبا مسناً ، سوف أكون إنساناً صالحا ، آه سأكون صالحاً ، لـكنى ... أود تقبيلها مرة ، صالحا ! إنها تحبنى . هذه الشفاة الجميلة ، أشبه بالبراعم .

مسكينة لورا ، إننى لم أدهش فى حياتى مثل اليوم ، إنها تغار ، حسنا ! من حقها ذلك ، فما من امرأة وقفت بجوار رجل مثلما فعلت لورا الجميلة . ألا تفهمين أيتها البلهاء إننى لو اختليت فى ركن مع سبعة عشر بليون فتاة كأوركيد فأنت التى أحبها وليس أحد سواك !

« إننى لا أستطيع أن أطوف وأنشد نشيد الصحة ، حتى لو كان فى هـذا إرشاد للنـاس ، وهذا ما لا تفعله . من الأفضل أن ندعهم يموتون بدلا من أن يعيشوا ويستمعوا إلى ..

« لقد قالت لورا إننى إنسان بدائى ، ودعنى أخبرك أيتها الشابة أننى حامل بكالوريوس علوم ، وقد تذكرين نوع الـكتب التى كان يقرأها لك هذا البدائى فى فصل الشتاء الماضى ، لقد قرأ لك حتى هنرى جيمس وغيره من الروائيين و ... آه إنها على صواب ، إننى كما تصفنى ، اننى أعرف كيف أصنع الأنابيب الماصة ولـكن ...... ومع هذا سوف أقوم يوماً ما بأسفار مثل سوند ليوس .

« سوند ليوس ! يا إلهى ! لو كان هو الذى أخدمه بدلا من بيكربو لجعلت نفسى عبداً له ...

أم هو ثرثار بدوره ؟

« والآن هذا ما أعنيه تماماً ، هذه العبارة ثرثار ! بشعة !

« الجحيم ! سأستخدم أية عبارة تروق لى فاست واحداً من المتسلقين الاجتماعين مثل أنجوس ، فالطريقة التى يتناقش بها سوندليوس مثلا بغيضة ، ومع هذا فقد اعتاد على جميع هذه المسائل الثقافية .

« وسوف أكون مشغولا فى نوتيلوس بدرجة لا تمكنى من مواصلة الاطلاع ومع ذلك . . لا أظن أنهم يقرأون كثيراً ، ولكن لا بد من أن عدداً ضئيلا من هؤلاء الأثرياء هنا يعرفون المنازل الجميلة ، والملابس والمسارح وما شابه ذلك .

« جرذان ! »

وسار حتى انتهى به المطاف عند مطعم صغير يسهر طيلة الليل حيث احتسى قدحاً من القهوة وهو مقطب الجبين ، وبجواره فوق رف طويل يستخدم كمنضدة أسفل نافذة من الزجاج الأحمر حيث علقت صورة چورچ واشنطن جلس أحد رجال الشرطة الذى سأل بعد أن التهم « ساندوتش » من لحم الخنزير :

« أخبرنى ، ألست أنت الطبيب الجديد الذى جاء لمساعدة بيكربو ؟ لقد شاهدتك فى قاعة الاجتماعات بالمدينة . »

« أجل . قل لى ، آه ، مامدى حب المدينة لبيكربو ؟ وما مدى حبك أنت له أخبرنى بصدق فما أنا إلا مبتدىء وأنك آه ... تجرنى فى الحديث . »

واجترع رجل الشرطة قهوته — وهو يمسك بإصبعه القوى ملعقة فى داخل قدحه ، وقال بينما أومأ طباخ المطعم الصغير البدين برأسه مؤيداً .

« حسناً ! إذا احتجت إلى نوع معروف من العقاقير فإنه يحدثك عنه كثيراً غير أنه رجل ذكى للغاية ، إنه ليقدر على تحويل اللغة الفصحى إلى العامية ، أولم

تسمع إحدى قصائده ؟ إنها تتسم بالذكاء الخارق ورداً على سؤالك : هناك من الناس من يقولون أن بيكربو ينظم الأناشيد ويهز الشاعر ولكنى أعتقد — ربما بالنسبة لك ولى بالطبع يا دكتور — أنه من الأفضل أن يعتنى باللبن والقمامة وأسنان الأطفال ، ولكن هناك عدداً كبيراً من المتبلدين المهملين الجهال الأجانب الذين يحتاجون إلى أن يدفعوا إلى استخدام عقولهم فيما يتعلق بهذه المسائل الصحية حتى لا يصابون بالأمراض المعدية ثم ينقلونها إلينا ، وصدقنى بأن الدكتور بيكربو العجوز هو الشخص الذى يستطيع إدخال هذه الفكرة فى عقولهم البلهاء !

« أجل يا سيدى انه أشبه بالغر المائى السن .. إنه لا يتسم بالهدوء كبعض هؤلاء الأطباء ، فمثلا لقد اشترك يوماً ما فى رحلة لزيارة القديس باتريك واندمج ـ مع أنه بروتستانتى قذر ـ مع الأب كوستيلو كما لو كانا صديقين قديمين ، وأقسم لك أنه يستطيع مصارعة شخص فى منتصف عمره ، وربما يلقيه أرضاً ، نعم ، نعم لقد دخل فى رهان حول ذلك ، ولابد أن هذا الشاب استمتع بهذه المصارعة فى مقابل الرهان الذى دفعه ، أما نحن معشر رجال البوليس فنحبه ، وكان لا بد أن نسخر من الأسلوب الناعم الذى يدفعنا به إلى القيام بأعمال صحية كثيرة لا يلزمنا بها القانون بدلا من إصدار الكثير من الأوامر البلهاء ،قد لا تصدق، إنه إنسان بمعنى الكلمة »

فقال مارتن « أرى ما تعنى » وعندما عاد إلى الفندق أخذ يفكر :

« ولكن فكر فيما يمكن أن يقوله عنه جوتليب .

« لعنة الله على جوتليب ! لعنة الله على كل امرىء ماعدا لورا !

« سوف لا أفشل هنا كما فشلت فى هو يتسيلفانيا .

« سوف يتولى بيكربو يوما ما عملا أكبر . . . هه ! إنه من النوع الذى يتسلق بسرعة ! ولكن على أية حال سوف أتدرب ، وربما أتمكن من خلق إدارة حقيقية هنا .

« قالت أوركيد إننا سوف نذهب للانزلاق على الجليد هذا الشتاء ...

« لعنة الله على أوركيد ؟ »

الفصل العشرون

واكتشف مارتن فى الدكتور بيكربو رثيسا كريماً ، فقد كان يتوق إلى أن يدفع مارتن إلى الاختراع ، وإلى إحداث الضجيج حول أهدافه وحركاته ، لقد كانت معلوماته العلمية أقل من معلومات الممرضات الزائرات ، لكنه لم يكن يغير كثيراً منهن ولم يطلب من مارتن إلا أن يعتقد فى أن الانتقال السريع الصاخب من مكان إلى آخر هو الوسيلة (وربما الغاية) للتقدم .

وفى منزل مخصص لأسرتين فوق « تل سوشيال » ، الذى لا يعد تلا بل انتفاضا طفيفا فى السهل ، عثر مارتن ولورا على طابق علوى ، ووجدا متعة طابعها البساطة فى تلك المروج الدائمة الخضرة وتلك الشوارع الواسعة التى تظللها أشجار الأسفندان ، وسرورا فى التحرر من همسات هو يتسيلفانيا العميقة .

وفجأة لقيا ترحيباً وعطفا من مجتمع نوتيلوس اللطيف .

وعقب وصولهما بأيام قليلة دعى مارتن إلى التليفون ليسمع صوت رجل أجش « هالو ، مارتن ؟ أراهن بأنك لا تستطيع أن تخمن من الذى يتحدث إليك ! »

وكبح مارتن ـ المشغول للغاية ـ جماح رغبته فى التخمين وقال : أنت تكسب الرهان .. أخبرنى من أنت ! ودوى صوته بجفاوة تتناسب مع مدير مساعد جديد وقال :

« كلا ، أخشى أننى لا أستطيع »

«حسناً ، خمن»

« آه ... كليف كلوسن ؟ »

« كلا ! أرى أنك تبدو وسيما،آه أعتقد أننى جعلتك تخمن فى هذه المرة فامض فى طريقك ! وحاول ثانية ! »

وكانت كاتبة الاختزال تنتظر أخذ الرسائل ، ولم يكن مارتن قد تعلم

أن ينسى نفسه ويبدو غير مكترث فى حضرتها ، وقال بحدة ملموسة : « أوه أعتقد أنك الرئيس ولسون . » « آه حسناً يا ما رتن ، إنه إيرفنج ووترز ! فما رأيك فى هذا ! »

ويبدوأن المازح كان يتوقع ترحيباً كبيراً ، ولكن مارتن لم يتذكر من هو ايرفنج ووترز إلا بعد عشر ثوان ، بعدها أدرك أن ووترز هو طالب الطب العادى الذى كان إيمانه بالخير والإخلاص وبما هو مريح يضايقه فى ديجامابى ، وجعل رده عليه ودياً بقدر المستطاع :

« حسناً ! حسناً ! وماذا تفعل هنا ياإيرفى ؟ »

« أننى أقيم هنا منذ أن كنت أعمل طبيباً مقيما فى إحدى المستشفيات ، كما حصلت على بعض التدريب ، اسمع يامارتن ، زوجتى وأنا ندعوك وزوجتك — أعتقد أنك متزوج ، أليس كذلك ؟ — لتتناول طعام الغذاء فى دارنا مساء غد ، وسوف أطلعك على جميع وجهات النظر المحلية . »

ومكنه خوفه من أن يخضع لرعاية ووترز من أن يكذب بشدة :

« كم أنا آسف . . آسف جداً . . فأنا مرتبط بموعد مساء غد وبعد غد . »

« إذن تعال غداً وتناول معى طعام الغذاء فى نادى ايلكز ، وظهر يوم الأحد تتناول أنت وزوجتك طعام الغذاء معنا » .

فرد عليه فى يأس : « لا أعتقد أنى أستطيع أن أحضر غداً لكننا سوف نتناول طعام الغذاء معكما يوم الأحد . »

ومن المآسى الكبرى أنه لا شىء يبعث الضيق إلى النفس أكثر من الحب القلبى الصادر من أصدقاء قدامى لم يكونوا قط أصدقاء ، ولم يهدأ روع مارتن البالغ الذى أثاره تعرف ووترز عليه فى هذا المكان عندما وصل كارهاً وبصحبته لورا فى الساعة الواحدة والنصف بعد ظهر يوم الأحد ، وأخذ الصديق القديم يعيدهما إلى الماضى إلى أيام ديجامابى .

وكان منزل ووترز حديث البناء شاهقاً مزوداً بالزجاج المجهز بالرصاص كما

أنه أصبح بعد ثلاث سنوات من ممارسة الطب رجلاً حكيماً ، ووفق جداً فى زواجه ،لقد ازداد وزنه ومناعته ، وتعلم أشياء كثيرة جديدة كان يجهلها ، وبما أنه تخرج قبل مارتن بعام وتزوج من فتاة تكاد تكون ثرية بدا عطوفاً وكريماً بصورة تثير الرغبة فى القتل وكان حديثه سلسلة من الأمثلة والنصائح .

« لو مكثت مع إدارة الصحة العامة سنتين وحرصت على مقابلة من يجب مقابلتهم من الناس لتمكنت من مزاولة مهنة مريحة للغاية هنا ، أنها مدينة جميلة يسودها الرخاء . . . فلا تجد إلا القلة فقراء .

« وإنك لفى حاجة إلى الانضمام إلى نادى المدينة وتعلم الجولف ، إنها أفضل فرصة فى الوجود لمقابلة المواطنين الأغنياء ، لقد رزقت بأكثر من مريض من الطبقة العليا هنا .

« ان بيكربو رجل طيب نشيط ومحرك قوى لكن له ميلا اجتماعياً سيئاً فهذه العيادات — وهى عمل مشين — يذهب إليها أولئك الذين فى مقدورهم أن يدفعوا ...انها تدفع الناس إلى الفقر . الآن قد يذهلك هذا القول ـ آه لقد كانت لك آراء متقلبة وأنت فى المدرسة لكنك لست الوحيد الذى له بعض الآراء الخاصة المستقلة. أحياناً أعتقد أنه لو لم توجد أية إدارات صحية على الاطلاق لكان ذلك أفضل للصحة العامة لأنها تعود الكثيرين من الناس على الذهاب إلى العيادات المجانية بدلاً من الأطباء الخصوصيين مما يخفض مكاسب الأطباء ويحد من عددهم ومن ثم نجد عددنا لا يكفى لمقاومة المرض مقاومة تامة .

« وأظنك الآن قد تخلصت من الآراء المضحكة التى اعتدت أن تتمسك بها عن كون المرء عملياً . . . « النزعة التجارية » كما اعتدت أن تسميها ، انك ترى الآن أن لك زوجة وأسرة لابد أن تعولهما وإن لم تفعل فليس هناك من يحل محلك

« وكلما احتجت إلى استفسار عن هؤلاء الناس ما عليك إلا أن تلجأ لى ، بيكربو رجل متقلب ـــ ولن يزودك بالمعلومات الصحيحة ـــ أما الذين نود الارتباط بهم فهم رجال الأعمال الطيبون المحافظون الناجحون . »

ثم جاء دور السيدة ووترز البدينة المستعدة لإسداء النصح بحكم أنها ابنة شخص ناجح هو السيد س . ا . بيزلى صاحب مصانع ديزى مانيور سبريدر . »

وسألت لورا : « أليس لك أطفال ؟ آه لاشك فى ذلك ، أما ايرفنج وأنا فقد أنجبنا طفلين ، ويالهما من متعة لنا ، انهما يجعلاننا نحس بأننا مازلنا شبابا » .

وتبادل مارتن ولورا نظرة تنم عن الأسى .

وبعدالغذاء أصر ايرفنج على أن يعيدا ذكريات « الأيام السعيدة التى قضياها معاً فى الجامعة القديمة العزيزة » ، ولم يخف شيئاً . « إنك تريد دائماً يامارتن أن تقنع الناس بأنك إنسان هوائى متقلب الأطوار ، وتدعى بأنك لست متمسكا بكليتك ، لكنى أعرف ما هو أفضل — انى أعرف بأنك تتظاهر بذلك فقط فأنت معجب بالمكان القديم وبأساتذتنا بقدر إعجابك بأى شخص آخر ، ربما أعرفك أفضل من نفسك ، دعنا الآن نشرب نخباً طويلاً وننشد « وينياك أم الرجال الأقوياء . »

وقالت السيدة ووترز وهى متجهة نحو البيانو الذى عزفت عليه بأسلوب ينم عن ثقة « لا تكن أحمق ، طبعاً ستغنى » .

وبعدتناول الدجاج المحمر وقالب الآيس كريم والانتهاء من الأمثال والأحاديث والذكريات خرج مارتن ولورا من صمتهما وقالا لبعضهما :

« لابد وأن يكون بيكربو قديساً إذا كان ووترز يهاجه : لقد بدأت أعتقد أن لديه من الإدراك ما يجعله ينكمش إذا ما تأزمت الأمور . »

وفى بؤسهما المشترك نسياً أن فتاة تدعى أوركيد قد أثارت الخلاف بينهما .

— ٢ —

بوساطة بيكربو وايرفنج ووترز استطاع مارتن أن يقتحم عدداً كبيراً من الهيئات والأندية والمحافل والقضايا التى كانت تقلق نوتيلوس ، كما تردد على الغرفة التجارية ونادى موكاسين سكى وهيكنيج ونادى إيلكز ، وجماعة الأفذاذ وجمعية الأفانجيلين كونتى الطبية ، لقد قاوم ولكنهما قالا له بروح التعالى التى تجرح كبرياءه : « لماذا

تقاوم يابنى إذ كنت تنوى أن تكون مسئولاً عاماً ، وإذا كنت تشعر بأدنى تقدير للجهود التى يبذلونها فى سبيل الترحيب بك هنا . . . »

وتلقت لورا ومارتن دعوات كثيرة جداً حتى أنهما شكا من عدم التمتع بأمسيات هادئة فى منزلهما ، وهما اللذان كانا يئنان من ركود هويتسيلفانيا ، بيد أنهما اعتادا على الحياة الاجتماعية والملبس والذهاب إلى أماكن دون إحساس بأى اضطراب ، واتبعا الأسلوب الحديث فى الرقص وتعلما لعبة البريدج دون إتقان ، بينما أتقنا لعبة التنس واستطاع مارتن أن يتغلب — لا عن فضيلة وبطولة بل بحكم العادة — على إحساسه بالاستياء من اللغو الباطل فى الحديث .

وربما لم تعتبرهما ربات البيوت اثنين من القرصان ، بل شابين لامعين لابد أن يكونا مخلصين وطموحين حيث أنهما فى رعاية بيكربو ، ومحترمين حيث أنهما فى رعاية إيرفنج والسيدة ووترز .

لقد اعتاد ووترز أن يأخذهما من أيديهما ويبقيهما فى منزله ، وكان على درجة من الشعور المتبلد حتى تعذر عليه أن يدرك أن رفض مارتن المتكرر لدعواته يمكن أن يعنى أنه لا يرغب المجىء ، واكتشف فى مارتن بوادر الخروج على الدين ، وعن حب وبشارة ، وبمزاح غير مألوف كرس نفسه لإنقاذه من هذه الهرطقة ، كما حاول مراراً تسلية ضيوفه الآخرين بقوله « هيا يامارتن دعنا نستمع إلى بعض آرائك المخبولة ! » .

وكان حماسه الودى مملا لو قورن بحماس زوجته ، فلقد نشأت السيدة ووترز على أيدى أبيها وزوجها وهى تعتقد بأنها ثمرة الأجيال ، ولقد كرست نفسها لإصلاح عادات أروسميث وزوجته غير المتحضرة ، فوبخت مارتن على الشتائم ، ولورا على التدخين ، وكليهما على نظرياتهما الخاصة بالمزايدات فى لعبة البريدج ، ولكنها لم تتضايق لأنها لو تضايقت لكان ذلك بمثابة اعتراف منها بأن هناك أشخاصاً لا يعترفون بسيادتها ، ولم تكن تفضل سوى إصدار الأوامر القصيرة

المرحة التى كانت تصحبها بصوت مبحوح عبارة « والآن لا تكن أحمق » وبتلك العبارة كانت تتوقع أن ينتهى الأمر .

وتأوه مارتن قائلا : « يا إلهى إنه لمن الأيسر أن أصبح ، وأنا بين بيكربو وإيرفنج ، عضواً محترما فى المجتمع عن أن أستمر فى المقاومة » .

ولكن ووترز وبيكربو لم يفرضا احترامه على المجتمع مثلما فرضته متعة استماع سكان نوتيلوس إليه بصورة لم يختبرها قط فى هوينسيلفانيا ، بالإضافة إلى إعجاب أوركيد به .

— ٣ —

وكان يجرى تجربة ترسيب على أعراض مرض الزهرى التى يجب أن تكون أسرع وأبسط من تجربة وزرمان ، وكانت أصابعه البطيئة وعقله الذى تراكم عليه الصدأ قد أخذت تألف المعمل والافتراضات العلمية عندما استبعد عنها لمساعدة بيكربو فى تحقيق الشهرة ، ولقد شجع على إلقاء أول خطاب له عن « ما يعمله المعمل عن الأوبئة » بعد ظهر يوم الأحد ضمن سلسلة المحاضرات التى تنظمها كنيسة نجم الرجاء العالمية .

وأخذ يضطرب عندما حاول إعداد مذكراته ، وفى صباح يوم الأحد ارتعد عندما تذكر المهمة البشعة التى سيقوم بها فى ذلك اليوم ، وشعر بحرج إلى حد اليأس عندما وصل الى كنيسة نجم الرجاء .

وأخذ الناس يتزاحمون ، أناس ناضجون ومسئولون ، فارتعد قائلا :

« إنهم يجيئون ليسمعونى وليس لدى ما أقوله لهم ! ومما زاد من إحساسه بسخافته أن الذين كان من المفروض أن يستمعوا إليه كانوا لا يعرفونه ، فالمرشد الذى يصافح الناس بحماس عند المدخل البيزنطى صاح يقول : « سوف تجد أيها الشاب أماكن كثيرة عند الممرات الجانبية » .

« اننى المحاضر لبعد الظهر »

« آه ، آه ، أجل ، آه يا دكتور ، لو تفضلت يا دكتور فالمدخل من شارع بيفز . »

وفى الحجرة الخاصة استقبله بتملق راعى الكنيسة ولجنة من ثلاثة أعضاء يرتدون ملابس الصباح ويتظاهرون بالسمو فى الإدراك

وصافحه كل منهم بدوره ثم جاءوا بنساء ينشدن مقابلته وقفن حوله فى دائرة جميلة ، وانتظرن منه قولا حكيما ، ثم اقتيد وهو فى حالة ألم وخوف وسكون عبر مدخل مقوس يؤدى إلى قاعة الاجتماع ، لقد كانت «ملايين» الوجوه تحملق فى جسده النحيل ... وجوه أشخاص يجلسون فى صفوف المقاعد المقوسة وأخرى فى الشرفة المنخفضة وأعين تتبعه وتشك فى قدرته وتلاحظ أن قواه قد خارت .

وازداد ألمه عندما ارتفعت الصلاة من حوله ورددت التسابيح .

وبدأ الراعى ورئيس سلسلة المحاضرات الاجتماع بورع وإخلاص مناسبين . وبينما كان مارتن يرتعب ويحاول أن يبدو صارماً أمام الجماهير المحتشدة التى كانت تنظر إليه ، وبينما جلس وحيداً ، مكشوفا ، ضعيفا فوق المنبر المرتفع أعلن الراعى عن عشاء المرسلين يوم الخميس وعن نادى الصغار لتنظيم السير ، ورنم الجميع ترنيمة قصيرة مبهجة أو ترنيمتين ـ بينما كان مارتن حائراً بين الوقوف والجلوس ـ وصلى الرئيس من أجل أن يعتلى صديقنا الذى سيخاطبنا اليوم بالقوة لتوصيل رسالته ، وجلس مارتن أثناء الصلاة وجبهته فى يده يشعر بعناء ثم يقول غاضباً ، « أظن أن هذا هو الاتجاه المناسب ... إنهم جميعاً يحملقون فى وجهى ... ألا يمكنه مغادرة المكان ؟ ... آه لعنة الله على ذلك ، والآن ما تلك النقطة التى كنت أنوى ذكرها عن التطهير بالتدخين ؟ ... يا إلهى انه قد بدأ يختم كلامه ولا بد من أن يقف ! »

وعلى كل ، كان يقف بجوار المنصة التى أمسك بها ليستند عليها وبدأ أن صوته قد انطلق ، ينطق بكلمات معقولة ، وانقشعت الغشاوة من على الوجوه ورأى أفراداً يجلسون واختار رجلا عجوزاً صارماً وحاول اضحاكه وإدهاشه .

وفى الخلف رأى لورا تومىء له برأسها لتسكن من روعه ، وتجاسر على أن يبعد ببصره عن الوجوه التى تجلس أمامه مباشرة وألقى نظرة إلى الشرفة ..

ورأى جمهور الحاضرين شاباً متحمساً للأمصال ومواد التطعيم بيد أن هذا الشاب المتدين قد لاحظ — وهو يواصل الحديث — كاحلين جميلين يبرزان من الصف الأمامى فى الشرفة ، وتبين له أنهما كاحلا أوركيد بيكربو التى بدا الإعجاب واضحاً على محياها .

وفى نهاية الخطاب حظى مارتن بأقوى تصفيق حماسى عرف حتى الآن — إن جميع الحاضرين يستمتعون عقب جميع المحاضرات بهذا النوع من التصفيق — كما تفوه الرئيس بأقوى عبارات التملق التى تفوه بها إنسان ، وانصرف الجمهور بسرعة لم تشهد قبلا ، ووجد مارتن نفسه ممسكا بيد اوركيد فى غرفة الاستقبال وهى تشدو بصوت العاشق الذى لم يسمع من قبل « آه يادكتور أروسميث إنك لمدهش فمعظم هؤلاء الحاضرين من المسنين ، أما أنت فقد أعدت الأمور إلى نصابها ! اننى ذاهبة على الفور إلى المنزل لأخبر أبى الذى سيغتبط للغاية . »

ولم يكن قبل ذلك قد اكتشف أن لورا قد شقت طريقها إلى غرفة الإستقبال وأخذت تنظر إليهما كزوجة .

وفى طريقهما إلى البيت لاذت لورا بالصمت البليغ .

وبعد فترة مناسبة من انتظار طابعه الاستياء تساءل مارتن « حسناً ! هل أعجبتك خطابتى ؟ »

« أجل ، لم تكن سيئة ، لابد أن مخاطبة جميع هؤلاء الناس الأغبياء كانت مهمة شاقة للغاية »

« أغبياء ؟ ماذا تعنين بكلمة « أغبياء ؟ » لقد فهموا ماقلت جيداً ، كما كانوا على خلق عظيم . »

« هل كانوا كذلك ؟ على كل الحمد لله إذ سوف لاتضطر إلى الاستمرار فى

هذه الثرثرة الحمقاء ، فبيكربو يود أن يسمع نفسه يخطب بدرجة لا تجعله يسمح لك بالخطابة كثيراً . »

« إننى لم أعبأ بهذا الأمر ، الحقيقة هى إنى لا أدرى ، غير أنه أمر جميل أن أعبر عن نفسى جهاراً من آن لآخر ، فذلك يجعل المرء يفكر بوضوح أكثر . »

« مثل رجال السياسة الفصحاء الظرفاء المحببين إلى النفس مثلا ! »

« والآن اصغ لى يالورا ، نحن نعرف — بالطبع — أن زوجك رجل غبى ولا يصلح لشىء خارج المعمل ، لكن أعتقد أنك تتظاهرين بأنك لست متحمسة كثيراً لأول خطاب يلقيه فى حياته — أول خطاب يقوم به — ويكلل بالنجاح. »

« لماذا ! لقد كنت متحمسة ياغبى ، وصفقت كثيراً واعتقدت أنك ذكى للغاية وكل ما فى الأمر هو أن هناك أشياء أخرى يمكنك أن تقوم بها بصورة أفضل وماذا سنفعل الليلة ، هل نتناول وجبة عاجلة فى البيت أم نذهب إلى الكفيتيريا؟ »

وهكذا ضعف شأنه من بطل إلى زوج واستمتع بكل متع عدم الاستحسان.

وظل طيلة الأسبوع يفكر فى الإهانات التى وجهت إليه ، ولكن مع حلول فصل الشتاء كانت هناك موجة من الحفلات الصاخبة المتعبة واهتمام كبير بلعبة البريدج ، وكانت أول أمسية — وهى أول فرصة لهما للشجار الآمن المريح — يقضيانها فى المنزل هى أمسية يوم الجمعة ، فقد جلسا لما أسماه « بالعودة إلى بعض القراءات الهامة مثل علم وظائف الأعضاء وجزء يسير من كتابات أرنولد بينت . قراءة جميلة هادئة » ، ولكنها أصبحت عبارة عن تعليقات بسيطة على الأخبار التى وردت فى المجلات الطبية .

وكان يحس بالقلق ، وألقى بالمجلة على الأرض وسأل . « ماذا سترتدين لرحلة الانزلاق على الجليد التى ستقوم بها غداً أسرة بيكربو ؟ »

« آه ، لم أفكر . . . . سوف أجد شيئاً . »

« لورا أريد أن أسألك : لماذا تدعين أننى تحدثت أكثر مما ينبغى فى منزل

الدكتور سترافورد مساء أمس ؟ اننى أدرك بأننى لازلت أحتفظ بمعظم عيوبى ، ولكن لم أعرف أن كثرة الحديث واحدة منها » .

« إنها لم تكن حتى الآن » .

« حتى الآن ! »

« التفت إلى ياساندى أروسميث ! لقد كنت عابساً طيلة الأسبوع كصبى مدلل ماذا جرى لك ؟ »

« حسناً ، أنا ..... انى متضايق ! فكل إمرىء هنا متحمس لخطابى الذى ألقيته فى كنيسة نجم الرجاء ... فهناك ماذكرته صحيفة « مورننج فرو نتيرزمان» وبقول بيكربو بأن أوركيد ذكرت بأن الخطاب كان إعجازاً . . أما أنت فلم تقولى شيئاً من هذا ! »

« ألم أصفق ؟ لكن . . . وكل ما فى الأمر هو أنى أرجو بألا تستمر فى هذا الهذر . »

« هذا ما ترجينه ، أليس كذلك ! حسناً ! دعنى أقول لك إننى سوف أستمر فيها ، وهذا لا يعنى أننى سأتحدث هراء كثيراً ، لقد قدمت للحاضرين فى خطاب يوم الأحد الماضى مادة علمية مباشرة واستوعبوها ، ولم أكن أدرك ضرورياً أن يكون المرء عاطفياً حتى يسيطر على الجمهور ، وهذا هو كل ما تستطيعين القيام به من عمل صالح ! لماذا ، لقد ذكرت إرشادات صحية وآراء عن قيمة العمل فى الثلاثة أرباع الساعة أكثر من . . . . لا يعنينى أن أكون ذائع الصيت ، ولكن من الممتع أن تقدم للناس ما يجبرهم على الاستماع إلى ما يجب أن تقول ولا يمكنهم التطفل كما كانوا يفعلون فى هويتسيلفانيا . انك تراهنين بأننى سوف أستمر فيما أسميته بأدب هذا الهذر الأحمق اللعين . . . »

« قد يلائم هذا العمل ياساندى بعض الأشخاص لكنه لا يناسبك ، لايمكننى أن أقول لك ــ هذا هو أحد الأسباب التى جعلتنى لا أتحدث أكثر عن خطابك ــ لا يمكننى أن أقول لك كم كنت مندهشة وأنا أستمع إليك ، فأنت يامن دائماً

تسخر مما تسميه بالعاطفية تبكى على « الصغار الأعزاء ! »

« إننى لم أقل ذلك قط ، ولم أستخدم تلك العبارة إطلاقا ، وأنت تعرفين ذلك وقسما بالله ! إنك تتحدثين عن التهكم ، فاسمحى لى فقط أن أخبرك بأنه يمكن لحركة الصحة العامة ، بتصحيح العيوب المبكرة فى الأطفال وبالعناية بعيونهم ولوزهم وما شابه ذلك — أن تنقذ ملايين الأنفس وتخلق جيلا صحيحاً للمستقبل . »

« أعرف ذلك ! وأحب الأطفال أكثر منك ، ولكن ما أعنيه هو كل هذه الابتسامات المصطنعة المضحكة . . . . »

« حسناً ، لا بد أن يقوم بهذه المهمة شخص ما ، ولا يمكنك العمل مع الناس قبل تثقيفهم ، وهنا يؤدى بيكربو العجوز — حتى وان كان أبلها — خدمة كبرى بقصائده . وبكل ما يستخدمه من وسائل مماثلة . وقد يكون شيئاً جميلا لو استطعت كتابتها . . . .

يا إلهى ألا يمكن أن تعلم ذلك ؟ »

« انها بشعة ! »

« هاك الآن ثبات لطيف على المبدأ من جانبك . فليلة أمس فقط وصفتيها بالظرف . »

« لست بحاجة إلى الثبات على المبدأ . فما أنا إلا امرأة يا مارتن أروسميت . ويتعين عليك أن تكون فى مقدمة من يقولون لى ذلك . كما أن نظم القصائد يلائم الدكتور بيكربو أما أنت فمكانك هو المعمل والاكتشافات وليس الإعلان عنها . ألا تذكر أنك مرة ونحن فى هويتسيلفانيا فكرت لمدة خمس دقائق فى الانضمام إلى إحدى الكنائس وتكون مواطناً محترماً ؟ فهل تنوى أن تقضى ما تبقى من حياتك فى التعثر فوق مسألة الاحترام وتحتاج إلى من ينقذك ثانية ؟ ألن تتعلم قط أنك همجى ؟ .

« أقسم أنني كذلك ! كما — ما هي الصفة الأخرى الجميلةالتي نعتني بهـا ؟ ــ انني — ياروح قلبي — بدائي ملعون ، ياله من عون كبير تقدمينه لي ، فعندما أنوى الاستقرار في حياة نافعة راقية بدلا من معاداة الناس في كل مكان فإنكِ ــ أنت التي يجب أن تثقى في ، أول من يسيء إليّ . »

« ربما تساعدك أوركيد بيكربو بصورة أفضل . »

« يحتمل ذلك ! صدقيني انها فتاة عزيزة ، لقد استمتعت بخطابي الذي ألقيته في الـكنيسة ، وإذا كنت تحسبين انني سأمـكث طيلة الليل أستمع إلى تهكمك على عملي وأصدقائي . . انني ذاهب لآخذ حماماً ساخناً ، عمت مساء »

« وفي الحمام تنهد وهو غير مصدق بأنه كان يتشاجر مع لورا ، لماذا ؟ لقد كانت الإنسانة الوحيدة في العالم إلى جانب جوتليب وسوندليوس وكايف كاوسن ــ على فـكرة أين كايف ؟ ألا يزال في نيويورك ؟ أليس كايف مديناً له برسالة ؟ ولـكن على أية حال — لقد كان غبياً لأنه فقد أعصابه حتى وإن كانت على درجة من العناد جعلتها ترفض أن تغير آراءها وترى أنله موهبة التأثير على الناس ،وأن أحداً لم يقف بجواره كما فعلت ، كما أنه أحبها . . . . . »

وبعصبية عنيفة جفف جسده واندفع نحوها تائباً وأخبر كل منهما الآخر بأنهما أعقل الناس وتبادلا القبلات الحارة ثم قالت لورا :

«وهذا لا يغير من الأمر شيئاً يا بني، لن أساعدك على خديعة نفسك ، فأنت لست رجل دعاية وإعلان ، بل صياد كذب ، شيء مضحك ، قـد ترغب في أن تسمع عن صيادي الـكذب هؤلاء أمثال بروفسير جوتليب وفولتير العجوز الذي تعجب به ــ لم يكن من الممكن خديعتهم ولـكن ربما كانوا مثلك يحاولون دائماً الهروب من الحقيقة ويأملون دائماً في أن يستقروا ويصيروا أغنياء ويبيعوا دائماً أنفسهم للشيطان ثم يذهبوا ليخدعوا الشيطان المسكين ، وأعتقد ... أعتقد ... » وجلست في السرير تمسك برأسها جاهدة الإفصاح عن أفكارها ــ « انك تختلف عن البروفسير جوتليب ، إذ أنه لا يخطيء ولا يضيع وقته في... »

« لقد أضاع بدوره وقته فى مصنع هونزيكر لعقارات الجهال ، كما أن لقبه « طبيب » وليس بروفسير ، إذا كان لابد وأن تمتحينه ... »

« إذا كان قد ذهب إلى مصنع هونزيكر فلديه سبب معقول لذلك ، انه عبقرى ولا يمكنه أن يخطىء . أم هل يمكن حتى لهذا العبقرى أن يخطىء ؟ ولكن لا بد ـ على أية حال ـ من أن تخطىء يا سادى أحياناً لا بد أن تتعلم بارتكاب الأخطاء، شيء واحد أقوله لك وهو أنك تتعلم من أخطائك المخبوله ، ولكنى أحس ببعض الضيق وأنا ألاحظك تندفع وتعرض نفسك للمآزق مثل كونك خطيباً متألقاً أو احساسك بالحنين الى أوركيد . »

« حسناً ، يا إمى ، بعد أن جئت إلى هنا لفض النزاع ، إنه لشىء جميل أنك لا ترتكبين أية أخطاء » لكن شخصاً كاملا فى أسرة يكفى ! »

وارتمى على السرير وساد الصمت وسمع صوتاً خافتاً يقول .

« مارتن ... ساندى » وتجاهلها وأحس بكبرياء لأنه استطاع أن يعاملها بعنف ثم غالبه النعاس ، وعند تناول طعام الإفطار بدت جافة عندما شعر بالخجل والحنين إليها وقالت :

« لا أريد مناقشة ما حدث » .

وبهذه الروح الغاضبة ذهبا بعد ظهر يوم الأحد فى نزهة مع أسرة بيكربو للانزلاق على الجليد .

— ٤ —

وكان الدكتور بيكربو يمتلك كوخاً صغيراً من الخشب بين أشجار البلوط المتناثرة وسط التلال فى شمال نوتيلوس ، واستقلت الجماعة المكونة من إثنى عشر شخصاً مركبة الجليد المملوءة بالقش واللابس الصوفية الزرقاء ، وكانت أجراس مركبة الجليد مزعجة فقفز الأطفال ليجروا بجوارا المركبة .

وكان طبيب المدرسة ، وهو أعزب ، مهتماً بلورا . ومال عليها مرتين ، وهذا

شيء مقبول فى نوتيلوس ، وأحس مارتن بالغيرة فاتجه علانية وكآبة إلى أوركيد.

ولم يزد اهتمامه بها لتأديب لورا بل لجمالها فكانت ترتدى سترة من التويد ووشاحا مزركشاً ، وسروالا قصيراً لم تجرؤ أية فتاة أخرى على ارتدائه فى نوتيلوس وربتت على ركبة مارتن وعندما ركبا فوق زلاقة خطيرة خلف مركبة الجليد أمسكت بخصره بشدة ..

وكانت تدعوه الآن « دكتور مارتن » وقد جاء إلى أوركيد الدافئة .

وأمتلأ الكوخ بضجيج الوصول ، وكان مارتن وأوركيد يحملان معاً سلة الطعام ، كما أنهما انزلقا معاً إلى أسفل التلال على مزالج الجليد ، وعندما تعرقلت مزالجهما وتدحرجا على الجليد ، وعندما أمسكت به دون خوف وخجل بداله أنها على الرغم من خشونة التويد أرق وأروع . . . ورأى عينين جريئتين ووجنتين جميلتين عندما أزاحت طبقة الجليد من فوقها ، وساقين رشيقتين كساق صبي نحيل ومنكبين رائعتين لهما مظهر الطفولة القوية ..... »

وغضب من نفسه وقال : « لكنى أحمق عاطفى ، لقد كانت لورا على صواب اعتقدت أن لك بعض الأصالة ! وسوف تصاب أوركيد الصغيرة المسكينة بصدمة إذا ما عرفت مدى حقارتى ! »

ولكن أوركيد الصغيرة المسكينة كانت تشجعه قائلة :

« هيا يا دكتور مارتن نتسلق ذلك الجرف المرتفع إذ أننا الوحيدان الشجاعان »

« هذا لأننا الشابان الوحيدان . »

«هذا يرجع إلى كونك شاب أما أنا فسنه للغاية وكل ما أفعله هو ان أجلس وأستمع بما تقوله عن آرائك فى الأوبئة وغيرها من الأمور . »

ورأى أن لورا تنزلق مع طبيب المدرسة الخبيث فوق منحدر على مسافة بعيدة منهم ، وربما كان تركه وحده مع أوركيد نوعاً من المكايدة وربما يكون نوعاً من الارتياح ، لكنه كف عن الحديث معها كما لو كانت طفلة ، وهو الشخص المملوء

حكمة ، وتوقف عن الحديث معها كما لو كان ينظر فوق كتفه ، وتسابقا نحو الجرف المرتفع وانزلقا من فوقه وسقطا وتصارعا مع الجليد فى زحلقة ممتعة .

وعاد الاثنان معاً إلى الكوخ ليجدا البقية مازالت فى الخارج ، فنزعت الصديرى المبلل ومرت بيدها فوق البلوزة الناعمة وأخرجا ترموسا مملوءاً بالقهوة الساخنة ونظر إليها كما لو كان ينوى تقبيلها وبادلته النظرة كما لو كانت موافقة ، وعندما وضع الطعام تهامسا فى لغة تدل على التفاهم وعندما قالت : أسرع أيها الكسول ، وضع هذه الأقداح فوق تلك المنضدة القديمة البشعة . » بدا وكأنها تشعر بالارتياح فى البقاء معه دائماً .

ولم يقولا شيئاً يثير الشبهة ولم تتشابك أيديهما . وفى طريقهما إلى المنزل فى وسط الظلام لم يضع ذراعه حولها مع أنه كان يجلس بجوارها إلا عندما كانت مركبة الجليد تسير ببطء فى المنحنيات ، وإذا كان يبدو على مارتن الاضطراب فرجعه إلى ماقام به من تمرينات صحية طيلة اليوم ، ولم يحدث شىء ولم يبد القلق على أحد ، وعند الافتراق كانت عبارات الوداع تتسم بالبهجة والأمانى .

ولم تدل لورا بأية تعليقات حتى وإن كانت قد ظلت يوماً أو يومين فى حالة من الفتور لم يبحث مارتن عن أسبابه لانهماكه فى عمله ..

الفصل الحادي والعشرون

كانت نوتيلوس إحدى المجتمعات الأولى فى البلاد التى اعتادت إقامة أسابيع لأغراض معينة، وتطورت هذه العادة بشدة حتى أصبح لديها أسبوع لمدرسة المراسلة وأسبوع للعلوم المسيحية، وأسبوع لعلاج العظام، وأسبوع لأناناس ولاية چورچيا.

وليس الأسبوع مجرد أسبوع.

وإذا ما رغبت كنيسة جريئة ساهرة تسير على الطريق المستقيم وتتطلع إلى المستقبل أو غرفة تجارية أو جمعية خيرية فى تحسين حالها — وهذا يعنى الحصول على المزيد من المال — فإنها تدعو تلك القلة من المتحمسين الذين يديرون دفة أمور أية مدينة، ويعلنون عن إقامة أسبوع، وهو عبارة عن اجتماعات للجنة لمدة شهر واحد، ونشر مائة عمود من الثناء على المنظمة فى الصحف، ثم يوم أو يومين يتملق فيهما بعض الأشخاص الرياضيين جماهير لا تستسيغ ما يفعل فى الكنائس أو المسارح، كما يسمح لأجمل فتيات المدينة بمتعة الحديث إلى الرجال الأجانب على نواصى الشوارع أملاً فى أن تعطيهم شارات مقابل مبالغ صغيرة جداً يرى هؤلاء الأجانب أن من واجبهم دفعها إذا ما رغبوا أن يعاملوا على أنهم أناس مهذبون.

والتنوع الوحيد هى الأسابيع التى لا يكون الهدف من إقامتها الحصول العاجل على المال عن طريق بيع الشارات بل الإعلان العام الذى يحقق ربحاً أكبر فى المستقبل.

لقد أقامت نوتيلوس أسبوع التحذير وخلاله بدأ جماعة من الرجال المتحدثين بلباقة وهم تجار كتب سابقون يعرفون الآن بالمهندسين الأكفاء — يطوفون لإسداء النصح إلى أصحاب الحوانيت عن كيفية حصول كل واحد منهم من الآخر

على المال بطريقة أسرع . ولقد وجه دكتور الوس بيكريو خطاباً فى اجتماع للصلاة عن « تحذير القديس بول ، الحذر الأول » كما عقدت أسبوع اليد المبتهجة عندما كان يفترض أن يتحدث كل فرد إلى ما لا يقل عن ثلاثة أغراب يومياً . وفى النهاية كان التجار الحانقون المسنون الجائلون يتعرضون للضرب بالأكف من الخلف طوال اليوم من أشخاص شجعان أقوياء مجهولين . هذا وكان هناك أسبوع البيت القديم وأسبوع الكتابة إلى الأم وأسبوع نحن نريد مصنعك فى نوتيلوس وأسبوع أكل المزيد من الذرة ، وأسبوع الذهاب إلى الكنيسة وأسبوع جيش الخلاص ، وأسبوع امتلك سيارتك .

وربما كان ألطفها وأربحها أسبوع جمعية الشبان المسيحيين الذى يهدف إلى جمع ٨٠ ألف دولار لإقامة المبنى الجديد للجمعية .

وفوق المبنى القديم علقت إشارات كهربائية تتغير كل يوم تعلن « عليك أن تعبر وتجىء » « أيها الشاب أقدم » وأموالك تخلق السعادة ، وألقى دكتور بيكربو تسعة عشر خطاباً فى ثلاثة أيام — وأخذ يقارن جمعية الشبان المسيحيين بالصليبيين وبالرسل وبيعثات دكتور كوك الذى اعتقد أنه اكتشف حقاً القطب الشمالى ، ولقد باعت أوركيد ثلثمائة وتسع عشرة شارة من شارات الجمعية منها سبع باعتها لنفس الرجل الذى أبدى لها فيما بعد ملاحظات غير لائقة ولم ينقذها إلا سكرتير الجمعية الذى أمسك بيدها فترة طويلة ليهدىء من روعها .

وما من هيئة تقدر أن تنافس آلموس بيكربو فى اختراع الأسابيع :

وفى شهر يناير قام بأسبوع نمو أطفال أفضل ، وكان أسبوعاً جيلا ولكن أعقبه على الفور أسبوع منع السكر ، وأسبوع الأسنان الأشد صلابة ، وأسبوع امنعوا من يبصق على الأرض ، حتى أن الذين كانت تعوزهم قوته سمعوا وهم يقولون فى أنين : « لقد ضاعت صحتى نتيجة لكل هذا القلق من أجل الصحة » وخلال أسبوع النظافة نشر بيكربو أغنية من تأليفه :

تأتى الجراثيم خلسة .

وتحطم الصحة .

هكذا أنصت أيها النمر .

وارسل مجرد بطاقة .

لرجل يقوم بتنظيف عرينك .

وذلك سوف يقضى على الجراثيم القديمة .

أما أسبوع قتل الذباب فقد جلب له إلى جانب الغبطة بتقديم الجوائز للأطفال الذين قتلوا أكبر قدر من الذباب الإسهام ببيتين من الشعر نصح فيهما ملصق الاعلانات قائلا .

بع مطرقتك واشتر تفيراً .

وعلقه على ملطشة الذباب القديمة .

إذا كنت لاترغب فى تسلل المرض إلى المنزل .

قم بقتل الذبابة التى تصادفك !

وتصادف فى ذلك الأسبوع أن كانت جماعة النسور الأخوية تعقد اجتماعاً للولاية فى بيرلنجتون فبعث إليهم بيكربو ببرقية قال فيها :

اذكروا فقط مكافحة الذباب .

فى اجتماع النسور الطيبين المسنين .

ونقلت هذه البرقية ٩٦ صحيفة إحداها فى ألاسكا ، وأخذ بيكربو يشرح لمارتن وهو يلوح بالقصاصات قائلا : « الآن ترى الطريقة التى تمكن المرء من نشر الحقيقة إذا تعرض لها بالأسلوب الصحيح . »

ولم يحقق أسبوع السجائر الثلاث فى اليوم ، الذى خلقه بيكربو أى نجاح ، ذلك لأن مازحا عديم البصيرة أراد فى الصحف المحلية أن يعرف ما إذا كا

دكتور بيكربو يتوقع حقاً أن يدخن الأطفال الرضع هذا العدد من السجائر الذى يصل إلى ثلاثة فى اليوم ،هذا من ناحية ، أما الناحية الأخرى فلأن الذين يقومون بصناعة السجائر جاءوا إلى إدارة الصحة وقدموا مذكرات شديدةاللهجة طالبوا فيها بتحكيم العقل ، هذا ولم يحقق أسبوع « أربط القط وعالج الكلب » نجاحاً كبيراً .

ومع إقامه جميع هذه الأسابيع كان لدى بيكربو وقتاً لرئاسة لجنة البرنامج التابعة لمؤتمر الولاية الذى يضم موظفى الصحة وهيئاتها .

وكان هو الذى قام بكتابة الخطاب الدورى الذى أرسل إلى جميع الأعضاء .

إلى الإخوة والأخوات

« هل تنوى حضور مؤتمر الصحة ؟ إنه سيكون أعظم ماشاهده هذا الكوكب المنهمك ، ولسوف يكون اجتماعاً عملياً تبحث فيه المسائل العامة البارزة ونتلقى رسائل من رجال خبراء فى المناقشة، وهكذا نستطيع استخلاص فكرة أواثنتين ننقلها معنا عند عودتنا إلى بيوتنا .

وسوف يكون هناك لوثريوتس — قائد أوركسترا الغناء الشهير — ليضيف إلى البرنامج « ويم » « وويجر » وأشياء أخرى كثيرة ، كما أن جون . ف . زير الحاصل على ماجستير فى الآداب وبكالوريوس فى الطب وبقية الأسماء (افرق شعرك ياجاك وابد ذكياً نشيطاً فأنت موضع إعجاب النساء لاشك) سوف يشتركون فى الموسيقى (انها تهب على قدميك وأحاسيسك !) فإذ ماتوقفت الفرامل من آن لآخر فسوف ننقل أنفسنا من هذا المكان إلى مكان آخر ونتناول على عجل طعام العشاء مع شابات طائشات . »

فهل يبدو هذا عرضاً جميلا ؟ يبدو كذلك أيها الحلاق ، الدور عليك ، أرسل لنا تلك البطاقات التى تنبىء بقدومك . »

لقد خلق هذا جواً يتسم بالحماس البالغ والمرح الكثير ، ثم كتب دكتور فيسوز كاينتون إلى بيكربو يقول :

« يخيل إلى أنه أساساً بفضل رسالة الدعوة الجذابة التى وجهتها اننا استطعنا أن نجذب هذا العدد الكبير لحضور المؤتمر وإنى أعتقد ـ بكل تواضع ـ أنه يمكن لجميعنا القول بأنه كان أفضل مؤتمر للصحة عقد فى العالم ، وكان على أن أسخر من سيدة مسنة تدعى بستونيان كانت تعوى وتقول إن خطابك كان « غير لائق بالكرامة » فهل تستطيع أن تفحمها ! فاعتقادى أن أناساً متطرفين فى انتقادهم تنقصهم روح المرح مثلها ينبغى أن يعاملوا باحتقار لائق . يالها من حمقاء ملعونة ! »

— ٢ —

كان مارتن متحمساً أثناء أسبوع نمو أطفال أفضل ، فكانت لورا تزن معه الأطفال ثم يقومان بفحصها وإعداد جداول التغذية لها ، وفى كل طفل كان يرى الرضيع الذى لن يكون لهما مثله ، لكن عندما أريد إقامة أسبوع نمو أطفال أكثر اتخذ موقفاً معارضاً ، وقال أنه يؤمن بتحديد النسل ورد عليه بيكر بو مستشهداً بالعقيدة الدينية ومستخدماً العنف وضارباً المثل ببناته الثمانية الحسناوات.

وكان مارتن غير مقتنع أيضاً بإقامة أسبوع لمكافحة الدرن ، لقد كان يميل إلى فتح نوافذه ليلا ويمقت الرجال الذين يبصقون عصارة التبغ على أرصفة الشوارع ، لكنه تأثر بسماع هذه الإصلاحات الصحية الممكنة والجمالية الأكيدة التى اقترحت بحماس مقدس تدعمها الإحصائيات الزائفة .

وكان بيكربو يعتبر أى جدل حول إحصائياته الجارية عن مرض الدرن وأى إشارة إلى أن السبب فى نقص حالات المرض يرجع إلى الزيادة الطبيعية فى المناعة وليس نتيجة للحملات التى تشن ضد البصق والهواء الفاسد انتقاداً لأمانته فى القيام بمثل هذه الحملات ، وكان يتسم بسرعة التأثر كمعظم رجال الدعاية فقد كان يعتقد بأنه لابد من أن تكون آراؤه صحيحة دائماً مادام مخلصاً .

أما من يطالبه بأن يكون دقيقاً فى بياناته أو ينقل قول ريموند بيرل المأثور:

« من الناحية الموضوعية ، لا يعرف إلا النذر اليسير عن سبب انخفاض نسبة الوفيات من المصابين بمرض الدرن» فإنه يحدق نظره الوغد الذى يميل حقاً إلى تلويث الأرصفة.

وكان مارتن على درجة من النفور حتى كان يحس ببهجة معادية للمجتمع ، قد تكون آثمة ، فى اكتشاف أنه بالرغم من أن معدل الوفيات بمرض الدرن قد هبط بالتأكيد خلال عمل بيكربو فى نوتيلوس فإن الانخفاض كان بنفس النسبة فى معظم قرى المقاطعة بدون خطب عن البصق وبدون حملات تطوف الشوارع تنصح الناس بفتح النوافذ .

وكان من حظ مارتن أن بيكربو لم ينتظر منه أن يساهم بنصيب كبير فى حملات الدعاية لأنه كان يفضل أن يحل محله فى المكتب أثناء قيامه بها ، وقد أثارت هذه الحملات فى نفس مارتن أشد الأفكار التى عانى منها تعقيداً وضراوة .

وكلما لمح بالانتقاد أجاب بيكربو « وماذا يحدث إذا لم تكن إحصائياتى غير دقيقة دائماً ؟ وماذا لو بدت إعلاناتى ، وبعث البهجة فى نفوس الناس ، للبعض شائنة ومبتذلة ؟ إنها جميعاً تحقق المنفعة كما أنها تسير فى الاتجاه الصحيح ، وبصرف النظر عن الأساليب التى نستخدمها فإننا إذا أقنعنا الناس بالحصول على المزيد من الهواء العليل والساحات الأكثر نظافة والحد من تعاطى الخمور لوجدنا ما يبرر موقفنا . »

وقال مارتن لنفسه وقد انتابته بعض الدهشة : « أجل هل هذا يهم حقاً ؟ هل الحقيقة تهم . .. الحقيقة العارية الفاترة غير الودية « حقيقة ماكس جوتليب ؟ يقول كل امرىء ، « آه عليك ألا تعبث بالحقيقة » . ويغضب كل فرد إذا ما لمحت بأنهم هم أنفسهم يعبثون بها هل هناك شىء يهم عدا العشق والنوم والأكل والتملق ؟

« أعتقد أن الحقيقة تهمنى ولكن إذا كان الأمر كذلك ، أليس اهتمامى بالدقة العلمية هى ببساطة هوايتى التى تشبه اهتمام رجل آخر بلعبة الجولف التى يمارسها ومهما يكن الأمر فسوف أقف بجوار بيكربو . »

أما الذى أجبره أكثر على الدفاع عن رئيسه فهو اتجاه ايرفنج ووترز وأمثاله

من الأطباء الذين هاجموا بيكربو خشية من أن يحرز نجاحا حقيقيا ويحد من مكاسبهم ، ولكن ظل مارتن طيلة هذا الوقت متضجرا بسبب الإحصائيات غير الدقيقة .

وبناء على إحصائيات بيكربو عن الأسنان التالفة والإهمال فى قيادة السيارات والالتهاب الرئوي وسبعة أمراض أخرى قدر بأن كل شخص عرضة لأن يموت قبل أن يبلغ سن السادسة عشرة ١٨٠ مرة ، ولم يستطع أن يبدو بمظهر الدهشة عندما صاح بيكربو قائلا « هل تعلم أن عدد الذين ماتوا من مرض الطفح الجلدى بمقاطعة بيكنز بولاية ميسيسبي فى العام الماضى وحده ٢٩ مواطناً ، وكان يمكن إنقاذهم — أجل إنقاذهم — بواسطة دش بارد يومياً ؟

فلقد كان الدش البارد من عادات بيكربو ، المفزعة ، حتى فى فصل الشتاء ، على الرغم من أنه قد نما إلى سمعه أن تسعة عشر رجلا تتراوح أعمارهم بين السبعة عشر والثانى والأربعين عاماً — لقوا حتفهم بسبب الدش البارد فى اثنين وعشرين عاما فى ميلووكى وحدها .

ولم ير بيكربو أى مغزى فى وجود عوامل التأثير » ، وهى عبارة يستخدمها الآن مارتن بنفس التبرم الذى كان يستخدم به كلمة « مراقبة » . ولم يتصور أن مصير الصحة يمكن أن تقرره درجة الحرارة والوراثة والمهنة والتربية والمناعة الطبيعية أو أى شىء سوى حملات الأدوات الصحية التى تهدف إلى زيادة النظافة والتمسك بالأخلاق .

وقهقه بيكربو قائلا : « عوامل التأثير ! هه ! إن أى إنسان مستنير فى جهاز الخدمة العامة لديه إلمام كاف بأسباب الأمراض .. والشىء الهام الآن هواستغلال هذه المعرفة . »

وعندما حاول مارتن أن يوضح بأنهم — دون شك — يعرفون النذر اليسير عن أن الهواء النقى أفضل من الدفء فى المدارس ، وعن الأخطار الصحية للشوارع القذرة وعن خطورة الكحول الحقيقية ، وعن قيمة ارتداء الأقنعة عندما

ينتشر وباء الإنفلونزا ، وعن معظم الأشياء التى يرددونها فى حملاتهم — عندما أماط مارتن اللثام عن هذه الحقيقة غضب بيكربو ، وفكر مارتن فى أن يستقيل، وقابل ايرفنج ووترز ثانية ، ثم عاد إلى بيكربو بحماس جديد : لقد كان بوجه عام مضطرباً ويشعر بالتعاسة كفتى ثائر يكتشف غرور قادته .

وأخذ يرتاب فيما أسماه بيكربو «بالقيمةالعملية الثابتة» لحملاته تماماً كما يرتاب فى دقة معلومات بيكربو فى علم الأحياء ، ولاحظ مدى تبرم غالبية الصحفيين لأنهم يفاجأون كل أسبوعين بحملة جديدة لإنقاذ العالم ، وأدرك السخط الذى لا مثيل له الذى يحس به رجل الشارع عندما تندفع نحوه الفتاة الجميلة للمرة التاسعة عشرة خلال عشرين يوماً ، تطلب منه شراء إحدى الشارات لتمويل رابطة لم يسمع عنها قط .

ولكن ما يبعث الرعب أكثر هو الأثر الواضح للدولار الذى أدركه فى أكثر خطب بيكربو حماسة .

وعندما اقترح مارتن ضرورة تعقيم جميع الألبان وحرق بعض المساكن التى تعرف بأنها مصدر لمرض السل بدلا من تطهيرها بطريقة غامضة عقيمة ، وعندما ألح بأن هذه الإجراءات سوف تنقذ من الأنفس أكثر مما تنقذه عشرة آلاف خطبة واستعراضات لمدة عشر سنوات تقوم بها فتيات صغيرات تحملن اللافتات وتغمرهن الأمطار — عندئذ قال بيكربو متضايقاً « كلا ، كلا يامارتن ، لاتعتقد أننا نستطيع أن نفعل ذلك ، انك ستواجه معارضة شديدة من تجار الألبان وأصحاب الأملاك ، ولن يمكنك تحقيق أى نجاح فى هذا العمل ما لم تبتعد عن الإساءة إلى الناس . »

وعندما كان بيكربو يلقى خطاباً فى الكنيسة أو فى دائرة الأسرة كان يتحدث عن « فائدة الصحة فى جعل الحياة أكثر بهجة » ولكن عندما كان يتحدث فى اجتماع يضم رجال الأعمال كان يعدل عنوان الخطاب إلى « فائدة الدولارات والسنتات الجميلة المستديرة فى الحصول على عمال أصحاء راشدين ينجزون

العمل بسرعة بينما يحصلون على نفس الأجر الذى يحصل عليه غيرهم » بيد أنه أكد للأطباء بأن الحث على تحسين الصحة العامة سوف يجعل عادة الذهاب للأطباء بانتظام أكثر شعبية .

وذكر لمارتن أن باستير وجورج واشنطن وفيكتور ڤوجان وأديسون يعدون أساتذته ، ولكن عندما طلب إلى رجال الأعمال فى نوتيلوس — نادى التجديف والغرفة التجارية ورابطة تجار الجملة — الموافقة على تقديم المزيد من الأموال لإدارته أوضح بأنهم أساتذته وأنهم سادة كل الأرض ، وفى عظمة قبلوا — وهم يشعلون سجائرهم — هذه السيادة .

وتدريجياً انتقل تفكير مارتن إلى ما هو أبعد من آلموس بيكربو ، إلى جميع قادة الجيش أو الامبراطوريات ورؤساء الجامعات أو الكنائس ورأى أن معظمهم من أمثال بيكربو ونصح نفسه — كما نصحه ماكس جوتليب مرة — بالتمسك بمبدأ عدم تقبل الأمور كقضية مسلم بها ، والإيمان بالتشكك ، وبالدعوة إلى نشر المبادىء فى هدوء ، والحكمة فى الاعتراف بإمكان الجهل بالذات ، وبكل فرد آخر ، وبالإسراع النشط فى القيام بحركة تدعو إلى السير بتأن شديد .

— ٣ —

وأبعدت مئات المشاغل مارتن عن معملة ، فاستدعى إلى غرفة استقبال الإدارة — ليشرح للمواطنين الغاضبين لماذا يجب أن تخرج رائحة الجاز من الجراج المجاور لهم وعاد إلى غرفة ضيقة ليملى الرسائل التى سترسل إلى نظار المدارس بشأن عيادات طب الأسنان ، ثم استقل سيارته وذهب إلى سويدى هولو ليرى مدى الاهتمام الذى وجهه مفتش الأغذية والألبان للسلخانات ، وأمر بالحجر الصحى على أسرة فى شاننشون ثم لاذ بالفرار أخيراً إلى المعمل .

وكان المعمل حسن الإضاءة مريحاً مزوداً بالأدوات ، ولم يكن لمارتن متسع من الوقت لأى شىء إلا لفحص عينات الدم ، وزرع البكتريا ، ودراسة الجراثيم

وهى الأمور التى يحتاجها أطباء المدينة الخصوصيون ، ولـكن العمل بعث الارتياح إلى نفسه وناضل من آن لآخر فى إجراء تجربة الترسبات التى كانت ستحل محل نظرية واسرمان وتـكسبه الشهرة .

وبدا واضحاً أن بيـكربو كان يعتقد أن هذا البحث سوف يستغرق ســتة أسابيع ، أما مارتن فتمنى أن ينجزه فى عامين ، ومع ما يتعرض له من معوقات سوف يستغرق مائتى عام يـكون خلالها بيكربو قد تمـكن من القضاء على مرض الزهرى وأفقد البحث قيمته .

وإلى واجبات مارتن أضيف واجب جديد هو تسلية لورا فى مدينة نوتيلوس الغريبـــــة .

وسألها مشجعاً : « هل تستطيعين أن تشغلى نفســك طيلة اليوم ؟ إلى أين تريدين الذهاب هذا المساء ؟ » .

ونظرت إليه فى شــك ، فقد كانت راضية بصورة آليــة ودون جهد بالحياة بمفردها كهرة صغيرة ولم يسبق له أن اهتم بتسليتها .

— ٤ —

دأبت بنات بيـكربو على المجىء إلى معمل مارتن ، فـكسرت التوأمتان أنابيب الاختبار وصنعا ملابس لدمياتهما من ورق الترشيح ، وكتبت أوركيد عناوين الملصقات الخاصة بالأسابيع التى يعقدها أبوها قائلة أن المعمل أهدأ مكان للعمل . وبينما وقف مارتن عند منضدته أحس بوجودها وهى تدندن بجوار نضد فى الركن وأسهبا فى الحديث واستمع بحماس بالغ إلى آراء لو أنها صدرت عن لورا لقابلها بقوله : « أنها لملاحظة بغيضة غبية » .

وأمسك بأنبوبة حمراء داكنة مليئة بـكريات الدم الحمراء المتحللة ورفعها نحو الضوء بينما انقسم تفكيره بين لونها وبين كاحلى أوركيد ، وهى تنحنى فوق المنضدة تتذرع بالصبر الذى لا ينفذ ، وهى تمسك بفرشاة الرسم وتعقد ساقيها بطريقة تسلب الألباب .

وسألها فجأة : « التفتى يا حبيبتى ، لنفترض . . . لنفترض أن فتاة مثلك وقعت فى غرام رجل متزوج فما الذى يجب أن تفعله ؟ هل تعامله بالحسنى ؟ أم تزجره ؟ » .

« آه . من واجبها أن تزجره بغض النظر عما تعانيه من ألم ، حتى لو كانت تحبه بشدة ، لأنه حتى لو أحبته فإن من واجبها ألا تسىء إلى زوجته » .

« ولكن لو فرضنا أنه أخفى الأمر عن الزوجة تماماً أو ربما لم يكن يهمها الأمر ؟ » وكف عن العمل الذى كان يتظاهر بالانشغال فيه ، ووقف أمامها وهو يضع ذراعيه خلف ظهره يرميها بنظرات من عينيه السوداوين الفاحصتين .

« حسناً ، لو لم تعرف . . . ولكن المسألة ليست بهذه الصورة ، فاعتقد أن الزيجات تتم حقاً وبإخلاص فى السماء ، ألا تعتقد ذلك ، ففى يوم من الأيام سوف يحضر (فارس الأحلام) العاشق الكامل . . . — » وكانت صغيرة السن وشفتيها رقيقتين جداً وجميلة حقاً ! . .. « وبالطبع أريد أن أحفظ نفسى له . ولو استخففت بالحب قبل أن يجىء فارس أحلامى لتعطل كل شىء » .

ولكن ابتسامتها كانت رقيقة .

وتصور أنهما وجدا معاً فى معسكر منفرد ، ورأى أن أخلاقياتها التى تتشدق بها قد نسيت . ومر بمرحلة تغير أكيد كالتغير الدينى ، أو أنه أحس بحالة الجنون التى يتعرض لها المرء وهو فى الحرب ، التغير من التردد الذى طابعه الخجل إلى خيانة زوجته . إلى الإصرار على أخذ كل ما يمكن أن يحصل عليه ، وبدأ يحس بالاستياء من مطلب لورا بأن من حقها — وهى التى تمتلك إلى الأبد حبه العميق — أن تستحوذ على خياله الهائم برمته ، لقد طالبت بذلك فعلا ، ونادراً ما تحدثت عن أوركيد ، بيد أنها كانت تدرك (أو أنه فى حالته العصبية كان يعتقد أنها تستطيع أن تدرك) متى قضى بعد ظهر اليوم مع الفتاة . وكان فحصها الصامت له يجعله يشعر بأنه خائن ؛ هو الذى لم يعرف التملق قط كان مسرفاً ومتحمساً عندما

حثها قائلا : « ألم تخرجي من المنزل طيلة اليوم ؟ حسناً .. سوف نخرج بعد العشاء لنشاهد أحد الأفلام أو هل تريدين أن نتصل بأحد الأصدقاء ونذهب لزيارته ؟ أي شيء تفضلينه » .

وسمع صوته وفيه نبرة تملق فمقته وأدرك أن لورا لم تخدع بهذا التملق ، وكلما اندفع نحو إحدى تأملاته حول تفوق رأيه في الحق على رأى بيكربو قال وهو مقطب الجبين . « يالك من طائر جميل وأنت تفكر في الحق ، أيها الكذاب ! »

ولقد دفع — في الحقيقة — ثمناً ضئيلا للنظر إلى شفتي أوركيد ، ولم يحل أي قدر من القلق على مايدفع من ثمن دون التطلع إليهما .

وفي أوائل فصل الصيف قبل أن تنشب الحرب الكبرى في أوربا بشهرين ذهبت لورا إلى بنسيلفانيا في زيارة لأسرتها تستغرق أسبوعين ، وقبل أن ترحل قالت :

« سوف لا أقدم لك ياساندي أية أسئلةعندما أعود ، ولكنني أعني ألا تبدو غبيا كما بديت في الفترة الأخيرة ، لا أعتقد أن تلك الفتاة التافهة الغبية تستحق شجارنا ، انني أود لك السعادة ياساندي ياحبيبي ، ولكن مالم أمت فلن أسمح بأن أركن على الرف كشيء مهمل، إنني أحذرك . أما عن الثلج فقد أمرت بأن يرسل إلى المنزل مائة رطل كل أسبوع وإذا أردت أن تعد طعامك بنفسك أحياناً ... »

ولم يحدث شيء عقب رحيلها مباشرة ، حتى وإن كان الكثير دائماً وشيك الوقوع . وكان يتملك أوركيدفضول الفتاةالمراهقة لمعرفة مايبتغيه الرجل منها لكنها اكتفت بخلجات خفيفة للغاية .

وأقسم مارتن — وكان ذلك في صبيحة أحد أيام شهر يونيو — بأنها حمقاء مدللة « وليست لديه أدنى نية للاقتراب منها . » كلا ! فسوف يزور إيرفنج ووتز في المساء أو يقرأ أو يذهب للنزهة مع طبيب أسنان عيادة المدرسة .

لكنه في الساعة الثامنة والنصف كان يسير متلكئاً نحو بيتها .

ولو فرض أن كان الدكتور والسيدة بيكربو هناك .. وسمع مارتن نفسه يقول « رأيت أن أجيء يادكتور لأسترشد برأيك فى .. » لعنة الله على هذا الأمر فيم رأيه ؟ أن بيكربو لم يفكر فى شىء على الإطلاق .

ورأى أوركيد تقف على الدرج الأمامية المنخفضة بينما انحنى فوقها فتى فى العشرين من عمره يدعى شارلى ويعمل كاتباً .

وصاح بعدم اكتراث لا يسعه إلا أن يفخر به : « مرحباً بك ، هل والدك فى الداخل ؟ » « آسفه جداً فسوف لا يعود مع أمى قبل الحادية عشرة . ألا تتفضل بالجلوس وتستريح قليلا ؟»

«حسنا » ثم جلس وحاول أن يدخل فى مناقشة لها طابع الشباب بينما كشف شارلى عن مشاعر تناسب — فى رأى شارلى — الدكتور أروسميث المسن ، كما أخرجت أوركيد أصواتاً صغيرة ممتعة كأصوات الهرة وهوفن كانت تجيده بحذق .

وسأل مارتن : « هل شاهدت مباريات كثيرة للبيسبول ؟ » .

فأجابه شارلى : آه لقد شاهدت مااستطعت . وكيف تسير الأمور فى قاعة المدينة هل استطعت علاج حالات كثيرة من الجدرى وغيره من الأمراض الخيالية العديدة ؟

فقال الدكتور أروسميث العجوز غاضباً . « آه ! إننا مشغولون . »

ولم يستطع التفكير فى أى شىء آخر وأنصت بينما كان ضحك شارلى وأوركيد يحمل معنى خفياً عن أشياء حالت دون مشاركته وجعلته يشعر بأنه يبلغ من العمر مائة عام واستمع إلى الإشارات إلى ماى وإيرل وإلى القول العنيف : « هذا حسن لكنك كلما رأيتنى أراقصها ماعليك إلا أن تخبرينى ! وفى الركن كانت فيربينا بيكربو تصيح وهى تخاطب أشخاصاً مجهولين : « عليكم الآن مغادرة المكان ».

وتنهد مارتن قائلا : « ياللشيطان ! إن الأمر لايستحق كل هذا سأعود إلى

المنزل » ولـكن فى اللحظة عينها صاح شارلى : « حسناً ! كونى فتاة طيبة ، لابد من أن أعود بسرعة . »

وترك مارتن لأوركيد فى جو يخيم عليه السلام ويسوده صمت محرج .

وقالت أوركيد « جميل أن يوجد المرء مع شخص ذكى ، ولايحاول دائماً أن يغازل مثل شارلى . »

وقال فى نفسه « شىء رائع ! سوف تصبح فتاة مهذبة لقد بدأت أعود إلى صوابى ، فسوف نتسامر قليلا ثم أعود إلى منزلى . »

وبدا أنها اقتربت منه وهمست فى أذنه : « لقد كنت أحس بوحدةخاصة وأنا أجلس مع هذا الفتى السوقى الفظيع حتى سمعت وقع أقدامك فى المشى . لقدعرفتها لحظة أن سمعتها . »

وربت على يدها وعندما بدأت ربتاته تشتد بصورة لم تكن متوقعة من مساعد وصديق أبيها جذبت يدها وأمسكت بركبتيها وطفقت تتحدث .

وهذا ما كان يحدث دائماً فى الأمسيات التى كان يدلف فيها إلى الشرفة ويجدها بمفردها ، وكان فهم هذه الفتاة أصعب بعشرة أضعاف من فهم أكثر النساء تعقيداً . وحاول أن يشعر بالذنب تجاه لورا دون أن يستمتع بأى من المتع المعروفة التى تشعر المرء بالذنب .

وأثناء حديثها حاول أن يكتشف ما إذا كانت ذكية أم لا ، ويبدوا أنها لم تكن تتمتع بقدر كاف من الذكاء يمكنها من أن تواصل دراستها فى كلية ميدويسترون الطائفية الصغيرة وسوف تلتحق قريبنا بالكلية فى فصل الخريف ، أما أوركيد فقد رأت — كما أوضحت — أن تمكث فى المنزل وتساعد أمها فى رعاية أخوتها الصغار .

واستنتج مارتن : « أن هذا يعنى أنها لم تستطع حتى أن تنجح فى امتحانات القبول التي تجريها كلية موجفورد ! » ولـكن رأيه في ذكائها قد تغير فجأة عندما

قالت فى أسى : « يالى من مسكينة صغيرة ، ربما سأمكث دائماً هنا فى نوتيلوس ، بينما أنت — آه بمالك من معرفة وإرادة قوية تماماً سوف تقهر العالم » .

« هراء ، فلن أقهر أى عالم ولكن ما أعناه هو أن أحقق بعض النجاح فى ميدان الصحة ، هل تعتقدين حقاً ياحبيبتى أوركيد أنى على درجة كبيرة من الإرادة القوية ؟ »

وكان القمر قد سطع خلف أشجار الاسفندان ، وبدت منطقة بيكربو غير المنسقه تسحر الألباب والعشب المتشابك حديقة من الورود ، وكرم العنب البالى محرابا لديانا ، كما أصبحت النامة الشبكية قماشاً من الفضة المزركشة الحواشى ، ورشاشة المروج الخضراء التى تنشر الماء بغزارة ينبوعاً ، وفوق هذا العالم بأسره خيم جو مناسب من الحب المصاب بالجنون القمرى. وكانت المدينة الصغيرة التى تتسم فى النهار بالضوضاء والحركة كحديقة أطفال ساكنة مهملة ، ويندر أن ألهم مارتن بأن يتصور سحر ساعة الصفاء لانغماسه الدائم فى التفكير النزق ، أما الآن فقد أصبح أسيراً ، وحلق فى جو من النشوة والطرب .

وأمسك بيد أوركيد الهادئة — وكان يتوق إلى لورا .

فمارتن المحارب الذى فاز بلورا لم يفكر فى الحب ، لأنه بأسلوبه الأخرق كان خيالياً ، أما مارتن الذى يتوق — مثل محارب عائد من القتال واهن القوى تفوح منه رائحة العطر إلى فتاة فى ضوء القمر فقد رفع وجهه بشوق إلى الحب ، ولم يكن خيالياً البتة .

وأحس أن من واجبه أن يحب وجذبها إليه ، ولكن عندما قالت وهى تتنهد : « آه من فضلك لا تفعل ذلك » لم يكن فيه أى عنف أو إصرار على المضى فى طريقه ، وأخذ يتأمل من جديد ضوء القمر ، وعندما فكر فى أنه سيكون فى مكتبه فى الصباح الباكر أراد أن يخرج ساعته دون أن تراه أوركيد ليعرف الزمن . وكان له ما أراد . وانحنى ليقبلها قبلة الوداع لكنه لم يفعل ، ووجد نفسه يسير عائداً إلى منزله .

وأثناء سيره كان عنيفاً وواثقاً من نفسه وقال غاضباً انه لم يكن يتوقع على الإطلاق مهما كان تعثره — أن يجد نفسه نشالا صغيراً للحب ، نشالا يتسلل إلى المنطقة وينظر إلى من فيها خلسة ، ومع هذا لم ينجح فى مهمته ، وكان أقل نجاحاً من كتبة يعملون فى شركات المياه الغازية يتخايلون وهم مع العذارى كل ليلة تحت شجر الاسفندان ، وقال لنفسه ان أوركيد شابة ليست على قدر كبير من الحكمة ولكن ما إن وصل شقته الوحيدة حتى تاق إليها، وفكر فى أساليب عجيبة وغبية تماماً لإغرائها على المجىء إلى هنا فى تلك الليلة وآوى إلى فراشه وهو يقول فى حنين : آه ياأوركيد . . . »

ربما كان اهتمامه بضوء القمر وبالصيف اللطيف أكثر مما ينبغى إذ حدث فجأة أنه عندما جاءت أوركيد تطوف أرجاء المعمل ثم جلست على مقعد وهى تحرك ساقيها تسلل نحوها وأمسك بمعصميها بشدة وقبلها كما تستحق أن تقبل .

ولم يعد على الفور سيد الموقف وأحس بخوف وحملق فى وجها وهو شاحب اللون — فبادلته عين النظرة فى ذهول بعينين مفتوحتين وشفتين مرتجفتين وقال فى غموض « آه ! » .

ثم فى لهجة تنم عن الاهتمام البالغ وشىء من الرضا قالت :

« مارتن . . . آه . . . عزيزى . . . هل تعتقد أنه كان يجب أن تفعل ما فعلت ؟ » .

فقبلها ثانية ، واستسلمت له . وفى لحظة لم يكن فى الكون شىء . لا هو ولا هى ، ولا معمل ولا أزواج ولا تقاليد بل فقط قوة كونهما معاً .

وفجأة أخذت تثرثر « أدرك أن الكثيرين من الرجعيين سوف يقولون أننا قد ارتكبنا خطأ ، وربما كان هذا اعتقادى مرة ، ولكن . . . آه ، أننى مسرورة للغاية لأنى متحررة ! طبعاً سوف لا ألحق أى ضرر بالعزيزة لورا أو أفعل مايسىء إلى العالم حقاً ، ولكن أليس رائعاً أنه على الرغم من كثرة المحيطين بنا من البورجوازيين نستطيع أن نرتفع فوقهم ، وندرك النداء الذي توجهه القوة إلي القوة

و . . . لكن يجب أن أذهب إلى اجتماع جمعية الشبان المسيحيين فهناك سيدة محامية من نيويورك ستحدثنا عن « حياة المرأة الحديثة . »

وعندما مضت تصور مارتن نفسه عاشقاً ناجحاً ثم حلق قائلا : « لقد فزت بها » . . . وربما لم تكن هذه الحلقة سيئة ومرعبة بهذه الصورة قبلا .

وفى تلك الليلة عندما كان يلعب البوكر فى مسكنه ومع أيرفنج ووتز وطبيب عيادة أسنان المدرسة وطبيب شاب من عيادة المدينة استدعاه جرس التليفون إلى صوت حلو مضطرب :

« هذه أوركيد ، هل أنت مغتبط لاتصالى بك ؟ » .

« آه ، بلى ، بلى ، سعيد للغاية انك اتصلت » . وحاول على الفور أن يجعل الحديث غرامياً وعلى درجة من الغموض تخفى الأمر عن الأطباء الثلاثة العابسين السكارى الذين كانوا قد نزعوا عنهم ستراتهم ؟ » .

« هل أنت مشغول هذه الليلة يا مارتن ؟ »

« هنا اثنان من أصدقائى ألعب معهما الورق . »

« آه ! » وكان الموقف محرجاً . « آه ، إذن فأنت . . لقد تصرفت كالأطفال باتصالى بك — لكن أبى وقريبنا والجميع قد غادروا المنزل ، وكانت الليلة جميلة وفكرت فى . . أترى أننى صغيرة حمقاء للغاية ؟ »

« كلا . . . كلا . . . بالتأكيد كلا . »

« سعيدة بذلك ، فإنى أكره أن تعتقد أننى تصرفت تصرفاً أحمقاً باتصالى بك ، أنت لا تعتقد ، أليس كذلك ؟ »

« كلا . كلا . بالطبع كلا ، لا بد أن .... »

« أدرك ذلك ، فلا يجب أن أبقيك طويلا ، ولكن ما أردته هو أن تخبرنى ما إذا كنت تعتقد أنني كنت حمقاء أن ... »

« كلا ! صراحة ! حقيقة ! ».

وبعد ثلاثة دقائق سادها الاضطراب أحس خلالها فى حزن بضحكات الرجال الخبيثة من خلفه لاذ بالفرار ، وقال لاعبو البوكر كل ما يمكن أن يقال فى نوتيلوس : آه إنك دون چوان صغير ! وهل استطعت أن تهزمها .. إن زوجته لم تغب إلا لأسبوع ! ومن هى يا دكتور ؟ اذهب أيها البخيل واحضرها إلى هنا ! اننى أعرف من هى ، انها تاجرة القبعات فى شارع بريرى . »

وفى ظهر اليوم التالى اتصلت به تليفونياً من أحد محلات البقالة وأخبرته بأنها لم تذق النوم طول الليل ، وأنها قررت بعد تفكير عميق أنه يجب ألا يعودا إلى مافيلا . . وهل يمكنه مقابلتها عند تلاقى شارع كريمبس وطريق ميسورى الساعة الثامنة حتى يمكنهما بحث الأمر من جديد ؟

وبعد ظهر اليوم اتصلت وغيرت الموعد إلى الثامنة والنصف .

وفى الساعة الخامسة اتصلت لتذكره .

وفى المعمل فى ذلك اليوم لم يقم بأى زرع للبكتريا ، فكان إنساناً مضطربا بدرجة تمنعه من أن يقوم بتجارب بصورة مرضية ، كما كان تفكيره على درجة من الفتور تحول بينه وبين أن يحس بأنه رجل مذنب ، وفى هذا الوقت شعر بالحنين إلى سلوى لورا الذى لا شك فيه .

« اننى أستطيع أن أذهب معها الليلة إلى الحد الذى أريده .

« لكنها تطارد الرجال بجنون » .

وهذا أفضل . اننى قد مللت من كونى فيلسوفاً تافهاً .

« يا ترى هل يشعر أولئك العاشقون المحظوظون الذين نقرأ عنهم فى القصص والشعر بكآبة مثلى ؟

« لن أكون كهلا حذراً وحيد الزوجة وأخلاقيا فهذا لا يتفق مع عقيدتى . اننى أطالب بحقى أن أكون حراً ...

« يا للشيطان ! هذه النفوس الحرة التي تجبر على الاستعباد بهدف الحرية لهى على درجة من السوء كآبائهم الميثودست . إن بى من فساد الأخلاق الطبيعى ما يكفى لأن أكون أخلاقيا ، اننى أبغى ان أحافظ على نقاء عقلى من أجل عملى ولا أريد أن ألوثه بالجرى وراء الفتيات محاولا تقبيل كل من تمكننى من ذلك .

« ان أوركيد سهلة المنال ، وأمقت أن أتنازل عن الحق فى أن أكون خاطئاً سعيدا . ولكن طريقى كانت مستقيمة فلم أكن أعرف إلا لورا وعملى وسوف لا أضل هذا الطريق . إن الله يساعد أى رجل يحب عمله وزوجته ! إنه يهزم منذ البداية . »

وقابل أوركيد فى الثامنة والنصف . وكانت المسألة برمتها شائكة ، وشعر بالاستياء من مارتن الشجاع كما بدا منذ يومين ومارتن الحذر الممل كما يبدو الليلة، وعاد إلى منزله كناسك تملأ الكآبة نفسه ، وظل طيلة الليـــل يتحرق شوقاً إلى أوركيد .

وبعد أسبوع عادت لورا من هويتسيلفانيا .

وقابلها على المحطة .

وقال : « كل شىء على ما يرام ؟ وأشعر بأننى فى السابعة بعد المائة من عمرى كما أننى شاب أخلاق محترم ، يا إلهى ، كم كنت أمقت ذلك لو لم يكن من أجل تجربة الترسب وأنت ... لماذا تفقدين دائماً تذكرة حقيبة ملابسك ؟ أظن أننى مثال سىء للآخرين فى كونى أتخلى بسرعة ؛ كلا ، كلا يا عزيزتى ، ألا ترين ، أن هذه هى التذكرة التى أعطاها لك الكمسارى ! »

الفصل الثاني والعشرون

وتحدث بيكربو فى هذا الصيف كثيراً وصافح الأعداد الغفيرة أثناء رحلة شوتوكو القصيرة التى قام بها إلى ايووا ونبراسكا وكانساس ، وأدرك مارتن بأنه حتى إن كان يبدو . لسوء الحظ ، أبلها كريماً صريحاً — بعكس جوستاف سونديليوس — فقد قدر له أن يكون فى أمريكا أشهر من سونديليوس بعشرات المرات ومن ماكس جوتليب ألف مرة .

فكان يراسل الكثير من الرجال العظماء اللامعين الذين نشرت صورهم وأقوالهم المأثورة فى المجلات ، ورجال الإعلان الذين وضعوا كتيبات عن التحذير والتفاؤل ، ورئيس تحرير المجلة التى ترشد الكتبة كيف يصبحون جيته وستونوال جاكسون عن طريق الدراسة بالمراسلة وعدم لمس الجعة ، كما كان يراسل حكيم حقل الذرة الذى يعتبر حجة فى الشئون المالية والسلام ، وعلم الأحياء ، والتحرير وتاريخ شعب بيرو ، وفى زيادة أهمية الخطابة لقد اعترف هؤلاء القادة المفكرون بأن بيكربو واحدا منهم . فكتبوا له رسائل تفيض حكمة . وعند الرد كان يوقع بالقلم الأحمر باللفظ « بيك » .

ونشرت « اوتوارد مارش ماجازين » التى تخصصت فى نشر سير الرجال الذين قاموا بأعمال جليلة ، سيرة بيكربو بين ما نشرته عن القسيس الذى شيد كنيسة جميلة على الطراز القوطى الحديث من الصفائح ، والسيدة التى استطاعت فى سبع سنوات أن تبعد ٢٦٩٨ فتاة من العاملات فى أحد المصانع من السير فى حياة الرذيلة ، والاسكافى من اوريجون الذى علم نفسه قراءة اللغات السنسكريتية والفنلندية والاسبرانتو .

وتغنى المؤرخ بقوله « لقد تقابل مع دكتور آلموس بيكربو المسن ، الرجل الذى وصفه تشوم فرينك « ذي القبضتين : الشاعر المناضل والطبيب المكافح » كما أنه

العالم الذى يضع اكتشافاته العلمية الرائعة فى خدمة بلاده ، لكن بحكم أنه مدير دائم لإحدى مدارس الأحد التقليدية فإنه يوبخ الملحدين ممن يسمون أنفسهم بالعلماء الذين يهددون بالخطر أسس عقيـدتنا وحرياتنا بهجومهم على كل ما هو نبيل ومتطور » .

وكان مارتن يقرأ هذا [illegible] محاولا أن يتحقق من أنها نشرت فعلا فى إحدى مجلات نيويورك الرائعة التى يوزع منها مليون نسخة عندما استدعاه بيكربو .

وسأله : « أتشعر يا مارتن بأنك كفء لتولى شئون هذه الإدارة ؟ » .

([illegible] . . .) .

« [illegible] تعتقد أنك تستطيع تحقيق المصالح وأن تنقذ المدينـة من الأمراض [illegible] ؟ » .

« لـماذا ، هذا . . . » .

« ذلك لأنه يبدو كما لو كنت سأذهب إلى واشنطن نائباً عن هذه الدائرة فى دورة الكونجرس التالية ! » .

« أحقـــاً ؟ » .

« يبدو كذلك ، سوف أنشر — يابنى — على الأمة بأسرها الرسالة التى حاولت جاهداً أن أحققها هنا ! » .

واندفع مارتن يقول « انى اهنئك » ، وكان مندهشاً بحيث بدت تهنئته حارة ، فهو مازال يحتفظ بشىء من اعتقاد الطفولة بأن رجال البرلمان أشخاص أذكياء ذوو أهمية .

« انى قادم لتوى من اجتماع مع بعض الزعماء الجمهوريين فى المنطقة ، لقد كان ذلك بالنسبة لى مثار دهشة كبرى ، ها ها ، ها ، ! وربما اختارونى لأنهم لم يجدو آخر يمكن أن يخوض المعركة الانتخابية هذا العام . ها ها . ها ! » .

وضحك مارتن بدوره . وبدا على بيكربو كما لو كانت هذه ليست الاستجابة التى كان يتوقعها . لـكنه استرد أنفاسه ومضى فى الإطراء .

وقلت لهم « من واجبي أيها السادة أن أحذركم بأننى لست على يقين من أن لى الصفات النادرة المطلوبة فى رجل سوف يكون له الامتياز العظيم أن يضع — فى واشنطن — القواعد والتنظيمات اللازمة للتوجيه فى كل ضرب من ضروب حياة هذه الأمة الـكبرى التى تضم مائة مليون نسمة . وقلت « بأن الحافز الذى يدفعنى إلى التفكير — بكل تواضع — فى هذا التـكريم الذى لم أكن اتوقعه — وربما الذى لا أستحقه — فهى حقيقة أنه يبدو لى أن ما يحتاجه الـكونجرس هو علماء أكثر تطلعاً إلى الإمام فى مجال التخطيط . ومزيد من رجال الأعمال الدربين تدريباً حقيقياً لتنفيـذ التطورات التى يتطلبها الـكومنولث المتطور . هذا إلى جانب إقناع المسئولين فى واشنطن بالحاجة الملحة إلى وزير للصحة يسيطر تماماً على . . » » .

وبصرف النظر عن رأى مارتن فى المسألة ، رشح الجمهوريون بيـكربو فعلا لعضوية الـكونجرس .

— ٢ —

وبينما كان بيكربو يقوم بحملته الانتخابية تولى مارتن مهام الإدارة وبدأحكمه بتعريض نفسه للاتهام بأنه طاغية ومتطرف فى تحرره .

ولم يـكن فى أيووا معمل للألبان أكثر مراعاة للقواعد الصحية وأشد تنظيما من معمل كلوبشوك القديم فى ضواحى نوتيلوس ، فـكان مزوداً بالبلاط وبيالوعات للصرف وبالاضاءة الرائعة وبآلات للحليب بلغت حد الـكمال ، وكانت الزجاجات تغلى بطريقة تفوق الوصف . كما كان كلوبشوك يرحب بالمفتشين وبإجراء التجارب للتأكد من عدم وجود جراثيم الدرن . لقد قاوم اتحاد نقابة رجال الألبان واحتفظ بعمله حانوتاً مفتوحاً بدفع أكثر مما قررته النقابة ؛ وذات يوم عندما

كان مارتن يحضر اجتماع مجلس العمل المركزى فى نوتيلوس نائباً عن بيكربو اعترف سكرتير المجلس بأنه ليس هناك مصنعاً يرغبون بشدة فى ضمه إلى النقابة — والذى لا يحتمل أن يضم — أ كثر من معمل كلوبشوك للألبان .

وكان ميل مارتن إلى العمال فى ذلك الوقت محدوداً . فكان يعتقد شأن معظم المشتغلين بالأبحاث . أن السبب فى أن العمال لم يجدوا فى حياكة الملابس أو فى جذب الرافعة متعة كتلك التى يجدها عند القيام ببحث طويل هو أنهم من عنصر أقل . ولدوا كسالى وأشرارا ، وكانت شكوى النقابات هى الشىء الوحيد الذى أقنعه بأنه قد بلغ أخيراً حد الكمال .

وغالباً ماتوقف عند معمل كلوبشوك لمجرد الإحساس بالرضا عليه . ولم يلحظ إلا شيئاً واحداً بعث الضيق إلى نفسه ، وهو لبان يعانى بصفة دائمة من التهاب فى الحنجرة ، ففحص الرجل ، وقام بعمل مزرعة للبكتريا فعثر على الميكروب السبحى الخاص بانحلال كرات الدم الحمراء ، وفى هلع قفل راجعاً إلى المعمل حيث قام بعمل بضع مزارع للبكتريا فاكتشف وجود المكروب السبحى فى ضروع ثلاث بقرات.

وعندما انتقد بيكربو صحة الأمة عن طريق ماقام به من دعاية فى جميع المدن الصغيرة التابعة لدائرته الانتخابية . وعاد إلى نوتيلوس أصر مارتن على فرض حجر صحى على اللبان المريض . وغلق معمل كلوبشوك حتى يختفى المرض تماماً .

فأجابه بيكربو ساخراً « هراء ! انه لأنظف مكان فى المدينة لماذا تثير المتاعب؟ ليس هناك ثمة دليل على وجود وباء المكروب السبحى . »

« أقسم لك بأن هذا ما يحدث ! ثلاث بقرات مصابة ، فكر فيما حدث فى بوستون وبالتيمور أخيراً ، لقد طلبت إلى كلوبشوك أن يجىء لنبحث المسألة .

« حسناً ، أنت تعلم مدى مشغوليتى ولكن . . . »

ووصل كلوبشوك فى الساعة الحادية عشرة ، وكانت المسألة بالنسبة له جد

خطيرة فالذى ولد فى حمأة فى بولندا وكاد يموت جوعاً فى نيويورك ويعمل عشرين ساعة فى اليوم فى ميزمونت وأوهايو وايووا أنشأ هذا المعمل الرائع .

واحتج كلوبشوك النحيل الذى بدت عليه أمارات القنوط والارتباك ، وكادت الدموع تنهمر من عينيه قائلا : انني يا دكتور بيكربو أقوم بتنفيذ كل ما يراه الأطباء ضرورياً ، فأنا أعرف جيداً ما يجب أن تكون عليه معامل الألبان ! والآن يجيء هذا الشاب ويتهمني بقتل الأطفال الصغار باللبن الملوث لأن واحداً من العاملين معى مصاب بالبرد ، واسمح لى أن أقول لك أن هذا المعمل هو حياتى وانني بمجرد أن أسمح بخروج نقطة لبن ملوثة من معملى أقتل نفسى ، ولهذا الشاب دافع شرير لقد استفسرت عن الأمر واكتشفت أنه صديق حميم لمجلس العمل المركزى عجباً انه يذهب إلى اجتماعاتهم وهم يبغون تحطيمى ! »

ورأى مارتن فى منظر الرجل المرتعد مدعاة للشفقة ، ولكنه لم يتهم بالخيانة من قبل قط ولهذا قال جاداً :

« يمكنك يادكتور بيكربو أن تبحث الاتهامات الشخصية التى وجهت لى فيما بعد ، أما الآن فأقترح أن تجيء بخبير ليفحص ما وصلت إليه من نتائج وليكن لوبج من شيكاغو أو برنث من مينيا بوليس أو غيرهما . »

« أنا . . . . . أنا . . . . . أنا » وبدأ كيبلنج وبيلى صندى الحركة الصحية حزيناً مثل كلوبشوك « انني على يقين يامارتن من أن صديقنا هنا لا يعنى حقاً توجيه الاتهامات ضدك ! انه مضطرب بالطبع . الا يمكننا الاكتفاء بعلاج من هو مصاب بالمكروب السبحى دون أن نسبب المتاعب للجميع ؟ » .

« افعل ما تشاء ما دمت ترغب فى أن يحل بالبلاد وباء خبيث فى نهاية حملتك ! »

« أنت تعرف جيداً أننى على استعداد للقيام بأى شيء لتجنبه . . مع أنى أريدك أن تفهم بوضوح أنه لا علاقة لهذا الأمر بالحملة التى أقوم بها فى انتخابات

الكونجرس ! و كل ما فى الأمر هو أننى مدين لمدينتى بالقيام ، بوحى من الضمير ، بواجب حمايتها من المرض ومن الاستبداد فى تنفيذ التعليمات الصحية . . . »

وبعد أن انتهى من خطابه أبرق بيكربو إلى الدكتور ج . س . لونج عالم الجراثيم بشيكاغو .

وبدا الدكتور لونج كما لو كانت رحلته بالقطار قد قام بها فى صندوق من الثلج . ولم ير مارتن إنسانا مثله هكذا متحرراً من شعر الموس بيكربو ، ومن حبه الفياض للإنسانية ، كان نحيلاً متزناً لاشفاة له ، يضع منظاراً فوق عينيه ، وقد فرق شعره فى الوسط واستمع فى هدوء إلى مارتن وفى فتور إلى بيكربو وباتزان إلى كلوبشوك ، ثم أجرى تفتيشه وقرر «يبدو أن الدكتور أروسميث على إلمام تام بعمله ، وهناك خطر بكل تأكيد ، وأنصح بغلق معمل الألبان . أما أجرى فمائة دولار وشكراً ، كلا ! لن أستطيع البقاء لتناول طعام العشاء حيث أنه يجب أن أستقل قطار المساء . »

وعاد مارتن إلى لورا صائحاً : « كان هذا الرجل محبباً إلى نفسى كسلطة الخيار ، لكن انطلاقه فى الهذيان دفعنى إلى أن أعود إلى البحث ، إنه أبعد ما يكون عن أصحاب النزعة الإنسانية الذين يشغلون أنفسهم بالحديث عن حب الناس الأعزاء لدرجة أنهم يدعون الناس يموتون . لقد بغضته نفسى ، ولكن . . ياترى ماذا يفعل ماكس جوتليب هذه الليلة ؟ هذا الألمانى المسن المغرور ! أراهن بأنه الآن يتحدث عن الموسيقى أو عن أى شىء آخر مع بعض المثقفين من علية القوم ، ألا تبغين رؤية الفر[(١)] العجوز ثانية ؟ هل حدثتك عن الوقت الذى قمت فيه بصبغ حيوان الفدام بصبغة جميلة . . آه هل فعلت ذلك ؟ »

وظن أن الأمر قد انتهى بإغلاق معمل الألبان مؤقتاً ، ولم يدر مدى ما حاق بكلوبشوك من ضرر ، وأدرك أن إرفنج ووترز — طبيب كلوبشوك — كان مستاء عندما تقابلا ، وقال له فى حدة « ما الفائدة التى ترجى يامارتن من وراء

(١) طائر مائى

المضى فى إزعاج الناس ؟ » لكنه لم يعرف عدد من قيل لهم فى نوتيلوس أن من يدعى بأروسميث يرتشى من الأوغاد فى اتحاد العمال .

— ٣ —

وكان مارتن يقوم قبل ذلك بشهرين بجولته التفتيشية السنوية على المصانع فالتقى بكلاى تردجولد المدير (بالوراثة) لشركة ستيل ويندميل ، وكان قد سمع أن تردجولد رجل متألق فصيح اللسان فى الخامسة والأربعين من عمره — يتنقل كصبي يرتدى الملابس الأرجوانية فى أرقى أوساط مجتمع نوتيلوس ، وبعد التفتيش قال له تردجولد فى إلحاح :

« اجلس يادكتور ، تفضل سيجارة وحدثنى عن كل ما يتعلق بتحسين الصحة » .

وكان مارتن يقظا ، وكانت نظرة تردجولد الرقيقة تكشف عن تملق فيه تهكم .

« وماذا تريد أن تعرف عن تحسين الصحة ؟ »

« كل ما يتعلق به ولا شك » .

« إن الشيء الوحيد الذى أعرفه هو أنه لابد وأن رجالك يحبونك ، فليس هنا لك بالطبع عدد كاف من أحواض الغسيل فى دورة مياه الطابق الثانى ، ومع هذا يقسم الجميع أنك تنوى تركيب عدد آخر فى القريب العاجل . فإذا كان حبهم لك قد بلغ حد الكذب ضد مصالحهم الخاصة فلابد من أنك رئيس طيب ، وأرى أن أغض الطرف عن هذا الأمر حتى الدورة التفتيشية التالية ، حسنا ! على أن أعود بسرعة » .

ونظر إليه تردجولد مشرق الوجه وقال : « عزيزى ، لقد ظللت أراوغ بيكربو ثلاث سنوات ، وإنى لسعيد برؤيتك ، وأعتقد أننى قد أقوم حقاً بتركيب بعض الأحواض قبل دورتك التفتيشية التالية ، اذهب فى رعاية الله ! »

وبعد حادثة كلوبشوك تقابل مارتن ولورا مع كلاى تردجولد وزوجته النحيلة الفاتنة أمام إحدى دور اللهو .

فصاح تردجولد « أأقلك إلى منزلك يادكتور ؟ »

واقترح وهم فى الطريق إلى المنزل « لا أدرى ماإذا كنت متعنتا كبيكربو أم لا ، ولكن إن شئت فسآخذك معى إلى البيت ، وأقدم لك أنخر كوكتيل شاهده أمرؤ منذ أن جئت مقاطعة إيفانجلين . أيبدو ذلك معقولا ؟ »

فقال مارتن : « لم أسمع منذ سنين شيئاً بهذا المنطق المعقول . »

وكان منزل تردجولد فوق أعلى أكمه (ترتفع عن المستوى العام للسهل بعشرين قدما) فى أشفورد جروف ، وهى خليج نوتيلوس الخلفى . وكان بناؤه يضم غرفة استقبال ذهبية اللون ، وردهة طليت باللون الأبيض وحجرة جلوس بالأزرق والفضى وحاول مارتن أن يبدو غير مكترث عندما كانوا يتهادون ويستمعون لثرثرة السيدة تردجولد ، لكنه كان أجمل بيت دخله فى حياته .

وبينما جلست لورا على طرف مقعدها كمن يتأهب للعودة إلى المنزل تربعت السيدة تردجولد كمضيفة ، بينما أخرج تردجولد محرك الكوكتيل وبدأ يزجى تحياته :

« كم مضى عليك من الوقت منذ جئت إلى هنا يادكتور ؟ »

« عام تقريباً »

« فكر فى هذا الأمر ، التفت إلى ، إنه ليبدو لى أنك من نوع مغاير لبيكربو المنقذ » .

وأحس مارتن أن من واجبه أن يثنى على رئيسه ، ولكن لدهشة لورا البالغة هب واقفاً ورفع صوته بالحديث على غرار ما يفعله بيكربو تماماً :

« أيها السادة أصحاب مصانع سيل ويندميل ، حيث أنه لا توجد مصانع خرى ساهمت بهذا القدر الكبير فى رخاء مجتمعنا فإنى أشيد — مع إدرا كى أنكم تحاولون إخفاء كل مخالفة للقوانين الصحية لا يكتشفها المفتشون — باحترامكم

الكبير لتحسين الصحة وبوطنيتكم وبما تقيمونه من حفلات الكوكتيل ، ولو كان لى مساعد أشد حماساً من الشاب أروسميث لأصبحت بعد استئذانكم رئيساً لجمهورية الولايات المتحدة » .

وصفق تردجولد وأكدت السيدة تردجولد « بأن هذا القول شبيه تماماً بما يقوله الدكتور بيكربو ! » وبدا على لورا أمارات الزهو مثل زوجها .

وقال تردجولد « إننى مغتبط بتحررك من هذه المظاهر الاجتماعية الخادعة التى يتسم بها بيكربو » .

وأثار الافتراض فى مارتن شعوراً قوياً دفاعياً :

« آه لا يهمنى البتة مدى كونه اجتماعياً . . . مهما يعنى ذلك فلست أعرف شيئاً عن النظرية الاجتماعية ، ولكن حيث أننى قمت بتقليده — وربما كان ذلك فى اعتقادى عدم ولاء — أرى لزاماً أن أقول بأنى لست مغرماً بالخطابة الحماسية لأنه لا مجال للحقائق فيها ، بيد أن جانباً من اللوم ياتردجولد يقع على الشعب أمثال رابطة أصحاب المصانع ، أنكم تشجعونه على الثرثرة الجوفاء ، أما أنا فرجل معمل أو بالأحرى أعنى أحياناً أن أكون كذلك ، إذ أننى أحب التعامل مع الأرقام الدقيقة » .

فقال تردجولد « هذا هو الحال معى ، لقد كنت حاذقاً فى العلوم الرياضية فى مدرسة وليامز » .

واستطرد على الفور ومعه مارتن إلى التعليم ، وأخذا يلعنان الجامعات التى تخرج أناساً أشبه بالسجق ، ووجد مارتن نفسه وقد أصبح موضع ثقة فى الحديث عن « أسباب عوامل التأثير » وأعلن تردجولد أنه لم يكن يرغب فى أن يتولى شئون مصنع أسلافه ، بل أراد التخصص فى علم الفلك .

وكانت لورا تعرف للسيدة ترجولد الصديقة كيف يتحتم على زوجة مساعد المدير أن تكون سيدة مدبرة ، وبعثت السيدة ترجولد بصوتها الجذاب الارتياح إلى

نفس لورا بقولها : « أدرك ذلك ، فلقد مررت بأزمة مالية عنيفة بعد موت أبى ، هل جربت حائكة الملابس السويدية القصيرة القامة التى تقطن شارع كريمنز بعد بيتين من الكنيسة الكاثوليكية . إنها بارعة للغاية كما تتقاضى أجراً زهيداً جداً » .

وعثر مارتن لأول مرة منذ زواجه على منزل أحس فيه بسعادة عارمة ، كما وجدت لورا امرأة تتسم بالذكاء البالغ — الذى كانت دائماً تخشاه وتمقته — أول امرأة تستطيع أن تتحدث معها عن الله وعن أسعار قماش منشفة الوجه ، لقد خرجا عن دائرة نفسيهما دون أن يضحك عليهما أحد .

وفى منتصف الليل عندما بدأ الحديث عن علم الجراثيم وقماش الناشف يفقد جاذبيته سمع صوت نفير عربة يجلجل خارج المنزل ، ثم دلف رجل بدين متورد الوجه يتحرك فى تثاقل وبطىء وقدم إليهما على أنه السيد شليمهل — مدير شركة كورنبلت للتأمين فى نوتيلوس .

وكان شليمهل زعيماً للطبقة الارستقراطية فى أشفورد جروف أكثر من كلاى تردجولد نفسه ، لكنه عندما وقف كمتبربر غازى فى الحجرة المطلية باللونين الأزرق والفضى قال فى حفاوة :

« سعيد بمقابلتك يا دكتور ، حسناً ، اعتقد يا كلاى أننى متعب للغاية . لقد عثرت على رجل مثقف آخر لنتسامر معه ، أما أنا يا أروسميث فلم أزد عن كونى رجل مبيعات عجوز فقير فى إحدى شركات التأمين ، وأن كلاى دائماً يصفنى بأنى أمى أخرق ، التفت إلىّ أيها العزيز كلاى ، هل لى فى أن أشرب من هذا الكوكتيل أم لا ؟ لقد رأيت أضواء منزلكم ، وفكرت أن أجىء لأقول لكم أنت إنسان ذكى ! هيا ! امزج الشراب ! »

ومزج تردجولد الشراب بوفرة ، وقبل أن ينتهى دخل عليهم أيضاً بدون دعوة الشاب « مونتى موجفورد » — حفيد ناثانيل موجفورد المبجل ذى اللحية الجانبية

الذى أسس كلية موجفورد ، وتعجب لوجود مارتن ورأى أنه إنسان كبقية البشر ، وأبلغه ذلك ، وسرعان ما بذل قصارى جهده ليلحق بهم فى الشراب .

وهكذا حدث أن كان مارتن يغنى فى الساعة الثالثة صباحاً لجمهوره الذى استحسن الأغنية ، تلك الأغنية التى تلقنها من جوستاف سونديليوس :

عينـاها سوداوان جائلتـــــان
وشعرها متـــــدل فى خصل
فتـاة جميلة ، فتيـــاة لطيفة
لـكنها من النـــوع الفاسق

وفى الساعة الرابعة حظى أروسميث وزوجته بصداقة أزكى مجموعة فى نوتيلوس ، وفى الرابعة والنصف أقلهما كلاى تردجولد إلى منزلهما فى عربته بسرعة تخالف القانون والشفقة .

— ٤ —

وكان فى نوتيلوس ناد ريفى يعد محوراً لما يسمونه « بالمجتمع » ، كما كانت هنالك أيضاً جماعة مكونة من إثنتى عشرة أسرة تعيش فى منطقة أشفورد جروف ، وعلى الرغم من أنهم كانوا يذهبون إلى نادى الجولف ، فقد اكتفوا بمجاملة لاعبى الجولف الآخرين معتبرين أنفسهم أقرب إلى شيكاغو منهم إلى نوتيلوس ، وكانو يتناوبون إقامة الحفلات لبعضهم مع الافتراض بأن لجميعهم الحق فى حضور أى احتفال يقيمه أى منهم ، ولم تكن تقدم الدعوة لأى فرد خارج جماعتهم ما عدا المهاجرين من مدن أكبر وأحيانا الأعراب الذين يقدمون خدمات للناس أمثال مارتن . لقد كانوا حامية صغيرة متماسكة فى مدن وثنية .

وكان أفراد هذه الجماعة ينعمون بثراء فاحش ، وكان أحدهم ــ وهو مونتجومرى موجفورد ــ يعرف شيئا عن جده الأكبر ، وكانوا يقطنون فى منازل فسيحة

على الطراز التيودرى ، وڤيلات على الطراز الايطالى حديثة البناء حتى أن الأعشاب فيها كانت حديثة النمو . وكانوا يمتلكون سيارات فاخرة ، وخزائن كبيرة للمشروبات الروحية لم تكن تحتوى إلا على الجين والوسكى والفيرموث وبضع زجاجات متناثرة من الشمبانيا . وكان كل عضو من هذه الجماعة يعرف نيويورك — وكانوا يمكثون فى سانت ريجيزأ والبلازا ثم يطوفون لشراء الملابس واكتشاف المطاعم الصغيرة الراقية — كما زارت خمس أسر من الاثنتى عشرة أوربا وأمضوا أسبوعاً فى باريس حيث كانوا ينوون الذهاب إلى معارض الفن لكنهم ذهبوا إلى حى مونمارتر الباهظ النفقات الذى يعتبر شراكاً للحمقى .

ولقى مارتن ولورا ترحيباً فى وسط الجماعة على أساس أنهما يمتان لهم بصلة قرابة بعيدة ، فلقد دعيا إلى حفلات عشاء فاخرة وموائد غذاء فى أيام الآحاد فى النادى الريفى ، ومهما تكن المناسبة فسرعان ما كانت تنتهى دائماً بالانتقال السريع بالعربة إلى مكان ما حيث يحتسون عدداً من أقداح الشراب ويطلبون إلى مارتن بإصرار أن « يقلد الدكتور بيكربو » .

وإلى جانب الانتقال والشراب والرقص على أنغام الموسيقى كان لعب الورق هو تسلية الجماعة الرئيسية ، ومن العجيب أنه لا توجد أية مغازلات وسط هذه الجماعة غير الأخلاقية ، فكانوا يتحدثون عن الجنس بحرية بالغة ، ولكن بدا أن لجميعهم زوجة واحدة وأنهم جميعاً سعداء فى زواجهم أو يخشون أن يظهروا غير ذلك ، ولكن ما إن تعمق مارتن فى معرفتهم إلا وسمع شائعات عن أزواج يقضون « أوقات غرام » فى شيكاغو ، وعن زوجات يخترن لأنفسهن شبانا فى فنادق نيويورك ، واشتم رائحة القلق البالغ الذى يكمن تحت هدوءهم الجنسى العظيم .

ولم يتضح ما إذا كان مارتن قد وافق كل الموافقة على أن كلاى ترجولد هو الباحث الذى كرس نفسه لكل ما يتعلق بعلم الفلك ما عدا دراسته ، أو على أن مونتى موجفورد من أصل استقراطى رفيع ، بيد أنه أعجب بعربات الجماعة وبحماماتها وبملابسها الفاخرة ، والمنازل التى قام بزخرفتها شبان فى رقة النرجس جاءوا خصيصاً

من شيكاغو ، واكتشف أنواع الصلصات وأوانى الفضة ، وبدأ ينظر إلى ماترتديه لورا من ملابس لا على أنه مجرد غطاء مريح للجسد بل كتعبير يشف عن الفتنة، وأدرك فى تبرم كم هى مهملة .

وكانت لورا فى نوتيلوس وحيدة يندر أن تتحدث كثيراً عن نفسها فطورت حياة خاصة بها محدودة النطاق طابعها الصمت البالغ ، لقد كانت عضواً فى نادى البريدج ، وترددت بمفردها فى وقار على دور السينما بيد أن أملها كان فى أن تزور فرنسا ، إنها رغبة قديمة غامضة فى مصدرها احتفظت بها سراً وقتاً طويلا لكنها تنهدت فجأة وقالت :

« إن الشىء الوحيد الذى أبغيه ياساندى — ربما بعد عشر سنوات من الآن — هو أن أرى التورين ونورماندى وكاركاسون ، أتعتقد أننا نستطيع ذلك ؟ »

وندر أن كانت لورا تطلب شيئاً، وتأثر وتحير عندما رآها تقرأ كتباً عن مقاطعة بريتانى ، كما شاهدها تتعلم بعض قواعد النحو الفرنسى البسيطة وهى تنطق :
« جى — جى — لعنة الله على هذه الكلمات أيا كانت ! »

وقال فى زهو « إذ ما أردت الذهاب إلى فرنسا يا لورا العزيزة — أصغى ! يوماً من الأيام سنذهب إلى هناك ونحن نحمل حقيبتين فوق ظهرينا وسنرى تلك البلاد القديمة من أقصاها إلى أقصاها » .

فقالت فى امتنان يصحبه الشك: « أنت تعرف ياساندى أنه إذا ما تملكك السأم تستطيع أن تذهب لترى سير العمل فى معهد باستير ، وكم أود أن أطوف ولو مرة واحدة بين الجدران العالية المطلية وأزور مقهى صغيرا تافها وأشاهد الرجال وهم يسيرون بمنطقاتهم الحمراء المضحكة وسراويلهم الزرقاء الواسعة أتعتقد حقا أننا قد نستطيع ذلك »؟

ومن العجيب أن كانت لورا تتمتع بحب جماعة اشفورد جروف حتى وإن

لم تـكن تتسم بشيء مما اسماه مارتن «بكياستهم » إذ كان ما لايقل عن زرار ينقص ملابسها ، وتبنتها السيدة تردجولد التى هى بالطبع أفضل النساء وأقلهن تقوى .

وكانت الشكوك تساور أهل نوتيلوس دائماً حول كلارا تردجولد ، فقالت السيدة آلموس بيكربو إنها لم تشترك فى أية حركة من أجل تحسين أحوال المدينة ، وظلت عدة سنين تبدو قانعة بزراعة ورودها وصنع قبعاتها المذهلة ودهان يديها الجميلتين بلباب شجر اللوز وسماع قصص زوجها غير اللائقة . . . وعاشت سنين طويلة امرأة وحيدة ، ورأت فى لورا ميلا كبيراً إلى التواكل يعادل ميلها ، وكانت المرأتان تقضيان العصارى جالستين على الشرفة المشمسة تقرآن وتطليان أظافرهما وتدخنان فى صمت وتثق كل منهما بالأخرى .

ولم تـكن صلة لورا بنساء الجماعة الأخريات وثيقة كصلتها بكلارا تردجولد ، لـكنهن أحببنها ومما زاد من حبهن لها هو أنها كانت خارجة على الدين وأزعجت رذائلها وتدخينها ووقاحتها ، وميلها إلى الملذات الدنيوية ، السيدتين بيـكربو وايرفنـج ووترز . وأيدت الجماعة جميـع الأمور الخارجة على التقاليد باستثناء تلك التقاليد الاقتصادية التى تهدد بالخطر حياتهن الرغدة ، وكانت لورا تحتسى الشاى أو الـكوكتيل بمفردها مع السيدة الشابة العصبية مونتى موجفورد التى كانت تعمل راقصة ناشئة فى ملهى ديعوان منذ أربع سنوات والتى تمقت الآن مجىء مولودها الثانى ، وكان أمام لورا أن انفجرت السيدة شليمهل — التى كانت تعامل زوجها الذى يشبه الخنزير جهاراً فى خشونة — قائلة : « ليت هذا الرجل يتركنى وشأنى دون أن يسيل لعابه علىّ ، إننى أمقت البقاء هنا ، ولسوف أقضى الشتاء بمفردى فى نيـــويورك » .

ولم يـكن مـارتن اروسميث الطفل غير الجـدير بحـكمة لورا التى لاتصدر إلا عن الشيوخ مقتنعاً بقبول الجماعة لها ، وعندما كانت تخرج ، ومشبك ثوبها غير

مثبت وشعرها كعش الغراب ، انتابه الضيق ، وتفوه بكلمات عن « اهمالها » ندم على قولها فيما بعد .

« لماذا لاتقضين وقتاً ضئيلا فى جعل نفسك جذابة ؟ ويعلم الله أنه ليس لديك شىء آخر تفعلينه . ألا تستطيعين حتى تثبيت أزرار ملابسك ؟ »

ولكن كلارا تردجولد ضحكت وقالت : « أعتقد أن لك أجمل ظهر يالورا فهل يضايقك أن أثبت لك المشبك قبل أن يجىء الآخرون ؟ »

وعقب حفلة استمرت حتى الثانية صباحاً ارتدت فيها شليمهل ثوبها الجديد الذى ابتاعته من لوسيل ، ورقص جاك بروندیدج (الذى كان يعمل نهاراً نائبا لرئيس شركة ميزميلنز ومديراً لمبيعاتها) رقصة أكد فى إصرار بأنها رقصة فنلندية — حدث أن قال مارتن غاضباً وهما يستقلان عربة الإدارة الصحية عائدين إلى البيت : « لماذا لاتهتمين إطلاقا يالورا بما ترتدين ؟ لقد كنت تنوين فى صباح اليوم — أو فى صبيحة أمس — إصلاح ثوبك الأزرق ، ويبدو لى أنك لم تفعلى شيئا طيلة اليوم سوى الجلوس والاطلاع ثم تخرجين بهذا الثوب بما فيه من تطريز مهلهل . . . »

وصاحت « أوقف العربة ! »

وأوقفها مندهشاً ، وأسبغت أضواء السيارة أهمية مضحكة على سور من الأسلاك الشائكة وكومة من الأعشاب وطريق قصير موحش مغطى بالحصى .

وتساءلت : « أتريدينى أن أصبح أنيقة ؟ إننى أستطيع دلك ، إننى أستطيع أن أكون أنيقة ، إلا أننى لم أحاول قط ، لن أمضى ياساندى بالطبع فى الصراع معك فإما أن تعتبرنى كما أنا زوجة مهملة حمقاء أو لا شىء : فماذا تريد ؟ هل تبغى أميرة حقيقية مثل كلارا تردجولد أو تريدنى أنا التى لا أهتم البتة إلى أين نذهب

أو ماذا تفعل طالما يشد كل منا أزر الآخر ؟ إنك تقلق نفسك كثيراً وهذا يضايقنى ، قل لى الآن ماذا تريد ؟ »

« إننى لاأبغى سواك ، ولكن ألا يمكنك أن تفهمين ـ لست مجرد واحد من التسلقين — إننى أريد أن يكون كلانا فى مستوى من نتعامل معهم ، ولا أرى بالتأكيد سبباً يجعلنا أقل شأناً من هذه الجماعة فى أى شىء ، ربما ليسوا — باعزيزتى — باستثناء كلارا — أكثر من كتبة حسابات أغنياء أما نحن فجنود الثورة الحقيقيون ، ويوماً ماسوف نزور فرنسا التى تحبينها كثيراً ، وسوف يكون رئيس جمهورية فرنسا فى استقبالنا فى محطة نوتارى بيليك ، فلماذا نسمح لأى فرد أن يكون أفضل منا فى أى عمل ؟ إن أسلوب الحياة لأمرهام ! » .

وظل مارتن ولورا يتحدثان فى ذلك المكان القذر بين الأسلاك الشائكة القاتلة ساعة كاملة .

وفى اليوم التالى جاءت أوركيد إلى معمله وتوسلت بشوق الشباب قائلة : « آه ألا تنوى ياد كتور مارتن زيارة منزلنا ثانية ؟ » فقبلها باستخفاف ومرح يشعر حتى الفتاة المراهقة بإنها ليست ذات أهمية .

— ٥ —

وأدرك مارتن احتمال أنه سيكون المدير التالى للإدارة ، فقد قال له بيكربو : « إن عملك يحوز الرضى ، ولاينقصك إلا شىء واحد يابنى هو الحماس للتعاون مع الناس والقيام بحملات مستمرة وقوية فى آن واحد ، ولكن ربما يتولد فيك هذا الحماس عندما تصبح أكثر مسئولية . »

وحاول مارتن أن يجد لذة فى القيام بالحملات المستمرة القوية فى آن واحد

لـكنه شعر بأنه أشبه برجل أجبر بالتهديد على ارتداء ملابس ضيقة صفراء فى احتفال مدنى .

وقال غاضباً : « ربما أقاوم هذا الأمر عند ما أصبح مديراً ، فهل هناك يا ترى أناس أصبحوا « ناجحين » ثم مالبثوا أن كرهوا هذا النجاح ؟ حسناً ، سوف أبدأ على أية حال نظاماً دقيقاً للاحصائيات الهامة فى الإدارة قبل أن يقاومونى . اننى لن أستسلم ! سوف أقاوم وأحقق لنفسى النجاح ! » .

الفصل الثالث والعشرون

ربما كان الدافع رغبة ملحة فى تقديم جرعة مركزة من الإلهام تبلغ من القوة حداً لا يجرؤ معه أى مواطن فى نوتيلوس على أن يعرض ، ومن الجائز أن الدكتور بيكربو قد أراد شهرة معقولة محدودة لحملته الانتخابية ، ولكن بالتأكيد إن « معرض الصحة » الذى أقامه الرجل الخيّر ترك أثراً بالغاً .

وكان بيكربو قد حصل على اعتماد مالى إضافى من مجلس البلدية ، ودفع جميع الكنائس والجمعيات على التعاون ، وانتزع وعداً من جميع الصحف بنشر ثلاثة أعمدة من المديح يومياً .

واستأجر « المظلة » الخشبية البالية التى منها قضى القس بيلى صينداى — الواعظ المتجول — على كل خطيئة فى سكان نوتيلوس ، ووضع الترتيبات اللازمة لتقديم ألوان جديدة من النشاط ، فتقوم فرقة الكشافة بتدريبات رياضية يومياً ، كما كان هناك قسم اتحاد النساء المسيحيات لمنع المسكرات حيث يقوم رجال الدين المشهورون وغيرهم من علماء النفس بإثبات مساوىء الكحول ، وفى القسم المخصص لعلم الجراثيم كان مارتن وهو يرتدى معطفاً ناصع البياض يقوم على الرغم منه بحركات فكاهية باستخدام أنابيب الاختبار ، هذا وعرضت سيدة من شيكاغو تدعو ضد النيكوتين أن تقتل فأراً كل نصف ساعة عن طريق حقنه بورق سجاير مسحوق ، وتعلم ابنتى بيكربو التوأمتين أربوتا وجلاديولا — وقد بلغتا عامهما السادس — الجمهور كيف ينظف أسنانه بالفرشاة ، وظلت الفتاتان تؤديان مهمتهما حتى قال لهما مزارع فى الستين من عمره عند ما سألاه فى روح من الود « هل تغسل أسنانك بالفرشاه يومياً ؟ » « كلا ، لكنى سأضربكما على عجزكما يومياً وسأبدأ على التو » .

ولم يكن من بين هذه البدع ما هو أشد إثارة من « أسرة تحسين النسل »

التى تطوعت بأن تقدم مثالاً على فوائد اتباع القواعد الصحية مقابل أربعين دولاراً فقط يومياً .

وكانت هذه الأسرة تتكون من الأب والأم وخمسة أطفال جميعهم على درجة من الجمال والقوة ما مكنهم من القيام أخيراً باستعراضات بهلوانية رائعة فى دورة شوتوكوا، ولم يكن أحد منهم يدخن أو يسكر أو يبصق على الرصيف أو يستخدم لغة نابية أو يأكل اللحوم ، وكان بيكربو قد خصص لهم القسم الرئيسى فوق المنصة التى منها ألقى القس المستر صنداى عظاته الدينية .

وكانت هنالك المعروضات العادية ، وهى أقسام مزودة بالخرائط والأعلام والنشرات ، وردد الثمانى الصحى المكون من بنات بيكربو الأناشيد ، كما ألقيت يومياً محاضرات قام بعظمها بيكربو أو صديقة الدكتور بيسيكس — مدرب كرة القدم وأستاذ الصحة المدرسية وغالبية المواد الأخرى التى تدرس فى كلية موجفورد .

وقدمت الدعوة إلى مشاهير الرجال من بينهم جوستاف سونديليوس وحاكم الولاية لمشاهدة المعرض « وإبلاغ رسالتهم » ولكن الذى حدث لسوء الحظ هو أن أحداً منهم لم يستطع الحضور لانشغاله فى ذلك الأسبوع بالذات .

وافتتح المعرض الصحى بحضور الجماهير وبنجاح ، وفى اليوم الأول وقع سوء تفاهم طفيف عندما قدمت رابطة الخبازين احتجاجاً شديد اللهجة لبيكربو على الاعلان الذى علق فوق قسم التغذية يقول : الإكثار من الفطائر يسبب تقيح اللثة . واستبعد على الفور ذلك الإعلان المحطم للرخاء الذى كتب دون تفكير ، ومن ثم أعلن عن المعرض فى كل مخبز فى المدينة .

ويبدو أن كان مارتن المشترك الوحيد غير السعيد فى هذا المعرض ، فلقد أقام له بيكربو معملاً للعرض أشبه بالمعمل الحقيقى ، ولا تنقصه إلا المياه الجارية واستخدام أى نوع من اللهب إذ كانت القوانين تحظر ذلك ؛ وكان يقضى يومه

كاملاً فى صب محلول من الحبر الأحمر من أنبوبة اختبار إلى أخرى وينظر باهتمام إلى مجهره دون أن يفحص شيئاً ويجيب على أسئلة أشخاص يريدون معرفة كيف يقتل الجراثيم عندما يمسك بها سابحة .

وبدت لورا — كمساعد له — سيدة جميلة متزنة ترتدى زى الممرضات وتثور غضباً ، وهى تضحك سراً ، على ما يطلقه من فمه من لعنات بصوت منخفض ووجدا فى رجل المطافىء صديقاً ، وهو شخصية رائعة يردد الأقاصيص عن القطط فى مركز المطافىء دون ميل إلى أن يسأل عن شى فى علم الجراثيم ، وكان هـذا الرجل الذى أراهما كيف يمكنهما التدخين فى أمان خلف القسم الذى يحث على النظافة ومنع الحرائق ، وهو عبارة عن نموذج مصغر لمنزل قذر فوقه أسهم حمراء تكشف المكان الذى يمكن للنيران أن تبدأ منه ومنزل آخر نظيف مطلى . وكانت هناك خلوة ذو نافذة مكسورة منها يخرج دخان سجائرهم . وإلى هـذا المحراب أوى مارتن ولورا ورجل المطافىء اثنتى عشرة مرة فى اليوم ، وسارت الأمور على هذا النحو طيلة الأسبوع .

ووقعت حادثة سيئة أخرى عندما وقف رجل البوليس السرى الذى لم يجىء ليسبرغور شىء بل ليشاهد المنظر الخلاب للفأر وهو يموت متألماً من ورقة السيجارة أمام قسم أسرة تحسين النسل ، وحك رأسه وأسرع إلى مركز البوليس ثم عاد ومعه بعض الصور . وقال لبيكربو غاضباً :

« أهذه هى أسرة تحسين النسل التى لاتدخن ولا تسكر ولا تفعل شيئاً من هذا القبيل ؟ » .

« كلا البتة ! تأمل صحتهم التى بلغت حد الكمال . »

« يجدر بك أن تراقبهم ، إننى لن أفسد عليك معرضك يا دكتور فنحن الذين فى مجلس المدينة يجب أن نتعاون معاً ، وسوف لا أطردهم من المدينة إلا بعد انتهاء المعرض ، إنهم عصابة هولتون ، فالرجل والسيدة ليسا متزوجين كما أن

واحداً فقط من هؤلاء الأبناء ينتمى لها ، لقد قضوا بعض الوقت فى بيع المشهيات للهنود ولكنهم تخصصوا قبل أن يحصلوا على قسط من التعليم فى البيع المتنقل ، وسوف أخصص أحد رجال الشرطة السريين الذين يرتدون ملابس عادية بمراقبتهم، إن معرضك لجميل يادكتور ولابد وأن يلقن هذه المدينة درساً خالداً فى أهمية الوسائل الصحية الحديثة ، أتمنى لك حظاً سعيداً ! قل لى ألم يقع اختيارك على السكرتير الذى لابد من وجوده معك عندما تصبح عضوا فى الكونجرس ؟ إن ابن أخى شاب بارع فى الاختزال يتسم بالذكاء ويعرف كيف يسد فاه عن كل ما لا يعنيه ، سوف أبعث به إليك ليتحدث معك وإلى اللقاء » .

ولم يكن بيكربو حتى يوم السبت قد وجد شيئاً مشيناً فى تصرفات أسرة تحسين النسل باستثناء تلك المرة التى أمسك فيها رب الأسرة وهو يجرع جرعات طويلة من زجاجة الخمر فى حالة نشوة ليخفف عن نفسه عناء الظهور أمام الناس صحياً ، وحتى ذلك الحين لم يكن هناك خطأ فى أى شىء .

ولم يسبق لمعرض أن لقن الناس درساً فى الأخلاق وحقق شهرة واسعة النطاق مثل هذا المعرض ، فلقد خصصت كل صحيفة فى هذه الدائرة الانتخابية بعض الأعمدة له وتعرضت جميع الأنباء ،حتى فى صحف الديمقراطيين، لحملة بيكربو .

ولكن فى يوم السبت — وهو آخر يوم للمعرض — وقعت المأساة .

فلقد انهمر المطر غزيراً وتسربت المياه من السقف دون توقف ونقلت السيدة المسئولة عن قسم المسكن الصحى — الذى تسربت إليه المياه أيضاً — إلى منزلها يهددها الالتهاب الرئوى . وفى الظهيرة عندما كانت أسرة تحسين النسل تقدم الدليل على الحيوية الكاملة سقطت ابنتهما الصغرى فى حالة صرع .وقبل أن ينتهى الضجيج هاجمت سيدة من شيكاغو تناهض تشريح الحيوانات الحية السيدة الأخرى من شيكاغو التى تناوم النيكوتين وهى تقتل بنجاح أحد الفيران .

والتفت الناس حول السيدتين والفأر المسكين ووصفت السيدة التى تعارض

تشريح الحيوان السيدة الأخرى بالقاتلة الحقيرة الملحدة ، وتحملت الأخيرة كل هذا السباب ، ولم تفعل إلا أن بكت قليلا ، وطلبت رجال الشرطة ، ولكن عندما ذهبت سيدة مقاومة تشريح الحيون إلى القول : « أما عن ادعائك بمعرفة العلوم فأنت لا تعتين للعلماء بصلة ! » قفزت سيدة مقاومة النيكوتين من مقعدها وهي تطلق من فمها صرخةمدوية وغرست أصابعها في شعر سيدة مقاومة التشريح وقالت في وضوح :

« سأريك ما إذا كنت أعرف شيئاً عن العلوم أم لا ! » .

وحاول بيكربو تفرقتهما، أما مارتن الذى كان يقف مغتبطاً مع لورا وصديقهما رجل الحريق على الطرف ، فلم يقترب منهما ، واتجهت السيدتان إلى بيكربو وهاجماه ، ولما أبعدا عن المعرض كان بيكربو موضع سخرية الآلاف الخفية وأصبح في خطر من أن يفشل في انتخابات الكونجرس .

وفي الساعة الثانية عندما خفت حدة المطر وأقبل جمهور بعد الظهر وانتشرت قصة السيدتين بقوة انسحب رجل المطافىء خلف معرض النظافة ومنع الحرائق ليشعل سيجارته التى اعتاد أن يشعلها كل ساعة ، وكان هذا الرجل قصير القامة بائساً يميل بشدة إلى النوم ، وكان يفكر في مركز المطافىء الجميل وفي لعبة البنوكل [1] التى لا تنتهى عندما سقط من يده عود الثقاب واختنق في الدهليز الخلفي لنموذج البيت النظيف ، وكان البيت النظيف مطليا بالزيت طلاء جميلاً حتى أنه صار أشبه بشعلة مغموسة في الكيروسين ، واشتعلت النيران وسرعان ما امتلأت المظلة الضخمة الكثيبة ضجيجاً بسبب اللهب واندفع الجمهور نحو الأبواب.

وكانت أقسام المعرض تسد بالطبع منافذ المظلة الأصلية وارتفعت صرخات الهلع وسقط الأطفال تحت الأقدام .

ولم يكن آلموس بيكربو جبانا ولا خاملا ، وشوهد فجأة وهو يتحرك —

---

(١) لعبة بالورق .

وقد ظهر ، من حيث لا يعلم أحد ، وسط المظلة على رأس بناته الثمانية يردد أغنية ديكسى بينما كانت رأسه منتصبة وعيناه مخيفتان وذراعاه مفتوحان فى توسل ، وتوقف الجمهور فى إعياء ، وبصوت ربان السفينة صاح فيهم وقادهم إلى الخارج فى أمان ثم عاد ليقاوم السنة اللهب المندلعة .

ولم تلحق النيران بالمبنى الذى أغرقته الأمطار ، وكان رجل الحريق مع مارتن ورب أسرة تحسين النسل يقاومون النيران التى لم تدمر سوى « المنزل النظيف » وعاد الجمهور الذى هرب فى هلع وعلى وجهه أمارات الدهشة وكان بيكربو هو بطلهم .

ولم يمض على ما حدث ساعتان إلا وأصدرت صحف نوتيلوس أعداداً خاصة تكشف عن أن بيكربو لم يقم بتنظيم أعظم معرض للصحة شهدته المدينة فحسب بل أنقذ أيضاً — بشجاعته وقدرته على القيادة — مئات الناس من الهلاك . وربما كانت العبارة الأخيرة هى الشىء الوحيد الدقيق الذى قيل عن الدكتور آلموس بيكربو فى عشرة آلاف عمود نشرتها الصحف .

وفى تلك الليلة أقبل إلى المعرض نصف المدينة سواء لمشاهدة المعرض أو بيكربو أو آثار الكارثة أو معركة جديدة تقع بين سيدة مقاومة النيكوتين وتلك التى تناهض تشريح الحيوان ، وعندما اعتلى بيكربو المنصة ليلقى محاضرته الختامية حيته الجماهير فى جنون ، وفى اليوم التالى عندما بدأ يطوف المدينة فى الأسبوع الأخير من حملته الانتخابية أكتشف أنه مسيطر على الدائرة بأسرها .

— ٢ —

وكان منافسه محامياً قصير القامة يدمن السعوط تكمن قوته فى خبرته إذ سبق ان كان عضواً فى مجلس الشيوخ عن ولايته ، ومساعدا للحاكم وقاضيا لمحكمة أقليمية ، ولكن شعار المرشح الديمقراطى القائل « بيكربو المرشح المختار » قد أختفى أمام الاعجاب ببطل معرض الصحة : لقد طاف فى سيارات وهو يعلن :

« إننى لا أرشح نفسى رغبة منى فى المنصب بل فى الفرصة التى تمكننى من أن أنشر على الأمة بأكملها مثلى الصحية . » وفى كل مكان علقت ملصقات كتب عليها :

انتخبوا لعضوية الكونجرس

بيسكربو

الدكتور الشاعر القوى المناضل

أنتخبوه لدورة برلمانية

وسوف يبيد الجراثيم من ربوع الأمة .

وعقدت اجتماعات هائلة وكان بيسكربو مسهبا وغامضا فى الحديث عن سياسته ، أجل ، إنه يعارض اشتراكنا فى الحرب الأوربية ، لكنه أكد لهم — بالتأكيد أكد لهم — أنه يؤيد أن تستخدم حكومتنا مالها من قوة لإنهاء هذه الكارثة المروعة .

نعم ، إنه يؤيد فرض رسوم جمركية مرتفعة على أن تنظم بطريقة تمكن المزارعين فى دائرته من شراء كل شىء بثمن رخيص ، أجل إنه يطالب بأجر مرتفع لكل عامل لكنه يقف كالصخرة ، وكالقلعة لحماية رخاء جميع أصحاب المصانع والتجار وأصحاب الإقطاعيات الكبيرة .

وكانت نوتيلوس تشهد أثناء هذه الحملة الكبيرة حملة أصغر وأكثر اختلافاً لإعادة انتخاب مستر بيو — رئيس بيسكربو المحبب إلى نفسه — عمدة للمدينة ، وكان مستر بيو يجلس أنيقاً على مكتبه ، كما كان لطيفاً يقدم الوعود لكل من زاره من رجال الدين والقامرين والمحاربين القدامى ووكلاء تقدم السرك ، ورجال البوليس ، والسيدات الفاضلات ؛ لقد جاء الجميع لزيارته باستثناء مثيرى الشغب الاجتماعيين الذين وقف ضدهم بعنف لحماية المدينة المنيعة ، وفى خطبه أشاد بيسكربو ببيو من أجل « وقاره الحازم وعطفه الدائم الذى ناصر به سيادته كل حركة تهدف إلى خدمة الشعب » ، وعند ما توسل إليه بيسكربو (فى إخلاص تام) قائلاً :

«يا سيادة العمدة إذا ما ذهبت إلى الكونجرس عليك أن تعين أروسميث فى منصبى ، انه لا يعرف شيئاً عن السياسة لكنه نزيه » ، وعده مستر بيو بذلك ، وسادت المحبة فى تلك المدينة ولم يقل أحد شيئاً عن مستر ف . اكس . جوردن .

وكان ف . ا كس جوردن مقاولا يهتم اهتماماً بالغاً بالسياسة ، ولقد وصفه بيكربو بالدخيل ، وقد انتخب بيو فى المره الماضية على أساس برنامج للإصلاح على الرغم من أن هذا الإصلاح طلب منه بعد ذلك أن يلزم جادة الصواب وأن يكون عملياً — فهاجم بيو وبيكربو جوردن ووصفاه بإنه « قوة شريرة » أما فى الانتخابات الحالية فقد كان العمدة بيو عطوفاً لدرجة أنه لم يقل شيئاً من شأنه أن يجرح مشاعر جوردن ، فما الذى يستطيع السيد جوردن أن يفعله مقابل ذلك إلا أن يتحدث صالحاً عن السيد بيو لأولئك الذين أعماهم التعصب وفى البيوت التى لا تتمتع بسمعة طيبة ؟

وكان مارتن ولورا فى عشية الانتخابات من بين الذين ينتظرون النتيجة فى منزل بيكربو ، وكانا على يقين من فوزه ، ولكن مارتن الذى لم تثره السياسة قط وأثاره الآن ادعاء بيكربو المفاجىء بعدم المبالاة وبالنبأ الذى بعث به مكتب الصحيفة تليفونياً يقول «هنا منطقة وبللوجروف ، بيكربو متقدم بنسبة ٢ إلى ١ وبالجماهير التى مرت بالمنزل تهتف بأصوات مدوية «بيكربو ، بيكربو ، بيكربو!»

وتأكد فوز بيكربو فى الساعة الحادية عشرة ، أما مارتن الضعيف الثقة فقد أدرك أنه أصبح مديراً للصحة العامة ومسئولا عن سبعين ألف نسمة .

ونظر باهتمام بالغ إلى لورا فوجد فى ابتسامتها الهادئة تأكيداً .

وكانت أوركيد خفيفة الروح وظلت طيلة الوقت بعيدة عن مارتن بينما أخذت فى قنوط تتسامر مع لورا وتظهر لها مشاعر الحب ، أما الآن فقد جذبته إلى حجرة الصالون الخلفية وقالت له وفى عينيها دموع واسترخاء وضعف « إنى ذاهبة إلى واشنطن . . . وأنت لا تهتم البتة » فأمسك بها وهمهم « لن أدعك تذهبين أينما

الابنة العزيزة ، وفى طريقه إلى البيت كان تفكيره فى عينى أوركيد أكثر منه فى أنه قد أصبح مديراً .

وفى الصباح تساءل غاضباً ، الن يتعلم الإنسان أبداً ؟ وهل يتحتم على أن أراقب نفسى وأظل غبياً طيلة حياتى ؟ أليس من نهاية لأية قصة ؟ .

ولم يرها بعد ذلك إلا على رصيف القطار .

ومن دواعى الدهشه أن قالت لورا بعد أن رحلت أسرة بيكربو :

« عزيزى ساندى : إننى أقدر مشاعرك إزاء فقد انك أوركيد ، إن رحيلها بالنسبة لك أشبه بالشباب الزائل . إنها جميلة حقاً ، صدقاً ! إننى أقدر مشاعرك وأعطف عليك . . أعنى — بالطبع — أن ذلك بشرط ألا تعود لزيارتها . »

— ٣ —

وفى الصفحة الأولى من صحيفة « نوتيلوس كورنفيلد » كتب العنوان البارز التالى :

آلوس بيكربو يفوز .

أول عالم ينتخب لعضوية .

الكونجرس .

تلميذ داروين وباستير .

يعطى دفعة جديدة لتوجيه .

سفينة الدولة .

وكان على بيكربو أن يقدم استقالته فوراً إذ أنه — كما وضح — ينوى الذهاب إلى واشنطن قبل أن تبدأ الدورة لدراسة الأساليب التشريعية وليبدأ فى دعايته من أجل إنشاء وزارة قومية للصحة ، ودار صراع عنيف حول تعيين مارتن خلفاً له ، فكان كلوبشوك — صاحب معمل الألبان — حاقداً عليه ، كما همس ايرفنج

ووترز إلى الأطباء زملائه بإن مارتن قد يوسع نطاق العيادات الاشتراكية المجانية ، كما كان ف . ا كس جوردن يرشح لهذا المنصب طبيباً شاباً حكيما ، لكن جماعـــة أشفورد جروف وتردجولد وشليمهل ومونتى موجفورد هم الذين جاءوا بمارتن .

وذهب مارتن إلى تردجولد وتساءل فى قلق : « هل الناس يريدوننى ؟ وهل أقاوم جوردن أم أنسحب ؟ » .

وقال تردجولد لائماً : « نقاوم ؟ لماذا نقاوم ؟ إن لى نصيباً كبيراً فى البنك الذى أقرض العمدة بيو عدة مبالغ ضئيلة ، فما عليك إلا أن تترك الأمر لى . »

وفى اليوم التالى عين مارتن ولكن كمدير مؤقت فقط بمرتب يبلغ ٣٥٠٠ دولار بدلاً من أربعة آلاف .

ولم يخطر له ببال أن ما يسميها « بالسياسات الملتوية » هى التى جاءت به إلى هذا المنصب .

واستدعاه العمدة بيو وقال مقهقها :

« لقد كانت هنا لك يادكتور بعض المعارضة لتعيينك لأنك صغير السن ولا يعرفك الكثيرون ولا يدانينى شك فى أنى سأعينك مديراً دائماً فيما بعد . . إذا ما تبين لنا أنك ماهر ومحبوب ، ويجد ربك فى هذه الفترة أن تتجنب القيام بأى عمل طائش ، وما عليك إلا أن تجىء إلى وتطلب نصيحتى فأنا أعرف هـذه المدينة ومن يعمل حسابهم من الناس أفضل منك . »

— ٤ —

وتقرر أن يكون يوم رحيل بيكربو إلى واشنطن عيدا ، وقدمت الغرفة التجارية فى مخزن الأسلحة ، فى الفترة من الثانية بعد الظهر ، لكل من جاء غذاء من خمر ساخن وفطائر وقهوة إلى جانب تقديم اللادن للنساء ، وسيجار شومنهوجل لتيل داندى المصنوع فى نوتيلوس للرجال .

وتحرك القطار فى الساعة الثالثة والنصف ، وكانت المحطة — لدهشة المسافرين الأبرياء المطلين من نوافذ القطار — مكتظة بالآلاف .

ووقف العمده بيو بجوار الرصيف الخلفى فوق صندوق للأمتعة معرضاً للخطر ، وعزفت فرقة النفير الفضى فى نوتيلوس ثلاث مقطوعات وطنية بعدها وقف بيكربو على الرصيف ومن حوله أسرته ، ونظر إلى الجمهور فاغرورقت عيناه بالدموع .

وقال متعلثما : « أظن أننى لا أستطيع — لأول مرة — أن ألقى خطاباً ، لعنة الله على ذلك ، إننى أحس بالاختناق ! لقد كنت أقوى أن اتحدث كثيراً ، ولكن كل ما استطيع أن أقوله هو — أننى أحبكم جميعاً واشعر بالامتنان البالغ لكم ، وسوف أبذل يا إخوانى ما فى وسعى لتمثيلكم فليباركم الله ! » .

وتحرك القطار وظل بيكربو يلوح للجماهير حتى غاب عن الأنظار .

وقال مارتن للورا : « آه ، إنه رجل حكيم لطيف ملىء بالحيوية ، هو . . كلا ، سحقاً لى إن كان كذلك ! إن العالم يسمح دائماً للناس بالتساهل مع المغفلين لأنهم يتسمون بطيبة القلب ، وهأنذا أجلس كالجبان دون أن انطق ببنت شفه ، أراقبهم وهم يطلقون تلك العاصفة على الأمة بأسرها . آه لعنة الله على هذا ، أما من شىء فى العالم بسيطاً ، حسناً ! لنذهب إلى المكتب ، وسوف أبدأ القيام بأشياء من وحى ضميرى ، ولكن سوف تكون جميعها خطأ ».

الفصل الرابع والعشرون

لا يمكن القول أن مارتن أظهر قدرة كبيرة على التنظيم ولكن فى عهده تغيرت إدارة الصحة العامة تغيراً تاماً ، واختار الدكتور روفوس أوكفورد مساعداً له ، وهو شاب نشيط رشحه له العميد سيلفا عميد كلية ويناك ، وسارت الأعمال العادية مثل فحص الأطفال والحجر الصحى ومقاومة السل بلصق الإعلانات ، كسابق عهدها .

وربما أصبح التفتيش على الأغذية وتركيب الأدوات الصحية أدق ، إذ كان مارتن يفتقر إلى ثقة بيكربو العمياء فى المفتشين ، وحدث أن غير أحدهم فاغضب بشدة جماعة الألمان القاطنين فى منطقة هومديل ، كما فكر فى إبادة الفيران والبراغيث ، واعتبر الإحصائيات الهامة شيئاً أهم من تسجيل المواليد والوفيات . وكانت له آراء فى قيمه الإحصائيات استمتع بها كاتب الإدارة الصحية كل الاستمتاع ، فهو يريد تسجيلاً لتأثير الجنس والمهنة وعشرات العوامل الأخرى على نسبة المرض .

وكان الاختلاف الرئيسى بين الماضى والحاضر هو أن مارتن وروفوس أوكفورد وجدا أمامهما متسعاً كبيراً من الوقت ، واعتقد مارتن — حسب تقديره — أنه لا بد أن بيكربو كان يقضى نصف وقته فى الخطابة والتوجيه .

وكان أول ما ارتكب من أخطاء أنه أرسل أوكفورد ليقضى جزءاً من الأسبوع فى عيادة المدينه المجانيه إلى جانب الطبيبين اللذين يعملان نصف الوقت ، ذلك لأن هذا الإجراء قد أثار غضب رابطة مقاطعة ايفانجيلين الطبية ، وفى أحد المطاعم اقترب ايرفنج ووترز من مائدة مارتن وقال :

« علمت أنك أكثرت من عدد أطباء العيادة » .

« بـــلى » .

« أو تفكر فى زيادة عددهم مرة أخرى ؟ »

« ربما تـكون هذه فـكرة صائبة . »

« والآن اصغ إلى يامارتن ، لقد بذلت ومعى زوجتى ما فى وسعنا للترحيب بك وبلورا ، ويسعدنى أن اقدم ما استطيع لزميل من خريجى كلية وينالك القديمة ، ولـكن هناك فى الوقت ذاته حدودا كما تعرف ، وهذا لا يعنى أنى اعارض فى تقديم الخدمات الطبية بالمجان ، لست أدرى ، ولـكن ما يعتبر عملا خيرا هو أن تعالج الطبقة الفقيرة الخاملة اللعينة القذرة بالمجان وتستبعد السجل الخاص بحسابات الأطباء العاديين غير أنه عندما تبدأ فى ذات الوقت فى العمل على تشجيع عدد كبير من الناس قادرين على الدفع على العلاج بالمجان وتعتدى بصورة عملية على سيادة أطباء يضحون — يعلم الله — بجزء كبير من وقتهم لفعل الخير ...

ولم يكن فى رد مارتن حكمة ولا لباقة إذ قال « عزيزى ايرفنج يمكنك أن تمضى إلى الجحيم مباشرة ! »

ولم يدر بينهما بعد تلك الساعة أى حديث كلما التقيا .

ووجد مارتن نفسه قادرا على الانغماس فى العمل فى معمله راضياً دون الاخلال بواجبات عمله الرتيب ، ولم يقم فى بادىء الأمر الا برتق القوارير ، وفجأة نسى كل شىء ما عدا تجربته التى انـكب عليها انـكبابا .

وكان يجرى تجاربه على مزارع البكتريا التى أخذها من معامل مختلفة للألبان ومن أناس كثيرين مركزاً جل تفكيره على معمل كاوبشوك والمكروب السبحى، واكتشف بالصدفة أن الهيموليسين (١) تفرز فى دم الأغنام بوفرة لا مثيل لها فى دم الحيوانات الأخرى فما السر فى أن المـكروب السبحى يذيب كريات الدم الحمراء فى الغنم بسهولة أكثر من كريات دم الأرانب؟

---

(١) مادة تذيب كرات الدم الحمراء .

وحقيق أنه ليس من حق اخصائى علم الجراثيم المنهمك فى مهام الإدارة الصحية أن يضيع الوقت الذى هو من حق الشعب فى إشباع حب استطلاعه ، ولكن طبيعة البحث التى طابعها عدم المبالاة فى مارتن تغلبت على طبيعته الروتينية المخلصة .

وأهمل فحص عدد متزايد ينذر بالخطر من لعاب المصابين بالدرن ، وبدأ فى البحث عن سر المادة المذيبة لكريات الدب الحمراء ، واجتهد فى أن ينتج المادة المذيبة للدم من مزارع المكروب السبحى فى خلال ٢٤ ساعة .

وأخفق ولكن بصورة رائعة مثيرة ، وجلس يفكر ساعات طويلة وأجرى تجربة على مزرعة مدتها ست ساعات بأن عرضها لقوة الطرد المركزى ، ثم أخذ السائل الطافى ومزجه بمعلق كريات الدم الحمراء ووضعه فى حاضن[١] ولما عاد بعد ساعتين كانت كريات الدم قد ذابت .

وأتصل بلورا تليفونيا وقال لها . « لقد اكتشفت شيئاً يالورا ، اتستطيعين اعداد ساندويتش وتحضرين إلى هنا لقضاء فترة المساء إلى جانبي ؟ »

فقالت لورا « بكل تأكيد »

وشرح لها عند وصولها أن اكتشافه كان بالصدفة ، كما أن معظم الاكتشافات العلمية هى وليدة الصدفة ، وما من باحث مهما علا شأنه بقادر أن يفعل أكثر من أن يرى قيمة ما تمخض عن هذه الصدفة .

وبدا فى صوته رنة النضوج بل كان يشيع فيه شىء من الغضب .

وجلست لورا فى الركن تحك ذقنها وتقرأ احدى المجلات الطبية وأخذت من حين إلى آخر تعيد تسخين القهوة فوق لهب موقد بنزن الخافت . وعندما وصلت هيئة المكتب فى الصباح رأوا ما ندر أن حدث فى عهد آلموس بيكربو . رأوا مدير الإدارة ينقل مزارع البكتريا من مكان إلى آخر بينما نامت زوجته فوق منضدة طويلة .

---

(١) جهاز يستخدم لنمو البكتيريا .

وصاح مارتن فى الدكتور اوكفورد قائلا : « هيا من هنا ياروفوس ، وأرع شئون الإدارة لهذا اليوم .. فلست موجوداً .. لست على قيد الحياة .. وعلى فكرة هل تسمح بمرافقة لورا إلى البيت وتقلى لها بيضتين وأن تحضر ساندويتشاً لى من محال سنست تريل لنش ؟

فقال اوكفورد « أمرك يا سيادة الرئيس »

وكرر مارتن تجربته مختبراً وجود الهيموليسين فى مزارع البكتريا بعد ساعتين وأربع وست وثمانى وعشر واثنتى عشرة وأربع عشرة وست عشرة وثمانى عشرة ساعة من الحضانة ، واكتشف أن أقصى انتاج للهيموليسين يحدث ما بين أربع وعشر ساعات ، وبدأ يضع معادلة الإنتاج ، فاشتط غضبا وتهيج وتصبب العرق منه ، واكتشف أن عملياته الحسابية تافهة وأن معلوماته العلمية بالية ، ومل التجارب الكيمائية وضاق ذرعا بالعمليات الحسابية ، وببطء اخذ يجمع ما توصل إليه من نتائج واعتقد أنه يستطيع أن يكتب بحثا لجريدة الأمراض المعدية .

وغالباً ما نشر آلموس بيكربو أبحاثاً علمية فى مجلة «ميدويست ميديكال كوارترلى» التى كان أحد محرريها الأربعة عشر ، وكان قد اكتشف جرثومة الصرع وجرثومة السرطان .. وهما جرثومتان للسرطان تختلفان عن بعضهما تمام الاختلاف ، وكان لا يحتاج إلى أكثر من خمسة عشر يوماً ليكتشف ويكتب تقريره ويحصل على موافقة لنشره ، أما مارتن فقد كان يفتقر إلى هذه السهولة الرائعة .

وأجرى التجارب وأعاد اجراءها وأخذ يسب ويلعن كما حـــرم لورا النوم وعلمها كيف تعد أطباق المزارع واستاء من آرائها حول الأعشاب الطبية الجافة ، وعامل كاتبة الإختزال بعنف ، ولم يستطع راعى كنيسة يولمان ادواردز الطائفية أن يقنعه — ولو مرة — بإلقاء خطاب واحد فى مدرسة التوراة ، ومع هذا ظل شهوراً يعمل ولم يتم بحثه .

وكان سيادة العمدة أول من احتج على ذلك ، فبعد أن عاد من لعبة السكك

الحديدية الموفقه للغاية مع ف . س . جوردن ، وعبر حارة خلف قاعة اجتماعات المدينة رأى فى الساعة الثانية صباحا مارتن وهو يضع أنابيب الاختبار فى الحاضن بينما جلست لورا فى الركن تدخن ، وفى اليوم التالى استدعى مارتن واحتج قائلا :

انى لا أريد التدخل يادكتور فى شئون إدارتك — فليس من عادتى التدخل فى شئون الغير — ولكن ما يدهشنى حقا هو أنه بعد أن تدربت على يدى رجل كبيكربو تبلغ قوة نشاطه سبعين حصاناً كان يجب أن تدرك أنه من الغباء البغيض أن تقضى كل هذا الوقت فى العمل بينما يمكنك أن تستأجر أحد الخبراء المتخصصين فى شئون المعمل بثلاثين دولاراً فى الأسبوع ، وما كان يجب أن تفعله هو أن تخفف من الأنات التى تضايق الحكومة ، فاخرج وتحدث فى الكنائس والنوادى وساعدنى فى نشر الآراء التى تؤمن بها . »

وقال مارتن لنفسه بعد تفكير : « ربما هو على حق ، فما أنا إلا عالم جراثيم تافه ، وربما لا أستطيع وضع قاعدة بهذه التجربة ، ومهمتى هنا هى أن أمنع من يمضغون التبغ من البصق ، فهل من حقى أن أنفق أموال دافعى الضرائب على أى شىء أخر ؟ »

ولكنه فى ذلك الأسبوع قرأ — كإعلان أصدره معهد ما كجورك لعلم الأحياء بنيويورك — بأن الدكتور ماكس جوتليب قد تمكن من تحضير أجسام مضادة فى محلول مذاب .

وتصور جوتليب العابس غير مستمتع البتة بحلاوة النصر بل قابعاً خلف الأبواب المغلقة يلعن الصحف لما تنشر من أنباء مبالغ فيها عن عمله .

وعندما اتضحت الصورة أمام عينيه كان مارتن أشبه بعسكرى مرابط فى جزيرة صحراوية نما إلى سمعه ان فرقته القديمة فى طريقها إلى حرب موفقة على الحدود .

ثم أثيرت ضجة بسبب ما كانديلس .

— ٢ —

وكان السيدة ما كانديليس تعمل ذات يوم خادمة ثم ممرضة فأمينة سر فزوجة للسيد ما كانديليس العليل تاجر بقالة بالجملة وصاحب ضيعة كبيرة وورثت عنه كل شيء بعد أن مــات . وأقيمت ضدها دعوى بالطبع لـكنها انابت للدفاع عنهـا محـاميا بارعاً .

وكانت سيدة بشعة سمجة مشبوهة دنيئة مصابة فى ذات الوقت بشبق النساء ولم يـكن يسمح لها بالاختلاط بمجتمع نوتيلوس لـكن فى صالونها المغلق فوق سريرها الذى كانت تنبعث منه رائحة كريهة آوت رجالا متزوجين منهو كى القوى منبوذين من بينهم شرطى شاب كانت تقرضه المال ، والسياسى — المقاول ف . أ كس . جوردن .

لقد كانت تمتـلك فى سويدى هولو بنوتيلوس أقذر مجـوعة من المسا كن ، ورسم لها مارتن خريطة تدرن ، وبعد اجتماعات عقدها مـع الدكتور أوكفورد ولورا هاجم هذه المسا كن ووصفها بأنها أوكار للقتل ، وأراد تدميرها ، إلا أن سلطة مدير الصحة العامة التنفيذية غامضة غير محددة أما بيـكربو فقد كانت له قوة فائقة لسبب واحد وهو أنه لم يستخدمها قط .

وحاول مارتن أن يحصل على قرار من المحـكمة بازالة مسا كن ما كانديليس وكان محاميها هو محامى ف . أ كس . جوردن ، وشاهدها اللبق ضد مارتن هو الدكتور ايرفنج ووتز ، ولـكن تصادف أن عرضت القضية بسبب تغيب القاضى المختص — على قاض أمين يجهل الأمر ، وقضى بالغاء الإنذار الذى أحرزه محامى السيدة ما كانديليس وأصدر تعلياته إلى إدارة الصحة العامة باستخدام قوانين المدينة التى تطبق فى حالات الطوارىء .

وفى تلك الليلة قال لأوكفورد غاضباً : « إلا تظن يارونوس أن ما كانديليس

وجوردن سوف يستأنفان الحكم ؟ دعنا نتخلص من المساكن بينما القوانين فى صفنا ، إلا ترى ذلك ؟ » .

فقال أوكفورد « أمرك ياسيادة الرئيس ، أى أن نذهب إلى أوريجون ونبدأ العمل قبل أن نجبر على التوقف ، حسناً ! يمكننا على أية حال أن نعتمد على مفتش الصحة الذى يعمل معنا ، فلقد هتك جوردن عرض شقيقته منذ ست سنوات » .

وعند الفجر هاجمت عصابة برأسها مارتن واوكفورد ترتدى سترة العمال الزرقاء تتسم بالمرح والميل إلى المشاغبة مساكن ما كانديلس وطردت المستأجرين إلى الشوارع وبدأت فى إزالة المبانى القذرة . وعند الظهر حين انتقل السكان إلى شقق جديدة تحت إشراف مارتن بدأ العمال فى إزالة الطوابق السفلى ؛ وفى غضون نصف ساعة كانت المبانى قد أزيلت من الوجود .

وظهر ف . إ كس جوردن بعد الغذاء بينما كان مارتن الذى تعلوه القذارة وأوكفورد المترب يحتسيان ما أحضرته لهما لورا من القهوة .

وقال جوردن : « حسنا يا أولاد ، لقد تغلبتم علينا ، ولكن إذا ما حدث وقمتم بهذه اللعبة البهلوانية مرة ثانية عليكم باستخدام الديناميت لتوفروا على أنفسكم الكثير من الوقت ، إننى أحبكم يا أبنائى كما تعلمون وآسف لما اضطررت أن أقوم به ضدكم ، ولكن ليت القديسين تساعدكم لأن المسألة تحتاج إلى وقت حين أعلمكم إلا تعبثوا بالنار . »

— ٣ —

وأعجب كلاى ترد جولد بما قاموا به من عمليات حريق ، وابتهج قائلاً : « هذا جميل ولسوف أساندكم فى كل ما تقوم به إدارة الصحة العامة . »

ولم يغتبط مارتن بالوعد لأن لجماعة ترد جولد مطالب كثيرة ، فقد قررت أن مارتن ولورا زوجان حران مثلهم ومتمان ، كما قررت — قبل أن تندمج أسرة

أروسميث بمجيئها إلى نوتيلوس فى الحياة الحقيقية بوقت طويل — أن الجماعة تحتكر كل حرية ومتعة ، وتوقعت أن يشترك مارتن وزوجته فى حفلات الكوكتيل ولعبة البوكر فى أمسيات كل سبت واحد ، وتعذر عليهم إدراك ما يجعل مارتن يقضى وقته فى المعمل جاهدا فى البحث عما يسميه ستربتوليسين [1] الذى لا علاقة له بحفلات الكوكتيل والحركات الآلية أو مصانع الصلب أو التأمين .

وذات ليلة ، ربما بعد أسبوعين من تدمير مساكن ما كانديس كان مارتن يعمل فى معمله حتى ساعة متأخرة من الليل ، لكنه لم يكن يجرى تجاربا من شأنها حتى أن تسلى الجماعة بجعل مستعمرات البكتريا تعكر السوائل أو بتغيير لون الأشياء ، وكل ما كان يفعله هو الجلوس إلى المنضدة ينظر إلى جداول اللوغارتمات ، ولم تكن لورا معه فى تلك الليلة فقال غاضباً .

« لعنة الله عليها ، لماذا تتركنى وتمرض اليوم ؟ » .

وكان ترد جولد وشلميهل وزوجتاهما على موعد فى فندق فارمهوس القديم واتصلوا بمنزل مارتن وعرفوا أين يوجد ، ومن الزقاق خلف قاعة المدينة نظروا فوجدوه كئيبا يجلس وحيداً .

فقال تردجولد : « سوف نأخذ الصبى العجوز معنا لا نماشه وعلينا أن نسرع إلى البيت قبل كل شىء ونعد قليلا من الكوكتيل ونأتى به لمفاجئته . »

وبعد نصف ساعة جاء تردجولد إلى المعمل فى ضجيج :

«إن هذا لأسلوب لطيف لقضاء أمسية من أمسيات الربيع القوية أيها الشاب أروسميث ! هيا سوف نخرج جميعاً ونرقص قليلا ، أمسك بقبعتك . »

« يا الهى ، بودى ذلك يا كلاى ، إلا أننى حقاً لا أستطيع فلابد من العمل . إن العمل أمر محتم . »

---

(١) مذيب المكروب السبحى .

يا لله ! لا تكن أحمق ، إنك تعمل أكثر مما يطاق ، أنظر إلى ماجاء به بابا كن منطقيا والق نظرة إلى زجاجة طويلة لطيفة من الكوكتيل ، ولسوف ترى الأشياء فى ضوء جديد .

وكان مارتن منطقياً وألقى نظرة إلى الزجاجة لكن لم يكن له الضوء الجديد ولم يقبل ترد جولد الاعتذار وأصر مارتن على الرفض بروح الود ثم بشىء من العنف ، وفى الخارج ضغط شلميهل على زرار نفير السيارة واستمر فى الضغط فأحدث صوتاً مزعجاً ملحا جعل مارتن يصيح قائلاً : « أخرج بربك وأوقف هذا الضجيج واتركنى وشأنى ، لقد أخبرتك أنه لابد من أن أعمل ! »

وحلق ترد جولد فى وجهه برهة وقال « سأفعل ذلك قطعاً فلست معتاداً أن أفرض أهتمامى على الآخرين ، معذرة لازعاجك ! » .

وأحس مارتن فى ضيق بضرورة الاعتذار ولكن العربة كانت قد مضت ، وانتظر أن يتصل هوبه ، وبدأت الكراهية بينهما ، وتقابلت لورا وترد جولد مرة أو مرتين ولكنهما لم يشعرا بارتياح فى اللقاء وبعد أسبوعين عندما تناول أكثر أطباء المدينة شهرة طعام العشاء مع ترد جولد وهاجم مارتن ووصفه بأنه شاب متشامخ ضيق الأفق استمع إليه كل من ترد جولد وزوجته وأيداه .

وسرعان ماقويت المعارضة ضد مارتن .

وقاومه عدد كبير من الأطباء لا بسبب التوسع فى العيادات فحسب بل لأنه ندر أن طلب معونتهم ، وما من مرة سألهم النصيحة ، وأعتبره العمدة بيو أخرق ، كما هاجمه كاوبشوك و.ف. أكس جوردن ووصفاه بالملتوى الفاسد ، وكرهه الصحفيون لسريته وغلظته من حين لآخر ، وكفت الجماعة عن الدفاع عنه ، وكان مارتن يدرك إلى حد ما هذه القوى ، وتصور أن خلف هؤلاء يقف رجال الأعمال المشكوك فى أمرهم وبائعو اللبن « والآيس كريم » المنشوش ، وأصحاب الحوانيت غير الصحية والبيوت القذرة ، اولئك الرجال الذين كانوا يكرهون بيكربو ولكنهم خشوا مهاجمته لما يتمتع

به من شعبية — أدرك أن هذه القوى قد اتحدت معاً لتدمير إدارة الصحة العامة بأسرها — وفى تلك الأيام شعر بتقدير لبيكربو وأحب حكيم الإدارة الشجاع .

وأشار العمدة بيو إلى أن استقالته ستوفر عليهم المتاعب ، لكنه لن يستقيل ولن يلجأ إلى المواطنين يطلب التأييد ، وقام بواجبه واعتمد على تشجيع نورا له وحاول أن يتجاهل أعداءه فلم يفلح .

وتندرت مقالات الصحف والافتتاحيات القصيرة باستبداده وجهله وحمقه ، وماتت سيدة عجوز بعد أن عولجت فى العيادة فأشار الناس إلى أن سبب الوفاة خطأ من مساعد الإدارة الصحية القادر على كل شىء ، المدلل . وأطلق على مارتن اسم « القيصر التلميذ » فى مكان ما فالتصق به .

وفيما يدور من حديث أثناء تناول الغذاء فى النوادى ومن مناقشات فى رابطة الوالدين والمعلمين وفى الشكوى الصريحة التى تحمل توقيع صاحبها والتى أرسلت إلى العمدة كان اللوم يوجه إلى مارتن لما يفرضه من تفتيش شديد على اللبن ولعدم كفاية التفتيش الشديد على اللبن ، لأنه يسمح بترك القمامة فى الشوارع ولأنه يضطهد جامعى القمامة المنهوكى القوى من كثرة العمل ، وظهرت حالة جدرى فى منطقة بوهيميان فاعتقد البعض أن مارتن هو المسئول عنها .

ومهما كان الغموض الذى يكتنف موقف المواطنين من طبيعة شره فإنهم ما إن فقدوا الثقة فيه إلا وفقدوها تماماً وبارتياح ، ورحبوا عن طيب خاطر ظاهر بالإشاعة المختلقة بأنه خان عزيزهم الدكتور بيكربو الذى أحسن إليه وهتك عرض ابنته أوركيد .

وعند إثارة هذه النقطة المنافية للأخلاق الحساسة تألبت ضده جميع الكنائس الحديثة ، وألقى راعى كنيسة يوناثان ادواروز عظة عن « الخطيئة فى الأماكن المقدسة مشيراً إلى « هذا الذى يتظاهر — مثله مثل قيصر — بحماية المدينة من الأخطار الخيالية تماماً بينما يغض الطرف عن الشر الدفين الكامن فى أماكن خفية » .

والذى يوجد فى نفسه مع قوى الشر والابتزاز ومع الاوغاد الذين يعيشون فى ترف على حساب العمل الشريف المخدوع ، ذلك الشخص الذى لا يستطيع أن يقف كرجل وسط الرجال ليقول : « لى القلب النقى والأيدى النظيفة » .

حقيق أن بعض جمهور الحاضرين المستبدين اعتقدوا أنه يشير إلى العمدة بيو كما نسبها غيرهم إلى ف . اكس جوردن ، بيد أن الحكماء من المواطنين رأوا أنه هجوم شجاع على الدكتور أروسميث الوغد الفاسق الغدار .

ولم يقف إلى جواره فى كل المدينة سوى قسيسان هما : الأب كوستيلو راعى الكنيسة الكاثوليكية الأيرلندية ، والحاخام روفين ، وكانا صديقين حميمين ، ولكنهما على خلاف تام مع راعى كنيسة يوناثان ادواروز ، ووبخ الرجلان جمهورهما ، وقال كل منهما مؤكداً : « يطوف الناس خفية ويوجهون النقد إلى مدير الصحة الجديد ، ومن يريد توجيه الاتهامات فليوجهها جهاراً ، إننى لن أصغى إلى التلميحات التى طابعها الجبن ، واسمحوا لى أن أقول لكم إن هذه المدينة سعيدة الحظ أن يكون مدير الصحة فيها رجلاً أميناً له إلمام حقيق ببعض المعلومات ! » .

بيد أن جمهورهما كان من الفقراء . .

وأدرك مارتن أنه قد ضاع وحاول تحليل عدم شعبيته .

« ليست المسألة مجرد تآمر جوردن وغضب ترجولد وضعف شخصية بيو . إن الخطأ من جانبى ، فأنا لا أستطيع أن أخرج وأتملق الناس واستأذنهم المساعدة فى المحافظة على صحتهم ، كما أنى لا أخبرهم عن مدى أهمية ما أقوم به من عمل ، وأننى الشخص الوحيد الذى ينقذهم جميعاً من الموت العاجل ، ويبدو أن المسئول فى دولة ديمقراطية لابد وأن يمارس هذه الأمور . حسناً ! أنا لا أفعل ، ولكن لا بد من التفكير فى وسيلة ما وإلا لقضوا على الإدارة بأسرها » .

وراودته فكرة ، لو كان بيكربو هنا لاستطاع أن يسحق — أو أن يخمد بطريقة ودية — المعارضة ، وتذكر كلمات بيكربو أثناء الوداع حين قال : « والآن

يابنى وإن كنت بعيداً عنك فى واشنطن فسوف يظل هذا العمل قريباً من قلبى كعهدى به دائماً ، وإذا ماشعرت يوماً بحاجتك الملحة إلىّ ، ما عليك إلا أن ترسل لى ، وسوف أترك كل شىء وأجىء إليك » .

وكتب مارتن يشير إلى أن الوقف فى أشد الحاجة إليه .

وجاء رد بيبكربو برجوع البريد — يالبيبكربو من رجل نبيل ! أما الرد فقد كان « لا أستطيع أن أعبر لك عن مدى حزنى لأنه لا يمكننى مغادرة واشنطن فى الوقت الراهن ، ولكنى على يقين من أنك فى حماسك تبالغ من قوة المعارضة ، اكتب لى بصراحة فى أى وقت » .

وقال مارتن للورا : « هذا هو آخر سهم فى جعبتى ، لقد انتهيت ، ولسوف يصوب بحوى المعمدة بيو نيرانه بمجرد عودته من رحلة الصيد التى يقوم بها ، لقد فشلت ثانية يا حبيبتى » .

فقالت لورا : « إنك لست بفاشل ، ولابد أن تتناول بعض شرائح هذا اللحم المشوى ، وماذا نفعل الآن . . . لقد حان الوقت على أية حال لأن ننتقل من هذا المكان ، فأنا لا أطيق البقاء فى مكان واحد » .

« لا أدرى ماذا نفعل ، ربما أستطيع أن أحصل على عمل فى هوتريكز ، أو أن أعود إلى داكوتا وأحاول أن أفتح عيادة خاصة بى ، وما أبغيه هو أن أصبح مزارعاً وأشترى بندقية كبيرة وأطرد من هذا المكان كل مواطن متحمس ، ولكن سأبقى فى الوقت الراهن فى هذا المكان ، فقد أنتصر بوقوع معجزتين وبتدخل إلهى .

يا إلهى كم أنا متعب ، أتعودين معى إلى المعمل هذا المساء ، صدقاً ، سأغادر المعمل فى وقت مبكر ، ربما قبل الساعة الحادية عشرة» .

وأتم بحثه عن « ستريتوليسين » واستأذن يوماً ليذهب إلى شيكاغو ويبحث

الأمر مع رئيس تحرير « صحيفة الأمراض المدنية » ، وغادر نوتيلوس فأحس بالاضطراب ، لقد خدع نفسه وهو يبتهج بتحرره من هويتسلفانيا وارتباطه بنوتيلوس العظيمة ، وعاد الزمن إلى الوراء وتوقف التقدم وحيره ما يحس به من تفاهة .

وأشاد رئيس التحرير ببحثه ولم يقترح إلا تغييراً واحداً ، واضطر مارتن أن ينتظر حتى يحين موعد القطار وتذكر أن انجوس ديور يعمل فى عيادة رونسفيلد بشيكاغو ، وهى هيئة خاصة تضم بعض الاخصائيين الذين يتقاسمون النفقات والأرباح .

وكانت العيادة تشغل أربعة عشر غرفة فى مبنى مكون من عشرين طابقاً مشيدا (أو هكذا تذكره مارتن) من الرخام والذهب والياقوت ، وكانت غرفة استقبال العيادة التى أقيمت بها مدفأة ضخمة من الحجر أشبه بغرفة استقبال فى بيت أحد أثرياء البترول ، لكنها لم تكن مكاناً للمتعة ، وطلبت الفتاة عند الباب عنوان مارتن وأعراض مرضه ، وسرعان ما تنقلت الورقة المزركشة تحمل اسمه إلى الممرضة التى أسرعت إلى المكاتب الداخلية ، وقبل أن يظهر أنجوس اضطر مارتن أن ينتظر ربع ساعة فى غرفة صغيرة أروع وأشد إثارة للدهشة من غرفة الاستقبال ، واستولت عليه الرهبة فى ذلك الوقت بدرجة أصبح يسمح معها لجراحى العيادة أن يجروا له أية عملية لأى مرض يتصورونه فى جسمه فى تلك اللحظة .

وكان انجوس ديور فى المدرسة الطبية وفى مستشفى زينيث العام على درجة كافية من الكفاءة ، أما اليوم فقد تضاعفت ثقته بنفسه عشر مرات ، وقابل مارتن بحفاوة ودعاه لاحتساء قدح من الشاى وبدا كما لو كان جاداً فى دعوته ، ولكن مارتن شعر وهو بجواره بأنه شاب ساذج أخرق .

وقربه انجوس منه عندما تساءل مفكراً : ايرفنج ووترز ؟ هل كان من زملاء دبجاماتى ؟ لست على يقين من أنى أتذكره ، أه ، أجل ... إنه واحد من أولئك المتطرفين الذين لا يصلحون لأية مهنة .

ومرد مارتن صراعه فى نوتيلوس فقال له انجوس : « من الأفضل أن تنضم إلينا هنا فى راونسفيلد كخبير لعلم الأمراض ، ذلك لأن من يشغل هذه الوظيفة سيغادرنا فى غضون أسابيع قليلة ، وإنك لقادر على القيام بهذا العمل خير قيام ، وأظنك تحصل الآن على ثلاثة آلاف وخمسمائة دولار سنوياً ؟ حسناً ! أعتقد أنني أستطيع أن أحصل لك على أربعة آلاف وخمسمائة سنوياً كمبدأ ، وسوف تصبح ذات يوم عضواً من أعضاء العيادة وتشترك فى جميع أرباحها ، فإذا راق لك أخبرنى لأن راونسفيلد طلب إلى أن أبحث عن شخص يشغل هذا المنصب » .

واعتماداً على هذا المصدر وإحساساً بالحب لانجوس عاد مارتن إلى نوتيلوس وشن حرباً سافرة ، ولما عاد العمدة بيو لم يعزل مارتن من منصبه بل عين فوقه مديراً يدعى الدكتور بيسكس ، وكان صديقاً للدكتور بيكربو ومدرباً لكرة القدم ومديراً للصحة فى كلية موجفورد .

وأول ما قام به الدكتور بيسكس أنه أعفى الدكتور روفوس أوكفورد من منصبه فى خمس دقائق ، ومضى ليلقى خطاباً فى اجتماع جمعية الشبان المسيحيين ثم عاد بسرعة وطلب من مارتن تقديم استقالته .

فقال مارتن : « كنت أود ذلك ، فهيا يابيسكس وكن أميناً ، فإن أردت طردى فافعل ، ولكن دعنا نكشف الحقيقة بصراحة ، إننى لن أستقيل ، وإذا ما أقلتنى فسوف أرفع الأمر إلى القضاء ، وربما أستطيع أن أسلط عليك وعلى سيادة العمدة وعلى فرانك جوردن من الضوء ما يكفى لأن يمنعك من طرد جميع العاملين هنا

فقال بيسكيس بأسلوب من اعتاد الحديث مع الطلبة العقدين وفرق كرة القدم الخاملة : « يا له من أسلوب تتحدث به يا دكتور ! إننى لن أعفيك من منصبك وامكث معنا كما تشاء ، وكل ما سأفعله هو أن أخفض مرتبك إلى ثمانمائة دولار فى السنة لا لسبب إلا الاقتصاد »

فقال مارتن « ليكن كذلك ، اخفض وعليك اللعنة »

وكان لوقع اللفظ روعة وأصالة عندما نطق به ولـكن الأمر بدا أسوأ من ذلك عندما اكتشف ومعه لورا أنهما لا يستطيعان الحياة مهما اقتصدا بأقل من ألف دولار فى العام بعد القيمة الإيجارية التى حددها صاحب المنزل والآن وقد أعفى من المسئولية بدأ فى تشكيل جماعته الخاصة من أجل انقاذ الإدارة ، فجمع الحاخام روبين والأب لوستيلو وأوكفورد الذى كان شيمكث فى المدينة ويفتح عيادة خاصة ، وسكرتير مجلس العمل — وهو أحد رجال البنوك الذى كان يعتبر ترجولد عنيفاً ومخادعاً — وطبيب الأسنان الرائع الذى يعمل فى العيادة المدرسية

وقال للورا غاضباً : «إننى أستطيع القيام بإجراء معين مع وقوف مثل هذه الجماعة ورائى وسوف أتمسك بموقفى ولن أسمح بأن تتحول إدارة الصحة العامة إلى جمعية للشبان المسيحيين ، إن لبيسكس مرونة بيكربو لـكنه يفتقر إلى إخلاصه وحماسه، ولذا فإنى قادر على أن أحيق به الهزيمة ! وليست لى القدرة الـكبيرة على التنفيذ ولـكنى بدأت أتصور إدارة للصحة العامة ، وسوف تـكون راسخة غير مزعزعة الإدارة التى يمكنها إنقاذ الأطفال ومنع الأوبئة ، إننى لن أستسلم وعليك مراقبتى .»

وقامت لجنته باتصالات مع النادى التجارى ولفترة كانوا على يقين من أن كبير مراسلى صحيفة فرونتيرزمان ينوى تأييدهم « بمجرد أن يتمكن من تبديد خوف رئيس التحرير من الشعب » ، ولـكن ما تعرض له مارتن من أمور مخجلة أضعف روحه فى القتال إذ لم يكن لديه من المال ما يكفى لتسديد ديونه ، ولم يـكن يألف مراوغة البقالين الغاضبين وتلقى رسائل الدائنين والوقوف عند الباب يناقش بوقاحة محصلى الديون ، ومن كان يعتبر منذ أيام قليلة واحداً من علية القوم فى المدينة كان عليه أن يتحمل القول ، « هيا الآن ، ادفع ماعليك أيها المفلس وإلا أحضرت لك شرطياً !» وعندما تطور الخجل إلى رعب أخفض الدكتور بيسكس مرتبه فجأة مائتى دولار آخرى .

واندفع مارتن إلى مكتب العمدة لوضع حـــــد لهذا الأمر فوجد ف . اكس جوردن جالساً مع بيو ، وكان واضحاً أنهما على علم بالتخفيض الثانى ويعتبرانه نـكتة رائعة .

ودعا لجنته إلى الانعقاد ثانية وقال غاضباً : « سوف أرفع الأمر إلى القضاء ؟ »

فقال الأب كاستيلو « حسناً تفعل » وأضاف الحاخام روفين : « أن جنكيز ذلك المحامى المتحرر ، سوف يترافع عن قضيتك بالمجان ».

أما رجل البنوك الحكيم فقال « ليس لديك ما تتقدم به إلى المحاكم إلا إذا طردوك من منصبك دون مبرر ، فمن حق بيسيكس الشرعى أن يخفض مرتبك كما يروق له ، فلا تحدد قوانين المدينة مرتب أحد سوى المدير والمفتش « وليس لديك ما تطالب به »

واحتج مارتن فى حـــــزن بالغ قائلا : « وافترض أنه ليس لى ما أقوله إذا ما دمروا الإدارة ! »

« لا شىء إذا لم تهتم المدينة ».

« حسناً ، أن الأمر يهمنى وسوف أموت جوعاً قبل أن أستقيل ! »

فقال رجل البنوك : « سوف تموت جوعاً إن لم تشتغل ، وستموت معك زوجتك ، وهاك خطتى ، عليك أن تفتح عيادة خاصة ، وأتعهد بإعداد مكتب لك وما يتطلبه ذلك العمل من أمور أخرى — وعندما يحين الوقت ربما بعد خمس أو عشر سنوات من الآن سوف نتحد معاً ونعمل على تعيينك مديراً دائماً ».

فقال مارتن : « اتريدنى أن أنتظر فى نوتيلوس عشر سنوات ؟ هراء . لقد هزمت ، إننى فاشل تماماً وأنا لم أتجاوز الثانية والثلاثين من عمرى ، سوف أستقيل وأهيم على وجهى .

وقالت لورا : « أعتقد أننى سأحب شيكاغو »

— ٤ —

وكتب إلى أنجوس ديور ، وعين خبيراً لعلم الأمراض فى عيادة راونسفيلد ، ولكن أنجوس كتب يقول : إنهم لا يستطيعون الحكم على نشاطه حتى يدفعون له ٤٥٠٠ دولار سنوياً ولكن يسعدهم أن يدفعوا ٢٥٠٠ ».

ووافق مارتن .

— ٥ —

وعندما أعلنت صحف نوتيلوس أن مارتن قد استقال ضحك المواطنون الصالحون في سخرية وقالوا . استقال ؟ لا بد أنه طرد ، هذا هو ما حدث » ، ونشرت إحدى الصحف نقداً بريئاً جاء فيه :

« ربما لا مفر من أن يكون فينا قدراً معيناً من الرياء، نحن البشر ذوو الطبيعة الفاسدة ، ولكن عندما يحاول مسئول أن يظهر بمظهر القديس بينما هو منغمس في كل أنواع الشرور ويحاول تغطية جهله البالغ وعجزه بالخدع السياسية وأن يظهر نفسه بمظهر القداسة يوم القيام بالخدع السياسية على الوجه الأكمل فإن أشرنا نحن الأوغاد العتاة تبدأ المطالبة بفصله ».

ومن واشنطن كتب بيكربو إلى مارتن يقول :

« يؤسفني غاية الأسف أنك استقلت من منصبك ، ولا أستطيع أن أعبر لك عن خيبة أملي بعد ما عانيت من ألم في سبيل تعيينك في هذا المنصب وتلقينك مثلي، لقد أبلغني بيسيكس أنه بسبب الأزمة في شئون المدينة المالية اضطر إلى تخفيض مرتبك مؤقتاً ، أما أنا شخصياً فإني أفضل أن أعمل لإدارة الصحة العامة بلا مقابل وأكسب قوتي بالعمل حارساً بالليل عن التخلي عن النضال في سبيل كل ما هو بناء وإنساني ، كم أنا آسف ، لقد كنت أحبك حباً بالغاً ، ولكن ارتدادك — وهو العودة إلى ممارسة العمل الخاص من أجل الكسب المادي لا غير — وتخليك عن منصبك من أجل ما افترض بأنه ربح كبير هو إحدى الصدمات الكبرى التي تعرضت لها أخيراً . »

وأخذ مارتن يفكر بصوت مرتفع وهما في القطار في طريقهما إلى شيكاغو :

« لم أكن أتصور أنني سأتعرض لمثل هذه الهزيمة الساحقة ، ولن أرغب يوماً في أن أرى ثانية معملاً أو إدارة للصحة العامة ، لقد فشلت في كل شيء ماعدا جمع المال . »

« وأعتقد أن عيادة راونسفيلد هذه ليست سوى شرك خداع موشى بالذهب لإرهاب أصحاب الملايين المساكين ودفعهم إلى عرض أنفسهم لجميع أنواع الفحص والعلاج التي يتصورها العقل ، وأملى أن يكون الأمر كذلك فإننى أتوقع أن أكون طبيباً فى هيئة تجارية بقية أيام حياتى » وليتنى أستطيع ذلك ! .

« إن جميع الرجال الحكماء لصوص وقطاع طرق ، فهم مخلصون لأصدقائهم ، لكنهم يحتقرون البقية ، ولم لا ، فلو لم يكونوا قطاع طرق لاحتقرهم جمهور الشعب .

« ولقد أدرك أنجوس ديور هذه الحقيقة منذ البداية ، منذ أن كان فى المدرسة الطبية ، وقد يكون جراحاً بلغ مرحلة الكمال لكنه يدرك أنك لا تحصل إلا على ما يقع فى قبضتك . فكرى فى السنين الطويلة التى قضيتها أتعلم ما كان يعرفه دائماً ! »

« أتدرين ماذا سأفعل ؟ سوف أظل فى عيادة راونسفيلد حتى يصبح ما أتقاضاه سنوياً ثلاثين ألفا ، ثم أجىء باوكفورد وابدأ عيادة خاصة أكون فيها الطبيب القيم ورئيس العمل بأسره وأجمع كل ما أستطيعه من مال » .

« حسناً ! وإذا كان مايريده الناس هو القليل من الشفاء والكثير من الدعاية فسوف يكون لهم ما يريدون ويدفعون الثمن .

« ولم أعتقد قط أننى أستطيع أن أكون بهذه الدرجة من الفشل وهو أن أصبح تجارياً ولا أرغب أن أكون أى شىء آخر ، وصدقينى أننى لا أريد كون شيئاً آخر ! هذ هو قرارى الأخير » .

الفصل الخامس والعشرون

ظل مارتن بعد ذلك عاماً كاملاً ظال فيه نهاره عن ليله الساهد يعمل ميكانيكياً مخلصاً فى ذلك المصنع الطبى الذى يسمى بعيادة راونسفيلد. والذى لا مثيل له فى المهارة والنظافة والواقعية ولم يكن لديه ما يشكو منه .وربما كانت العيادة تقوم بإجراء الفحص بأشعة رونتجن على النساء غير المستقرات اجتماعياً اللائى فى حاجة إلى أطفال وإلى تنظيف البلاط أكثر من حاجتهن إلى أشعة إكس الجميلة ، وربما كن ينظرن إلى أمراض اللوز نظرة دموية قاتمة ، ولكن من المؤكد أنه ما من عيادة أخرى يمكن أن تفوق هذه العيادة من حيث الإعداد وزيادة النفقات المرضية وإجراء العمليات السريعة لهذا العدد الضخم من الناس ، وكان مارتن أروسميث الذى أظهر تعالياً تجاه بيكربو ودكتور وتتزر يكن لراونسفيلد وأنجوس ديور وغيرهما من الإخصائيين الحاذقين فى العيادة الاحترام الذى يصدر عن رقيق الحال غير الواثقين نحو الأغنياء والحاذقين .

فلقد أعجب بثبات هدف أنجوس ورسوخ عادته . وكان أنجوس يتلقى درساً فى السباحة أو المبارزة يومياً ، فأتقن السباحة بسهولة ، وبارز كما لو كان شيطاناً رابط الجأش ، وكان يأوى إلى الفراش قبل الحادية عشرة والنصف ، ولم يكن يحتسى الخمر أكثر من مرة واحدة فى اليوم كما لم يقرأ شيئاً أو يقل شيئاً لم يكن يساعده على تقدمه كجراح شاب نابه ، وأدرك مرءوسوه أن دكتور ديور يصل دائماً فى ميعاده تماماً مرتدياً ثيابه بأناقة تامة وفى رزانة ، كما تبين لهم أنه هادىء النفس يرهب أية ممرضة تخطىء أو تبحث عن ابتسامة .

وكان مارتن يوافق بلا وجل على أن يقوم الماهرون المتحمسون فى العيادة باستئصال اللوز كما كان يتنازل لأنجوس عن أية جراحة فى البطن أو إلى راونسفيلد

عن أية عملية جراحية فى الرأس أو الرقبة بشرط أن يكون واثقاً من ضرورة العملية ، ولكنه لم يرتفع مطلقاً إلى مستوى اعتقاد العيادة فى أن أى جزء من الجسم الذى بدونه لا يمكن للناس الحياة يمكن استئصاله على الفور .

والعيب الحقيقى فى السنة التى قضاها فى شيكاغو أنه طيلة عمله اليومى لم يكن يشعر أنه على قيد الحياة فبيديه السريعتين وبعشر عقله أحصى كرات الدم وحلل البول وأجرى تحليلات للدم بطريقة وازرمان واختبر الأعصاب والعظام ، وأحس فى تلك الفترة أنه كان ميتاً وموضوعاً فى صندوق ملفوف بقماش أبيض ، وكان وسط صيحات بيكربو ونظرات أهالى هويتسيلفانيا يعيش ويقاوم بيئته ، أما الآن فلم يجد شيئاً يقاومه .

وبعد ساعات كاد يحس بالحياة إذ أنه اكتشف هو ولورا عالم المكتبات والمطابع والملاهى والمراقص فراحا يقرآن الروايات والتاريخ والأسفار ويتحدثان أثناء حفلات الغذاء التى كان يقيمها راونسفيلد أو أنجوس — إلى الصحفيين والمهندسين ورجال المال والتجار ، كما شاهدا مسرحية روسية وسمعا ميشا ايلمان وقرأ الزابيلى الذى كان يؤثره جوتليب ، وتعلم مارتن أن يغازل مغازلة ليست فيها صفات الطفولة وذهبت لورا لأول مرة إلى الحلاق والمانكير ، وبدأت دروسها فى الفرنسية ، ولقبت مارتن بمن « يتصيد الكذب » « وبالباحث عن الحق » ولقد قررا الآن — بعد التحدث فى الأمر فى مسكنهما الصغير الذى يتكون من غرفتين وربع الغرفة — أن معظم الناس الذين أطلقوا على أنفسهم « الباحثون عن الحق » — وهم أشخاص همهم الثرثرة عن الحق كما لو كان الحق شيئاً ملموساً له وجود مستقل مثل المنازل أو الملح أو الخبز — لم يرغبوا فى اكتشاف الحقيقة قدر رغبتهم فى علاج شراهتهم العقلية ، ففى القصص تساءل هؤلاء الباحثون عن الحق ، عن « سر الحياة » فى المعامل التى يبدو أنها ليست مزودة بموقد بنزين أو بأجهزة لاختبار الأجسام ، أو ذهبوا بعد نفقات طائلة وعناء جم من الأقطار الحارة والثعابين الضارة — إلى معابد الهملايا ليتعلموا من الحكماء غير المنزهين عن الخطأ أن

العقل يمكن أن يقوم بجميع الأمور الشاقة إذا ما قضى الفرد ثلاثين أو أربعين سنة يأكل الأرز وينظر إلى سرته .

وكانت استجابة مارتن لهذه الأمور السامية هو قوله « هراء ! » وأصر على أنه لا يوجد « حق » واحد بل هناك « عدة حقائق » ، وأن الحق ليس بطائر ملون يتصيده الإنسان من بين الصخور ويمسك من ذيله بل هو نظرة شك إلى الحياة ، وأصر على أنه ما من أحد يمكنه أن ينتظر — سواء بالعناد أم بالحظ — شيئاً أكثر من نوع العمل الذى يستمتع به أو يجد القدرة على الإلمام بحقائقه التى تفوق قدرة الرجل العادى الذى يمارس هذا العمل فعلا .

ولم تقنعه فلسفته الآلية على أنه قد أحرز تقدماً كما ينبغى ، فلما حاول أن يقارن نفسه بالخبراء الذين فى العيادة أو بأصدقائهم المحترفين شعر بقلق أكثر مما تعرض له بسبب سخرية دكتور هسلنك من جرونينجن اللاذعة . وأثناء تناول طعام الغذاء فى العيادة التقى بجراحين من لندن ونيويورك وبوستن ورجال يمتلكون سيارات ولهم مراكز اجتماعية ، وشاهد الرشاقة المزعجة للرجل ذى الارتباطات العديدة والهدوء الأشد إزعاجاً من جانب الشخص الذى يتسلى بمن هم دونه فى المرتبة ، والتقى بالفنيين المهرة وقراء البحوث فى المؤتمرات الطبية وبالمسئولين والمديرين الذين لا يخشون العمل أمام مائة طبيب ينظر إليهم أو أن يصدروا أوامر مهذبة جداً ونهائية إلى أتباعهم ، وتقابل مع قادة الطب الذين لا يشكون فى قدرتهم أبداً ، ورجال الدين العظام ، ومن يؤمنون بالشفاء الإلهى ، ورجال ناجحين عقلاء حذرين يتسمون بالإخلاص الواضح .

وفى اجتماعاتهم المبجلة بدأ ماكس جوتليب مسنا كثير الانهماك ، وجوستاف سوندليوس دجالا ، ومدينة نوتيلوص غير جديرة بحرب عاطفية ، ولما أثر أدبهم الجم على مارتن شعر بأنه أشبه بخادم .

وفى خلال ساعات طويلة من الصراحة الفائقة والصفاء بحث مارتن مع لورا السؤال

التالى : « من هو مارتن أروسميث هذا وإلى أين ذاهب ؟ » . واعترف بأن منظر الجراحين العظام كان يزعزع اعتقاده القديم بأنه كان رجلا متقدماً إلى حد ما ، أما لورا فهى التى واسته بقولها : « لقد وجدت وصفاً جميلا لجراحيك العظام اللاعين ، فأنت تعرف مدى أهميتهم وأدبهم ، إنهم يبتسمون بتكلف ، حسناً ، ألا تتذكر أنك ذكرت مرة بأن الأستاذ جوتليب قد وصف أمثال هؤلاء القوم « بأناس مرحهم بعيار » .

والتقط مارتن هذه العبارة وراحا يغنيانها معاً ، وجعلا منها أغنية شيطانية لاذعـــة :

« أناس مرحهم بعيار » « أناس مرحهم بعيار » ، لعنـة الله على كبار المسئولين ، الرجال ذوى المرح المقيس ، لعنة الله على ذوى الابتسامات المتكلفة ، لعنة الله على الذين يديرون الحوانيت ، كما هو ملعون مرحهم المقيس ، الرجال ذوى المرح المقيس ، آه ملعون مرحهم المقيس وملعونة ابتساماتهم المتكلفة ! » .

— ٢ —

بينما كان مارتن يتطور فى طريق شاق من سن الصبا فى هويتسلفانيا إلى رجل ناضج ، كانت علاقته بلورا تتطور من مجرد علاقة طائشة بين فتى وفتاة مخلصين لبعضهما إلى ارتباط وطيد ، وكان كلاهما يفهم الآخر كما يفهم ذلك فقط الرجال المتزوجون ، وقليلون هم الرجال المتزوجون المتفاهمون ، ورغم كل اختلافاتهما كانا جزءان لشكل لا يمكن فصلهما مثل العين واليد ، وليس يعنى ذلك أنهما عاشا دائماً فى نعيم ، ولأنه كان هكذا مغرماً بها وواثقاً منها ولأن الغضب والإساءات الطائشة ما هى إلا أساليب للتعبير عن الثقة ، كان مارتن يتضايق منها ويتشاجر معها حيث أنه كان لا يطيق الحياة مع أية امرأة أخرى حتى مع أوركيد الفاتنة .

فكان من حين لآخر يمشى مختالا بعد وقوع شجار معها دون أن يعبأ بالرد عليها . وكان يتركها ساعات بمفردها مستمتعاً بإدراكه أنه قد أساء إليها ، وأنها

كانت وحيدة تنتظر وربما كانت تنتظر وهى تبكى ، ولأنه أحبها ومتيم بها كان يشعر بالضيق عندما تكون أقل أناقة ولطفاً من النساء اللواتى كان يقابلهن عند انجوس ديور.

وكانت السيدة راونسفيلد تسير كالبطة السنة وبجانبها لورا المشرقة الجميلة ، أما السيدة ديور فكانت تفوح منها رائحة العنبر ، كما كانت بيضاء كالثلج ، فهى شابة ثرية ترتدى ثياباً فاخرة وتتحدث بطريقة مهذبة فيها نغمة السخرية ، كما كانت طموحة لا يكدر صفوها الرغبة فى امتلاك قلب أو عقل ، لقد كانت فى الحقيقة ما كانت تعتقد السيدة ارفنج ووتزن أنها عليه .

وفى مجتمع نوتيلوس البسيط اللطيف كانت السيدة تردجولد تداعب لورا وتضحك عليها إذا كان حذاؤها بلا ازيم أو إذا أخطأت فى الكلام ، أما السيدة ديور بجمالها الذهبى فقد اعتادت أن تسخر من الإهمال بتهكمات مهذبة لا تثير الاستياء .

وأثناء عودتهما بسيارة الأجرة من منزل ديور قال مارتن غاضباً : « ألا تتعلمين شيئاً ؟ لقد حدث فى نوتيلوس مرة ونحن فى طريق زراعى أننا وقفنا ورحنا نتحدث حتى — آه لعنة الله على هذا — حتى قرب الفجر ، وتعهدت أن تكونى نشيطة وها نحن الليلة بنفس الحالة ، ياإلهى الرحيم ألا تهتمين حتى بملاحظة بقعة السناج التى فوق أنفك هذا المساء ؟ لقد لاحظتها السيدة ديور جيداً ، فلماذا أنت هكذا مهملة ؟ لماذا لا تغتسلين قليلا ؟ ولماذا لا تحاولين قدر المستطاع أن تقولى شيئاً ؟ إنك فقط تجلسين هناك للغذاء — إنك تجلسين فقط تبدو عليك علامات الصحة ألا تبغين مساعدتى ؟ ربما تساعد السيدة ديور زوجها أنجوس ليصبح رئيساً للهيئة الطبية الأمريكية فى غضون عشرين عاما ، وأظنك فى هذه الأثناء سوف تعيديننى مساعدا لمسلينك فى داكوتا ! » .

وكانت لورا مستكينة بجانبه فى طرف السيارة الأجرة على غير العادة لكنها انتصبت فى جلستها ، وعندما نطقت تتحدث كانت قد فقدت استقلالها الذى تنظر به دائما إلى الحياة .

«أنى آسفة جداً ياعزيزى ، لقد خرجت بعد ظهر اليوم ، لقد خرجت لعمل تدليك للوجه من أجلك ، ثم علمت أنك تحب الحديث ، ولذا أحضرت كتابى الصغير عن الرسم الحديث الذى اشتريته وذاكرته جيداً ، ولكن لم يتيسر لى هذه الليلة أن أثير الحديث حول الرسم الحديث. . . . . . . »

وكان يتنهد ورأسها على كتفه : « أيها المسكين الصغير الوجل إنك تحاول أن تكون كبيراً مع هؤلاء الذين يسعون وراء الدولار . »

— ٣ —

وكان مارتن مبهوراً بادىء الأمر ببلاط أرضية عيادة راونسفيلد الناصع البياض ونشاطها الدائم ، ولما استرد أنفاسه أراد أن يكمل بعض الأمور الناقصة فى بحثه عن الاستربتوليسين .

وما إن اكتشف أنجوس ديور ذلك حتى لمح قائلا « أنظر هنا يامارتن ، إننى مسرور لاستمرارك فى البحث فى ميدان العلوم ، ولكن لو كنت مكانك لما أضعت — كما أعتقد — نشاطاً كبيراً على حب الاستطلاع فقط ، لقد كان دكتور راونسفيلد أمس يتحدث عن هذا الأمر ،ويسرنا أنك تقوم بالابحاث التى تريدها بشرط أن تكون الأبحاث متعلقة بشىء عملى ، فعلى سبيل المثال ، لو أنك تمكنت من أن تضع جدولا تحصى فيه كرات الدم فى مائتى حالة من حالات الزائدة الدودية وقمت بنشرها فى بحث له قيمته . وبطريقة ما يمكنك أن تذكر العيادة، فيرجع إلينا جميعاً شىء من الفضل فى هذه الحالة قد نتمكن من أن نرفع مرتبك إلى ثلاثة آلاف فى السنة » .

وكان تأثير هذا الشىء هو إخماد رغبة مارتن فى القيام بأى بحث مهما كان نوعه .

«أنجوس على حق ، وإن ما يعنيه هو أننى كعالم قد انتهيت ، وهذا ماحدث لى ، وقد أحاول ثانية أن ابتكر شيئاً » .

وفى ذلك الحين — وكان مارتن قد قضى عاما كاملا فى العيادة — كان بحثه

عن الاستربتوليسين قد نشر فى « جريدة الأمراض المعدية » فأعطى نسخاً من البحث إلى راونسفيلد وأنجوس فقالا كلاماً جميلا دل على أنهما لم يقرءا البحث وللمرة الثانية اقترحا عليه القيام بجدول ترتيب كرات الدم ، كما بعث بنسخة إلى ماكس جوتليب فى معهد ماك جورك لعلم الأحياء .

فكتب إليه جوتليب كتابا بخط أسود أشبه بنسيج العنكبوت جاء فيه :

عزيزى مارتن .

لقد قرأت بحثك ببالغ السرور ، إن المنحنيات التى تبرهن على علاقة إنتاج الهيموليسين بعمر مزرعة البكتريا مفيدة للغاية ، ولقد تحدثت عنك إلى توبس فمتى تجىء إلينا — إلى ؟ أن معملك وصيدليتك ينتظرانك هنا . إن آخر ما أرغب فيه هو التقشف ، لكنى أشعر ، عندما أرى عنوانك الجميل و « عيادة راونسفيلد » منقوشاً فوق الخطاب ، بأنك قد مللت محاولتك فى أن تكون مواطنا صالحا وأنك مستعد للعودة إلى العمل ، وسوف يسرنا ويسر دكتور توبس إذا استطعت الحضور .

المخلص

م . جوتليب

فقالت لورا « إننى لا أذهب إلا لأتعبد لنيويورك »

الفصل السادس والعشرون

مبنى ماكجورك عبارة عن حائط عمودى مكون من ثلاثين طابقا بلا نوافذ ، شيد من الزجاج والحجر الجيرى ، وأقيم فوق رقعة صغيرة مثلثة الشكل منها تتحكم نيويورك فى ربع العالم .

ولم يدهش مارتن عندما ألقى أول نظره على نيويورك ، فبعد عام قضاه فى صخب شيكاغو بدت الحياة فى مانهاتان تسير على مهل ، بيد أنه عندما رأى من الخط الحديدى المرتفع فوق سطح الأرض «برج وولورث» شعر بغبطة عارمة ، ولم يكن لفن المعمار فى نظره وجود . كانت العمارات ماهى إلا مبان صغيرة أو كبيرة تضم بعض الأشياء التى تثير الاهتمام ، وكان تعليقه السطحى عن فن العمارة هو : « هناك بيت أرضى خاوى ، إنه لمكان جميل للسكنى» . أما الآن فقد أخذ يقول فى تأمل : « بودى أن أشاهد هذا البرج كل يوم — وأرى السحب والعواصف وكل شىء من خلفه — إنه شىء يبعث فى النفس الرضا » .

وسار فى شارع سيدار بين عربات النقل التى تسير بسرعة البرق تحمل سلعا من جميع أنحاء العالم ، وجاء إلى أبواب مبنى ماكجورك البرونزية ثم إلى دهليز من التراكوتا[1] اللون الغريب رسمت فوق جدرانه صور الجنود من جبال الأندير وقراصنة يندفعون نحو ساحل أمريكا الجنوبية والبحر الكاريبى وقطارات محملة بالذهب يقوم عليها الحراس وجدران قرطاجنة الشامخة ، وفى شارع سيدار فى نهاية الممر — وهو شارع خاص بمبنى واحد طويل — يوجد بنك الأندير والأتيلس (الذى يتولى روس ماكجورك رئاسة مجلس إداراته) حيث جلس المصدرون الأمريكيون ذوو الرءوس الحمراء فى محرابهم المغطى بقشرة من الذهب ينهون

(١) الطين النضيج

عملياتهم التجارية بينما راح الكتبة يغلظون القول بالأسبانية إلى النساء البدينات وفى نهاية شارع الحرية علقت لافتة كتب عليها : « مكاتب المسافرين ، شركة ماكجورك ، رحلات أسبوعية إلى جزر الهند الغربية وأمريكا الجنوبية ».

وانتقل مارتن الذى ولد بين المروج وعاش بالقرب من حقول الذرة إلى البلاد الصاخبة والمشروعات الهائلة .

وفوق باب مصعد من صف المصاعد ذى القضبان البرونزية كتبت عبارة « السريع إلى معهد ماكجورك » ، ودخل المصعد فى كبرياء وهو يحس فعلا بأنه أصبح جزءا من المجتمع الراقى ، وسرعان ما صعد فألقى نظرات خاطفة على الأبواب الزجاجية التى تحمل لافتات شركات التعدين وشركات الأخشاب وشركات سكك حديد أمريكا الوسطى .

وربما يعتبر معهد ماكجورك الهيئة الوحيدة للبحث العلمى فى العالم التى تشغل مبنى خصص للمكاتب ، إذ أنها تشغل الطابقين التاسع والعشرين والثلاثين من مبنى ماكجورك ، كما أن السطح مخصص لبيت حيوانات المعهد ، وبه طرقات غطيت بالبلاط يهيم فيها العلماء الغارقون فى التفكير (فوق عالم من كتبة الإختزال والحسابات وسادة يرغبون فى بيع قمصان جيدة الصنع إلى نبلاء الأرجنتين السعداء وهم يحلمون بعملية الانتشار الغشائى فى طحلب الاسبيرجيرا) .

ولاحظ مارتن أن حجرة استقبال المعهد التى تضم عدداً من الكراسى من طراز شيبندال أصغر من حجرة استقبال عيادة راونسفيلد ، ولكنه لم يكن يحس بالغرفة ولا بالفتاة المساعدة اليقظة ولا بأى شىء ما عدا فكرة أنه موشك على أن يرى ماكس جوتليب لأول مرة منذ خمس سنوات .

وعند باب المعمل حلق فى تعطش .

وكان جوتليب نحيف الوجنتين أسمر اللون ذا أنف مدبب وعينين خارقتين ولكن الشيب كان قد كسى شعره ، وغارت شفتاه وكاد مارتن أن يبكى على ما بدا

له من ضعف عندما هم بالوقوف ، وتفرس فيه الرجل العجوز وهو يضع يده على كتف مارتن لـكنه لم يقل سوى :

« آه هذا شيء جميل ..... معملك فى ثالث غرفة فى هذه الردهة ..... ولـكنى اعترض على شيء واحد فى البحث الطيب الذى بعثت به إلى ، إنك تقول : « إن انتظام معدل اختفاء الاستربتوليسين يوحى بأنه قـد يمكن الوصول إلى معادلة أو قانون . . . . »

« ذلك ممكن يا سيدى »

« إذن لماذا لم تضع المعادلة ؟ »

حسناً — لست أدرى ، إننى لم أكن رياضيا بالقدر الـكافى . »

« إذن كان يجب ألا تنشر شيئاً قبل أن تلم بالعلوم الرياضية »

« أنا . . . . . . أصغ إلى يا دكتور جوتليب ، أتعتقد حقاً أن لدى من المعلومات ما يؤهلنى للعمل هنا ؟ إننى أتوق بشره إلى تحقيق النجاح »

« تنجح ؟ لقد سمعت تلك الـكلمة ، إنها لفظ انجليزى ؟ آه ، أجل إنها لفظ يستخدمه التلاميذ الصغار فى جامعة وينماك ، إنها تعنى اجتياز الامتحانات أما هنا فليست هنا لك امتحانات تجتازها . . . . . . دعنا نتحدث بصراحة يا مارتن ، إنك ملم ببعض المعلومات عن فن العمل ، كما سمعت عن تلك الجراثيم العضوية ، لـكنك لست بالـكيميائى البارع ، كما أن الرياضيات لعنة الله عليها — مرعبة للغاية بيد أنك محب للاستطلاع ، كما أنك قوى الإرادة ولا تقبل القواعد كحجة مسلم بها ، ومن ثم اعتقد أنك سوف تـكون عالما لا بارعاً جداً ولا سيئاً للغاية ولو أنك على درجة كافية من السوء لأصبحت مشهوراً بين الثريات من النساء اللاتى يحكمن مدينة نيويورك هذه ، كما يمكنك إلقاء المحاضرات من أجل كسب العيش أو أن تصبح عميداً لإحدى الـكليات إذا ما حزت الرضا ، وهكذا على أية حال سوف يكون العمل ممتعاً .

ولم تمض نصف ساعة حتى دار الجدل العنيف بينهما، فمارتن يؤكد بأنه يتحتم على العالم بأسره أن يكف عن الحرب والتجارة والكتابة ويتجه فورا إلى المعامل لملاحظة الظواهر الجديدة بينما أصر جوتليب على أن هناك فعلا أعدادا غفيرة من العلماء المطيعين ، وأن الشيء الضرورى الوحيد هو التحليل الرياضى لما قد لوحظ بالفعل من ظواهر .

وكان وقع الجدل على الأذن أشبه بمعركة ولكن مارتن كان فى ذلك الحين مغتبطاً ليقينه بأنه قد جاء إلى مكانه الطبيعى .

ولم يكن المعمل الذى تحدثا فيه (وأخذ جوتليب يسير فوق أرضيته وقد عقد ذراعيه الطويلين فى عظمة خلف ظهره النحيل بينما كان مارتن يقفز فوق الكراسى الخشبية ثم يهبط من فوقها) يثير أية دهشة ، إذ كانت به بالوعة ومقعد فوقه عدة حوامل لعدد معين من أنابيب الاختبار ومجهر ، وبضع مذكرات ورسوم بيانيه لأيونات الهيدروجين وصفوف قبيحة الشكل من الزجاجات المتصلة بأنابيب من الزجاج أو المطاط وضعت فوق منضده مطبخ عادية فى طرف الحجرة ، ومع هذا كان مارتن اثناء المعركة الكلامية ينظر من حين إلى آخر نظرة احترام وتقدير لما يحيط به .

وقطع جوتليب حديثهما بسؤاله : « أى عمل تريد القيام به هنا ؟ »

« لماذا يا سيدى . . . . . إننى أود مساعدتك لو استطعت إلى ذلك سبيلا وأظنك الآن تعمل على إماطة اللثام عن بعض الأمور المتصلة بتحضير الأجسام المضاده .»

« أجل أعتقد إننى سأتمكن من جعل المناعة فى متناول الجميع بموجب القانون العام ، ولكنك لن تساعدنى ، فسوف تقوم بعملك الخاص، وماذا تريد أن تفعل؟ هذه ليست عيادة يدخلها المرضى الأذكياء فى صف منتظم جميل ! »

« أريد أن أكتشف هيموليسين له مادة مضادة ، ليست هناك أية مادة مضادة للاستربتوليسين وأفضل العمل فى الاستافيلوليسين ،هل يضايقك ذلك ؟ »

« لايهمنى ماذا تفعل طالما لاتسرق مزارع البكتريا الخاصة بالميكروب المفقودى من صندوق الثلج ، وإذا ماظللت تبدو كل الوقت غامضاً حتى يعتقد الدكتور توبس ـ مديرنا ـ أنك تعمل على اكتشاف شىء خطير ، وهكذا أقترح عليك شيئاً واحداً وهو : عندما يعز عليك حل إحدى المشاكل فى مكتبى مجموعة من الروايات البوليسية . ولكن لا . . إياك وذلك إننى أداعبك ، فهل يجب أن أكون جاداً معك هذه المرة وقد أتيت لتوك ؟ »

« ربما أنا جرىء يا مارتن ، وهناك الكثيرون ممن يبغضوننى ، وهناك مؤامرات تحاك ضدى . . . . آه ، قد تعتقد أن هذا ضرب من الخيال ، لكنك سوف ترى كل شىء بنفسك ، إننى أرتكب أخطاء كثيرة ، لكن شيئاً واحداً أحافظ عليه دائماً نقيا إلا وهو : عقيدة العالم »

« ولكى تكون عالماً ـ إنها ليست مجرد مهنه تختلف عن غيرها حتى يتحتم على الإنسان أن يختار بين أن يكون عالماً أو مكتشفاً أو بائع سندات أو طبيباً أو ملكاً أو مزارعاً ، إنها متاهة من العواطف الغامضة جداً ، مثلها مثل التصرف أو الرغبة فى كتابة الشعر ، فهى تجعل ضحيتها مغايراً تماماً للإنسان العادى السوى ، الذى لايهتم كثيراً بما يفعل سوى أنه يجب أن يأكل وينام ويحب ، ولكن العالم رجل عميق التدين . . . . . إنه متدين بدرجة لايقبل معها أرباع الحقائق ، فذلك امتهان لعقيدته »

« إنه يرغب فى أن يخضع كل شىء لقوانين جامدة ، فهو يعارض الرأسماليين الذين يعتقدون أن الطريقة النبية التى يسلبون بها الأموال عبارة عن نظام من النظم ، ويعارض الأحرار الذين يعتقدون أن الانسان ليس حيواناً مقاتلا ، فالعالم يجمع بين العامل الامريكى والارستقراطى الأوربى ويتجاهل كل ما يبدر من ثرثرتهما ، بتجاهلهما جميعها. إنه يمقت الوعاظ الذين يسردون قصصهم الخيالية ، كما أنه لايشفق كثيراً على علماء الأجناس والمؤرخين الذين لا يجيئون إلا بالتخمينات ومع هذا يجرؤون على تسمية أنفسهم بالعلماء ! آه ، أجل ، العالم هو الرجل الذى

لابد أن يمقته — وهذا شىء طبيعى — جميع الناس الساذجين ! »

« وهو يسخر من الهازلين الذين يؤمنون بالاستشفاء بالعقيدة ، ومن المهرة فى علاج النخاع الشوكى ، قدر سخريته من الأطباء الذين يريدون اقتناص علومنا قبل أن يتم تجربتها ، ويندفعون بها وهم يأملون فى شفاء الناس ، ومن ثم يتلفون العلامات والدلالات تحت وقع أقدامهم ، وأما الذين يمقتهم أشد من الرجال أشباه الخنازير والحمقى الذين لم يسمعوا عن العلوم فهم العلماء الدجالون الذين يعتمدون على الحدس والتخمين أمثال المحللين النفسيين ، أما من يبغضهم أشد وأنكى من علماء الأحلام المضحكين فهم أولئك الرجال الذين سمح بوجودهم فى مملكة علم الأحياء مع أنهم لم يقرأوا إلا كتاباً واحداً، ويعرفون كيف يحاضرون البلهاء ويكتسبون شعبية ! إنه الثورى الحقيق الوحيد والعالم الحجة لأنه وحده يدرك مدى ضآلة ما يعرف .

« ومن سمات العالم أن يكون قاسيا بلا قلب ، إنه يعيش فى ضوء بارد واضح ، ولكنه أمر مضحك ، إذ فى الواقع تجده فى معاملاته الخاصة ليس قاسيا ولا بارد الطبع — إنه أقل برودا بكثير من المتفائلين المحترفين ، إن الذين يحكمون العالم دائماً هم محبو الإنسانية : الأطباء الذين يرغبون فى استخدام الوسائل العلاجية التى لا يفهمونها ، والجنود الذين يريدون شيئاً يحمون بلادهم منه ، والمبشرون الذين يتوقون بشدة إلى إقناع كل فرد لينصت إلى ما يقولون ، وأصحاب المصانع الرحماء الذين يحبون عمالهم ، والساسة الفصحاء والمؤلفون الرقيقو القلوب . . . وفكر ولو مرة فى الجحيم الذى خلقوه من هذا العالم ! ربما قد حان الوقت للعالم الذى يعمل ويبحث دون أن يجوب الآفاق معلنا عن مدى حبه لكل الناس ! .

« ولكن للمرة الثانية عليك أن تتذكر دائماً أنه ليس جميع المشتغلين بالعلوم هم علماء ، أن عدد العلماء قليل للغاية ، أما البقية منهم فسكرتاريون ومحققون وتابعون ، ولكى تكون عالماً أشبه بكونك جيته ، إنه فطرى فيك واعتقد — أحياناً — أن جزءاً يسيرا منه قد ولد فيك ، وإذا كان الأمر كذلك فعليك القيام

بشيء لا بل بشيئين هما : العمل ضعف استطاعتك وإبعاد الناس عن استغلالك . سوف أحاول حمايتك من التجاح ، هذا كلما أستطيع أن أقوم به وهكذا . . . أتمنى لك يامارتن سعادة بالغة فى العمل هنا ، ليباركك الله ! »

— ٢ —

وقضى خمس دقائق خاطفة يتأمل المعمل الذى سيخصص له ، إنه معمل صغير لكنه مزود بكل ما يلزم من معدات ، مناضد بالارتفاع المناسب وبالوعة ملائمة مزودة بصنابير للمياه تعمل بالقدم ، وعندما أغلق الباب وترك لروحه العنان لتنطلق وتملأ ذلك المكان الضيق بعبيره الخاص أحس أنه فى مأمن .

ولا يمكن لبيكربو أو روانسفيلد أن يقتحما هذا المكان ويجذبانه بعيداً عن عمله ليكون مفسراًومازحاً وشعبياً ، سوف يتفرغ للعمل بدلاً من أن يستدعى لحزم الطرود وإملاء الرسائل الطنانة التى يسميها الناس عملا .

وتطلع من النافذة الواسعة فوق منضدة المعمل ورأى أن أمامه برج وولورث الذى يعشقه الجميع ليتفرس فيه دائماً ، وحتى لو عزل نفسه فى متعة العمل الدقيق فلن ينفصل عن الحياة المتدفقة ، فمن ناحية الشمال لا يرى برج وولورث وحده بل « مبنى سنجر » وهو مبنى استثمار المدينة الذى يعد غاية فى الروعة ، ومن ناحية الغرب كانت السفن الضخمة تمخر عباب الماء ، والسفن البخارية تهدر وتضج كما كان العالم بأسره يمر أمام عينيه ، وكانت الشوارع أسفل قلعته تموج بالمارة ، وفجأة شعر بحب نحو الإنسانية كما أحب صفوف أنابيب الاختبار النظيفة الجميلة ، ومالبث أن صلى صلاة العالم :

« اللهم امنحنى عينين لا غشاوة فوقهما وأنقذنى من التسرع ، اللهم اجعلنى بطيء الغضب ضد كل رياء وكل عمل طابعه الرياء وكل عمل ناقص طابعه الإهمال ، وامنحنى اللهم القلق الذى يمكننى من عدم النوم وعدم قبول الاطراء إلا بعد أن تطابق نتائج تجاربى ما وضعته من تقديرات ، أو أن اكتشف خطأى فأصححه ، وامنحنى اللهم قوة حتى لا أتواكل ! » .

— ٣ —

وقطع الطريق حتى بلغ فندقهما المتواضع فى حى الثلاثينات وأخذت الجماهير تحملق فيه طول الطريق . . . فى هذا الشاب النحيل الضعيف المشرق المحيا ذى العينين السوداوين الذى اندفع وسطهم يسرع الخطى دون أن يرى شيئاً مع أنه يرى فى الخفاء كل شىء ، فهو يرى المبانى الشاهقة والشوارع القذرة ، وحركة المرور الدائبة ، والجنود المحظوظين ، والنساء الجميلات ، والحوانيت التافهة ، والجو العاصف ، وكانت قدماه تعدوان على نغم ، « لقد عثرت على عملى ، لقد عثرت على عملى ، لقد عثرت على عملى ! » .

وكانت لورا تنتظره ، وكان من حظ لورا أن تنتظره دائماً جالسة فوق كراسى متحركة بالية فى غرف تافهة ، ودلف إلى الغرفة فابتسمت ، وكانت قد زينت جسمها الحلو النحيل ، وقبل أن ينطق ببنت شفه صاحت قائلة :

« آه كم أنا سعيدة يا ساندى » .

وقاطعته وهو يسير بخطى واسعة فى الغرفة يكيل الثناء لما كس جوتليب ، ومعهد ما كجورك ، ونيويورك ، وسحر الاستافيلوليسين بالتساؤل فى دعة : « كم سيدفعون لك يا عزيزى ؟ » .

وتوقف محدثاً ضجة وقال : « يا إلهى ! لقد نسيت أن أسأل » .

« أوه ! » .

« والآن التفتى إلى ، ليست هذه عيادة راونسفيلد ، إننى أمقت هؤلاء الحمقى الذين لا هم لهم سوى جمع المال . . . » .

« أعرف ذلك يا ساندى ، صدقاً إننى لا أعبأ بذلك ، وكل ما فى الأمر هو أننى أفكر فى موضوع السكن الذى يمكننا استئجاره حتى أبدأ البحث عنه ، امض فى حديثك ؟ قال الدكتور جوتليب . . . » .

وبعد ذلك بثلاث ساعات ، أى فى الساعة الثامنة ذهبا لتناول العشاء .

— ٤ —

سوف تصبح مدينة السحر بالنسبة لمارتن لا هى مدينة ولا بها أى نوع من السحر ، ولكنها مجرد طريق ، إنها مسكنهما ، والطريق النفق ، والمعهد ، ومطعم مفضل رخيص ، وبضع شوارع بها أماكن للتجميل وغسل وكى الملابس ودور للهو . ولكن فى تلك الليلة اكتست المدينه بغلالة من العجب ، فتناولا طعام العشاء فى مطعم ريفورت الذى حدثهما عنه جوستاف سونديليوس . وكان ذلك فى عام ١٩١٦ قبل أن تصبح البلاد صحية ونظيفة ، وكان مطعم ريفورت يموج بالعسكريين الفرنسيين ، وبالكافيار ، وبالعملة الفرنسية الذهبية القديمة ، وبأربطة العنق الأنيقة وبليالى القديس جورج ، وبالمصورين والبحارة العظام وضباط المخابرات البريطانيين ، وبالسماسرة ، وبالأحاديث .

وقال مارتن : « إنها مجموعة لطيفة طابعها الجنون ، ألا تدركين أننا نستطيع الآن أن نكف عن ضرورة أن نبدو محترمين ؟ فإيرفنج ووترز وانجوس لا يراقباننا ! وهل يكون خبل منا أن نحتسى زجاجة من الشمبانيا ؟» .

واستيقظ فى اليوم التالى يتملكه احساس بوجود مؤامرة تحاك ضده ، كما حدث فى نوتيلوس وفى شيكاغو ، ولكن ما إن بدأ العمل . إلا وبدا فى عالم بلغ حد الكمال ، فلقد زوده المعهد بكفاية بكل ما يرغب من معدات وإمكانيات ـ مثل الحيوانات والأحواض الصناعية والأوانى الزجاجية ومزارع البكتريا والمعدات اللازمة لهذه المزارع ـ كما كان يساعده فتى مدرب تماماً هو : « مساعد المعمل » كما كانوا يسمونه ، كما ارتبط حقاً برجال لم يفكروا بأسلوب اللصقات الجذابة أو بإجراء عمليات بألفى دولار ، بل بأسلوب المحاليل الغروية وتحوصل الجراثيم ، والإليكترونات ، والقوانين والطاقات التى تحكمها .

وفى يومـــه الأول جاء الدكتور ريلتون هولابيرد — رئيس قسم الفزيولوجيا — لتحيته .

وبدأ هولا ييرد — بالرغم من أن مارتن قد اكتشف أن اسمه لامعاً فى صحف الفزيولوجيا — أصغر وأظرف من أن يكون رئيساً لأحد الأقسام ، فهو رجل طويل القامة نحيل الجسم غير متكلف له شارب أنيق ، وكان مارتن قد ترعرع فى مدرسة كليف كلوسن ، ولم يدرك أنه يمكن لصوت الرجل أن يكون جذاباً بدون تخنث إلا بعد أن سمع تحية الدكتور هولا ييرد الخاطفة .

وقاده هولا ييرد من خلال بابى المعهد فرأى مارتن ما كان يحلم به دائماً من معدات تثير الدهشة ، ويعتبر معهد ماكورك من حيث المعدات فى مرتبة معاهد روكفيلر وباستير — وما كورميك وليستر وإن لم يكن فسيحاً مثلها ، وشاهد مارتن غرفا لتعقيم الزجاج واعداد أطباق مزارع البكتريا ، وأخرى لنفخ الزجاج ومنظار النور المستقطب والمرقب الطيفى وغرفة الاحتراق التى أقيمت جدرانها من الصلب والأسمنت ، كما رأى متحفاً لعلم الأمراض وعلم البكتريا الذى تاق أن يضيف إليه شيئاً جديداً ، وكان هنا لك قسم للنشر يصدر تقارير المعهد ، والمجلة الأمريكية « لجغرافية الأمراض » التى يرأس تحريرها المدير دكتور توبس كما وجدت غرفة للتصوير ومكتبة عظيمة ومعرض للاحياء المائية تابع لقسم علم الأحياء المائية ، وصف من المعامل التى كان يدعى إليها العلماء الأجانب الزائرون لاستخدامها ، كما لو كانت معاملهم ، وكان يشغل معامل الزائرين فى ذلك الوقت عالم للأحياء المائية بلجيكى وآخر فى الكيمياء والأحياء من البرتغال ، ومرة ارتعد مارتن كأنما نمى إلى سمعه أن جوستاف سوندليوس يشغل أحد هذه المعامل أيضاً . ورأى مارتن آلة الطرد المركزى لبيركيلى سوندرز .

وتعمل هذه الآلة كالمخضة إذ ترسب المواد الصلبة المنتشرة فى السائل مثل البكتريافى المحلول ، ومعظم هذه الآلات تعمل باليد أو بقوة دفع الماء ، وحجمها كحجم خلاط الكوكتيل الكبير ، ولكن هذه الآلة الرائعة كان عرضها أربعة أقدام وتعمل بالكهرباء ، ويحيط بالطاسة المركزية طبق من الحديد مثبت بروافع مثل باب القواصة ، والكل قائم على عمود من الاسمنت .

وأوضح هولابيرد « بأنه لايوجد فى العالم سوى ثلاث آلات من هذا النوع كانت شركة بيركيلي سوندرز بانجلترا قد أنتجتها ، إن السرعة العادية لأسرع آلة طرد مركزى — كما تعرف — هى أربعة آلاف دورة فى الدقيقة تقريباً أما هذه الآلة فسرعتها ٢٠ ألف دورة فى الدقيقة ، إنها أسرع آلة طرد مركزى فى العالم ، أليس كذلك ؟ .

وقال مارتن وهو يمعن النظر « يا إلهى ، إنهم يزودونكم بما يساعدكم على العمل من معدات » « أجل إن كجورك وتوبس أكثر الناس كرما وسخاء فى العالم العلمى ، وأعتقد أنك ستجد العمل ممتعاً هنا يا دكتور » .

«أدرك ذلك ، يا إلهى كم هو جميل منك أن تطوف بى بأرجاء هذا المكان ».

« ألا ترى كم أنا مستمتع بالفرصة التى أتيحت لى لأعرض فيها معلوماتى ؟ فليست هناك صورة من صور مدح النفس أنسب وأكثر أمنا من أن تكون دليل متاحف أو سياح ، ولكن ما زالت أمامنا يادكتور أعجوبة المعهد الحقيقية كى نراها ، هذا الطريق يقودنا إليها . »

ولم يكن لأعجوبة المعهد الحقيقية أية علاقة منظورة بالعلوم ، إنها القاعة ، حيث كانت هيئة المعهد تتناول طعام الغذاء وتقام الولائم العلمية من حين إلى حين مع قيام السيدتما كجورك بدور المضيفة . وتنفس مارتن بشدة ومالت رأسه إلى الخلف عندما انتقلت نظراته من الأرضية اللامعة إلى السقف الذى طلى باللونين الأسود والذهبي ، وارتفعت القاعه ارتفاع الطابقين اللذين كان المعهد يشغلهما . وفوق الجدران الشاهقة ، فوق المنصة التى كان المدير وسبعة من رؤساء الأقسام يتناولون طعام الغذاء عليها نقشت صور بعض الموسيقيين ، وفوق خشب البلوط الذىغطيت به الجدران وسمت صور العلماء العظام وهم يرتدون ثيابا فضفاضة قرمزية اللون بألوان بارزة بريشة ماكسفيلد باريش ، وفوق كل هذا وجدت ثريا كهربية بها مائة مصباح .

وقال مارتن :« يا الهى لم أكن أعرف أنه توجد مثل هذه القاعة» .

وكان هولا يرد كريم النفس فلم يبتسم وقال : ربما تكون غاية فى الجمال ، إنها من إنشاء الرئيسة ... والرئيسة هى السيدة روس ما كجورك زوجة مؤسس هذا المعهد ، إنها سيدة لطيفة حقا لكنها لا تطيق الحركات ولا المنظمات ، ويسمى تيرى ويكيت ـ أحد الكيميائيين هنا ـ هذه القاعة ـ « قاعة بونانزا » . ومع هذا فإنها تعد مصدر وحى لك عندما تجىء لتناول طعام الغذاء متعبا جوعان ، والآن هيا بنا لنقابل المدير فقد طلب منى أن أجىء بك إليه .

وكان مارتن يتوقع أن يجد ـ بعد أن شاهد الروعه البابلية للقاعة ـ مكتب الدكتور ديويت توبس وقد بنى على طراز حمام رومانى ، لكنه كان أشبه بمكتب أحد رجال الأعمال فى صرامته التى لم ير لها مثيلا من قبل باستثناء منضدة العمل التى وجدت فى أحد أركانه .

وكان الدكتور توبس رجلا جادا ذا لحية أشبه بلحية كاب الصيد ويعد عالما بحق ، وربما كان أقوى داعية أمريكيه للتعاون فى ميدان العلوم ، بيد أنه كان رجلا يتمتع بنصيبه فى الحياة ، يعنى بارتداء الأحذيه الطويلة والصداريات ، وكان قد تخرج من جامعة هارفارد ودرس فى أوربا وعين استاذاً لعلم الأمراض فى جامعة مينسوتا ، ومديرا لجامعة هارتفورد ثم وزيرا لفنزويلا ، ورئيس تحرير مجلة « وويكلى ستيتسمان » ورئيسا لجماعة الصحة العقلية ، وأخيراً مديرا لمعهد ما كجورك .

وكان عضوا فى كل من أكاديمية الفنون والآداب وأكاديمية العلوم ، وكان الأساقفة والعسكريون والقادة والمتحررون ورجال البنوك يتناولون معه طعام العشاء ، كما كان من بين الرجال البارزين الذين لجأت إليهم الصحف لاجراء أحاديث تعد حجة فى جميع الموضوعات .

وما إن يتحدث إليك لمدة عشر دقائق إلا وتدرك أنك أمام واحد من قادة البشرية القلائل الذين يستطيعون الحديث فى أى فرع من فروع المعرفة ، كما يمكنه فى الوقت ذاته أن يسيطر على المسائل العملية ويدفع البشرية المتعثرة نحو المثل

المنطقية الحكيمة ، وبالرغم من أن ماكس جوتليب قد يكشف فى بحثه عن موهبة معينة إلا أن ضيق أفقه ومزاحه اللاذع المجونى حال دون قدرته على تكوين رأى واسع النطاق عن التعليم والسياسة والتجارة وغيرها من المسائل الرائعة التى تميز بها دكتورا . ديويت توبس .

ومع هذا رحب المدير بمارتن أروسميث التافه كما لو كان عضو شيوخ زائر ، فلقد صافحه بحماس ووقف مبتسما وكان صوته الرجولى رخيا وعذبا .

« أملى يا دكتور أروسميث أن تفعل أكثر من مجرد القول « نزلت فى هذا المكان أهلا » ، وأرجو أن نكشف لك عن مدى ترحيبنا بك لقد أخبرنى الدكتور جوتليب أن لديك استعداداً طبيعيا للبحث بين جدران المعمل لكنك اشتغلت بالإشراف على ميادين ممارسة مهنة الطب والصحة العامة قبل أن تكرس نفسك للمعمل ، ولا أستطيع أن أعبر لك عن مدى حكمتك فى نظرى إذ قمت بهذا المسح المبدئى العريض ، إن الكثيرين جداً ممن يمكن أن يكونوا علماء يفتقرون إلى الرؤيا العميقة التى يمكن أن تتمخض عن تناسق جميع الميادين الفكريه » .

ودهش مارتن عندما اكتشف أنه إنما كان يقوم بعمليه مسح واسعة النطاق .

« ليس ثمة شك فى أنك ترغب الآن يادكتور اروسميث فى أن تقضى بعض الوقت — ربما عام أو أكثر — فى تثبيت أقدامك ، سوف لا أطالبك بأية تقارير ويكفينى أن يشعر الدكتور جوتليب أنك راض عن تقدمك ، وكل ما أريده هو أنه إذا أحتجت إلى النصيحة — ربما نتيجة لخبرة أطول فى ميدان العلوم فيسعدنى أن أكون عوناً لك ، وإننى على يقين من أنك تستطيع أن تحصل على مساعدة الدكتور هولابيرد أيضا حتى إن كان يحس بالغيرة ، لأنه من أصغر العاملين معنا — إننى فى الحقيقة أدعوه ولدى الشقى — أما أنت حسب اعتقادى فلاتتجاوز الثالثة والثلاثين من عمرك ، وسوف تظهر الزميل المسكين بمظهر المتقدم فى الأيام

وقال هو لا يبرد فى مرح ، « آه » كلا يا دكتور ، لقد ظهر ذلك منذ وقت طويل ، إنك تنسى تيرى وبكيت الذى لم يناهز الأربعين من عمره ، »

« فتمتم الدكتور توبس : « آه ، ذلك الشخص ! »

وما سمع مارتن عن رجل أراد المتحدثان التخلص منه لشىء بغيض بمثل هذه اللباقة ورأى فى تيرى ويكيت الحية حتى فى هذا الفردوس .

وقال الدكتور توبس ، « وربما ترغب الآن فى أن تلقى نظرة على مكتبى ، إننى أفخر بالاحتفاظ بفهرس للبطاقات وسجلات للخطابات بصورة تفوق الوصف كما لو كنت وكيلا لإحدى شركات التأمين ، ولـكن هناك لمسة أجنبية معينة فى هذه الرسوم البيانية ، وسار بخطى سريعة عبر الحجرة ليكشف عن مجموعة من الأدراج المتداخله المـكدسة بالمشروعات العلمية .

ولم يقل شيئاً عما تعبر عنه هذه الرسوم ولم تتح لمـارتن أية فرصة بعد ذلك ليعرف كنهها .

وأشار إلى المنضدة فى طرف الغرفة وقال ضاحكا : « هناك قد ترى كم أنا شخص غير كفء حقاً فما زلت أصر على أنى قد تركت كل مباهج البحث فى علم الأمراض من أجل تولى المهام الادارية التى هى أقل متعة وإن كانت أكثر أهمية وأشد تعبا، ولـكن الضعف الإنسانى يبلغ بى أحياناً إلى حد أنه عندما يجب أن أقوم ببعض الأعمال الإدارية تنتابنى فـكرة ربما غامضة فى علم الأمرض ، ويالى من مدعاة للسخرية إذ لا يمكننى الانتظار حتى أسرع إلى معملى الخاص ، آه . أخشى أننى لست الرجل الاخلاقى كما أبدو أمام الناس ، إننى هنا مرتبط بالاجراءات التنفيذية لـكنى ما زلت أتوق الى حبى الأول ، سيدتى : « العلوم » :

وخاطر مارتن بالقول : « أعتقد أنه شىء جميل أنك ما زلت تميل إلى العلم »

وكان يفكر فى نوع التجارب التى كان الدكتور توبس يقوم بها أخيراً فلقد بدت المنضدة وكأنها لم تستخدم .

« والآن أريدك يا دكتور أن تقابل سكرتيرتى الآنسة بيرل روبنز — المدير الحقيق للمعهد . »

وكان مارتن قد رأى الآنسه روبنز ، فلا يسمع المرء إلا أن يراها ، وكانت فى الخامسة والثلاثين من عمرها جميلة مهذبة تستريح إليها النفس ، نهضت لتصافحه وأمسكت بيده فى حزم ورشاقة وقالت فى صوت جميل رنان : « إن الدكتور توبس يغالى فى الثناء لا لسبب إلا لأنه يدرك بأنى لن أقدم له الشاى بعد الظهر إن لم يفعل ذلك ، لقد سمعنا كثيراً عن براعتك من الدكتور جوتليب حتى أننى أرهب الترحيب بك يا دكتور اروسميث ، ولكنى أريد ذلك ولا شك . »

وفى تألق وقف مارتن فى معملة يتطلع إلى برج وولورث ، وأدهشته هـــذه العجائب التى أصبحت الآن بين يديه ! وتمنى أن يجد فى ريلتون هولابيرد — الذى على درجة كبيرة من الكياسة والظرف إلى جانب ما يتمتع به فى نفس الوقت من شخصية ممتازة بارزة — صديقاً له ، واكتشف أن الدكتور توبس رجـــل عاطفى إلى حد ما لكنه تأثر بعطفه وباعتراف الآنسة روبنز به ، وكان يفكر فى غموض فى مجد المستقبل عندما دفع الباب بشدة رجل صارم ذو شعر أحمر يرتدى قميصاً ناعم الملمس فى السادسة أو الثامنة والثلاثين من عمره .

وهمهم المتطفل قائلا : « أنت أروسميث ؟ اسمى ويكيت ، وأعمل كيميائيا مع جوتليب ، حسنا ، لا حظت أن الصفراغون المقدس [1] كان يريك معرض الوحوش .

« أتعنى الدكتور هولابيرد ؟ »

« بعينه .. . حسنا ، إذا كان الأب جوتليب قد سمح باشتغالك هنا فلا بد أنك نابه إلى حد ما ، وكيف تبدأ الأمور معك ؟ وما نوع العمل الذى سوف تقوم به ؟ هل أنت واحد من العصافير المهذبة التى تستغل المعهد من أجل التسلق

---

(١) طائر مغرد .

الاجتماعى والزواج من امرأة ثرية أم أنك واحد من أقوياء الإرادة مثلى ومثل حوتليب ؟ »

كان صوت تيرى ويـكيت الذى هو أشبه بنعيق الغراب مزعجا بصورة لم يسمعها من قبل ، وأجاب فى صوت أشبه بصوت ريلتون هولا بيرد :« أرىأنك لست بحاجة إلى القلق ، اننى — فى الحقيقة — متزوج » .

« آه ، لاتدع ذلك الأمر يزعجك يا أروسميث ، فالطلاق فى مدينة الدكور لايكلف كثيراً ، حسنا هل أراك الصفراغون المقدس جلاديز ذاتارت ؟ » .

« ماذا ؟ »

« جلاديز ذاتارت أو آلة الطرد المركزى . »

« آه ، انك تعنى آلة الطرد المركزى لبيركيلى سوندرز ؟ »

« هذا ما أعنيه ، ما رأيك فيها ؟ »

« انها أجمل آلة رأيتها ، وقال الدكتور هولا بيرد . . . »

« ياللجحيم ! لابد أن يقول شيئا ، فقد ذهب واقنع توبس العجوز بشرائها . إن الصفراغون المقدس يحبها . »

« ولم لا ؟ فهى أسرع ... »

بالتأكيد ، إنها أسرع طرد مركزى فى العالم بأسره ، كما أنها مصنوعة من أفضل أنواع الصلب الذى تصنع فيه الخلال ، والمشكلة الوحيدة هىأنها تقطع دائما أسلاك الانصهار الواقية وأنها تنثر الأشياء حتى أنك لتحتاج إلى قناع الوقاية ، إذا كنت تنوى استخدامها . . . . وهل شعرت بحب نحو توبس المسن وبيرل التى لامثيل لها ؟ »

« أجـــل . »

« رائع ، فتوبس أحمق جاهل لـكنه ليس مصابا بجنون الاضطهاد مثل جوتليب » .

« انتبه إلى يا ويكيت ... هل تلقب بدكتور ويكيت ؟ »

« آه . . . . دكتوراه فى الطب ودكتوراه فى الفلسفة لـكنى كيميائى من الدرجة الأولى أيضاً . »

« حسنا ، يبدو لى يادكتور ويكيت أنه من المخجل أن رجلا بهذه المواهب مثلك يرتبط بحمقى أمثال جوتليب وتوبس وهولا بيرد ، اننى قادم لتوى من عيادة فى شيكاغو حيث يعمل بها أناس ظرفاء وعقلاء ، ويسعدنى أن أحصل لك على عمل هناك ! »

« سوف لا يكون الأمر سيئا ، فذلك سوف ينقذنى على الأقل من المهاترات عند تناول طعام الغذاء فى قاعة بونانزا ، حسنا آسف لأنى أضعت وقتك لـكنك تبدو فى نظرى يا أروسميث على مايرام . »

« شكرا . »

وكشر ويكيت عن أسنانه — بشعره الأحمر ووجهه العابس وعنقه — ثم قال : « على فكرة ، هل حدثك هولا بيرد عن أنه قد جرح فى الشهر الأول من نشوب الحرب عندما كان مشيرا أو مشرفا على إحدى المستشفيات أو يشغل منصبا ما فى الجيش البريطانى ؟ »

« لم يفعل ، إنه لم يذكر شيئا عن الحرب . »

« انه لفاعل ، حسنا يا أخ اروسميث ، إننى اتطلع إلى الأمام ، إلى سنوات سعيدة الغاية نقضيها معا نلعب عند أقدام الأب جوتليب ، إلى اللقاء ، إن معملى يجاور معملك تماماً . »

وأكد مارتن « ياله من أحمق ! حسنا ، اننى استطيع الوقوف فى وجهه طالما امكننى الاعتماد على جوتليب وهولا بيرد ، ولـكن الأحمق المغرور ! يا إلهى ، إذن كان هولا بيرد فى الحرب ! اظنه عاد سقيما ، وما من شك فى أننى استطعت أن أرد على ويكيت ! « هل اخبرك أنه كان بطلا عجوزا مرحا فى الحرب الخاطفة ؟ »

وعلى الفور قلت له : « يؤسفنى أن أغضبك ولـكن الدكتور هولا بيرد لم يذكر شيئاً عن الحرب » هذا الأحمق ! حسنا ، لن أسمح له بازعاجى . »

وفى الحقيقة عندما تقابل مارتن مع الهيئة عند تناول طعام الغذاء كان ويكيت الوحيد الذى لم يقابله بحفاوة حتى وإن كانت تحيات الآخرين قصيرة مقتضبة ، ولم يستطع التمييز بينهم ، وظل معظم العشرين باحثا شيئا غامضا لعدة أيام . وكان يخلط بين الدكتور يو — رئيس قسم علم الأحياء — وبين النجار الذى كان قد جاء ليضع رفوفا .

وكانت هيئة المعهد تجلس حول مائدتين طويلتين إحداها فوق المنصة والثانية أسفلها . وتحت السقف الضخم بدوا أشبه بجماعات من الحشرات الصغيرة ، ولم يكن فى مظهر هؤلاء الذين يحتمل أن يصبحوا داروين وهكسلى وباستير المستقبل ما يدل على العظمة ، وما كان لأحدهم جبهة عريضة كجبهة أفلاطون ، وكانوا أشبه ببدالين يتناولون طعام الغذاء باستثناء ريبلتون هولا بيرد وماكس جوتليب وربما مارتن نفسه ، إنهم شبان عاديون يتسمون بالنشاط وشيوخ ذوو شوارب كثيفة ورجال قصار القامة يضعون نظارات فوق أعينهم ويتسمون بعدم الأناقة .

ولـكن الهدوء الدائم كان مخيما عليهم ، ولم يـكن فى أصواتهم — كما اعتقد مارتن — قلقا بسبب المال ولا تبرما من الحسد والنميمة المشينة ، كما كان حديثهم عن عملهم يتسم بالجدية أو الحماس فهو العمل الذى ما إن يصير حلقة فى سلسلة الحقيقة التى أمـكن اكتشافها حتى يصبح خالدا مهما تعرض اسم صاحبه للنسيان .

وكان مارتن يصغى إلى تيرى ويـكيت (وكان يشير بوقاحته وسوقيته المعهوده إلى نفسه « بالفتى الـكيميائى » ويتحدث عن » « المعهد المزخرف » وعن « أخينا الجديد الصغير الواثق أروسميث ») وهو يتناقش مع رجل ذى لحية صغيرة — هو الدكتور وليام ت — سميث المساعد فى الـكيمياء الحيوية حول احتمال زيادة تأثير جميع الانزيمات بجرعات من إشعة إكس ، ويستمع إلى عضو زميل ينتقد آراء زميل آخر عن الخلايا الـكيميائية ، ويهاجم أهرليك

بصنعته إديسون العلوم الطبية « وأدرك مارتن طرقا جديدة للبحث المثير » كان يقف فوق قمة جبل بينما راحت الوديان المجهولة والطرق الصخرية الخادعة تتفتح أمام قدميه .

— ٥ —

وبعد أسبوع من وصولهما دعاهما الدكتور هولا بيرد وزوجته لحفل عشاء .

وكما أن سترة هولا بيرد التى صنعت من التويد جملت أناقة كلاى تردجولد تبدو شيئا متكلفا ، فإن حفل عشائه أظهر أن احتفالات أنجوس دوير فى شيكاغو آلية لامتعة فيها ولا بهجة ، وكان كل من التقى به مارتن فى منزل هولا بيرد شخصية من الشخصيات ، حتى وإن لم تكن من الشخصيات الكبيرة ، فقد كان من بينهم رئيس تحرير خير أو عالم صاعد فى الأجناس البشرية ؛ وكان جميعهم قد جاءوا صدفه لزيارة هولا بيرد .

وجاء أرورميث وزوجته الريفيان فى الموعد المحدد ولذا جاءا مبكرين بخمس عشرة دقيقة ، وقبل أن يظهر الكوكتيل فى اقداح عتيقة من صنع البندقية تساءل مارتن : « ما هى المشاكل التى تواجهها بعد الآن فى ميدان علم وظائف الأعضاء يادكتور ؟ » .

وتحول هولا بيرد إلى فتى يتقد حماساً وفى صوت ينم عن الاستفسار تساءل : هل ترغب صادقاً أن تسمع ما يتعلق بهذه المشاكل . . . ولست بحاجة — كما تعرف — أن تلتزم جانب الأدب وأنت تتحدث عنها ، ودخل فى عرض لما أجراه من تجارب وأخذ يرسم الصور فى الأماكن الشاغرة من إعلانات الصحف وعلى ظهر دعوة حفل زفاف وعلى الصفحة الأولى من إحدى الروايات وهو يتطلع إلى مارتن وفى نظراته اعتذار ، وأدرك أنه لايزال يستمتع بحديثه .

« إننا نعمل الآن فى حصر وظائف المخ ، وأعتقد أننا ذهبنا فى هذا الميدان فيما وراء ما ذهب إليه بولتون وفليشيسج ، كم هو ممتع ومثير أن تعمل فى اكتشاف المخ . التفت إلى ! »

وكان قلمه السريع يرسم صورة المخ الذى كان ينبض بالحياة تحت أصابعه ، وألقى الورقة على الأرض وهو يقول : « أرى أنه من العيب أن أفرض عليك هواياتى ، هذا فضلا عن أن بقية الضيوف قد بدأت تفر ، قل لى كيف يسير عملك ؟ هل تحس براحة فى المعهد ، وهل تشعر بحب لمن تتعامل معهم من الناس ؟

« الجميع باستثناء . . . ولكى أكون صريحاً ، إن ويكيت يضايقنى » .

فقال فى روح من الكرم: «أعرف ذلك،فهو يتسم بشىء من النزعة العدوانية ، ولكن عليك ألا تعيره اهتماما : إنه بحق موهوب تماما فى الكيمياء الحيوية ، فهو أعزب ويضحى بكل شىء فى سبيل عمله ، كما أنه لايعنى نصف الألفاظ الفظة التى ينطق بها ، أنه يمقتنى كما يمقت غيرى ، ألم يحدثك عنى ؟ »

« لماذا ، لم يتعرض لك على وجه الخصوص ... »

« ينتابنى شعور بأنه يطوف مردداً أنى أتحدث عن تجاربى فى الحرب ، وهذا فى الواقع أبعد ما يكون عن الحقيقة . »

وانفجر قائلا : « أجل ، هذا ما ذكره . »

« ليته ما فعل ذلك ، كم أنا آسف إذا كنت قد أسأت إليه بذهابى إلى الحرب حيث جرحت ، سوف اتذكر ولا أعود إلى ذلك ، فمثل هذه الضجة التى أثيرت بسبب تجربة الحرب لهى تافهة كتجربتى ذاتها ، وما حدث كان كالآتى : عند ما نشبت الحرب سنة ١٩١٤ كنت فى إنجلترا أتلقى العلم على يدى شير نجتون ، وادعيت أنى كندى وانضممت إلى الفرق الطبية وظللت معها ثلاثة أسابيع ثم فصلت ، وكانت هذه هى نهاية سجل حياتى الرائع فى الحرب ! لقد وصل أحد المدعوين» .

واستحوز نبله وشهامته على مارتن بكل كيانه ، كما أن السيدة هولابيرد توددت بدورها للورا ، فعادا إلى دارهما يحسان بسعادة جديدة .

وهكذا بدأ نور السعادة الساطع ينبلج أمامهما ، فكان مارتن يحس بسعادة فى عمله الذى لا يتدخل فيه أحد ، وفى حياته خارج العمل .

وانصرم الأسبوع الأول بأكمله وغاب عن ذهنه أن يسأل عن مرتبه فاضطر أن ينتظر حتى نهاية الشهر ولكنه ولورا كانا يفكران فى الأمر فى الأمسيات التى كانا يترددان فيها على المطاعم الصغيرة .

وسوف لا يدفع له المعهد بالتأكيد أقل مما كان يتقاضاه من عيادة راونسفيلد وقدره ٢٥٠٠ دولار سنوياً ، لكنه فى الأمسيات التى كان يحس فيها بتعب كان يخفضها إلى ١٥٠٠ كما رفعها إلى ٣٥٠٠ فى أمسية احتسى فيها نبيذاً بورجنديا .

وجاء أول شيك شهرى فى ظرف مغلق صغير فلم يجرؤ على أن ينظر إليه ، وحمله إلى المنزل إلى لورا ، وفى غرفة الفندق التى كانا ينزلان بها حملقا فى الظرف كما لو كان يحتوى على سم ، وفتحه مارتن وأصابعه ترتعش وحملق ثم همس « يالهم من قوم مهذبين ، إنهم يدفعون لى — هذا شيك بأربعمائة وعشرين دولارا — إنهم يدفعون لى خمسة آلاف دولار سنوياً » .

وساعدت السيدة هولابيرد — وهى امرأة أشبه بهرة بيضاء — لورا فى إيجاد مسكن من ثلاث غرف وردهة فسيحة فى منزل عتيق بالقرب من جراميرسى بارك ، كما أعانتها فى تأثيثه بأثاث قديم ؛ وعند ما سمح لمارتن بأن يلقى نظرة على ما قد تم صاح قائلاً : أتمنى أن نبقى هنا خمسين عاماً » .

وكانت هذه هى الجزيرة اليونانية التى عثرا فوقها على السلام ، لقد صار الآن أصدقاءهم : آل هولابيرد ودكتور بيلى سميث — عالم الكيمياء الحيوية ذو اللحية الصغيرة الذى يتذوق الموسيقى والجمة الألمانية بذكاء — وعالم التشريح الذى كان مارتن قد تقابل معه فى حفل العشاء الذى أقيم لخريجى جامعة وينماك ، وماكس جوتليب .

وكان جوتليب هادىء النفس صافى البال ، يقطن وهو فى سن السبعين فى مسكن صغير طليت جدرانه بلون بنى ، وتفوح منها رائحة التبغ والكتب الجلدية ، أما ابنه زوبرت فكان قد تخرج من كلية سيتى ، وخرج إلى الحياة يعمل بنجاح

بينما واصلت مريم دراسة الموسيقى واعتنت بأبيها فى نفس الوقت ، ومريم فتاة أكانطير السكر ، وشبه نار مقدسة تسكن فى الجسد الخادع . وبعد أمنسية أثار فيها جوتليب الاحتمالات القوية ، أوصى إلى مارتن بالإسراع إلى المعمل حيث أجرى ألف تجربة جديدة على قوانين الكائنات المجهرية ، وهى مهمة يبدؤها عادة بالسخط على أعماله ويدمر كل ما تم قبل ذلك مباشرة من أعمال .

وحتى تيرى ويكيت صار شخصية أكثر احتمالا ، وأدرك مارتن أن مشاحنات ويكيت ترجع من ناحية إلى سوء فهم مزاجه الذى هو من النوع الذى كان يتسم به كليف كلوسون ، ومن ناحية أخرى إلى إستيائه البالغ ، شأنه شأن جوتليب ، من علماء المورفولوجيا الذين يلصقون البطاقات الصغيرة الجميلة على الأشياء التى يسمونها بأسماء ثم يعيدون تسميتها دون القيام بأى تحليل لها ، وغالباً ما كان ويكيت يعمل طوال الليل ، فكان يرى مشمراً عن ساعديه بينما تتناثر شعره الأحمر الأغبر ، كما كان يجلس عدة ساعات ومعه ساعة سباق أمام حمام حرارى دائم ، وكان من الممتع من حين لآخر أن تحظى باهتمام ويكيت الذى يتسم بالفظاظة بدلا من كياسة هولابيرد التى تطلب من مارتن الكثير من الكياسة المقابلة ، وذلك فى الوقت الذى يغوص فيه إلى الأعماق فى إجراء تجاربه .

الفصل السابع والعشرون

وبدأ عمله متردداً ، وعلى الرغم من استمتاعه بهذا العمل جاءت أيام خشى فيها أن يتسلل توبس إلى معمله ويزجر متسائلا : «ماذا تفعل هنا ؟ لست أروسميث المطلوب — اخرج من هنا » .

وكان قد عزل عشرين سلالة من الميكروب المنقودى وبدأ يجرى تجاربه عليها لاكتشاف أيها أكثر فاعلية فى إنتاج السم المذيب للدم حتى يتمكن من استخراج المادة المضادة لهذا السم .

وكانت هنالك لحظات ممتعة — عقب القيام بعملية الطرد المركزى — عندما استقرت المكروبات الحية فى شكل جماعات متكورة قاتمة فى قاع الأنابيب وذابت كريات الدم الحمراء تماما وتحول السائل غير الشفاف الذى هو فى لون الآجر الأحمر إلى لون الخمر الباهت ، بيد أن غالبية العمليات كانت متعبة أكثر مما ينبغى فقد كان ينقل عينات من مزرعة البكتريا كل ست ساعات صانعاً معلقات ملحية لكرات الدم فى أنابيب صغيرة ثم يدون النتائج .

ولم يعرف قط أنها عمليات متعبة .

وزاره توبس من حين إلى آخر ووجده مشغولا فربت على كتفه وقال شيئاً كان وقعه أشبه بألفاظ فرنسية — وربما كان فرنسيا — وشجعه بطريقة غامضة على حين أن جوتليب كان يخبره باتزان ورباطة جأش أن يمضى فى طريقه قدما ، كما كان يحثه من آن لآخر بإطلاعه على مذكراته الخاصة (وكانت مليئة بالأرقام والاختصارات التى تبدو قبيحة الشكل مثل الفواتير التى تكتب على البقتة) أو بالحديث عن عمله بعبارات أشبه بسحر التبت فى غرابتها .

« لقد ساهم آرهنيوس ومادسن فى إحداث المناعة بموجب القانون العام —

غير أنى آمل فى أن أبين أن الأجسام المحدثة والأجسام المضادة تتحد بنسب معينة عند ثبات بعض العوامل الأخرى » .

وقال مارتن : « آه ، أجل إننى أدرك ذلك » أما لنفسه فقال : « حسنا ، أقسم أننى لا أفهم ربع ما قلت ! يا الهى ، ليتهم يتيحون لى فرصة أطول ولا يعيدوننى إلى لصق إعلانات الدفتريا ! » .

وعندما حصل على المادة السامة بصورة مرضية بدأ رماتن يبذل الجهود لاكتشاف المادة المضادة وأجرى تجارب كثيرة لكنها لم تسفر عن نتيجة، وأحيانا كان يعتقد أنه توصل إلى شيء ، لكنه عندما كان يعيد تجاربه كان يوقن أن جهوده قد باءت بالفشل . واندفع مرة إلى معمل جوتليب معلنا أنه توصل إلى المادة المضادة للسم ، وعندئذ أخذ جوتليب فى شيء من الود يطرح عدداً من الأسئلة العسيرة ويقدم له صندوقا من السجائر المصرية ثم أوضح له أنه لم يضع فى اعتباره بعض نسب تركيز المحاليل .

وبالرغم من تردده المألوف كان لمارتن ميزة بدونها ما كان للعلوم وجود ألا وهى : حب الاستطلاع القوى الواسع النطاق غير المتكلف الذى دفعه إلى الأمام .

— ٢ —

وبينما كان معهد ما كجورك يشق طريقه غير البارز عبر السنوات الأولى من الحرب الأوربية الكبرى كان له كيان حتى تحت ظل الهدوء الظاهرى المخيم عليه .

وربما لم يتعلم مارتن الكثير فى ميدان الأجسام المضادة ولكنه ألم بسر المعهد وتبين أن وراء هذه الجهود التى تتم فى هدوء تقف كابيتولا ما كجورك التى كانت تقوم بخدمات عظيمة لرفعة شأن قومها .

وكانت كابيتولا ، روس ما كجورك تعارض فى أن تمنح المرأة حق الانتخاب — حتى علمت أن النساء على يقين من أنهن سوف يحظين بحق الإدلاء

بأصواتهن — لكنها تسيطر سيطرة كاملة على الشئون المتعلقة بالفضيلة . وأشترى روس ما كجورك المعهد لا طمعا في الشهرة والمجد بل رغبة في تحويل اتجاه زوجته وإبعادها عن التدخل الضار في شركات الشحن والتعدين والأخشاب التي يمتلكها والتي لم تكن تستطيع احتمال ما تقوم به هذه المصلحة الاجتماعية من تحقيقات .

وكان ما كجورك في ذلك الحين قد بلغ الرابعة والخمسين ، وهو ينتمي للجيل الثاني من رجال السكك الحديدية في كاليفورنيا ، كان أحد خريجي جامعة ييل ، وهو رجل ضخم ساذج موقر مرح مذبذب . وكان حتى عام ١٩٠٨ عند تأسيسه للمعهد يمتلك دوراً كثيرة وعدداً كبيراً من الخدم ، ولم يكن له أطفال لأن كابيتولا كانت تعتقد أن إنجاب الأطفال يضر بالنساء ويلقي على عاتقهن مسئوليات جسام وكان كلما مضى عام على وجوده بالمعهد حظى من العام الذي يليه بسعادة أعظم ومبرراً للحياة .

ولما وصل جوتليب ذهب إليه ما كجورك ليلقي عليه نظرة فاحصة . وكان ما كجورك يستدعي إليه من حين لآخر الدكتور توبس الذي كان لا بد أن ينطلق مسرعا إلى مكتبه كما لو كان يعمل صبي مراسلة ، ولكن ما كجورك بدأ مغتبطا عندما رأى عيني جوتليب الكئيبتين ، وصار الرجلان — الأمريكي البدين الأنيق القوي الصلب والأوربي الساخر البسيط الذي يحتقر السلطة — صديقين ، فكان ما كجورك يطيب له أن يتسلل إلى من سوف يكون له تأثيره على التجارة في جزيرة الهند الغربية بأسرها ليجلس على كرسي مرتفع دون مسند يراقب في صمت ما يقوم به جوتليب من أعمال .

وقال ما كجورك « يوما ما عندما أتخلى عن المشغولية سأصبح « مساعدك » يا ماكس » فاجاب جوتليب « لست أدري — إنك تمتاز بخيال قوي ، يا روس ولكني أعتقد أنك أكبر سناً من أن تتلقى تدريبا واقعيا ، والآن ، إن لم يضايقك أن نتناول الطعام في مطعم شيلدز ، فإني أدعوك للغداء ، ولسوف نتجنب الذهاب إلى قاعتك الملوكية التي يحتدم فيها الجدل .

ولكن كابيتولا لم تشترك فى حفل غدائهما .

وعادت غطرسة جوتليب التى كان فى حاجة إليها فى تعامله مع كابيتولا ماكجورك التى كانت لها مشاكل هينة ممتعة هاجها المتقاعدون ممن يحصلون على معاشات من زوجها ، وذات يوم زارت وهى فى حالة اضطراب ، معمل جوتليب لتخبره أن عدداً كبيراً من الناس يموتون بسبب السرطان فلم لا يكف عن البحث عن هذه المادة المضادة مهما كان نوعها ليكتشف علاجا للسرطان يستفيد منه جميعهم .

ولكن احتجاجها الحقيقى ظهر عندما اتصلت بجوتليب تليفونيا — بعد أن وافق ريبلتون هولا بيرد أن يقدم العشاء فى منتصف الليل فوق سطح المعهد لواحدة من أعظم حفلاتها الثقافية ـ تسأله : « أيضايقك كثيراً أن تذهب وتفتح معملك حتى يمكننا جميعاً أن نلقى نظرة خاطفة عليه ؟ » ورد عليها :

« أجل ، نعمت مساء ! »

واحتجت كابيتولا لدى زوجها فأنصت لها ـ هكذا بدا على الأقل ـ وقال :

« لايهمنى أن تدعى البلاهة مع الخدم ، فعليهم تحملها ، ولكن إذا ما فعلت ذلك مع ماكس فسوف أغلق المعهد ، ومن ثم سوف لا تجدين ماتتحدثين عنه فى نادى كولونى ، وما لايصدق فعلا هو أن رجلا يستحق ثلاثين مليون دولار ـ على الأقل يمتلك كل هذا ـ لايجد لنفسه منامة نظيفة . كلا . فإننى لا أريد خادماً ! والآن ألا تتفضلين يا كابيتولا وتكفين عن هذه الغطرسة وتتركينى لأنام! »

ولكن التحكم فى كابيتولا لم يكن ممكنا ، خاصة فيما يتعلق بحفلات العشاء الشهرية التى كانت تقيمها بالمعهد .

— ٣ —

وكان أول حفل من حفلات عشاء ماكجورك العلمية شهده مارتن ولورا هاما

إذا كان ضيف الشرف هو ميجور جنرال سير ايزاك مالارد الجراح البريطانى الذى جاء فى زيارة لأمريكا مع بعثة عسكرية بريطانية ، وطاف بأرجاء المعهد . وكان دكتور توبس وكل باحث آخر يدعوه سير إيزاك ما عدا تيرى ويكيت ، وتذكر أنه التقى بريلتون هولا بيرد فى لندن أو قال إنه يتذكر ، كما أبدى اعجابه بآلة الطرد المركزى .

وبدأ الحفل بمشكلة هى أن تيرى ويكيت ، الذى لم يكن حضوره متوقعاً ، قد ظهر وتطوع بالحديث إلى زوجة سفير سابق قائلا : « اننى لم استطع مقاومة عدم الحضور عندما نما إلى سمعى مجىء سير ايزاك العزيز ، مارأيك ، لو لم أقل لك أننى قد استأجرت سترتى أو كنت تتمكنين من اكتشاف ذلك ؟ وهل تلاحظين أن سير أيزاك أخذت تتقدم به السنون حتى أنه لم يعد يمزق الطنفسة بمهامنزه . ؟ وهل يا ترى مازال يقتل جميع مرضى النتوء الحلمى ؟ »

وعزفت الموسيقى الصادحة وقـــدمت الأطعمة الوفيرة ، وكان هناك علماء لايمشون على الارتياح يوضحون للنساء اللائى يتحلين بالذهب بكلمات مقتضبة ماهم بصدد تحقيقه الآن وما يأملون فى تحقيقه خلال العشرين سنة القادمة ، وأبدت هذه النسوة ملاحظتهن بلهجة تنم عن تقريع غير لاذع ، فقالت أحـداهن : « لـكنى أخشى أنـكم لم تبسطوا هذه الحقيقة بوضوح كما ينبغى » وجلست النساء وأزواجهن — من خريجى الجامعات ومحتـكرى أسهم شركات البترول أو قانون الاتحادات — على استعداد لإعطاء رأيهم لمن يريد وهو : إنه وإن كانت المادة المضادة للسم عملا مفيداً إلا أن ماتحتاجه فعلا هو بديل مناسب للمطاط .

وكان ريلتون هولا بيرد فاتنا .

وعندما توقفت الموسيقى كان تيرى ويكيت يقول لسيدة من علية القوم وأكثر صديقات كايتولا نفعاً : «أجل إن حروف اسمه هى : ج — و — ت — ل — ى — ب ، لـكنه ينطق « جودامن[1] » .

(١) يعنى (لعنة الله عليه !) بالانجليزية .

ولكن الغرباء أمثال ويكيت والمتسلقين الصامتين أمثال مارتن ولورا ، والأعضاء الذين لم يكن لهم وجود بالمرة أمثال ماكس جوتليب فكانوا يمثلون القلة ، وانقلب حفل العشاء بصورة رائعة إلى وليمة حب عندما تبادل دكتور توبس وسير ايزاك مالارد آيات المديح التي قدماها بدورهما لكابيتولا ولأرض فرنسا المقدسة ولبلجيكا الصغيرة الشجاعة ولحسن ضيافة أمريكا ولحب بريطانيا ، ولما يمكن أن يقوم به الشاب الذى يقدر التعاون من أشياء ممتعة للغاية فى ميدان العلوم الحديثة .

واقتيد الضيوف لمشاهدة أقسام المعهد ، فرأوا معرض الأحياء المائية ومتحف علم الأمراض وبيت الحيوان الذى ما إن رأته امرأة طروب إلا وقالت لويكيت : يالها من خنازير غينية صغيرة وأرانب محببة إلى النفس ! والآن ألا تعتقد بحق يا دكتور أنه من الأفضل إطلاق سراح هذه الحيوانات وقصر التجارب على أنابيب الاختبار ؟ » .

فقال طبيب مشهور — يزاول مهنة الطب بين النساء الثريات اللواتى لا تعيش إحداهن غرب الشارع الخامس — للمرأة الطروب : « أعتقد أنك على حق تام . اننى لم أقتل قط حيوانا صغيراً لأحصل منه على معلومات ! »

وفجأة أمسك ويكيت بقبعته وخرج .

فقالت المرأة الطروب : « أنت ترى أنه لم يجرؤ على أن يواجه جدلا حقيقيا ، آه إننى أدرك يا دكتور أروسميث بالطبع مدى روعة روس ماكجورك ودكتور توبس وجميعكم ، لكن من واجبى أن أصرح بأن أملى فى معاملكم قد خاب . لقد توقعت أن أجد معلومات جميلة وأفران كهربائية وغيرها ، لكنى لم أر فى الحقيقة شيئاً وحداً ممتعاً ، وأعتقد أنه من واجبكم جميعاً — أنتم معشر الناس المهرة — أن تفعلوا شيئاً من أجلنا بعد أن أغريتمونا جميعاً على قطع كل هذه المسافة والمجىء إلى هنا ، أفلا يمكنك أنت أو أى شخص آخر خلق حياة من بيض اليمام أو من

أى بيض آخر ؟ آه تـكرم بذلك ، انى أرجوك أو على الأقل عليك بارتداء أحد معاطف أطباء الأسنان الخادعة التى ترتدونها . »

وأسرع مارتن أيضاً بالخروج تصحبه لورا الغاضبة التى ذكرت وهما فى سيارة الأجرة أنها كانت تتوق أن تذوق قدح الشمبانيا الذى رأته فوق صوان المائدة ، كما ذكرت أن زوجها كان يبدو كالأحمق .

— ٤ —

وهكذا بدأ مارتن ــ بالرغم من إحساسه بالرضى عن عمله ــ يتساءل عن مدى كمال محرابه ، وعن السبب الذى حــدا بجوتايب أن يهين على هذا النحو دكتور شولتيز الأنيق ــ رئيس قسم علم الأوبئة المجد أثناء الغذاء ، وسبب تحمل دكتور شولتيز للإهانات، كما سأل عن السبب الذى جعل دكتور توبس ، عندما يطوف بمعمل أحد الأشخاص يقول : « إن الشيء الذى يجب أن تضعوه نصب أعينـكم دائما وأنتم تعملون هو مبدأ التعاون » كما تساءل مارتن عن السبب الذى يجعل عالم فسيولوجى مثل ريبلتون هولا بيرد يقضى يوما فى الحديث مع توبس بدلا من العمل الجدى فوق منضدة معمله .

وكان هولا بيرد قد قام منـــــذ خمسة أعوام ببحث ساعد على نشر اسمه فى الصحف العلمية فى جميع أنحاء العالم ، وكان قد بحث مسألة تأثير استئصال الفصوص الداخلية لمخ الـكلب على قدرته على السير بين أقسام المعمل ، وقرأ مارتن عن هذا البحث قبل أن يفـكر فى الذهاب إلى ماكجورك ، فعند وصوله ارتعد عندما سمع عن البحث من صاحبه نفسه ، ولـكن بعد أن أشار إليه هولا بيرد عشرات المرات ضعفت رهبته وفـكر فيما إذا كان هولا بيرد سيقضى كل حياته يوصف « بالرجل ــ كما تذكره ــ أو الشخص الذى صنع هــذه المعجزة الـكبرى ــ أيا كانت ــ الخاصة بالحركة عند الـكلاب أو غيرها . »

وازداد تفـكير مارتن عندما بدا له أن جميع رفقائه ينقسمون سراً إلى جماعات.

فكانت الجماعة الحاكمة تضم توبس وهولابيرد وربما «بيرد روبنز» — سكرتيرة توبس — وترددت الشائعات أن هولابيرد يأمل فى أن يصبح ذات يوم من الأيام مديراً مساعداً للمعهد ، وهو منصب سينشأ خصيصاً له ، أما جوتليب وتيرى ويكيت ودكتور نيقولاس يو — عالم الأحياء الساذج ذو الشارب الطويل الذى ظنه مارتن تجاراً فى بادىء الأمر — فقد كانوا جماعة مستقلة ، وعلى الرغم من كراهية مارتن لويكيت الصاخب فقد انضم إليها .

أما دكتور وليام سميث — بلحيته الصغيرة وإدراكه للجماعات التى تشكل فى باريس ولا تلبث أن تتفكك — فقد ابتعد عن هذه الجماعات ، وكان دكتور شولتيز — الذى ولد ليجد نفسه عضواً فى أحد معابد اليهود فى روسيا لكنه أصبح الآن أشد أعضاء الكنيسة الأسقفية تحمسا — يحاول بأسلوبه المحدود الأفق المهذب أن ينال ثناء جوتليب على أعماله العلميه ، وفى قسم الأحياء الطبيعية كان الرئيس الطيب القلب يتعرض لسب مساعدة وحسده ، وما كان هنالك فى المعهد بأكمله من يؤكد — فى اى حالة من حالات السكر أن عمل أى عالم آخر فى أى مكان ر متبر عملا صحيحاً تماماً ، أو أن هناك شخصا واحـداً من منافسيه لم يسرق منه آراءه . فما من زمرة متآمرة تجلس على المقاعد الهزازة فى بهو فندق صيفى ، وما من جماعة من الممثلين همست بأقوال فاضحة أو ذكرت أشياء طابعها الغباء التام فى محادثاتها أكثر من هؤلاء العلماء المبجلين .

ولكن مارتن استطاع أن يبعد عنه هذه الاكتشافات بغلقه باب معمله ، وكان عليه أن يفعل ذلك حتى يصم آذانه عن همسات المتآمرين .

— ٥ —

وذات يوم لم يذهب جوتليب متبختراً كعادته إلى معمل مارتن بل دعاه إليه فى غلظة ، وفى ركن من أركان مكتبه — وهو عبارة عن مخدع متصل بعمله — كان تيرى ويكيت يلف سيجارة ويبدو متكلفاً .

وقال جوتليب : « أنتهز هذه الفرصة ومعى تيرى يا مارتن لأقنعك بالحقيقة لقد تبين لنا أنك قمت بواجبك خير قيام ، لهذا فقد حان الوقت لأن تكف عن عمليات الاستعراض التى تقوم بها وتبدأ العمل . »

« لقد كنت أعتقد يا سيدى أننى أعمل »

وتلاشى الهدوء الشامل الذى يخيم على أيامه الحلوة ورآى نفسه مدفوعاً إلى مبادىء بيكربو ..

وتدخل ويكيت قائلا : « كلا ، انك لم تبدأ العمل وكل ما كنت تفعله هو أن تكشف عن أنك فتى نابه يمكنه أن يعمل إذا ما ألم ببعض المعرفة . »

وبينما اتجه مارتن إلى ويكيت يرتسم على وجه تعبير : « ومن أنت أيها الشيطان » مضى جوتليب يقول :

« الحقيقة يا مارتن هى أنك لن تستطيع القيام بأى عمل قبل أن تعرف بعض الرياضيات ، فاذا كنت لا تنوى أن تكون عالم جراثيم سطحى كغالبيتهم يتحتم عليك أن تلم ببعض الأمور الجوهرية فى ميدان العلوم ، فجميع الأشياء الحية هى آلات كيميائيه — طبيعية ، إذن كيف يمكنك أن تحرز تقدماً دون معرفة الكيمياء — الطبيعية ، وكيف تعرف الكيمياء الطبيعية دون الإلمام بالكثير من الرياضيات »

فقال ويكيت : « أجل ، أنك تشذب العشب وتقطف الأقحوان ، بيد أنك لا تعزق الأرض . »

وواجهها مارتن بالقول : « ولكن لا يمكن للمرء ، يا ويكيت ، أن يعرف كل شىء فأنا عالم جراثيم ، ولست من علماء الطبيعة ، ويخيل إلى أنه كى يحقق المرء الاكتشافات يجب أن يستخدم ذكاءه ، لا صندوق أدواته ، فيمكن للبحار الماهر أن يشق طريقه عبر البحار ، حتى ولو بدون معدات ، إذ أن سفينة مليئة بالمعدات لن تخلق من الأحمق بحاراً ماهراً ؛ وعلى المرء أن يطور عقله لا أن يعتمد على الآلات . »

« أجل، ولكنه إن وجد الخرائط والأرباع[1] فان البحار الذى لا يستخدمها سيكون أخرقا . »

وظل مارتن نصف ساعة يدافع عن نفسه بشىء من الفظاظة أمام جوتليب الذى هو أشبه بحجر كريم وويكيت الذى يشبه الجرانيت ، وفى هذه الأثناء أدرك أنه جاهل بشكل مربع .

ولم يعد حديثه يثير اهتمامهم ، فكان جوتلب يقرأ فى مذكراته بينما أخذ ويكيت يعد نفسه للعمل . وحملق مارتن فى وجه جوتليب، إذ كان فى حديث هذا الرجل ما يدفع مارتن إلى غضب كغضبه مع لورا ومع نفسه .

وثار وغادر المكان بأشد ما يكون العنف المسرحى وهو يقول . « يؤسفنى أنكما تعتقدان أنى لا أعرف شيئاً » ، واندفع إلى معمله حيث شعر بأنه حر طليق وما لبث أن أحس بالبؤس ، وعلى الرغم منه اندفع كالعاصفة ، كرجل مخمور إلى غرفة ويكيت معترفا بقوله . « أعتقد أنك على حق ، فعلو ما يأتى فى الكيمياء الطبيعية تافهه وفى العلوم الرياضية باليه ، فماذا أفعل — فماذا أفعل ؟ »

فقال المتبرير وهو متضجراً « أجل بربك لا تقلق ، فكل ما أقصده أنا والرجل العجوز هو حثك على العمل ، وحقيقة الأمر هى أن جوتليب يهتم إهتماماً بالغاً بالطريقة الدقيقة التى تبدأ بها ، وفيما يتعلق بالرياضيات فمن الجائز أنك أكثر إلماماً بها من الصفراغون المقدس (هو لابيرد) وتوبس فى وضعهما الراهن . أنك نسيت ما كنت تعرف من الرياضيات أما هما فلم يعرفا شيئاً ، فهم جميعاً أشبه بصنانير أسماك، من المفروض أن لفظ « العلوم » يعنى المعرفة — وهو مأخوذ من اللغة اليونانية المهذبة التى كان ينطق بها المسنون الطيبين الثملى ، كما أن أسلوب الاستياء الذى يظهره معظم طلاب العلوم إذا طلب إليهم التوقف عن كتابة البحوث الصغيرة السطحية أو إقامة حفلات الشاى وتقديم الحلوى عند الحصول على بعض

---

(١) جمع ربع وهى نوع من الآلات .

المعرفة — هذا الأسلوب يجعلنى ولا شك أكن تقديراً كبيراً للجنس البشرى وليست معلوماتى الرياضية ياصديقى هائلة ولكنك إذا أردت أن أجىء إليك فى بعض الأمسيات وألقنك بعض الدروس فسوف أقوم بذلك بالمجان طبعاً » .

وهكذا بدأت الصداقة بين مارتن وتيرى ويكيت ، بدأ التغيير فى حياة مارتن الذى جعله يتخلى عن ثلاث أو أربع ساعات من نومه كل ليلة ليحاول تعلم أشياء يفترض أن يعرفها كل فرد ، ويكاد لايعرفها أى فرد .

وبدأ يدرس الجبر الذى اكتشف أنه قد نسى معظمه واستأجر مدرساً خاصاً من كولومبيا ، وانتهى من المادة بشىء أشبه بالإهتمام بالمعادلات التربيعية فى ستة أسابيع فى الوقت الذى كانت فيه لورا تستمع وتراقب وتنتظر وتعد « السندوتشات » وتضحك على ما يطلقه المعلم من نكات .

وفى نهاية الأشهر التسعة الأولى التى قضاها مارتن فى معهد ماكجورك كان قد راجع حسابات المثلثات والهندسة التحليلية وبدأ يكتشف أن حساب التفاضل شىء خيالى ، لكنه اخطأ إذ أخبر تيرى ويكيت بمقدار ما تحصل عليه من المعرفة.

فقال تيرى ويكيت مؤنباً : « لا تثق بالرياضيات كثيراً يابنى » .

وهكذا بعث الاضطراب إلى نفسه بإشاراته إلى ما يتولد من القانون العام لعلم القوة الحرارية وإلى القدرة على الحد من التأكد حتى أنه تعثر من جديد وصار فى حالة مهينة مصحوبة بسخط وبدأ يعتقد أنه مدع وأن معلوماته من الدرجة العاشرة .

وكان قد قرأ لكتاب العلوم الطبيعية الكلاسيكيين أمثال كور نيكوس وجاليليو ولافوازيه ونيوتن ولابلاس وديكارت وفاراداى ، وانغمس تماماً فى نظريات التفاضل لنيوتن ، وتحدث عن نيوتن إلى توبس وتبين له أن المدير المشهور لايعرف عن نيوتن شيئاً ، وذكر بانشراح ما اكتشفه إلى تيرى ويكيت الذى ـ مما يدعو للدهشة ـ لعنه بسبب غروره ووصفه بأنه محدث ثقافة وأنه « مثال

لمن اعتنق مذهباً جديداً يتعصب له » وهكذا عاد مارتن إلى العمل الذى نهايته مرضية لأن لا نهاية له إطلاقاً .

ولم يبدو أنه تثقف أو حظى بأى قدر من المتعة ، وعندما جاء توبس وتفرس فى معمله وجد شاباً مكتئباً يجرى تجاربه على المادة السامة المذيبة لكريات الدم الحمراء دون إدراك واضح للشىء الحقيقى الهام فى دنيا العلوم إلا وهو التعاون والكفاءة ، وحاول توبس أن يقومه بسؤاله : « هل أنت على يقين من أنك تتبع أسلوباً مألوفاً محدداً فى عملك ؟ »

وكانت لورا هى التى تتحمل الملل الحقيقى ، إذ كانت تجلس فى هدوء (فتاةضعيفة لايزيد طولها عن طول كتفى المرء ، كما أن عمرها لم يزد تسع دقائق عما كانت عليه يوم زفافها منذ تسع سنوات) أو تغفو فى حجرة الجلوس المستطيلة فى مسكنهما بينما راح مارتن يبحث فى كتبه الرياضية المعقدة حتى الساعة الواحدة أو الثانية بعد منتصف الليل ، وما كانت تستيقظ فى هدوء إلا ليقلقها بقوله : « والآن أصغ إلى أنه يجب أن أواصل بحثى فى نفس الوقت ، يا إلهى ، كم أنا متعب » .

وفى شهر مارس استطاعت أن تبعده بالقوة عن عمله فى رحلة إلى كيب كد مدتها خمسة أيام ، وجلس بين الأنوار المتلألئة فى شاتهام وقال غاضباً : «سأعود وأخبر تيرتى وجو تليب أن يذهبا إلى الشيطان ومعهما الكيمياء الطبيعية التى تتسم بالجنون ، لقد تعلمت ما يكفى ، كما أنى تعلمت الرياضيات » . وعقبت لورا على ذلك بقولها : « أجل أود أن أفعل ذلك، ولكن أليس من المضحك كيف أن الدكتور جوتليب يبدو على صواب دائماً؟ »

ولقد انغمس فى بحثه عن الاستفيلوليسين وفى دراسة حساب التكامل والتفاضل حتى أنه لم يدرك أن العالم كان وشيك أن يخضع للنظام الديمقراطى . وتملكته بعض الدهشة عندما اشتركت أمريكا فى الحرب .

— ٦ —

وانطلق دكتور توبس مسرعاً إلى واشنطن ليعرض خدمات المعهد على وزارة الحربية .

وعين جميع أعضاء هيئة المعهد — باستثناء جوتليب واثنين غيره رفضوا هذا الشرف — ضباطاً وطلب إليهم الإسراع بشراء حلل عسكرية أنيقة .

وأصبح توبس « كلونيل » وريبلتون هولابيرد « ميجر » وكل من مارتن وويكيت وبيلى سميث « كابتن » ، أما مساعدى العمل فلم يمنحوا أية مرتبة عسكرية ولم تسند إليهم أية واجبات حربية إلا مسح الأحذية البنية اللون والتزالك[1] الجلدية التى كان عدد كبير من القاتلين يرتدونها إشباعاً لأهوائهم أو حماية لسيقانهم ، أما الآنسة بيرل دوبنز — وهى أكثرهم تحمساً للحرب — والتى قتلت ببطولة عند تناول الشاى لا الرجال الألمان فحسب بل جميع نسائهم وأطفالهم الأفاعى فلم يكن يعترف بها أحد ، وكان عليها أن تصنع لنفسها زياً عسكرياً .

أما الرجل الوحيد من بينهم الذى اقترب من جبهة القتال أكثر منهم جميعاً فهو ويكيت الذى استأذن فجأة فى السفر فنقل إلى سلاح المدفعية وأبحر إلى فرنسا .

واعتذر لمارتن قائلا : « اننى أحس بالخجل لتركى عملى على هـذا النحو ، ويقيناً لست أبغى قتل الألمان — أعنى أن رغبتى فى قتلهم ليست أشد من رغبتى فى قتل معظم الناس — ولكننى لم استطع قط مقاومة الاشتراك فى عرض أكبر ، فعليك يا نحيف أن ترعى الأب جوتليب ، هل يمكنك ذلك ؟ لقد كان اشتراك أمريكا فى الحرب صدمة عنيفة له إذا أن عدداً من أبناء أخوته فى الجيش الألمانى ، كما أن الوطنيين أمثال بيرل ذات القدم الكبيرة سوف يستعرضون مثاليتهم باضطهاده ، وداعاً يا نحيف، حافظ على نفسك » .

---

(١) مفردها تزلك وهو وقاء للساق يستخدمه الفرسان .

واحتج مارتن بغموض على انضمامه إلى الجيش ، فكانت الحرب بالنسبة له فى أساسها معطلا جديداً لعمله ، شأنها شأن مبادىء بيكربو والفترة التى قضاها يكسب قوته فى هويتسيلفانيا ، ولكن عندما كان يتبختر مزهواً فى زيه العسكرى وجد فى ذلك متعة كبيرة حتى أنه ظل أسابيع عديدة وطنياً مثالياً ، كما كان ممتعاً أن يحيه الجند وأن يرد التحية فى جلال موقر فى روح من رفقة السلاح اشترك فيها مارتن مع غيره من الأطباء والأساتذة والمحامين والسماسرة والمؤلفين والمفكرين والإجتماعيين الذين كانوا مثله ضباطاً .

وما إن مضى شهر الا وأصبحت متعة الإحساس بأن يكون المرء بطلا شيئاً آليا ، وتاق مارتن إلى القمصان الخفيفة والأحذية المريحة والملابس التى لها جيوب معقولة ، وكان إرتداء تلك يسبب له الضيق وجحيم لا يطاق ، كما كانت ياقته تسبب له ألماً فى عنقه وتلكزه فى ذقنه ، وكان من المزعج لرجل اعتاد أن يجلس حتى الثالثة صباحاً يقوم بواجبه الخطير نحو دراسة حساب التفاضل والتكامل أن يرد على كل تحية .

وتحت إشراف الكولونيل المدير الدكتور ا . ديويت توبس ومحافظته الدقيقة على الرسميات كان على مارتن أن يرتدى حلته العسكرية — على الأقل الأجزاء الهامة منها — فى المعهد ، غير أنه اعتاد أن يرتدى فى المساء الملابس المدنية سراً ، وعندما كان يصحب لورا إلى السينما كان ينتابه إحساس بالغياب دون إذن ، وأنه قد يتعرض فى أى زاوية من زوايا الشوارع لأن يلقى البوليس الحربى القبض عليه ويعدمه فى اليوم التالى .

ولسوء الحظ لم يره أى رجل من رجال البوليس الحربى — ولكن ذات مساء عندما كان ينظر فى براءة واهتمام إلى أشلاء لص مسلح كان لص آخر قد قتله أدرك أن ميجور ريبلتون هولابيرد يقف إلى جواره ويحملق فى وجهه ، ولأول مرة بدأ الميجور بغيضاً حين قال :

« هل يبدو لك يا كابتن أننا نقوم بدور غير جدى حتى أنك ترتدى الملابس غير العسكرية ؟ أنه لم يتح لنا — لسوء الحظ — شرف الإنضمام إلى أولئك الذين يقفون فى جبهة القتال بسبب ما نقوم به من أعمال علمية ولكننا نخضع لأوامر كما لو كنا فى الخنادق التى يتوق البعض منا بشدة إلى أن يعود إليها ، وأملى يا كابتن ألا أراك تخالف الأوامر مرة ثانية وترتدى غير الملابس العسكرية وإلا ... »

وقال مارتن للورا فى حزن فيما بعد :

« لقد مللت الإستماع إلى قصة جرحه ، ولا أرى ما يحول دون عودته إلى الخنادق — فالجروح مناسبة الآن . أننى أريد أن أكون وطنياً ، ولكن وطنيتى هى البحث عن المادة المضادة ، وأن أقوم بعملى لا أن أن أرتدى نوعاً معيناً من السراويل وأن أزود بمجموعة معينة من الأفكار عن الألمان ، ولا يفوتك أننى عدو الألمان وأعتقد أنهم لربما على درجة من السوء مثلنا ، آه دعينا نعود إلى دراسة المزيد من حساب التفاضل والتكامل . . أن الليالى التى أقضيها فى العمل يا عزيزتى لا تضايقك أليس كذلك ؟ » .

وكانت لورا ماكرة فعندما لا تستطيع أن تبدو متحمسة تلوذ بالصمت دون أن تكدر أحداً

وفى المعهد أدرك مارتن أنه ليس المدافع الوحيد عن بلاده الذى لا يشعر بارتياح وهو يرتدى حلة الأبطال ، فقد كان الدكتور نيقولاس يو — الأمريكى ذو الشارب الخفيف ورئيس قسم الأحياء — أشد أعضاء هيئة المعهد حزناً وغماً .

وكان « يو » قد ارتدى حلة ميجور ولكنه لم يشعر بارتياح فى ارتدائها (وكان قد عرف أنه ميجور من كولونيل دكتور توبس ، كما علم من بائع الملابس أن ما يرتديه هى حلة ميجور) وغادر مبنى ماكجورك فى حزن واستنكار ، وكانت رجل سرواله منتفخة فوق حذائه . ومهما حاول ، لم يتذكر قط فى أن يزرر سترته

فوق القميص الذى رسم عليه زهرة البنفسج ، والذى يمكن شراءه بثمن بخس فى الشارع الثامن .

ولكن ميجور دكتور يو كان قد حقق نصراً عسكرياً أشد ، وأوضح لمارتن فى غلظة ، وهما فى طريقهما إلى قاعة الطعام التى انقلبت إلى قاعة عسكرية ، موقفه قائلا :

« قل لى يا أروسميث ، أما تضايقت البتة من هذه التحيات ؟ لعنة الله عليها ، فلا أدرك قط ما تعنيه كل هذه الأوسمة والشعارات ، لقد حسبت ملازماً فى جيش الخلاص أحد الجنرالات من أعضاء الشبان المسيحيين ، وربما كان ضابطاً برتغالياً ، ولكنى بدأت أتبين الحقيقة الآن ، ووضع « يو » أصبعه إلى جوار أنفه الكبير ونطق بالحكمة التالية : « كلما رأيت شخصاً يرتدى حلة عسكرية ويبدو أكبر منى سناً فإنى أحييه — لقد دربنى ابن أخى « تيد » فأصبحت أجيد الآن التحية ... وإذا لم يرد التحية فما على إلا أن أفكر فى عملى دون جدل ، ولو نظرت إلى الحياة العسكرية نظرة علمية فإنها لا تبدو شاقة على أية حال ! » .

— ٧ —

وكان ماكس جوتليب سواء فى باريس أو فى بون ينظر إلى أمريكا على أنها البلاد التى استطاعت بتحررها من النظام الملكى وباتصالها بحقائق حقول الذرة والعواصف الثلجية واجتماعات المدينة أن تنبذ الزهو السخيف بالحرب ، وكان يعتقد أنه لم يعد ألمانياً بل أحد رعايا لينكولن .

وكانت الحرب الأوربية هى الشىء الوحيد — إلى جانب طرده من كلية وينماك — التى حطمت هدوءه التهكمى .

فلم ير فى الحرب بهجة ولا أمل ، بل مأساة تزحف ، وكان يقدر الأشهر التى قضاها فى العمل والمحادثات الودية فى فرنسا وإنجلترا وإيطاليا ، ولقد أحب أصدقاءه الفرنسيين والبريطانيين والإيطاليين كما أحب زملاءه القدامى من الألمان ، وفى

الواقع نجد أن وراء لهجته السافرة قد أحب الألمان الذين عمل معهم وشاركهم أقداح الشراب .

وكان أبناء شقيقته — الذين اعتاد أن يلقاهم فى الأجازات التى كانوا يقضونها فى البيت ، وهم أطفال وصبية وشبان مضطربون — قد انضموا إلى قوات القيصر فى عام ١٩١٤ ، وأصبح أحدهم مشهورا للغاية ، والآخر عاش منزوياً لا يسمع عنه أحد ، والثالث مات وأنتن بعد أن مضى على موته عشرة أيام ، وصبر على هذا الحزن كما تحمل فيما بعد رحيل أبنه كضابط أمريكى ليقاتل أبناء عمومته ، وأما الذى صدم هذا الرجل — الذى كانت القوانين العلمية والنظريات المجردة كل شيء بالنسبة له — فهو جنون الكراهية الذى ملأ نفوس الشعب الأمريكى الذى هاجر إليه إحتجاجاً على ألمانيا .

وشاهد — ولم يصدق — نساءاً يؤكدن بأن جميع الألمان قتلة أطفال ، وجامعات تحظر استخدام اللغة الألمانية ، ورجال الأوركسترا وهم يحرمون موسيقى بيتهوفن ، وأساتذة بزيهم العسكرى وهم يغلظون القول إلى الكتبة دون أن يحتج هؤلاء على هذه المعاملة إطلاقاً .

وليس مؤكداً ما إذا كان الضرر الحقيقى قد لحق بحبه لأمريكا أم بذاته ، حتى أنه يفكر على هذا النحو المضحك ، وأنه لمن الغريب أنه وهو الذى ينبذ التعليم الآلى فى البلاد يدهش عندما يتجه التعليم مرة ثانية فى غبطة إلى الوسائل الآلية العتيقة المضحكة .

وعندما قدس المعهد الحرب وجد نفسه يعامل على أنه يهودى ألمانى تثار حوله الشكوك وليس العالم العظيم المجهول فى ميدان إحداث المناعة .

وحقيقى أن تيرى الذى انضم إلى سلاح المدفعية لم يكن ينظر إليه بقسوة أما ميجور ريلتون هولا بيرد فقد أصبح مزهوا وصارماً أثناء السير فى الدهليز ، وعندما أكد جوتليب لتوبس أثناء تناول طعام الغذاء قائلا : « أرى أنه من واجبى الإعتراف بكل فضيلة يتسم بها الفرنسيون — إننى مغرم بذلك الشعب المتفرد —

ولكن على أساس نظرية الاحتمالات أعتقد أنه لا بد أن يكون هنالك بعض الألمان الطيبين من بين الشعب الألمانى البالغ عدده ٦٠ مليون نسمة ، رد عليه كولونيل دكتور توبس بلهجة الأمر يقول : « فى وقت كهذا يتعرض فيه العلم لمأساه يبدو لى أنه ليس مناسباً أن يحاول المرء أن يكون طليق اللسان يا دكتور جوتليب » .

وفى الحوانيت وفى القطارات المرتفعة عن سطح الأرض كان أناس قصار القامة ذو وجوه حمراء من الذين يتصبب العرق من جبينهم عندما يسمعون لهجته يحملقون فى وجهه ويهمهم كل منهم إلى الآخر قائلا :

« هاك واحد من هؤلاء الألمان اللاعين المتوحشين الذين ينفثون السم » . ومهما كان ازدراءه لهم ومحاولة الظهور بمظهر المتكبر الذى يتجاهل حديثهم ، فإن هجومهم أنزله من عالم متغطرس إلى رجل مسن مرتعب محطم الأعصاب لا يحس بالطمأنينة .

وحدث مرة أن المضيفة التى كانت فى الماضى تفخر بمعرفتها له — وهى المضيفة التى كانت تدعى ستروفنايل والتى تزوجت من أسرة روزمونت الإنجيلية القديمة المشهورة — صاحت عندما ودعها جوتليب مستخدما عبارة الوداع الألمانية قائلة : « يؤسفنى يا دكتور جوتليب أن أبلغك أنه غير مسموح باستخدام هذه اللغة البغيضة فى هذا المنزل ! » .

وكان جوتليب على وشك أن يتخلص من عوامل القلق التى تعرض لها فى كاية وينماك ، وفى مصنع هوتزيكر أخذ يوسع نطاق علاقاته ويحتفى بالناس من علماء وموسيقيين ومتحدثين لكنه الآن قد دفع إلى العزلة ، وبعد أن تركه تيرى لم يثق إلا فى مريم ومارتن وروس ما كجورك ، وكشفت عيناه الغائرتان بجفنيهما المجعدين عن حزن دائم .

ومع هذا احتفظ بسخريته اللاذعة ، واقترح أنه من واجب كايتولا أن تعلق

فى نافذة منزلها راية عسكرية تثبت فوقها نجماً لكل شخص فى المعهد أرتدى حلة عسكرية .

وأخذت الإقتراح مأخذ الجد وقامت بتنفيده .

— ٨ —

ولم تكن الواجبات العسكرية التى اضطلعت بها هيئة معهد ما كجورك هى مجرد ارتداء الحلل العسكرية وتلقى التحيات والإستماع إلى المحاضرات التى يلقيها كولونيل دكتور توبس أثناء تناول الغذاء حول « الدور الذى يتحتم على أمريكا أن تلعبه فى إعادة بناء أوربا الديمقراطية » ،فقد تعهدت الهيئة أيضاً بإعداد الأمصال، وكان المساعد فى قسم الطبيعة الحيوية يخترع حواجز الأسلاك المكهربة ، أما الدكتور بيلى سميث الذى كان منذ ستة أشهر يغنى أغنية ألمانية بعنوان : « زعيم الطلبة فى كلية لوشوف » فقد كان يخترع غازاً ساماً لإستخدامه ضد جميع من يرددون هذه الأغنية . أما مارتن فقد أسند إليه إنتاج الليبوفا كسين — وهو معلق لميكروبات التيفود والباراتيفود فى الزيت ، وكانت مهمة خطيرة وكئيبة ، وكان مارتن مخلصاً فى أدائها وخصص لها صبيحة كل يوم تقريباً ، ولكنه أخذ يسخط أكثر من عادته ورحب باشمئزاز بالأبحاث العلمية التى تهاجم الليبوفاكسين وتعتبره أقل شأناً من المحاليل الملحية العادية .

وإدرك مارتن ما يعانيه جوتليب من حزن ، وحاول مواساته ، وكان عيب مارتن المؤسف هو أنه لم يكن يشفق على المجولين ، والمسنين الأغبياء ، ومن يعيشون فى وحدة ، لم يكن يعاملهم بقسوة ، لكنه كان يتجاهلهم أو أنه كان يضيق ذرعاً بترددهم فتجنبهم ، وكان كلما اتهمته لورا بذلك صاح غاضباً :

« حسناً ، لكن . . أنني منهمك فى عملى بصورة لا تمكنى من أن أضيع وقتاً مع الحمقى، وأنه لشىء ملائم، إذ أن معظم الناس الذين لا يرتقون عن مرتبة الخنازير إلا قليلا يجولون كثيراً رغبة فى القيام بالكثير من أعمال الخير المبهمة

حتى أنهم لا يفعلون شيئاً — كما أن معظم الناس الخجولين اللاعين يصبحون فقراء روحياً ، آه أنه لمن الأيسر أن يكون المرء طيب القلب أليفا يعزى نفسه دون أساس يرتكز عليه من أن يعمل بكد ويتمسك بعمله بشدة ... العمل الذى يحقق الانتصار ، وقليلون جداً من الناس هم الذين يتسمون بالشجاعة ليكونوا على قدر مهذب من الأنانية (فلا يردون على الخطابات) ويطالبون بحقهم فى العمل، فإذا كان لهم ما أرادوا سوف يحظى أولئك العاطفيين بنيوتن جديد أو ربما بمسيح آخر ، فيتخلون عن كل ما يفعلوه للعالم من أجل القاء الخطب فى المؤتمرات والإصغاء إلى مشاكل الفتيات السنات المتقلبات ، ليس هناك ما يستحق قدراً كبيراً من الجرأة أكثر من أن يحتفظ المرء بعقل واضح التفكير صلب الرأى» .

ولم يكن لمارتن حتى هذه الجرأة .

وعندما احتجت لورا كان يضطر إلى أن يكون شفوقاً مع جميع الشحاذين الضالين المتزعجين على اختلاف أنواعهم لمدة يوم أو يومين يعود بعدهما إلى الانغماس فى عمله ولم يكن هناك إلا شخصان كان بؤسهما ينفذ دائماً كالسهم إلى أعماق قلبه وهما : لورا وجوتليب .

وعلى الرغـــم من أنه كان مشغولا أكثر من أى شخص آخر فى إنتاج الليبوفاكسين فى الصباح وإجراء التجارب على الكيمياء الطبيعية فى المساء وقضاء ساعات من العمل الشاق بين الصباح والمساء فى بحثه عن الاستافيلوليسين ، على الرغم من هذا ، انتهز كل فرصة ممكنة ليقضيها مع جوتليب مجدداً غروره بالاستماع الذى طابعه الإحترام إلى ما يقوله .

وما لبث أن قضى بحثه على كل شىء آخر فجعله ينسى جوتليب ولورا ودراسته وجعله يسند عمله الخاص بالحرب إلى غيره ، وقضى ليله ونهاره فى عمل متواصل غير معقول عندما أدرك أن لديه ما هو أهم من جوتليب ، شىء يتعلق بمصدر الحياة الغامض .

الفصل الثامن والعشرون

وجاء كابتن مارتن أروسميث إلى بيته ، إلى زوجته الطيبه لورا مولولا : «إننى متعب للغاية وأحس بنوع من الفشل لأنى لم أحقق شيئاً خلال عام طويل قضيته فى معهد ماكجورك ، كان العقم طابع هذا العام فلم أجىء بشىء نافع ، سحقاً لى لو درست حساب التكامل والتفاضل هذه الليله ، هيا بنا إلى السينما دون أن أبدل ملابسى العسكرية فأنا متعب للغاية » .

فقالت لورا : « حسناً تفعل ياحبيبى ، لكن دعنا نتناول طعام العشاء بالمنزل ، فلقد ابتعت سمكاً رائعاً بعد ظهر اليوم » .

وكان مارتن أثناء مشاهدة الفيلم يبدى رأيه كضابط وطبيب فقال : يبدو غير محتمل أن أماً لا تعرف ابنتها بعد غياب دام عشر سنوات ، وكان قلقاً ومنطقياً ، وهى حالة لا يمكن أن يستمتع بها المرء بالسينما ، وعند ما تسلل من تلك الظلمة التى لم يكن تضيئها إلا الشاشة تنهد قائلا : « أننى عائد إلى المعمل ، سأحضر لك عربة لتقلك إلى المنزل » .

« آه ، دع عنك هذا الشىء البغيض ولو ليلة واحدة » .

« ليس فى هذا القول إنصاف ، فأنا لم أعمل منذ ثلاث أو أربعة ليال لساعة متأخرة من الليل » .

« إذن دعنى أرافقك » .

« كلا ، أشعر بأننى قد أعمل طوال الليل » .

وكان شارع الحرية وهو يعدو فيه نائماً تحت أبراجه ، وكانت أوامر ماكجورك أن يعمل المصعد طيلة الليل ، ولقد استخدمه بالفعل فى بعض الأحيان ثلاثة أو أربعة من أعضاء هيئة المعهد العشرين فى ساعات متأخرة جداً من الليل .

وكان مارتن فى صباح ذلك اليوم قد عزل سلالة جديدة من بكتريا الميكروب العنقودى من دمل أخذ يلتأم بسرعة غير عادية فى ردف عليل بمستشفى مانهاتان السفلى ، فلقد وضع جزءاً من الصديد فى حساء وقام بتحضينه صناعياً ، وما إن مضت ساعات ثمان إلا وظهرت البكتريا بكميات كبيرة . وقبل أن يعود منهوك القوى إلى بيته أعاد القنينة إلى الحاضن الصناعى .

ولم يكن يعلق أهمية خاصة على هذا الأمر ، وفى معمله نزع سترته العسكرية وتطلع إلى الأنوار الساطعة على النهر بلونه الأزرق الضارب إلى السواد ، ودخن قليلا وفكر فى مدى وقاحته مع لورا ولعن بيرت توزر وبيكربو وكل من تذكره قبل أن يندفع وهو شارد الذهن إلى الحاضن الصناعي حيث اكتشف أن الدورق الذى كان يجب أن يجد فيه نمواً واضحاً للبكتريا لم يعد به ما يدل على وجود البكتريا — المكروب العنقودى .

فصاح قائلاً : « فما هذا الشىء الخطير ، اننى أرى الحساء صافياً كما كان قبل أن أضع فيه بذور البكتريا ، ياله من حدث عقيم إذ يجيء فى وقت أنوى أن ابدأ فيه شيئاً جداً ».

وترك الحاضن الصناعي فى مقصورة خارج الدهليز ودلف إلى المعمل ، وبعد أن سلط نوراً قوياً على القنينة تأكد من صحة ما كان قد شاهده ، وأعد فى تبرم شريحة مما فى القنينة وفحصها بالميكروسكوب ، ولم يكتشف سوى أطياف ما كان بكتريا ، أشكالا حدوداً رفيعة ، إذ أن الشكل كان لا يزال قائماً لكن مادة الخلية قد تلاشت وأصبحت هيا كل عظمية دقيقة فى ميدان معركة لا حدود له .

ورفع رأسه عن الميكروسكوب وفرك عينيه المتعبتين وحك رقبته وهو غارق فى التفكير ، وكان قد نزع سترته ، كان كانت ياقته ملقاة على الأرض وقميصه مفتوحاً عند الرقبة ، وراح يحدث نفسه .

« هنا شىء غريب ، فقد كانت مزرعة البكتريا تنمو جيداً والآن قد انتحرت

أننى لم أسمع عن جراثيم تفعل ذلك قبلا ، لقد اكتشفت شيئاً ! فما الذى سبّبه ؟ وهل هناك بعض التغييرات الكيميائية ؟ أم أن ما حدث هو تغيير عضوى ؟ »

ولم يكن فى مارتن أروسميث آنذاك صفات بطولية مشهورة ، ولا عبقرية للغرام ولا سرعة بديهة خارقة،ولا سوء نكبات تحملها وتلقن منها عظة وعبرة، أنه لم يظهر كياسة فائقة ولم يقدم رسالة أخلاقية لكنه كان مليئاً بالعيوب العفوية والأمانة المعوجة ، فهو شاب غالباً ما اتسم بالقسوة وسوء الأدب بيد أن له موهبة واحدة هى : حب الاستطلاع الذى جعله يرى كل شىء غير عادى ، فلو كان بطلاً معروفاً كيمچور ريبلتون هولابيرد لأفرغ محتويات الدورق فى البالوعة معترفاً فى تواضع كبير بقوله : «ياللغباء ! لقد ارتكبت خطأ !» ومضى فى طريقة ، ولكن مارتن ، لكونه مارتن ، أخذ يروح ويغدو مفكراً وهو يزمجر: « هناك سبب لذلك، وسأحاول اكتشافه » .

وانتابته فكرة عاطفية هى أن يتصل بلورا تليفونياً ويخبرها عما حدث من شىء عظيم وألا تقلق بسببه ودلف فى الدهليز وهو يشعل عيدان الثقاب محاولا أن يعثر على محولة التليفونات.

وكانت جميع الردهات تسكنها الأرواح الشريرة بالليل ، وحتى فى مبنى ماكجورك الجديد البديع كان واحد من كتبة الحسابات قدمات منتحراً ، وبينما كان مارتن يتحسس طريقه شعر بوقع أقدام من خلفه فأرعبته ، وبأشكال ترميه بنظرات خفية من الممرات لا تلبث أن تختفى فى وقاحة ، وبأهوال الأشباح العتيقة، وعندما عثر على المحولة ابتهج أن وجد نفسه فى أمن ورعاية الضوء الباغت الذى أعاد خلق العالم .

وفوق لوح محولة تليفون المعهد وضع الموصل حيث بدا له معقولا ، واعتقد مرة أنه يتحدث إلى لورا واتضح أن الصوت لرجل غاضب قال : «الرقم من فضلك» فى يقظة ونشاط تام لا يمكن أن تتسم به لورا الكسولة ، ومرة جاء صوت يقول « هل هذه سارة ؟ إذن فأنا لا أريدك ؟ فضع من فضلك سماعة التليفون » .

ومرة أخرى سمع فتاة تتوسل « صدقاً يابيلى أننى حاولت أن أخرج للقائك ، لكن المدير جاء الساعة الخامسة وقال . . . »

أما اصوات البقية فقد كانت مؤلمة ، أنه صوت سبعة ملايين من البشر عطشى إلى النوم أو الحب أو المال .

وقال « آه أيتها الجرذان ، أظن لورا قد آوت الآن إلى فراشها » وتحسس طريقه عائداً إلى المعمل .

ووقف كمخبر يبحث عن قاتل البكتريا ، وقد أمال رأسه إلى الوراء يحك ذقنه ويبحث فى ذاكرته عن حالات مشابهة لجراثيم انتحرت أو قتلت دون سبب ظاهر . واندفع إلى الطابق العلوى حيث المكتبة ليسترشد بآراء العلماء الأمريكين والبريطانيين والفرنسيين والألمان ولم يعثر على شىء .

وخشى من احتمال عدم وجود مكروب عنقودى حى فى الصديد الذى استخدمه فى الحساء لزرع البكتريا ، فربما لم يكن هنالك المكروب حتى يموت ، وفى حالة عصبية جرى فوق البلاط الأملس دون أن ينتظر حتى ليضىء النور . وانزلق إلى أسفل السلالم ودلف بسرعة عبر الممرات حتى جاء إلى غرفته فعثر على بقايا الصديد الأصلى فوضع منه عينة فوق شريحة زجاجية ولونها بلون بنفسجى وبعصبية قطر نقطة واحدة من صبغة زاهية اللون فوقها واندفع نحو الميكروسكوب ، وعندما انحنى فوق الأنبوبة النحاسية وركز على العدسة فى مجال الرؤيا المستدير حيث اللون البنى والأزرق الفاتح ظهرت عناقيد أشبه بعناقيد العنب من الجراثيم العنقودية وهى عبارة عن نقط أرجوانية فى منطقة فراغ .

وصاح قائلاً : « بها ميكروب عنقودى فعلا ! » .

ثم نسى لورا والحرب والليل والتعب والنجاح وكل شىء عندما أخذ يضع الترتيبات اللازمة لإجراء تجربته ، انها أول تجربة عظيمة يجريها ، وأخذ يخطو فى اضطراب بل وفى حيرة — ولكنه هدأ من روع نفسه وجلس إلى منضدة

وسط دخان لفافات التبغ المتصاعد فى أشكال مستديرة وحلزونية ليسطر فوق أفرخ صغيرة من الورق جميع الأسباب التى يمكن أن تؤدى إلى انتحار البكتريا ، فدون جميع الأسئلة التى تحتاج إلى جواب والتجارب التى ينبغى أن تعطى الجواب عنها. فربما مادة قلوية فى قنينة لم تنظف تنظيفاً تاماً هى التى قتلت البكتريا ، ومن الجائز أن فى الصديد ماده مضادة للميكروب المنقودى ، أو أن هناك شيئاً قد أطلقته الميكروبات المنقودية نفسها ، وقد يكون السبب هو صفة معينة يتسم بها هذا الحساء بالذات .

ولا بد من اجراء التجارب لإثبات كل من هذه الاقتراحات .

وفتح باب المخزن الزجاجى محطماً القفل وأخذ قنانى جديدة ونظفها ومسحها بالقطن وعرضها لهواء الفرن الساخن ليعقمها ، وعثر على كميات أخرى من الحساء — والواقع أنه سرقها مما يحتفظ به جوتليب من مؤن خاصة ومقدسة فى صندوق الثلج ، وقام بترشيح بعض مزارع البكتريا بترشح معقم من الصينى ثم أضاف إليها سلالات الميكروب المنقودى التى يجرى عليها تجاربه. وأهم من ذلك كله هو انه اكتشف أنه لا يملك سجاير . وأخذ يبحث ، غير مصدق ، فى كل جيب من جيوبه ، ثم عاد لتفتيشها ثانية وبحث فى جيوب سترته العسكرية المهملة ثم تذكر أنه شاهد مرة بعض لفائف التبغ فى أحد الأدراج ففتحه لكنه لم يعثر على شىء ، ودلف إلى الحجرة حيث تعلق ملابس وسترات الفنيين ، وراح فى حال من الغضب يقلب الجيوب فعثر على اثنى عشرة لفافة فى علبة مبططة من الورق .

ولكى يجرى تجاربه على كل سبب من الأسباب الأربعة الممكنة التى أفترض أنها قتلت البكتريا فى القنينة أعد سلسلة من القنانى وزرعها بالبكتريا تحت ظروف مختلفة ، ثم وضعها فى الحاضن الصناعى و درجة حرارة الجسم ، وعند وضع آخر قنينة كانت يده ثابتة ووجهه المتعب هادىء إذ تغلب على كل عصبية وتحرر من القلق وبدأ خبيراً يزاول عمله .

وكانت الساعة السادسة من صبيحة أحد أيام شهر أغسطس الجميلة ، وعندما توقف عن عمله العاجل وهدأت أعصابه المشدودة تطلع من نافذته الشاهقة وبدأ يحس بالعالم تحته فرأى اسطحاً نظيفة وأبراجاً شاهقة وباخرة مرتفعة الظهر تمايل فوق سطح ماء النهر اللامع .

وكان منهوك القوى تماماً ، فكان أشبه بجراح فى معركة حربية وبصحفى أثناء وقوع زلزال ، ربما كان مختل التوازن بعض الشيء ، لكنه لم يكن يشعر بالنوم ، وأخذ يلعن تأخير نمو البكتريا التى بدونها لا يمكنه أن يكتشف تأثير الأنواع العديدة للحساء وسلالات البكتريا، ولكنه أخفى قلقه وتذرع بالصبر .

وتسلق سلماً غطيت أرضه ببلاط يحدث صوتاً عند وقع الأقدام عليه إلى عالم السطح المرتفع، ووقف ينصت عند باب بيت حيوانات المعهد، وكانت الخنازير الهندية وهى يقظة تقضم طعامها تحدث صوتاً أشبه بالصوت الذى تحدثه قطعة قماش مبللة يحك بها زجاج نافذة لتنظيفه، وضرب الأرض بقدمه فأحدثت الخنازير فى هلع الصوت الغريب الذى تحدثه من الخوف والذى يشبه هدير الحمام .

وراح فى عنف يسير جيئة وذهاباً مستمتعاً بالسماء الشاهقة إلى أن هدأ وأحس بالجوع ، وعاد يحاول ثانية سرقة شىء يأكله فعثر على قطعة من الشيكولاته فى جيب أحد الفنيين الأبرياء ، بل وسطا على مكتب المدير . وفى أحد أدراج مكتب بيرل روبنز التى هى أشبه بالإلهة ديانا . عثر على شاى وغلاية (كما عثر على أحمر شفاه وخطاب غرام ابتدره صاحبه بعبارة « عزيزتى ايكليز الصغيرة » وأعد لنفسه قدحاً ردىء الصنع من الشاى ثم عاد إلى منضدته يجر جسمه ليدون بدقة فى مذكرة رثة تكاد تكون مملوءة ، كل خطوة من خطوات تجربته. وبعد الساعة السابعة اتصل تليفونياً بمستشفى مانهاتان السفلى وسأل : «هل يمكن للدكتور أروسميث أن يحصل على كمية أخرى من الصديد من نفس الدمل ؟ ماذا ؟ هل إلتأم ؟ لعنة الله عليه ! فليس هناك المزيد من هذه المادة ».

وتردد فيما يتعلق بانتظار وصول جوتليب لينبأه بما قد حققه من اكتشاف ، غير أنه قرر أن يلوذ بالصمت حتى يتأكد من أهمية هذا الاكتشاف ، وبعينين مفتوحتين وفى اضطراب أشد من أن يجعله ينام فى الطريق النفق أسرع إلى المدينة ليخبر لورا ، فلابد من أن يخبر شخصاً ما وغمرته موجات من الخوف والشك واليقين ثم الخوف ثانية ، ودوت أذناه كما ارتعدت يداه .

واندفع نحو المسكن ونادى : « لورا ، لورا » قبل أن يفتح الباب ، أما لورا فكانت قد غادرته .

وفتح الباب ، وانبعث من المسكن رائحة الفراغ ، وفتش المسكن ثانية ، لقد نامت هناك ، واحتست قدحاً من القهوة ، لكنها اختفت .

وشعر على الفور بالقلق خشية أن تكون قد تعرضت لحادثة ، واستشاط غضباً لعدم وجودها فى تلك الساعة العظيمة ، وفى كآبة أعد لنفسه طعام الإفطار . . . ومن الغريب أن علماء البكتريا والكيمياء الممتازين يقلون البيض ويخلطون بيضه بصفاره ويتركونه فى حالة سيولة كبيرة ويصنعون قهوة مرة للغاية ولا يعبأون بالملاعق القذرة . . . وبعد تناول الطعام بدأ يعتقد أن لورا قد تركته إلى الأبد ، وارتجف وهو يقول « لقد أهملتها كثيراً » ، وسار ببطء إلى المعهد — إذ تصور نفسه الآن رجلاً مسنا ، وعند المدخل التقى بها .

فصاحت مولولة « لقد شعرت بالقلق ولم أستطع أن أتصل بك تليفونياً فأتيت إلى المعهد لأتبين ما ألم بك »

فقبلها بعنف وراح يهذى « يا إلهى ، أيتها المرأة لقد حققت ما أريد ، إنه الشيء الكبير حقاً ، لقد اكتشفت شيئاً — ليس ما أقصد هو مادة كيميائية — يأكل الجراثيم — أى يذيبها — ويقتلها ، ربما يبرهن هذا الإكتشاف على أنه خطوة كبيرة جديدة فى وسائل العلاج ، آه ، كلا لا أظن أنها كذلك حقاً ، فربما تكون مجرد عمل أخرق من الأعمال التى أثبتها . »

وحاولت أن تطمأنه لـكنه لم ينتظر واندفع نحو الطريق النفق واعداً بالإتصال بها تلفيونياً ، وما أن أقبلت الساعة العاشرة إلا وكان يمعن النظر فى حضنة الصناعى .

وكانت هنالك بـكتريا فى جميع القنانى ما عدا تلك التى استخدم فيها الحساء من القنينة الأصلية التى نبهته إلى هذه الظاهرة ، فى تلك القنانى منع قاتل الجراثيم الخفى نمو البـكتريا الجديدة التى كان قد غرسها .

فقال : « هذا شىء عظيم » .

وأعاد القنانى إلى الحاضن الصناعى مسجلا ملاحظاته ، ثم عاد إلى المـكتبة وفتش الـكتب وأعمال الهيئات والمجلات التى تصدر بلغات ثلاث إذ كان ملما بقدر معقول من التعبيرات الفرنسية والألـمانية ، وربمـا لا يستطيع أن يبتاع مشروباً أو يسأل عن الطريق المؤدى إلى الـكورسال بأى من هاتين اللغتين ، لـكنه يفهم اللغة العلمية اليونانية العالمية وأخذ يفتش الـكتب الضخمة ويفرك عينيه اللتين اكتستا بالحرار » .

وتذكر أنه ضابط بالجيش وعليه أن ينتج فى صباح ذلك اليوم مادة الليبوثاكسين ، ومضى إلى العمل ولـكنه كان مضطرباً بحيث أتلف الـكمية التى بين يديه ، ووصف مساعده الصبور بالأحمق وأرسله — بعد هذه الإساءة — ليحضر له قدحاً من الويسكى .

وكان لابد له من أمين سر ، فأتصل تليفونياً بلورا وتناول معها طعام غذاء فاخر وأكد لها « أنه لا يزال يبدو كما لو كان هنا لك إكتشاف جديد» ، وكان يعود إلى المعهد كل ساعة بعد ظهر اليوم ليلقى نظرة على قنانيه ، أما خلال هـذه الفترات فـكان يجوب الشوارع وقد أضناه التعب يحتسى الـكثير من القهوة .

وكانت تراوده كل خمس دقائق كفكرة جديدة مذهلة ، عبارة « لماذا لا أنام» ثم تذكر وقال غاضبا : « كلا لا بد لى من البقاء وملاحظة كل خطوة ، فلا يمكننى

تركها والا اضطررت أن أبدأ العملية بأسرها من جديد ، غير أنى أحس برغبة شديدة فى النوم ، فلماذا لا أذهب لأنام ؟ »

وقبل السادسة جدد نشاطه ، وفى السادسة كشف فحصه عن أن القنانى التى تحتوى على الحساء الأصلى لا تزال لم يحدث بها أى نمو للبكتريا ، أما القنانى التى زودت بالصديد الأصلى فأنها بعد أن بدأت تظهر نموا للبكتريا ، شأنها شأن القنينة الأصلية ، بدا الحساء صافياً دون بكتريا بعد أن تعرض للهجوم البطىء المتزايد من جانب القاتل المجهول .

وجلس منهوك القوى يحس بارتياح . لقد نجحت تجربته ودون نتائج ملاحظاته الأولى :

« لقـــد اكتشفت عنصرا سأطلق عليه بصورة مؤقته « عنصر س » فى الصديد الذى نقل من مرض الميكروب المنقودى الذى يمنع نمو سلالات عديدة من الميكروب المنقودى والذى يذيب الميكروبات المنقودية من الصديد الذى هو موضع تجاربى »

وعندما انتهى فى الساعة السابعة مالت رأسه فوق مذكرته ونام .

واستيقظ فى العاشرة وذهب إلى بيته حيث أكل بنهم ثم نام ثانيه لـكنه عاد إلى معمله قبل الفجر ، وبعد ظهر اليوم تمدد ساعة فوق منضدة المعمل بينما وقف مساعده يحرسه ، أما راحته التاليه فـكانت بعد يوم ونصف اليوم عندما قضى فى فراشه ثمانى ساعات من الفجر حتى الظهر .

وكان فى الأحـــلام يقلب حاملا أنابيب الاختبار أو يحطم قنينة ، كما أنه اكتشف « عنصر س » الذى يذيب القاعد والمناضد وبنى الانسان وراح ، يدهن بهذا العنصر بيرت توزرس ودكتور بيسكى وراقبهما وهما يختفيان من الوجود بطريقة شيطانية ، وحدث أن سقطت نقطة منه على لورا فرآها تتلاشى واستيقظ صارخا ليجد ذراعى لورا الحقيقيين يضمانه بينما نشج وهو يقول : « آه ، لايمكنى

القيام بشيء بدونك فلا تتركيني أبداً ، فأنا أحبك حباً جما وأن يكن هـذا العمل اللعين يبعدني عنك فأمكثي معي » .

وبينما جلست بجواره فوق السرير غير المنسق منشرحة وهي ترتدي قميصاً مخططاً من القطن نام ليستيقظ بعد ثلاث ساعات ، وأخذ يستعد للذهاب إلى المعهد بعينين جاحظتين محمرتين كالدم ، فأعدت له لورا قدحا من القهوة وراحت تخدمه في صمت تنظر اليه في فخر وزهو بينما لوح لها بذراعيه هاذيا :

« يجدر بجوتليب أن يكف عن الحديث عن أهمية الملاحظات الجديدة فقد لا ينطبق « عنصر س » على الميكروب المنقوذي وحده بل ربما على أي ميكروب آخر أيضا كما يمكن بواسطته علاج أية أمراض ميكروبية ، بالميكروب الذي يعيش على الميكروبات ! أو من الجائز أنه عنصر كيميائي ، إنزيم من الإنزيمات ، آه لست أدري ، لكني سأمضي تجاربي ! »

وعندما اندفع إلى المعهد انتفخ زهوا بحقيقة أنه بعد سنوات من التعثر استطاع الوصول إلى نتيجة ، وراح يتصور اسمه في الصحف والكتب ، كما تصور المؤتمرات العلمية وهي تحييه ، لقد كان مغمورا بين خبراء المعهد ، لكنه الآن قد تفوق عليهم جميعاً ، ولكن ما إن عاد إلى منضدة معمله إلا وتبددت هـذه الأحلام العظيمة وصار ككلب الصيد في بحثه عن الحقيقة وكالعامل المجهول وأمامه انفتحت طرق وعرة جديدة للعمل وتولدت فيه قوة عارمة ، وهـذا أعظم ما يبعث الغبطة في نفس الباحث .

وظلت حياة مارتن أسبوعا تتسم بالاضطراب والقلق ، الرغبة في التجول ليلا كحياة جندي هارب في بلاد العدو ، فكان دائماً يعقم القناني ويعد المحاليل التي تختلف فيها نسبة تركيز أيونات الهيدروجين ، وينقل مذكراته القديمة في كراسة جديدة أطلق عليها اسم « عنصر س، الميكروب المنقودي » بعد أن أضاف اليها المزيد من الملاحظات ، وحاول بإتقان أن يقرر عن طريق استخدام القناني الكثيرة

وعمليات زرع البكتريا العديدةما إذا كان هذا العنصر سيثبت وجوده بصفة دائمة ، وما إذا كان سيعود إلى الظهور عند نقله من أنبوبة قديمة إلى أخرى جديدة ، وما إذا كان ينمو عن طريق إنقسام الخلايا بطريقة آلية — الأمر الذى يجعله من الجراثيم بالفعل أو أنه نتيجة لجرثومة من نوع آخر يؤدى إلى إصابة الجراثيم الأخرى بالعدوى .

وكان جوتليب يجىء من آن لاخر ويتفرس من فوق كتفيه فيما يقوم به نشاط لكن مارتن لم يشأ أن يبلغه قبل أن يحصل على الدليل ، وبعد أن يقضى ليلة فى نوم هادىء وربما بعد أن يحلق ذقنه .

ولما تأكد من أن «عنصرس» يتوالد بغير حدود حتى أنه أحدث فى الأنبوبة العاشرة تأثيراً مماثلا للتأثير الذى أحدثه فى الأولى — زار جوتليب وعرض عليه نتائجه مع خططه حول المزيد من البحث .

وقرع الرجل المسن بأصابعه النحيله على التقرير وقرأه بعناية وتطلع وطرح الأسئلة التالية دون أن يضيع وقت فى التهانى :

« هل فعلت هـــذا ؟ لماذا لم تفعل ذاك ؟ وفى أية درجة حرارة يبلغ نشاط « القاعدة س » أقصاه ؟ هل ظهر نشاطها على مادة صلبة « كالأجار » ؟

« هذه خطتى للعمل الجديد ، أعتقد أنك ستجد أنها تتضمن معظم ما أثرته من مقترحات . »

وقرأها جوتليب ثم همهم قائلا : هه ، لماذا لا تجرى التجربة على الميكروب العنقودى الميت ؟ فهذا أصحها جميعاً . »

« وما السبب » ؟

وانتقل جوتليب على الفور إلى قلب الدغل الذى ظل مارتن يناضل فيه عدة أسابيع بقوله : « لأن ذلك سوف يكشف عما إذا كنت تجرى تجاربك على فيروس حى أم ميت » .

وأخس مارتن يتخاذل ، أما جوتليب فتألق وقال :

« أنك حصلت على شيء عظيم فلا تطلع المدير عليه حتى لا يتحمس له قبل الأوان إنني سعيد يامارتن » .

وكان فى صوت جوتليب ما دفعه إلى إن يسير مختالا فى الدهليز ، وعاد إلى عمله ولم ينم .

ولم يستطع أن يقرر حقيقة العنصر س — أهو كيميائى أم جرثومى — ولكن المؤكد هو أن المصدر الأصلى قد ازدهر ، ويمكن نقله دون حدود ، كما حدد له أفضل درجة حرارة ينمو فيها ، واكتشف أنه لا يتوالد فى حالة الميكروب العنقودى الميت ، وعندما أضاف قطرة تحتوى على هذا العنصر إلى مزرعة من الميكروب العنقودى التى كانت توجد على شكل شريط رمادى على سطح « الأجار » الصلب تحددت النقطة بطريقة جميلة بيقع فراغ عندما هاجمها العدو حتى بدأ سطح « الأجار » وكأنه قطعة من شمع النحل المتآكل ، ولكن فى غضون أسبوعين ظهرت إحدى العقد التى حذره منها جوتليب ، فأدرا كا منه لمثات علماء البكتريا الذين سوف ينقضون علية بمجرد ظهور بحثه حاول أن يتأكد من أن نتائجه يمكن تأييدها فحصل فى المستشفى على الصديد من دمامل كثيرة من الأذرع والسيقان والظهور ، وحاول مضاعفة نتائجه لكنه فشل تماماً ، ذلك لأن « عنصر س » لم يظهر فى أى من الدمامل الجديدة ، وفى حزن لجأ إلى جوتليب .

وراح الرجل السن يفكر وطرح سؤالا أو سؤالين ثم تربع فى مقعده ذى المساند وتساءل :

« ما نوع الدمل الأصلى » ؟

« دمل فى الردف » .

« آه اذن يمكن أن يوجد « عنصر س » فى المحتويات المعوية ، إبحث عنه فى المصابين بالدمامل وغير المصابين » .

وتركه مارتن ، وخلال أسبوع حصل « العنصر » من المحتويات المعوية ، ومن الدمامل الردفية الأخرى مكتشفا كمية خاصة فى الدمامل التى كانت تلتئم من تلقاء ذاتها ونقل « مادته » الجديدة فى نشوة من النصر والإعجاب لجوتليب ، ووسع نطاق تجاربه على مجموعة الكائنات الحية المعوية واكتشف « عنصر س » ضد العصبيات القولونية ، وفى نفس الوقت أعطى أحد الأطباء فى مستشفى مانهاتان السفلى بعض « العنصر » الأصلى لاستخدامه فى علاج الدمامل ، وحصل منه على تقارير مذهلة عن حالات الشفاء التى تحققت وعلى استفسارات ملحة عن سر هذه المادة .

وعندما حقق هذه الانتصارات ذهب يستعرضها أمام جوتليب وفجأة رده على أعقابه بقوله :

« آه ، هكذا فعلت ، شىء جميل ، أسمحت لطبيب يجربها قبل أن تنتهى من بحثك ؟ وهل ترغب فى تقارير مزيفة عن حالات الشفاء لتنشرها الصحف وينقلها البرق من مكان لآخر فيندفع كل من هو مصاب ببثرة من ربوع العالم ليجد الشفاء فلن تتمكن بعد ذلك من العمل ؟ وهل ترغب فى أن تكون رجل معجزات وليس عالمًا ؟ ألا تريد أن تتم ما بدأت به ؟ هل ترغب فى أن تتجول وأنت تقفز كالقردة وتهذى عن العصويات القولونية قبل أن تنتهى من المكروب العنقودى — قبل أن تبدأ فى عملك بداية حقيقية — وقبل أن تكتشف طبيعة « العنصر س » ؟ أخرج من مكتبى ، أنك تصلح لأن تكون عميداً لأحدى الكليات ، وأعتقد أن ما ستفعله بعد ذلك هو أنك ستتناول الطعام مع توبس وتحاول نشر صورتك فى الصحف باعتبار أنك بائع الشفاء النابه .

وتسلل مارتن إلى الخارج وعندما التقى ببيلى سميث فى الدهليز وصرح الكيميائى القصير القامة متسائلا . « هل توصلت إلى شىء هام ؟ فأنا لم أراك فى الفترة الأخيرة » أجابة مارتن بلهجة مساعد الدكتور فيكرسون فى إيلك ميلز بقوله :

« آه ، كلا ، فأظن أن كل ما أفعله هو أننى أبحث جاهدا »

— ٣ —

وراقب مارتن نفسه وهو فى حالة من جنون الإرهاق والانزلاق نحو الأمراض العصبية بالذكاء التام والموضوعية التى يلاحظ بها المرض الزاحف على خنزير هندى أصيب بعدوى ، وباهتمام بالغ لاحظ أعراض الأمراض العصبية ورأى الواحد بعد الآخر يهجم عليه ، ومن ثم أضحى فى خطر .

ونتيجة للقلق الذى خلق منه انسانا تستحيل الحياة معه أصبح فى عصبية مرضية كان ينسى معها الأشياء التى توصل اليها ، وتسقط أنابيب الاختبار من يديه ويلهث عندما يحس بوقع أقدام مباغتة من خلفه ، وأصبح الدكتور يو الذى هو أشبه بنعيق الغراب بالنسبة له حمى وإهانة ، وكان يقف فى حالة توتر ويصيح غاضبا «أسكت.. أسكت آه أسكت» إذا ما توقف يو ليتحدث إلى شخص ما خارج بابه.

ثم تملكته رغبة فى أن يقرأ حروف جميع الكلمات التى تحملها اللافتات بالعكس

ورفع كتفه فوق شريط ممتد إلى جانب الطريق النفق وانكب على قراءة الاعلانات بحثاً عن الكلمات الجديدة ليقرأ حروفها بالعكس ، وكان بعضها موفقاً للغاية ، فكلمة « لا تدخين » أصبحت « نيخدت لا » المقبولة وكلمة « برودواى » أصبحت « ياودورب » المحتملة ، ولكن محاولاته فى كلمات مثل الصحة ، القوة ، « بنش » لم ترق له ، بينما كان قلب لفظ « قوة » إلى « توق » أمراً بغيضاً .

ولما كان مضطراً إلى العودة إلى معمله ثلاث مرات قبل أن يتأكد من أنه قد أغلق النافذة ، جلس فى هدوء وقال لنفسه إنه يجلس على الحافة واستشارها فيما إذا كان يتجاسر ويقذف بنفسه ، ولم تكن النصيحة طيبة للغاية ، فعمله الذى لم يتكشف بعد جعله يحس بالمجد حتى أنه لم يكن من الممكن أن يأخذ نفسه مأخذ الجد .

وأخيراً أطبق الخوف عليه .

وبدأ برعب الطفولة من الظلام ، فكان يضطجع يقظاً خشية أن يقتحم اللصوص منزله ، كما كان وقع الأقدام فى الردهة هى عملية إغتيال تدنو منه ، وأى قرعة خفيفة غامضة على المدفأة ليست سوى قاتل يحمل مسدساً فى يده ، ولقد رآه بوضوح حتى أنه ترك فراشه ونظر فى حالة من الهلع إلى الخارج ، ولما رأى فى الشارع رجلاً واقفاً دون حراك تجمد من الرعب .

وكان يرى فى توهج الجو ناراً ، وأنه سوف يقع ضحية مكيدة فى فراشه ويموت متلوياً من الألم .

وعرف عن يقين أن مخاوفه غامضة ولكن هذه المعرفة لم تحل قط دون سيطرتها عليه .

وخجل فى بادىء الأمر أن يعترف بجبنه للورا ، فهل يعترف بأنه يخاف مثل طفل ؟ ولكن عندما تجمد فى فراشه وكاد يصرخ وهو يحس بحبل القاتل يطبق على عنقه حتى جاء الفجر الآمن بعالم يمكن الاعتماد عليه همهم بشىء عن «الأرق» وأخذ بعد ذلك يزحف الليلة بعد الأخرى نحو ذراعيها فوقته من عوامل الرعب وأبعدت عنه النار وحمته من القتلة .

ووضع قائمة لمراجعة المخاوف الناجمة عن الأمراض العصبية مثل : الخوف من الأماكن العامة ، والخوف من الأماكن المغلقة ، والخوف من النار ، والخوف من الناس ، وبقية القائمة التى تنتهى بما أكد بأنه « التعبير الأخرق المختلف الذى اخترعه الأطباء لواحد من هذه المجموعة التى تزداد شيئاً فشيئاً » وهو الخوف من رحلة بالسكك الحديدية واستطاع فى الليلة الأولى مقاومة الخوف من النار ، فعندما كان يشاهد المسرحية الاستعراضية مع لورا وأشعل راقص فوق المسرح مشعلاً من النحاس جلس ينتظر احتراق الملهى وراح ينظر بحذر إلى صفوف المقاعد (وثار ضد نفسه لأنه فعل ذلك) يفكر فى وسيلة للهرب ، ولم يشعر بالارتياح إلا بعد أن خرج إلى الشارع .

وعندما جاء دور الخوف من الناس الذين كان سيرهم بالقرب منه يزعجه سمح لنفسه فى شىء من التعقل بالراحة بعد أن نظر إلى القائمة ورأى عدد المخاوف التى أمكنه التغلب عليها .

وهرب إلى تلال فيرمونت فى جولة تستغرق أربعة أيام بمفرده حتى يمكنه أن يحصل على نتيجة بأكثر سرعة ، وبالليل أستقل قطاراً سريعاً وتمكن من أن يدون أمتع الملاحظات عن الخوف من رحلة بالقطار .

واضطجع فى سرير سفلى بالعربة ، وكانت الوسادة الصغيرة محشوة كالكتلة ، وتضايق من حركة ملابسه وهى تتطاير من علاقة الملابس بجواره عند فتحة الستائر الخضراء ، وكان شباك القطار على ارتفاع ست بوصات ، وترك مسافة تتسلل منها الأنوار الصفراء واضحة فى ظلام زنزانته الصغيرة الصاخب ، وكان يرتعد من القلق . وكلما حاول الاسترخاء عاوده الخوف ، وعندما توقف القطار بين المحطات وجاءت صفارة القاطرة المزعجة المستفسرة وقف مشدوها وهو على يقين من أن حدثا قد وقع — جسر تزحزح من مكانه أو قطار يقف فى طريق قطارهم أو ربما آخر قادم من الخلف بسرعة ستين ميلا فى الساعة يكاد أن يحطمهم .

وتصور أنه قد تهشم ، وعانى أكثر مما لو تعرض فعلا للتحطيم لأنه لم يتصور مأساة واحدة بل سلسلة من المآسى المتنوعة .. فالعجلة المنبسطة من تحته ـ يقينا أن العجلة لايجب أن تحدث مثل هذا الصوت ـ لم لم يجىء الرجل الملعون بالمطرقة ويفحصها عند آخر محطة كبيرة توقف فيها ؟ ـ لقد تحطمت العجلة فتمايلت العربة وسقطت وجذب فوقها . تصادم وتهشم ، وسرعان ما أصبحت العربة كومة محطمة رهيبة ، ورأى نفسه ملتصقا بالسرير ، محصوراً بين مقعد وآخر ، صيحات وأنات موت وألسنة لهب زاحفة .. العربة تنقلب ، وتسقط ، وتغوص فى النهر على جانبها ، أما هو فحاول أن يخرج من إحدى النوافذ بينما أحاطت المياه بجسمه .. إنه يقف بجوار العربة المحطمة يختار بين الابتعاد وحماية عمله المقدس وبين العودة وانقاذ الناس معرضاً نفسه للموت .

وكانت تصوراته تبدو هكذا واقعية حتى أنه لم يطق الاسترخاء فى انتظار ، وبحث عن نور السرير ولم يعثر عليه ، وفى اضطراب انتزع صندوقا من الكبريت من جيب سترته وأشعل عود ثقاب وأنقض على النور ، ورأى نفسه تحت الملايات وقد انعكست صورته فى سقف سريره الخشبي المصقول كجسد فى كفن ، وسرعان ما تسلل من سريره بعد أن ارتدى سرواله فوق ملابسه الداخلية (وكان يخشى أن يظهر الثقة وهو فى القطار بارتدائه منامته) ، وبأقدام عارية غير راضية أخذ يسير ببطء إلى ديوان التدخين .

وكان الحمال يجلس القرفصاء فوق كرسى صغير ينظف كومة مذهلة من الأحذية .

وتاق مارتن إلى صحبته المشجعة وتجاسر بالقول : « مساء دافىء » .

فقال الحمال : « أجل » .

وجلس مارتن وعقد رجليه فوق مقعد بارد من الجلد فى ديوان التدخين ، وراح يفحص حوض الغسيل النحاس ، وأحس بأن الحمال لايطيق وجوده لكنه شعر بارتياح عندما استنتج أن هذا الرجل يقوم بمثل هذه الرحلة ثلاث مرات كل أسبوع ويقطع عشرات الآلاف من الأميال سنوياً دون أن يقتل كما هو واضح، وقد تتاح لهما فرصة البقاء حتى الصباح .

وراح يدخن حتى انسلخ لسانه وتشقق وشجعه هدوء الحمال فضحك على الكوارث الخيالية التى تصورها ، وعاد إلى سريره يتمايل فى حالة نوم .

وسرعان ما عادت إليه التصورات المزعجة فاضطجع فى فراشه ساهداً حتى الفجر .

وظل أربعة أيام يتجول ويسبح فى جداول باردة وينام تحت الأشجار أو فى أكوام من القش ثم عاد (ولكن فى النهار) باحتياطى كاف من النشاط يكفيه لأن تتحول تجربته من مجد عظيم إلى شىء مألوف منطق ممتع .

الفصل التاسع والعشرون

استمر العمل فى « عنصر س » لمدة ستة أسابيع فساورت هيئة المعهد الشكوك فى أن حدثا فى طريقه إليهم ، والحوا إلى مارتن أنه فى حاجة إلى مساعداتهم المتعددة ، ولكن مارتن تجنبهم ولم يرغب فى أن ينحاز إلى أى من الجماعات المتصارعة حتى أنه كان يشعر أحياناً بوحشة نحو تيرى ويكيت الذى كان لا يزال فى فرنسا ، وهو الرجل الذى يتمسك بالأمانة بشدة .

ولم يعرف كيف سمع المدير لأول مرة عن أن مارتن يكتشف شيئاً هاماً .

وكان الدكتور توبس قد ضاق ذرعاً بمنصب الكولونيل — وكان هنالك عدد كبير من العسكريين فى نيويورك — وظل أسبوعين بعيداً عن اختلاق فكرة من الأفكار التى ستحدث ثورة حتى فى جزء صغير من العالم . وذات صباح اندفع إلى معمل مارتن — وقال مؤنباً :

« ما هذا الاكتشاف الغامض الذى تقوم به ياأروسميث ؟ لقد سألت الدكتور جوتليب لكنه تملص من الإجابة ويقول أنك ترغب فى أن تتأكد من الاكتشاف أولا ، ويجب أن أعرف عنه لا لأنى أهتم اهتمام الصديق بعملك فحسب بل لأنى مديرك على أية حال . »

وشعر مارتن بأن أثمن ما يمتلك سوف ينتزع منه ولكنه لا يملك طريقة للرفض ، فجاء بمذكراته وشرائح « الاجار » بما عليها من أجزاء من الميكروبات العضوية المتحللة ، وتنهد توبس وأمسك بلحيته وراح فى تفكير عميق للحظة ثم صاح : « هل تعنى أنك تعتقد أنك قد اكتشفت مرضاً معدياً من البكتريا ولم تخبرنى عنه ؟ يابنى العزيز لست أعتقد أنك تدرك جيداً أنك قد توصلت إلى الطريقة المثلى لقتل البكتريا التى تساعد على تولد الأمراض وانتشارها .. ولم تخبرنى » .

« حسناً أنني أردت التأكد يا سيدى » .

« انني معجب بحذرك ، ولكن عليك أن تدرك يا مارتن أن الهدف الأساسى لهذا المعهد هو التغلب على المرض وليس تدوين المذكرات العلمية الجميلة ، وربما توصلت إلى واحد من اكتشافات الجيل ، الشيء الذى كنت مع ماكجورك نتطلع إليه . . . وإذا ما تأكدت نتائجك . . . سوف استأنس برأى دكتور جوتليب . »

وشد على يد مارتن خمس أو ست مرات ثم اندفع خارجاً ، وفى اليوم التالى أستدعى مارتن إلى مكتبه وشد على يده مرات أخرى وقال لبيرل روبنز أن معرفتهم به كانت شرفا لهم ، ثم أخذه إلى قمة جبل وأراه جميع ممالك العالم :

« لدى لك يا مارتن بعض المقترحات ، لقد أظهرت نبوغاً فى عملك ولكن بدون إدراك تام للانسانية على نطاق واسع ، وعليك أن تعرف أن المعهد قد نظم على أكثر الأسس مرونة ، فليست هناك أقسام محددة بل وحدات يشرف عليها رجال عباقرة أمثال صديقنا العزيز جوتليب ، فإذا ما وجدت إنساناً جديداً يعمل على تحقيق اكتشاف هام فسوف نزوده بكل الإمكانيات بدلا من تركه يتخبط فى القيام بعمله بمفرده ، لقد أعطيت لنتائجك كل اعتبار يا مارتن ، فناقشتها مع الدكتور جوتليب — حتى أنه كان لا يشاركنى تماماً حماسى حول النتائج العلمية العاجلة ، وقررت أن أعرض على « مجلس الأمناء » اقتراحا لإنشاء قسم علم الأمراض المكروبية تتولى رئاسته ، سوف يكون لك مساعد — مدرب تدريباً حقيقياً حائزاً على درجة الدكتوراه — والمزيد من الغرف والفنيين على أن ترفع تقريرك إلى مباشرة وتناقش الأمور معى مباشرة بدلا من مناقشتها مع جوتليب ، وبأمر منى تعفى من جميع الأعمال التى تتعلق بالحرب ، وإن كان فى استطاعتك أن تحتفظ بزيك العسكرى وبكل شيء ، وأعتقد أن مرتبك إذا وافق السيد ماكجورك وغيره من الأمناء سوف يكون عشرة آلاف دولار بدلاً من خمسة .

« أجل ، إن أفضل غرفة لك هى الغرفة الكبيرة فى الطابق العلوى يمين

الصاعد ، فهى شاغرة الآن ، وسوف يكون مكتبك عبر الردهة » .

« وكل ما تحتاجه من مساعدة فهى لك ،فلست بحاجة يابنى أن تقضى الليالى تعمل بيديك بهذه الطريقة غير المجدية ، فما عليك إلا أن تفكر وتعمل على توسيع نطاق العمل بكل وسيلة ممكنة حتى يشمل جميع الميادين الممكنة ، وسوف نقوم من جهتنا بتوسيع نطاق العمل فى جميع الميادين ، وسوف يكون لدينا عشرات الأطباء فى المستشفيات يساعدوننا ويؤكدون نتائجنا ويوسعون جهودنا ، وقد نعقد اجتماعا أسبوعياً يضم جميع أولئك الأطباء والمساعدين برئاستنا كلينا .. فلو كان لرجال أمثال كوخ وباستير مثل هذا النظام لأتيح لهم نطاق أكبر للعمل ، فالشىء الذى يتسم به العلم فى يومنا هذا هو التعاون العالمى المتكافىء، ولقد ولى زمن هذه البحوث الفردية الغبية المتعثرة التى تتسم بالغيرة .

« ربما عثرنا على الشىء الحقيق — عامل انقاذ جديد ، سوف ننشر معاً ماقد حققناه ، وسوف نثير اهتمام العالم بأسره ، ألا تدرى أنى قضيت ليلة أمس ساهراً أفكر فى الفرصة الرائعة التى هى أمامنا ، وفى غضون أشهر سوف لا نتمكن من شفاء أمراض المكروب المنقودى فحسب بل التيفود والدوسنطاريا ، وكزميل لك يا مارتن لا أرغب لحظة فى أن أقلل من شأن عملك العظيم ، ولكنى أعتقد أنك لو كنت أكثر ارتباطاً بى لاستطعت توسيع نطاق عملك إلى أدلة ونتائج علمية قبل ذلك بكثير . »

وعاد مارتن مترنحاً إلى غرفته مبهوراً بفكرة إنشاء إدارة خاصة به ، ومساعدين ، وعالم بهيج ، وعشرة آلاف دولار سنوياً ، ولكن بدا أن عمله قد انتزع منه ، أن نفسه قد انتزعت منه ، فلم يعد مارتن ولا تلميذ جوتليب بل الرجل ذو المرح الذى يقاس بمعيار ، دكتور أروسميث ، رئيس قسم علم الأمراض الميكروبى الذى سوف يرتدى ياقات « منشاة » ويلقى الخطب ، ولا يسب أبداً .

وأضعفته الشكوك ، فربما لا ينمو « عنصر س » إلا فى داخل أنبوبة الإختبار ومن الجائز أن ليست له قيمة كبيرة فى شفاء الناس ، أراد أن يعرف .. أن يتأكد .

ودخل ريلتون هولا بيرد فجأة يقول :

« كان المدير لتوه يا مارتن ، يابنى العزيز ، يحدثنى عن اكتشافك وعن مشروعاته الرائعة التى يعدها لك ، أريد أن اهنئك من كل قلبى وأن أرحب بك كرئيس قسم زميل — وأنت هكذا صغير — لاتزيد عن الرابعة والثلاثين، أليس كذلك ؟ ياله من مستقبل رائع ينتظرك ، فكر يا مارتن — وتخلى ميجور هولا بيرد عن كرامته وجلس على المقعد منفرج الساقين — فكر فى كل ما ينتظرك ، فإذا ما كلل هذا العمل بنجاح حقيقى فلن يكون هناك حدود لما سينالك من تكريم أيها الفتى المحظوظ ، فسوف تنال إعجاب الهيئات العلمية وتحظى بأية استاذية تريدها وجوائز ، وسوف يبدأ كبار القوم فى التشاور معك وتحظى بمكانة مرموقة فى المجتمع !

« والآن استمع لى أيها الفتى العجوز ، ربما تدرك كم أنا على علاقة وثيقة مع دكتور توبس ، ولا أرى مايحول دون انضمامك إلينا فيستطيع ثلاثتنا تسيير دفة الأمور فى هذا المعهد بالصورة التى تناسبنا ، ألم يكن جميلا أن يتلهف بشدة إلى أن يعترف بجهودك ويمد يد العون إليك بكل وسيلة ممكنة ، أنه هكذا مخلص وتواق بشدة إلى مساعدة الغير ، والآن تفهمه حقا ، وقد يجىء اليوم الذى يتمكن فيه ثلاثتنا من إنشاء مؤسسة رائعة للعلوم التعاونية لا تسيطر على معهد ما كجورك فحسب بل عن كل معهد وكل كلية علمية فى البلاد ، ومن ثم يمكن القيام ببحث جدى حقاً ، عندما يعتزل دكتور توبس منصبه ، إذ لدى من الأسباب — أننى أتحدث عن يقين تام — ما يدفعنى على الافتراض بأن مجلس الأمناء سيختارنى خليفة له ، فإذا ما كلل هذا العمل أيها الفتى العجوز — بالنجاح يمكننا العمل معاً.

« ولكى أكون صريحاً كعادتى أقول بأن هناك عدد قليل من الوجال فى عالمنا (فكر فى يو العجوز المسكين) الذين لهم شخصيات مقبولة ويحققون انتصارات من الدرجة الأولى ، وإذا ما تغلبت على بعض فظاظتك وعدم رغبتك فى التقرب من كبار المسئوليين التنفيذيين والنساء الجميلات (لأنك والحمد لله سوف نبلغ

مكانة مرموقة إذا ما حاولت ذلك) فإننا نستطيع معاً أن نصبح الحاكمين بأمرنا في ميدان العلوم في جميع أنحاء البلاد . »

ولم يفكر مارتن في جواب حتى تركه هولا بيرد .

وراح يفكر في فظاعة ذلك الشيء الدنس الصاخب الذي يسمى نجاحاً بما يقتضيه من التخلي عن العمل الهادىء والقيام باستعراض ينقض عليه كل متخصص أعمى ويهاجمه كل عدو لا يدرك الحقيقة .

وهرب إلى جوتليب كمن يلجأ إلى والد حكيم شفوق ، وتوسل إليه أن ينقذه من النجاح ومن أمثال هولا بيرد ودويت توبس وأتباعهما من العلماء الذين يلقون الخطب ، والمؤلفين الذين يسعون وراء الحصول على درجات علمية ، وخطباء المنابر والجراحين المشهورين ، والصحفيين المأجورين ، والأمراء التجار العاطفيين ، والساسة من الأدباء والرياضيين المشهورين ، والعسكريين السياسيين ، وأعضاء مجلس الشيوخ الذين يدلون بأحاديث صحفية ، والأساقفة التافهين .

وشعر جوتليب بالقلق وقال :

« لقد أدركت أن توبس يهدف إلى شيء مثالي وقذر عندما جاء يتودد إلى ، لكنني لا أعتقد أنه سيحاول جعلك مكبر صوت بهذه السرعة في يوم واحد ، وسوف أشمر عن ساعدي وأخوض معركة ضد قوى الشهرة ! »

ولكنه هزم .

وقال دكتور توبس « انني لم أتدخل في شئونك يا دكتور جوتليب ، إلا أنني المدير ! ويجب أن أعترف بأني لا أرى — ربما نتيجة لغبائي الواضح — فظائع مساعدة أروسميث على شفاء آلاف الناس الذين يعانون من المرض وأن يصبح رجلا له وزنه وتقديره ! »

ودفع جوتليب الأمر إلى روس ماكجورك .

فقال ماكجورك : إننى أحبك يا ماكس كأخ ولكن توبس هو المدير ، وإذا شعر بأنه يحتاج إلى أروسميث (أليس هو ذلك الشاب النحيل الذى أراه فى معملك من آن لآخر ؟) فليس من حقى أن أعترض طريقه ، من واجبى أن أؤيده بنفس الطريقة التى أساند بها قائد إحدى سفننا . »

وسوف لا يصبح مارتن رئيس قسم قبل أن يجتمع ويوافق مجلس الأمناء الذى يتكون من ماكجورك نفسه ومدير جامعة ويلمنجتون ، وثلاثة أساتذة للعلوم من جامعات مختلفة ، وفى هذه الأثناء قال توبس لمارتن :

« والآن عليك يا مارتن أن تسرع وتنشر نتائجك على الفور إذ أنه كان يجب فى الحقيقة أن تنشرها قبل الآن ، اجمع نتائجك بأقصى سرعة ممكنة وابعث بها إلى الهيئة الخاصة بالطب وعلم الأحياء التجريبى لتنشر ضمن ابحاثهم التالية »

« ولكنى لست مستعدا للنشر ، إننى اريد أن أسد كل ثغرة قبل أن أنشر أى شىء »

« هراء .. إن هذا اتجاه قديم ، اننا لم نعد نعيش فى عصر النظام الإقليمى الضيق الأفق بل فى عصر المنافسة فى الفنون والعلوم ، كما هو الحال فى التجارة أيضاً — فى عصر التعاون مع الجماعة التى تنتمى لها والمنافسة حتى الموت مع الذين هم فى خارج هذه الجماعة ، حاول أن تسد الثغرات تماماً ولكن لا يجب أن ندع أحد يحرز قصب السبق علينا ، وتذكر أنه من واجبك تخليد اسمك والوسيلة إلى ذلك هى بالتعاون معى نحو الصالح العام من أجل أكبر عدد من الناس » .

وعندما بدأ مارتن بحثه ، وهو يفكر فى الاستقالة ثم يتخلى عنها إذ بدا له أن توبس على الأقل أفضل من بيكربو وأنصاره ، راح يتصور عالماً من العلماء الصغار كل منهم مشغول فى زنزانة لا سقف لها ، وكان توبس المقدس ذو اللحية العظيمة قابعاً فوق سحابة يراقبهم من عل ، مستعداً لأن يهاجم أى رجل من الرجال الصغار كف عن الحماس وأضاع وقته فى التأمل فى شىء لم يكن قد خول له مهمة القيام به ، وخلف زنزاناتهم الموحلة وقف فى الأفق العاصف — دون أن يراه توبس الحارس — شبح العملاق النحيل جوتليب .

ولم يكن التعبير الأدبي مهمة سهلة بالنسبة لمارتن ، فتأخر بحثه بينما ضاق توبس ذرعا وحثه على العمل ، وتوقفت التجارب وساد البؤس واستمرت عملية الكتابة وتمزيق ما كتب من البحث في زنزانة مارتن الخاصة التي لا سقف لها .

ولأول مرة لم يجد في لورا ملجأ يلتجأ إليه ، فصاحت قائلة :

« ولما لا توافق ؟ إن عشرة آلاف دولار سنوياً سيكون شيئاً جميلا للغاية يا ساندى ياعزيزى ، لقد عشنا دائماً فقراء ، وإنك تحب السكن الجميل والأثاث الرائع ، كما أنك سترأس قسماً خاصاً بك ويمكنك أن تتشاور مع الدكتور جوتليب وتسأله النصيحة كما تفعل دائما . إنه رئيس أليس كذلك ، ومع هذا فهو مستقل عن الدكتور توبس آه انني أؤيد ذلك ؟ »

وتدريجياً وافق مارتن نفسه على ذلك نتيجة لما لاقاه من احترام بالغ عند تناول طعام الغذاء في المعهد .

وراح يفكر : « إننا نستطيع استئجار أحدى المساكن الجديدة في شارع بارك ، فلا أعتقد انها تكلف أكثر من ثلاثة آلاف سنوياً ، ولن يكون أمراً سيئاً أن نتمكن من استقبال بعض الناس هناك ، وهذا لا يعني أنني سأسمح لهذا الأمر أن يتدخل في عملي .. إنه نوع من المتعة . »

وكان الاعتراف به اجتماعياً أشد امتاعاً ، رغم ما يتبع ذلك من آلام .

واتصلت به كابيتولا ما كجورك — التي لم يكن في نظرها قبل الآن سوى شيئا أقل إثارة للاهتمام من آلة الطرد المركزى — تليفونيا وقالت . . « ان دكتور توبس متحمس للغاية وروس وأنا مغتبطان ، ويسعدنا أن تتناول معنا طعام العشاء ومعك السيدة أروسميث يوم الخميس المقبل الساعة الثامنة والنصف » .

وقبل مارتن الأمر الملكى .

وكان يعتقد أنه بعد لمحات من أنجوس ديور وريبلتون هولا بيرد أنه قد شاهد الترفه وفهم حفلات العشاء الراقية ، وبدون تردد كبير ذهب تصحبه لورا إلى منزل

روس ما كجورك فى شارع « إيست سفنتين » بالقرب من الشارع الخامس ، وبدا المنزل ـ من الشارع ـ يحتوى على عدد كبير من اليازيب المصنوعة من الحجر الرمادى اللون وأعتاب النوافذ والأبواب المنحوتة وأبواب الحديد البرونزية ، ولكن المنزل لم يبد كبيراً .

وفى الداخل بدا الدهليز الحجرى المقبب أشبه بكاتدرائية ، ولقد أربكها الخدم وأفزعها المصعد الآلى وضايقها دهليز ملىء بصفحات من الورق وصناديق إيطالية وغرفة للرسم مليئة بالألوان المائية ، وبدت الرهبة طبيعية عندما ظهرت كابيتولا بملابسها الحريرية البيضاء الرائعة ولآلئها الثمينة .

وكان هناك ثمانية أو عشرة أشخاص من علية القوم — من ذكور وإناث — يبدون تافهين لكنهم يحملون أسماء مألوفة مثل « ايفورى سوب » .

وتساءل مارتن متعجباً : « هل تأبط أحدهم ذراع سيدة لم يعرفها ليقودها إلى الداخل ، واغتبط أن يكتشف أنه ما على المرء إلا أن يتبه فى غرفة الطعام بوجهه صوت ما كجورك العذب .

وكانت غرفة الطعام رائعة ومثيرة للرعب مزودة بمقاعد من الجلد وبأدوات للمائدة من الذهب مع مجموعات من الخدم تراقب استخدام الضيوف للشوك من نوع الاسفراغ ، وأجلس مارتن (ويشك فى أنه عرف أنه ضيف الشرف) بين كابيتولا ما كجورك وبين امرأة لم يعرف إلا أنها شقيقة الكونتيسة .

ومالت إليه كابيتولا فى روعتها وجلال ما ترتديه من ملابس فاخرة بيضاء ، وقالت :

« والآن يادكتور اروسميث ما الذى تقوم باكتشافه ؟ »

« إنه — آه — انى أحاول أن أتصور » .

« لقد أبلغنا دكتور توبس أنك قد اكتشفت أساليب جديدة رائعة تحد من الأرض» ، وكان لنطقها لحرف «اللام» أشبه بالنغم الذى تحدثه الأنهار فى الصيف

وحرف « الراء » أشبه بشقشقة الأطيار فى الأجمة ، « آه ، ليس هناك ماهو أجمل من انقاذ العالم الحزين البائس من عبء المرض الذى يئن منه ، ولـكن ما الذى تقوم به بالضبط ؟ »

« من السابق لأوانه جداً أن أكون على يقين مما أفعل ولـكن .. إنه أشبه بهذا .... خذى بعض المـكروبات مثل الميـكروب المنقودى .. »

« يا للعلوم من شىء ممتع ولـكن كم هى معقدة حتى يصعب لأناس بسطاء مثلى فهمها ، وما نحن جميعاً إلا أناس بسطاء للغاية وكل ما نفعله هو أننا ننتظر علماء أمثالك أن يجعلوا العالم آمنا من أجل الصداقة . »

ثم ركزت كايتولا كل اهتمامها على الرجل الذى كان يجلس بجوارها من الناحية الأخرى ، أما مارتن فثبت نظره إلى الأمام وأكل وتألم ، وكانت شقيقة الـكونتيسة — الشاحبة اللون النحيلة — تحملق فى وجهه ، فاتجه نحوها فى وداعة مكتئبة (ملاحظا أن ما بيدها من شوك يزيد واحدة عما معه وراح يفكر أين ضل السبيل) .

وقالت : « سمعت أنك عالم » .

« أجــــل . »

« ان مشكلة العلماء هى أنهم لا يفهمون الجمال ، انهم فاترون » .

وكان يمكن لريبلتون هولا بيرد أن يخلق جوا جميلا من الفرح ، لـكن مارتن لم يستطيع إلا أن يقول مرتجفاً : « كلا ، لا أعتقد أن ذلك حق » وأخذ يفـكر فيما إذا كان يجرؤ على احتساء قدح آخر من الشمبانيا .

وعندما اقتيدوا إلى حجرة الجلوس بعد أن احتسى الرجال أقداحاً عديدة من الشراب أقبلت إليه كايتولا بجناحيها البيض يغطيانه وقالت :

« لم تتح لى حقا أثناء حفل العشاء فرصة يادكتور اروسميث أن أسألك ماذا تفعل بالضبط .. آه ، هل رأيت أطفالى الصغار الأعزاء فى المنزل الـكائن بشارع

شارلز ؟ انني على يقين من أن الكثيرين منهم سوف يصبحون أكثر العلماء جاذبية . عليك أن تجيء لتحاضرهم . »

وفى تلك الليلة قال للورا غاضباً « سوف يكون من الصعب المحافظة على هذا الجو الجميل ، ولكنى أعتقد أنه من واجبى أن أتعلم أن استمتع به ، آه حسناً ، فكرى كم يكون جميلا أن نقيم بعض حفلات العشاء لشخصيات بارزة أمثال جوتليب وغيره عند ما أصبح رئيسا لأحد الأقسام . »

وفى صبيحة اليوم التالى جاء جوتليب إلى غرفة مارتن ووقف بجوار النافذه وبدا أنه يحاول ألا تلتقى عينيه بعينى مارتن ، وتنهد قائلا « لقد حدث شيء سيء ربما ليس على درجة كبيرة من السوء . »

« ماعسى أن يكون يا سيدى ؟ هل هناك ما أستطيع القيام به ؟ »

« أن هذا الأمر لايهمنى بل يهمك . »

« وراح مارتن يفكر فى ضيق : اينوى الحديث من جديد عما يتعلق بأخطار النجاح السريع ؟ لقد بدأت أضيق ذرعا بهذا الحديث . وسار ببطء نحوه وقال « إنه أمر مؤسف يامارتن ، ولكنك لست المكتشف لعنصر س » .

« ماذا . »

« شخص آخر قد اكتشفه . »

« انهم لم يفعلوا ذلك ! فتشت جميع الكتب فلم اجد ـ باستثناء تورت ـ حتى من الملح إلى هذا الاكتشاف ، ياالهى أن هذا يعنى ياد كتورجوتليب أن كل مافعلت طيلة هذه الأسابيع كان مضيعة للوقت واننى رجل أخرق .. »

« حسنا ، على اية حال فإن دهريل الذى يعمل فى معهد باستير قد نشر اخيراً فقط تقريراً فى نشرة اكاديمية العلوم عن عنصر س بعينه ، وكل ماهنالك انه اطلق اسم باكتيريوفاج ، هذه هى حقيقة الأمر . »

« إذن سوف .. »

وأتم العبارة فى عقله « إذن سوف لا أكون رئيس قسم أو عالماً مشهوراً أو أى شىء آخر ، لقد عدت إلى الحضيض » وخارت قواه ، ولم يعد لحياته هدف ، وانزوى نور الخلق وتحول إلى نور قاتم .

وقال جوتليب « يمكنك الآن بالطبع أن تطالب بأنك شريك فى هذا الاكتشاف وتقضى بقية حياتك تناضل حتى تحظى بالاعتراف ، أو تنسى هذا الأمر وتبعث بخطات رقيق مهنئاً دهريل وتعود إلى العمل ».

وقال مارتن فى حزن : « آه سوف أعود إلى العمل ، فليس أمامى شىء آخر أقوم به وأظن أن توبس سيعرض الآن عن إنشاء القسم الجديد ، وسوف يكون لدى فسحة من الوقت لأنهى حقاً بحثى — ربما هناك بعض النقط التى لم يتعرض لها دهريل — وسوف أنشره لأصبح شريكا له فى هذا الاكتشاف .... لعنة الله عليه .... أين تقريره ؟ .... أظنك سعيد لأنى أنقذت من أن أكون هولابيرد » .

« يجب أن أكون هكذا ، وغير ذلك مخالف لعقيدتى ، لكنى بدأت أصبح مسناً ، وأنت صديق ، ويؤسفنى أنك لن تستمع بهزلة الإدعاء والنجاح — لفترة معينة .... وجميل يا مارتن أنك ستؤكد اكتشاف دهريل ، فالعلوم هى أن تعمل ولا تعبأ — كثيراً — إذا ما عاد الفضل إلى غيرك ... هل أخبر توبس عن سبق دهريل أم أترك هذا الأمر لك » ؟

وسار جوتليب فى طريقه وهو ينتظر إلى الوراء فى شىء من الحزن .

وجاء توبس يولول : « لو أنك فقط نشرت بحثك قبل ذلك — كما أخبرتك — يا دكتور أروسميث ، لقد وضعتنى حقاً فى مركز محرج للغاية أمام مجلس الأمناء ، ولا يمكن بالطبع الآن إثارة مسألة إنشاء قسم جديد » .

وقال مارتن فى بلاهة « أجل » .

وجمع بحرص مقدمة بحثه وعاد إلى منضدته وحملق فى دورق لامع سلب لبه كـكرة من البلور ، وأخذ يفكر :

« لو تركنى توبس وشأنى ما أصبح الأمر سيئاً ، لعنة الله على هؤلاء الرجال الطاعنين فى السن ، ولعنة الله على أولئك الرجال ذوى المرح الذى يقاس بعيار ، أولئك الرجال البارزين الذين يجيئون ويعرضون عليك آيات التكريم والمال والنياشين والألقاب ، يرغبون فى جعل المرء مزهوا بما يخولونه من سلطة وجاه ، آيات التكريم التى إذا ما حصلت عليها تصبح منتفخاً ، ومن ثم عندما تعتاد عليها تحس أنك أحمق إذا ما فقدتها .

« وهكذا سوف لا أصير غنيا ، وسوف لا تحصل لورا — الفتاة المسكينة — على ملابسها الجديدة ومسكنها الجديد وكل ما كانت تحلم به . إننا . . . لن نكون الآن موضع ازدراء كبير ونحن فى مسكننا القديم الصغير ، آه ، دعنا نكف عن هذا العويل .

« ليت تيرى كان هنا » .

« إننى أحب ذلك الرجل جوتليب ، ربما كان يشخص ببصره وهو يقول :

« الرجل الفرنسى يسميها باكتريوفاج ، كلمة طويلة جداً ، ومن الأفضل أن يسميها « فاج » فقط ، بل وقد أطلق هذا الاسم على «عنصر س» الذى اكتشفته حسنا ، لقد استمتعت كثيراً وأنا أعمل طيلة هذه الليالى ، أعمل » .

كان قد بدأ يفيق من غيبوبته ، وتصور الدورق مملوءاً بحساء يخيم فوق سطحه المكروب المفقودى ، ودلف إلى مكتب جوتليب ليحصل على النشرة التى تحتوى على تقرير دهريل ، وقرأه بدقة وحماس .

وقهقه قائلا « هاك رجل ، هاك عالم ! » .

وراح يفكر وهو فى طريقه إلى المنزل أن يجرى بعض التجارب على ميكروب الدوسنطاريا المصوى مع « الفاج » (كما كان يسمى عنصر س بعد ذلك) ويفكر فى أن يوجه الأسئلة والنقد إلى دهريل ويحدوه الأمل فى ألا يخلى توبس سبيله لفترة ، ويحس بالارتياح الكبير لأنه لم يضطر إلى نشر بحثه الغامض قبل إتمامه

حول « إيفاج » وقبل أن يصبح فاسقا سهلا لين العريكة وليس حكيما يتجسس الناس عليه وإنسان له وزنه .

وقال غاضبا : « يا إلهى أراهن أن توبس قد أصيب بخيبة أمل ، لقد كان يتصور أنه سيوقع بإمضائه معى على جميع بحوثى ويرجع إليه الفضل ، والآن سنبدأ العمل على تجربة الشيجا (ميكروب الدوسنطاريا المصوى) مسكينة لورا إذ أن عليها أن تعتاد على سهر الليالى الذى أقضيه فى العمل » .

واحتفظت لورا لنفسها بما شعرت به حول هذا الأمر ، أو على الأقل بالجزء الأكبر مما شعرت به .

الفصل الثلاثون

ظل مارتن يعمل ويكد عاماً كاملا لم يتخلله إلا عودة تيرى ويسكيت بعد إعلان الهدنة ، وسخريات ذلك النابه الفظ ،وراح يجرى التجارب المعقدة على «الفاج» أسبوعاً بعد آخر ، وأصبح عمله — يداه وفنه — أشد مهارة ، وأيامه أكثر استقراراً وأقل اضطراباً .

وعاد إلى دراسته المسائية ، وانتقل من الرياضيات إلى الكيمياء الطبيعية ، وبدأ يفهم قانون العمل الجمعى وأصبح منهمكا كتيرى حول ما أسماه « بالأسلوب المكشوف » الذى اتبعة توبس وهو لا بيرد ، وقرأ الكثير من اللغتين الفرنسية والألمانية وذهب فى رحلات فى نهر هودسون بعد ظهر أيام الآحاد ، وأقام حفلا ساخراً مع لورا وتيرى للاحتفال باليوم الذى تطهر فيه المعهد ببيع آلة الطرد المركزى وهى فخر هولا بيرد وكبريائه .

وشك فى أن الدكتور توبس — الذىأصبح الآن معروفاً بشارة وسام الشرف قد أبقاه فى المعهد بسبب تدخل جوتليب وحده ، ولكن ربما كان السبب هو أن توبس وهولا بيرد يأملان فى أنه قد يجىء ثانية بالمعجزات التى تجلب الشهرة ، لقد كان كل منهما مهذباً فى معاملته أثناء تناول الغذاء ، تهذيب وتقريع غير مباشر ملىء بالإشارات العنيفة عن نشر اكتشافات المرء قبل غيره بدلا من التلكؤ .

وبعد مضى ما يزيد عن العام من السبق الذى أحرزه دهريل على مارتن ظهر توبس فى المعمل يعرض اقتراحاته .

وقال توبس « لقد ظللت أفكر طيلة هذه المدة يا اروسميث » وبدا عليه أنه كان يفكر بالفعل .

« إن اكتشافات دهريل لم تثر الإهتمام الشعبى الذى أعتقدت أنها ستثيره ، فلو كان معنا لحاولت أن أثير إهتمام الرأى العام المناسب به ، فلم تعلق على اكتشافه

أى صحيفة تعليقاً جدياً ، وربمـا لا يزال أمامنا الفرصة لنقوم بعمل معين ، وكما أعلنت فإنك تواصل ما يسميه جوتليب بالبحث الأساسى ، وأعتقد أنه قد تـكون أمامك فرصة لإستخدام القاج فى شفاء الناس عملياً ،أريدك أن تجرب هـذا الدواء على أمراض الإلتهاب الرئوى والطاعون وربمـا على التيفود ، وعندما تنجح تجاربك يمـكنك القيام ببعض الإختبارات العملية بالتعاون مع المستشفيات ، ودعك من كل هذا الغرور والمهاترات ودعنا نحقق الشفاء الحقيق لشخص ما ! »

ولم يتحرر مارتن من الخوف من الطرد إذا رفض أن يطيع،و تأثر عندما مضى توبس يقول :

«أظنك تشعر أحياناًيا اروسميث أننى أفتقر إلى الإحساس بالدقة العلمية عندما أصر على النتائج العملية ، إننى — لا أرى إلى حد ما النتائج النبيلةحقاً التى تحدث تغييراً حقيقياً والتى كان يجب أن يحققها هذا المعهد بمـا لدينا من إمـكانيات ، إننى أود إن أحقق عملا ضخم يا بنى ، عملا رائعاً من أجل الإنسانية المسكينة قبل أن أموت ، ألا يمـكنك ان تمنحنى هذا الشيء ؟ إذهب وعالج الطاعون . »

ولأول مرة كان توبس يبدو فى ابتسامة رقيقة متعبة وليس بالصرامة والجدية التى تظهره بها لحيته .

وفى ذلك اليوم بدأ مارتن ، بعد أن أخفى عن جوتليب تخليه عن مسألة اكتشاف طبيعة القاج الأساسية ، فى مقاومة الالتهاب الرئوى قبل أن يهاجم «الموت الأسود» ، وعلم جوتليب بهذا الأمر وغاص فى مشكلات معينة خاصة به.

وشفى مارتن الأرانب من الالتهاب البلوراوى الرئوى بحقنها بالقاج وباطعامها به منع انتشار الالتهاب الرئوى ، وا كتشف أن المناعة التى يحدثها القاج يمـكن أن تـكون معدية كأى مرض .

واغتبط بمـا حققه وتوقع أن يغتبط توبس بدوره ، لـكن توبس ظل أسابيع كثيرة لا يلتفت إليه ، فقد تحول حماسه إلى شيء جديد — إلى أعنف ما تعرضت له حياته بأسرها إذ كان يقوم بتنظيم جامعة الهيئات الثقافية .

وكان ينوى تنسيق وتنظيم جميع أوجه النشاط الفكرى فى أمريكا عن طريق انشاء مكتب من واجبه التوجيه والملاطفة والتقريع والتشجيع بوجه عام للكيمياء والصناعة الخاصة باللوحات الفنية ، واكتشاف المناطق المصبية ، والثروة الحيوانية والشعر ، ودراسة الكتاب المقدس والمسائل الروحية المتعلقة بالزنوج ، وكتابة الرسائل الرأسمالية، وفجأة اجتمع بما يسترو الفرق الموسيقية ومديرى مدارس الفنون وملاك القصور السياحية ، والحكام المتحررين ، ورجال الدين السابقين الذين كتبوا مقالات فلسفية شيقة لنقابات الصحف .. كان يجتمع فى الحقيقـــة مع المسيطرين على ميادين الفكر فى أمريكا — من بينهم على وجه الخصوص مليونير يدعى مينجن كان يحاول أخيراً رفع المستويات الفنية فى ميدان السينما .

وطاف توبس بأرجاء المعهد يدعو الباحثين إلى الإنضمام اليه فى جامعة الهيئات الثقافية باجتماعاتها الخلابة وحفلات العشاء الرائعة التى تقيمها لجنتها . وقال معظمهم غاضبا : « إن الرجل العجوز قد عاد إلى الفوران مرة ثانية » ، ونسوه ، ولكن ميجور سابق ذهب كل مساء ليتحدث مع نساء وقورات ترتدين ملابس تميزهن عن غيرهن ، وتبكين على «ضياع القوة الروحية والفكرية لعدم وجود التناسق» واللاتى كن يذهبن إلى بيوتهن فى عربات فاخرة :

وترددت الشائعات وهمس دكتور بيلى سميث بأنه ذهب لمقابلة توبس وسمع ما كجورك يصيح فى وجهه قائلا : « إن مهمتك هى إدارة هذا المعهد لا أن تعمل مع بت ميجن سارق الأراضى ، ابن الشر .

وفى صبيحة اليوم التالى عندما دلف مارتن إلى معمله اكتشف همس وتنهد وتمتمة والتصافح بالأيدى فى الممرات وسمع نبأ لم يستطع تصديقه .

« استقالى توبس من منصبه »

« كلا ! »

« يقولون أنه انتقل إلى جامعة الهيئات الثقافية ، لقد منح ذلك الشخص الذى

يدعى مينجين الجامعة مبلغا من المال ، وسوف يحصل توبس على ضعف المرتب الذى كان يتقاضاه هنا ! » .

— ٢ —

وسرعان ما توقف الجميع عن البحث باستثناء المتحمسين أمثال جوتليب ومارتن والمساعد فى قسم الطبيعة الحيوية ، وكانت هنالك ضجة بين الطوائف وحركة تودد وخطب الود من جانب العلماء الذين رغبوا فى أن يصبحوا المدير الجديد للمعهد .

فطاف ريبلتون هولابيرد ويو عالم الأحياء الشبيه بالنجار وجنجهام رئيس قسم الطبيعة الحيوية صاحب الدعاية وآرون شوليتز اليهودى الروسى الأنيق الذى أصبح من أنصار الكنيسة الاسقفية العليا ـ طاف جميع هؤلاء يرددون من عبارات التودد ويظهرون روح الود مع كل من التقوا به فى الممرات بصرف النظر عما يتسمون به من عنف فى محادثاتهم الخاصة ، أضف إلى هؤلاء عدد ليس بقليل من الأجانب والأساتذه والباحثين فى المعاهد الآخرى الذين رأوا ضرورة أن يجيئوا ويتناقشوا مع روس ما كجورك حول مسائل غير محددة إلى حد ما .

وذكر تيرى لمارتن : « يحتمل أن بيرل روبنز ومساعدك يتنافسان على منصب المدير ، أما مساعدى فلن يفعل ذلك لسبب واحد وهو انى قد قتلته ، وأعتقد فى هذه الحالة أن بيرل هى أفضل الاثنين إذ ظلت سكرتيرة توبس فترة طويلة حتى أنها تعلمت كل جهله بالأسلوب العلمى . »

وكان ريبلتون هولابيرد أكثر المتملقين من الباحثين عن المنصب وأشدهم تعطشا اليه ، وكانت الحرب قد وضعت اوزارها ففقد حلته العسكرية وسلطانه وحث مارتن بقوله .

« أنت تعرف يا مارتن كيف إنى آمنت دائما بعبقريتك ، كما أدرك مدى إيمان جوتليب العجوز بك ، وإذا ما أقنعت جوتليب بتأييدى وبمخاطبة ما كجورك فى

الأمر - انني بقبول منصب المدير أصبحى إذ سأضطر إلى التخلى عن أبحاثى ، ولـكن سوف أقبل هذا المنصب لأنى أشعر حقا بأنه يجب أن يتقلدالأمور الإدارية شخص له ماض تليد ، إن توبس يؤيدنى ولو أيدنى جوتليب فسوف أحاول أن أفيد جوتليب ، وسوف أمنحه المزيد من السلطة . »

وشاع بين جنبات المعهد أن كايتولا يؤيد أنتخاب هولابيرد حيث أنه « العالم الوحيد فى المعهد الذى يعتبر مهذبا » وفى نفس الوقت شوهدت وهى تدلف كسفينة حربية ، وفى أثرها سفينة هولابيرد الصغيرة .

ولـكن بينما تألق هولابيرد بدأ نيـكولاس يو غامضا وقانما .

وضج المعهد بأسره بعد ظهر اليوم الذى إجتمع فيه مجلس الامناء فى الردهة لانتخاب مدير للمعهد ، وتحولت هيئة المعهد من باحثين إلى فتيات فى مدرسة داخليه ، وتناقش المجلس أو فعل شيئاً مزعجا لعدة ساعات طويلة مضنية .

وفى الساعة الرابعة أسرع تيرى ويـكيت إلى مارتن يقول : « ألا تعلم يا نحيف لقد علمت من مصدر سرى أنهم انتخبوا سيلفا عميد الـكلية الطبية بجامعة وينماك أن هذه هى الـكلية التى تخرجت منها إليس كذلك ، كيف يبدو ؟ » .

« إنه عجوز لطيف — كلا ، أنه وجوتليب يمقت كل منهما الآخر ، يا ألهى إن جوتليب سوف يستقيل ، وسوف أضطر إلى ترك المعهد ، وذلك فى الوقت الذى يسير فيه بحثى سيرا طيبا ! »

وفى الساعة الخامسة سار مجلس الامناء عبر أبواب تحدوها عيون مترقبة ، إلى معمل ما كس جوتليب .

وسمع هو لابيرد يقول بشجاعة : « أما أنا فلن أتخلى بالطبع عن بحثى من أجل أى منصب إدارى » وقالت بيرل روبنزلتيرى « أجل إنه حقيق — لقد أخبرنى ما كجورك بنفسه على التو — أن المجلس قد انتخب الدكتو جوتليب مديراً جديداً »

فقال تيرى . «اذن فهم اغبياء حيث أنه سوف يرفضها بشده ، بقوله: أو يطلبون إلى أن اقفز كالقردة لعقد اجتماعات اللجنة ! يا لها من فرصة كبيرة ! »

وعندما انصرف مجلس الأمناء طار مارتن وتيرى إلى معمل جوتليب فوجدا الرجل العجوز واقفاً إلى جانب منضدته أكثر انتصابا من أى وقت رأوه فيه خلال سنوات عديدة .

فسأله مارتن وهويلهث « هل حقيق أنهم يريدونك أن تصبح مديراً للمعهد»

« أجل لقد طلبوا منى ذلك »

« وهل سترفض ، أنك لم تسمح لهم أن يبعدوك عن عملك »

« حسناً ، لقد قلت أن عملى الحقيق ، لقد قلت أن عملى الحقيقى يجب أن يستمر ، ووافقوا على أن أعين مديراً مساعداً يتولى المهام التفصيلية ، وكما ترى لن أسمح بشىء بالطبع أن يتدخل فى علم الحصانة الذى أجرى فيه بحوثى ، ولكن هذا يتيح لى الفرصة لتحقيق أهداف كبيرة ، وأن أقيم معهداً علمياً تسوده الحرية لجميعكم يا أبنائى ، أما هؤلاء الحمقى فى جامعة وينماك الذين سخروا من فكرتى الخاصة بمدرسة طبية حقيقة فلسوف يرون الآن — هل تدرى من كان ينافسنى على منصب المدير — هل تعلم من هو يا مارتن ؟ إنه ذلك الرجل الذى يدعى سيلفا ، ها ! »

وفى الدهليز تأوه تيرى قائلا . « رحمة الله عليه »

— ٣ —

وإلى حفل العشاء الذى اقيم تكريماً لجوتليب (وهو الحفل الوحيد الذى اقيم تكريما لجوتليب) لم يجىء الرجال القادرون على التأثير الساطى الذين يحضرون جميع حفلات التكريم فحسب بل أيضا العلماء القلائل الذين أعجب بهم جوتليب

وظهر فى وقت متأخر ، وهو يرتجف بعض الشيء ، يصحبه مارتن . وما إن وصل منصة الخطباء حتى وقف المدعوون يحيونه بهتافاتهم ، وتفرس فى وجوهم وحاول أن يتحدث ورفع ذراعاه الطويلان كما لو أراد أن يحتضن جميعهم ثم غاص فى مقعده وهو ينتحب .

وجاءت برقيات من أوروبا ، ورسائل حماسية من توبس ودين سيلفا يعربان عن أسفهما البالغ لأنهما لم يتمكنا من الحضور ، وبرقيات من عمداء الكليات ، وتليت كل هذه التهانى فقوبلت بتصميق ينم عن الاعجاب .

ولكن كابيتولا همهمت قائلة : « مع كل هذا فسوف نشعر بوحشه نحو العزيز الدكتور توبس ، إذ كان رجلا بعيد النظر ، لا تعبث بالشوكة التى بيدك ياروس »

وهكذا تولى ماكس جوتليب شئون معهد ماكجورك لعلم الأحياء ، ولم يمض على ذلك شهر من الزمان حتى صار المعهد أشبه بمجزر .

— ٤ —

وفكر جوتليب فى أن يقضى فى عمله الجديد ساعة واحدة يومياً ، وكمدير مساعد عين دكتور آرون شولتيز عالم الأوبئة ، الرجل المتدين صاحب الخيال الواسع ، وأوضح جوتليب لمارتن إنه وإن كان شوليتز رجلا أحمقاً بالطبع ، فهو الرجل الذى يجمع بين قدرة علمية محدودة النطاق والاستعداد لتحمل الأعمال التنفيذيه الروتينية التى تحتاج إلى تفاخر ومساومة

ومن الواضح ان جوتليب قد برر قبوله لمنصب المدير بالمضى فى تهكماته القديمة ضد المديرين الذين يحدثون حول أنفسهم ضجة .

ولم يستطع ان يحدد عمله الرسمي بساعة واحدة فى اليوم ، إذ كانت هنالك مؤتمرات كثيرة وزوار مشهورون عديدون وعدد ضخم من الأوراق تحتاج إلى توقيعه ، ولقد اجبر على حضور حفلات العشاء ، وقضى ساعات مرهقة للأعصاب فى الولائم الصاخبة التى تستغرق وقتا طويلا والتى لابد ان يذهب إليها المدير ، وفى الاتصال تليفونيا لتحديد موعد هذه الألوان من العذاب ، وكانت أعماله التنفيذية تستغرق كل يوم ساعتين أو ثلاثة أوأربعة،فغضب وارتبك بعشا كل هيئة المعهد وبالنواحى الاقتصادية ، وأصبح أشد استبداداً وأكثر مشاكسة ، وبدأ رفاق المعهد المتحابون يتشاجرون جهاراً بعد أن كان توبس يصلح مابينهم أو يجعل سلاما ظاهرياً يخيم على علاقتهم .

وبينما كان يفترض أنه سوف يشع الخير من المنصب الذى كان يشغله أخيراً الدكتور ديويت توبس تعلق جوتليب بعمله وبمكتبه الضيق كقطة تلتصق بوسادتها اسفل المائدة ، وحاول مرة أو مرتين ان يجلس فى جدية فى مكتب المدير،لكنه هرب من ذلك المكان الفسيح النظيف ومن ضربات الآلة الكاتبة للآنسة روبينز،إلى مخدعه الذى انبعثت منه رائحة أوراق التبغ والأوراق القديمة، وليس فضيلة التطلع إلى الأمام .

وإلى ماكجورك ، شأن كل مؤسسة علمية ، جاء مئات الفلاحين والمرضين والجزارين الذين تكبدوا نفقات طائلة للمجىء من أوكلاهوما أو أوريجون ليحصلوا على الاعتراف بالأدوية المؤكدة نتائجها التى اكتشفوها مثل زيت السمك الحوت من نهر المسيسى الذى انقذ كل مصاب بالتهاب رئوى ، ومعجون الزرنيخ الذى يشفى جميع انواع السرطان وجاءوا برسائل وصور وسط قطع من الكتان البالية النظيفة فى حقائبها الرثة —وفى كل مناسبة ينحنون فوق حقائبهم ويخرجون فى روح من الأمل،شهادات كان رعاة كنائسهم قد منحوها اياهم ، وتوسلوا من اجل منحهم فرصة لشفاء الإنسانية ، وبالنسبة لأنفسهم لا يحصلون إلا على قدر كاف من المال يمكنهم من إرسال ابنتهم إلى معهد الموسيقى ، وكانوا على يقين تام وفى

درجة كبيرة من الإلحاح حتى أنه لا يمكن لأى كاتب يضطلع بمهمة الاستقبال أن يدرب على أبعادهم .

ووجد جوتليب أنهم يتسللون إلى مكتبه فكان يتأسف لهم ، ولكنهم كانوا يضيعون ساعات عمله .وهزوا إيمانه بأنه رجل قاسى القلب ، ولكنهم توسلوا إليه باستعطاف بالغ أنه لن يستطع أن يتخلص منهم إلا بعد أن يمنحهم الوعود ، فاعترف بعد ذلك أنه لو عاملهم بقسوة أكثر لكان ذلك أقل قسوة .

أنه لم يتبع أسلوب العنف إلا مع الناس أصحاب النفوذ.

ولقد تطلبت الإدارة من الوقت والهدوء ما حال دون استمرار جوتليب فى حل المشاكل العويصة المتزايدة لبحثه فى طبيعة المادة التخصص فيها ، كما أن بحثه حال دون أن يمنح رعاية كافية للمعهد تمكن من الحيلولة دون تصدعه واعتمد على شولتيز وترك له مهمة اتخاذ القرارات ولكن شولتيز اهتم ببحوثه العلمية حيث أن الفضل سيرجع إلى جوتليب فى حال نجاح الإدارة وترك مهمة اتخاذ القرارات للآنسة بيرل روبنز ، وهكذا كان المدير الحقيقى هى بيرل الأنيقة التى تأكل الغيرة قلبها .

ولم يكن هناك فى العالم الذى نعيش فيه مدبراً أشد دهاء وأكثر إلتواء من بيرل روبنز فلقد أكدت بحماس ودعة لروس ماكجورك ما يتمتع به جوتليب من مزايا وإخلاصها البالغ له واستمعت لتملق ريبلتون هولابيرد، وردت بصراحة على عداء تيرى ويكيت بالحيلولة دون حصوله على المواد اللازمة لعمله حتى أن المعهد قد تصدع لكثرة ما به من مؤامرات .

فلم يكن يو يتحدث إلى شولتيز كما هدد تيرى هولابيرد بأن يحوله إلى جثة هامدة ، وكان جوتليب يطلب دائماً نصيحة مارتن لكنه لم يعمل بها ، أما جوست ذلك العالم الماهر فى الطبيعة الحيوية الشرس الذى يفتقر إلى الحب . الذى منع مارتن من إيلام الرجل العجوز — فقد أخبر جوتليب بأنه مدير تافه وعليه أن يتخلى عن هذا المنصب ، وكان نتيجة ذلك أن فصل من عمله على الفور وحل محله زير نساء .

وكان ماكس جوتليب يتنافس دائماً مع مارتن حول « مزاح الآلهة ومداعباتهم »، ومن بين هذه المداعبات التي لم يشهد لحدتها مثيل تلك التي تكشف على أن الأدعياء وضيق الأفق المزعج اللذين كان يمقتهما في توبس كان ينبغي أن يجعل منه مديراً ناجحاً على حين أن عبقرية جوتليب كان ينبغي أن تخلق منه طاغية ضعيف، ووجه الدعابة هو أن الشيء الذي هو أسوأ من مؤسسة محكمة الإدارة وتقوم على أساليب حديثة يجب أن تكون تلك التي لم يحسن إدارتها وتنظيمها بالمرة . وكان يصلى كل ليلة من أجل عودة توبس على حين أنه كان يرفض ذلك بشدة لو حدث قبل الآن .

وإذا كانت أعمال المعهد لن تزد تعقيداً بظهور جوستاف سوند ليوس فإن هدوءه قد ازداد اضطراباً ، وكان جوستاف سوند ليوس قد عاد لتوه من دراسة مرض النوم في أفريقيا والذي احتل، في ضجيج ، أحد المعامل المخصصة للزائرين .

ولقد ظل جوستاف سوند ليوس . جندى الدواء الوقائى الذى نقلت محاضرته مارتن من هويتيلفانيا إلى نوتيلوس. في قاعة الأبطال وهو يمتلك القليل من حكمة جوتليب وشيئاً من عطف سيلفا الدائم وشيئاً من أمانة تيرى وإن لم يكن شيئاً من ازدرائه للملذات، أضف إلى هذا خصوبته المعروفة التي لا يشاركه فيها أحد ، حقيقى أن سوندليوس لم يتذكر مارتن ، فمنذ تلك الليلة في مينيبوليس عمل وناقش وذهب في ضجيج مع الكثيرين إلى جهات غامضة تفوح منها رائحة النبيذ ، ولكن مارتن ذكره ، وفي غضون أسبوع شوهد سوندليوس وتيرى ومارتن يسيرون ويتناولون الطعام معاً أو يتناقشون ويشربون الجن في مسكن مارتن .

وكان شعر سوند ليوس الكتانى غير المنسق قد اكتسى بالشيب ولكن مازالت له المناكب القوية والجبهة الواسعة ونفس المشروعات الثائرة لتعقيم العالم دون إهمال الاستمتاع ببعض الأشياء المفنة قبل أن تزول .

وكان هدفه هو إنشاء مدرسة للأدوية اللازمة للمناطق الاستوائية في نيويورك بعد أن ينتهى من تقريره عن مرض النوم .

وأخذ يحاصر ماكجورك ومستر ميتجن الثرى الذى شمل توبس برعايته ، كما استطاع فى غضون شهرأن يؤثر على جوتليب .

وافتتن بجوتليب وأثار ضجة حول هذا الافتتان ، وأعجب جوتليب بشجاعته وكراهيته للنزعة التجارية ، غير أنه لم يكن يطيق وجوده معه ، ولقد تضايق من مرح سونديليوس وإطرائه وتفاؤله البالغ وعدم دقته وتفاخره وضخامة جسمه التى تبعث الضيق إلى النفس ، وربما استاء جوتليب من حقيقة أنه على الرغم من أن سونديليوس لا يصغر جوتليب إلا بإحدى عشر عاماً — ٥٨ بينما جوتليب ٦٩ — فقد بدا أصغر منه بثلاثين عاماً وأكثر فرحاً وبهجة منه .

وأدرك سونديليوس هذا التبرم فحاول التغلب عليه بالمزيد من الضوضاء والإطراء والحماس ، وفى عيد ميلاد جوتليب أهداه سترة للتدخين من المخمل القانى والموف — وعندما كان يزور مسكن جوتليب — وهذا ما كان يفعله فى غالب الأحيان — كان جوتليب يضطر إلى ارتداء هذا الشىء البغيض ويجلس يهمهم ، بينما راح سونديليوس يهاجمه باستنكار صاحب الحساء العادى ورجال الموسيقى المعتدلين . . . . ولم يعرف جوتليب قط أن سونديليوس تخلى عن الولائم الفاخرة فى سبيل هذا اللقاء بجوتليب .

واتجه مارتن نحو سونديليوس يستمد منه الشجاعة ، كما استمد التركيز من تيرى ، فإذا أراد المرء القيام بعمله فى تلك الأيام التى اضطربت فيها أحوال المعهد فإنه يحتاج إلى الشجاعة والتركيز .

وكان مارتن يواصل عمله .

— ٥ —

وبعد تشاور مع جوتليب واجتماع طابعه القلق مع لورا حول خطر البحث فى ميدان الجراثيم بدأ يجرى أبحاثه على الطاعون الدملى بأمل القضاء عليه وعلاجه « بالباچ » .

ولو سمعه المرء وهو يسأل سونديليوس عن تجربته فى أوبئة الطاعون لاعتقد أن مارتن قد وجد متعة فى «الموت الأسود» ، وإذا ما شاهده أحد وهو ينقل هذا المرض الرهيب إلى الفيران المزيلة المتمعجة ويدعوها بأسماء أليفة لاعتقد أن الجنون قد اعتراه .

واكتشف مارتن أن الفيران التى تطعم بالفاج لم تصب بالطاعون وأنه بعد عملية الإطعام بالفاج اختفت جراثيم الطاعون العصوية من الفيران التى تجمعت ونشرت هذا الوباء الخطير دون أن تتعرض هى للموت ، وأخيراً تبين له أنه يستطيع علاج هذا المرض وأصبح بذلك سعيداً منهمكاً عصبياً كما كان فى الأيام الأولى لاكتشافه « عنصر س » وظل يعمل طيلة الليل ... وتحت مصباح واحد أسفل عدسة الميكروسكوب راح يتصيد بأنبوبة شفاطة زجاجية دقيقة كالشعر ميكروباً عصوياً واحداً من ميكروبات الطاعون .

ولكى يقى نفسه من العدوى التى قد ينقلها إليه براغيث الفيران ارتدى أثناء تجاربه على الحيوانات قفازاً من المطاط وحذاء طويلاً من الجلد وأشرطة معدنية حول كميه ، وبعثت هذه الاحتياطات الرعب إلى نفسه كما أنها كانت بالنسبة للآخرين فى ماكجورك شيئاً من السحر الخفى الذى يقوم به الكيميائيون ، لقد أصبح أشبه ببطل ، كما كان مصدر سخرية كبيرة ، ولم يكن هنالك من بين رجال الأعمال المخلصين فى المكاتب أو المسنين الشاغبين فى القرى من هو باحث متحرر من رذيلة التعقيب ، ولقد وصفه الكيميائيون وعلماء الأحياء « بالوباء » وحاولوا تجنبه فى الممرات .

ولما راح يجرى التجربة بعد الأخرى واندمج فى بحوثه العلمية فكر فى نفسه واكتشف أن الآخرين ينظرون إليه بعين الجد ، ونشر بحثاً طابعه الحذر حول الفاج فى الطاعون ، علقت عليه صحف علمية عديدة ، وحتى جوتليب العنيف أثنى على البحث على الرغم من أنه لم يستطع أن يقدم أية مساعدة ولم يوله إلا القليل من الاهتمام ، ولكن تيرى ويكت ظل متأثراً ولم يظهر لما جاء به مارتن

من عمل نابه إلا الحماس الذى يدل على أنه ليس باقياً ، وراح يدس أنفه ويسأل عما إذا كان مارتن بتجاربه الجديدة سيواصل بحثه حول الطبيعة الأساسية لجميع أنواع الفاج إلى جانب مواصلة بحثه فى الكيمياء الطبيعية .

وعين لمارتن مساعداً لم يكن له مثيل من قبل ، وكان هـذا المساعد هو جوستاف سوندليوس .

وكان سوندليوس قد فشل فى إنشاء مدرسة الطب الاستوائى التى كان ينوى إنشاءها ، فكان يبحث عن مشكلة جديدة. لقد مر بأوبئة عديدة جعلته ينظر إلى الطاعون بكراهية شديدة ، وعندما أدرك مايقوم به مارتن صاح قائلا : « أجل ربما حصلت على الشىء الذى سوف يكون أفضل من يرسين أو هافكين أو أى شخص آخر ، وربما تستطيع شفاء العالم بأسره من الطاعون فهناك الملايين المصابة به وخاصة البؤساء فى الهند ، دعنى أساعدك . »

وصار زميلا لمارتن بدون مقابل ودون كلل ، فلم يكن على درجة كبيرة من المهارة ولكنه على قدر كبير من النشاط والمرح ، وأحب عدم النظام ، شأنه شأن مارتن ، فلم يكن يتناول طعامه فى موعد واحد فى يومين متتاليين كما أنه اختار أن يعمل طيلة الليل وينظم الشعر — وإن كان شعراً غير جيد، عند الفجر.

وكان مارتن دائماً الباحث الوحيد ، وربما الشىء الذى أحبه كثيراً فى لورا هو قدرتها على أن تكون غير موجودة حتى فى وجودها، ولقد تضايق فى بادىء الأمر من وجود سوندليوس القلق على الرغم من استمتاعه بحماسة حول الفيران التى تحمل الطاعون — التى كان سوندليوس لا يكرهها ولكنه بحماس مملوء الحب قتل الملايين منها بالمصايد والغاز السام — ولكن سوندليوس الذى كان فظاً فى حديثه استطاع أن يلوذ بالصمت أثناء أداء العمل ، وعرف كيف يمسك بالحيوانات ، بينما كان مارتن يقوم بحقنها فى داخل غشاء الرئة ، وزرع مزارع ميكروب الطاعون العصوى ، وعندما كان المساعد الفنى لمارتن يعود إلى بيته بعد منتصف الليل بقليل (وكان هذا المساعد يحب مارتن ويستمتع بالعلوم ، ولكنه كان يؤكد

ضرورة النوم لمدة ستة ساعات يومياً وزيارة زوجتــه وأولاده فى هارلم أحياناً)
كان سوندليوس يقوم فى غبطة بتعقيم الأوانى الزجاجية وإبر الحقنة ، كما كان يذهب إلى بيت الحيوانات ليحضر الضحايا .

ولم يـكن هناك ادراكاً للتغيير الذى بموجبه أصبح سوندليوس عبداً لمارتن بعد أن كان سيده ولم يعبأ سوندليوس ، على الرغم من حبه للإثارة مثل بيكربو، كثيراً بمسألة السيادة أو الفخر حتى أن أحــداً منهما لم يعتبر أن هناك تغييراً قد حدث فتبادلا لفافات التبغ وخرجا فى ساعات متأخرة من الليل ليتناولا اللحم المشوى ويحتسيا القهوة أثناء عشاء يستغرق طول الليل ، كما أنهما كانا يعقمان معاً أنابيب الاختبار المشحونة بالموت .

الفصل الحادى والثلاثون

من يونان فى الصين ومن الأسواق التالقة الصاخبة زحف شيء لا يرى بالنهار ويعمل فى الظلام ، يزحف دون توقف وينذر بالشؤم، يزحف عبر الهملايا ويخترق الأسواق التى ضربت حولها الأسوار ويعبر الصحراء على طول الأنهار الصفراء الساخنة إلى مجمع تبشيرى أمريكى . . . . أنه يزحف فى صمت وهو على يقين مما يفعل ، وفى طريقه هنا وهناك يصاب رجل بالطاعون فتخمد أنفاسه .

وفى بومباى تحدث حارس حوض السفن الجديد ـ غير مدرك لحقائق الأمور ـ مزهواً بما تمتلكه أسرته من أرز عن عادة جديدة غريبة للفئران .

وجن جنون أمراء المجارى من الفئران الذين سرعان ما يندفعون ويختفون ، لقد هجمت الفئران على مخازن البضائع متجاهلة الحارس وبدوا كما لو كانوا يحاولون التحليق فى الجو (هذا ما قاله الحارس فى غبطة) وما لبثوا أن سقطوا قتلى ، فوخزهم لكنهم لم يتحركوا .

وبعد ثلاثة أيام مات هذا الحارس بسبب الطاعون .

وقبل ان يموت كانت سفينة محملة بالقمح قد أبحرت من الحوض فى طريقها إلى مرسيليا ، ولم يكن فوق هذه السفينة مريضاً أثناء الرحلة ، ومن ثم لم يكن هناك سبب يجعلها لا ترابط فى مرسيليا بجوار سفينة جوالة ، ويجمل السفينة الأخيرة التى كانت تسير نحو مونتفيديو ، بعد حديث عاطفى خاطف بين مأمور الشحن والضابط الثانى ، لا ترابط بالقرب من السفينة « بنداون كاسيل » التى كانت تنوى الإبحار إلى جزيرة سانت هوبرت لتضيف شحنة من الكاكاو إلى شحنتها الحالية من الخشب .

وفى الطريق إلى سانت هوبرت مات فتى من اصل جاوى ، ومن بعده خادم

غرفة الطعام فى الباخرة « بنداون كاسيل» بسبب ما أسماه ربان السفينة بالانفلونزا ، ومما أثار متاعب أكبر كثرة عدد الفئران التى لم تكتف بالخشب غذاء بل سارعت إلى مخازن الأغذية ، ثم إلى أعلى بمقدمة السفينة ، ومن غير سبب واضح ماتت على ظهر السفينة ، وكانت ترقص بصورة مضحكة قبل أن تموت ثم تسقط فى الثقب الذى يوجد فى جانب السفينة لتجف وتنكمش .

وهكذا وصلت بنداون كاسيل إلى « بلاك وونر » عاصمة وميناء سانت هوبرت .

وهى جزيرة صغيرة فى جنوب جزر الهند الغربية لكنها تضم مائة ألف نسمة من مزارعين وكتبة بريطانيين وبناة طرق من الهندوس وزراع قصب من الزنوج وتجار صينيين ، وتكشف الرمال وقمم الجبال على أن لهذه الجزيرة ماض ، فهنا أرسى القراصنة سفنهم ، وهنا عندما أصيب المركيز ويعسمبيرى بلوثة فى عقله بدأ يصلح الساعات وأمر عبيده بأشعال النيران فى حقول قصب السكر .

وإلى هنا جاء جاستون لوبو — زير النساء الفلاح — بالسيدة ديمر ليمون وعاش فى حالة بدائية حتى أن العبيد الذين غالباً ما كان يصليهم بالسياط جاءوا ليحلقوا له ذقنه ، وأزيحت رغوة الصابون عن فصد بالدم .

وسانت هوبرت اليوم مليئة بقصب السكر وعربات فورد والبرتقال والموز الهندى وثمار الكاكاو والموز وأشجار المطاط وغابات الخيزران والكنائس الأنجيلية ومعابد من الصفيح ونساء منهمكات فى غسل الملابس فى قلب الأشجار والجو الحار المشبع بالبخار وأشجار النخيل الرائعة والنهر الخالد الذى يملأ الوديان بالغرين ، أما اليوم فهى رائعة ، ومقصد السياح للاستجمام ، وبها مزارع قصب واسعة النطاق ، إزاء شمسها الساطعة .

أما بلاك وونر فهى مدينة هادئة منبسطة ذات منازل بنيت بالملاط وغطيت أسطحها بالصفيح ، وطرقات براقة ناصعة البياض ، وتوجد بها الباميا بلونها الأحمر والمخازن ذات الشرفات التى تنفتح أعماقها المظلمة بدون حاجز من الشوارع

الخانقة ، ويقع الميناء على جانب منها والمستنقع من الجانب الآخر ، ومن خلفها تلال بنويث التى فوق مرتفعاتها الصحية والتى تلطف أشجار النخيل من جوها حيث تقع دار الحكومة مطلة على القلاع الشامخة .

وهنا عاش فى خمول تام سيادة حاكم سانت هوبرت الكولونيل سير روبرت فيرلامب .

وكان سير روبرت فيرلامب شخصية ممتازة وراوية للقصص التى تقع فى مطاعم الجنود والضباط ، أنه الرجل الذى لم يذق طعم التبغ ، بيد أنه كان حاكما ممقوتاً وقلقاً ، أما الرجل الذى كان يليه فى المرتبة فهو سيادة سيسل أيريك جورج تويفورد الرجل النحيل النشيط المستبد الذى عرف السحر عن طريق كتاب للسحر ، وامتلك عشرة آلاف فدان من قصب السكر فى أبروشية سانت سويدن .... لقد صرح تويفورد بأن سيادة الحاكم « تافه وأحمق تماماً » ، وانتقل هذا التصريح بسرعة إلى فيرلامب ، ولكى يقضى عليه تماما ألغى البرلمان وهو السلطة التشريعية فى سانت هوبرت بسبب النزاع بين كيليت أحد « الريدليج » وجورج وليام ڤيرتيجان .

وكانت جماعة « الريدليج » هى قبيلة من البيض الفقراء من أصل أسكتلندى وإيرلندى جاءوا إلى سانت هوبرت كخدم منذ مائتى عام ، وكان معظمهم لا يزالوا صيادين ومزارعين ورؤساء عمال ، أما كيليت — وهو واحد منهم — فكان رجل صغير الفم سريع الغضب ناجحاً فى عمله إذ ارتفع من صبى يعمل فى مكتب إلى صاحب شركة للشحن ، وعلى حين أن أباه كان لا يزال يبسط شباكه فوق الشاطىء عند بوينت كاريب كان كيليت زعيماً برلمانياً مهتماً بالشئون الاقتصادية وخاصة أية مسألة اقتصادية من شأنها أن تضايق جورج وليام ڤيرتيجان زميله فى البرلمان .

أما جورج وليام الذى كان يعرف أحيانا « چووم العجوز » وأحيانا أخرى « بملك دار الثلج » (تلك الخمارة المدمرة الهدامة) فقد ولد فى قرية التيل يثل

فى لانكشير ، وكان يمتلك متجر السوق الأزرق ، وأضخم محال تجارية فى سانت هوبرت، وساعد على تهريب التبغ إلى فنزويلا، وكان انساناً مرحاً بديناً مخموراً بينما كان كيليت الردليج رجل أرقام وحسد وأدب جم .

وقسم كيليت وجورج وليام فيما بينهما البرلمان ، ولم تكن صفاتهما خافية على أى شخص منجل ، فكان كيليت الرجل العاقل المتحمس الذى يهتم بالشئون المحلية والذى كان نجاحه مصدر إلهام للشباب ، أما جورج وليام فكان المقامر والمتفاخر والمتهرب والكذاب وبائع الثياب البالية ، شخص لا يمتاز إلا بطبيعته الوضيعة .

وكان أول انتصار حققه كيليت فى ميدان الاقتصاد هو استصدار قرار يقضى بنقل كوكنى الحزين (لاعب المزمار) الذى كان يقوم رسميا بصيد الفئران فى سانت هوبرت .

أكد جورج وليام فيرتيجان أثناء المناقشة فى البرلمان ، وأسر لروبرت فيرلامب بعد ذلك على أن الفئران تتلف المواد الغذائية وربما تنشر المرض ومن واجب سيادة الحاكم أن يعترض على القرار الذى أصدره البرلمان ، واضطرب سير روبرت واستدعى الجنرال الجراح دكتور . أ انشكيب جونز (لكنه يفضل أن يلقب بالسيد وليس بالدكتور) .

وكان الدكتور أنشكيب شاباً نحيلا طويلا مشاكساً ، وكان قد جاء من بلاده منذ عامين ويرغب فى العودة إلى بلاده ، إلى تلك البقعة من الوطن التى تمثلها فرق التنس فى (سزى) ، وذكر لسير روبرت بأن الفئران وما يعلق بها دائماً من براغيث تنقل الأمراض ـ مثل الطاعون واليرقان المعدى والحمى التى تصيب المرء نتيجة لقضمة الفأر وربما الجزام ـ ولكن هذه الأمراض لم ـ ولا يمكن ـ أن توجد فى سانت هوبرت ماعدا مرض الجزام الذى كان عقابا طبيعياً للعناصر الوطنية المستهجنة ، وذكر أنشكيب جونز أنه لا يوجد فى الحقيقة سوى الملاريا وحمى الركب وبلادة عامة قاتلة ، وإذا كانت جماعة الريدليج أمثال كيليت يتسوق

إلى أن يموت من الطاعون وحمى قضمة الجرذ فلم يعترض على ذلك الناس المهذبون ؟ .

وبما لبرلمان سانت هوبرت ولسيادة الحاكم من قوة وسلطان لم يعد لصياد الجرذان الذى يغنى على المزمار ومساعده الشاب الذى يهز كل جسمه أى وجود ، وأصبح صياد الجرذان سائق سيارة ينقل السياح الأمريكيين والكنديين ، الذين يتوقفون فى سانت هوبرت ليوم أو يومين بين باربادوس وترينداد ، على طول طرق التلال الذى اعتقد أن السير فيها أسهل من غيرها بسيارة مستعملة ليصل إلى المكان المقصود ، كما كان يزودهم بمعلومات خاطئة عن الزهور ، أما مساعد صياد الجرذان . فقد أضحى مهرباً خطيراً ورئيس فرقة الترتيل فى إحدى كنائس ويسلى ، أما فيما يتعلق بالجرذان فقد كثر عددها وعاشت فى سلام وغبطة تلد كل أنثى عداداً يتراوح بين عشرة ومائتى جرذ سنوياً .

وغالباً ما اختفت الجرذان نهاراً ، وقال كيليت الريدليج « أن عدد الفئران لا يتزايد ، فالقطط تأكلهم » ، ولكن ما إن يقبل الليل حتى تثب فى مخازن البضائع وتدخل فى ميازيب السفن الكبيرة وتخرج منها على طول رصيف الميناء ، ثم غامرت بالذهاب إلى الريف ونقلت برغوثها إلى أنواع من السنجاب الأرضى التى كان متوفراً حول قرية كاريب .

وبعد عام ونصف العام من استبعاد صياد الجرذان عندما عادت سفينة بنداون كاسيل من مونتفديو ورست فى الميناء لوحظ بين الأكوام عشرات من الأعين الصغيرة البراقة .

وكإجراء روتينى لا علاقة له دون شك بحالات الموت التى نسبها ربان السفينة إلى الأنفلونزا وضع بحاوة سفينة بنداون كاسيل غطاء واق من الفيران على حبال المرسى ، ولكنهم لم يتسلقوا فوق السقالة بالليل ، ومن حين إلى حين كان جرذ يتسلل من جحره إلى الشاطىء ليجد بين أخواته فى بلاك ووتر طعاماً أدسم من الخشب الصلب ، وأبحرت السفينة بنداون كاسيل فى سلام عائدة إلى أرض

الوطن ، ومن آفونموث تلقى الجراح الجنرال انشكيب جونز برقية تنبأ بأن السفينة قد توقفت ، وأن عدداً آخر من البحارة قد لقى حتفه ... وماتوا بسبب الطاعون .

وبدت الكلمة في البرقية المقتضبة وكأنها كتبت بأحرف من نار .

وقبل أن تصل البرقية بيومين أصيب مضىء الأنوار في بلاكووتر بمرض خفي بغيض صاحبه الهذيان والدمامل .

وقال أنشكيب جونز بأنه لا يمكن أن يكون هذا هو مرض الطاعون، لأن الطاعون لم يوجد قط في سانت هوبرت ، ورد عليه زميله ستوكس بأنه ربما كان هذا هو مرض الطاعون ، لكنه — ياللهول — كان الطاعون فعلا .

وكان دكتور ستوكس صلب الرأى صارماً يعمل طبيباً في مقاطعة سانت سويذن ولم يمكث في مقاطعته التي ينتمي إليها ولكنه طاف في ربوع الجزيرة يضايق أنشكيب جونز ، ثم حصل على دبلوم الموسيقى من جامعة أدنبرة وعمل في أدغال أفريقيا وأصيب بالحمى والكوليرا وغيرها من الأمراض ولم يجىء إلى سانت هوبرت إلا ليسترد ما كان قد فقده من كريات الدم الحمراء وليضايق أنشكيب جونز البائس ، فلم يكن رجلا مهذباً وتغلب على أنشكيب جونز في لعبة التنس عندما وجه إليه لعبة قذرة لا تقوم على أسس رياضية ، وهى نوع الضربة التي يتوقعها المرء من أمريكى .

وتصور ستوكس هذا نفسه ، وهو إنسان يبعث على الضيق والملل، عالماً هاوياً في الجراثيم ، وكان مصدر ضيق حين يزحف حول أرصفة الميناء ليصطاد الفيران ويزرع مزارع البكتريا من بطون البراغيث ، وكان ذلك الرجل الصلب الرأى النحيل البغيض ذو الوجه الأحمر يصر على أنها تحمل طاعون .

وقال أنشكيب جونز بطريقة تتسم بالشفقة وبالاستخفاف « يا عزيزى هناك دائماً بعض الميكروبات العصوية التي تسبب الطاعون بين الفئران .

وعندما مات مضىء الأنوار طالب ستوكس بإلحاح أن يعترف جهاراً بأن وباء الطاعون قد حل بسانت هوبرت .

فقال أنشكيب جونز وحتى إذا كان هذا المرض هو الطاعون وهو أمر غير مؤكد فليس هناك مايدعو إلى أن نثير الرعب والاضطراب في نفس كل أمرىء، إنها حالة طارئة ولن يكون هناك المزيد .

ولكن سرعان ما وقعت حالات أخرى وفي غضون أسبوع مات ثلاثة عمال، كما أصيب صياد عند بونيت كاريب بشيء إعترف انشكيب جونز نفسه بأنه أشبه بوصف الطاعون الذى ورد في كتاب الأمراض الاستوائية لمانسون ، وهى مرحلة متقدمة تتميز بالهبوط وفقدان الشهية والإحساس بألم فى الأطراف ، ثم تأتى الحمى والدوار وشحوب اللون والأعين الغائرة والالتهاب والدمامل فى الفخذين ، لقد كان مرضا بغيضا، فكف أنشكيب جونز عن الثرثرة والحديث الممتع عن الرحلات وأصبح مكتئباً وصارماً مثل ستوكس ، ولكنه أمام الناس كان لايزال يأمل وينكر ولم يعرف أهل سانت هوبرت الحقيقة .... أنهم لم يعرفوا .

— ٢ —

وكان أجمل مكان لمن يحتسون الخمر والجائلين فى مدينة بلاك ووتر الخاملة ذات الدور المغطى سطحها بالصفيح هى الحانة والمطعم الذى يسمى « دار الثلج » .

وفى الطابق العلوى كانت توجد شركة كيليت للشحن والحانوت حيث يبيع رجل صينى ، يرجح أنه أحد خريجى جامعة أكسفورد ، سلاحف منحوته وجوز الهند على شكل رأس إنسان ، وباستثناء الشرفة حيث يتناول المرء طعام الغذاء وينظر إلى الشحاذين المندوس وهم يجلسون القرفصاء وقد غطوا حقويهم بخرق باليه وأطفال البريطانيين بلون بشرتهم الناصع البياض وهم يلعبون فى أعشاب الساقانا فإن دار الثلج هو مكان كبير للخمول الحالم حيث تجد نفسك مأخوذاً برائحة

الشواء المراكشى ، ولمسات الطلاء بالذهب فوق الجدران الناصعة البياض، والبار المصنوع من الخشب الطويل الرائع ، وآلات تاق فى ثقوبها بقطع من النقود ومناضد مغطى سطحها بالرخام خلف منضدتك .

وهنا فى ساعة احتساء الكوكتيل يجلس جميع حكام سانت هوبرت البيض الذين يرتدون خوذات لتقيهم حرارة الشمس والذين لا ينتمون لطبقة من الطبقات المعظمة مثل الكتبة فى مكتب الشحن ، والتجار الذين لا جدود لهم وسكرتيرية أنشكيب جونز والإيطاليين والبرتغاليين الذين يقومون بعمليـــة التهريب إلى فنزويلا .

ويأخذ المنفيون — الذين تهدىء من روعهم مسكرات الروم — هذه المشروبات القوية الحادة التى كانت تصنع بتحريك المادة بعصى الخمر — فى احتساء المزيد من الروم ويفيقون لأنفسهم من جديد (ولم يكن قد أفاقوا لأنفسهم منذ أربعة وعشرين ساعة منذ الكوكتيل) ويعاودهم اليقين بأنهم سوف يعودون إلى أرض الوطن فى اليوم التالى ، أجل ، سوف يندفعون ويقومون بالتدريبات فى برد الفجر ويتوقفون عن الشراب ويصيرون أقوياء ناجحين ثم يعودون إلى أرض الوطن ... أن الدموع تنهمر من أعين آكلى اللوطس[١] عندما يفكرون ، وسط كآبة دار الثلج ، فى بكاديللى ومرتفعات كويبيك وأنديانا وكاتالونيا أو سدود لانكشير ... أنهم لن يعودوا إلى الوطن ، ولكن دائماً مايقضون فى دار الثلج ساعات شراب جديدة مطمئنة إلى أن يموتوا ويجىء المتشردون الآخرون إلى جنائزهم ويهمس الواحد منهم فى أذن الآخر بأنهم عائدون إلى أرض الوطن .

---

(١) يشير إلى قوم ورد ذكرهم فى الأساطير الاغريقية ، وقد حل يوليسيس — بطل الأوديسية — ورفاقه بشواطئهم وما أن ذاقوا ثمار شجرة اللوطس حتى دب الكسل والتراخى فى أجسادهم فأقلعوا عن الرغبة فى العود إلى أرض الوطن كما ورد ذكرهم فى قصيدة تنيسون الشهيرة المعروفة باسم "آكلوا اللوطس".

وكان چورچ وليام فيرتيجان صاحب السوق الأزرق ملك دار الثلج الذى لايتحداه أحد ، لقد كان فظاً وقحاً من نوع البريطانيين الذين يقابلهم المرء فى داخل البلاد ، النوع الذى لاهو بالخارج على العقيدة الدينية ولاهو بالمفرط فى الشراب ، وكان كل يوم من الساعة الخامسة حتى السابعة يجلس عندحاجز الحان لايشمل تماما أويفيق تماما ، وهو دائماً ملىء بالعطف وروح المرح ؛ الرجل الوحيد الذى لم يتق إلى أرض الوطن لأنه لايتذكر له وطناً سوى « دار الثلج » .

وعندما همس أن رجلا قد مات من شيء قد يكون طاعوناً أعلن چورچ وليام لحاشيته إذا كانت هذه هى الحقيقة فسوف يستغلها ضد ليكيت الريدليچ . ولكن كل فرد يعرف أن مناخ الهند الغربية يمنع إنتشار الطاعون .

وعندما بدأ الرعب يستولى على الجماعة ، أعيد إليهم الاطمئنان بعد ذلك ، ولم تمض على ذلك ليلتان إلا وتردد بين جنبات « دار الثلج » أن جورج ويليام فيرتيجان قد قضى نحبه.

— ٣ —

ولم يجرؤ أحد على التعقيب عما حدث لا فى نادى ديفونشير ولا فى « دار الثلج » ولا فى المتنزه الذى يداعب أشجاره النسيم وتلاطمه أمواج البحر حيث يجتمع الزنوج بعد ساعات العمل ، ولكنهم سمعوا عن موت چورچ ويليام وعن موت غيره ، وكأنهم لم يسمعوا شيئاً ، ولم يرغب أحد فى أن يصافح صديقه القديم وابتعد كل فرد عن الآخر رغم أن الفئران ظلت معهم تلازمهم فى إخلاص ، وساد الرعب فى الجزيرة وهو أشد فتكاً من شقيقه الطاعون .

ومع هذا لم يفرض حجر صحى ولم يعترف رسمياً بأن وباء الطاعون قد حل بالجزيرة ، ولم يصدر أنشكيب جونز إلا بيانات مقتضبة ضعيفة يحـــذر من الاجتماعات العامة الكبيرة ، كما كتب إلى لندن يستفسر عن دواء « هافلين » الواقى ، ولكنه قال لسير روبرت فيرلامب محتجاً : « صدقاً لم تحدث سوى حالات

موت ضئيلة واعتقد أن الخطر قد زال ، أما عن اقتراحات ستوكس بأن نحرق قرية كاريب لمجرد وجود عدد من الحالات ، فهذا عمل وحشى ، ولقد قيل لى أنه إذا ما أقمنا حجراً صحياً فسوف يتخذ التجار أعنف الإجراءات ضد الحكومة ،إذ سوف يقضى على السياحة ويطرد رجال الأعمال .

ولكن ستوكس طبيب دائرة سانت سويذن كتب سراً إلى الدكتورماكس جوتليب — مدير معهد ماكجورك ينبئه بأن وباء الطاعون وشيك أن ينتشر ويقضى على جزر الهند الغربية بأكملها وهل يمكن للدكتور جوتليب أن يقدم مساعدة فى هذا الصدد؟

الفصل الثانى والثلاثون

ربما كان فى أعماق قلب ما كس جوتليب عدم إحساس شيطانى بالشفقة الألهية وبالبشرية المتألمة ، وربما كان هنا لك مجرد إستياء من الأطباء الذين إعتبروا علومه لا قيمة لها إلا إذا احترمت مهمة العلاج التى يمارسونها، ومن الجائز أن هناك الرغبة الغامضة العاطفية غير المرتابة فى العبقرية التى تساعد على السرية ، فما من شك فى أن ذاك الذى عاش ليدرس وسائل تحصين بنى الانسان ضد المرض لم يهتم كثيرا باستخدام هذه الوسائل ، فكان أشبه برسام أسطورى يزدرى بشدة الذوق العام حتى بعد حياة قضاها فى الخلق، دمر كل ما أنتج خشية أن تسخر أعين الجمهور غير الثاقبة من إنتاجه وتشوهه .

ولم يكن الخطاب الذى تلقاه من دكتور ستوكس هو الاخطار الوحيد الذى أشار إلى أن وباء الطاعون ينتشر فى ربوع سانت هوبرت وأنه غداً قد ينتقل بسرعة إلى باربادوس وإلى أجزر فيرجين . . . وإلى نيويورك ، وكان روس ما كجورك إمبراطور العصر الجديد تقدم له الخدمات بصورة أفضل من أى حاكم من حكام الماضى ، فكان ربان سفنه يزورون مئات الموانىء ، وخطوط السكك الحديد التابعة له تخترق الغابات ، ومراسلوه من الصحفيين يهمسون فى إذنه عن الانتخابات القادمة فى كولومبيا ، وعن محصول قصب السكر فى كوبا وعما قاله سير روبرت فيرلامب إلى دكتورى . أ . أنشكيب جونز فى سقيفة بيته الخلوى ، وعرف روس ما كجورك ومن بعده ما كس جوتليب مدى شدة وباء الطاعون فى سانت هوبرت أكثر مما كان يعرف آكلى اللوطس فى دار الثلج .

ورغم هذا لم يتحرك جوتليب ولكنه راح يفكر فى التركيب الكيميائى المجهول للأجسام المضادة ، ولم يقطع هذا التفكير إلا أسئلة عما إذا كان يوجد لدى بيرل روبنز عدد كاف من الأقلام ، وعما إذا كان من المناسب أن يستقبل دكتور

هو لا بيرد البعثة العلمية من لوتانيا بعد ظهر اليوم ليتمكن دكتور شولتيز من حضور المؤتمر الانجليكى الذى كان سينعقد لبحث مسألة « الاحتفاظ بالقربان المقدس » .

وانهال عليه المستفسرون من بينهم المسئولين عن الصحة العامة ودكتور آلموس بيكربو — رجل البرلمان الذى يقال أنه مشهور فى واشنطن — وجوستاف سوند ليوس ومارتن أروسميث الذى لم يبلغ (سواء كان ذلك لأنه كبير جداً أو صغير للغاية) درجة عدم المبالاة المركزة التى يتسم بها جوتليب .

وترددت الشائعات بأن أروسميث التابع لمعهد ماكجورك قد اكتشف ما يقضى على الطاعون تماما ، وتلقى جوتليب رسائل تقول : « أتستطيع أن تقف مكتوف اليدين وفى يدك وسيلة الخلاص ترقب آلاف البؤساء يموتون فى سانت هوبرت والاهم من ذلك هو : هل تنوى أن تدع وباء الطاعون الرهيب ينتشر فى نصف الكرة الغربى ؟ هذا هو الوقت أيها العزيز لأن تترك أوهامك العلمية وتعمل !

ثم أشار روس ماكجورك — ليس فى خجل كبير — أثناء تناول شريحة لذيذة من اللحم أن هذه هى فرصة المعهد لأن يحقق شهرة عالمية .

وسواء كان بضغط من ماكجورك أو مطالب الجمهور الثائر أو كان خيال جوتليب قد ارتفع بدرجة تمكنه من أن يتصور بؤس السود فى حقول قصب السكر إستدعى مارتن وقال :

علمت أن هناك طاعون رئوى فى منشوريا وطاعون دملى فى سانت هوبرت بجزر الهند الغربية ، إذا وعدتنى — يامارتن — بأن تستخدم « الفاج » مع نصف مرضاك وأن تضع النصف الآخر تحت المراقبة فى ظروف صحية عادية لكن بدون « الفاج » ، فتتمكن من أن تقرر قيمتها بشكل قاطع كما فعلنا مع نقل الناموس للحمى الصفراء — فى هذه الحالة سأرسلك إلى سانت هوبرت ، فما رأيك ؟ »

وأقسم مارتن بجاك لويب أنه سيراعى شروط الأختبار ولسوف يقرر بما لا يقبل الشك قيمة « الفاج » بالتناقض بين المرضى الذين يعالجون والذين

لايماجون ، وهكذا ربما يقضى على الطاعون قضاء تاما ، وسوف يقسى قلبه ويفتح عينيه .

وقال جوتليب « وسوف تقنع سوند ليوس بموافقتك وسوف يقوم بدور الدعاية وهكذا يجعل الصحف تشيد بفضلنا ، ذلك الامتياز الذى يجب أن يحصل عليه المدير كما يقال لى » :

ولم يوافق سوند ليوس على الذهاب فحسب بل أصر على ذلك .

ولم يكن مارتن قد رأى بلداً أجنبياً . . . ولكن لم يستطع التفكير فى كندا حيث قضى إحدى عطلات الصيف خادماً فى فندق — على أنها دولة أجنبية بالنسبة له ، ولم يدرك أنه ذاهب حقاً إلى مكان أشجار النخيل والوجوه السمراء ، وأمسيات عيد الميلاد الفاترة ، وانشغل مارتن فى إعداد كميات ضخمة من الفاج المبيد للطاعون (بينما خرج سوند ليوس لشراء أردية من الكتان وخودة جديدة مناسبة تحميه من حرارة الشمس) ، ولقد أعد من هذا الدواء مئات من المكاييل ووضعها فى زجاجات صغيرة مغلقة ، وشعر بأنه مارتن العادى ، ولكن المؤتمرات والسلطات تهتم به .

عقد مجلس الأمناء اجتماعاً ليسدى النصيحة إلى مارتن وسوند ليوس فيما يتبعانه من وسائل ، ولحضور هذا الاجتماع تخلى مدير جامعة ويلمينجتون عن امتحان شخصى كان سيعقده لطالب مليونير كما تخلى روس ما كجورك عن لعبة الجولف ، كما وصل واحد من ثلاثة علماء جامعيين بالطائرة واستدعى من معمله شاب ذى ياقة غير مهندمة ومازالت تشغله تفاصيل قنانى إرلماير والرشحات المعقمة - فواجه مارتن الرجال ذوى المرح الذى يقاس بميعاد ، وتبين له أنه لم يعد تخيفه عدم الأهمية بل ينظر إليه كقائد لا ينتظر منه أن يعمل المعجزات فحسب بل ليشرح سلفاً مدى أهميته ونضوجه وقدرته على صنع المعجزات .

وأحس بالخجل أمام صرامة الأمناء الخمسة وهم يجلسون كأعضاء محكمة عليا عند منضدة فى محكمة بونانزا - وكان جوتليب يحاول أن يبدو صارماً وعالى

الشأن ، ولـكن سوند ليوس دلف إلى مكان الاجتماع متحمساً ومنتفخاً ، وسرعان ما تبـــدد خجل مارتن كما أنه لم يحترم ذلك الرجل الذى كان أستاذه فى الصحة العامة ذات يوم .

لقد اراد سوندليوس أن يبيـد جميع الحيوانات القارضة فى سانت هوبرت ويقيم حجراً صحياً ويستخدم مصل يرسين ودواء هافـكين وأن يقدم الفاج الذى اكتشفه مارتن لـكل فرد فى سانت هوبرت مرة واحدة .

واحتج مارتن على ذلك ، وربما كان جوثليب هو الذى يجب أن يتحدث فى تلك اللحظة .

وأندفع مارتن على ذلك يقول بأنه يدرك ان المشاعر الإنسانية سوف تحظر من استخدام المتألمين المساكين كمجرد وسيلة للتجربة ، ولـكن لابد له من بعض التجارب الحقيقية ، وسحقاً له ، بل وسحقاً له أمام مجلس الوصاية إذا كان يسمح لتجربته بأن تفشل بالعلاج الذى تستخدم فيه أدوية عديدة بدرجة يتعـذر معها التأكد مما إذا كانت حالات الشفاء نتيجة لمصل يرسين أو لدواء هافـكين أو الفاج أو أنه لم يكن نتيجة لأى منهم .

ووافق مجلس الأمناء على خطته ، فحتى إذا كانوا يرغبون فى انقاذ الإنسانية أو ليس من الأفضل أن ينقذها ممثل معهد ما كجورك بدلا من يرسين أو هافـكين أو سوندليوس الأجنبى ؟

وأتفق على أنه إذا ما تمـكن مارتن من أن يعثر فى سانت هوبرت على منطقة لم يمسها الطاعون فأن عليه نسبياً أن يجرى تجاربه على هذه الحالات فيحقن نصف المرضى بالفاج ويترك النصف الآخر بدون علاج . أما فى المناطق التى حل بها الوباء فيقدم الدواء لـكل امرىء ، وإذا ما أمكن الحد من انتشار المرض بصورة غير معهودة فسوف يكون ذلك دليلا ثانوياً .

ولم يعرف الأمناء ما إذا كانت حكومة سانت هوبرت — حيث أنها لم تطلب

المساعدة — ستمنح مارتن حق إجراء التجارب وتمنح سونديليوس سلطة تنفيذية أم لا ، ولقد رد الجراح الجنرال — وهو شاب يدعى انشكيب جونز على برقياتهم يقول : « ليس هناك وباء حقيق ولا نحتاج مساعدة » ، ولكن ماكجورك وعد بانه سوف يجرى اتصالاته العديدة ليقنع السلطات بالترحيب ببعثة ماكجورك (برئاسة مارتن أروسميث ، ليسانس فى الآداب وبكالوريوس فى الطب) .

وكان سونديليوس لايزال يصر على أنه فى هذه الأزمة يعد الاهتمام بالتجارب وحدها عملا غير إنسانى ، ومع هذا أصغى إلى هياج مارتن المنطق بحماس يظهره هذا الإنسان العنيد لكل شىء وقعه على الإذن جديد وصادق ، ولم يعتبر ، شأنه شأن آلموس بيكربو ، أن اختلافا فى وجهة النظر العلمية يعتبر هجوماً على شخصيته .

وتحدث عن الذهاب على نفقته الخاصة مستقلا عن مارتن وماكجورك ، ولكن الأمناء أعادوه إلى صفوفهم عند ما قالوا بانه وإن كانوا يرغبون فى ألا ينساقوا للرجل العزيز إنسياقاً أعمى وراء الأمصال فإنهم سوف يزودونه بجهاز يمكنه من جمع الجرذان التى يرغب فى القضاء عليها .

فأحس سونديليوس بسعادة وقال :

« وعليكم مراقبتى ! فانا القائد الأعلى لقتلة الجرذان ، لقد اعتدت بأن أدخل مخزن البضائع فتقول الجرذان ، هاك هو العم جوستاف العجوز الملعون — فما الفائدة ؟ » ثم ينقلبون على ظهورهم ويموتون ، كما يسعدنى أن احظى بتأييدكم لأنى إنسان محطم وسوف أكون فى حاجة إلى كمية كبيرة من القوة الدافعة ، آه ، هؤلاء الفيران ! ما عليكم إلا مراقبتى ، والآن سأذهب لأبعث ببرقية أعتذر فيها عن إلقاء محاضرة — هه أنا ألقى محاضرة فى كلية البنات ، أنا الذى أستطيع أن أتحدث بلغة الجرذان وأعرف سبعة أنواع قاتلة ناجحه فى الفخاخ ! »

— ٢ —

ولم يعرف مارتن قط خطراً أعظم من أن يسبح فى فيضان بحكم أنه طبيب مقيم بالمستشفى ، ومن الفجر حتى منتصف الليل كان ينهمك فى إعداد الفاج ، ويتلقى النصيحة غير المشجعة من جميع العاملين بالمعهد مما جعله يفكر فى أخطار وباء الطاعون ، ولكنه عندما آوى إلى فراشه وراحت الأفكار تدور فى مخيلته تصور بوضوح خطر الموت وشبحه الرهيب ، وعندما علمت لورا بأنه ينوى الذهاب إلى جزيرة يخيم عليها شبح الموت ، إلى مكان له أساليب غريبة وفيه أشجار ووجوه عجيبة (مكان ربما يتحدث أهله لغات مضحكة ولا توجد به دور للهو ولا معجون أسنان) حملت الفكرة معها سراً لتفحصها وتقلب جنباتها تماماً ، كما كانت تسرق فى غالب الأحيان القليل من الطعام من فوق المائدة وتخفيه لتأكله فى ساعات متأخرة من الليل وهى تبدو مغتبطة كطفل سيء الأخلاق واغتبط مارتن لأنها لم تزد مما يعانى منه من ألم بإظهار قلقها ، وبعد ثلاثة أيام تحدثت فقالت :

« سأذهب معك . »

« لم تذهبين ؟ »

« حسناً . . . إنى ذاهبة . »

« ليست الرحلة آمنة . »

« غباء ! فليس هناك خطر بالطبع إذ تستطيع أن تحقننى بالفاج الناجع ، ومن ثم أكون على ما يرام ، آه أن لى زوجاً يشفى الأمراض ، إنه زوجى وسوف أنفق مبلغاً من المال فى شراء الملابس الخفيفة رغم إنى لا أعتقد أن سانت هوبرت أشد حرارة من دكوتا فى شهر أغسطس . »

« أصغى إلى يالورا العزيزة ! واسمعى ! ، إنى على يقين من أن الفاج سيعطى

مناعة ضد الطاعون — ولسوف أحقن به نفسى جيداً — ولكنى لست أدرى ، فحتى إذا كانت نتائجه العملية تبلغ درجة الكمال فسوف يكون هنالك بعض الأشخاص الذين يقيهم هذا الدواء شر الطاعون . وخلاصة القول هى : اننى لن أسمح بذهابك يا حبيبتى ، والآن أحس برغبة شديدة فى النوم . »

وأمسكت لورا بطيتى صدر سترته بعنف مضحك كقطة صغيرة تقوم بدور اللاكمة ، ولكن لم يكن هناك ما يثير الضحك فى عينيها ، ولا فى صوتها المعول أثر لنواح نساء الجنود فى الماضى حين قالت :

« إلا تدرى ياساندى أنه ليست لى حياة بعيداً عنك ؟ ربما كانت لى حياتى الخاصة ولكن حقاً أننى سعيدة إذ سمحت لك بإن تتملكنى كلية ، أننى إنسانة كسولة تافهة جاهلة إلا فيما يتعلق بالمحافظة على راحتك ، فإذا ما ذهبت بمفردك إلى ذلك المكان ولم أعرف أنك بخير أو إذا لقيت حتفك ورعى جسدك الذى أحبه بشدة شخص آخر — ألم أحبه ياعزيزى ؟ — سوف أجن . أننى أعنى ما أقول إلا ترى أننى أعنى ما أقول — سوف أجن — وحقيقة الأمر هى أننى أنت ولابد أن أكون معك ، ولسوف أساعدك فأعد لك أطباق البكتريا وكل ما تحتاج إليه ، أنت تعرف كيف قدمت لك يد العون فى غالب الأحيان ، آه لست ذات نفع كبير فى ما يجورك فيما تقوم به من تجارب معقدة ولكنى ساعدتك فى نوتيليوس — لقد أعنتك إليس كذلك؟ — وربما أساعدك فى سانت هوبرت — وكان صوتها أشبه بصوت النساء وهن فى حالة رعب فى منتصف الليل — ربما لا تجد من يستطيع أن يقدم لك مساعدتى الضئيلة وسوف أطهو الطعام وأعد كل شيء . . . » .

« لا تزيدين الأمر مشقة على يا عزيزتى فالمهمة شاقة على أية حال . . . »

« لعنة الله عليك ياساندى اروسميث ، أو تجرؤ على استخدام تلك العبارات التقليدية التى يخدع بها الأزواج زوجاتهم أبد الدهر ، لست زوجة كما أنك لست زوجاً ، فأنت لا تصلح أن تكون زوجاً إذ أنك تهملنى تماماً ، والوقت الوحيد

الذى تنظر فيه إلى ما أرتدية هو عندما يسقط من ثوبى زرار لعين — ولست أدرى كيف كانت تسقط هذه إلا زرار رغم القيام بتثبيتها من جديد — ثم تهاجمنى وتغلظ لى القول ، ولكنى لست أبالى فأنى أفضلك عن أى زوج مهذب . . . هذا فضلا عن أنى سأرافقك » .

واعترض جوتليب على ذهابها ، وأستاء منه سوندليوس كما كان مبعث قلق لمارتن ، ومع هذا ذهبت لورا وعينها جوتليب - وهذا هو أول اجراء طابعه الدهاء يقوم به كمدير للمعهد — سكرتيرة ومساعدة فنية لبعثة الطاعون والبكتريوفاج التابعة لما كجورك إلى ليسر أنتيليز » ومن ثم منحها راتبا .

— ٦ —

وأصر مارتن فى اليوم السابق لرحيل اللجنة على أن يحقن سوندليوس « بالفاج » لكنه رفض قائلا : « كلا ، أنى لن أمسه يامارتن قبل أن تؤمن بالإنسانية وتقدمه لكل فرد فى سانت هوبرت ، وأنك لفاعل فانتظر حتى تراهم يتلوون من الألم بالآلاف ، فأنت لم تر بعد مثل هذا الشىء ، ولكنك ما إن تشهد ذلك حتى تنسى العلوم وتحاول إنقاذ كل فرد ، ولن أسمح لك بحقنى إلا بعد أن تحقن كل أصدقائى الزنوج هناك . »

وأستدعى جوتليب مارتن بعد ظهر ذلك اليوم وتحدث إليه فى تردد :

« أنك تنوى الرحيل إلى بلاك ووتر غدا . »

« أجل ياسيدى . »

« قد نفتقدك طويلا ، أنك يامارتن صديق القديم فى نيويورك ، أنت ومريم الطيبة ، قل لى : لقد كنت تعتقد ومعك تيرى فى بادىء الأمر أنه كان يجب أن أرفض منصب المدير ، إلا ترى أن قبولى لهذا المنصب كان اجراءا حكيما ؟ » .

وحملق مارتن فى وجهه ، وسرعان ما كذب وقال ما كان ينتظر منه ويبعث الارتياح إلى النفس .

« سعيد باعتقادك هـذا ، فأنت تعرف منذ وقت طويل ما أحاول أن أقوم به ، إن لى عيوباً ، لـكنى أعتقد أنى بدأت أرى شهرة علمية حقيقية تحل بالمعهد أخيراً بعد عملية البحث عن الشهرة التى قام بها توبس وهولا بيرد .. كيف أستطيع ياترى طرد هولا بيرد ، ذلك الدخيل على العلوم ؟ لو لم يكن على صـلة وثيقة بكابيتولا .. يطلقون عليها علاقة اجتماعية ! ولـكن على أية حال ...

« هناك من قالوا أن ماكس جوتليب لايستطيع القيام بمهمة إدارة المعهد التى يمكن لصبى صغير أن يقوم بها ، هه ، شراء مذكرات ، واستئجار نساء لتنظيف الأرضية ، كلا ، فالأرضية تنظفها نساء يستأجرها مدير المبنى ، أليست هذه هى الحقيقة ؟ ولـكن على أية حال .

« اننى لم أغضب عندما ساورتك الشكوك أنت وتيرى ، اننى انسان عظيم لأنى أسمح لأن يـكون لـكل فرد رأيه الخاص ، ولـكن من دواعى غبطتى — اننى مغرم بكما يا ولدى فأنتما الولدان الوحيدان الحقيقيان اللذان لى فى الحياة — » ووضع جوتليب يده النحيلة على ذراع مارتن « انه من دواعى غبطتى أنك ترى الآن اننى قد بدأت انشاء معهد علمى حقا ، ومع ذلك فإن لى أعـداء ، وسوف تعتقد يا مارتن اننى أمزح إذا قلت لك أن التآمر ضدى .

«وحتى يو ، كنت أعتقد أنه صديق وأنه عالم حقيق للأحياء ، ولـكنه جاءنى اليوم فقط يقول أنه لايستطيع الحصول على عدد كاف من قنفد البحر ليجرى عليه تجاربه كما لو كنت أستطيع أن أصنع من الهواء قنفد البحر ، كما قال اننى لا أزوده بالمواد اللازمة ، أنا الذى وقفت دائما — أنه لا يهمنى مايدفع للعلماء من مرتبات ، ولـكنى وقفت دائما ضد سيلفا وضد جميع أعدائى .

« أنت لا تعرف يامارتن عدد أعدائى ، انهم لا يجرؤون على مواجهتى أنهم يتنسمون لى ولـكنهم يتآمرون همساً — سوى أرى هولا بيرد فهو دائمـا يتآمر ضدى ويحاول أن يضم إليه بيرل روبنز ، إلا أنها فتاة طيبـة وتعرف ما أنا فاعل ولـكن . . »

وبدت الحيرة مرتسمة على محياه وتفرس فى مارتن كما لو كان لم يعرفه وتوسل إليـه :

« أنى أكبر — ليس فى عدد السنين — أنها أكذوبة ما يقال من إننى قد تجاوزت السبعين من عمرى — لـكن لى متاعبى ، فهل يضايقك أن أسدى إليك نصيحة كما أفعل فى غالب الأحيان منذ سنوات كثيرة ؟ رغم أنك لم تعد طالباً فى (كوين سيتى) — كلا أنك كنت فى جامعة وينباك ، أنك رجل وباحث أصيل ولـكن . . .

« كن واثقا من أنك لاتدع شيئاً حتى قلبك الرقيق الطيب أن يتلف تجربتك فى سانت هوبرت ، انى لا أسخر من النزعات الإنسانية كما كنت أفعل من قبل ، فأحيانا أعتقد الآن أن الجنس البشرى الفظ المتخاصم قد يـكون فيه من السماحة وحسن الذوق ما للقطط ، ولـكن إذا كان لابد من هذا فلابد من وجود المعرفة ، وهكذا تجد يا مارتن ان كثيراً من الرجال يشفقون ويحبون الآخرين ، ولـكن قليلين من أضافوا للمعرفة جديداً ، وأمامك الفرصة وقد تـكون الرجل الذى يقضى على الطاعون من جذوره ، وقد يـكون ماكس جوتليب قد ساعد بدوره فى ذلك أليس كذلك ؟

« فعليك ألا تـكون مجرد طبيب فى سانت هوبرت، وعليك أن تشفق كثيراً على الأجيال القادمة حتى تأبى أن تنغمس فى الشفقة على الرجال الذين سوف تراهم يموتون » .

« يموتون . . . أن ذلك سوف يعنى سلاماً » .

« لاتدع شيئاً سواء أكانت الشفقة أو الخوف من الموت يحول دون إتمام لهذه التجربة على الطاعون ، وكصديق لى — إذا ما فعلت هذا سوف تـكون إدارتى للمعهد قـــد أسفرت عن نتيجة ، فلو أسفرت الجهود عن عمل رائع واحد ليبرر سياستى . . »

وعاد مارتن حزيناً إلى معمله فوجد تيرى ويـكيت ينتظره ، وابتدره تيرى

بالقول : « قل لى يا نحيف ، ما أردت أن اجىء إلى هنا إلا لأشير عليك من أجل ساند جوتليب أن تحتفظ بمذكراتك عن الفاج كاملة وحديثة وأن تكتبها بالحبر»

« يلوح لى ياتيرى كما لو كنت تعتقد اننى لن أعود بمذكرانى . »

فقال تيرى فى وهن : « آه ، ما الذى يؤلمك ؟ »

— ٤ —

لابد أن خطورة الوباء قد ازدادت فى سانت هوبرت لأنه فى السابق لرحيل بعثة ماكجورك أعلن دكتور انشكيب جونز أن الحجر الصحى قد فرض على الجزيرة ، ويمكن للقادم أن يدخلها ولكن لايسمح لأحد بمغادرتها ، لقد فعل هذا على الرغم من تبرم الحاكم سير روبرت فيرلامب واحتجاجات أصحاب الفنادق الذين يعيشون على السياح ، وصيادى الفيران سابقا الذين يتولون عملية نقلها من مكان إلى آخر ، وكايت الريدلج الذى كان يبيع لهم التذاكر . وكل من كان على اتصال بالأعمال الصالحة فى سانت هوبرت .

— ٥ —

وإلى جانب زجاجات الفاج والمحقنات من طراز لوير قام مارتن باستعدادات شخصية تمكنه من الحياة فى المنطقة الاستوائية فاشترى فى سبعة عشر دقيقة حلة وقميصين . وحيث أن سانت هوبرت مستعمرة بريطانية وسمع أن جميع البريطانيين يحملون عصى أشترى عصا أكد صاحب الحانوت أنها من أحسن الأنواع .

— ٦ —

وفى صبيحة يوم من أيام فصل الشتاء بدأ مارتن ولورا وجوستاف سوندليوس رحلتهم على ظهر الباخرة « سانت بوريان » التى تبلغ حمولتها ستة آلاف طن التابعة لشركة ماكجورك والتى تحمل الآلات والدقيق وسمك البكلاه والسيارات إلى ليسر آنتيليز ثم تعود بالعسل الأسود والكاكاو والكمثرى ونارتينداد

واشترك فى الرحلة عشرون سائحا من سياح الشتاء ، ولكن لم يزد عددهم عن العشرين ولهذا لم يكن هناك عدد كبير من المودعين الذين يلوحون بمناديلهم .

وكان رصيف شركة ما كجورك الذى ترسى عليه سفن الشركة فى جنوب بروكلين فى ضاحية أقيمت منازلها على نمط واحد وطليت باللون البنى ، وكانت السماء عديمة اللون فوق الثلوج القذرة ، وبدا سوندليوس راضياً كل الرضى ، وعندما اندفعت سيارتهم فوق رصيف تناثرت فوقه الصناديق والجلود وعدد من المسافرين نظر من سيارة الأجرة المزدحمة التى كانوا يركبونها وقال إن مقدمة السفينة سانت بوريان — وهذا كل ما يمكن رؤيته من السفينة — قد ذكرته بالسفينة الأسبانية التى استقلها وهو فى طريقه إلى جزر الكاب فيرد ، ولكن بالنسبة لمارتن ولورا — اللذان كانا قد قرءا عما يحدث عند الرحيل ، عن رؤساء الخدم وهم يندفعون ومعهم باقات الزهور ، وعن الأدواق والنساء المطلقات وهم يدلون بأحاديث صحفية ، وفرق تنشد أنشودة « العلم المزركش بالنجوم » — كانت الباخرة سانت بوريان غير ممتعة ، كما أن نظامها غير الدقيق الذى هو أشبه بمعدية كان مدعاة لليأس .

ولم يتوجه لتوديعهم سوى تيرى الذى أحضر معه صندوقا من الحلوى للورا .

ولم يكن مارتن قد استقل قبل ذلك سفينة أكبر من زورق بحارى ، وحملق فى جدران الباخرة السوداء ، وعندما تسلقوا الصقالة أحس بانه يعزل نفسه عن البلاد الآمنة المألوفة كما أحس بالحرج بعدم مبالاة المسافرين الذين بدا على وجوههم أنهم أكثر خبرة منه والذين كانوا ينظرون من وراء القضبان ، وفوق ظهر السفينة بدا له أن الجزء الأمامى يبدو كفناء بيت تاجر قديم بنى بالحديد ، وأن الباخرة سانت بوريان مالت إلى جانب واحد وأنه حتى وهى فى حوض السفن كانت تتأرجح بشكل غير مرغوب فيه .

ودوت صفارة السفينة فى كبرياء ورفعت حبال الأرساء ووقف تيرى على الرصيف حتى بعدت الباخرة مع مارتن ولورا وسدندليوس فوقها وقد مالوا ببطونهم فوق سور السفينة ، وسرعان ما ابتعدت السفينة .

وأدرك مارتن أنه قد بدأ رحلة فى بحر خطير لمقاومة الطاعون الخطير ، وأنه لا يمكنهم ترك السفينة إلا بعد أن يصلوا إلى جزيرة بعيدة . وكان وطنه هو ظهر السفينة المحدودة النطاق بخطوطها المطلية بالقار بين ألواح خشبية سميكة ، كما شعر ببرد شديد عندما عبروا الميناء الواسع الذى يهب فيه النسيم ، وبوجه عام كان الله فى عونه !

وعندما دلفت سانت بوريان إلى النهر وكان مارتن يقترح على بعثته قائلا : « ما رأيكم فى أن نذهب إلى الطابق السفلى ونرى ما إذا كان من الممكن أن نحصل على بعض أقداح الشراب ؟ جاء صوت عربة أجره على الرصيف ورجل نحيل طويل يجرى — لكن فى ضعف ووهن — فتبين لهم أنه ماكس جوتليب وهو ينظر إليهم ويرفع ذراعه النحيل محيياً ، ولما لم يجدهم عند السور قفل راجعاً فى حزن وأسى .

— ٧ —

وباعتبار أنهم يمثلون روس ما كجورك وأعماله العديدة بشرها وخيرها خصص لهم أفخم جناحين على ظهر السفينة .

وأصيب مارتن ببرد بعد أن تركوا ساندى هوك التى يتساقط عليها الثلج ، ومرض بعد مغادرتهم لكيب هاتراس ، وتعب وتراخى بين المكانين ، وشعرت لورا معه بالبرد ومرضت كما يمرض النساء ولكنها لم تحس بأى تعب ، وأصرت على أن تنقل إليه المعلومات من دليل عن جزر الهند الغربية كانت قد اشترته فى حماس .

وكان سونديلوس مشهوراً فوق ظهر السفينة فقد تناول الشاى مع الربان وعقد اجتماعات ثقافية مع مبشر زنجى فى مقدمة السفينه ، وكان يسمع دائما وهو يغنى فى المكان المخصص للتريض ويدافع عن البلشفية ضد رئيس نواتية السفينة ، ويجادل مع الضابط الأول حول اشتعال البترول ، ويشرح لخادم الحان كيف يحسن

شراب الجن ، وأقام حفلاً للأطفال فى مقدمة السفينة واستعار كتاباً من الضابط الأول عن الملاحة ليقرأ فيه فى الفترة التى تتخلل الحفلات .

لقد خلق روحاً لرحلة سانت بوريان العادية الحذر ، لكنه ارتكب خطأ إذا كان يلاطف الآنسة جويليام ، وحاول أن يطيب نفسها فى رحلة وحيدة كما كان يبدو واضحاً .

وكانت الآنسة جويليام من أفضل الأسر فى حيها بنيوجيرسى ، فكان أبوها محامياً ووكيلا لاحدى الكنائس كما كان جدها مزارعاً راسخاً ، أما أنها لم تتزوج وقد بلغت الثالثة والثلاثين من عمرها فيرجع أساساً إلى أن الشباب المتمدينين يفضلون الفتيات التافهات اللائى يرقصن على موسيقى الجاز ، ولم تكن جويليام شابة رقيقة فحسب ولكنها كانت مغنية كذلك ، وكانت فى الحقيقة فى طريقها إلى جزر الهند الغربية لتحافظ على روائع الفن البدائى من أجل الأعقاب المبجلة فى الأغانى الوطنية التى سوف تجمعها وتغنيها للجمهور المستمتع .. إذا تعلمت فقط كيف تغنى .

ودرست جوستاف سوندليوس واكتشفت أنه شخص غبى لا يشبه وكلاء التأمين المهذبين ومديرى المكاتب الذين اعتادت أن تلتقى بهم فى نادى بلدها ، والأسوأ من ذلك هو أنه لم يسألها عن رأيها فى الفن والجمال ، كما يمكن اعتبار ما يسرده من روايات عن القادة العسكريين وأشباههم أكاذيب ، أو لم يتصل بالمهندسين القذرين ؟ أنه كان فى حاجة إلى بعض توبيخها الرقيق الذى توجهه فى روح من المرح .

وعندما وقفا معاً عند السور وغنى بطريقته السويديه المضحكة أن الليلة جميلة قالت له : « حسناً يامستر فظ ، هل حصلت على شىء جميل الليلة أيضاً ؟ أم أنك ألحت لشخص آخر فرصة للحديث ولو مرة واحدة ؟ »

ودهشت فى هدوء عندما ابتعد عنها دون الاحترام التام الذى من حق أية امرأة امريكية مثقفة أن تنتظره من جميع الرجال حتى من الأجانب .

وجاء سوندليوس إلى مارتن نائحاً — أعتقد يا نحيف — لوسمحت أن اقبك كما يفعل تيرى — أنك وصديقك جوتليب على حق ، فلا فائدة من انقاذ الحمقى ، أنه خطأ كبير أن تكون طبيعياً ، ومن واجب المرء أن يكون متكلفا كتوبس العجوز ، ومن ثم ينال الاحترام من فتيات نيوجيرسى غير المتزوجات .. ياللغرور! فأنا الذى قذفنى وضربنى الكثيرون من العظماء والذى اقتدت ذات يوم لأرمى بالرصاص فى سجن تركى لم أتضايق منهم قدر ما سببته لى هذه الفتاة المغرورة . آه ، الغرور ! هذا هو العدو ! »

وبدا ظاهرياً أنه شفى من صدمة الآنسة جويليام وشوهد وهو يجادل معَ طبيب السفينة بشأن رتوق فى جماجم الزنوج ، واخترع لعبة من ألعاب الكريكيت فوق ظهر السفينة ، ولكن عندما كان جالساً يقرأ ذات مساء فى « القاعة الاجتماعية» وقد انحنى وهو يرتدى منظاراً خادعا وقد تجعد فمه ، مر مارتن بالنافذة ورأى وهو لا يصدق أن سوندليوس يتقدم فى الأيام .

— ٨ —

وجلس مارتن بجوار لورا فى مقعد فوق ظهر السفينة وراح يفحصها ويمعن النظر فى محياها الشاحب بعد مرور سنوات ، عندما أصبحت شيئاً عاديا ، وفكر فيها كما فكر فى الفاج وقرر جديا أنه قد أهملها وبدأ على الفور فى أن يصبح زوجاً صالحاً .

« والآن يا لورا قد أتيحت لى الفرصة لأن أكون إنساناً ، فإنى أدرك كم كنت تعيشين وحيدة فى نيويورك .

« ولكنى لم أكن . »

« لا تكونى حمقاء ، فقد كنت وحيدة بالطبع ، حسنا عندما نعود سوف أخصص بعض الوقت من كل يوم لنتنزه سويا ونذهب إلى دور اللهو ونفعل كل ماتريد ، وسوف أبعث إليك بالزهور كل صباح ، أليس مريحا أن نجلس فى هذا

المكان ! لقد بدأت أفكر وأدرك كم أنا اهملتك . . فأخبريني يا حبيبتي هل كان ذلك الأمر موحشا للغاية ؟ »

« لا تبالى . »

« كلا بل اخبريني . »

« ليس هناك ما أخبرك إياه . »

« والآن سحقا لهذا الأمر يا لورا ، إذا ما اتيحت لى أول فرصة بعد إحدى عشر ألف عام لأن أفكر فيك وأتقدم نحوك واعترف لك صراحة كم كنت مهملا لك .. وأفكر أن أبعث إليك الورود . »

« أصغى إلى يا ساندى أروسميث وكف عن إيلامك لى ، انك ترغب فى أن تستمتع بإتعاب نفسك بالتفكير فى كونى زوجة مسكينة بائسة مستغيثة غير واقعية ، انك تحاول أن تصبح بائسا تماماً إذا كنت. لاتستطيع أن تستمتع بكونك بائس .. وسوف يكون أمراً رهيبا عندما نعودإلى نيويورك إذا كنت تشغل نفسك بهذا الأمر وتخصص نفسك لتمتعنى بوقت طيب ، أنك ستكون أشبه بثور،وسوف اضطر إلى أن أظهر لك شعور الامتنان من أجل الزهور التى تبعث بها إلى كل يوم — والأيام التى تنسى فيها إرسال الزهور — والطريقة التى سوف تجذبنى بها إلى دور اللهو عندما أرغب فى البقاء فى البيت وأنام ... »

« حسنا ، وقسما بالعاصفة ، أنه من بين جميع .. »

« كلا ، من فضلك ، أنك عزيز على نفسى وطيب ، ولكنك تميل إلى الرياسة بدرجة اضطررت معها أن أكون دائما كما ترغب حتىإن كان ذلكالعزلة ، ولكن .. ربما أنا كسولة ، فإنى أفضل أن أتجولفى خمول عن أن أجد فى تنسيق ملابسى وا كتساب الشهرة وما شابه ذلك من أعمال ، اننى أهتم بشئون المسكن — سحقا لهذا الأمر فقد كنت أود طلاء المطبخ أثناء غيابنا ، أنه مطبخ صغير جميل — وأقنع نفسى بقراءة الكتب الفرنسية وأخرج للنزهة واتطلع من النوافذ

وأتناول المثلجات وينصرم اليوم . انني أحبك يا ساندى حباً جما ، لو استطعت لرضيت بأن تساء معاملتى كالأشرار لكى تستمتع أنت ، ولكنى لا أتقن الكذب فلا أعرف إلا الأكاذيب البسيطة الصغيرة كتلك التى قلتها لك فى الأسبوع الماضى عندما قلت انني لم أتناول أية حلوى ولم أعان من أى ألم فى المعدة فى الوقت الذى كنت قد تناولت فيه نصف رطل وأتلوى من الألم ككلب صغير . . . يا الهى ، انني زوجة طيبة » .

وانتقلوا من بحار رمادية اللون إلى أخرى ارجوانية وفضية ، وعند الغسق كانوا يقفون عند السور ، فكان يحس باتساع البحر ورحابة الحياة ، لقد كان يعيش دائماً فى خياله ، فعندما كان يشق طريقه وسط الجماهير كزوج عادى يركض لشراء لحماً مشويا بارداً للعشاء كان يسرح بخياله فى الأفق الفسيح ، فلم يكن يرى الشوارع بل حيوانات حية دقيقة فى ضخامة وحوش الغابة وأميال من القنانى التى بها البكتريا ، بينما يرى نفسه يصدر أوامره إلى مساعديه ويتلقى التهانى من ماكس جوتليب ، وكانت أحلامه تلازم عمله ؛ وبنفس الحماس بدأ الآن ينتبه للسفينة والبحر الغامض ووجود لورا ، وفى غسق الشتاء الاستوائى الدافىء صاح قائلا :

« ليست يا عزيزتى هذه سوى الأولى من السفريات الكبرى التى سوف نقوم بها ، وإذا كللت مهمتى فى سانت هوبرت بالنجاح فسوف يعمل لى فى القريب العاجل حساب فى ميدان العلوم وسوف نذهب إلى الخارج إلى فرنسا التى تعشقينها وإلى انجلترا وإيطاليا وإلى كل مكان » .

« هل تعتقد أننا نستطيع ذلك ؟ آه ، يا ساندى ، يالروعة زيارة الأماكن ! »

— ٩ —

وظلت ترقبه دون دراية منه لمدة ساعة وهو نائم فى قمرته التى أضيئت بضوء خافت تسلل إليها من مصابيح صالونهم المجاور .

ولم يكن وسيما ، فكان منظره غريبا أشبه بكلب صغير يقيل بعد ظهر يوم

حار ، وكان شعره مشعثاً ، وغاص وجهه فى وسادة مغضنة وأحاطها بكلا ذراعيه ، ونظرت إليه وهى تبتسم فانفرجت أركان شفتيها كسهام صغيرة منطلقة .

« انني أحبه كثيراً عندما يكون منكوشاً ، ألا ترى يا ساندى ، انني كنت حكيمة فى المجىء ، أنك جد متعب ، وقد يصيبك المرض ولا يمكن لأحد سواى أن يمرضك ، فما من أحد يعرف أساليبك المتغيرة ... وكيف تكره البرقوق وما شابه ذلك ، سوف أسهر على رعايتك ليل نهار ... وسوف استيقظ لأقل همسة ، وإذا احتجت إلى أكياس الثلج وغيرها . . فسوف أحصل على الثلج ولو اضطررت إلى أن أتسلل إلى منزل أحد الأثرياء وأسرقه من ثلاجته ياعزيزى ! »

ونقلت المروحة الكهربائية حتى يتركز هواءها عليه ، وعلى أطراف أصابعها زحفت إلى غرفة الجلوس الخانقة التى لم يكن بها سوى منضدة مستديرة وبضعة مقاعد ومرآة وصوان فى الحائط من خشب الكابلى لم يعرف أحد الهدف من وجوده

« انها نوع من . . آه ، عملية شاقة ، أظن ان من واجبى تنسيقها غـــداً على نحو ما » .

ولكن لم تكن لها موهبة تنسيق المقاعد واللوحات بصورة تجلب الجمال والحياة فى غرفة مقبضة ، ولم يحدث فى حياتها أنها قضت ثلاث دقائق فى تنسيق الزهور ، وبدأت عليها أمارات الريبة وابتسمت واطفأت النور وعادت اليه .

واضطجعت فوق غطاء سريرها فى استرخاء ، شخصية نحيلة ترتدى قميص نوم تافه ، وفكرت « انني أحب غرفة النوم الصغيرة لأن ساندى أقرب إلى فلا يخيفنى أى شيء . ياله من رجل مندفع فى لومى ، ويوما من الأيام سوف أتجاسر وأقول له :

« لتذهب إلى الشيطان ، فسوف أفعل هكذا ، سوف نسافر ياعزيزى إلى فرنسا معاً ، أنت وأنا فقط ، ألا يمكننا ذلك ! »

وقامت وهى تبتسم ، جسداً نحيلاً صغيراً جداً . . .

الفصل الثالث والثلاثون

ورأو الجبال يكسوها الضباب ، وعلى جوانبها أقيمت فى الأيام الغابرة قلاع تتوجها أشجار النخيل لحماية السكان من القراصنة ، كما شاهدوا فى مارتينيك منازل طليت واجهاتها بطلاء أبيض أشبه بمنازل ريف فرنسا ، وسوقاً عجاجاً مكتظاً بالنساء الملونات اللائى يغطين رؤوسهم بعصابات حمراء وزرقاء اللون ، ومروا بسانت لوسيا الحارة وبسابا وهما عبارة عن بركان واحد ، والتهموا ثمرة الخبز والببو والكمثرى ، وابتاعوا من المواطنين الذين كان لون بشرتهم أشبه بلون البن والذين جاءوا على مقربة منهم فى قوارب صغيرة ترقص فوق سطح الماء ، وأحسوا بما يشعر به سكان هذه الجزر من خمـــول ووهن وخفقت قلوبهم قبل أن يقتربوا من باربادوس .

وكانت سانت هوبرت بعد ذلك مباشرة .

ولم يكن أحد من السياح قد علم بالحجر الصحى ، فاشتاطوا غضباً إذ أن الشركة قد جاءت بهم إلى مكان الخطر ، وأحسوا فى الهواء المعتدل بوباء الطاعون .

ولقد طمأنهم ربان السفينة بخطاب رسمى ، أجل ، أنهم سوف يتوقفون فى بلاك ووتر — ميناء سانت هوبرت — ولكنهم سوف يرسون بعيداً عن الميناء ، وبينما سيسمح للركاب الذين يقصدون سانت هوبرت بالنزول فى زورق طبيب الميناء فإنه لا يسمح لأحد من سانت هوبرت بمغادرة الجزيرة . . . ولن يمس هذه الباخرة شيء من ذلك المكان الموبوء سوى حقيبة البريد الرسمية التى سوف يقوم طبيب الباخرة بتطهيرها .

(وكان طبيب الباخرة يفكر فى طريقة تطهير جعبة البريد .. لنجرب .. كبريت يشتعل فى جو رطب ، أليس كذلك ؟)

وكان ربان السفينة قد تدرب على الخطابة عن طريق المجادلات مع رؤساء أرصفة الموانى ، ومن ثم أمكنه أن يطمئن السياح ، ولكن مارتن تمتم إلى أعضاء لجنته « لم أفكر فى الأمر ، فما أن نصل إلى الشاطىء إلا ونصبح أسرى حتى يزول الوباء — لو زال — أسرى الطاعون من حولنا » .

وقال سوندليوس « ألا تدرى هذا ، إنه لأمر طبيعى ! »

— ٢ —

وبعد ظهر اليوم غادروا بريدجتون — ميناء باربادوس الجميل — وفى وقت متأخر من الليل وصلوا إلى بلاك ووتر والركاب نيام ، وعندما خرج مارتن على ظهر السفينة الشاغر المبلل بالندى بدا الموقف ضرباً من الخيال وموحشاً للغاية ، ولم ير من ميدان المعركة القادمة سوى بضعة أضواء على الشاطىء خلف المياه المضطربة .

أما وصولهم فقد كان مصحوباً بشىء من الهلع والرهبة ، فكان طبيب السفينة يصعد وينزل مسرعا تبدو عليه أمارات الاضطراب ، كما سمع ربان السفينة يزمجر فوق الجسر ، وأسرع الضابط الأول ليتداول معه وعاد ليختفى إلى أسفل الباخرة ، ولم يكن فى إستقبالهم أحد ، وانتظرت السفينة تدور فى خيلاء ، بينما بدت وكأن أبخرة عفنة ساخنة تتصاعد من الشاطىء .

وعندما وقف مع لورا بجوار حقائبها وصناديق الفاج فوق ظهر السفينة المتمايل الأسود اللامع بالقرب من قمة سلم الركاب قال لها مارتن غاضباً : « وهنا سننزل ونمكث ! » .

وخرج المسافرون وهم يرتدون أقمصة النوم يثرثرون : « أجل ، لابد أن يكون هذا هو المكان ، فهناك تلك الأنوار ، لابد أنه خطير ، ماذا ؟ البعض سينزلون إلى الشاطىء ؟ آه ، هذان الطبيبان ولا شك ، حسناً أن أعصابهما لقوية ، اننى بالتأكيد لا أحسدهما ! » وسمع مارتن هذا الحديث .

ومن الشاطىء تحرك نحو السفينة ضوء يتراقص وزلق حول مقدمة السفينة

وبحرك جانباً حتى أسفل سلم الركاب ، وفى ضوء فانوس خافت أمسك به خادم فى أسفل السلالم استطاع مارتن أن يرى زورقاً بخارياً جميلاً غطى سطحه ، ويتولى قيادته بحارة سمر البشرة فى زى بحرى يضعون فوق رؤوسهم قبعات من القش الأسود اللامع حليت بشرائط ويقودهم رجل يبدو أنه استكتلندى يرتدى قبعة بحارة مستدقه فوق سترة مدنية .

ونزل الربان فوق الدرج المتأرجح بجانب الباخرة ، وبينما أخـذ الزورق يهتز ويتمايل ويلمع غطاؤه المكون من الخيش المبلل ثم عقد الربان مع قائد الزورق اجتماعاً طويلا صاخباً وتلقى حقيبة البريد وهى الشىء الوحيـد الذى سمح بنقله فوق ظهر السفينة .

وأخذ طبيب الباخرة الحقيبة من الربان بنفور وقال غاضبا : « والآن من أين لى بيرميل أطهر فيه هذه الرسائل اللعينة ؟ »

وانتظر مارتن ولورا وسوندليوس ، دون أن يكون لهم حق الخيار .

وانضمت إليهم سيدة نحيلة ترتدى ملابس سوداء لم يرها أحد طول الرحلة .. انها أحـد الركاب الغامضين الذين لا يرون إلا عندما يصعدون فوق ظهر السفينة وعند النزول إلى البر ، وبدا واضحاً أنها تنوى النزول إلى الشاطىء ، وكانت شاحبة ويداها ترتعدان .

وصاح بهم الربان : « حسناً ، حسناً ، حسنا يمكنكم الذهاب الآن ، أسرعوا من فضلكم فلا بد لى من السير . لعنة الله على هذه المضايقة » .

ولم تبد سانت بوريان كبيرة أو مترفه ولكنها بدت كقلعة راسخة وسط العواصف وجانبها كجدار ضخم عندما نزل مارتن فوق السلم المتأرجح وراح يفكر فى جميع الأمور دفعة واحدة ، « نحن هنا للعمـل كن هم فى طريقهم إلى المشنقة — انهم يقودونك إلى هناك — ولا مجال للمقاومة ، وانك تدع خيالك يحملك بعيداً ، أترك الأمر الآن . وهل فات أوان إقناع لورا بالبقاء على ظهر السفينة ؟ »

وفى حالة من الألم تساءل : « يا إلهى هل ينقل الخـدم الفاج بعناية ؟ » ثم وجد نفسه فى أسفل السلم فوق طوار مربع صغير — وكان جانب السفينة شاهقا فوقه، تضيئه أبواب غرف السفينة المستديرة — يساعده شخص ما للنزول إلى الزورق .

وجاءت السيدة المجهولة ذات الملابس السوداء على ظهر السفينة فرأى مارتن فى ضوء الفانوس كيف كانت تشد مرة على شفتيها ثم اختفت معالم وجهها كمن ينتظر بلا أمل .

وضغطت لورا على يده بشدة عندما أعانها على النزول إلى الزورق ، وتمتم عندما انطلقت صفارة الباخرة قائلا : « بسرعة ، لا يزال فى استطاعتك العودة ، يجب أن تعودين . »

« وأترك الزورق الجميل ؟ لماذا ، ياساندى تأمل حركة اللعايف ! . . يا إلهى اننى خائفة للغاية ! »

وعندما قذف الزورق رذاذه ودار واتجه نحو الأنوار الخافتة على الشاطىء ، وعندما أحنى رأسه ورقص فوق سطح الماء، سأل المسئول مارتن:

« هل انتم بعثة ما كجورك ؟ »

« أجـــل . »

« حسنا . » وبدا مغتبطا لـكنه فاترا ، كان صوته ينم عن الانشغال والجدية .

وسأله سوندليوس : « هل أنت طبيب الميناء ؟ »

« كلا ، لست طبيب الميناء بالذات ، إننى دكتور ستوكس طبيب أبرشية سانت سويذين ، إننا فى هذه الأيام نقوم بكل شىء ، والحقيقة هى أن طبيب الميناء قد مات منذ يومين » .

وقبع مارتن ، ولـكن خياله لم يعد يثيره .

« يخيل إلى أنك الدكتور سوندليوس ، فأنا أعرف ما قمت به فى إفريقيا وفى المانيا الشرقية . . . إذ كنت هناك بنفسى ، وهل أنت الدكتور اروسميث ؟ لقد

قرأت بحثك عن فاج الطاعون ، وأعجبت به كثيراً . والآن انتهز هذه الفرصة قبل أن نصل إلى الشاطىء لأقول بأنكما سوف تواجهان معارضة ، إذ أن انشكيب جونز — الطبيب الجنرال — قد فقد صوابه ، أنه يجرى فى حلقات ، يشرط الدمامل ، لكنه يخاف من أن يحرق كاريب مصدر الداء ، إن لدى يا أروسميث فكرة عن التجارب التى ترغب فى إجرائها فاذا اعترض انشكيب فما عليك إلا أن تجىء إلى أبرشيتى .. لو بقيت على قيد الحياة ، إن أسمى هو ستوكس . . ياللعين ، ماذا أنت فاعل يابنى ؟ هل تحاول أن تتجه إلى فنزويلا ؟ . . . إن أنشكيب وسيادة الحاكم يخشيان حتى من حرق الجثث — لتعصب دينى بين السود » .

وقال مارتن « أدرك ما تعنى » .

وقال سوندليوس : « كم عدد المرضى بالطاعون الآن ؟ » .

« لا يعلم ذلك إلا الله ، ربما ألف كما يوجد عشرة مليون جرذ . . إننى أحس برغبة شديدة فى النوم . . حسنا ، مرحبا بكم أيها السادة — » وفتح ذراعيه فى حركة هستيرية قائلا : مرحبا بكم فى جزيرة الوثابات »[1] .

ومن قلب الظلام اقتربت منهم بلاك ووتر ، ثكنات منخفضة قذرة فوق سهل مستنقعى منخفض تفوح منه رائحة الوحل اللزج ، وكان الظلام والسكون الرهيب يخيمان على المدينة ، ولم يروا وجهاً على طول المبانى المواجهة للبحر — ومن مخازن للسلع ومحطات للترام وفنادق وضيعة — وتوقف الزورق بجوار رصيف الميناء ونزلوا إلى الشاطىء دون أن يتعرض لهم مسئولو الجمارك ، ولم تكن هناك عربات ، كما أن مديرى الفنادق الذين اعتادوا مضايقة السياح الذين ينزلون من الباخرة سانت بوريان مهما كانت الساعة قد ماتوا الآن أو اختبأوا فى مكان ما .

واختفت السيدة النحيلة غير المعروفة وهى تترنح بحقيبتها — لم تتفوه بكلمة واحدة ولم يروها ثانية ، وحمل أعضاء البعثة مع ستوكس ورجال بوليس الميناء الذين قادوا الزورق ، الأمتعة عبر شوارع تظللها شرفات ضخمة حتى فندق سان مارينو .

(١) فصيلة من الفراش .

ومرة أو مرتان حلقت فيهم وجوه — أشباح لها شفاه مرتجفة — من قارعات الجوارى ، وعندما جاءوا إلى الفندق ووقفوا أمامه أشبه بقافلة أضناها التعب تحمل الحقائب والصناديق تفرست فيهم مديرة الفندق الجاحظة العينين من النافذة قبل أن تأذن لهم بالدخول .

ولما دخلوا رأى مارتن فى ضوء الشارع أول حركة للحياة ، امرأة تصيح وطفل فى ذهول يتبعان عربة مكشوفة تحمل عدداً كبيراً من جثث الموتى .

وهمس لنفسه: « وكان فى استطاعتى انقاذ هؤلاء جميعاً بالفاج » .

وأحس بالبرودة تشيع فى جبينه . ومع هذا تصبب بالعرق عندما راح يثرثر مع المديرة عن الغرف والطعام ، ويتمنى لو أن لورا لم تشهد ما بداخل تلك العربة البطيئة التى تحدث صريراً .

وقال وهو يشعر بقشعريرة : « لو علمت بذلك لخنقتها قبل أن أسمح لها بالمجيء » .

واعتذرت المرأة « أطلب اليكم ياسادة أن تحملوا أمتعتكم إلى غرفكم ، فالغلمان العاملون معنا . . . لم يعد لهم وجود» .

ولم يعرف مارتن ماذا حدث للعصا التى كان — فى غرور بهيج — قد ابتاعها فى نيويورك، فقد كان مشغولا بحراسة صناديق الفاج ويقول فى قلق : « ربما ينقذ هذا الدواء كل انسان » .

ولاذ الآن ستوكس طبيب دائرة سانت سويذان بالصمت ، وبدأ صارما ، ولكن ما إن نقلوا آخر حقيبة إلى الطابق العلوى حتى مال ستوكس برأسه على الباب وصاح قائلا : يا إلهى يا اروسميث ، أننى سعيد للغاية بمجيئك » ، وفارقهم مسرعا . . .وقال شرطى الميناء الزنجى الذى يتحدث بالإنجليزية التى يتحدثها سكان جزر الهند الغربية بلهجة بيكاديللى « هل لك أوامر أخرى ياسيدى ؟ لو تسمح لنا سنعود إلى دارنا ، إن على المائدة ياسيدى الويسكى الذى أمرنى باحضاره دكتور ستوكس » .

وحلق مارتن ، أما سوندليوس فهو الذى قال « شكرا جزيلا لكم أيها الغلمان هاك جنيه لتتقاسموه فيما بينكما ، فاذهبا واستريحا » .

وصافح الغلامان أعضاء البعثة واختفيا .

وظل سوندليوس يشيع المرح فى نفوس المبتدئين من أعضاء البعثة قدر إستطاعته مدة نصف ساعة .

واستيقظ مارتن ولورا فى صباح مشرق متلألىء امتزج فيه اللونان الأخضر والقرمزى ، ومع هذا خيم الصمت الرهيب ، لقد استيقظا وادركا أنهما فى بلاد غريبة لم يشهداها بعد ، وأما مهما العمل الذى بدا لهما وهما بعيدان فى نيويورك مبهجا وممتعا ، والذى تفوح منه الآن رائحة اللحد .

— ٣ —

وجاءت بشىء أشبه بطعام الإفطار فتاة زنجية نظرت اليهم مرتجفة من الباب قبل أن تدخل .

ودلف سوندليوس من غرفته مرتديا منامة من الحرير الفضفاض ، واذا كان يبدو دائما مسنا بمنظاره وانحناء ظهره ، فقد بدا فى تلك اللحظة شابا وصاخبا .

« هيا يا نحيف ، أمامنا عمل لابد من القيام به ، دعنى أقتل هذه الجرذان ، يا لانشكيب من طبيب .. يحاول السيطرة عليها بالاستركنين ، هل تتزوجيني يالورا عندما تطلقين مارتن ؟ أعطنى الملح . أجل ، أننى أنام نوما عميقا! » .

ولم يكن مارتن فى الليلة السابقة قد ألقى نظرة على غرفتهما ، أما الآن فقد جذب غرابتها إنتباهه : الجدران الخشبية الشاهقة التى طليت بطلاء أزرق فاتح والأثاث الضخم ، ونبات الجهنمية عند النافذة ، وفى الفناء الحرارة اللافحة وأوراق البلميط(١) المصلصلة كالمعدن .

---

(١) ضرب من النخيل

وكانت تقع خلف جدران الفناء الطوابق العليا لحانوت صيني ذي شرفات، ومنور متجر السوق الأزرق ، ذو الألوان المثيرة .

وأحس بأن هذا العالم الغريب لابد أن يحدث ضجيجاً ، ولكن لم يكن هناك سوى هدوء مخيف،وحتى سوندليوس أصبح صامتاًرغم أنه أتيحت له فرصة الكلام ودلف إلى حجرته وإرتدى حلة من حرير السورا[1] كان قد إرتداها آخر مرة في الساحل الشرقي لأفريقيا وعاد ومعه خوذة واقية من الشمس كان قد ابتاعها سراً خصيصاً لمارتن .

وبدا مارتن وهو يرتدى سترة من التيل وخوذة من عش الغراب أنه ينتمى لسكان المناطق الاستوائية أكثر منه إلى رياض الشمال التى ولد فيها ، ولكن غبطته بأنه يبدو أجنبيا قطعها دخول الطبيب الجنرال دكتور . ى . م . انشكيب جونز النحيل المتورد الوجنتين القلق المستعجل .

وقال فى إزدراء : « لا شك أنكم تنزلون على الرحب والسعة ، ولكن فى الحقيقة أخشى أننا لا نستطيع أن نمنحكم ماتتوقعونه من رعاية واهتمام على الرغم مما ستقومون به ».

وبحث مارتن عن رد مناسب ولكن سوندليوس هو الذى تحدث عن ابن عم له ـ غير موجود ـ كان طبيبا فى شارع هارلى كان يقول بأن كل ما يحتاجونه هو معمل لمارتن وفرصة لنفسه لقتل الجرذان، وكان جوستاف سوندليوس قد استطاع مرات عديدة فى بلاد كثيرة أن يتملق الحكام ويقنع الوثنيين بحاجتهم إلى الخلاص .

وبتأثيره أصبح الطبيب الجنرال انسانا بالفعل وبدا كما لو كان يعتقد حقا أن لورا سيدة جميلة ، ووعد بأنه قد يسمح لسوندليوس بأن يلهو مع الجرذان،وسوف يعود بعد ظهر اليوم ويقودهم إلى بنريث لودج الدار التى أعدت لهم فوق التلال المنعزله الآمنة خلف مدينة بلاك ووتر وأعتقد (وانحنى بأدب جم) أن السيدة

---

(١) قاش هندى من الحرير أو الحرير والقطن

أروسميث ستجد المنزل بيتا خلويا جميلا مزودا بثلاثة خدم مهذبين . وكان الطاهي ، رغم أنه رجل ملون هو المسئول عن ميس الضباط قبل ذلك .

وما كاد انشكيب جونز يخرج من الباب ألا وسمع قرع على الباب ففتحه مارتن ليجد زميله فى كاية ويناك الدكتور القس إيرا هنكلى .

وكان مارتن قد نسى إيرا ذلك المسيحى البدين الذى حاول أن يخلصه من شروره خلال أروع ساعات التشريح ، وتذكره فى غموض ، ودخل الرجل الضخم المتثاقل يحملق عيناه فى تهيج تام وجف صوته وهو يقول :

« مرحباً يا مارتن ، ألا تذكر صديقك القديم ايرا ، أننى أتولى شئون كافة كنائس أخوة القداسة ، هنا ، آه يامارتن لوعرفت شرور سكان هذه البلادوأسلوب كذبهم وترديدهم للاغانى الفاضحة وارتكابهم جميع أنواع الشرور ، ومع هذاتسمح لهم كنيسة إنجلترا بالأنعماس فى خطاياهم ، وليس هنا من يعمل على إنقاذهم من خطاياهم إلا نحن ، لقد علمت بقدومك وأنا ازاول نشاطى يا مارتن ، لقد كنت أقوم بتمريض المساكين الذين أصيبوا بالطاعون وأنذرتهم من أن نار الجحيم تزأر من حولهم ، آه ، لو عرفت كيف أن قلبى يدمى وأنا أرى أولئك الجهال يذهبون دون توبة عن شرورهم إلى العذاب الأبدى وأرى أنه لا يمكن أن تظل بعد هذه السنين الطويلة على تهكمك وأنى أجىء اليك باسطا يدى متوسلا ألا تريح المتألين فحسب بل تنتشل أيضا نفوسهم من بحيرات النار المتقدة التى قضى بها رب الارباب — فى رحمته السرمدية على أولئك الذين يكفرون بأنجيله الذى جاء به عليهم . .

وكان سونديليوس هو الذى أخرج ايرا هنكلى دون أن يغضبه بشدة بينما لم يستطع مارتن ألا أن يقول غاضبا : « والآن كيف إستطاع هذا المجنون أن يصل إلى هنا ؟ سوف يكون ذلك امراً رهيباً » .

وقبل أن يعود انشكيب جونز خاطر أعضاء البعثة بالخروج لمشاهدة المدينة لأول مرة . . بعثه علمية ، لكنها لم تزد عن كونها طيلة الوقت جوستاف الصاخب ومارتن المرتاب ولورا المترددة .

وقيل للمواطنين أنه فى حال الطاعون الدملى — بعكس الطاعون الرئوى — لاخطر فى الاتصال المباشر مع المصابين بالمرض طالما أبعدت الجرذان ، لكنهم لم يصدقوا وخاف كل منهم من الآخر ، كما كانوا يخافون أكثر من الأجانب، وا كتشف أعضاء البعثة شارعا يموت من الخوف ، إذ أغلقت مصاريع المنازل وهى عبارة عن ألواح ساخنة فى الشمس ، وكانت حركة المرور هى سيارة ترولى شاغرة يقودها سائق مرتعب نظر اليهم وأسرع خشية أن يركبوا معه ، وكانت حوانيت البقالة ومخازن الأدوية مفتوحة ولكن كان أصحابها ينظرون من داخلها المظلم فى خوف وعندما اقتربت البعثة من دكة فوقها سمك لاذ الزبون الوحيد بالهرب ماراً بهم .

وحدث أن مرت بهم امرأة شعرها مضطرب متهدل وهى تصرخ «ولدى الصغير» .

وجاءوا إلى السوق الذى توجد مئات الدكاك تحت سقف من الحديد المموج يقوم على أعمده حجرية تحمل أسماء النواب الأغنياء الذين كانوا قد شيدوها مقابل تأييدهم فى الانتخابات ؛ وكان يجب أن يضج بالشارين والبائعين المبتهجين، ولكن فى جميع الخيام المزخرفة لم يكن هناك سوى بنت زنجية تضع أمامها صفا من المقشات وآخر هندوسى فى خرق بالية رمادية اللون يجلس القرفصاء أمام ثروته التى تتكون من قليل من الخضر ، أما الباقى فقد شاع فيه الفراغ مع بعض البطاطس التالفة فوق القش وبعض أوراق تقذفها الرياح أمامه :

وفى نهاية شارع قاتم به أفنية سوداء كالفحم عثروا على ميدان عام لا يسوده سكون النوم بل وحشة الموت القديم .

وكان الميدان محاطاً بأشجار المانجو الكثيبة التى حجبت نسمة الهواء المنعشة وقبعت فى الحر . . . الحر الخانق الذى لا حياة فيه والذى كان صمته المطبق يفوق بؤسه رعباً وأسى ، وعن طريق فتحة فى أشجار المانجو الموحشة رأوا منزلا علقت عليه ثياب الحداد السوداء .

وقالت لورا : إن الجو أشد حرارة من أن يمكننا من السير ، ربما من الأفضل أن نعود إلى الفندق » .

— ٤ —

وفى عصر ذلك اليوم ظهر انشكيب جونز فى سيارة فورد ، التى جعلتها شيوعتها مضحكة فى هذا العالم الغريب ، وأخذهم إلى بينرث لودج فوق التلال تطلعت الباردة خلف بلاك ووتر .

واخترقوا حياً وطنياً مكتظاً بالعشش المبنية من الخيزران والحوانيت التى لم تكن سوى أكواخ غير مطلية صبغتها العوامل الجوية بلون أسود بدون ابواب أو نوافذ ومن فتحاتها تطلعت إليهم باستياء وجوه سمراء وبالسرعة الفائقة التى كان سائقهم الملون يقود بها السيارة مروا بمبنى جديد من الطوب وقف أمامه رجال البوليس الزنوج وقد ارتدوا قفازات بيضاء وخوذ بيضاء تحميهم من الشمس وسترة حمراء ذات حزام أبيض ، يسيرون وهم يحملون البنادق . وتنهد انشكيب جونز وقال : « كانت مدرسة وتحولت إلى مستشفى لعلاج المصابين بالطاعون ، وبها الآن مئات الحالات ، وهناك من يموتون كل ساعة ، وكان لا بد من إقامة الحراس عليها إذ أن المرضى يصابون بلوثة جنون ويحاولون الهرب .

وتبعتهم رائحة نتنة .

ولم يشعر مارتن أنه ارفع شأناً من بنى البشر .

— ٥ —

يقع دار بنريث لودج ، بسقيفاته الفسيحة وسطحه المنخفض وسط ألوان زاهية وأشجار النخيل المبهجة ، وهو يقوم فوق قمة تل يطل على رقعة المدينة المسطحة القبيحة المنظر المجاورة للبحر ، وعند نوافذه تهمس وتقرقع المصاريع المصنوعة من البوص والقناب ، كما أن الغرف العارية الشاهقة قد بعثت فيها الحياة أوشحة من صنع كاريب . . . أنها كانت ملكا لطبيب الميناء الذى قضى عليه منذ ثلاثة أيام .

وأكد انشكيب جونز للورا ، التى كان يساورها الشك، أنها لن تجد مكاناً أكثر أمناً وطمأنينة من هذا المكان، فقد كان المنزل محصناً ضد الفيران أما الطبيب فقد أصيب بمرض الطاعون فى الميناء ومات قبل أن يعود إلى هذا المنزل المحبوب الذى أقام فيه ذلك الأعزب أشد الحفلات صخباً فى سانت هوبرت .

وكان مارتن قد جاء معه بمعدات كافية لإقامة معمل صغير اختار له إحدى غرف النوم التى زودت بالغاز والمياه الجارية ، وإلى جوار معمله غرفة نومهما ثم غرفة شغلها سوند ليوس على الفور عندما ألقى بملابسه ورماد غليونه فوق أرضيتها .

وكانت هناك خادمتان ملونتان، وطاهى كان جندياً سابقاً استقبلهم وفتح حقائبهم كما لم يكن للطاعون وجود .

ولقد بعث أول من زارهم فى هذا المكان الحيرة فى نفس مارتن ، وكان شاباً زنجياً وسيماً سريع الحركة تكشف نظراته عن ذكاء وقاد ، وكان مارتن — شأنه شأن غالبية الأمريكيين البيض — قد تحدث كثيراً عن انحطاط الزنوج ، ولم يكن قد تعلم شيئاً عنهم ، وبدا مندهشاً عندما قال الشاب :

« اسمى أوليفر مارشاند . »

« أجل ؟ »

« دكتور مارشاند . . فلقد حصلت على بكالوريوس فى الطب من جامعة هاوارد .

« أوه » .

« هل أتجاسر وأرحب بك يا دكتور؟ ولكن هل تسمح لى بسؤال قبل أن أغادر مسرعاً — فهناك ثلاثة مرضى من الأسر المسئولة تم عزلهم فى أسفل التل ، آه ، أجل ، أنهم فى هذه الأزمة يسمحون لطبيب زنجى أن يمارس مهنته حتى بين البيض ما علينا . . أن الدكتور ستوكس يصر على أن دهريل وأنت على صواب فى تسميتكم البكتريوفاج كائناً حياً ، ولكن ماذا عن رأى بورديه الذى يسميه أنزيم ؟ »

وظل دكتور أروسميث ودكتور مارشاند نصف ساعة يرسمان رسوماً بيانية وقد نسيا الطاعون كما نسيا طاعون الخوف العنصرى الذى هو أشد عنفا .

وتنهد مارشاند وقال : « لابد لى من الرحيل يادكتور ، فهل لى أن أساعدك بالطريقة التى استطيعها ، أنه امتياز عظيم أن أعرفك »

وصافحه فى هدوء وانصرف ، حيوان شاب جميل .

وقال مارتن : « لم أكن أعتقد إطلاقا أن هناك دكتور زنجى ، ليت الناس يكفون عن إظهار جهلى بأمور كثيرة » .

— ٦ —

وبينما أعد مارتن معمله انشغل سوندليوس مغتبطاً فى اكتشاف الخطأ الذى تعانى منه إدارة انشكيب جونز ، ولقد تبين له أن كلها أخطاء .

ولم يعد وباء الطاعون اليوم فى بلد متمدين مسألة أناس يموتون فى الشوارع وسائقين يصيحون « احضروا موتاكم » ، إذ يجب أن تدار المعركة كما لو كانت حرباً حديثة بالتليفونات وليس بالخيل ، ويحمل الوباء طابع العنف ، وهناك مكاتب وفهارس وعمليات فحص بكتريولوجى للمرضى وللفئران ، وهناك مدير أو يجب أن يكون هنالك واحد تخول له سلطات خاصة فوق القانون ، وهناك أموال ضخمة ونشر الوعى بين أفراد الشعب عن طريق الملصقات والصحف وفرق من قتلة الفئران وأخرى لعمليات التطهير ، وعزل المرضى حتى لاتنقل الفئران الجراثيم منهم إلى الآخرين .

ولقد فشل انشكيب جونز فى القيام بهذه الأمور ، فلكى يقنع بالتسليم بوجود الطاعون قبل كل شىء كان عليه أن يقاوم التجار الذين يسيطرون على مجلس النواب الذين صاحوا مولولين بأن الحجر الصحى سوف يدمرهم ، والذين رفضوا تخويله سلطة مطلقة وحاولوا مقاومة الوباء بتشكيل مجلس للصحة كان أسوأ من قيادة سفينة فى أعصار بواسطة لجنة .

وكان انشكيب جونز شجاعا ، لكنه لم يستطع تملق النـــاس ومداهنتهم فوصفته الصحف بالمستبد الذى لم يساعد على كسب الجمهور وإقناعه باتخاذ الاحتياطات اللازمة ضد الفئران والسنجاب ، وحاول تطهير بعض مخازن السلع بثانى أوكسيد الكبريت ، ولكن أصحابها اشتكوا من أن الدخان يلوث البناء والطلاء ، وطلب إليه مجلس الصحة أن ينتظر — أن ينتظر قليلا — ينتظر ويرى . وحاول أن يجرى فحصا على الفئران ليكتشف مواضع العدوى ولكن لم يكن لديه من خبراء البكتريا سوى ستوكس وأوليفر مارشاند المنهوك القوى ، كما أن انشكيب جونز غالباً ما أوضح فى حفلات العشاء الرائعة أنه لا يثق فى ذكاء الزنوج .

وكاد يفقد صوابه ، فقد كان يعمل عشرين ساعة فى اليوم ، وطمأن نفسه بأنه ليس خائفاً كما تذكر بأنه استطاع أن ينال فى إخلاص وسام الخدمة الممتازة ، وأصبح وكأنه يتوق إلى أن يتلقى الأوامر من شخص ما إلى جانب مجلس تجار الريدلج ، وكان يرى فى الغشاوة التى خيمت على عقله الذى لا يذوق النوم، تلال سوراى ، وشقيقاته يسيرون بين الورود والمقاعد ومنضدة الشاى بجوار ملعب التنس الذى يمتلكه أبوه .

ثم اقتحم سونديليوس — ذلك الداعية الماهر الكذاب فى غالب الأحيان ، جندى الرب الذى لا خلاق له الميدان وأصبح الحاكم بأمره .

فأثار الرعب فى نفوس أعضاء مجلس الصحة ؛ ونقل تجارته من منغوليا وفى الهند وأكد لهم بأنه إذا لم يتركوا السياسة فقـــد يظل وباء الطاعون فى سانت هوبرت إلى الأبد ؛ ومن ثم لا يعودون إلى التمتع بدولارات السياح المحببة إلى النفس وعلاقات التهريب .

لقد هدد وداهن وسرد عليهم قضية لم يسمعوها قط حتى فى دار الثلج ، ونجح فى تعيين أنشكيب جونز حاكما مستبداً لسانت هوبرت .

ووقف جوستاف سونديليوس خلف الحاكم المستبد .

وسرعان ما بدأ فى قتل الفئران ، وبتفويض من انشكيب جونز قبض على صاحب مخزن للسلع أعلن أنه لن يسمح بإتلاف ما بالمخزن من أكوام الكاكاو ، وأمر قواته من الأشخاص السود الأقوياء الذين تدربوا فى الحرب العظمى بالزحف إلى المخزن وأقامهم حراساً وأطلق بالمضخة غاز حامض الهيدروسانيك .

وتجمعت الناس خلف صف رجال البوليس يتساءلون وهم فى شك فما استطاعوا تصديق أن شيئاً يحدث لأن جميع ما فى المخزن من فتحات وشقوق قد سدت ولم تكن هناك أية رائحة للغاز ، ولكن السطح لم يكن يمنع تسرب الغاز ، فتسرب حامض الهيدروسانيك خلاله ، ذلك السم القاتل عديم اللون ، وفجأة كان أحد الحمقى يسير حول السطح فمال إلى الأمام وسقط ميتاً بين الحراس .

فحمل الجثة رجل وهو يحملق بعينيه .

وتمتم كل فرد « مات ، هذا جزاؤه »، ونظروا إلى سوندليوس باحترام وهو يستعرض نفسه بين جنوده .

وكانت فرق قتل الفئران تفتش كل مخزن للسلع قبل أن تطهر بالغاز خشية أن يوجد به شخص ما، ولكنه فى المخزن الثالث كان رجل متجول غارقاً فى النوم، وعندما فتحت الأبواب بعد التطهير لم يعثروا على آلاف الفئران الميتة بل على جثة ذلك الرجل وقد أصبحت هامدة تماماً .

وقال سوندليوس « إنسان مسكين .. إدفنوه . »

ولم يجر أى تحقيق بسبب موت هذا الرجل .

وقال سدنديوس وهو يحتسى أقداح الروم فى دار الثلج لمارتن متأملا :

يا ترى كم عدد الذين قتلتهم؟ فعندما كنت أقوم بتطهير السفن فى انتوفاجاستا إعتدنا أن نعثر بعد ذلك على اثنين أو ثلاثة من المهندسين فى السفينة تهربا من دفع الأجرة ، إنهم يجيدون عملية الإختباء ، أناس مساكين .

وكان سوندليوس يجر بالقوة المحاسبين والحمالين من عملهم ليقتفوا أثر الفئران

بالسم والمصايد والتاز أو يعملون على تجويعهم برصف أرضية الأسطبلات والمخازن وتغطية نوافذها بالأسلاك ، ورسم خريطة فئران للمدينة باللونين الأحمر والأخضر وكسر قانون الملكية بالهجوم على الحوانيت التي يحصل منها على المؤن ، وكان على التوالى يهدد ثم يداهن زعماء مجلس النواب ، فكان يزور كيليت وكان يبكى وهو يوضح له أنه من أتباع لوثر المخلصين .. وكان دائماً يحتسى من الخمر أكثر مما ينبغى (ولكن ليس فى منزل كيليت) .

ولم يغلق (دار الثلج) أشد الحانات سلماً وانقباضاً بمناضده الرخامية الباردة وجدرانه البيضاء المحلاة باللون الذهبى رغم أن المدمنين المسنين فقط والقتلة والمؤجورين من الشبان الذين جاءوا لتوهم من بلادهم ويتوقون بشدة إلى بيكهام أو والتامستو ، إلى بيل بارك أو هاى ستريت هم الذين كانوا على درجة من اليأس دفعتهم إلى الذهاب إلى (دار الثلج) ومن بين العاملين هناك لم يبق سوى ساقى ضخم من جاميكا ، وحدث أن كان هذا الساقى أفضلهم جميعاً فى مزج شراب البلش ونيو اورلياتز والروم ، وكان سونديليوس يحتسى أفضل مايصنع ، وكان هو الوحيد الهادىء الرابط الجأش بين العملاء المنزعجين الذين جاءوا لا ليناموا ويحلموا بل ليحتسوا أقداح الشراب ويهرعوا إلى الخارج ، وبعد يوم من قتل الفئران وتطهير المنازل كان يجلس مع مارتن أو مع مارتن ولورا أو مع من يستطيع إقناعه بالبقاء معه فترة طويلة .

وكان الدوق والإسكافى فى نظر جوستاف سونديليوس واحداً ، وكان مارتن يغتاظ أحياناً عندما يرى سونديليوس يبتسم لكاتب سمسار الكاكاو بنفس ابتسامته لمارتن ، وقضى سونديليوس ساعات فى الحديث عن شنتهاى وفلسفة المعرفة والمنطق ورسم نيفنسون ، كما كان يقضى الساعات فى ترديد الأغانى البذيئة ، وكان يقول هادراً : « كم قتلت من فئران فى رصيف ميناء ليكيت اليوم ! لا أعتقد أن قدحاً صغيراً من الروم سوف يفتت كليتى الانسان الأمين » .

وكان منشرحاً ، ليس كانشراح ايرا هينكلى الممل المنوم ، لقد سخر من

نفسه ومن مارتن ولورا ومن عملهم ، وعند تناول طعام العشاء فى المنزل لم يعبأ بما يأكل (رغم أنه كان يهتم بما يشرب) ذلك الطعام الذى كان محبباً إلى النفس فى بنزث لودج فى ضوء ما تبذله لورا من جهد فى أن توفق بين مناظر هويتسلفانيا ومستويات الخدمة فى الهند الغربية وعدم وجود ما يحتاجونه يومياً، وكان يصيح ويغنى واتخذ لنفسه الاحتياطات اللازمة للعمل وسط الفئران والبراغيث الخفيفة الحركة ، فارتدى الحذاء الطويل وعصابة الرقبة من المطاط التى اخترعها والتى تعرف اليوم فى كل حانوت للسلع الإستوائية بحامية سوندليوس للرقبة لمقاومة الفئران .

وحدث أنه كان — دون أن يعرف ذلك مارتن أو جوتليب — أذكى محارب ضد الأوبئة عرفه العالم وأقلهم تفاخراً وبالتالى أقلهم تقديراً .

هذا هو ما يتعلق بسوندليوس أما عن مارتن فلم نعرف حتى الآن سوى الحيرة وعدم النفع والخوف من الخوف .

الفصل الرابع والثلاثون

كان من المستحيل أن تقنع أصحاب المحلات فى سانت هوبرت بتقليل إجراء تجربة قد تؤدى إلى وفاة نصفهم حتى يمكن أن يكون هناك احتمال لوضع نهاية للطاعون إلى الأبد. وبحث مارتن الأمر مع انشكيب جونز وسوندليوس، بيد أنه لم ينل أى تأييد، وبدأ يعد لحملة سياسية كما لو كان يعد لتجربة من التجارب.

لقد شاهد آلام الطاعون وقد أغرى (بالرغم من أنه مازال يقاوم) بأن ينسى التجارب، وأن يقلع عن احتمال إنقاذ الملايين فى سبيل انقاذ الآلاف فوراً. والآن وقد أصبح انشكيب جونز هادىء البال نوعاً ما فى رعاية سوندليوس، وأصبح قادراً على أن يندمج فى عمل روتينى عادى، أخذ مارتن إلى قرية كاريب التى كانت قد ابتليت إلى درجة كبيرة بسبب إنتشار الوباء عن طريق السنجاب، إنتشاراً أكبر نسبياً من انتشاره فى بلاك ووتر وأسرعوا تاركين العاصمة سالكين طرقاً يغطيها المحار الأبيض، تتألم عيونهم من وهج الشمس، وتركوا الأكواخ المتربة فى ضاحية يامتون، واتجهوا نحو أرض رطبة بها غابة خيزران وأشجار النخيل المندى وحقول قصب السكر المتكاثفة وانحدروا من أعلى التلال إلى طريق منحنى يؤدى إلى شاطىء البحر حيث كانت أمواج الشاطىء الصخرى تندفع بسرعة فى كهوف من الحجر الجيرى، وكان يبدو أنه من المستحيل أن يبتلى ذلك الشاطىء البديع المبهج بالطاعون، وأن تهدده الحشرات الدقيقة التى توجد فى الحارات المظلمة.

وشقت السيارة طريقها وسط الرياح التجارية المدوية التى تدل على سلامة الملاحة وترفع الرجال، واندفعوا إلى حيث زبد البحر وراء بوينت كاريب، وإلى حيث أشجار النخيل التى ترتفع إلى قمم الجبال وحيث تدوى الرياح، ودلفوا إلى داخل واد حار إلى أن وصلوا منه إلى قرية كاريب حيث الرعب الزاحف.

كان الطاعون مثار الفزع فى المنطقة، ففى كاريب كان يعتبر نهاية لكل شىء

إذ وجدت براغيث الفئران لها مرتعاً فى السنجاب الأرضى الذى كان يحفر لنفسه حفراً يقيم فيها فى الحدائق المحيطة بالقرية ، وكان هناك إجراء لعزل المرضى ولكن الموت كان يهاجم كل منزل فى قرية كاريب وأصبحت القرية يحيطها رجال الشرطة المسلحون بالسنكى ، والذين لا يسمحون لأحد بدخول القرية سوى الأطباء .

وقد اقتيد مارتن خلال الشوارع التى تنبعث منها الروائح الكريهة والتى تتزاحم على جانبيها الأكواخ المصنوعة من سعف النخيل وجدرانها من اللبن المبطن بالخيزران .

فى هذه الأكواخ تعيش الديوك مع الماعز ، وسمع مارتن أشخاصاً يصرخون فى سكرات الموت وهذيانه ورأى عشرات المرات والمرات ذلك الوجه المرعب — حيث العيون الدموية الغائرة والوجوه الشاحبة والأفواه الفاغرة — كل هذه الأشياء التى تشير إلى الموت الأسود .

وفى ذات مرة سمع طفلة صغيرة فى حالة إغماء ، وعلى حافة الموت ، فكان لسانها أسود اللون ، وتحوطها رائحة القبر .

وأسرعوا إلى بونيت كاريب والرياح التجارية المدوية ، وعندما سأل انشكيب جونز بقوله «أو يمكن بعد ذلك الشىء أن تتحدث حقاً عن التجارب ؟ » فهز مارتن رأسه وهو يحاول أن يستعيد فى ذاكرته طيف جوتليب وجميع خططهم الصغيرة : « أن تحصل على الفـاج من ناحية وأن تكافح الوباء فى صرامة من ناحية أخرى » .

وطاف بخاطره أن جوتليب فى عزلته البريئة المنعزلة لم يدرك معنى الحصول على إجازة لإجراء التجارب فى خضم هيستريا الوباء.

وتوجه إلى (دار الثلج) حيث تناول شراباً مع أحد الكتبة الخائفين من دربيشاير ، وقد استعاد صورة جوتليب بعيونه الغائرة الملحة ، وأقسم أنه لن يستسلم إلى عاطفة تؤدى فى النهاية إلى عواطف عديمة النفع .

ولما كان انشكيب جونز لايدرك الحاجة إلى إجراء التجارب فإنه سوف يذهب إلى الحاكم الكولونيل سير روبرت فيرلامب لمقابلته.

— ٢ —

وبالرغم من أن دار الحكومة هى المقر الرئيسى لسانت هوبرت فإنها لم تكن أكثر من منزل صغير مسقف بالقش ، وأكبر من مسكن مارتن بقليل . وعندما رأى مارتن ذلك أحس بارتياح أكثر ومضى يصعد درجات السلم العريضة فى الساعة التاسعة مساء كما لو كان فى زيارة لأحد جيرانه فى هويتسلفانيا .

واستوقفه خادم جاميكى باحترام مفزع ، وذكر له مارتن متشامخاً أنه الدكتور اروسميث رئيس لجنة ماكجورك، وأنه يأسف للإزعاج إلا أنه لابد أن يقابل سير روبرت فوراً .

وبينما كان الخادم يقترح بطريقته اللطيفة المثيرة للازعاج أنه من الأفضل حقاً أن يقابل مدير عام الجراحين ، أطل وجه أحمر عريض وصدر صوت عال من الشرفة مزمجراً .

« أرسله إلى هنا يا جاكسون ولا تكن أحمق .. »

وكان سير روبرت والسيدة فيرلامب قد فرغا من تناول الطعام فى الشرفة جول منضدة مستديرة تنتشر فوقها أقداح القهوة والمشروبات وتزينها الشموع كما تزين النجوم السماء . وكانت مسز فيرلامب سيدة نحيفة عصبية بينما هو رجل بدين نوعاً ما ذو بشرة حمراء جداً ، ومما لاشك فيه أنه شجاع ، ويشعر دائماً باستياء ، وقميصه الذى يرتديه فى المساء دائماً نظيف لامع .

وكان مارتن يرتدى بدلته المصنوعة من التيل وقميص كانت لورا تنوى أن تغسله.

وشرح مارتن مايريد أن يفعله وما يجب أن يفعله إذا كان العالم مقبلا على القضاء على سخافة الإصابة بالطاعون .

ومضى روبرت يصغى باهتمام حتى أن مارتن ظن أنه قد فهم ولكنه قال متأففاً فى النهاية :

« أيها الشاب إذا كنت أقود كتيبة فى الخطوط الأمامية فى عرض رهيب ، وطلب منى أحد موظفى المكاتب الحربية أن أخاطر بالمعركة كلها فى سبيل تجربة اختراع صغير له فهل تتصور ماذا سيكون ردى ؟ ليس أمامى شىء كثير أستطيع أن أفعله الآن ، فإن الدكتور جوهانيز قد تسلم منى كل شىء — ولكنى بقدر الإمكان سوف أمنعكم أيها الأمريكيون الذين تقومون بتشريح الأحياء بكل تأكيد من أن تحضروا هنا وتعاملوننا كما لو كنا جيفة — آسف يا ايفلين — جيفة دموية — أسعد الله مساءك ياسيدى » .

— ٣ —

وبفضل حيل سونديليوس إستطاع مارتن أن يعرض خطته على مجلس خاص مكون من الحاكم ومجلس الصحة الموقوف بصفة مؤقتة وانشكيب جونز، وعدد من أعضاء مجلس العموم، وسونديليوس نفسه الذى حضر بصفة غير رسمية، وهى أفضل طريقة وجدها فى العالم لإخفاء الظلم الواضح. وقد أحضر سونديليوس أيضاً الطبيب الزنجى أوليفر مارشاند، ليس باعتباره أذكى شخص فى الجزيرة (وهو السبب الذى كان يراه سونديليوس) ولكن لأنه « كان يمثل عمال الزراعة » .

وكان سونديليوس نفسه يعارض تجارب مارتن العاطفية ، كما كان هذا هو الحال مع فيرلامب ، وقد اعتقد أن كل التجارب يجب أن تجرى — بوسائل غير واضحة له تماماً — فى العمل دون التسبب فى إزعاج سير إنتشار الأوبئة . بيد أنه لم يستطع أن يقاوم هذه الرواية المتمثلة فى الاجتماع البرىء للمجلس الخاص .

وقد حدد موعد إنعقاد الاجتماع فى الأسبوع المقبل . . . مع أن الناس

كانوا يموتون بالعشرات يومياً ، وخلال تلك الفترة إستطاع مارتن أن يصطنع طريقة تساعد سوندليوس فى قتل الفيران ، وكانت لورا تسمع المحادثات التى تدور بين الرجلين عند منتصف الليل وحاولت ان تقنعهم أنه من الأفضل ان يتيحوا لها فرصة الحضور معهم . وقد عرض إنشكيب جونز على مارتن منصب البكتريولوجى الحكومى بيد انه رفض خشية ان يكون ذلك سبباً فى تباعده عن العمل .

واجتمع المجلس الخاص فى دار البرلمان وكان جميع الحاضرين فى غير حالتهم العادية وإن كانوا يحاولون أن يظهروا كأنهم قضاة . وحضر معهم من أطباء الجزيرة من أتيح له الوقت للحضور .

كانت لورا تصغى من مؤخرة القاعة بينما كان مارتن يتحدث إلى الحاضرين وهى لاتعى منظر مارتن اروسميث الذى يعيش فى إلك ميلز وحكام إحدى الجزر الإستوائية يتطلعون إليه بنظرات الاعتبار والتقدير الجاد وعلى رأسهم السير « فلان » . وكان يعضده ماكس جوتليب ، وفى حمى جوتليب حاول أن يوضح باحترام ان البشرية جانبتها العظمة الحتمية بسبب بعض الازمات أو بعض الحروب أو الوفاء للمسيح التى تبدو أهميتها فى هذه اللحظات التى تعوق البحث عن الحقيقة . وحاول أن يوضح أنه يستطيع — على الأرجح — أن ينقذ نصف سكان حى من الأحياء وذلك باختبار قيمة الفاج على أن يترك النصف الآخر بدونه . . . . بالرغم من أنه استطاع أن يخبرهم بمهارة أن النصف الآخر الذى لم يسعده الحظ سوف يتلقى عناية كبيرة كما هو الحال الآن .

كان معظم أعضاء المجلس قد سمعوا أنه يمتلك علاجاً سحرياً للشفاء من الطاعون وهو علاج كان يمسك عن استخدامه لأسباب غير معلومة ، وربما لايمكن تصديقها ، بيد أنهم سوف لايسمحون له بمنعه عنهم .

وكانت هناك مناقشات كثيرة غير مرتبطة بما قاله ، ومنها ظهرت الحقيقة أن كل إنسان ماعدا ستوكس وأوليفر مارشاند كانوا ضده ، وكان كليت غاضباً من هذا

الأمريكى ، وكان سيرروبرت فيرلامب غير موافق ، وقال سوند ليوس أنه بالرغم من أن مارتن شاب لطيف جداً إلا أنه خيالى .

وفى هذه المناقشات ثار غضب إيراهينكلى أحد مبشرى كنيسة الإخوة.

ولم يكن مارتن قد رآه منذ أول صباح ظهر فيه الطاعون ، وقد لهث عندما سمع إرا يقول :

« أيها السادة اننى أعلم أنكم جميعاً تتبعون كنيسة انجلترا ، ولكن أرجو أن تصغوا إلىَّ لا باعتبارى قسيساً بل باعتبارى طبيباً مؤهلا ... أوه ... إن غضب الله ينصب عليكم ، ولكن أقصد إننى كنت رفيقاً لأروسميث فى الدراسة وأنه كان إنساناً فاشلا حتى أنه أوقف عن الدراسة فى مدرسة الطب ، عالمًا! ورئيسه ، هذا الرجل جوتليب فصل من جامعة وينماك لعدم أهليته وجدارته ، فأنا أعرفهما كذابين وحتى .. يحتقرون الدين ـ أو يوجد إنسان آخر غير أروسميث أخبركم إنه عالم كفء »

وتبدل وجه سوند ليوس من الدهشة إلى الغضب الاسكندنا فى العارم ، فهب من مكانه وصاح قائلا :

« ياسير روبرت إن هذا الرجل مجنون .. وان دكتور جوتليب أحد العلماء المشاهير السبعة الأحياء ، وأن الدكتور أروسميث هو ممثله ، وأننى أعلن موافقتى التامة معه ، وكما شاهدتم من عملى فإننى لست على صلة به على الإطلاق وفى خدمتكم تماماً بيد اننى أدرك مركزه ، وأتبعه بكل تواضع » .

ومضى المجلس الخاص يداهن إيراهنكلى ، لأدنى الأسباب ـ فى سانت هوبرت لايقدر البيض الشعائر المقدسة للزنوج حق قدرها فى كنيسة الإخوة ـ ولكنهم أدلوا بأصواتهم على جملة : سوف نبحث الأمر ، بينما كان الناس مازالوا يموتون بالعشرات يوميا وكانوا فى منشوريا ، كما كانوا فى سانت هوبرت ، يدعون الله أن يريحهم من مخالب هذا العذاب القديم .

وفى خارج الاجتماع ، بعد ان انفض المجلس الخاص ، قال سوند ليوس لمارتن ولورا : «حقاً لقد أبدعت».

فأجابه مارتن قائلا : «ياجوستاف لقد انضمت إلى الآن وأول عمل جرىء لك هو أن تعطى حقنة من الفاج» .

« كلا ... لقد قررت ألا آخذ شيئاً من هذا الفاج حتى تعطيه لكل شخص. إننى أعنى ما أقول ، بصرف النظر عن مدى خداعى لمجلسك الخاص » .

وبينما كانوا يقفون أمام مبنى البرلمان اتجهت سيارة مزعجة ومهلهلة نحوهم وخرج منها رجل نحيل مثل جوتيليب ورجل انجليزى مثل انشكيب جونز .

هل أنت الدكتور أروسميث ؟ إن إسمى توايفورد ، سيسل توايفورد من أبرشية سانت سويذن ، وقد حاولت أن أصل هنا فى الوقت المناسب لحضور إجتماع المجلس الخاص ، ولكن رئيس العمال الذى يعمل لدى مات اليوم بعد الظهر ... لقد اصابه الطاعون ... أخبرنى ستوكس عن خططك وهى معقولة جداً إذ من العبث أن نستمر هكذا يفتك بنا الطاعون . هل رفض المجلس ؟ ياللأسف ... إعتقد أنه من الممكن أن نجرى شيئاً فى سانت سويذن ... فلنذهب اليوم » .

وظل مارتن وسوند ليوس طوال المساء يتحدثان وذهب مارتن إلى فراشه ونفسه تتقوق إلى العمل طوال الليل ، ومضى يدخن السجاير عند الفجر ولم يستطع ان ينام لأنه كان يتخيل اراهينكلى يهاجمه دائما .

وبعد مضى أربعة أيام علم مارتن ان إرا قد مات.

كان إرا لا يزال يعرض رعاياه ويباركهم ، ولئك القوم الملونين المتواضعين المحتشدين لديه ، حتى انتابته غيبوبة ، وكان ذلك فى كنيسته الصغيرة المبنية من الصفيح والتى كان يقيم فيها الصلاة ، وقد أحالها إلى دار للطاعون . لقد أخذ يترنح من مكان إلى آخر تحت نصوص الإنجيل التى كتبها على الحوائط البيضاء ، ثم صرخ صرخة واحدة بصوت عال وسقط إلى جوار منبر الوعظ المصنوع من شجر الصنوبر حيث كان يطيب له أن يعظ الناس .

— ٤ —

أتيحت لمارتن فرصه واحدة فى كاريب حيث كان يموت شخص من بين كل ثلاثة أشخاص يصابون بالطاعون بينما يتولى طبيب واحد رعايتهم جميعاً وقام مارتن بحقن القرية كلها دون أن يدرك أن أية حشرة هائمة من أى مريض قد تسبب له الإصابة بالطاعون .

لقد نسى عناء الخوف عندما بدأ يجد ويعد مذكرات صغيرة عن تراخى حدة الوباء فى كاريب. بينما لا يزال مستشرياً فيما عداها.

وعاد إلى منزله وهو يهذى للورا قائلا :

« سوف أريهم الآن . . . سوف يدعوننى الآن أحاول فحص الحالات ، وعندما ينتهى الطاعون سوف نسرع إلى بيتنا ، فما أجمل أن يهدأ الإنسان من جديد . وهل ياترى مازال هولا بيرد وشولتيس أصدقاء ؟ سوف يكون شيئاً جميلا أن نرى شقتنا الصغيرة القديمة أليس كذلك ؟ »

وقالت لورا . . . « نعم بالتأكيد . . . كنت أود لو أننى كلفت أحدهم بطلاء المطبخ ونحن بعيدين عن الشقة . . . أعتقد أننى سأضع هذا المقعد الأزرق فى حجرة النوم »

وبالرغم من أنه كان هناك إنخفاض فى نسبة الطاعون فى كاريب فإن سوندليوس كان قلقا لأنها كانت أسوأ مركز للسنجاب الأرضى فى الجزيرة ، وقد أصدر قرارات سريعة . وفى ذات مساء أوضح أشياء معينة لانشكيب جونز ومارتن وأخذ يستنكر شكوكهما وقال :

« أن الطريقة الوحيدة لتطهير هذا المكان هو حرقه — حرق جميع الأشياء ولنبدأ ذلك فى الصباح قبل أن يحاول أحد منعنا » .

وسار مارتن وكأنه الضابط الخاص له وهما يقودان فريق صائدى الفئران وهم جميعا من الغوغاء مرتدين أحذية كبيرة ومعاطف ذات أكمام ضيقة ، ويبدون

فى مظهرهم كالقراصنة . . . وكانوا يسرقون الأطعمة من المحلات والخيام والبطاطين ومواقد المعسكرات من ثكنات الحكومة العسكرية ، وكانوا يكدسون أسلابهم فى عربات نقل ضخمة ، وسارت قافلات السيارات إلى كاريب ، وقد وقف صائدو الفئران فى أعلاها يغنون ملاحم دينية .

هاجموا القرية وطردوا منها الأصحاء ، وحملوا المرضى على نقالات ووضعوهم جميعاً فى خيـــام وسط أعالى الوادى . . . وبعد منتصف الليل أشعلوا النيران فى القرية .

وأسرعت القوات بين الأكواخ توقـــد النيران بمشاعلها الغريبة ، وكانت أسقف المنازل المعدة من أشجار النخيل تنبعث منها أدخنة متكاثفة ذات لون أبيض به تيارات سوداء ينبعث من وسطه فجأة ألسنة النيران . وكانت أشجار النخيل المندى ترتفع وسط الوهج ، وتحولت الأكواخ التى كانت تبدو صلبة فى الحال إلى إطارات من الخيزران وخطوط رفيعة من الألواح السوداء ، وقد سقطت وسطها الأسقف بعد أن أصبحت شرارات من النار وأضاءت النيران أرجاء الوادى وأزعجت الطيور المغردة ، وتحولت أمواج الشاطىء الصخرى فى بوينت كاريب إلى زبد دموى اللون .

وفى هذه الحالة التى كان يتمالك فيها الوطنيون مشاعرهم أخذت فرق سونديوس تدق الأجراس حول القرية المشتعلة وهم يصيحون ويضربون بالصولجان الفئران والسنجاب الأرضى الهارب ، وفى غمرة التدمير كان سونديوس شيطان يهوى على رؤوس الفيران المذعورة بصولجان ، ويطلق عليهم النيران عندما تهرب وهو يغنى أغنية « بيل الملاح » وعند الفجر كان يقوم بالإشراف الطبى على المرضى فى القرية الصغيرة المصنوعة من الخيام وهو يرى الأمهات كيفية إستخدام مواقد المعسكرات ويناقش معهم بطريقـــة لطيفة ومتواضعة كيفية تسميم السنجاب الأرضى فى جحوره .

وعاد سونديوس إلى بلاك ووتر ، ولكن مارتن ظل فى خيمة القرية لمدة

يومين وهو يقوم بالتطعيم ويسجل المشاهدات ويرشدالمرضاتالتطوعات ، وعاد إلى بلاك ووتر ذات يوم بعد الظهر ومضى يبحث عن عيادة الجراح العام أو ما كان من قبل عيادة الجراح العام حتى جاء سوندليوس وتولى الأمر نيابة عنه .

كان سوند ليوس هناك عند مكتب انشكيب جونز ، ولكنه لم يكن مشغولا . . . كان غارقاً فى مقعده وعيناه فى إحمرار الدم .

وقال ضاحكا : « هاى . . . لقد قضينا وقتاً ممتعاً مع الفئران فى كاريب هيه ؟ وكيف حال قريتى الجديدة المصنوعة من الخيام ؟ » بيد أن صوته كان ضعيفاً ، وعندما هب من مكانه أخذ يترنح .

« ماهذا . . . . ؟ ماهذا ؟ »

« أعتقد أنها قد أصابتنى . . أصابتنى بعض الجراثيم . أجل وبطريقة مزعزعة ولكنها مسلية للغاية قال : « لقد كنت أفكر تواً أنى سأذهب وأعزل نفسى . . إنى مصاب فعلا بالحمى . . . أن قواى — هيه أننى تقريباً فى الستين من عمرى ، ولكن الطريقة التى أرفع بها الأثقال التى لايستطيع بحار أن يلمسها — وإننى أستطيع أن الاكم خمس جولات فى وقت واحد . . أواه ياإلهى . . . ، مارتن ، إننى ضعيف جداً . . . لست خائفاً . . . لا ؟ »

ولولا ذراعى مارتن لهوى إلى الأرض . . لقد رفض أن يعود إلى مسكنه فى بينريث حيث كانت لورا تقوم بالتمريض وقال :

«أننى الذى عزلت الكثيرن جداً — لقد جاء دورى » .

وهيأ مارتن وانشكيب جونز كوخاً صغيراً نظيفاً لسوند ليوس . لقد توفيت الأسرة صاحبة الكوخ جميعها ولكنه طهر . . وتمكنوا من الحصول على ممرضة ، وتولى مارتن بنفسه الإشراف على الرجل المريض وهو يحاول أن يتذكر أن ذلك الرجل كان ذات يوم طبيباً ، يعرف الحقائب الثلجية ومواساة المرضى .

كان هناك شيء واحد بعيد المنال ، وهو استخدام الناموسيات لحجز الناموس. وما كان سوند ليوس يشكو من شيء سوى ذلك .

وانحنى مارتن عليه وأخذ يتألم ، وهو يرى كم كان جلده يحترق وكيف كان وجهه ولسانه متورمين وكم كان صوته ضعيفاً وهو يقول :

« أن جوتليب محق فى رأيه عن دعابات الإله ـ هيه ـ أنه يفضل دائماً الإستوائيين، لقد هيأ الله لهم حياة جميلة ، الزهور والبحر والجبال ـ لقد جعل الفواكه تنمو وتطيب حتى لا يحتاج الإنسان إلى عمل ـ ثم ضحك وأوجد البراكين والثعابين والحرارة الرطبة والشخيوخة والطاعون والملاريا. ولكن أسوأ حيلة قد جعلها للإنسان هى خلق الجراثيم ». وانسعت شفتاه المتنفختان من أثر حلقه الساخن الذى يصدر قرقعة، ضعيفة وأدرك مارتن أنه كان يحاول أن يضحك لقد أمسى يهذى ولكنه كان يتمتم بألم متناه والدموع فى عينيه حسرة على ضعفه «إنى أود منكم أن تروا كيف يموت المتألم ! »

«لست خائفاً ولكنى أود مرة أن أرى استوكهولم، الشارع الخامس فى اليوم الذى يسقط فيه الجليد لأول مرة، والأسبوع المقدس فى سفيلا . وجلسة شراب حلوة واحدة أخيرة. إننى رجل وديع تقى. أن الحياة لعبة حلوة ولكنها تؤذى البعض و — أنى متدين متألم — أواه يا مارتن . . . قم بتطعيم رعاياى ! إنقذهم جميعاً — إلهى لم أكن أظن أنهم سيؤذوننى هكذا » !

لقد سكن قلبه . ولما يزل فوق سريره المنخفض .

— ٥ —

كان مارتن يشعر بزهو مقلق ، فبالرغم من خبه الجم لجوستاف سوند ليوس فإنه كان لا يزال مصراً على رأيه . . كان لا يزال يعارض أوامر انشكيب جوز

بأن يجرى التطعيم للجميع ، وكان لا يزال يفعل مابعث من أجله ويتباهى دائماً بقوله « إننى لست رجل عاطفة بل أنى عالم من العلماء ! » .

كان الناس يهللون أثناء سيره فى الشوارع ويطلق عليه الأطفال أسماء ، ويلقونه بالحجارة فقد سمعوا أنه يصر على الوقوف فى سبيل إنقاذهم ، وكان السكان يأتون إليه جماعات يطلبون منـه شفاء أطفالهم ، وكان دائمـا يتزعزع حتى أنه كان لابد أن يضع نصب عينيه دائما طيف جوتليب .

كان الضغط فى ازدياد، فإن أولئك الذين كانوا فى بادىء الأمر غير عابئين لم لم يعودوا اليوم يطيقون مشـقة إيقاظهم ليلا ليروا فوق نوافذهم وهج أكوام من كتل الأخشاب المشتعلة فى « أدميرال نوب » وهو مكان حرق الموتى حيث قذف بجوستاف سونديليوس ومنشفته الرمادية إلى النار مع طفل زنجى كسيح ومتسول هندى .

كان سير روبرت فيرلامت بطل جبار يثير غضب المرضى الذين يتولى علاجهم ، لم يـكن ينام سوى ثلاث ساعات كل ليلة ، ولـكنه لم يفته قط ممارسة تمرينه الذى تعود عليه لمدة ١٥ دقيقة عندما يستيقظ من نومـه ، وكانت لورا تقيم فى « بنريث لودج » وتتولى معاونة مارتن فى إعداد الفاج .

أما الجراح العام « انشكيب جونز » فقد تدهورت أموره إذ حرم من اعتماده على سوند ليوس ، وعاد مرة أخرى إلى تخبطه ، وصرخ عندما أدرك أنه أصبح يتحدث بصوت خفيض ، وأن السيجارة التى كانت دائماً فى يده النحيلة تهتز حتى أن الدخان أخذ يتصاعد منها فى أشـكال حلزونية مرتعشة .

وفى ذات مرة كان يقوم بجولته فعثر على سفينة ذات شراع واحد وخبأة ألقى نفسه بين جماعه من الرדליج كانوا فارين إلى باربادوس ، وأخـذ يقدم لهم رشوة ليصطحبوه معهم .

وحينما أصبحت السفينة خارج ميناء « بلاك ووتر » أخذ يمد ذراعيه نحو شقيقاته ، ونحو السلام الذى يعم تلال « سرى » ، ولكن عندما تلاشت أضواء المدينة الخافتة القليلة أدرك أنه جبان خائف وأفاق من غيبوبته ورفع رأسه إلى أعلى .

لقد طلب منهم أن يعيدوه ، ولكنهم رفضوا صارخين فى وجهه ثم سجنوه فى القمرة وقد هدأوا ، وكان ذلك قبل وصولهم إلى باربادوس . وعندئذ ادرك العالم أنه وحيد مهجور . كان انشكيب جونز ، وقد وجم وجهه تماماً ، يخطو من السفينة إلى الفندق فى باربادوس ووقف هناك لمدة طويلة فى حجرة مبعثرة صغيرة ، لن يرى شقيقاته إطلاقاً ولا التلال الباردة : وبعسدسه الذى كان يحمله ليعيد المرضى الخائفين إلى جناح العزل ، بعسدسه الذى كان يحمله فى آراس قتل إنشكيب جونز نفسه .

— ٦ —

بذلك وصل مارتن إلى تجاربه ، وقد عين ستوكس جراحاً عاماً نيابة عن إنشكيب جونز ، وعين مارتن بصفة غير رسمية فى أبروشية « سانت سويذن » كمراقب صحة ، وخول جميع السلطات ذلك بالإضافة إلى تكاتف أن « سيسل توايفورد » معه جعل من الممكن أن يجرى تجربته .

وقد دعى لأن يقيم عند توايفورد ، وكان المانع الوحيد هو حماية لورا ، ولم يكن يدرك ماسيواجهه فى « سانت سويذن . . . فى حين كان مسكنه فى بنريث آمنا كأحسن مايكون فى أى مكان بالجزيرة وعندما إعترضت لورا أثناء تجربته أن الشىء الذى أصاب سندليوس وأوقفه عن الضحك قد يصيبه هو الآخر ، وأنه قد يشعر بالحاجة إليها ، حاول أن يقنعها بوعده أنه إذا وجد لها مكانا فى سانت سويذن فإنه سيرسل إليها .

وكان فى الواقع يـكذب عليها ، وقد أقسم « أنها لقسوة رؤية جوستاف وهو يفارق الحياة ، فإنها لن تغامر بحق البرق والرعد ! » . . لقد تركها فى رعاية الخادمات وكبير رجال الشرطة والدكتور أوليفر مارشاند ليزورها كلما سنحت له الفرصة .

— ٧ —

وفى ابروشية سويذن كانت أشجار الكاكاو والخيزران الهندى والتلال المدببة فى جنوب « سانت هوبرت » تتكشف عن حقول متصلة من قصب السكر ، وهنا كان سيسل توايفورد ، ذلك الرجل الجبار يتحكم فى كل فـدان ، غير مبال بأى قانون من القوانين . وكان قصره ، فرنجيبانى كورت ، مأوى وملاذاً له من السهل الحار الملىء بالضوضاء . كان المنزل قديماً ومنخفضاً مشيداً من أحجار سميكة وحوائط من الجبس ، وكانت حجرته مزخرفة بالصينى واللوحات الزيتية ، وسيوف أسرة توايفورد منذ ثلاثمائة عام . وكانت توجد بين الأجنحة حديقة محاطة بجدار تخلب اللب بجمالها .

وقد اقتاد توايفورد مارتن خلال صالة رطبة منخفضة وقدمه إلى خمسة أبنـــاء عظام وإلى والدته التى أصبحت منذ وفاة زوجته — منذ عشر سنين — ربة البيت. وقال توايفورد .

« هل تتناول الشاى — إن ضيفنا الأمريكى سوف ينزل بعد لحظة » .

لم يكن يفـكر فى أن يقول ذلك ، ولـكنه قد أقسم أنه لعدة أجيـال كانت أسرة توايفورد تتناول الشاى هنا فى ساعات الصفاء ، ولم يكن هناك فزع يمنعهم من تناول الشاى فى هذه الساعة .

وعندما جاء مارتن إلى الحديقة ورأى الأوانى الفضية القديمة المصنوعة من خشب الصفصاف، وسمع الأصوات الهادئة بدا أن الطاعون قد حلت به الهزيمة وأدرك أنه على بعد أربعة آلاف ميل من جنوب شرق ليزرد تقع انجلترا .

وجلسوا مستمتعين ولكنهم قلقين نوعاً ما وعندما حضر الضيف الأمريكى تطلع إلى مارتن من الباب بنظرة غريبة رداً على نظرة مارتن .

وشاهد امرأة يبدو أنها شقيقته كانت تقريباً فى الثلاثين بينما كان هو فى السابعة والثلاثين من عمره ولكنها كانت فى شكلها النحيل الشاحب وفى حواجبها السوداء وشعرها القاتم تبدو توأماً له . . . لقد كانت صورة من نفسه المبتهجه ، وسمع صوته متحشرجاً : (ولكنك شقيقتى) وفغرت فاها ومع ذلك لم يتحدث أحدهما وهما ينحنيان عند التقديم . وعندما جلست لم يشعر مارتن قط بوجود امرأة مثلما كان يشعر فى تلك اللحظة .

وعلم قبل المساء أنها «جويس لانيون» أرملة روجر لانيون الذى كان يقيم فى نيويورك، وقد جاءت إلى سانت هوبرت لتشاهد مزارعها ، فوقعت فى شرك الحجر الصحى وسمع عن زوجها المتوفى وهو شاب صغير ذو ثروة ومن أسرة عريقة ويبدو أنه تذكر انه رآها فى قصـــة « سوق الغرور » [(١)] صورة لأسرة لانيون فى «بامبيش » لم تكن تتحدث عن شىء سوى الطقس والزهور وكانت فى نفسها بهجة متزايدة تثير سيسل توايفورد وفى خضم لعناتها اللطيفة إلى أكبر الأبناء رد عليها مارتن قائلا :

« انك شقيقتى . »

« هذا واضح — أجل مادمت أنك عالم — هل أنت عالم ماهر ؟ »

« ماهر جداً . »

لقد التقيت بالسيدة ما كجورك ودكتور ريبلنون هولا بيرد — التقيت بهم فى « هيسيبان هوك » أنك تعرف ذلك المكان — أليس كذلك ؟

كلا ، أنا — أوه — سمعت عنه . »

---

(١) إحدى قصص وليم ماكيس ثاكرى الشهيرة ، وهى تضم نماذج من الشخوص تشبه إلى حد كبير شخصية هذه الأرملة .

« أنه ذلك المكان القديم فى بروكلين حيث كان الأدباء ورجال الاقتصاد وجميع هؤلاء الناس — وبعضهم تقريباً حاذق كأحسن ما يكون الحذق — يرافقون الناس الذين هم أرقاء كأحسن ما تكون الرقة ، أنك تعلم أين يرتدون ثياب العشاء ولكنهم جميعاً سمعوا عن جيمس جويس[1] ودكتور هولا يبرد أنه شىء جذاب للغاية .. ألا تعتقد ذلك ؟ »

« أجل . . ؟ »

« خبرنى .. أنا اعنى ذلك تماماً .. لقد أوضح لى سيسل ما كنت تعده لإجراء التجارب فهل لى أن أساعدك — وأقوم بالاشراف الطبى أو الطهى أو أى شىء — أو ترى أننى سوف أكون عقبة فى طريقك ؟ »

« لم أعرف بعد وإذا كنت سأستخدمك ، فسوف أكون إنساناً ليس عنده مبادىء كما يجب . »

« أوه لا تكن متزمتاً مثل سيسيل ودكتور ستوكس ؟ انه ليس لديهم أى إدراك للمرح .. هل تحب ذلك الرجل ستوكس ؟ إن سيسل يقدره وأنا أعتقد أنه ببساطة مبتلى بالفضائل ، بيد أنى أجده جافا ونحيفاً وكئيباً — ألا تعتقد أنه يجب أن يكون أكثر مرحاً نوعا ما ؟ » لقد طرح مارتن جميع الفرص لمعرفتها وهو يقول :

« أنظرى هنا ، لقد قلنا أنك وجدت هولا يبرد «جذاباً» وأنه لما يؤسفنى أن أراك تقعين فريسة لخداعه العلمى ولا تقدرين ستوكس . . . أن ستوكس حازم — شكراً لله — وأنه من المحتمل أن يكون وغداً ، لم لا ؟ أنه يناوىء العالم الذى يهدر فى سبيل فتنة كاذبة . لا يستطيع عالم من العلماء أن يبذل كل هذا الجهد

---

(١) الكاتب الروائى الايرلندى الشهير المتوفى عام ١٩٤١

ولا يصبح بطريقة أو بأخرى وغـداً ، كل ما أقوله لك أن ستوكس ولد باحثاً ، وكنت أود أن يكون معنا فى معهد ما كجورك . وغداً ؟ أترغبين أن تسمعين عنه أنه وغد بالنسبة لى ؟ »

بدأ الشك على ترايفورد إذ أن والدته بدت منزعجة قليلا ، ولم يبد على الأولاد الخمسة شيء على الاطلاق ، بينما كان مارتن يثور محاولا أن ينقل صورة من بربريته ورياضته وفتوته فى العلوم ، ولـكن عينى جويس لانيون كانتا تشعان حناناً وعندما تـكلمت فقدت شيئا من سلوكها الحضارى الذى يصاحبها خارج دارها .

« نعم أعتقد أن الخلاف بينى كزارعة وبين سيسل »

وبعد تناول الطعام سار معها فى الحـديقة ، وحاول أن يدافع عن نفسه ضد شيء لم يكن يدرك كنهه حتى أشارت :

« أيها الرجل العزيز أنك دائمـا تعتذر عن شيء لم يـكن محل اعتذار على الاطلاق ، إذا كنت حقا يجب أن تـكون أخى التوأم فلتشرفنى بإخبارى بأن أفعل ما تريدنى أن أفعله ، فأنا لست عاتبة ، والآن بالنسبة لجوتليب الذى يبدو وكأنه فـكرة متسلطة على عقلك — »

« فـكرة متسلطة ! .. أيتها الفئران ! . . إنه — »

ثم افترقا بعد ساعة . . خشية أن تتعرض جميـع حالات مارتن لمثل هـذا الاختلاس فى النظر ، والقلق الصبيانى الذى يمر به مع أوركيد بيكربو ، بيد أنه عندما ذهب لينام فى حجرة قديمة كان يزعجه أن يعلم أن جويس لانيون توجد فى مكان ما على مقربة منه .

وجلس مندهشا متحيراً فيما إذا كان سيقع فريسة لحب تلك المرأة الصغيرة المشتهاة عديمة النفع (كم كانت أكتافها جميلة تحت الساتان الأسود خلال العشاء .. لقد كان من مواهبها ذلك الجسد البض المشع ، وكان ذلك يجعل معظم النساء حتى لورا الرقيقة تبدو بدينة ضخمة . وكان يوجد وهج وردى تحت هـذا الجسد ، كما لو كان ينبعث من ضوء داخلى) .

هل حقا كان يريد أن تـكون لورا هنا معه حيث توجـد جويس لانيون فى المنزل ؟ « لورا العزيزة التى كانت مصدر الحياة .· هل تفتقده الآن وهى بعيدة عنه فى بنريث لودج ، وتسهر الليل تفـكر فيه ؟ »

كيف يستطيع ، حتى فى حالة أزمة الوباء ، أن يجعل أسرة توايفورد التقليدية تدعو لورا ؟ .

(كم كان أميناً ، حتى أنه بعد ظهر ذلك اليوم تذكر تقاليد أسرة توايفورد الجافة رغم أن بها شىء من الرقة ، ولـكن ألا يمكن أن يدع هـذا الأمر جانبا ، بأن يكون بصراحة أجنبياً غريباً ؟ .)

وفجأة تحرك من فراشه وأخذ يركع مصليا من أجل لورا .

الفصل الخامس والثلاثون

كان الطاعون قد بدأ يغزو سانت سويذن ، بيد أنه كان من المؤكد أنه آت .. وكان مارتن بكل قواه وبصفته المراقب الصحى الرسمى للابروشية قادراً على أن يضع الخطط ، فقد قسم السكان إلى مجموعتين متساويتين احداهما النصف الأول منها طعم بالقاح ضد الطاعون وترك النصف الآخر كما هو .

وقد بدأ ينجح إذ وجد فى أقاصى الهند التى كان يذهب فيها اربعمائة ألف شخص ضحايا الطاعون سنوياً قد انقذت بفضل جهوده ، وقد سمع ماكس جوتليب يقول :

« يا مارتن لقد أجريت تجاربك وأنا سعيد جداً ! »

وانتشرت العدوى فى النصف الذى لم يطعم فى الأبروشية بصورة أكثر من تلك التى أصابت الذين تم تطعيمهم ، وظهرت حالة أو اثنتان بين أولئك الذين طعموا ، ولكن بين الآخرين كانت هنالك عشر حالات ثم عشرين حالة ثم ثلاثين حالة وفاة يوميا ، وقد عالج هذه الحالات الخبيثة بإعطائه التطعيم للمرضى بالتناوب فى ملجأ الأبروشية العارى من الأثاث ـ حجرة صغيرة بيضاء جداً يقع خلفها أشجار البنيان والتين الهندى .

ولم يستطع إطلاقاً أن يفهم سيسيل توايفورد ، ورغم أن توايفورد إعتبر مساعديه كعبيد ؛ وبالرغم من عظمته البارونية فإنه لم يعطهم سوى ذلك الملجأ ، ومع ذلك فإنه الآن أخذ يغامر بحياته فى الإشراف عليهم طبياً وكذلك بحياة أبنائه .

وبالرغم من عدم تشجيع مارتن فإن السيدة لانيون جاءت لتطهو له الطعام ،

وهى طاهية رائعة ، وقد كانت تعد الفراش أيضا ، كما أظهرت ذكاءاً أكثر من رجال أسرة توايفورد فى وقاية نفسها ضد المرض . وبينما كانت تجول فى أرجاء المطبخ القـديم فى ثوب فضفاض اقترضته من خادمة كان مارتن يضطرب حتى أنه نسى أن يكون عبوساً .

— ٢ —

وفى المساء ، أثناء عودتهم بسيارة توايفورد الصغيرة إلى (فرانجيبانى كورت) كانت السيدة لانيون تتحدث مع مارتن كإنسان تشاركه عمله ، ولـكنها عندما استحمت وزينت وجهها بالبودرة وارتدت ملابسها تحدث معها كإنسان خائف منها .. كان الوثاق الذى يربط بينهما هو تشابهما كأخ وأخت ، وقد قررا تقريباً بشىء من الضيق أنهما يشبهان أحدهما الآخر تماماً مع فارق الشعر وبدنها الذى كان أرق من بدنه ، وأنهـــا كان ينقصها جرأته وحاجبيه اللذان يشبهان حاجبى الديك .

وغالبا ما كان مارتن يعود إلى مرضاه ليلا ، ولـكنه هرب من مسز لانيون مرة أو مرتين من جمود أسرة توايفورد وكذلك من التفـكير فى المرضى الملتهبة أجسادهم من الحمى . كانا يهربان إلى الشاطىء الصخرى للمستنقع الذى كان يتفرع من البحر على مسافة بعيدة ، وكانا يجلسان على حافة الصخر وقد ملأ سمعهما أصوات التيار ، وكان عقله مرهقا بذكرى البيانات فى الحجرة البيضاء فى الملجأ حيث كانت الشمس تلفح الحائط فتشققه . والمرضى المرتجفون ذوى الوجوه السوداء وكيف أن أحـد أبناء توايفورد تعثر فى أنبوبة من مادة الفاج وكم كانت ساخنة حارقة فى العنبر . ولـكن نسيم البحيرة كان برداً وسلاما على عنائه ، وكذلك كان حفيف التيار . وقد لاحظ أن رداء السيدة لانيون الأبيض يرفرف حول ركبتيها وأدرك أنها كانت مرهقة جداً وساكنة فاستدار نحوها بنشوة فصاحت :

« اننى خائفة وشاعرة بالوحـــــدة . . إن أسرة توايفورد أبطال ولـكنهم أحجار ــ اننى متململة للغاية ! »

فقبلها ،وأسندت رأسها على كتفه وكان ملمس أكمامها الناعمة مثيرا ليديه ، ولـكنها صاحت قائلة :

« لا أنك لاتهتم قيد أنملة بى ، مجرد حب استطلاع .. قد يكون ذلك شيء حسن بالنسبة لى — الليلة » .

حاول أن يطمئنها وأن يطمئن على نفسه بأنه يهتم بها بشدة ، ولـكن الاسترخاء تملك منه ، وقد كان بينه وبين شذاها أكواخ المستشفى ، وإرهاق شديد ، ووجه لورا الساكن . لقد ظلا فى صمت سويا وعندما بدأت يداه تزحف فوق يدها جلسا دون إثارة متفاهمين يتحدثان فى انطلاق عما يشاءان ، ووقف أمام باب حجرتها عندما عادا إلى المنزل وتصور تحركاتها الرقيقة فى الداخل .

وقال ثائراً :

« كلا .. لاأستطيع أن أفعل ذلك .. إن جويس أمرأة مثلها ، وهى واحدة من ملايين الأشياء التى غضضت الطرف عنها فى سبيل العمل وفى سبيل لورا — أجل هذا كل ما فى الأمر الآن .. ولـكن إذا كنت سأمكث هنا اسبوعان — ياللغباء إنها ستكون ثائرة إذا ما طرقت الباب .. ولـكن — »

وكان يلاحظ وميض الضوء تحت بابها ، وازداد إدراكا بذلك عندما استدار وعاد يخطو نحو حجرته .

— ٣ —

كانت الخدمة التليفونيـة فى سانت هوبرت من أهم مظاهر الاضطراب فى الجزيرة .. لم يكن هناك تليفون فى بتريث لودج ، وكان طبيب الميناء يحصل على مكالماته عن طريق أحد الجيران ، وكان السنترال قد حـل به الخلل عندما حاول مارتن لمدة ساعتين أن يستدعى لورا ، ولما لم يتمـكن غض النظر عن المحاولة .

ولـكن الفرصة واتته ، ففى مدى ثلاثة أو أربعة أيام سوف يعود بالسيارة إلى بتريث لودج ، وكان توايفورد قد وافق على اقتراحه بشأن دعوة لورا إلى هناك ،

وإذا أمكن أن تصير جويس لانيون وهى صديقتان حتى لاتتجه جويس إليه مرة أخرى فى وحدته فانه لم يكن لديه ثمة مانع .. أنه كان مشتاقا — كان تواقا .

— ٤ —

عندما بارحها مارتن فى المسكن أحست لورا ، وهى فوق تلال بتريث العالية التى تكسوها الخضرة ، بغياب مارتن ، ولم يكونا قد افترقا إلا قليلا منذأن قابلها لأول مرة وهى تنظف الحجرة فى مستشفى زينيث .

كان عصر ذلك اليوم يبدو لانهاية له ، فعندما كانت تسمع ضوضاء كانت تستيقظ وهى تأمل أن يكون ذلك وقع خطاه ، وقد أدركت أنه لن يأتى فى هذا المساء الشاغر .. الليلة المقبضة ، فلم تكن تطيق وجودها فى أى مكان بدون صوته وبدون لمسة يده .. كان العشاء كئيبا ؛ وغالبا ما كانت تتناول الطعام وحدها عندما كان مارتن فى المعهد ، ولكنه كان — ربما — يعود إليها قبل الفجر بقليل ، وكانت حينئذ تمضغ لقمة صغيرة على مائدة فى أحد أركان المطبخ وهى تلقى نظرة على ركن الفكاهة فى الجريدة المسائية .. هذا المساء كان يجب أن تعيش فى مستوى الخدمة التى كان يقوم بها رئيس الخدم الذى يبدو عليه أنه يعد لحفلة يحضرها عشرون فردا .

وجلست فى الشرفة تحملق فى الأسقف القائمة فى بلاك وور متأكدة أنها أحست بأن ثمة شبح يهيم وسط الظلام الحار .. لقد عرفت اتجاه أبروشية سانت سويذن ـ خلف ذلك الضوء اللامع الذى ينبعث من أكواخ النخيل المتكدسة فوق التلال ، فركزت نظرها عليها وهى تتأمل فيما إذا كان هناك طريقة سحرية تحصل بوساطتها على إشارة منه ، ولكنها لم تشعر بأنه يتطلع إليها ، وجلست فترة طويلة ساكنة .. لم يكن أمامها شيئاً لتفعله .

كانت تمضى لياليها ساهرة ، تحاول أن تقرأ فى فراشها باستخدام مصباح كهربائى داخل كلتها الرطبة الصغيرة ، بيد أنه كان هناك ثقب فى الناموسية

يتسرب الناموس من خلاله ، بينما كانت تطفىء نور الصباح وترقد غارقة عاجزة عن أن تستغرق فى النوم أو فى الاطمئنان .. كانت طيات الناموسية تبدو أمام عينيها أنها تنقشع من حولها ، وحاولت أن تتذكر ما إذا كان ذلك الناموس يحمل جراثيم الطاعون .. لقد أدركت كم كانت تعتمد على مارتن فى مثل هذه المعلومات ، وفى جميع أنواع الفلسفة .. لقد تذكرت كم كان متضايقا لأنها لم تتذكر ما إذا كانت الحمى الصفراء التى يسببها الناموس كانت من بعوض الملاريا أو من الاستجوميا أم من الايديس ، وفجأة ضحكت فى الليل .

وتذكرت أنه أخبرها بأن تطعم نفسها مرة أخرى ضد الطاعون .

« ياللهول ، لقد نسيت أجل من المؤكد أنى سأفعل ذلك غدا ، سأفعل ذلك غدا سأفعل ذلك غدا » كانت تلك الكلمات تتردد فى ذهنها كأنها أغنيه مثيرة لا مهرب منها بينما كان النوم قد جفاها ، وهى تتوق كم كانت تريد أن تزحف بين ذراعيه .

وفى صباح اليوم الثانى (ولم تتذكر أن تطعم نفسها مرة أخرى ضد الطاعون) كان الخدم يبدون متألمين وفى غمرة محاولتها لتهدئتهم علمت أن أوليفر مارشاند الطبيب الذى يعتمدون عليه قد توفى .

وفى فترة بعد الظهر علم رئيس الخدم أن شقيقته قد أخذت إلى جناح العزل وتوجه إلى بلاك وتر ليعد الترتيبات لأبناء أخيه إلا أنه لم يعد ولم يسمع أحد بما أصابه .

وفى الغسق أحست لورا كما لو كان شيئا على وشك أن يصيبها فهربت إلى معمل مارتن وقد بدا أنه يفيض بوجـــود مارتن الحيوى وابتعدت عن القوارير المملوءة بجراثيم الطاعون . والتقطت سيجارته التى كان دخن نصفها وأشعلتها .

والآن كان ثمـة تشقق بسيط فى شفتيها وفى ذلك الصباح وهى تبحث فى المعمل الذى يعتبر حصنا ضد الأمراض — كسرت إحدى الخادمات أنبوبة اختبار وأخذ المحلول المقطر يقطر منها .. وقد بدت السيجارة جافة تماماً بيد أنه كان فيها من جراثيم الطاعون ما يكفى لإبادة فرقة من الجنود ، وبعد ذلك بليلتين عندما كانت

فى عزلة مريرة حتى أنها فكرت فى أن تمضى إلى بلاك ووتر وتهرب منها إلى مارتن ،استيقظت وقد أصابتها الحمى والصداع ، وكانت أطرافها باردة جدا. عندما اكتشف الخدم ذلك فى الصباح ولوا هاربين من المنزل وبينما كان الأعياء يتدفق حولها تركت وحدها فى المنزل المنعزل بدون تليفون .

وطوال الليل وطوال النهار كان حلقها يتحشرج عطشاً ورقدت تهفو إلى أن يكون إلى جانبها أحد يعاونها . وفى ذات مرة زحفت نحو المطبخ لتبحث عن ماء، وكانت أرضية حجرة النوم بحر متماوج لا نهاية له وكانت الصالة فى عتمة مخيفة ، وبجوار باب المطبخ سقطت ورقدت ساعة وهى تتمتم قائلة : ـ

« اذهب إلى ... اذهب إلى — لم أتذكر ما هى » كان يبدو أن صوتها أخذ يعبر عما يدور بخلدها المضطرب .

وبينما هى تتألم وتقاوم الألم قامت ولفت حولها ثياب مهلهلة كانت قد تركها أحد الخدم . وفى الظلام أخذت تترنح إلى الخارج لتجد أحداً يساعدها ، وعندما وصلت إلى الشارع الرئيسى تعثرت ورقدت تحت السور غير قادرة على الحراك كحيوان مصاب .... وأخذت تزحف على رجليها ويديها عائدة إلى مسكنها ، ومن لحظة لأخرى بينما كان ذهنها آخذ فى الأفول كادت تنسى الألم فى خضم اشتياقها إلى مارتن ... لقد كانت مسلوبة ، كانت وحيدة . لم تكن تجرؤ أن تبدأ فى رحلتها الطويلة بدون أن تريحها يداه ، فقد كانت تصغى إليه ... تصغى غارقة فى الإنصات.

« سوف تعود ! إننى أدرك أنك سوف تأتى وتساعدنى . . . أدرك أنك ستأتى ... يا مارتن ... ياساندى ... ياساندى ؟ » وانخرطت فى البكاء .

ثم غرقت فى غيبوبة رقيقة ، ولم تعد تشعر بألم، وخيم الهدوء على البيت المعتم، ولم يكن يسمع سوى صوت تنفسها المكافح الغليظ .

— ٥ —

وحاولت جويس لانيون كما حاول سونديلوس بأن تغرى مارتن بأن يقوم بتطعيم كل شخص .

« إننى أشعر بالتحسن والحزم معكم جميعاً وأنتم تتبعوننى . مبادىء جوتليب الثابتة . وليس هناك ما يجعلنى أنقض مبادئه حتى لو حاولوا ولو شنق » .

وقام بتوضيح ماهية شخصية لورا إلى جويس .

« لست أدرى ما إذا كنتما أنتما الاثنان تشبهان أحدا كما الأخرى ، إنك تختلفين كثيراً ، فأنت دقيقة للغاية وتحبين هؤلاء الناس الظرفاء ، الذين تتحدثين عنهم دائماً ولـكنها لا تعبأ إطلاقاً بهم ـ إنها تجلس بعيداً ـ أوه إنها لا يفوتهـا شيء إطلاقاً ، ولـكنها لا تنطق كثيرا وما زال لديها أفضل إحساس بالأمانة التى لم أشهد مثلها فى حياتى وإنى أعنى أن تتجاوبا أنتما الإثنان مع بعضكما بعضاً كنت أخشى أن أجيء بها فإنى ـ لم أكن أدرك ما سوف أجد هنا ، ولـكنى الآن سوف أسرع إلى بنريث وأحضرها هنا اليوم » .

استعار سيارة توايفورد وسار بها إلى بلاك ووتر ثم إلى بنريث بروح رائعة إذ أن الطاعون كله قد انتهى ، ويستطيعان أن يمضيا وقتاً ممتعاً فى المساء وكان أحد أبناء توايفورد لايبتسم بثقل رزانة مارتن ، ولذا يستطيعهو وجويس معمارتن ولورا أنيمضوا إلى المستنقع لتناولالعشاء فى الهواء الطلق...إنهم سوف يغنون ـ

ووصل إلى بنريث لودج ، وهو ينادى « لى ... لورا تعالى نحن هنا . »

كانت الشرفة عندما وصل إليها تتبعثر فيها الأوراق ويعمها التراب ، وكان الباب الأمامى مغلقاً وصوته يحدث صدى فى صمت مطبق ، فتسلل إليـه القلق واندفع داخلا ، ولم يجد أحـــداً فى حجرة الجلوس أو المطبخ ثم أسرع إلى حجرة النوم .

وفوق السرير ووسط طيات الناموسية الممزقة كان يوجد جسد لورا ساكناً

تماماً ، فصاح بها وهزها ثم وقف ينتصب .. تحدث إليها ، كان صوته مختلا يحاول أن يجعلها تدرك أنه أحبها وقد تركها هنا فقط لتكون فى أمان ـ كان هناك خمر فى المطبخ ، وذهب إلى الخارج ليفرغ فى جوفه محتويات بضع زجاجات مليئة بالخمر ، فلم تؤثر فيه .

وفى المساء سار نحو الحديقة ـ الحديقة المرتفعة التى يجتاحها الريح وتتجه نحو البحر ثم حفر حفرة عميقة ورفع جسدها المتصلب الخفيف وقبله ووضعه فى الحفرة ، وظل طول الليل هائم على وجهه ، وعندما عاد إلى المنزل وشاهد صف ملابسها الصغيرة وبها آثار جسدها الرقيق ساوره الارتياع .

ثم انهار ـ غادر بنريث لودج إلى توايفورد وانتقل إلى حجرة خلف عيادة الجراح العام وكان دائما يضع إلى جوار فراشه زجاجة من الخمر . ولأن الموت واتاه لأول مرة مضى يقول بصوت غاضب .

« أوه ... لعن الله التجارب ! »

وبالرغم من استياء ستوكس مضى يقوم بتطعيم أى شخص يطلبه الفاج .

وفى سانت سويذن حيث بدأت تجاربه ببراعة كانت هناك بعض العوامل الشريفة التى منعته من أن يعبث بالتطعيم على نطاق عام ، فترك أمر إجراء التجارب هذه إلى ستوكس .

ورأى ستوكس أنه قد أصبح مجنوناً إلى حد ما ، وفى ذات مرة عندما زجر مارتن قائلا : « ماذا يهمنى من علمكم ؟ » فى تلك المرة حاول أن يشرك مارتن معه فى تجاربه .

وظل ستوكس مع توايفورد يجريان تجاربهما ويسجلان اللاحظات التى كان يجب أن يحتفظ بها مارتن . وفى المساء بعد أن يعمل لمدة أربعة عشرة إلى خمسة عشرة ساعة منذ الفجر كان ستوكس يسرع إلى سانت سويذن بالموتوسيكل ـ كان يكره الارتجاج والافتقار إلى الوقار ، وقد ألقى من الخطورة بمكان اتباع الطرق الجبلية بسرعة ستين ميلا فى الساعة بيد أنه كان أسرع طريق ، وحتى

منتصف الليل مضى يتشاور مع توايفورد ، وأصدر له تعليمات بشأن اليوم التالى ، ثم أعد تعليقاته وأخذ يتعجب من وداعته المتناهية .

وفى الوقت ذاته مضى مارتن طول النهار يطعم صفاً من السكان الخائفين فى مكتب الجراح العام فى بلاك ووتر وتوسل ستوكس إليه أنه على الأقل يجب أن يسند هـــذا الأمر إلى طبيب آخر ، وأن يعنى ويهتم بقدر ما يستطيع بسانت سويذن ، ولــكن مارتن شعر برضاء مرير فى طرح كل أهميته جانباً فى سبيــل المساهمة فى تحطيم أهدافه الشخصية،ووقف ومعه ممرضة تساعده فى المكتب الشاغر من الأثاث وسط صفوف متراصة من الناس إلى جوار بعضهم بعضاً يرتدون الأبيض والأسود يسودهم الاضطراب وينتظرون بصمت عميق كما لو كانوا ينتظرون الموت ، وزحفوا إلى الممرضة التى تقف إلى جوار مارتن ، وفى ارتباك عرضوا أذرعتهم التى دعكتها بالماء والصابون ، ثم طهرت بالــكحول قبل أن يصلوا إليه ،وبخفة أمسك جلدة الذراع العليا ثم غرس فيها إبرة الحقنة وهو يلعنهم لارتعادهم دون أن يرى وجوههم وعندما يتركونه كانوا يتمتمون بكلمات اعتراف بالجميل ـــ « أوه ياإلهى بارك الله فيك يا دكتور ... » ولــكنه لم يستمع .

كان ستوكس هناك، أحياناً ، يتطلع بشغف ، خاصة عندما كان يرى أيدى المزارعين من سانت سويذن الذين كان من المفروض أن يظلوا فى إبروشيتهم تحت حراسة مشددة حتى يمــكن اختبار قيمة التطعيم ، وكان يأتى أحياناً سير روبرت فيولامب لينتظر ويتأمل ويقدم مساعداته ... وكانت قرينة فيرلامب أول من طعمت ثم تلاها خادمة مطعم تردد عبارات الشكر لله .

وبعد أسبوعين عندما مل من هذا المشهد الدرامى كلف أربعة أطباء بأن يقوموا بالتطعيم بينما كان يقوم هو بإعداد مادة التطعيم .

ولــكن إذا ما جن الليل كان مارتن يجلس وحده وهو يشرب بانتظام ويحيا على الويسكى والــكراهية، مطلقاً العنان لنفسه، مذيبا جسده بالــكراهية كما يذيب النساك أنفسهم بالنشوةوالوجد ، وكانت حياته غير حقيقية كليالى سكير عجوز .

وكانت هناك ميزة خاصة له فوق ما تحرص عليه البشرية وهى عدم اهتمامه بما إذا كان يعيش أو يموت،فإنه هو الذى كان يجالس الموتى يتحدث إلى لورا وسوندليوس وايراهينسكلى وأوليفر مارشان وأنشكيب جونز وطائفة من أشباح الزنوج مرفوعة أيديهم ضارعة إلى السماء .

وبعد موت لورا عاد إلى توايفورد مرة واحدة ليحضر متاعه ،ولم ير جويس لانيون ، وكرهها ، وأقسم أنه لم يكن وجودها هو الذى منعه من العودة مبكراً إلى لورا ولكنه كان يدرك أنه فى الوقت الذى كان يتحدث فيه مع جويس كانت لورا تفارق الحياة . « ولعن الله متطفلى المجتمع ... وحمداً لله فاننى لن أراها مرة أخرى » .

وجلس على حافة فراشه فى حجرة ضيقة ليس بها هواء وقد انتفش شعره واصطبغت عيناه بالاحمرار ، وكانت فوق وسادته قطة صغيرة ضالة كان يقدرها باعتبارها صديقته الوحيدة وعندما سمع طرقا على الباب تمتم قائلا : « لا أستطيع أن أتحدث الآن إلى ستوكس ، فليجرى تجاربه الخاصة بنفسه . لقد مللت التجارب » .

وباستياء قال « أواه — أدخل » وانفتح الباب فظهرت جويس لانيون حازمة يبدو عليها البرود ، فقال بغيظ : « ماذا تريدين ؟ » فحملقتُ فى وجهه ثم أغلقت الباب ، وبهدوء أزاحت الطعام والصحف وكل ما كان على مكتبه من أدوات واستاءت من القطة وطردتها إلى الحصيرة ، وربتت بيدها على الوسادة وجلست إلى جانبه، على فراشه الغير منسق ، ثم قالت: «من فضلك... إنى علمت بما حدث وأن سيسيل قد ذهب إلى المدينة لمدة ساعة ، وأردت أن أحضر — ألا تستريح قليلا اذا علمت كم نحن نؤثرك ؟ هل تسمح لى بأن أعرض عليك صداقتى ؟ » .

« إنى لا أريد صداقة أى إنسان ، ليس لى أصدقاء على الاطلاق ! »

وجلس صامتا ويدها فوق يده بيد أنه عندما ذهبت شعر بهزة شجاعة جديدة،

لم يكن يستطيع أن يخلص نفسه ويقلع عن الاعتماد على الويسكى، ووجد أنه لا مبرر للاستمرار فى التطعيم لكل من جاء يطلبه، ولكنه أسند عملية التطعيم وصناعتها إلى آخرين وعاد إلى ملاحظاته الجافة عن تجاربه فى سانت سويذن ، بعد أن أصبحت الآن مهوشة بسبب ذلك النفر من الناس الذين لم يطعموا بالفاج فى الأبرشية والذين توجهوا إلى بلاك ووتر ليتلقوا الفاج .

لم ير جويس ، وأقام فى الملجأ ، ولكنه الآن فى معظم أمسياته لم يكن ثملا .

— ٦ —

انتشر فى الجزيرة مبدأ القضاء على الفئران ، وكان الجميع من سن الخامسة إلى الشيوخ المسنين يخرجون لصيد الفئران والسنجاب الأرضى . ولم يدر الناس ما إذا كان الوباء قد توقف بسبب التطعيم أو قتل الفئران أو العناية السماوية — وبعد وصول مارتن بستة شهور . عندما كان شهر مايو فى غرب الهند فى أوج قيظه . وعندما كان فصل الزوابع على وشك الانتهاء كان الطاعون قد انتهى تقريباً ورفع الحجر الصحى .

وانتشر الأمان فى ربوع مطاعم ومحال سانت هوبرت . وفى وسط الربيع التألق ابتهجت الجزيرة ، كما يبتهج مريض شفى من المرض أو من الألم لأول مرة ، سعيدا بحياته وسلامته .

إذا كانت المساومات فى الأسواق العامة عادة غير مهذبة تجرى بصوت عال وإذا كان المحبون يتبخترون غير مدركين لما حولهم والمتسولين يقصون حكايات عن الخمر والاغراق فى الشراب فى (بيت الثلج) والمسنين يجلسون القرفصاء يروون القصص ويتحدثون فى ظلال أشجار المانجو . وصلاة الكنيسة تتلى بأصوات غنائية جماعية متضرعة إلى الخالق . فإن ذلك لم يعد بالأمر الطبيعى لهم جميعا كما لم يعد بالأمر الممل . بل أصبح نعمة الفردوس .

واقاموا احتفالا بمناسبة قيام أول باخرة إذ احتشد البيض والسود والهندوس

والكاريبيون على رصيف الميناء يصيحون ويلوحون بمناديلهم محاولين أن يتحكموا فى دموعهم حزناً على ما قد ترك فى بلاك ووتر . وعندما بدأت السفينة (سانتيا) التابعة لخط ما كجورك تشد الرحال كان قبطانها فى المؤخرة عند سور الجسر منتصب القامة يحييهم فى ابتهاج وعينيه مغرورقتان بالدموع حتى أنه لم يتمكن من رؤية الميناء . وأحسوا أنهم لم يعودوا مساجين بل جزء من العالم الحر .

وابحرت جويس لانيون فوق هذه الباخره وودعها مارتن عند الميناء . كانت قوية البنية فارعة الطول مثله . وتطلعت إليه دون أن تلوح مبتهجة وهى تقول :

« لقد نجوت كما نجوت أنا . وكلانا جن جنونه وقد احتجزنا هنا بالطريقة التى كنا نعيشها . ولا أحسب انى أسديت إليك معروفا ولكننى حاولت بقدر الامكان . وكما تعلم لم أكن مارست ذلك فى الحقيقة . وقد اكسبتنى تجارب . وإلى اللقاء » .

« ألا يمكن أن أراك فى نيويورك ؟ »

« من الممكن إذا كنت تريد حقاً .. »

رحلت ، ومع ذلك فإنها لم تكن معه مثلما كانت معه فى تلك الساعة الطويلة المملة التى أمضاها بعد ما اختفت السفينة خلف الأفق ، وقد أصبحت خطا جللت حواشيه بسلك من الفضة ، ولكنه مضى فى هذه الليلة ملتاعا مفزوعاً إلى بنيرث لودج ودفن خده فى الثرى الرطيب فوق رمس لورا التى لم يكن يحتاج معها إلى أن يوضح ويفسر . والتى لم يكن يحتاج ليقول لها :

« ألا يمكن أن أحضر لأراك ؟ »

ولكن لورا باردة فى مثواها الأبدى . غير باسمة . لم تجبه أو تهدىء من روعه .

— ٧ —

وقبل أن يرحل مارتن كان لابد أن يجمع مذكراته عن تجربة التطعيم ويضيف ملاحظات ستوكس وتوايفورد إلى أرقامه المختصرة . وحيث أنه صاحب التطعيم الذى أعطاه لالآف من سكان الجزيرة الخائفين . فقد صار سيد الموقف وقد أطلق عليه بعدصدور جريدة بلاكووتر جارديان لأولمرة بعد رفع الحجر (منقذأرواحنا جميعاً). لقد كان البطل العالمى .. وإذا كان سوند ليوس قد ساعده فى التطهير — ألم يكن سوندليوس معاونه ؟ —وإذا كان ذلك من لطف الرحمن ، كما كان يؤكد الزنوج المسنين الذين يتبعون إراهنكلى فى كنيسة التطهير للأخوة المقدسة ، أو لم يكن الرحمن هو الذى أرسله ؟

لم يكن أحد يهتم بالطبيب الاسكتلندى الذى كان بارعاً فى فتره الطاعون ، بيد أنه لم يكن دراميا خلال الوباء ، وقد أشار إلى أن الطاعون بدأ يتباطىء ويتوقف بدون تطعيم .

وعندما كان مارتن يتم مشاهداته تلقى خطاباً من « معهد ما كجورك » موقعاً عليه من ريبلتون هولا بيرد .

كتب هولا بيرد يقول إن جوتوليب كان « يشعر بأنه شاخ وهرم ، وأنه استقال من منصب الإدارة وأوقف تجاربه وهو الآن فى منزله يستجم وقد عين هولا بيرد نائب مدير للمعهـــد فكتب الكلمات الآتية : « إن التقارير الخاصة بأعمالك الواردة فى رسائل من وكلاء السيد ما كجورك والتى سمحت هيئات الحجر بإبلاغه لنا تعرفنا أكثر مما تعرفنا تقاريرك المتواضعة عن النجاح الباهر الذى تحقق لك . . . لقد فعلت ما لايستطيع أن يفعله الكثيرون إذ أنك أقمت وزناً للتطعيم البكتروبولوجى عن طريق تجارب على نطاق واسع ،وقد أنقذت حياة الكثيرين من السكان وإن مجلس الأمناء وإنا نقدر حق التقدير المجد الذى أضفته والذى ستظل تضيف مزيداً منه عندما تنشر تقاريرك باسم معهد ما كجورك ، ونحن نعتقد أننا الآن لا نستطيع لمدة بضعة شهور أن نجعل رئيسك الكبير الدكتور جوتليب يتآزر معنا ، فى أهمية إنشاء إدارة منفصلة تكون أنت رئيساً لها »

وتنهد مارتن وهو يقول : « أقام وزناً لى — الفئران ! . . . إننى قمت بنصف التجارب تقريباً . . . إدارة ! . . لقد أصدرت أوامر كثيرة هنا ، وقد مللت السلطة أريد أن أعود إلى معملى وإن أبدأ من جديد » .

وقد خيل له أنه قد يربح الآن حوالى عشرة آلاف فى العام ... إن لورا كانت تود أن تستمتع ببعض الوجبات الدسمة نوعاً ما .

وبالرغم من أنه لاحظ أن جوتليب فى تدهور فإنها كانت صدمة له حين علم أنه سيصير عاجزاً عن أداء عمله لبضعة شهور .

ونسى نفسه عندما خطر بباله أنه بالإقلاع عن التجارب واتخاذ موقف المنقذ قد أصبح خائناً لجوتليب وكل ما يمثله جوتليب . وعندما عاد إلى نيويورك كان يود أن يزور الرجل العجوز وأن يعترف لتلك العيون الثائرة ، إنه لم يتم إثباته لقيمة التطعيم .وتمنى لو استطاع أن يهرع إلى لورا بعد أن صار يربح عشرة — آلاف فى العام .

— ٨ —

بارح سانت هوبرت بعد رحيل چويس لانيون بثلاثة أسابيع ، وأقيمت له وليمة فخمة فى المساء الذى سبق رحيله ، حضرها السير روبرت فيرلامب ، على شرف مارتن وستوكس بينما كان سير روبرت يغدق التحيات بطريقة غير مهذبة حاول كيليت أن يوضح الأمور ، ومضى الجميع يشربون نخبة بعد نخب الملك وجلس مارتن وحيداً يفكر أنه غداً سيترك هذه النفوس التى تضع الثقة فيـــه ويواجه مطالب جوتليب وتيرى ويكت القاسية .

وكلما كانوا يتغنون بأمجاده كلما كان يفكر فى المجهول ، العلمـــاء ذوى العقول الواعية فى المعامل البعيدة سيتكلمون عن رجل أتيحت له الفرص ولم يستغلها ، وكلما كانوا يدعونه مانح الحياة كلما كان يحس بالخزى والخيانة وعندما نظر إلى ستوكس ألفى فى نظرته إشفاقاً أقسى من أى تأنيب .

الفصل السادس والثلاثون

حدث أن عاد مارتن إلى نيويورك على ظهر السفينة سانت بوريان ، وكانت الباخرة تطوف بها أشباح لورا الحالمة وسونديلوس وهو يصيح على الجسر .

وعلى سانت بوريان ، كانت توجد الآنسة جوليام ، عضو النادى الريفى التى أساءت إلى سونديلوس .

كانت قد أمضت الشتاء تعد مذكرات عن الموسيقى القومية فى ترنداد وكاراكاس أو فى التفكير فى إعداد المذكرات، وشاهدت مارتن على ظهر السفينة فى بلاك وونر ، وعلقت بوقاحة على الأصدقاء الذين ودعوه — إثنان من الإنجليز أحدهما منتفخ والآخر طويل القامة واسكتلندى حاد النظر . وقالت له وهى تزعم أنه صديق قديم .

« يبدو أن أصدقاءك جميعاً من البريطانيين » .

« أجل »

« لقد أمضيتم الشتاء هنا » .

« أجل »

« لسوء الحظ إن فرض عليكم الحجر ، ولكننى أخبرتك أنه كان من الحماقة أن تذهب إلى الشاطىء ا كان لابد أن تنجح فى الحصول على بعض المال بالعمل ، ولابد أن ذلك كان شيئاً سيئاً حقاً » .

« أجل . أعتقد ذلك » .

« لقد أخبرتك أنه سيكون كذلك . . وكان يجب أن تأتى إلى ترنداد ، هذه الجزيرة الخلابة . . خبرنى كيف حال زميلك ؟ »

« من ؟ »

« أوه أنت تعرف — ذلك السويدى المرح الذى اعتاد أن يرقص ويفعل أشياء من هذا القبيل » .

« لقد مات » .

« أوه أننى آسفة فأنت تعلم أنه بغض النظر عما يقوله الآخرون لم أكن أعتقد أنه إنسان سخيف أننى أعلم أنه ذو عقل مهذب مثقف عندما لايكون ثملا . أن زوجتك ليست معك أليس كذلك ؟ »

« كلا — أنها ليست معى ينبغى الآن أن أذهب لأخرج ملابسى من الحقيبة » .

ونظرت الآنسة جوليام إليه وقد ارتسم على وجهها تعبير ينم عن القول بأن أقل مايستطيع أن يفعله الإنسان هو تعلم بعض آداب السلوك .

— ٢ —

كان فى السفينة سانت بوريان ، بالرغم من الحرارة وتهديد العواصف ، قليل من مسافرى الدرجة الأولى . ولم يكن معظم هؤلاء سياح من مستوى راق ولكنهم كانوا مجرد أمريكيين من الجنوب وكما يفعل السياح عندما تتفتق أذهانهم وتخصب بالسياحة، حالما يعودون إلى نيوجرسى أوويسكونسن وهم يفخرون بأنهم أمضوا ستة شهور كاملة فى غرب الهند وأمريكا الجنوبية . كان هؤلاء الفضلاء يدرسون بعضهم بعضاً فى دقة ويلاحظون الرجل النحيل الشاحب الذى يبدو قلقاً والذى يظل طوال يومه يحوم فوق ظهر السفينة ، وبعد منتصف الليل يرى واقفاً وحده فى مؤخرتها .

وقال السيد س . سانبورن هيبل الذى يقيم فى ديترويت للسيدة دوسن الفاتنة التى تقيم فى ممفيس « يبدو أن ذلك الشاب قلق للغاية » فأجابت بلباقة اشتهرت بها أنها ذهبت « أجل . أعتقد أنه غارق فى الحب » .

فقالت الآنسة جويليام « أوه . أننى أعرفه . أنه هو وزوجته كانا على ظهر السفينة سانت بوريان عند ماتوجهت إلى هناك وأنها الآن فى نيويورك . إنه

طبيب من الأطباء . ليس بارعاً للغاية كما أعتقد ، وفيما بيننا أرى أنهما لا يساويان شيئاً كثيراً ، إذ كانا يجلسان وقد بدا عليهما الغباء طوال الطريق » .

— ٣ —

كان مارتن قلقاً يود أن يبعث بأصابعه فى أنابيب الإختبار ، وقد أدرك كما حسب ذات مرة أن نفسه عافت الإدارة والشئون الكبرى .

وبينما كان يخطو فوق ظهر السفينة إستهدأ باله وصار فى حالته الطبيعية وفى غضب تصور النقاد الذين سوف يعلقون على ما تضمنه تقريره النهائى الذى سيعده. وكان فى وقت من الأوقات يكره نقد زملائه فى المعامل كما كان يكره منافستهم وكره الحاجة إلى تطلعه دائماً إلى الخلف ليرى ملاحقيه ، ولكنه فى ذات ليلة وهو واقف عند مؤخرة السفينة لمدة ساعات إعترف أنه كان يخشى انتقادهم ، وكانت خشيته لأن تجاربه بها كثير من الفجوات ، وقد ألقى من فوق ظهر السفينة بكل المساجلات التى كان يحمى بها نفسه : « أن الناس الذين ليست لديهم خبرة المحاولة فى خضم الوباء بأن يهدؤا ويستمروا فى إجراء تجاربهم لا يدركون فى أمان معاملهم مدى الصراع الذى يخوضونه »

أن النقد المستمر حسن إذا لم يكن يتسم بالحقد والحسد والصغار — لا ولو كان كذلك أيضاً فسيكون حسناً . . . أن بعض الناس يجب أن يكونوا كما يقول عامة العمال « معاندين » ، وبالنسبة لهم فإن العناد الذى يمحو كل ما قد يكون حسناً هو عندهم طبيعى أكثر من الخلق والابتكار . كما ينبغى أن يهيئ الصرح الكبير ، الذى يستطيع أن يخلى الأماكن المليئة بالعراقيل ، الظروف لمحاولة البناء ؟

وابتهج قائلا « وهو كذلك فليأتوا . . قد أسبقهم وأنشر تقريرا عن أعمالى ولقد اكتسبت شيئاً من تجارب سانت سويذن ، وإذا كنت سأدع الأمور تمر بسهولة لمدة سوف أبعث بجداولى إلى أحد الإخصائيين ، فقد يستنبط منها شيئا أجل . . أما الباقى فسوف أقوم بنشره »

وتوجه إلى فراشه وهو يشعر أنه يستطيع أن يواجه جوتليب وتيرى وأنه لأول مرة منذ أسابيع قد واتاه النوم دون أن تزعجه المخاوف .

— ٤ —

وعلى رصيف الميناء فى بروكلين دهشت واستاءت قليلاً الآنسة جويليام والسيد سانبورن هيبل والسيدة دوسن إذ قوبل مارتن بالتحية من مراسلى الصحف الذين كانوا يرغبون فى معرفة تلك الأمور العظيمة والمرموقة التى أجراها بالنسبة لبعض الأمراض أو لبعض الأشياء الأخرى فى جزيرة مافى مكان ما، وأنقذه منهم ريبلتون هولابيرد الذى اندفع وسطهم ماداً يديه وهو يصيح: « أوه، ياعزيزى ، أننا على علم بكل ما حـــدث . أننا نأسى كثيراً لك ، وسعداء كثيراً أن أتيحت لك فرصة العودة إلينا » .

ومهما قال مارتن ، على ضوء رأى ماكس جوتليب فى هولابيرد ، فإنه رفع يديه وقال متمتماً : « أننى سعيد بالعودة إلى الوطن » .

أن هولابيرد (وكان يرتدى قميصاً أزرق ذو ياقة منشاة زرقاء كممثل) لم يستطع إنتظار احضار متاع مارتن من الجمرك ، فكان لا بد أن يعود إلى عمـله كنائب رئيس للمعهد وقد تأخر فقط لينوه إلى أن مجلس الأمناء سوف يعينه مديراً ذو سلطات مطلقة ، وأنه من المؤكد يا زميلى العزيز أنى أعمل على أن تنال الفضل والجزاء الذى تستأهله . وعندما رحل هولابيرد فى سيارته الأنيقة(أنه كان يوضح غالباً أن زوجته وهو يستطيعان أن يحضرا سائقاً للسيارة ، ولـكنهما يفضلان أن ينفقا مصاريف السائق فى وجهات أخرى) شاهد مارتن تيرى ويكت وهو يتكىء على عمود خشبى كما لو كان هناك منذ ساعات ، وخطا تيرى وقال « مرحبـاً ، يانحيف ، أو كل شىء على مايرام ؟ دعنا نحضر الأشياء من داخل الجمرك ، وأنه ليسعدنى أن أراك والمدير تتعانقان ». وبينما كانا يسيران خـلال الشوارع المحاطة، بالأسوار فى بروكلين أستفسر مارتن : « كيف حال هولابيرد وهو يعمل مديراً ؟ وكيف حال جوتليب ؟ »

« أواه — أن هولا بيرد ليس أسوأ حالا من توبس أنه أكثر أدباً وأشد جهلاً ... أما أنا فأنظر إلىّ ، فى يوم من الأيام سوف أرحل إلى الغابات ، وأحصل على كوخ فى فيرموند ، هناك تذهب للعمل دون أن تعرض نتائجه على المدير لقد أودعونى فى قسم الكيمياء العضوية ، أمام جوتليب — »

وكان القلق يشيع فى صوت تيرى وهو يقول : « أعتقد أنه مضطرب ، فقد أحالوه على المعاش والآن أنظر إننى قد سمعت أنك ستكون رئيس قسم وأنا لن أكون سوى عضو منتسب — هل ستأتى معى أو ستذهب وتصبح أحد الأعضاء الكبار — أيها العالم البطل ؟ » .

وتنحى مارتن عن السخرية التى كانت سائدة بينه وبين تيرى وقال له : « أنا معك ياتيرى ، يا صديقى العزيز ليس لى أحد سواك فإن لورا وجوستاف قد فارقا الحياة وربما جوتليب الآن أيضاً ، ولذا فلابد من أن نتكاتف أنا وأنت ! » .

« إتفقنا ! » ، ثم تصافحا وسعلا وأخـذا يتحدثان عن القبعات المصنوعة من القش .

— ٥ —

عندما دخل مارتن المعهد أسرع نحوه زملاؤه لمصافحته والهتاف له ، وإذا كان ثناءهم جماً فإنه لم يكن هناك وقت يستطيع أن يهضمه أنسب من العودة إلى الوطن

وقد كتب سير روبرت فيرلامب خطاباً إلى المعهد أثنى فيه على مارتن ووصل الخطاب على نفس السفينة الذى وصل عليها مارتن . وفى اليوم الثانى سلمه هولابيرد للصحافة وكان مراسلو الصحف الذين لم يهتموا به كثيراً عند وصوله قد جاءوا لمقابلته شخصياً . وبينما كان مارتن متضايقاً مشمئزاً ، استصحبهم هولابيرد ، فاستطاعت الصحف أن تعلن أن أمريكا التى كان لها السبق دائماً فى إنقاذ العالم من شىء أو آخر قد قامت ونهضت بذلك من جديد . وذاع فى الصحف أن الدكتور مارتن أروسميث ليس فقط دكتور له براعة ساحره وتفوق فى التجارب العملية

بل هو أيضاً قاتل فئران لا يجارى ، وحارق قرى ، ومتحدث أمام المجلس الخاص ومنقذ من الموت،وساد فى ذلك الوقت ، فى أماكن معينة ، شك فى مدى احسان الولايات المتحدة على الإخوة الصغار فى المكسيك وكوبا وهايتى ونيكاراجوا — وقد اعترف المحرر ورجال السياسة لمارتن بالجميل إذ اثبت فى مجالاته مدى تضحياتهم وسمو مشاعرهم نحو أولئك الأخوة .

وكذلك تلقى رسائل من هيئة الصحة العامة ومن كلية مدوسترن التى أبدت رغبتها فى أن تخلع عليه لقب الدكتوراه فى القانون المدنى،ومن المدارس الطبية والهيئات التى طلبت منه أن يتصل بها وظهرت المقالات عن أعماله فى الصحيفة الطبية والصحف وبعث له رجل الكونجرس آلموس بيكربو برقية من واشنطن فى صورة شعرية ضمنها إعجابه .

ودعى مرة أخرى إلى العشاء فى ما كجورك ليس بمعرفة كابيتولا ولكن من روس ما كجورك الذى لم يكن اسمه قد لمع على هذا النحو . وقد رفض مارتن جميع الدعوات للتحدث وأجابت المنظمات التى دعته فى رقة انهم يدركون بأن الدكتور أروسميث مشغول للغاية وأنه إذا أتيحت له الفرصة فإنهم يتشرفون كثيراً بدعوته. وانتخب هولابيرد مديراً بكامل اختصاصاته لخليفة لجوتليب وحاول ان يستخدم مارتن كمشرف عام على المعهد . ودعا جميع الزوار الوجهاء وجميع الأجانب لرؤيته وبدا أنهم مغتبطون . وحاولوا أن يضعوا أسئلة ليجيب عليها ثم أصبح مارتن مدير القسم الميكروبولوجى الجديد . وصار يتقاضى مرتباً ضعف مرتبه القديم . ولم يكن قد تعلم الفارق بين الميكروبولوجى والبكتريولوجى . ولكنه لم يستطع أن يقاوم أى شىء من هذه التمجيد . وقد بهره وزاد ابتهاجه أن رأى ماكس جوتليب .

— ٦ —

فى صباح اليوم الذى تلا عودته اتصل تليفونياً بمسكن جوتليب وتحدث إلى مريام وحصل على إذن بزيارته فى وقت متأخر من بعد الظهر وعلى طول طريقه نحو المدينة كان يسمع جوتليب يقول :

« لقد كنت إبنى الوحيد .. اعطيتك كل شىء أعرفه عن الحقيقة والشرف ، ولـكنك خدعتنى . أغرب عن بصرى ! .

وقابلته مريم فى الصالة حانقة وهى تقول : « لست أدرى ماذا كنت أسمح لك بالدخول هنا على الإطلاق يادكتور »

« لـماذا ؟ أليس هو فى حاله جيدة حتى يرى الناس »

ليس ذلك هو السبب إذ لا يبدوفى الواقع مريضاًإنه مرهق لايعرف أىأحد، ويقول الأطباء أنها حالة ذهول عقلى بسبب الشيخوخة . وأنه قـد فقد ذاكرته . وقد نسى تماماً قدرته على التحدث باللغة الإنجليزية ولا يتحدث إلا بالألمانية . وأننى لا أستطيع التحدث بها وليتنى كنت درست الألمانية بدلا من الموسيقى . ولـكن ربما يكون من الخير بالنسبة له أن تـكون هنا فقد كان دائماً معجباً بك وأنت لا تدرى كم كان يتحدث عنك وعن التجارب الرائعة التى كنت تجريها فى سانت هوبرت .

« حسناً أنا — » ولم يجد شيئاً ليقوله .

« واقتادته مريام إلى حجرة غصت جدرانها بالـكتب وكان جوتليب غارقاً فى مقعد ممزق وكانت يده النحيلة فوق ذراعه .

وقال مارتن متمتماً : « يا دكتور أنه أروسميث لقد عاد تواً ..». فنظر الرجل العجوز كما لو كان قد أدرك إلى حد ما و حملق فيه ثم صافحه وهمس قائلا « كيف حالك ؟ » وقد غشت عيناه المتحجرفتان سحابة من الدموع البطيئة التى سالت رغماً عنه .

وأدرك مارتن أنه لا يمكن أن يعاقب الآن أو يستهدىء إطلاقاً ، وقد غرق جوتليب فى ظلمة عميقة ولما يزل يشق فيه .

— ٧ —

أغلق مارتن شقته — شقتها — بغضب بارد سريع خشية أن يجد بين مخلفات لورا ما يجعله يستسلم للبؤس حيث كانت آلاف من الأشياء قد أعادت ذكراها : الفستان الذى اشترته بمناسبة وليمة كابيتولا ماكورك ،الشيكولاتة التى قد أخفتها لتتذوقها سراً فى الليل . ومذاكراتها الخاصة .

واتخذ مارتن له حجرة قذرة فى أحد الفنادق ، واستغرق فى العمل فلم يكن أمامه شىء سوى العمل ، وصداقة تيرى ويكت القاسية .

كانت أولى مهامه أن يراجع إحصائياته عن العلاج فى سانت سويذن والأرقام الجديدة التى مازالت تأتى إليه من ستوكس . كان بعضها مزعزعاً وبعضها يفترض أن قيمة التطعيم قد تأكدت فعلا ، ولكن لم تكن هناك نتائج نهائية — وأخذ إحصائياته إلى ريموند بيرل الأخصائى فى الإحصائيات الخاصة بعلم الأحياء، ولذى كان استيعابه لها أقل من استيعاب مارتن نفسه .

وأعد فعلا تقريراً عن أعماله إلى المدير وأمناء المعهد ليس به نتائج سوى (أن النتائج فى انتظار التحليل الاحصائى والتى لابدمن وجودها قبل نشرها) ولكن هولابيرد جن جنونه فقد نشر الصحفيون عجائب وتدفقت الطلبات على مارتن ليرسل التطعيم ، والاستفسارات عما إذا كان لديه تطعيم ضد المرض الرئوى وأمراض الزهرى وعروض بأن يتولى علاج هذه الأوبئة .

وأشار بيرل أن نتائجه المناسبة فى تطعيم قرية كاريب جميعها لأول مرة أمر يستدعى الشك لأنه كان من المحتمل أنه عندما بدأ كان المرض قد تجاوز قمته . بهذا وبالتعقيدات الأخرى أخذ ينظر إلى عمله الشاق فى سانت هوبرت ببرود كما لو كان ادعاء رجل لم ير شيئاً. ولذا قرر مارتن أنه ليس لديه براهين كافية ومضى لمقابلة المدير .

كان هولابيرد لطيفاً ومهذباً بيد أنه تنهد وقال إذا نشرت هذه النتائج فلابد

له من أن يسحب كل الأشياء التى قالها عن الأمجاد التى أوهم أتباعه ببلوغها . كان لطيفاً ومهذباً ولكن كان حازماً وكان لابد لمارتن أن يتوقف (لم يقل هولابيرد « توقف » — وقال : « دع الأمر لى لبحثه أكثرمن ذلك »)عن نشر النتائج الإحصائية الفعلية وينشر التقرير فى إيجاز مبهم .

خرج مارتن وكان هولابيرد حازما فى لين ورقة،وأسرع مارتن إلى تيرى معلناً استقالته — وأنه يستنكر — وأنه سوف يفضح ـ نعم أنه سوف .. أنه لم يعد يعول لورا،سوف يعمل كاتباً فى محلات الأدوية سوف يعود فوراً ويخبر هذا الصفراغون المقدس ـ »

« هاى .. يا نحيف .. إنتظر دقيقة .. أكبح جماح نفسك ! »

واستطرد تيرى « فلتساير هولى لمدة ، وسوف نفكر فى شىء نفعله سوياً ونكون مستلقين وفى الوقت ذاته لك معملك معنا ، ومازال أمامك شىء من الكيمياء العضوية لتدرسه .. آه لم أقل شيئاً عن سانت هوبرت ولكن أنت تعلم وأنا أعلم أنك قد نهيت الموضوع على نحو غير طبيعى فهل يمكن أن تأتى إلى المجلس وأنت رجل نزيه إذا كنت تتهم الرجل الكبير ؟ وبالرغم من أننى أوافق أنه بغض النظر عن كونه مدنسا أو كاذبا أو متطفلاً وسط المجتمع أو منافق فإنه على حق ، فأكبح جماح نفسك وسوف ندبر بعض الأمور . أجل يابنى لقد كنا ندرس علومنا وسنبدأ العمل فى التو » .

ثم نشر هولابيرد بصفة رسمية تحت اسم المعهد تقارير مارتن الأصلية إلى الأمناء مع بعض المراجعات كتغيير « النتائج التى تحتاج إلى تحليل بينما تبدو التحاليل الإحصائية مقبولة وأن من الواضح أن هذا العلاج الجديد قد حقق ما كان يرجى منه تماماً » .

وجن جنون مارتن من جديد .. ومن جديد هدأ تيرى من روعه . وبغضب شديد يخالف شغفه فى الأيام التى كان يعرف خلالها أن لورا كانت تنتظره ، استأنف دراسته للكيمياء العضوية .

درس الأسرار الخفية الـكامنة فى تحديد درجة التجمد وتحديد درجة ضغط الانتشار الغشائى وحاول أن يطبق قوانين نورتوب للانزيمات على دراسة الفاج .

أنهمك فى القوانين الرياضية التى كان تنتج فيها ظواهر طبيعية . كان عالمه بارداً ودقيقاً ومادياً ومريراً بالنسبة لأولئك الذين أقاموا منطقهم على أساس الانطباعات . كان كل يوم يزداد احتقاره لهؤلاء الدين يحصون حجارة الرصف ويعيدون تسمية الأنواع ويجمعون البيانات الملفقة .. وفى غمرة انهماكه هـذا مرت الفصول الجميلة دون أن يحس بها . وفى ذات مرة أخذ يتجول هو وتيرى مارتن لمسافة مائتى ميل وسط تلال بنسلفانيا سالـكين الطرق الصيفية ، ثم ظهر بعد ذلك بيوم أن الوقت كان فى عيد الـكريسماس ، وأن هولا بيرد كان مرحاً ومهتما بالمعهد .

ربما كان غياب جوتليب خيرا لمارتن إذ أنه لم يعد يرجع إلى الاستاذ فيما يقوم به ، وعندما كانت تعترضه مشاكل مربكة كان يعد أجهزته الخاصة ، وبغض النظر عما إذا كان هذا راجع إلى براعة داخلية أو مجرد جد فى العمل فإنه كان كفؤاً حتى أنه نال ثناءاً جم من تيرى وهو يقول :

« ليس ذلك شيء على الاطلاق يازميلى » ويبدو أن الثقة التى ولد بهاما كس جوتليب قد واتت مارتن شيئاً فشيئاً بعد عثرات كثيرة ولـكنها جاءت .

كان يرغب فى أن يستخدم تـكنيك كامل فى البحث عن الحقيقـة الواقعة الأكيدة ، وكان يود مثل باتر « أن يحترق بلهيب حقيقى مثل الدر النفيس » . ولم يكن يرغب فى الشهرة والراحة فى الأماكن العامة ، ولـكن كان يود أن يبعد عن هذه الساخافات حتى لايلتبس الأمر عليه وتهن عزيمته .

كان هولا بيرد ، شأن توبس ، حائراً يعجب لتشعب عمل مارتن — ماذا كان يعتقد فى نفسه — هل هو عالم بكـتريولوجى أو عالم طبيعى حيوى ؟ ولـكن مارتن فاز على هولا بيرد بإقبال عالم العلوم على أول مقالة هامة لمارتن عن أثر أشعة أكس وأشعة جاما وأشعة بيتا على التطعيم المضاد للشيجا ، ولاقت قبولا واستحساناً

فى باريس وبروكسل وكامبردج وفى نيويورك ، وذلك نظراً لعمقها « ووضوحها ونظراً للاقبال البهيج والحماس الغير على وطريقة عرضها » على حد تعبير البروفيسور بركلى ورتز . ويبدو ذلك من اقتباس أول فقرة من المقال :

« فى نشرة إعدادية قد عرضت الأثر التدميرى الملحوظ للاشعاعات الناتجة عن انبعاث الراديوم على التطعيم البكتيرى ضد الشيجا » وفى النشرة الحالية نلاحظ أن أشعة أكس وأشعه جاما وأشعة بيتا تنتج أثرا غير منشط على هـذا التطعيم البكـتيرى . هذا فضلا عن أنه توجد علاقة كية بين هذا اللاتنشيط وبين الإشعاعات التى تنتجها . والنتائج التى يحصل عليها من هذه الدراسة الـكمية توضح أن نسبة عدم التشنيط كما تقاس بتحديد وحدات التطعيم البـكتيرى المتبقية بعد الاشعاع بواسطة أشعة جاما وبيتا ذات معدل معين من التسمم وهو مفعول النوعين المختلفين . والمعادلة الآتية توضح النسبة الـكمية للنتائج التجريبية المتحصل عليها :

$$\text{ك} = \frac{\text{ا ل و ج س}\;\frac{\text{ىو}}{\text{ى}}}{\text{ى و (ى — ا ت ى)}}$$

وعندما رأى الدكـتور هولابيرد هذه النشرة ـ وكان يوما كراً حين أخذها وطلب منه رأيه ـ

« رائع .. أوه .. أقول ببساطة رائع .. فقـد أتيحت لى الفرصة للاطلاع السريع عليها ، ايها الغلام الـكبير . وأنه لمن المؤكد أننى سأقرؤها بعناية فى أول فرصة تتاح لى » .

الفصل السابع والثلاثون

مرت أسابيع لم ير مارتن خلالها جويس لانيون بعد عودته إلى نيويورك. وفى ذات مرة دعته لتناول الطعام، ولكنه لم يستطع الحضـــور ولم يسمع عنها فيما بعد.

كان انهماكه فى تحديد الضغط النشائى لم يكن يرضيه وهو يجلس فى حجرته الأمامية فى الفندق، ولم يعد دكتور أورسميث بل أصبح إنسانا لا يجد من يتحدث إليه. وقد تذكر كيف جلسا بجوار المستنقع فى ضوء القمر، فاتصل بها تليفونيا يطلب ما إذا كان من الممكن أن يأتى إليها لتناول الشاى.

وقد علم بطريقة ما أن جويس إمرأة غنية، ولكن بعد أن رآها ترتدى إثياباً قطنية مخططة وتطهى فى مطهى ملجأ سانت سوذين لم يستطع أن يتبين مركزها تماماً ولم يكن مرتاحاً عندما أحس نه ، ـ ن أعمال العمل، ووصل الى منزلها العظيم فإلى أنها سيدة ذات صوت رقيق لديها كثير من الخدم. كان منزلها قصراً، والقصور سواء أكانت قصوراً صغيرة على شاكلة قصر جويس بحجراته الثمانية عشرة أو فى ضخامة قصر بكنجهام أو اتساع قصر فونتنبلو فإنها كلها قصور متشابهة، وكلها ملؤها العظمة والمجد، وكلها تامة متكاملة ليس بها ما يلفت النظر ولا يمكن التفريق بينها فيما يعمها جميعاً بشعور من الوقار والرونق الرائع، ولذلك فهى جميعاً تبعث على الملل. ولكنه وسط الروعة المصطنعة التى جمعها روجر لانيون لم تشعر جويس بالملل، ومن المشكوك فيه أنها وجدت متعة فى اطلاع مارتن على ماهى عليه حقيقة، وذلك بإظهار الخدم ومختلف الأنواع من الشطائر والتباهى قائلة «أوه، لا أعرف قط ماسوف يقدمونه لى مع الشاى.»

ولكنها رحبت به وهى تصيح قائلة: «أنك تبدو أكثر رونقاً وأناقة . . .

إننى سعيدة للغاية . . . هل مازلت أخى ؟ لقد كنت طاهية ماهرة فى الملجأ ألم أكن كذلك » !

ولو كان لبقاً وليطفاً لما اهتمت به بهذا القدر لقد كانت تعرف كثيراً من الأشخاص الظرفاء وذوى النشأة الطيبة القادرين على أن ينفقوا فى سبيلها أربعة أو خمسة مليون دولار ، ولكن مارتن كان مجرد عالم جعل تحديد الضغط الغشائى أمراً يثير الإنتباه ، أنه شخص رشيق تتخيل أنها تستطيع أن تهرب معه أو تقع فى حبه ، أنه شاب وحيد يعتقد أنها هنا فى هذه الطمأنينة الوادعة ، لازالت الفتاة التى جلست معه بجوار البحيرة وما زالت المرأة الشجاعة التى جاءته فى حجرة شراب فى بلاك ووتر .

كانت جويس لانيون تعرف كيف تجعل الرجال يتحدثون ، إذ انطلق — بفضلها لا بفضل فصاحته ـ يتحدث عن المعهد وأعضائه ونزاعهم ، ومأساة التسابق وهم بصدد اكتشاف ما .

وكانت حياتها اليسيرة هنا تبدو لا طعم لها بعد مغامرات سانت هوبرت واستطاعت أن تجد بهجة فى احتقارة للراحة والمكافآت .

كان يذهب إليها من وقت لآخر لتناول الشاى أو الطعام ، وقد عرف الطرق المؤدية إلى منزلها وخدمها وأصدقائها القريبين واستراحت نفسه إلى البعض منهم ومن المحتمل أن بعضهم استراح إليه . وكان بينه وبين أحد صدقائها ،حالةحرب غير معلنة هو « لاثام ابرلاند » وهو رجل فى الخمسين يرتدى ثيابا أناقتها تثير الآلام ، وهو محام كفؤ مغرم بالوقوف أمام المداهىء ، والشعور بالبراعة . لقد خلب لب جويس بأن أخبرها بأنها ذات دهاء ، ثم أخبرها بمواضع دهائها .

كرهه مارتن . وفى منتصف الصيف دعى لقضاء عطلة الأسبوع فى بيت جويس الريفى الرحب الزهر فى جرينتش ، وكانت تعتذر له قليلا عن أبهة منزلها أما هو فكان غير سعيد على الإطلاق .

إن جهد التأمل فى الملابس، وفى السعى لشراء البنطلونات البيضاء فى الوقت

الذى كان يريد فيه أن يغسل أنابيب الاختبار فى حمام الحرارة الدائم ، ومحاولة أن يبدو طبيعياً وهو فى داخل السيارة الليموزين التى قابلته عند المحطة ، وتحديد الخادم الذى يعطيه البقشيش ومقداره ، والوقت الذى يتم فيه ذلك . . كل ذلك كانت أمورتسىء الإنسانالبسيط . لقد أحس بأنه ريفى بعدما قال : « لحظة واحدة حتى أصعد لأفرغ حقيبة سفرى ».

وقالت بلطف : « أوه سوف يفعلون ذلك من أجلك » .

وقد اكتشف أن خادماً خاصاً قد خصص له لمعاونته فى ارتداء ملابسه فى ذلك المساء ، وأن أكوام الملابس الداخلية التى أحضرها جميعاً تقع فى مسئولية الخادم .. بل إنه ليعد له حتى معجون الأسنان على الفرشاة .

وجلس على حافة الفراش وهو يزمجر قائلا : « هذا ثراء أكثر مما احتمله » . وكره هذا الخادم الخاص وأخذ يخشاه إذ كان يأخذ فى سرقة ملابسه ويضعها فى أماكن لا ترى ثم يأتى مندفعاً عندما يكون مارتن يجول فى الحجرة بحثاً عنها .

وأهم ما كان يجعله غير سعيد أنه لم يكن أمامه شيئاً يفعله ولم يكن أمامه سوى لعبة التنس التى لم يكن يجيدها تماماً مع أولئك الناس المجهولين الذين كانوا يملأون النزل ، ومضى يلعب الجولف والبريدج فى رضى تام ـ وقابل قليلا من الأصدقاء الذين كانوا طالما يتحدثون عنهم ، فكانوا يقولون له :

« هل تعرف ر . ج العجوز » ويقول « أوه نعم »

ولكنه لم يكن يعرف ر .ج على الاطلاق . كانت جويس فى أبهما كها لطيفة، كما كانت عند تناول الشاى وحدها . وقد أوجدت له لاعباً أقل من مستوى مارتن فى لعبة التنس ، ولكن كان عندها عشرون ضيفاً ـ واربعون ضيفاً لتناول الغذاء يوم الأحد ـ وقد أقلع عن أفكاره فى أن يسير معها فى بعض الطرق النظيفة وبعد أن يتجاذب معها أطراف الحديث فى شغف قد يستطيع أن يقبلها . قضى معها لحظة واحدة . وعندما كان منصرفا قالت .

« تعال هنا يا مارتن » وأخذته جانباً .

« إنك لم تستمتع بالإقامة فعلا »

« لماذا ، من المؤكد طبعاً أنا — »

« بالطبع لم تستمتع وأنت تحتقرنا نوعا ما ، وربما تكون على حق إلى حد ما إنى احب الناس الظرفاء والسلوك الرشيق والألعاب المسلية ، ولكن أعتقد أنها ممتعة بعد قضاء ليال فى العمل » .

« كلا إننى أحبهم أيضا بطريقةما. إننى أحب أن أنظر إلى النساء الحسان. . إليك.. ولكن — اجل ياجويس لست فى هذا المستوى لقد عشت ايامى كلها فقيراً ومنهمكا فى عملى ولم اتعلم العابكم » .

« ولكن يا مارتن يمكنك ان تتعلمها ، بذلك التركيز الذى تستخدمه فى كل شىء » . « حتى السكر فى بلاك ووتر ! »

« وآمل فى نيويورك ايضاً ! .. عزيزى روجر كان يستمتع بمثل هذا الوقت الوقت البسيط المرضى الذى يسكر فيه عند تناول الطعام ، ولكننى اقصد انك إذا شئت فسوف تلعب الجولف والبريدج — والتحدث — احسن منهم .. لو عرفت إن الطبقة الأرستقراطية فى أمريكا تعتبر حديثة العهد للغاية .. مارتن ألا يكون ذلك خير لك ؟ألا يكون ذلك أفضل إذا بعدت من آخر لآخر عن جداول اللوغريتمات ، وهل ستسلم أنه ما من شىء تستطيع أن تتغلب عليه ؟ »

« كلا أنا — »

« هل ستأتى لتناول العشاء يوم الثلاثاء ، أنا وانت فقط ، وسوف نبحث الأمر ذلك جدياً ؟ »

« يسعدنى ذلك . »

ولمدة ساعات أثناء ركوب القطار فى طريقه إلى منزل تيرى ويكت لقضاء الأجازة فى تلال فيرمونت كان مارتن مقتنعاً أنه أحب جويس لاينون ، وأنه سوف يغزو

عالم التسلية ، كما غزا عالم الكيمياء العضوية وتصـــور نفسه فى شغف وجد وهو وهو جالس متصلباً فى المقعد بالعربة البولمان الأنيقة وحذاؤه فوق حقيبته إنه يرتدى رباط العنق الخاص بالنادى (والأرجح أنه لأول مرة يرتدى الرباط ويرتاد النادى) يلعب الجولف متسلياً بالبريدج والحديث عن العجوز ر . ج ، ومتفكها من سيارة الرولزرويس العتيقة الخاصة بالعزيز العجوز لاثام ايرلاند .

ولكنه نسى كل هذا الطموح عندما أتى إلى كوخ تيرى القابع بجوار بحيرة وسط اشجار البلوط والاسفندان ، وسمع عن نظريات تيرى الحقيقية الخاصة بتحليل مشتقات الكينين .

ونظراً لأن تيرى ، كما هو محتمل ، أقل المخلوقات عاطفية فقد سمى بيته «ملاذ الطيور » . وقد كان يمتلك خمسة أفدنة من أراضى الغابات تبعد ميلين عن السكة الحديدية ، وكان كوخه عبارة حجرتين من كتل الاخشاب ، وبها شقادف[1] كأسرة ومشمع للمنضدة .

وقال تيرى : « هنا الاستجمام يا زميلى ، وفى يوم ماسوف أفكر فى طريقة لإنشاء معمل هنا وذلك لصناعة السيرا أو أى شىء ، وسوف أقيم مبنيين آخرين فوق شقة بجوار البحيرة ويكون لى هنا مكان مستقل تماماً للعلم والتجارة والنوم والطعام وقراءة القصص الرخيصة . هذه الوريقات اثنين وستة واثنين تكون عشرة ولو إنى كنت ذا سلطة على الرياضيات فإن هذه الأوراق تأخذ أربعة عشر ساعة يومياً للأبحاث (إلا إذا كان هناك شىء خص) وذلك بعيداً دون مدير أو حماة المجتمع أو أمناء تحتاج أن ترضيهم باعداد تقارير سخيفة ... طبعا لن تكون هناك ولا ثم للعشاء مع سيدات فى ثياب أنيقة ، ولكنى أعتقد أنه سيكون فى مقدورنا ان ننتج لحماً مقدداً مملحاً ، وسيكون فراشك رائعاً إذا أعددته بنفسك . . هيه ؟ هيا بنا للسبح فى الماء . »

---

(١) المفرد شقدف ، وهو منامة مثبتة فى حائط .

وعاد مارتن إلى نيويورك وفى جعبته مخططات على طرفى نقيض ، أن يكون أحسن لاعب جولف ثيابا فى جرينتش ، وأن يقوم بطهى اللحــــوم مع تيرى فى « ملاذ الطيور »

ولـكن أول هذه الأمور هو أحدثها بالنسبة له .

(٢)

كانت جويس لانيون تستمتع بالتغير الذى طرأ ، فإن تجاربها فى سانت هوبرت وطبيعتها المتغيرة جعلتها غير راضية عن حياة روجر الآلية السريعة ..

لقد تركت للسيدة ماسيناز مهمة إغرائها بالقيام بعدة أعمال ، وتجاهلها لعدة أسباب وأخذت تتمتع بها كما كانت تتمتع تماماً بأعمالها الحربية التى لا هدف لها عام ١٩١٧ وحيث كانت جويس لانيون إلى حد ما «منظمة» وهو لقب اخترعه تيرى ويكت لـكابيتولا ماكجورك .

كانت جويس « منظمة » بل ومحسنة ، ولـكنها لم تـكن كابيتولا . فإنهـا لم تـكن تستخدم المروحة المصنوعة من الريش ولم تـكن تتحدث بلهفة أو تبرز مشاعرها الجنسية فى أحاديثها ـ كانت لطيفة وبديعة أحياناً ، وبها طباع النمـور بالرغم من أنها كانت بعيدة كل البعد عن النظرات والعواطف المشينة وحب الحرير الأسود ، كما كانت بعيـدة عن فتور كابيتـولا ، وكانت تحب الحرير الأبيض والبشرة البضة .

وكانت تضع فوق كل الأسباب لتقدير مارتن على حقيقة أن الوقت الوحيد فى حياتها الذى أحست فيه إنها مفيدة ومستقلة كان عندما كانت تعمل طاهيـة فى الملجأ . كان من المحتمل أن تنجرف فى التيار إلى عالم اللهو لولا وجود لاثام ايرلاند المحامى العاشق وقد أشار قائلا :

« يا جوى .. إن وجود هذا الدكـتور أروسميث يبدو شيئاً ثقيلا مذهلا فى هذا المـكان ، مثل خالك اللطيف ـ »

« يا عزيزى لاثام ، إننى أوافق تماما أن مارتن عدوانى جداً وغير مستساغ على الاطلاق وأنانى للغاية ومعجب بذاته إلى حد ما ويتحذلق تماما ، وقصانه فظيعة ، وأعتقد نوعا ما إننى سوف أتزوجه ، واعتقد أننى أحبه تقريبا . »

وقال لاثام ايرلاند : « ألا يكون مركب سيانيد هو أعظم طريقة للانتحار؟»

(٣)

إن شعور مارتن تجاه جويس كان شعور أى أرمل فى الثامنة والثلاثين من عمره تجاه أرملة صغيرة جميلة لبقة تصغى إلى حكمته باهتمام . أما بالنسبة لثروتها فإنه لم يكن هناك مشكلة بشأنها على الإطلاق ، فلم يكن إنسانا يتزوج نقوداً .. نعم .. كان يربح عشرة آلاف فى العام ، وهو مبلغ يزيد عما يلزمه ليعيش بمقدار ثمانيــة آلاف .

كان يشك أحيانا فى اعتمادها على الرفاهية وبطريقة بارعة طلب بدلا من تناول الطعام فى قاعتها الفخمة ذات الطراز اليعقوبى أن تأتى معه فى الحلة التى تناسب مستواه . وجاءت بحماس وتوجها إلى مطاعم قرية جرينتش التى تضاء بالشموع والخدم المهرة ولا يوجد بها طعام أو إلى نشيناتون حيث يغرقون فى تناول الطعام ليس إلا ، وقد أصر على أن يسلـكا الطريق الفرعى ــ رغم أنه بعد تناول الطعام كان ينسى دائما أنه اسبرطى ، ويطلب ان يستقلا سيارة أجرة . ولقد قبلت ذلك كله دون أى استياء أو تعليق .

ولعبت معه التنس فوق سطح منزلها ، وعلمته لعبة البريدج ،التى بتركيزه وذاكرته، أصبح يلعبها بسرعة وبطريقة أفضل وصار يستمتع بها على نحو عجيب. وقد أغرته أن له ساقا قوية ويبدو حسن المظهر فى ملابس الجولف .

وجاء ليصطحبها معه لتناول الطعام فى إحدى أمسيات الربيع الهادئة وكانت سيارته الأجرة تنتظر .

وقالت « لما لا نتبع الطريق الفرعى ؟ »

كانا يقفان عند مدخل باب منزلها فى شارع متفرع من فيفث أفينو مهيب المنظر وإن لم يبد عليه سيماء الجمال .

« أوه إنى أكره الشوارع الفرعية المتعفنة كما تكرهينها أنت فهناك ما يثير نفسى ولا يساعدنى على التفكير فى التجارب وأعتقد عندما نتزوج سوف نستمتع بسيارتك الليموزين .

« هل هذه خطبة ؟ لست متأكدة على الاطلاق إننى سأتزوجك . حقا إنك خال من الإحساس بالترف ! »

وفى شهر يناير التالى كانا قد تزوجا فى كنيسة سانت جورج . وقد أزعج مارتن كثرة الزهور ومنظر القسيس والأقارب ذوى الأصوات العالية والقبعة الطويلة التى طلبت جويس أن يرتديها كما كان يشمئز من ريبلتون هولابيرد وهو يمسك بيده وينظر إليه نظرة معناها :

« أخيراً يا صديقى العزيز خرجت من همجيتك وأصبحت واحداً منا » .

وطلب مارتن من تيرى أن يكون أحسن صديق له ورفض تيرى وأصر أنه سيأتى متأسيا إلى حفل الزفاف . . إن أحسن صديق له كان الدكتور وليام سميث الذى شذب ذقنه لهذه المناسبة وارتدى ملابس حداد كئيبة وقبعة عالية كان قد اشتراها من لندن من إحدى عشر سنة ، ولكن كلاهما كانا فى أمان فى رعاية ابن عم جويس الذى كفل مزيداً من المناديل والمشاركة فى موكب الزفاف . وكان يحسب أن مارتن خريج جامعتى جروتون وهارفارد . وعندما اكتشف انه خريج وينماك فحسب، بدأ الشك يتسرب إليه . وبينما كانا على ظهر السفينة بعدئذ تمتمت جويس وهى تقول : « يا عزيزى .. لقد كنت جريئا ، وإنى لم أكن أعرف كم كان ابن عمى ابلها .. قبلنى .. »

وبعد ذلك فوراً ، فيما عدا لحظةمفزعة عابرة طاف فيها شبح لورا ، بينهما ، كانت عيونها مغلقة ويداه متقاطعتان فوق صدرها البارد الشاحب .. كانا سعداء واكتشف كل منهما فى الآخر أساليب مغامرة جديدة .

(٤)

ظلا ثلاثة شهور يجوبون خلالها أوربا .

وفى أول يوم قالت جويس « دعنا ننسى أمر النقود ، وهو ذلك الأمر الوحش وأعتقد أنك لست من المرتزقة وإنى قد اودعت ١٠ آلاف دولار لحسابك فى بنك لندن ـ أجل ، وخمسين ألفا فى بنك نيويورك ـ وإذا كنت تود عندما يكون أمامك شيء تفعله من أجلى يسعدنى أن تسحب منه ـ لا ٠٠ انتظر ٠٠ ألا ترى كم أحاول أن أجعل الأمور تمضى فى يسر واعتدال ؟ إنك لن تسيء إلى عندما تحمى احترامك لذاتك . »

(٥)

وبدا أنه يجب ان يقيما فى الواقع مع الأميرة « دل اولتراجيو » (التى كانت سابقا الآنسة لوسى ديكى بيسى التى كانت تعيش فى دايتون)ومدام دى باسى لوجوس (الآنسة براون من سان فرانسسكو) والكونتس مارازيون (التى كانت قرينة آرثر سنايب فى البانيا سابقا وأشياء أخرى من قبل ذلك) ولكن جويس ذهبت معه لترى المعامل العظيمة فى لندن وباريس وكوبنهاجن وكانت تشعر بالعظمة وهى تلاحظ حائزى جائزة نوبل يستقبلون زوجها ٠٠ وعلمت منه أنهم يرغبون فى أن يكونوا نابهين مثلة فى فن التطعيم ، وعرضوا عليه اعمالهم التى قاموا بها فى عدة سنوات . ورأى أن بعضا منهم متسرع عديم الحكمة . واعتقدت أن زوجها أنبغ إنسان فيهم جميعا وأنها لو صبرت فسوف تجعله سيد لعبة البولو والملابس الأنيقة ولسوف يتغير تغيرا رائعا ، ولكنه بالطبع يزاول عمله فى مجال العلوم .. وكان مما يؤسف

له أنه لم يكن فى مقدوره أن يحصل على رتبة الفروسية مثل واحد أو اثنين من العلماء البريطانيين الذين التقيا بهم ولكنه حتى فى أمريكا نفسها كانت هناك درجات نخرية ·

وبينما كانت تكتشف وتهضم العلوم كان مارتن يكتشف النساء .

— ٦ —

وبينما كان يعى فى ذاكرته مادلين فوكس وأوركيد بيسكربو اللتان كانتا من الفتيات الأمريكيات الجميلات كما كان يطوف بذهنة أطياف سيدات من نساء الليل ، ويذكر لورا التى لم تكن فى تراخيها وعدم مبالاتها بالزينة والشهرة إمرأة أو زوجة بل كانت نفسها فقط ، بينما كان مارتن يعى كل ذلك فإنه لم يكن يعرف شيئا يذكر عن النساء . . . . كان تعود أن يتوقع أن لورا تنتظره وتعطيه وتلبى رغباته وتفهم بمجرد الإشارة ماذا ينوى أن يقول . . لقد دلل ، ولم تكن جويس وجلة من أن تصرح له بذلك .

لم يكن فى طبيعتها أن تجلس متأملة دون أن تنبس بكلمة ، بينما هو وزملاؤه من الباحثين ينظمون العالم ، وفى كثير من الاضطراب لاحظ أنه حتى خارج حجرة نومه لابد أن يرعى تقلبات وتغيرات زوجتـــه كامرأة وفى بعض الأوقات كامرأة ثرية .

كان يلتبس الأمر على المرء ليرى كيف كانت لورا مخلصة ولكنها لم تكن تعبأ بأى طريقة يقول لها صباح الخير وكيف كانت جويس غير عابئة بعدد النساء اللائى يكون قد أحبهن مادام لم يسىء إليها (بأن يبادلهن الحب فى حضرتها) ولكنها طلبت إليه أن يقول لها صباح الخير كما لو كان يعنى التحية . وقد كان يجعل الأمر يلتبس على المرء أن يرى كم كانت تفرق بين تدليلاته عندما يكون منهمكا فيها وبين اهتمامه السريع عندما كان يريد أن يذهب لينام وأنها لتستطيع كما قالت ، أن تقتل رجلا يعتبرها متاعا مريحا وأكدت بلهجة تبعث على القلق

كلمة (القتل) . كانت تتوقع أن يتذكر يوم ميلادها وتذوقها للخمر وحبها للزهور واعتراضها على مشاهدة عملية حلاقة ذقنه . كانت تريد أن يترك العنان لنفسها ، وأصرت أن يطرق الباب قبل أن يدخل ، وتساءلت ما إذا كان يعجب بقبعاتها .

وعندما كان منكبا على العمل فى معهد باستير ، حتى أنه كان لديه عامل تليفون ، لدرجة أنه لم يكن قادرا على أن يقابلها لتناول العشاء ، أثار ذلك حنقها .

« أجل يجب أن تتوقعى ذلك » ومضى يفكر وهو يشعر أنه كان لبقا وصبورا وقوى البصيرة . وكان يضايقه أحيانا أنها لا تفكر فى أن تتنزه معه بوازع من نفسها . وبغض النظر عن قصر النزهة كانت لابد أن تذهب أولا إلى حجرتها لتأخذ القفاز الأبيض ، وتقف فى هدوء هناك وهى تحاول إرتدائه . وفى لندن جعلته يشترى جرموقا[1] قصيرا وأن يرتديه

لم تكن جويس منظمة فحسب ، بل كانت مخلصة شأن جميع الأمريكين المقيمين بالعاصمة كانت تحترم جميع الأمراء الإنجليز وتعرف مستوياتهم وتعتنق مذاهبهم أو ما كانت تعتبرة مستوياتهم وعقائدهم ـ وكانت تعتد بمقابلتها بهم وبعد ثلاث أعوام ونصف من حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨ كانت لاتزال تقول أنها تشمئز من جميع الألمان وقد حدثت المعركة الكبيرة الوحيدة التى وقعت بينها وبين مارتن عندما رغب أن يرى المعامل فى برلين وفيينا .

ورغم جميع خلافاتهم كانت رحلة روما نتيكية مقدسة ، وصار حبهما طليقا عنيفا . مضيا يتجولان خلال الجبال ثم يعودان ليمرحا فى حجرات الحمام الواسعة وسهرات العشاء الباذخة ، وكان يتسكعان أمام المقاهى ، بيد أنه عندما كان يغرق فى الصمت حين يتذكر كم كانت لورا تحب أو تود أن تجلس أمام مقهى فى فرنسا لايلبث كل منهما أن يظهر للآخر مايدور بخلده .

أن جميع أوربا ، أو ربتها التى كانت تعرفها وتحبها دائما ، قدمتها جويس

---

(١) الجرموق ضرب من الجوارب .

لمارتن بسخاء ولما كان دائما سريع التأثر بالألوان الدافئة والإثارات اللطيفة ، عندما لا يكون مشغولا بعمله للغاية، فقد ازجى لها الشكر ،وبدا كما لو كان طفلا فى إعجابه واعتقد أنه سيتعلم أن يواجه الحياة فى يسر وسهولة وجمال. ومضى ينتقد تيرى ويكت (ولكن بينه وبين نفسه فقط)لريفيته . وهكذا فى حومة الفراغ الذهنى عادا إلى أمريكا وإلى ما بها من أحاديث حول تحريم الخمور ومداولات رجال السياسة بشأن حماية إحتكار الصلب من الشيوعيين . ومضيا يتحدثان عن البريدج والسيارات ، ثم عن تحديد ضغط الإنتشار النشائى .

الفصل الثامن والثلاثون

إن المدير ريبلتون هولا بيرد قد تزوج المال هو أيضاً ، وكلما كان زملاؤه يذكرون أنه منذ أن بدأ عمله بنشاط فى علم وظائف الأعضاء لم يفعل شيئاً سوى أن ينسق الزهور على الموائد التى أعدها آخرون ، كان يشعر بالرضى إذ يرى هؤلاء المتعفنين يصلون إلى المعهد سيراً على الأقدام عن طريق النفق الأرضى بينما كان هو يقود بأناقة عربته المغلقة . ولكن فى الوقت الحاضر صار أروسميث ، الذى كان فى يوم ما أكثرهم فقراً ، يقدم فى سيارة ليموزين يقودها سائق يبجله حق التبجيل ، مما أقض مضاجع هولا بيرد .

كان فى مارتن بساطة ولكن لا يمكن أن ننكر أنه استشاط غيظاً عندما زمجر هولا بيرد فى وجه السائق .

كان شعوره بتفوقه على هولا بيرد أقل شأناً من أن يقدر على استضافة أنجوس ديور وقرينته اللذان وفدا من شيكاغو ليقدمهما إلى المدير هولا بيرد ، إلى سليمان ملك الجراحة والمملكة الطبية . وقد قال أنجوس :

« يامارتن لعلك لا تعبأ بقولنا أننا جميعاً فخورين بك فأن راونسفيلد كان يحدثنى عن ذلك بالأمس فقال (قد يكون ذلك من قبيل الغرور . ولكن ربما يكون التدريب الذى أعطيناه الدكتور أروسميث هنا فى العيادة الطبية قد ساهم إلى حد ما فى عمله الرائع فى الهند الغربية وفى ماكجورك) يالها من امرأة أنيقة زوجتك هذه أيها الرجل العجوز — ألا ترى أنها لا تعبأ بأن تخبر السيدة ديور من أين أتت بهذا الفستان ؟ »

لقد سمع مارتن عن غلبة الفقر على الرفاهية ولكنه بعد الوجبات التى تناولها فى سيارة موهاليس . وبعد الإثنى عشر عاماً التى قضاها فى مساعدة لورا فى توفير نفقات الغسيل والكى والإنشغال بسعر شرائح البقر . وبعد حياة أمضاها فى انتظار الترولى فى الشارع لم يكن من المسىء إطلاقاً أن يكون له خادم خاص يقدم له القمصان

آليا . ولم يكن إطلاقا مشينا أن يتناول وجبات بديعة وأن يسترخى فى إرتياح وفى رفاهية فى سيارته الخاصة مريحاً رأسه المكدود على الوسائد الناعمة . ومفكراً كم كان حاذقاً دأوباً فيما مضى .

وقالت چويس: «لعلك ترى أن تركك آخرين ليتولوا القيام بأمورك البسيطة يمكن أن يوفر جهودك لأشياء لا يستطيع أن يفعلها سواك » .

وافق مارتن واستقل سيارته إلى وستشستر لتلقى درساً فى الجولف .

وبعد عودته من أوروبا بأسبوع ذهبت معه چويس لترى جوتليب . وكان يعتقد أن جوتليب قد أفاق من غيبوبته ليبتسم لها .

وقال مارتن فيما بينه وبين نفسه : « أولا وقبل كل شيء إن الرجل العجوز يؤثر الأشياء الجميلة . وأنه لو اتيحت له الفرصة لكان يفضل مؤسسة كبرى أيضا ».

وكان تيرى بشوشا على نحو عجيب فقال : « أقول لك يازميلى إذا وددت أن تعرف . فأنا شخصياً أكره أن أعيش إعتماداً على الخدم . بيد أن السنين قد تقدمت بى وصرت ارجح عقلا واعتقد ان الناس يختلفون كإختلاف الأشياء وأن قليلا منهم للغاية لديهم إحساس بأن يأتوا ويسألونى ماذا يجب أن يحبوا. ولكن شرفاً يازميلى لا احسب اننى سأحضر العشاء ولقد ذهبت واشتريت بدلة — اشتريتها ! احضرتها فى حجرتى — وعليها اللعنة صاحبة المنزل فإنها لا تكف عن ان تملأها بحبوب العتة — ولكن لا اعتقد اننى استطيع ان اتحمل إستمرار سماعى عن لاثام ايرلاند بأنه نابه » ولكن مع ذلك كان وضع هولا بيرد هو ما يثير اهتمام مارتن ، لأن هولا بيرد لم يجعله ينسى انه مالم يرغب ان ينجرف وان يصبح مجرد الزوج الظل لامرأة غنية فإنه يفعل خيراً إذا تذكر دائما من هو الآمر الناهى .

ومع سلوكه الوديع الذى كان يكنه لروس ما كجورك كان هولا بيرد ينمى فى نفسه عادة عدم الألفة ونقص الإحترام الإنسانى الذى يمتاز به رجل الأعمال . اما الناس الذين كانوا ينتهزون فرصة معرفته خلال ايامه الحوالى السعيدة فقد

كان يلزمهم أماكنهم فى أدب . رأى ضرورة التحكم فى عدم التبعية عندما ظهر أروسميث فى سيارته الليموزين. لقد تركه أسبوعا واحداً بعد عودته للتمتع بالسيارة الليموزين ثم زاره فجأة فى معمله : وتنهد قائلا : « يامارتن إننى أرى أن صديقنا روس ماكجورك يبدو غير راض بعض الشيء عن النتائج العمليه التى تأتى من المعهد ولكى اقنعه فإننى اخشى انه لابد حقا ان تخفف من التركيز على التطعيم بالبكتريا حاليا وأن تهتم بالأنفلونزا . وأن معهد روكفلر لديه الفكرة الصحيحة وأنهم قد استخدموا أعظم نتاج عقولهم ، وأنفقوا كثيراً من الأموال على بعض المشاكل كالتهاب الرئة والتهاب الغشاء السحائى والسرطان ، وتمكنوا فعلا من تخفيف حدة إلتهاب الغشاء السحائى والالتهاب الرئوى والحمى الصفراء وعلى وشك القضاء التام عليها عن طريق أعمال نوجوشى ولست أشك أن مستشفياتهم بإمكانياتها الضخمة والعقول المتعاونة الرائعة سوف تكون الأولى فى إكتشاف شيء سيخفف من حدة مرض البول السكرى ٠ والآن أدرك أنهم مهتمون جداً بمسألة الأنفلونزا فإنهم لن يتيحوا إنتشار وباء كبير بسببها ٠٠ أجل ياعزيزى الشاب إن الأمر فى يدنا الآن للتفوق عليهم فى الانفلونزا . وقد اخترتك لتمثلنا فى هذا السباق » ٠

كان مارتن فى تلك اللحظة تدور بخلده فكرة إعادة إنتاج التطعيم على البكتريا الميتة. ولكنه لم يرفض ولم يغامر فى التخلى ، فقد كان غنيا جداً ٠ مارتن هذا طالب الطب المرتد عن الدين قد تعثر وأصبح تابعا ٠٠ ولكن إذا كان زوج جويس لانيون سوف يغرق فى مثل هذا الجنون فإنه سوف يتبعه مراسلى الصحف وتؤخذ له الصور فى تبعيته وكانت فرصته مازالت ليكون مجرد زوجها الذى تموله، خادم مخدع سيدة الدار .

وقد سلم بقوله بيدأ أنه لم يكن راضيا جداً . وبدأ يعمل فى تجارب الانفلونزا وهو متردد نوعا . وفى المستشفى استطاع أن يحصل على مزارع من حالات قد يعتبرها إنفلونزا وقد تكون حالات برد شديد — ولم يكن أحد يعلم جيداً أعراض الانفلونزا . ولم يكن هناك شيء واضح للعالم تماما ٠ وقد ترك جزءاً كبيرا من العمل ليتولاه مساعدوه وكان من وقت لآخر يوجه إليهم تعليمات تهكمية (لتضعوا مائة أنبوبة

من درجة الحرارة العالية نوعاً ـ كلا اجعلوها ألفاً)وعندما وجد أنهم يفعلون كيفما يشاءون لم يكن يشعر أنه محق أو كاذب،وإنه إن كان لم يتخل عن الأمر،فإن ذلك لأنه لم يكن قد أقدم عليه . وأن معمله الصغير كان نظيفاً للغاية كمطهى نيوها مبشير .وقد أمست الحجرات المتعددة التى يستخدمها ذات منظر شائن إذ أن بها صفوفاً من أنابيب الاختبار المتروكة وكثيراً منها نصف مملوءة بمواد متعفنة ، ولم يكن أحدها مرقماً بالرقم الصحيح .

ثم بدت له فكرة ، وبدأ يعتقد فى حزم أن باحثى روكفلر قد اكتشفوا سبب الانفلونزا واندفع مسرعاً إلى هولا بيرد يخبره بذلك أما بالنسبة له فإنه عاد لمزاولة أبحاثه عن الطبيعة الحقيقية للفاج .

واعتقد هولا بيرد أن مارتن مخطىء ،وإذا كان هولا بيرد يريد أن يكون لمعهد ماكجورك ـ ومدير معهد ماكجورك ـ السبق فى القضاء على الانفلونزا فإن ذلك الآن لم يعد ممكناً إذا سبقهم فى ذلك روكفلر . وقد ذكر أشياء هامة عن التطعيم (الفاج)ثم أوضح أن طبيعته الجوهرية هى مسألة أكاديمية .

ولكن مارتن كان الآن أكثر من مستشار علمى لهولا بيرد الذى استسلم واعتكف فى عرينه « أو هكذا كان مارتن يعتقد » وذلك لرسم وسائل جديدة لتكدير صفوه . ومرة أخرى تركت لمارتن الحرية ليغوص فى العمل .

وقد اكتشف وسيلة لإعادة إنتاج الفاج من البكتريا الميتة ،وذلك باستخدام معقد جداً ودقيق جداً لضغط اكسيد الكربون الجزئى لثانى اكسيد الكربون .

وأثار تقريره عالم المعامل ، وهنا وهناك (فى طوكيو وأمستردام وفى ونياك) وأعتقد المتحمسون انه قد أثبت أن الفاج عضو حى ،وقال بعض المتحمسين الآخرين فى لغة خفية مدعمة بمعادلات ماضية انه كاذب واحمق إنسان .

فى ذلك الوقت كان من المحتمل ان يصبح رجلا عظيما ولكنه التى جانبا معظم أعماله كما أهمل بعض واجباته كزوج لجويس لكى يتبع تيرى ويكت

الذى كان يبدو أنه ينقصه الإدراك السليم ، لأن تيرى كان لا يزال مساعدا بينما هو نفسه قد صار رئيس قسم .

اكتشف تيرى ان بعض مشتقات الكينين عند إدخالها فى جسم الحيوان تتحول ببطء إلى منتجات شديدة التسمم بالنسبة للبكتريا ومعتدلة التسمم بالنسبة للجسم ، وهذا ينبىء بعالم كامل جديد من الطب ، وشرح تيرى ذلك لمارتن ودعاه إلى المشاركة وابتهاجا بهذه الأشياء الخطيرة كان لابد أن يتركا هولا بيرد وجويس ، وبالرغم من أن الوقت كان فصل الشتاء فانهما توجها إلى كوخ تيرى (ملاذ الطيور) فى تلال فيرمونت وبينما كانا يلبسان أحذية الثلج ويصطادان الأرانب ، وبينما كانا طوال الأمسيات المظلمة الطويلة ينبطحان على بطونهم أمام الموقد ، كانا يتحدثان ويرسمان الخطط .

ولم يكن مارتن يعيش حياة مترفة حتى أنه لم يستطع أن يستمتع بلحم الخنزير المملح بعد الرياح الشمالية الغربية والجليد ، ولم يكن من غير الممتع أن يحرر تفكيره من اختراع ألوان جديدة من التحيات لجويس .

كان عليهما وكان أمامها أن يجيبا على سؤال هام :

هل مشتقات الكينين تتفاعل بالاتصال بنفسها بالبكتريا أو بتغيير عصارات الجسم ؟ . . . كان سؤالا بسيطا واضحا ومحددا يتطلب للإجابة عليه أعظم معلومات الكيمياء وعلم الأحياء وعدة مئات من الحيوانات لتجرى عليها التجارب وربما عشرة أو عشرين أو مليون سنة من المحاولات والفشل .

وقد قررا أن يعملا باستخدام الجراثيم الرئوية وبالحيوان الذى ينتج تقريبا جراثيم آدمية ، وقصدا بذلك القرد . وكان قتل قرد أمرا يكلف كثيرا من المال ، وهو عمل قاس نوعا ما... كان من الممكن أن يعدهم هولا بيرد بوصفه مديراً بما يريدان ولكن إذا ماطلبا إليه ذلك فإنه سوف يطالبهما بنتائج فورية .

وفكر تيرى مليا : « لابد من أن يكون هناك أحد من الفائزين بجائزة نوبل يازميلى ، واحد من هؤلاء الخيالين الذين يتطلعون إلى الجوائز وينفقون كل

كل أموالهم على الشمبانزى والقردة الأخرى ، ويشترون الطيور الخفاقة العجوزة ويعنون اولئك الذين يقتلونها ،ويسوى مشكلة نقل جراثيم الزهرى إلى الحيونات الأدنى . ولـكننا لم نحصل على إحدى جوائز نوبل ، ويؤسفنى أن أخبرك انه لا يراودنى الأمل فى . . . »

« ياتيرى سوف أفعل ذلك إذا كان الأمر ضروريا انى لم أتطفل بعد على جويس ولـكننى سوف أتطفل الآن إذا أصر الصفراغون المقدس على الرفض »

— ٢ —

واجها هولا بيرد فى مكتبه عابسين، وبطريقة صبيانية نوعاً ما طلبا منه ثمن بعض القرود وهو مبلغ يقدر على الأقل بعشرة آلاف دولار .. وكانا رغبان البدء فى بحث قد يستغرق عامين بدون أى نتائج واضحة ـ ومن المحتمل بدون أية نتائج وكان لابد أن ينقل تيرى إلى قسم مارتن ليعمل مديراً مساعداً ويقتسما مرتبهما بالتساوى .

ثم استعد للنزال وسوى شـاربه وقد تنحى عن شخصيته العظيمة كمـدير وتحدث قائلا :

« انتظرا لحظة إذا تفضلتما، لقد أوضحتما لى كما فهمت انه: احياناً يكون من الضرورى أن نحتاج إلى بعض الوقت للبحث والتجارب ويجب ان انبئكما فى الواقع اننى كنت سابقاً باحثاً فى معهد يسمى ما كجورك وتعلمت كثيراً من هذه الأشياء بنفسى يا للجحيم يا تيرى . وأنت ايضاً يامارتن لا تـكن أنانياً. فإنك لست العالم الوحيد الذى يود أن يعمل بدون إزعاج، فلو علمتما أيها المساكين الصغار كم أتوق الى الهروب من توقيع الخطابات وأحاول أن أعود مرة أخرى إلى إستعمال آلة التسجيل لضربات القلب ـ تلك الساعات الطوال الجميلة التى نقضيها بحثا عن الحقيقة . ولو علمتم كم كنت أعارض الأمناء من أجل إيجاد الفرصة لتحريركما ... وعلى أية حال سوف تحصلان على القردة التى تريدونها وعليكما أن تحددا القسم الذى يلائمكما ، وابدءا أعمالـكما على الفور بما يثبت اجتهادكما . وانى لا أعتقد أنه فى عالم العلوم لا يوجد اثنان مثلـكما يمـكن الاعتماد عليهما » .

وقف هولا بيرد منتصبا أنيقا شجاعا يمد يده إلى الأمام فصافحاه على استحياء ثم انفضا وقال تيرى مزمجراً : « لقد أفسد على يومى كله ، فليس أمامى شيء واحد ابحث عنه .. يازميلى .. أين الفائدة ؟ إنى واثق تماماً أنه لابد أن هناك فائدة — ولابد أن يكون هناك فائدة !

وفى عالم من العمل المقدس لم تظهر الفائدة .. لقد جاءتهما القردة والمعامل والخدم ووقت الفراغ المتصل . بدآ أكبر عمل مثير عرفاه ، ومن المؤكد أنه من أكثر الأعمال المثيرة للاعصاب ، إذ أن القرود حيوانات غير معقولة وهى تفرز أمراض السل بدون مسبب أيا كان ، أما من ناحية التأثر فإنها سريعة العدوى بالأوبئة ، ثم بعد ذلك تصرخ وتوجه اللعنات لأسيادها بسبع لغات .

وقال تيرى متنهدا : « إنها دائما لا تستقر على حال ويخيل إلىّ أن أطلق سراحها لتستريح فى « ملاذ الطيور » لتزرع البطاطس .. لماذا نقتل كائنات حية كالقرود لننقذ البشر ذوى البطون الكبيرة من الالتهاب الرئوى ؟

إن أولى مهامهما هى تحديد الجرعة التى يمكن تحملها من مشتقات الكينين بالضبط ودراسة أثرها على الرؤية والسمع وعلى الكلى كما هو مبين من مقادير لا نهاية لها من سكر الدم وبولينا الدم . وبينما كان مارتن يقوم بالتطعيم ويشاهد التأثيرات على القرود ؛ وقد استغرق فى الكيمياء وكان تيرى يكد ويكدح (طوال الليل وطوال اليوم التالى ثم يتناول جرعة الشراب ثم إغفاءه ، ثم يوالى السهر ثانية) فى سبيل طرق تركيب مشتقات الكينين .

كانت تلك أصعب فترة فى حياة مارتن ، فقد كان يعمل وهو يترنح من النوم طوال الليل وينام فوق منضده عارية عند الفجر ويتناول طعامه على مائدة قذرة . كانت كل تلك الأمور طبيعية ومسلية ولكنه كان من المستحيل أن يوضح لجويس لماذا لم يتناول طعامه معاموؤراً عليها مائدة محام كان جده يعمل حاكما اتحادياً . وقد نال شيئاً من التسامح بايضاح أنه كان حقاً تواقاً إلى أن يقبلها قبلة المساء وأنه يقدر سلة الشطائر التى أرسلتها إليه وأنه على وشك أن يقضى على الالتهاب الرئوى من الجنس البشرى ، وكان ذلك تقريراً يشك فى صحته .

ولـكن عندما تغيب عن تناول الطعام لأربع مرات متوالية صاحت غاضبة وهى تقول : « هل تتصور كم كان الأمر مفزعاً للسيدة ثورن أن يتغيب أحد الرجال فى اللحظة الأخيرة ؟ »

وعندما صاحت تقول : « إننى لم أهتم كثيرا بأخطائك فى الليالى الأخـيرة ولـكن هذا المساء وأنا ليس أمامى شىء أفعله وأجلس فى المنزل وحدى فى انتظارك » ـ حينئذ تلوى من الألم .

بدأ مارتن وتيرى يحدثان الالتهاب الرئوى فى القرود ويقومان بعلاجها وقد تحقق لهما نجاحا جعلهما يبتهجان ، فقد اسـتطاعا أن ينقذا القرود من الالتهاب الرئوى بطريقة أكيدة عندما كانا قد حقناها منذ يوم وأنقذا معظمها فى اليوم الثانى أو الثالث .. وكان هناك التباس يشوب نتائجهما إذ أن عدداً معيناً من القرود كان يشفى من تلقاء نفسه ، وذلك أمر تغاضيا عنه بنسبة بسيطة معينة استغرقت منهما أياما يكدان فيها جالسين أمام أوراقهما .. كان أحدهما يجلس أشعث الشعر ، وقد خلع ياقة قميصه ، إلى المنضدة بينما الآخر يسير بين أقفاص القرود وقد انبعثت منها رائحة كريهة ، ثم يداعبها ويناديها بس ، وروفر ، ومضى يقول فى جرأة « أجل سوف تعضنى أليس كذلك يا حبيبى » وظل طوال الوقت، فى شفقة ولـكن دون رحمة كالآلة، يحقن القرود بالالتهاب الرئوى الميت. لقد جاءا إلى منطقة مرتفعة حيث كان الهواء مفعماً بالفشل ، وبدأ الإثنان يفحصان أنابيب الأختبار والحالات الفاشـلة من الالتهاب الرئوى ولم يتوصلا إلى نتيجة صحيحة وأعدا جهـازاً صناعياً للسوائل، وجربا تأثير المشتقات على الحشرات فى هذا الدم الصناعى ، ولم يحققا نتائج صحيحة.

ثم سمع هولابيرد عن نجاحهما السابق فوافاهما بأكاليل الغار أولا ثم انقض عليهما بالويل والثبور ، لقد أدرك كما قال أنهما قد وصلا إلى علاج للالتهاب الرئوى حسن جداً .. إن المعهد يستطيع الآن أن يعمل بثقة فى شفاء هـذا المرض ، وأن مارتن وتيرى سوف يتـكرمان بنشر أبحاثهما « مع الإشـارة إلى ما كجورك » فى الحال .

فزمجر تيرى قائلا.. « سوف لا .. أنظر هنا يا هولابيرد أحسب أنك سوف تتركنا وشأننا »

« لقد تركتكما ما يقرب من عام حتى تستكملا بحثكما .. والآن قد استكملتماه وحان الموعد لتطلعا العالم على ما تفعلان » .

« إذا فعلت ذلك فإن العالم سوف يدرك شيئاً قليلا. إننى لم أفعل شيئا يستحق النشر ياسيدى الرئيس ، وربما نستطيع أن نقوم بالنشر بعد عام اعتبارا من الآن »

« سوف تنشران الآن وإلا — »

« وهو كذلك لقدحانت اللحظة المباركة .. إننى أعتزل العمل وأنا أفعل ذلك إذ أننى رجل مهذب دون أن أخبرك ماذا أعتقد فيك »

وبذلك أخلى تيرى ويكت طرفه من ما كجورك .. وقد قام بتسجيل عملية تركيب مشتقات السكينين ثم عاد ليستجم فى « ملاذ الطيور » لبناء معمل من مدخراته الصغيرة وتمضية حياته كباحث يعتمد على نفسه وأبحاثه التى يقوم بها ويبيع قليلا من أدويته .

كان ذلك بالنسبة لتيرى ، وهو رجل أعزب وليس له خادم بخصوص أمر سهل جداً أما بالنسبة لمارتن فلم يكن الأمر سهلا .

— ٣ —

وفكر مارتن فى أن يستقيل وأوضح الأمر لجويس ، انه يجمع بين منزل فى المدينة وقصر فى جرينتش ومباهج الحياة فى ساحة (ملاذ الطيور) كل ذلك لم ينته فيه إلى خطة معينة ولكنه لم يفكر فى أن يكون جحوداً .

هل تراهن على ذلك ، أن « الصفراغون المقدس » قد طرد تيرى ولكنه لا يجرؤ على أن يمسنى .. إن كل ما انتظرت من أجله هو إننى أردت أن أشاهد هولابيرد وهو يقدر ما سوف أفعله . والآن »

كان يشرح ذلك لها فى سيارتهما — سيارتها — فى طريقهما إلى المنزل بعد

تناول الغذاء الذى كان خلاله يبدو مرحاً فأثار إعجاب إحدى النبيلات حتى أن جويس قالت « ياله من أبله .. لاثام أيرلاند عندما قال أنه لا يستطيع أن يكون مؤدباً »

وقال مارتن فى زهو « لقد أصبحت طليقاً حراً ، لقدأصبحت حراً أخيراً لأننى كنت أعمل من أجل شىء يستحق أن يتحرر من أجله الإنسان »

ووضعت يدها الرقيقة فوق يده وقالت له :

« انتظر . أريد أن أفكر من فضلك .. اهدأ لحظة »

ثم قالت : « يامارتن إذا ظللت تعمل مع السيد ويكت فإن ذلك سيجعلك تتركنى باستمرار »

« حسناً — »

« لا أعتقد أن ذلك فى الواقع سيكون لطيفاً جداً .. أعنى الآن بصفة خاصة لأننى اعتقد أننى سوف أنجب طفلا »

فأحدث صوتا ينم عن الدهشة .

« أوه .. إنى أمثل دور الأم الناعمة ، ولست أدرى ماإذا كنت مسرورة أو حزينة بالرغم من أننى أعتقد أننى أود أن يكون لى طفل ، بيد أن ذلك سيعقد الأمور وأنا شخصياً سوف أكون آسفة إذا تركت المعهد الذى يهبك مركزا راسخاً فى هذا الوجود الغامض ياعزيزى .. لقد كنت معك لطيفة أليس كذلك ؟ وأنا أحبك وأنت تعلم ولا أود أن تهجرنى ، وسوف تفعل ذلك إذا رحلت إلى ذلك المكان المفزع فى فيرمونت »

ألا يمكن أن يكون لنا منزلا صغيرا بالقرب من هناك نمضى فيه جزءا من العام؟»

« من الممكن — ولكن يجب أن ننتظر حتى تنتهى تلك المهمة الكبيرة ، مولد الصغير ثم نفكر فى ذلك »

لم يستقل مارتن من المعهد ، ولم تفكر جويس فى أن يكون لهما منزل بالقرب من « ملاد الطيور » تفكيرا يصل إلى حد العمل الإيجابى .

الفصل التاسع والثلاثون

وبعد أن رحل تيرى ويكت عاد مارتن إلى التطعيم (الفاج)، وقد بدأ بداية سيئة وأقدم على أسوأ عمل فى حياته إذ فقد هدوئه العميق، وكان مدركا لمحنة الحياة الإجتماعية المهينة، ولم يستسغ إطلاقا الظواهر الطبيعية المستترة، والولائم، ودعوة القوم الذين لا يستسيغهم المرء.

ولما كان يجد راحة نفسية فى الحديث مع تيرى فإنه لم يحفل بالأشخاص عديمى الأهمية ذوى الملابس الفخمة، وظل بعض الوقت يستمتع بالتسلية الدرامية، وهى أن يجعل الأشخاص الظرفاء يستسيغونه .. ثم مالبث أن واجه انزعاجا بسبب. فقد أوضح له كايف كاوسون كم أصبحت حياته متعثرة.

فعندما جاء لأول مرة إلى نيويورك أخذ مارتن يبحث عن كليف ذو الطباع العاصفة الذى كان دائماً يرتاح إليه من بين انجوس دبور وارفنج ووتز فى مدرسة الطب، ولم يجد كايف فى وكالة السيارات التى كان يعمل بها ذات مرة أو فى أى مكان آخر فى مجال السيارات ولم يكن مارتن قد رآه منذ أربعة عشر عاماً، ثم جاءه إلى معمله فى ما كجورك ببطاقة ملونة كتب عليها:

كليفورد ل . كاوسون

(كايف)

توكيل استثمار البترول لتوب نوتش

هاى هام بلوك

بوت

« كايف ! صديقى العزيز القديم . . . أحسن صديق لقيته بين الرجال إنى لأذكر ذلك الوقت الذى أقرضنى فيه النقود لأذهب إلى لورا . . . كايف

صديقى القديم . . يا إلهى إنى فى حاجة إلى إنسان مثله ، فإن تيرى وجميع من حولى ليس فيهم خصاله ! » .

قال مارتن ذلك مزهوا ثم اندفع إلى الخارج ووقف فجأة ليحملق فى إنسان لم يكن يعامل برقة فتاة الاستقبال وهو يقول لها :

« أجل يا أختاه انكن ياطيور الملز ترقدون فوق العذاب . . إنى لم ألق أناسا مثلكم سوى فى مكاتب الاستثمار — ولم أر أجمل منك فى أى مكان آخر . ما رأيك فى تناول الطعام فى إحدى تلك الأمسيات الجميلة . إننى أتوقع أن أتحدث معك وقتاً طويلا ، وأنا صديق عزيز للدكتور أروسميث . وفى الحقيقة انني نفسى دكتوراً هذا حق ... هذا واقع ذهبت لأدرس فى كلية الطب وما إلى ذلك ، آه ها هو الفتى ! » .

لم يجد مارتن العذر فى التغيرات التى طرأت خلال الأربعة عشر عاماً . . . لقد كان مستاءاً . أما كليف كلوسون فقد كان فى الأربعين من عمره ، ضخماً ، وجهه يتصبب عرقاً ، بدين ، لحمه شاحب اللون ، وصوته أجش ، وكان يرتدى سترة نور فولك محبوكة على أكتافه المنتفخة ، وأردافه السمينة . وقال عندما لمح مارتن من الخلف . . . » حسناً . حسناً . حسناً . حسناً . حسناً . حسناً . ياصديقى القديم مارتن لماذا أيها الغلام العجوز . . لماذا أيها الغلام العجوز . . . لماذا أيها الكتكوت اللعين إنك لم تبدو عجوزاً عندما رأيتك آخر مرة فى زينيث ! » .

كان مارتن واعيا لضحكات أحد كتبة الاستقبال المتواضع وقال :

« أجل أنه حقاً ليسعدنى أن أراك » وأسرع لينفرد بكليف فى مكتبه الخاص وقال كاذبا ، إنك تبدو على ما يرام . ماذا كنت تفعل مع نفسك ؟ لقد بذلنا ما فى وسعنا أنا ولورا لنراك عندما حضرنا لنيويورك لأول مرة — آه هل تعلم ما حدث لها آه هل تعلم ماجرى لها ؟ »

« نعم لقد سمعت عن وفاتها ، إنه لحظ مفزع وسمعت عن عملك فى الهند .. الغربية أين كان بالضبط ؟ أعتقد أنك الآن رجل عظيم — تقاوم الطاعون

الشهير وما إلى ذلك والعالم العالمى المشهور وأعتقد أنك لاتذكر الآن أصدقائك القدامى .

« أواه . . . لا تكن مبالغا . . . أنه . . . أنه — أنه ليسعدنى أن أراك . »

« أجل أنه ليسعدنى أن أشاهدك وقد حصلت على أسمى المراتب يامارت ياعزيزى. أقول لنفسى لو أننى حضرت وقابلت مارتن العجوز لجعلته يسمع الحقيقة بعد كل هذه التهانى الذى يحصل عليها من سيدات المجتمع .

ويسعدنى أنك استطعت أن تحتفظ بهدوءك،وكنت أفكر أن أكتب إليك من بوت إذ كنت أقوم ببيع بعض الأطنان من مخزون البترول هناك وكنت أؤدى عملى بسرعة كى أوفر على المفتشين متاعب البحث فى سجلاتى . . أجل لقد فكرت فى أن أجلس فوراً وأكتب خطابا وأجملك تشعر بتحياتى، وكم أنا مسرور لعملك اللطيف ولكنك تعرف كيف هى الأحوال الآن فإن الوقت يمر بسرعه . . أجل هذا شىء جميل فقد واتتنا الفرصة لنرى بعضنا كيفما نشاء الآن، وأنا ذاهب مع صديق لى فى شأن مسألة استثمار هنا فى نيويورك . إنه موضوع كبير ياصديقى العزيز وسوف آخذك لأريك كيف أحقق حياة حقيقية فى يوم من هذه الأيام . أجل خبرنى ماذا كنت تفعل منذا أن عدت من الهند الغربية ، أعتقد أنك تضع خططك لمحاولة أن تكون رئيسا أوزعيما أو كيفما يسمونه لهذا المعهد الضخم . »

« لا — أنا . . آه . . أجل لا ينبغى أن أهتم كثيراً بأن أكون مديراً . إننى أفضل كثيراً أن ألتزم معملى وأتمسك به . . . أنا . . . ربما تود أن تسمع عن عملى فى التطعيم بالفاج » .

ورسم مارتن صورة موجزة لتجاربه وهو مبتهج باكتشافه . . . شيئاً يمكن له أن يتحدث عنه، وضرب كايف بيده الأسفنجية على جبهته وصاح قائلا انتظر .. لقد جاءتنى فكرة — وتستطيع أن تحققها تماما، أو تعرف صديقنا جن القديم أن الجمهور بدأ يسمع عن هذا «الباك» ماذا يسمونه ؟ التطعيم بالبكتريوفاج.. أنظر هنا ! أتذكر أن الصديق العجوز زيبنونى كار الذى قدمته كصيدلى كبير فى الوليمة الطبية ؟ منذ

مدة مضت كنت أتحدث معه وهو يدير الآن مصحة فى (لونج أيلاند) — إنها فكرة رائعة جداً وهو رجل أعمال موفق للغاية وسوف يتدافع الناس إلى مصحته أفواجا . . . إذا ما قمنا بتحقيق هذا المشروع .. وهى تحقيق لون جديد من أنواع العلاج ودع الأمر بالنسبة لاختراع إسم جديد للعلاج للعم كايف لتحقيق أعظم ربح خيالى من ألوف الدولارات المؤلفة . سيحضر المريض ويجلس فى قمرته ويتناول أقراصا بها مواد التطعيم ضد الأمراض على نغمات الموسيقى الصادحة . . إن مليونا تطل من هذا المشروع . . . فما رأيك فى ذلك ؟ » .

كان مارتن مرهقا تقريبا وقال :

« لا إننى خائف وإننى ضد هذه الفكرة » .

« لماذا ؟ »

« حسنا — أنا — بأمانة يا كليف ، إذا كنت لاتدرك الأمر فأنا لا أعرف كيف أشرح الاتجاه العلمى لك . . . أنك تعرف هذا الذى أعتاد جوتليب أن يسميه الاتجاه العلمى . وأنا بصفتى عالما ـ كنت أتمنى ألا أكون — لا أستطيع أن أشترك فى شىء مثل هذا » .

« ولكن أيها المساكين ، ألا تعتقدون أننى أدرك الاتجاه العلمى ؟ لقد رأيت حجرة التشريح بنفسى . . لماذا أيها المساكين ، طبعاً أنا لا أتوقع أن تجعلوا أسمكم مرتبطا بها . . . انكم تختفون وراء ستار وتتركوننا نحن فى المقدمة ، وتحصلون على شعبية من أجل التطعيم بالفاج حتى أن الناس سوف ينخدعون بسهولة، ونحن سوف نقوم بالعبء الأكبر من العمل » .

« ولكن أتمنى أن تكون هازلاً يا كليف ، وإذا لم تكن تتفكه فأننى أقول لك إذا كان أى إنسان قد حاول أن يوجد شىء مثل هذا فأنى سوف أفضحهم وأزج بهم فى السجن بغض النظر عن شخصياتهم » .

« أجل إذا كان هذا هو شعورك — ! »

كان كليف ينظر إلى رزمة الأوراق السميكة من تحت عينيه وقال متشككا :

« أعتقد أن لك الحق فى أن تمنع الآخرين من الإستيلاء على إنتاجك أجل وهو كذلك يامارت سر فيما أنت فيه وقل لى بماذا يمكن أن تفعل مما لا يؤذى

شعورك الرقيق ، هل يمكنك أن تدعو صديقك العجوز كايف إلى المنزل لتناول الطعام ولكى يقابل زوجتك الجميلة الجديدة التى قرأت عنها فى صحف النساء ، لربما تتذكر ياصديقى أنه فى وقت ما كنت سعيداً بأن تجعل كايف العجوز البدين يدعوك إلى الطعام ويدعوك إلى النوم » .

« أوه إنى واثق أنه كان كذلك ولم يكن هناك إنسان أستظرفه سواك . . ليس ثمة إنسان على الاطلاق ... أين تقيم ؟ سوف أعلم من زوجتى المواعيد مقدماً وأبلغك صباح غد تليفونياً » .

« إذن فأنت تترك زمام أمورك لهذه المرأة العجوز هيه ؟ .. أجل إنى لا أتدخل فى أعمال أى إنسان قط وأنا أقيم فى فندق برنجتون حجرة رقم ٦١٧ تذكر ذلك ، رقم ٦١٧ — ويمكن أن تجرب أن تتصل بى تليفونياً قبل العاشرة غدا ، قل تلك فتاة جميلة هذه التى عند الباب .. ماذا تعتقد ؟ ما هى احتمالات النجاح فى دعوتها لتناول الطعام وتمضية وقت لطيف مع العم كايف ؟ » واعترض مارتن بصفته أكبر العلماء فى المعهد قائلاً :

« أوه إنها تنتمى إلى أسرة عظيمة ولا أعتقد أننى أحاول ذلك . وحقا أفضل ألا تفعل ذلك أيضا » .

كانت نظرات كايف حادة بأقصى ما تكون الحدة .

فى مودة بالغةو وثناء جم قال كايف : « يستحسن أن تعود إلى عملك وتضع بعض الملح على ذيول البكتريا » .

واقتاده مارتن إلى حجرة الإستقبال مارا بالفتاة الكاتبة فى أمان إلى المصعد ، وجلس وقتاً طويلا فى مكتبه وهو مبتئس تماماً .

كان لمدة أعوام يتصور كايف كلوسون كنموذج آخر من تيرى ويكت ورأى أن كايف يختلف اختلافا كبيراً عن تيرى كما يختلف تيرى عن ريبلتون هولابيرد .

كان تيرى خشن الطباع، وكان جريئا سوقيا يحتقر كثيراً من الأشياء اللطيفة

ويشاكس كثيراً من الأفراد الظرفاء ويزعجهم ، ولكن هذه التصرفات المريرة كانت تضع له سياجا يحيط به نفسه ليكرسها لعمله المفضل ولكن كليف ..

· قال مارتن حانقا : « أننى أؤدى خدمة للعالم بقتل ذلك الرجل ! مصل جماعى فى مصحة ! إنى احتمله فقط لأننى جبان ولا أستطيع أن أناجزه عندما يقول أنه فى أيام نجاحى قد تنكرت الأصدقاء القــــدامى » (النجاح ! التخبط فى العمل ! حفلات العشاء ! والحديث إلى البلهاء من السيدات ! والغضب لأنك لم تدع لحفل العشاء عند وزير البرتغال !)

« كلا سوف أتصل بكليف تليفونيا بأنه لا يمكن أن ندعوه فى المنزل » وتذكر إخلاص كليف فى أيامه العصيبة التى ولت وبهجة كليف فى أن يشاركه فرحة كل نصر يحققه .

« لماذا يجب أن يفهم شعورى عن التطعيم بالفاج؟ هل خططه أسوأ من أية خطة من كثير من خطط شركات الأدوية المشهورة ؟ . . كم كنت ثائرا وكم كنت سخيفا لأنه لم يعترف بالمركز الإجتماعى الرفيع للدكتور أروسميث » .

طرح الأمر جانبا وعاد إلى منزله وشرح تقريباً بكل صراحة لجويس ما سوف يكون المحتمل فى كليف واقترح أن يدعى كليف لتناول الطعام معهما الإثنين فقط وقالت جويس : « عزيزى مارت ، لماذا تسيء إلى بالتنويه بأننى متعاليه حتى أننى أنزعج من عامة الناس وأخلاقيات رجال الأعمال مثل الجد روجر ؟ هل تعتقد أننى لم أبرح حجرة الجلوس ؟ أعتقد أنك قد رأيتنى خارج منزلى ، ومن المحتمل أننى أقدر صديقك كلوسون كثيراً فى الواقع » وفى اليوم الذى تلا ذلك اليوم الذى دعاه فيه مارتن لتناول الطعام اتصل كليف تليفونيا بجويس وقال .

« هل أنت السيدة أروسميث ؟ جل إننى الصديق القديم كليف ؟»

« لعلى لا أتذكر ذلك تماماً » .

« إننى كليف !. كليف الصديق القديم! »

« إنى آسفة جداً ولكن لعل الإتصال التليفونى ليس على ما يرام »

« لماذا ، إننى السيد كلوسون الذى سوف أتناول معكم الطعام فى يوم — »

« أوه إننى آسفة ».

« أجل إصغ إلى أن ما أريد أن أعرفه هو : هل ذلك سيكون مجرد دعوة عابرة أم سهرة حقيقية بمعنى آخر هل أرتدى ملابسى كالمعتاد أم أرتدى ملابس خاصة للحفلة . اوه عندى ملابس فخمة للحفلات .. رائعة ! »

« أنا — هل تعنى — هل سترتدى ثياباً للطعام ؟ أعتقد أنه ربما أرتدى ثيابا للطعام ».

« إننى سوف أرتدى أبهى الحلل والجوهرات ذات الأزرار الذهبية التى لم ترها عين بشر من قبل — أجل لقد كانت فرصة سعيدة يا سيدتى أن التقى بالعزيزة مسز مارت ، والآن نكتفى بأغنية « حتى نلتقى مرة أخرى » أو « إلى اللقاء »

وعندما عاد مارتن إلى منزله واجهته جويس بتلك الكلمات : « حبيبى لا أستطيع أن أفعل ذلك .. إننى أعتقد أن ذلك الرجل مجنون ، أنه مجنون حقاً ، يا عزيزى مارت ، فعليك أن تأخذ الحذر منه ودعنى أذهب إلى فراشى . وفضلا عن ذلك فأنكما لن تكونا فى حاجة إلى وجودى معكما — سوف تتحدثان عن ما ضيكما فلا حاجة إلى أن أتدخل فى شئون ما ضيكما ونظراً لأننى سوف أنجب طفلا بعد شهرين فلا داعي لأن أسهر ويستحسن أن أعود إلى فراشي مبكراً ».

« أوه يا جوى إن كليف سيستاء كثيرا وقد كان طول حياته يعاملنى معاملة طيبة — وغالبا ما سألتينننى عن أيامى السالفة ، أفلا تريدين أن تسمعى عن ذلك الماضى ؟ » .

« حسنا جدا يا عزيزى ، سوف أن أحاول أن أبدو مشرقة ولكن أؤكد لك أنى لن أفلح فى ذلك ».

وأخذا يعدان نفسهما على اعتبار أن كليف سوف يكون فظا فى طباعه

وسوف يغرق فى الشراب ويصفع جويس على ظهرها ولـكنه عندما ظهر لتناول الطعام كان فى غاية التهذيب ويبدو وسيما حتى صار ثمـلا بعض الشيء . وعندما قال مارتن .

« باللعنة » أجاب كليف قائلا .. طبعا إننى ثمل قليلا ولـكن لا أعتقد أن إنساناً أبله مثل مارتن يتزوج آية من آيات الجمال كهذه ثم قال :

«أوه ،إن تأثيث حجرة الطعام هـــــذه لم يكلف شيئا على الأرجح ، لا شىء على الإطلاق »

ثم « شمبانيا .. هيه ؟ .. أجل من المؤكد أنك تجعل صديقنا المسكين القـديم كليف فخورا . إن فخامتك عليك أن تقول لخادمك الخصوصى أن يخبر سكرتيرى بعنوان مورد الخمر الذى تبتاع منه . هل يمكن ذلك ؟ »

بالرغم من أن كليف كان مازال يتحكم فى سلوكه وفى تعبيراته المرحة ذكر تاريخ حياته فى بيع آبار البترول التى ليس بها بترول وهروبه من القانون قبل أن يقبض عليه متلبسا وعن مهارته فى دخول الـكنائس بقصد بيع صكوك للاعضـاء وتنمية خبراته بمساعدة الدكتور بينونى كار فى اصطياد غنى أو أرملة ثرية لمصحته بعد أن يمدها بتزويدها بالاستشارات الطبية من عالم الأرواح .

كانت جويس فى منتهى الهدوء والإحترام حتى أحس كل إنسان ببؤسه . وأخذ مارتن يعمل جاهدا فى وسيلة اتصال بينهما ، ولم يـكن لديه أية ملاحظات عن غرابة إنسان يتباهى بانحلاله ولـكنه كان حانقا فى خفاء عندما مضى كليف يقول : « أنك قلت أن جوتليب نوع من الناس الذين خانهم الحظ الآن » .

« أجل إنه ليس على مايرام » .

« ياله من مسكين ذلك العجوز ولـكن أعتقد أنك أدركت الآن كم كنت أحمقاً عندما كنت ترجى له ألوان التشريف ، ياسيدة أروسميث ، إن هذا الفتى اعتاد أن يعتبر أن جوتليب إلها — معذرة .

قال مارتن « ماذا تعنى ؟ »

« أوه أعنى جوتليب ، إنك تعرف طبعا كما أعرف أنا تماما ، أنه إنسان يعلن عن نفسه دائما ، ويجعل الناس يتحدثون عنه ، وكم هو عالم ماهر ويحيط نفسه بهالة من الفلسفة ، ولكن ماهو أسوأ من ذلك أننى التقيت فى سان دياجو بزميل لنا كان يعمل أستاذا لعلم النبات فى وينباك وأخبرنى بأن جوتليب ، وقد توصل إلى كل هذه الأجسام المضادة ، لم يرجع الفضل إلى ــ حسنا ، كان عالما روسيا عمل كل شىء ولكن جوتليب سرق كل أبحاثه . » أن اتهاماته الموجهة ضد جوتليب التى بها شىء من الصحة وعلمه بأن المعبود العظيم كان فى وقت ما غير كريم ، زاد حنقه وجعل قبضة يده تشتد فى حجره .

منذ ثلاثة أعوام كان من الممكن أن يلتقى بشىء ، ولكنه كان إنسانا قابلا للتعديل وقد استسلم لتدريبات جويس لكى يصبح هادئا بدلا من أن يكون إنسانا لحوحا وكانت كل تعليقاته :

« كلا أعتقد أنك مخطىء يا كليف . ان جوتليب سار شوطا طويلا بالأدوية المضادة ، أطول مما قطع غيره . » وقبل أن تصل القهوة والمشروبات الروحية إلى حجرة الجلوس قالت جويس بلهجة لطيفة جداً :

« ياسيد كاوسون هل تأذن لى بأن أعود إلى فراشى ؟ لقد أسعدنى جداً أن ألتقى بأحد أصدقاء زوجى القدامى ، بيد أننى أشعر بشىء من التعب وأعتقد أنه من الأفضل أن أستريح . »

« سيدتى الأميرة لقد لاحظت أنه يبدو عليك التعب » .

أواه . . أجل . . . طاب مساؤك » .

واستقر مارتن وكليف فى مقعدهما فى حجرة الجلوس ، وحاولا أن يبديا سعادتهما بلقائهما ، وهما أصدقاء قدامى ولم ينظرا إلى أحدهما الآخر .

وبعد أن صب كليف بعض اللعنات وروى ثلاث قصص مبتذلة ليظهر أنه لم يعد مدللا ، وأنه كان مهذبا فقط ليدخل البهجة على جويس انفجر قائلا :

« هاها . . وهكذا هو الأمر . . أجل إننى أرى زوجتك المجوزة

لاتستريح إلىّ لقد كانت ودودة بصفة عرضية ولـكنني لاأهتم فانها سيكون لهاغلام وأن النساء طبعا يصرن جميعا غريبات الأطوا في مثل هذه الحالة ولـكن ٠٠٠ »

وتجشأ ثم بدا حـكيما وتجرع كأسا خامسا من الـكونياك ٠

« ولـكن الشيء الذى لم أستطع أن أتصوره — لعلى لا أنتقد السيدة ، فإنها وسيمة أنيقةولـكن الذى لا أستطيع أن أفهمه أهو أنه كيف بعد أن عشت مع لورا التي كانت الشيء الحقيق تستطيع أن تعيش مع امرأة مثل جويس ؟ »

ثم انفجر مارتن إذ أن شقوة عدم القدرة على العمل خلال هـذه الشهور منذ رحيل تيرى قد جعلته يتألم ٠

« أنظر يا كليف ، لم أكن لأتيح لك فرصة للحديث عن زوجتى ، إنى آسف لأنها لم ترقك بيد أننى أخشى أنه فى هذا الأمر بالذات — »

وهب كليف ولم يـكن متزنا رغم أن صوته وعينيه كان يبدو فيهما الحزم ٠

« وهو كذلك ، إنى أدرك أنك كنت ستدنع بى عاليا ٠ ٠ ٠ طبعا ليس لى زوجة غنية تأتينى بالنقود ، إننى شخص عادى عجوز وليس لى مـكان مثل هذا ولست رقيقا لأن أكون حتى رئيسا للخدم وعلى أية جال أتمنى لك حظا سعيدا وفى الوقت ذاته فلتذهب إلى الجحيم ياصديقى الصغير »

ولم يصحبه مارتن إلى البهو ٠

وبينما هو جالس بمفرده أخذ يقول : « أحمد الله ، لقد انتهت المهمة » ٠

قال لنفسه أن كليف كان مخادعا وأحمقا ومبذرا ٠ ٠ قال لنفسه أن كليف إنسان ساخر دون حـكمة وسكير تعوزه البهجة ، كارها للبشرية وكان كريما ليرضى غروره فقط ولـكن هذه الحقائق العميقة لا تحول دون أن تجعل العملية مؤلمة ، مثل عملية إزالة الزائدة الدودية ، لا يسهل أمرها أن يعرف الإنسان أنها كانت زائدة سيئة تعوزها الـكياسة والرقة والنفع ٠

وبالرغم من أنه أحب كليف — أحبه ولا زال يحبه — فإنه لا يود أن يراه مرة أخرى على الإطلاق . بتاتاً !

وقاحته وتهكمه فى الحديث عن جوتليب وغلظته ! إن الحياة قصيرة بالنسبة لـ . . . . « ولكن قف . نعم إن كليف قاس وأنا كذلك . . إنه منحل ، ولكن ألم أكن منحلا حين عبثت بأبحاثى . وتجاربى فى سانت هوبرت ، وأن أسوأ إنحلال هو أننى حصلت على تقريظ من أجله » .

وخطا نحو حجرة جويس ، وكانت ترقد فى فراشها تطالع « بيتر هويفل » وقالت : « ياعزيزى إنه كان أمراً مفزعاً ، أليس كذلك ؟ هل غادر المنزل » ؟

« نعم لقد رحل . . لقد طردت أعز صديق قابلته فى حياتى — حقاً لقد تركته يرحل ، لقد تركته يرحل وهو يشعر أنه فاشل ضال . لقد كان أهون أن أقتله .. لماذا لم تكونى بسيطة ومرحة معه ؟ لقد كنت فى غاية الاحترام ، وقد كان قلقاً وغير طبيعى وبدا أسوأ مما هو عليه إنه ليس خشن الطباع أكثر من إنه أحسن كثيراً من أولئك الذين يدعون أنهم كرماء الخلق . . . مسكين . إننى أؤكد أنه الآن يخوض تحت الأمطار وهو يقول « إن الإنسان الوحيد الذى أحببته فى حياتى وحاولت أن أؤدى إليه خدمات قد انقلب علىّ ، وهو الآن — الآن له زوجة لطيفة ، فما فائدة الرقة إذن ؟ إنه يقول لم لم تكونى بسيطة وتسلكى سلوكا مرضيا مرة واحدة » ؟

« أنظر هنا ، انك كرهته كما كرهته أنا .. وأنا لا أقبل أن يقع اللوم على لقد كنت ضده .. انكم أنتم الذين دائما تتكلمون عن الواقع — لا تستطيعون أن تواجهوا الواقع مرة واحدة على الأقل . انها ليست خطيئتى .. لعلك تتذكر يامليك الرجال ،أن حسن إدرا كى اقترح على ألا أظهر هذا المساء وألا أقابله على الإطلاق » .

« أوه حسنا — نعم — ولكن — أوه أعتقد ذلك .. أجل على أية حال لقد انتهى الأمر وكفى ذلك بالنسبة له » .

« عزيزى إننى أدرك مشاعرك الآن ولكن أليس حسنا أن انتهى الأمر ، قبلنى قبلة المساء » .

وقال مارتن لنفسه : « ولكن » وهو يجلس ويشعر أنه عار وضائع ومشرد وهو يرتدى ردائه المزركش بالحرير المذهب الذى اشترته له من باريس « ولكن لو أنها كانت لورا بدلا من جويس — ان لورا كانت تعلم أن كليف منحرف وكانت ستقبل ذلك كحقيقة واقعة (تتحدث عن مواجهة الحقائق !) أنها لم تكن ستصر على الجلوس كقاضى . إنها لم تكون ستقول « هذا يختلف عنى ولذلك فهو خطأ إنها كانت ستقول إن ذلك يختلف عنى وعلى ذلك فهى أشياء ممتعة . . لورا » .

لقد تبدت له صورتها مفزعة وهى مسجاة هناك بلا لحد تحت الثرى فى حديقة فى تلال بنريث .

وأفاق من ذلك ليقول : « ماذا قال كليف ؟ انك ليس زوجها — إنك خادمها إنك رقيق جداً . » إنه كان صادقاً فيما يقول إن كل مافى الأمر أنه لا يسمح لى برؤية من أريد . لقد كنت ماهراً حتى جعلت نفسى عبدا لجويس وهولا بيرد المقدس » .

كان دائما يوشك على رؤية كليف ، ولكنه لم ير كليف مرة أخرى .

— ٢ —

حدث أن كلا من جد مارتن وجويس كان اسمه جون ، وقد أسميا ابنهما جون أروسميث ولم يكونا يعرفان ذلك ، ولكن من المؤكد أن جون أروسميث كان ملاحا فى بيدفورد ، وقد لاقى حتفه فى معركة الأرمادا الأسبانية آخذا معه خمسة من الشجعان .

لقد قاست جويس كثيراً وجددت حب مارتن لها (وكان يحب تلك الفتاة الحلوة النحيلة أشد الحب) .

(إن الموت لعبة أحسن من لعبة البريدج — إذ ليس لك شريك يساعدك) قالت ذلك وهى تتمدد على مقعـــد فى أسى وألم وتضجر قبل أن يعطوها المخدر .

كان وجهها باهتاً من الألم . كان جون أروسميث منتصب الأطراف — كان وزنه عند ميلاده عشر أرطال ، وكانت فى عينيه علامات الفرح عندما نما وأصبح طفلا فى مستهل الرجولة .. كانت جويس تقدسه ومارتن يخشاه لأنه رأى ذلك الارستقراطى المتطور .. هذا الطفل الذى ولد فى كنف الثراء، سوف يتواضع له يوماً من الأيام.

كانت جويس بعد ميلاد الطفل بثلاثة شهور أكثر خفة ونشاطاً من ذى قبل فى ارتداء القبعات والملابس الأنيقة .

— ٣ —

كانت جويس تقدر العلوم حق قدرها بالرغم من أنها لم تكن تفهم فيها شيئاً ، وغالباً ما كانت تطلب من مارتن أن يشرح لها عمله . وعندما كان يقوم بأداء تجاربه على المنضدة كانت تقاطعه وهى تقول برقة : « ياحبيبى هل تسمح لى بثانية واحدة . أليس هناك مزيداً من الخمر الأسبانى ؟

وعندما كانت تتركه بالرغم من أن عينيها كانتا فيهما رقة وحنان فإن حماسه كان يتلاشى .

لقد جاءت إلى معمله وطلبت إليه أن ترى قواريره وأنابيبه ، وأن يشرح لها ويرغمها على الفهم ، ولكنها لم تكن تجلس ساعات تلاحظه فى صمت .

وفجأة عندما كان يعبث فى معمله المبعثر ، لمس أرضاً صلبة . كان يبحث أثر التطعيم بالفاج على عينات من البكتريا — كان مبدعا ، كان رائعاً وبعد أن ظل شهوراً يبحث ، وقد أصبح مواطناً هادئاً . وزوجاً طيباً ولاعب بريدج ممتاز ورجل أعمال نشط ، أدرك من جديد سعادة الجنون المرتب .

كان يود أن يعمل طوال الليالى، كل ليلة . وأثناء تلمسه غير الملهم لم يكن هناك ما يجعله يستمر فى المعهد حتى بعد الخامسة ، واعتادت جويس أن تجده يهرع إليها

وقد أصبح الآن يظهر قدرة غير معقولة على تجاهل المواعيد والاستياء من الضيوف الذين يطلبون منه تفسير وإيضاح بعض العلوم . وكان على وشك أن ينساها هى وطفلها، وقال : «على أن أعمل عدة ليال، ولا يمكن أن أكون منظماً ومتساهلا فى ذلك عندما انشغل بتجربة كبيرة أكثر مما يمكن أن تكونى مواظبة وسهلة ومهذبة عندما تكونين حاملا » .

« إننى أدرك ولكن — ياعزيزى ، أراك ثائرا عندما تكون منهمكا فى العمل . هكذا ... يا إلهى إنى لا أهتم كم تضايق الناس بأن تخلف مواعيدك . إننى أولا وقبل كل شيء أريدك ألا تكون كذلك ، ولكننى أدرك أن ذلك أمر لايمكن تجنبه .ولكن عندما تجعل نفسك هكذا غارقاً فى عملك ومرتعداً ، فهل تكسب بهذا الوقت على مر الزمن ؟ إن هذا لمصلحتك..أواه لقد أدركتها .. انتظر وسوف ترى اى عالم أنا ! .. سوف لا أفسر .. لن يكون ذلك بعد !

كانت جويس ذات ثروة ومقدرة ، وبعد اسبوع استعادت توردها وأصبحت مرحة ، وقالت له بعد تناول العشاء : « عندى لك مفاجأة!»

واقتادته إلى الحجرات الشاغرة فوق الجراج خلف المنزل . فى ذلك الأسبوع استخدمت عشرات من العمال من المقر العلمى لتزويد العلماء بما يريدون . لقد أنشأت له أعظم معمل للبكتريا لم ير مثله ، ذو أرضية من الخزف الأبيض وجدران من الطوب المطلى بالميناء وثلاجة ودفاية وآنية زجاجية وميكرسكوب وحمام حرارى مستمر ، وفتى متدرب فى لستر وروكفلر ، وقد أعدت للمساعد حجرة نوم خلف المعمل ، وأعلن عن استعداده لخدمة الدكتور اروسميث ليلاً ونهاراً .

وتمتمت جويس وهى تقول «عندما تضطر الآن إلى أن تعمل خلال الأمسيات فإنك لن تضطر إلى أن تنزل إلى شارع الحرية . وتستطيع الآن أن تضاعف من مزارعك أو فلتسميها كيفما تشاء . وإذا مللت عند تناول العشاء — وهو كذلك! تستطيع أن تذهب تواً إلى عملك وتعمل متأخراً فى المساء كيفما شئت — حسناً ،

هل ذلك يرضيك ؟ هل فعلت ما يروقك ؟ لقد حاولت بكل جهدى . . . لقد أحضرت أحسن الرجال . .. أحسن ما أستطيع أن أحضر . »

وبينما كانت شفتاه تلامس شفتاها قال متأملا :

« أن تفعلى كل ذلك من أجلى ! وأن تكونى متواضعة كل هذا التواضع ! والآن يالعنة لن أستطيع أن أخرج وحدى ! » وطلبت إليه فى مرح أن يجد لها بعض العيوب حتى يمنحها شعوراً جديداً بالدعة والضعف ، فقال إن آلة الطرد المركزى غير مناسبة . فقالت : « انتظر ياعزيزى ! » وبعد ليلتين ، عندما عادا من الأوبرا اقتادته إلى الجراج الذى غطت أرضيته بالأسمنت تحت معمله الجديد ، وفى إحد الأركان كانت توجد آلة مستعملة ولكنها كالجديدة وغاية فى الإتقان ، تعداحدى تحف شركة بركلى سوندرز — التى لم تكن فى الواقع سوى جلاديس التى دفع فصلها من ما كجورك ، بسبب أساليبها الملتوية ، مارتن وتيرى أن يخرجا ويفرطا فى الشراب .

وكان من اليسير عليه فى هذه المرة أن يكون شاكراً للصنيع ، ولكنه لم يدخر وسعاً فى ذلك .

— ٤ —

تواترت الإشاعات فى الأوساط الأدبية والاقتصادية ، وكذلك فى أوساط الرولز رويس التى تقيم فيها جويس أن هناك تحولاً جديداً فى عالم متوتر — وعندما كانت جويس تذهب إلى معامل مارتن وتراقبه وهو يعمل ، كانت دائماً وقورة وصامتة إلا أنها ربما كانت أحياناً تقول : « أليس مما يعجب له طريقته حين يعلم البكتريا لتقول « بوللى المليح » أو تخرج عن صمتها عندما يزعم لاثام ايرلاند أن العلماء ليس لديهم روح المرح ، أو عندما قال سامى دى لبر فى قصيدته الهزلية الرائعة :

أيها العالم الغافل لا تعبس فى وجهى .

أنني أيها الميكروبولوجي سواء لك .

عندما ينظر المستر الدكتور أروسميث إلى مفاتيح الألغاز .

سوف تقبع فى السجن تغنى للبكتريا الزرقاء .

وكانت ابنة عمه جويس المدعوة جورجيا تقول : « ان مارت غاية فى الحذقمع أنانيه ، وأنك لتثير أعصابه إلى حد الجنون إذا كاشفته بأنه عديم التدين . »

بينما كان مارتن يركز ذهنه فى عمله .

وكان بعض ضيوفه يتجمهرون فى معمله مرة فى الأسبوع ، وهى فى الواقع لم تكن تكفى لازعاجه ، ولكنها كانت كافية لجعله يترقب قدومهم .

وعندما كان يحاول فى هدوء أن يشرح هـــذه الأشياء وتلك لجويس كانت تقول .

« هل ضايقناك هذا المساء ؟ بيد أنهم يعجبون بك . » فكان يقول : « حسناً » ثم يتوجه إلى الفراش .

— ٥ —

قال ر . أهرمون المحامى الشهير أثناء رحيله من منزل أروسميث — لانيون لزوجته :

« إننى لا أبالى بمضيف لا يحسن لقائك ، وإذا كان يعتقد أنك لست فطنة ، بيد أبالى إذا كان يبدى تبرمه حين تجاسرت على التعبير عن رأى من الآراء ... إلا يبدو سخيفاً فى معمله اللعين .. كيف تحسبين بحق الشيطان أن ترضى جويس بالزواج منه » ؟

« لا أستطيع أن اتصور » .

« أستطيع أن أفكر فى سبب واحد طبعاً .. ربما أنها » .

« الآن من فضلك لا تكن قذراً » .

أجل على أية حال — ان تلك التى كان يجب أن تنتخب أى عدد من الشباب الطيب النشأة المقبولين الأذكياء — وأعنى أذكياء إذ أن أروسميث هذا قد يعرف كل شىء عن الحشرات ولكنه لا يعرف الفارق بين السيمفونية واللحم . . . لا أعتقد انني منزعج جداً ولكن لست أرى لماذا ينبغى أن نذهب إلى منزل يكون المضيف فيه معارضا لك ويجد متعة فى هذه المعارضة .. مسكين ذلك الشيطان ، انني فى الواقع حزين من أجله ربما انه لا يدرك حتى متى يكون وقحاً » .

« كلا ... ربما ... ماذا لو فكرت فى روجر العجوز — انه غاية فى القوة ، فإذا بذلك الغريب المفاجىء القادم من الأحراش يحتل مقعده وهى لا تكاد ترى فيه بول روجر — فماذا ترى فيه جويس ! وإن كانت له عينان رقيقتان ويدان قويتان مضحكتان — »

— ٦ —

كان انشغال جويس يثير اعصابه .. كان من السيران يتبين سبب انها كما إذ كان لها مديرة بيت ممتازة ورئيس خدم نابه ومربيتان للطفل ، ولكنها غالباً ما كانت تقول أنها عاجزة عن تحقيق أملها الوحيد وهو أن تجلس وتقرأ .

وذات مرة اتصل تيرى الذى أطلق عليها ذات مرة اسم المنظمة ، بالرغم من ان مارتن كان لا يرتاح إلى التسمية ، وعندما سمع جرس التليفون زمجر قائلا :

« أواه يا آلهى ، إنها المنظم تريدنى أن أحضر لتناول الشاى مع أحد ذوى العقول الراجحة »

وعندما حاول ان يوضح أنه يجب أن يتخلص من هذه العراقيل قالت : « هل انت إنسان ضعيف صغير متردد حتى ان السبيل الوحيد الذى تستطيع أن تستخدمه هو بالهروب والفرار ؟ هل انت خائف من الرجال العظماء الذين يفعلون اشياء عظيمة ومع ذلك يتوقفون ويلعبون ؟ »

كان من المرجح أن ينقلب سفيهاً ، خاصة عند تنويهها بالرجال العظماء وعندما

اشتد غيظه وأصبح وقحاً تحولت إلى سيدة عظيمة حتى أحس بنفسه وكأنه خادم وقح فازدادت وقاحته . لقد كان خائفا منها آنذاك وتصور نفسه يهرب إلى لورا ، وكان كلاهما يستشعران بالخوف كالصغار ، ويهدىء كل منهما روع الآخر . ويختفي منها في أحد أركان المنزل المريحة .

وكان غالباً ما كانت جويس شريكته تبحث عن مسليات بمثابة مفاجآت له ، وكانا يجدان في طفلهما مصدراً للزهو ، وكان يجلس ليشاهد جون الصغير مبتهجاً بقوته ونموه .

وفي أوائل فصل الشتاء ، حينما أخذت الطفل وذهبت إلى الجنوب لمدة أسبوعان هرب مارتن لمدة أسبوع مع تيري إلى استراحة « ملاذ الطيور »

ولقد ألفى تيري متعباً ، متذبذباً بعد أن ظل يعمل شهوراً وحده تماماً ، وقد أقام بجوار بيته الصغير كوخا ليستخدمه كمعمل واصطبـــل متواضع لتحضير أمصاله ، ولم يستغرق تيري كما كان يفعل من قبل في تفاصيل بحثه ، ولم يستطع مارتن حتى المساء عندما كانا يدخنان أمام مدفأة البيت، متراخين في مقعدين مصنوعين من براميل أعدت لهما وسائد من جلد الإبل ان ينتزع منه أسراره

كان مضطرا أن يكرس جزءا كبيرا من وقته لأعمال المنزل ، وإنتاج الامصال التي كانت تـكلفه كـثيراً: « لو كنت معي لأحرزت شيئاً » ، ولـكن ابحاث مشتقات الـكينين استمرت ، ولم يندم على تركـه ما كجورك ، لقد وجد من المستحيل ان يمارس نشاطه مع القرود إذ كانت غالية الثمن، وكانت رقيقة حتى أنها لم تـكن تتحمل شتاء فيرمونت ، ولـكنه استطاع أن يصل إلى طريقة استخدام فئران مصابة بذات الرئة و ٠٠

(أواه مافائدة قولي هذا لك يا نحيف ؟ إنك لست مهتما وإلا كنت معي هنا منذ شهور ٠٠ إنك كـنت في موضع الخيار بيني وبين جويس ٠٠ حسنا ، فإنك لاتستطيع أن تجمع بين الاثنين)

وقال مارتن : « آسف لأنني تطفلت عليك ياويكت » وانطلق تاركا البيت .

وأخذ يتعثر وسط الجليد متجولا فى الظلام مصطدماً بجذوع الأشجار ... لقد أدرك نزع الساعة الأخيرة .. ساعة الفشل .

« لقد فقدت تيرى الآن «رغم انى لا أتحمل وقاحته ..» فقدت كل إنسان وإننى لم استحوذ على جويس حقاً .. إننى وحيد تماماً ، وإننى لأعمل بنصف قدرتى . لقد فشلت .. لن يسمحوا لى بعد ذلك على الاطلاق بأن أعود للعمل».

وفجأة دون جدال أدرك أنه لن يستسلم ، ثم عاد مرة أخرى إلى الكشك واندفع داخله منتحباً وهو يقول : « أيها الصديق القديم علينا أن نتمسك ببعضنا بعضاً ! »

وقد تأثر تيرى بمثل تأثره ، ولم يكن أحدهما بعيدا عن أن يجهش بالبكاء ، وقالا وهما يربتان كل منهما على كتف الآخر : « زوج من البلهاء الظرفاء . . انقسمنا لأننا متعبين فحسب » واقسم مارتن قائلا : سوف احضر وأعمل معك بأية طريقة ، وسأحصل على أجازة لمدة ستة شهور من المعهد ، وسوف أجعل جويس تقيم فى أحد الفنادق القريبة من هنا أو تفعل شيئا ، ونعود إلى العمل الحقيق ! .. العمل ! .. والآن خبرنى عندما أحضر إلى هنا ما رأيك فى أن »..

ومضيا يتحدثان حتى الفجر .

الفصل الأربعون

دعا الدكتور ريلتون هولابيرد وعقيلته جويس ومارتن وحدهما لتناول العشاء وكان هولابيرد فى أبهى مظاهرة ، وقد أعجب بلآلى جويس .

وعندما أعد الطعام استدار إلى مارتن بشعور ودى عميق وقال :

« الآن هل يمكن أن تصغى إلى أنت وجويس باهتمام تام ؟ ثمة أحداث تقع يامارتن وأننا نريدك .. كلا ، بل العالم يريدك أن تأخذ دورك الصحيح فيه ولا أحتاج على فكرة أن أشير إلى أن ذلك يعتبر شيئاً سرياً للغاية ، فإن الدكتور توبس وجماعته عن الهيئات الثقافية يشرعون فى تحقيق المعجزات . وقد كان الكولونيل ميجن سخياً على نحو غير عادى . .

« فقد ذهبوا إلى الهيئة بنفس الدقة واتباع الوسائل البطيئة تماماً التى كنت انت وجوتليب العزيز تصران عليها .. والآن لمدة أربع سنوات ظلوا يتمسكون بإجراء التجارب ، وحدث أن علمت أن الدكتور توبس ومجلس الهيئة عقدوا أعجب المؤتمرات مع مديرى الكليات والمحررين وسيدات النادى ورواد المعامل (طبعا الواعين والمهرة منهم) والخبراء الأكفاء وكبار رجال الإعلان والوزراء وجميع زعماء الفكر العام الآخرين .

« وقد قاموا باعداد الرسوم التوضيحية التى تصنف جميع المهن والمصالح الفكرية مع الطرق والوسائل والأدوات وخاصة الأغراض — الأهداف والمثل والأهداف الخلقية — التى تتناسب مع كل منها .. رائع حقا .. لماذا لأن الموسيقار أو المهندس يستطيع أن ينظر على سبيل المثال إلى خريطته ويقرر بدقة ما إذا كان يتقدم بسرعة كافية فى عصره وإذا لم يكن كذلك يستطيع أن يعرف سبب

متاعبه والعلاج . وبهذه الأسس تستمد الهيئة لمزاولة أعمالها وتشجيع جميع العقول العاملة للانضمام إليها .

« وإن معهد ما كجورك يجب ببساطة أن يسير على هذا النسق الذى اعتبره إحدى الخطوات العظيمة فى الفكر التى أمكن تحقيقها ، وإننا أخيراً سوف نجمل جميع الأنشطة الروحية الأمريكية تتلائم مع المثل الأمريكية ، فسوف نجعلها عملية وممتازة .. كصناعة سجلات العملة ! .. وعندى أسباب أكيدة لافتراض إمكانية الجمع بين روس ما كجورك ومينيجن إذ أنه الآن لم تعد مصالح ما كجورك ومينيجن تتعارض،وإذا كان الأمر كذلك فإنه من المحتمل أن أترك المعهدوأساعد توبس فى إدارة هيئة الجمعيات الثقافية وعندئذ نحتاج إلى مدير جديدلما كجورك يعمل معنا ويساعدنا فى إخراج العمل من الدير لخدمة البشرية »

وعندئذ أدرك مارتن كل شىء عن الهيئة فيما عدا ماهية العمل الذى تحاول الهيئة أن تعمله

واسترسل هولا بيرد يقول :

إننى ادرك الآن أنك يامارتن تسخر دائماً من الشئون العملية ولكننى أثق فيك وأعتقد إنك كنت متأثر كثيرا بويكت،والآن وقد رحل وبعد أن زادت ممارستك للحياة واختلاطك برفاق جويس وأنا أعتقد انى أستطيع أن استحثك على ان تلقى (أو ما دون ان تهمل بأية حال من الأحوال مشقات معملك) نظرة أعمق وأوسع

لقد خولت سلطة تعيين مدير مساعد ، وأعتقد اننى محق فى قولى انه سوف يخلفنى كمدير بكامل سلطاته ويطمح شولتيس فى هذا المنصب وكذلك دكتور سميث ويو سوف يحاولان القفز إليه ، بيد اننى لم أر بعد أن احدهما على شاكلتنا تماما ، وأنا أقدم ذلك المنصب إليك واستطيع ان اقول انه فى خلال سنة او سنتين سوف تصبح مديرا لمعهد ما كجورك

كان هولا بيرد مشرئباً كانسان يقدم خدمة حقيقية ، وكانت السيدة هولا بيرد

متحمسة كإنسان يحضر مناسبة تاريخية ، وكانت جويس مزهرة بالفخر والشرف الذى يسبغ على رجلها .

وتلعثم مارتن قائلا « لماذا ، لابد أن افكر فى ذلك من جديد .. شىء غير متوقع .. »

أخذ هولابيرد ينعم بباقى المساء وهو يتصور عهداً يسود فيه هو وتوبس ومارتن ينسقون ويديرون ويفيدون عالم الذكاء كله، من تصميم السراويل إلى الشعر، حتى أنه لم يمل صمت مارتن .

وعند الرحيل قال مبتهجاً : « فكر فى هذا الأمر مع جويس وأبلغنى غداً بقرارك، وعلى فكرة أعتقد أننا سواء نتخلص من بيرل ربينز . لقد كانت مفيدة ولكنها الآن تعتبر نفسها أنها لاغنى عنها. ولكن ذلك من قبيل التفاصيل . . .

أوه ، إننى أثق فيك يامارتن ياصديقى العزيز القديم . لقد كبرت واستهدأت نفساً ووسعت مجال نشاطك كثيراً هذا العام الذى مضى » !

وفى سيارتهما ، فى حجرتهما المتحركة المحاطة بالستائر تحت قبة الضوء البلورى، قالت جويس له :

« إنه رائع جداً يامارت ، وإننى أحس أن ريلتون يستطيع أن يحققها . فكر فى كونك مديراً ·· رئيساً لهذا المعهد الكبير العظيم الذى كنت فيه منذ بضعة سنوات شيئاً صغيراً هناك ! ولكن هل لم أساعد قليلا » ؟

وفجأة كره مارتن القطيفة الزرقاء والذهبية التى تكسو السيارة من الداخل وصندوق السجائر الذهبى ، وكل ذلك السجن الخانق الناعم ·· لقد أصبح يريد أن يكون فى الخارج إلى جوار السائق الغير مرئى — من نوعه ذاته ! — وهو يواجه الشتاء ·· وحاول أن يبدو كما لو كان يتأمل بطريقة وجلة يشوبها التقدير ، بيد أنه كان جباناً تقريباً ، ومتردداً بأن يبدأ الذبح ، ثم قال فى تؤدة :

« هل تودين حقاً أن ترينى مديراً » ؟

« طبعاً ! كل ذلك — أوه أنك تدرك إننى لا أعنى تماماً الظهور والاحترام ولكن القدرة على تحقيق الخير » .

« هل تودين أن ترينى أملى رسائلى وأحدد مقابلات واشترى مشمع لفرش الأرضية وأتناول الطعام مع البلهاء المختارين وأرشد الناس عن أعمالهم التى لا أعرف عنها أدنى شىء ؟ »

« أوه لا تكن متعالياً جداً هكذا . بعض الناس عليهم أن يؤدوا هذه الأشياء، وسوف يكون ذلك جزء قليل منها. فكر فى فرصة تشجيع شاب يود أن تتاح له الفرصة لإجراء على رائع »

« واترك فرصتى أنا نفسى ؟ »

« لماذا تتركها ؟ سوف تكون رئيس قسمك نفسه ، وحتى إذا تركتها — انك إنسان عنيد ٠٠٠ إنه مجرد نقص خيال . انت تعتقد أنه نظرا لأنك بدأت فى فرع صغير من النشاط الفكرى فليس هناك شىء فى العالم غير ذلك ، إنه بالضبط نفس الحال كما كان حين أغريتك بأنه إذا خرجت من معملك ذو الرائحة الخانقة مرة فى الأسبوع أو شىء مثل ذلك، وفعلا حولت طاقتك العقلية القوية إلى لعبة الجولف، فإن عالم العلوم لن يتوقف فوراً ! »

« لا مجال للوهم والخيال ! ٠٠٠ إنك باختصار مثل رجال الأعمال هؤلاء الذين تلعنهم دائماً لأنهم لا يستطيعون أن يروا فى العالم شيئاً سوى مصانعهم التى تنتج الصابون أو سوى مصارفهم .

« وكنت تودين فعلا ان أترك عملى » .

وأدرك أنها بكل نشوتها القلقة لم تدرك إطلاقا ماذا يرمى إليه ٠٠٠ لم تدرك كلمة عن الأثر القاتل الذى حققته الإدارة على جوتليب .

ران عليه الصمت من جديد ، وقبل أن يصلا إلى المنزل قالت :

« أنت تعرف أننى آخر إنسانة تتحدث عن المال ، ولكنك فى الواقع أنت

الذى تثير الموضوع بشأن كراهيتك الاعتماد على وأنت تدرك أنك بكونك مديراً سوف تحقق الكثير حتى ٠٠ سامحنى ! »

وهرعت أمامه إلى قصرها ، إلى المصعد الأتوماتيكى ، وظل هـــو يصعد السلم بصعوبة وهو يزمجر قائلا :

« نعم، إنها أول فرصة يجب أن أساهم فيها بالنفقات هنا .. بالتأكيد ! راغباً فى الحصول على أموالها دون أن أفعل أى شىء لقاء ذلك ثم أسمى ذلك تكريسا من أجل العلم ! .. أجل يجب أن أقرر الآن فوراً .. »

ولم يغرق فى خضم التصميم فقد اتخذ قراره دون حاجة إلى ذلك ، وسار إلى حجرة جويس وهو حانق من ضعتها ذات الطابع الفطن ، وقد كبح جماح نفسه من طريقتها البائسة التى كانت تجلس بها على حافة وسادتها ، ولكنه اندفع قائلا.

« إنى لن أقدم على ذلك العمل حتى ولو أدى إلى ترك المعهد ، وان هولابيرد على وشك أن يجعلنى أستقيل . إننى لن أقبر نفسى فى ذلك المنصب المزيف الطنان لإصدار الأوامر — و .. »

« إصغى يامارت ٠٠ ألا تريد أن يفخر بك طفلك »

« ها ٠٠ حسناً ٠٠ كلا ٠٠ حتى لو افتخر بى لأننى قميص محشو بشخص وهمى ٠٠٠ »

« من فضلك لا تكن سوقياً »

« ولم لا ؟ لم أكن فى الواقع حتى الآن سوقياً كما يجب ، إن ما يجب ان افعله هو أن أذهب على التو إلى استراحة (ملاذ الطيور) واعمل مع تيرى »

« إنى أود أن تكون لدى وسيلة ما لأريك بها — أوه، بصفتك عالماً لديك أعظم نقاط الغموض ! إننى أود لو كنت أستطيع أن أريك كم يكون ذلك ضعيفاً وعقيماً. الحياة البرية ! الحياة البسيطة ، نفس الجدل القديم ٠ ٠ إنه تماما ذلك الشىء اللعين الجبان الذى يجعل المتحذلقين المتعبين يهربون إلى بعض المستعمرات المجهولة

ويعتقدون أنهم لديهم القدرة على غزو الحياة بينما هم فى الواقع يتهربون منها ».

« لا ، إن تيرى له مكانه فى الريف فحسب لأنه يستطيع أن يعيش هنا حياة رخيصة ، وإذا كنا نحن — إذا كان هو يقدر عليها فإنه من الأرجح انه يقوى على الحياة فى المدينةمع الخدم وكل ذلك،مثل ما كجورك ولكن بدون المديرهولا بيرد يا إلهى ٠٠ وبدون المدير أروسميث ! »

« إن تيرى ويكت يمكن أن يكون مجرد مدير لعين سىء النشاط أنانى للغاية !»

« والآن ٠٠ بالله دعنى أبلغك ٠٠ »

« يا مارتن، هل تريدأن تؤكد حديثك بكلمة« بالله »فى كل جملة ٠٠أو إنه ليس فى كلماتك العلمية سوى تعبيرات اخرى قليلة ؟

« أجل ، لدى وفير من الكلمات لأعبر عن فكرة ٠٠ إننى أفكر فى اللحاق بتيرى . »

« انظر هنا يامارت ٠٠٠ إنك تشعر بأنك رجل مقدام عندما تفكر فى ان ترحل وترتدى قميصاً من الفانلة وتصبح غريبا وطاهراً جداً ٠٠جداً ٠٠ لوافترضنا إن كل إنسان فكر بهذه الطريقة ، لو فرض أن كل والد ترك أطفاله الصغار عندما تسول له نفسه ٠٠ ماذا يصبح العالم بعد ذلك ؟ لو فرض أننى فقيرة وتركتنى لكى أعول جون فإننى يجب ان اصبح غسالة ٠٠

« من المحتمل ان يكون ذلك بديعاً لك ، ولكن الغسيل صعب عليك ٠٠ كلا ! أستمحيك صفحاً ، فتلك ولاشك إجابة صريحة ٠٠ ولكننى أتصور أن هذا الجدل بعينه هو الذى منع كل إنسان تقريباً طوال هذه القرون جميعا من ان يكون شيئاً سوى أن يكون مجرد آلة للهضم والتكاثر والطاعة والإجابة. هى أن قليلا من الناس يقدم على العمل تحت اى ظرف من الظروف ، ويرغب فى طواعية أن يترك فراشاً وثيراً ناعماً إلى فراش خشن بسيط فى كوخ حتى يصير حراً نقياً ، كماتسمينه ذلك ،وأولئك هم أمثالنا من الرواد — أوه إن هذه المناظرة قد تستمر إلى الأبد — تستطيع أن تبرهنى إننى بطل أو أحمق أو هارب أى شىء تحبين ولكن الحقيقة

هى أننى رأيت فجأة أنه لابد لى أن أرحل ٠٠ أريد حريتى فى العمل ، وأنا أترك هنا ،وكلى أنين لـكى أحظى بحريتى ٠٠ لقد كنت كريمة بالنسبة لى وأنى اعترف بالجميل ، ولـكنك لم تـكونى أبداً لى . إلى اللقاء . »

« عزيزى ٠٠ عزيزى ٠٠ فلنتحدث مرة أخرى فى الصباح حيث لاتـكون ثائراً ٠٠ منذ ساعة كنت فخورة بك »

« وهو كذلك ٠٠ سعدت مساء »

ولـكنه قبل الصباح أخذ حقيبتين كبيرتين وحقيبة صغيرة ووضع فيها أقدم ثيابه وترك لها مذكرة رقيقة احتوت على أقسى وأشق ما كتب ، وقبل طفله وهو يقول :

« تعالى إلى عندما تـكبر أيها الرجل العجوز » . وذهب إلى فندق رخيص فى أحد الشوارع الجانبية وبينما كان متمددا فوق السرير الحديدى القديم أخذ يتأسى على حبهما . وقبل الظهر ذهب إلى المعهد وقدم استقالته وأخـــذ بعض أجهزته ومذكراته وكتبه وبعض الأشياء ، ورفض أن يرد على التليفون عندما طلبته جويس ولحق بالقطار المتجه إلى فيرمونت .

وتـكور على المقعد الأحمر فى عربة السفر العادية (ذلك الذى كان يركب منذ قليل سيارات خاصة مكسوة بالحرير من الداخل) وأخذ يبتهج فرحاً لأنه لن يعد يتعب نفسه فى الولائم .

واتجه إلى « ملاذ الطيور » ، وكان تيرى يقطع الخشب وسط الجليد .

« هالو تيرى ٠٠ لقد أتيت لأقيم معك » .

« حسنا يا زميلى ، أقول ..إن كـثيراً من الأطبـاق فى الـكوخ فى حاجة إلى الغسيل . »

— ٢ —

ولقد تنعم . . . أما أن يرتدى ملابسه فى كوخ بارد ويغسل فى مياه مثلجة فهو الألم الممض ، وأن يمشى على قدميه لمدة ثلاثة ساعات وسط الجليد فهو شىء مرهق له ، ولكن البهجة فى أن تتاح له الفرص ليعمل أربعة وعشرين ساعة دون أن يترك التجربة فى لحظتها الحاسمة ليعود إلى المنزل لتناول الطعام . وأن استغراقه فى الحديث مع تيرى حديثاً سرياً كعلم اللاهوت وعنيفاً كسخط السكير كان يروق له وشعر بنفسه وكأنه أصبح قوياً . وغالبا ما فكر فى الاستسلام لجويس إلى حد أن يسمح لها أن تشيد لهامعملا أفضل ومساكن أكثر تمديناً ، بها غلام واحد أو إثنان على الأكثر ومجرد حمام صغير لطيف .

وكتبت له تقول :

« لقد كنت متوحشاً للغاية وإن أية محاولة الآن للصلح ، إذا كان ذلك من الممكن الآن — وهو شىء أشك فيه يجب أن تأتى من جانبك » .

فرد عليها برسالة يصف فيها غابات الشتاء المدوية دون أن يذكر لها شيئاً عن تلك الكلمة الخطابية ، عن الصلح ،

— ٣ —

كانا يريدان أن يتوسعا فى دراسة الدورة الآلية الدقيقة لتأثير مشتقاتهم الكينينية . كان ذلك من الصعب مع استخدام الفئران التى توصل تيرى إلى استخدامها بدلاً من القرود . وذلك بسبب حجمها . وأحضر مارتن معه سوائل منوعة من باسيلات ليبسبتيكوس التى تسبب الالتهاب البللورى فى الأرانب ، وكانت أولى مهامها هو اكتشاف ما إذا كان هذا المركب الأصيل له فاعلية ضد هذه الباسيلات وضد جراثيم الالتهاب ، واكتشفا أنه ليس له فاعلية ، وفى إصرار استغرقا فى بحث معقد لا نهاية له عن مركب له فاعلية .

وكان يتكسبان قوت يومهما بتحضير الأمصال التى كانا يبيعانها للأطباء الذين

يثقان فى أمانتهما ويرفضان أن يبيعا لتجار الأدوية العاديين ، وهم بذلك يتقاضون مبالغ ضخمة من النقود ، وكان الاعتقاد سائداً بين المهرة من الناس انهما فطنان وخجولان للغاية حتى أنهما لا يألفان أحداً .

كان مارتن قلقاً عما كان يعتبره خيانة لـكليف كلوسون وهجره لجويس وجون بيد أن ذلك القلق كان يأتيه فحسب عندما يأرق . وكان بصفة منتظمة ،فى كل يوم فى الصباح الباكر،فى الساعة الثالثة،يتذكر جويس وكليف الأمين ويستعيدهما فى ذكراه إلى « ملاذ الطيور » ثم ينساهما بصفة منتظمة عندما يقلى لحم الخنزير فى الساعة السادسة صباحاً .

وصار تيرى الهمجى ــ بعد أن تخلص من تـكلف ومخالب هولا بيرد ــ صار رفيق رحلة بسيط ، وكان السرير العلوى أو السفلى لديه سواء ؛ ولما كان مارتن لا يزال يعانى من البرد والتعب فإن تيرى كان يقوم بأكثر من حصته فى قطع الأخشاب وإعـــداد الشراب ، وفى كثير من المرح والهناء والمهارة . كان يقوم بغسل ملابسهما .

كانت لديه العبقرية أن يشهد ويرى أنهما الاثنان وحدهما وقد أغلقا على نفسيهما معاً الأتصال بالعالم فصلا بعد فصل ، يمكن أن يتشاجرا . وقد رسم خطته مع مارتن بأن مشروع المعمل يمكن أن يتسع لثمانية (ولـكن ليس أكثر من ذلك) باحثين أقوياء وغير مرتبطين بأهل،ويساهمون فى نفقات المعسكر بصناعة الأمصال،وعدا ذلك يقومون بعملهم المستقل ، سواء أكان ذلك بناء الذرة أو نقض نتائج أبحاث الدكاترة ويكت وأروسميث . . ولسوف يصل اثنان من الثوار ، كيائى بإحدى شركات الأدوية ، وأستاذ فى الجامعة فى الخريف المقبل .

وقال تيرى مزمجراً : « أنه لون من اللجوء البائس إلى الأديرة ، سوى أننا لا نحاول أن نحل أى شىء لأى انسان إلا أنفسنا الحقى . وعندما يصير هذا المـكان حرماً مقدساً ويزحف إليه جماعة من الناس غير المؤمنين . . عندئذ . . أنا وانت سوف نترك ذلك المـكان يازميلى ، ثم ننتقل ونتوغل إلى داخل الغابة . أو إذا

صرنا مسنين حتى لا نقدر على ذلك فسنأخذ مقعداً للأستاذية فى إحدى الجامعات أو عند دوسون هنزيكر أو حتى لدى المحترم دكتور هولا بيرد . »

ولأول مرة بدأ عمل مارتن يتفوق على عمل تيرى .

كانت مسائله الرياضية وكيمياؤه الطبيعية جيدة كتيرى ، وكان عدم مبالاته بالشهرة ، والزخارف السطحية كرجل عظيم ، ودأبه المتعصب ، وبراعته فى اختراع أجهزة جديدة وحدة خياله لا تقل عن تيرى فى شىء .. كان يحيا أقل يسراً لكنه أوفى رغبة وعاطفة .. كان يقذف بالافتراضات العلمية كومضات البرق ، وبدأ على نحو لا يصدق يتفهم ويدرك حريته .

وهو مع ذلك فسوف يحدد الخصائص الجوهرية للتطعيم ، حيث أنه قد صار أكثر قوة وثقة بنفسه ـ وأقل إنسانية دون ريب ـ ورأى أمامه إستفسارات لا حصر لها فى مجال الكيمياء الطبيعية والحصانة ، وهى مغامرات كفيلة بأن تجعله يظل مشغولا عشرات السنين .

وشعر أن ذلك أول ربيع شاهده وأحس به وتعلم الغطس فى البحيرة رغم أن أول غطسة كانت مؤلمة للغاية لفرط ثلوجة المـاء . . . وكانا يخرجان لصيد الأسماك قبل تناول الإفطار ، كما كانا يتناولان عشاؤهما على مائدة تحت شجرة البلوط ، ويسيران عشرين ميلا ، وكان جيرانهما المهتمون بهم ، العقيق الأزرق والسنجاب . وعندما كانا يعملان طوال الليل كانا يخرجان ليشهدا بزوغ الفجر محلقاً فوق البحيرة الهاجعة .

وشعر مارتن بأنه قد تشرب بأشعة الشمس وأصبح شجاعاً ، وكان يدن فى ابتهاج دائماً .

وفى ذات يوم ألقى نظرة من تحت نظارته ذات الحافة العظيمة المتوسطة العمر ليرى سيارة ضخمة تهدر فوق طريق غابتهم ، وقد قفزت من السيارة جويس فى حليها الجميلة الغالية .

وأراد أن يهرب من البـاب الخلفى للمعمـل ، ولـكنـه اقترب فى تردد ليقابلها .

فقالت : « إنه حقاً مكان لطيف » ، ثم قبلته برقة وقالت : « هيا بنا نسير بجوار البحيرة » .

وفى مكان ساكن يحف به خرير الماء وفروع أغصان أشجار البتولا ثارت نفسه واقترب ليمسك بكتفها .

فصاحت قائلة : « عزيزى لقد افتقدتك ... لقد أسأت فهم أمور كثيرة ، ولـكنك أحسنت فى هذا ـ يجب أن تعمل دون أن يزعجك السفهاء من البشر. ما رأيك فى مجوهراتى ؟ ألا ترى أنها رائعة ؟ ... انك كما ترى أننى حضرت لأقيم هنا ، وسوف أقيم منزلا بالقرب من هذا المـكان ، ربما يكون عبر البحيرة.. أجل إن هذا مكان رائع ... هناك فى أعلى تلك الهضبة الصغيرة ، لو أننى أستطيع الحصول على الأرض فربمـا يـكون أحد الفلاحين الجامدين يمتلـكها . . . ألا يمـكن أن نتمثله منزلا منخفضاً واسعاً به عـدد كبير من الشرفات والمظلات الحمراء .

« وهل يأتينا زوار ؟ »

« أحسب ذلك ، أحياناً ، لمـاذا »

فقال قانطاً : « چويس ، إننى أحبك وفى حاجة ماسة الآن إلى أن أقبلك كما ينبغى ، بيد إننى لن أسمح بأن تحضرى كثيراً من الناس ، وربما تفد أيضاً بعض السيارات المزعجة فتجعل معملنا مجالا للهزل ... طريق المنزل .. إحساس جديد لماذا ... إن تيرى سوف يجن جنونه ! .. إنك لطيفة وفى حاجة إلى رفيق لهو وأنا أريد أن أعمل وأخشى أنك لا تستطيعين البقاء .. كلا » .

« ويترك طفلنا بدون رعايتك ؟ »

« إنه ـ هل سأرعاه إذا مت ؟ .. إنه طفل لطيف وأتمنى ألا يصبح رجلا ثريا .. ربما بعد عشرة أعوام إعتباراً من الآن سوف يحضر إلى هنا » .

« ويعيش بهذه الطريقة ؟ »

« قطعاً . . إذا لم أفارق الحياة ـ وعندئذ لن يعيش حياة مترفة . . إننا نتناول لحوماً كل يوم الآن ! »

« إننى أرى وأعتقد أن صديقك تيرى ويكت سوف يتزوج خادمة أو ريفية بلهاء بصورة غير معقولة ؟ ووفقاً لما سمعته منك فهو يفكر فى فتاة من هذا النوع ! »

« أجل ... إننا ، هــو وأنا ، سنتغلب عليها سوياً وإلا فسوف يكون ذلك هو الشىء الوحيد الذى يمكنه أن يقهرنى . »

« يا مارتن ، ألا يكون من المحتمل أن بك لوثة بعض الشىء » .

« أوه تماماً .. وكيف أستمتع بالحياة بالرغم من أنك ـ إصغى إلى يا جوى ! إننا مجانين ، ولكن لسنا متقلبين ، فقد وفد إلينا أمس أحد أدعياء الطب ، لأنه اعتقد أن تلك مستعمرة حرة ، وسار تيرى معه عشرون ميلا ثم احسب أنه القى به فى البحيرة . كلا يا إلهى دعينى افكر » .

ثم حك ذقنه وقال « لا اعتقد اننا مجانين . أننا فلاحين » .

« يامارتن إنه انحراف شديد جداً أن أراك تصبح متعصباً ، وإنك لتحاول جهدك أن تتخلص من كونك متعصباً . لقد فقدت الاتزان . . . وإننى لأزن الأمور . إننى لا زلت أعتقد فى الاستجمام ! ... إلى اللقاء ! »

« الآن أصغى إلى ياإلهى — »

ومضت رزينة منتصرة .

وبينما كان السائق يحاول أن يشق طريقه وسط جذوع الأشجار نظرت جويس لحظة من السيارة إلى خارجها وقد حملق كل منهما فى الآخر والدموع تشرف من عيونهما . . . لم يكونا فى حياتهما من قبل غاية فى الصراحة مثل الآن ، كما لم يكونا عطوفين مثلما كانا فى هذه النظرة التى أعادت إلى ذكراتهما كل حركة وكل نادرة فى ماضيهما وكل رقة وكل ليلة مقمرة أمضياها سوياً .

ولـكن السيارة أسرعت دون توقف، وتذكر أنه كان يجرى تجربة .

— ٤ —

فى ذات مساء من أمسيات شهر مايو كان رجل الـكونجرس آلوس بيـكربو يتناول العشاء مع رئيس الولايات المتحدة الأمريـكية ، وعندما انتهت الحفلة قال الرئيس :

« يا دكتور نتمنى أن نراك عضواً بمجلس الوزراء ووزيرا أول لشئون الصحة وتحسين النسل فى البلاد ! »

وفى ذلك المساء كان الدكتورر يلتون هولا بيرد يتحدث فى اجتماع المفـكرين المحتفين بهم والذين دعتهم هيئة اللجان الثقافية ، وكان من بين الأفراد المشهورين على المنصة الدكتور أرون شولتيس المدير الجديد لمعهدهما بجورك ودكتور أنجوس ديور رئيس قسم ديور الصحى وأستاذ علم الجراحة فى كلية طب فورت ديربورن .

وأذيع خطاب الدكتور هولا بيرد التاريخى بالمذياع على ملايين من عشاق العلم الذين كانوا يصغون فى شغف واهتمام .

وفى ذلك المساء كان برت توزر الذى يقيم فى هويت سلفانا شمال داكوتا يحضر صلاة نصف الأسبوع وكانت عربته البويك تنتظره فى الخارج .

وفى رضى متواضع سمع القسيس يقول :

« يقول الرب . . . أن الفضلاء وحتى أبناء النور سوف يـكافئون مـكافأة عظيمة . . سوف تسير أقدامهم على السعادة ولـكن الخبثاء أبناء الظلام سوف يذبحون ويلقون فى غياهب الظلمات والفشل، وهناك فى خضم الأسواق ينسون » .

فى ذلك المساء جلس ماكس جوتليب وحده دون حركة فى حجرة صغيرة مظلمة فى شارع المدينة المـكتظ وكانت عيناه يقظتين فحسب .

وفى ذلك المساء كان النسيم الحـــار يلفح سعاف النخيل حيث اختفى رماد جوستاف سوندليوس وكان ثمة انخفاض فى إحدى الحدائق بجوار مقبرة لورا.

فى ذلك المساء بعد عشاء مرح غير عادى مع لاثام ايرلاند قالت جويس : « أجل إذا طلقته فإننى قد أتزوج منك . . . إننى أعرف أنه لن يدرك أبداً كم هى صلافة أن يفكر فى أنه الإنسان الوحيد على وجه الأرض الذى لا يجانبه الصواب قط ! »

فى ذلك المساء استقل مارتن أروسميث وتيرى ويكت قارباً ردىء الصنع غير مريح وسارا به بعيداً فوق سطح الماء .

وقال مارتن : « إننى أشعر وكأننى أبداً بحق فى العمل . . ان هذه المادة الكينينية قد تثبت نجاحها وفاعليتها . . سوف نزاول عملنا فيها عامين أو ثلاثة وربما نحصل على شىء ثابت — وربما نفشل ! »

﴿ تمت ﴾

الإشراف اللغوى: حسام عبد العزيز
الإشراف الفنـــى: حســن كامـــل

سنْكلير لُويس، (1885-1951)

الكاتب الأمريكي الأول الذي فاز بجائزة نوبل للأدب عام 1930م، كما حاز شهرة دولية لرواياته التي تهاجم أشكال الضعف التي رآها في المجتمع الأمريكي. وُلد هاري سنكلير لويس في 7 فبراير 1885م، في سوك سنتر، بولاية مينيسوتا. تخرج لويس في جامعة ييل عام 1908م. وعندما كان يعمل صحفياً، نشر عام 1914م، روايته الأولى صاحبنا السيد رن. جاء الكتاب سرداً ساخراً بصورة لطيفة عن موظف نيويورك الوديع، الذي كان في رحلة في أوروبا.

أروسميث (1925)

رواية تصف خيبة أمل طبيب شاب مثالي في صراعه مع الفساد والحسد وحب الذات والأذى. فازت الرواية بجائزة بوليتزر لعام 1926م، التي ردّها لويس، ربما لأنه شعر أنه كان من الواجب أن يتلقى الجائزة قبل ذلك.

لوحة الغلاف: راندولفي ماكيفر
تصميم الغلاف: نسرين كشك

Bibliotheca Alexandrina
0750268